ليوتاكسل

التورات كتاب مقدس !

ترجمة
د. حسان ميخائيل اسحاق

ليوتاكسيل

التورات
كتاب مقدّس أم
جمع من الأساطير؟

ترجمة:

د. حسّان مخائيل اسحق

الفصل الأول

خلق العالم والانسان

لقد كان الله موجوداً في كل زمان. وفي بداية الأزمنة، كان وحده لم يكن في العـــالم غيره؛ بل لم يكن ثمة "عالم" أصلاً. وفي ذلك الزمان كان الاله يسمى "ألوهيم" هكذا يعظمه نصّ كتاب التكوين[1] اليهودي القديم. والمعنى الحرفي لكلمة "ألوهيم" هو، "آلهة" وإنه لمن الغريب حقاً أن تسمي التورات سيّداً واحداً بهذا الاسم.

أما "ألوهيم" هذا، فهو، "يهوه" و "ربّ الجنود" و "ادوناي"،[2] كما تسميه التورات في أماكن مختلفة. وكان قد أحسّ مللاً قاتلاً في خرابه الكوني. وأطلقت التورات على هذا الخراب الكوني اسم "توغو بوغو"[3] وهو تعبير معناه بتصرف، "لاقاع ولاسقف".

وبما أن الأزل يمتد امتداداً لا نهائياً، فاننا نعتقد أن ملل "ألوهيم" امتد ملايين، لا بل مليارات القرون. ولكن فكرة لمعت في ذهنه، فبما أنه هو الله الكلي القدرة، إذاً، لماذا يضني نفسه مللاً وسآمة، لماذا لا يفعل شيئاً ما. وهكذا قرار العـــجوز يهوه أن يطلق قدراته الابداعية.

غني عن القول، إن يهوه كان يستطيع خلق كل شيء دفعة واحدة، بيد أنه قرر ألاّ يتعجّل الأمور، "فلكّل خضرة أوانها". في البداية خلق السماء والأرض. والأدق أن نقول: إن المادة ظهرت تلقائياً فور اعلانه ارادته بذلك. وكانت تلك المادة عديمة الشكل، خالية ، "بغير قاع وسقف" غارقة في المياه، "وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرفّ[٤] على وجه المياه" (تكوين ١ ، ٢).

بعدئذ التفت يهوه ليخلق السماء!! نعم السماء مرة ثانية![٥] وتصف التورات هذه العملية كما يلي: "فعمل الله الجلد وفصل بين المياه، التي تحت الجلد، والمياه التي فوق الجلد. ودعا الله الجلد سماء. وكان مساء، وكان صباح، يوماً ثانياً" (تكوين ١ ، ٧ - ٨).

إن قصة المياه التي "تحت" الجلد والمياه التي "فوقه"، تعكس الضلال الفظ الذي عرفت به الشعوب البدائية كلها. فحسب التصورات القديمة، أن السماء عبارة عن جسم كثيف صلب، ومن هنا جاءت تسميتها با "الجلد"، أي القساوة، اليابسة. واعتقدوا أيضاً. أن تجمعاً مائياً هائلاً يقوم خلف ذلك الجلد، الذي تشكل السماء قاعه. وإذا كان كل قارئ يعرف اليوم أن المطر ما هو إلا الماء المتبخر من الارض؛ فقد اعتقدوا في زمن ما، أن المطر هو الماء الذي ينساب من التجمع المائي العلوي، عبر فتحات صممت لهذا الغرض بالذات، لكن هذا الرأي الذي يثير السخرية اليوم، صمد طويلا جداً في أذهان الناس. ففي القرون المسيحية الأولى، أقره علماء اللاهوت كلهم[٦].

لنمض معاً. في اليوم الثالث كانت ثمار عمل الله أكثر قيمة من نتائج عمله في اليومين السابقين. فلما جاب نظره المياه السفلى، قال لنفسه: إنه من الافضل أن تجمع هذه المياه في أمكنة خاصة بها، كي تتمكن اجزاء

اليابسة من الظهور. فتجمعت المياه صاغرة، في قيعان تشكلت في اللحظة نفسها. كما تشكلت في الآن عينه، اليابسة، وبرزت المرتفعات، التي انحدرت منها المياه على شكل جداول وانهار، سارت إلى البحار والبحيرات..

"ودعا الله اليابسة أرضاً، ومجتمع المياه بحاراً، ورأى الله ذلك أنه حسن" (تكوين ١ ، ١٠).

يجدر بنا أن نلفت انتباه القارئ الكريم، إلى أن الجد يهوه لا يزال راضياً عن نتائج عمله. وقد يكون اطلق صيحة اعجاب، في كل مرة قائلا: كيف لم أفطن إلى هذا كله من قبل....

في هذا اليوم نفسه، كان يهوه سعيداً سعادة خاصة بيابسته وبحاره، لدرجة أنه رغب في خلق شيء ما آخر، قبل هبوط الليل. إذاً، "لتنبت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً، وشجراً ذا ثمر يعمل ثمراً كجنسه، بزره فيه على الأرض. وكان ذلك (تكوين ١ ، ١١)..

والحقيقة أننا عاجزون عن وصف دهشتنا حيال حكمة يهوه! تخيل مثلاً، لو أنه زرع الأرض شجراً مثمراً يطرح ثمراً من غير جنسه، فما الذي كان سيحل بالأرض؟ فلنشكر الله لانه لم يزرع اشجار تفاح تثمر برتقالاً، أو اشجار برتقال تثمر اجاصاً، أو اشجار اجاص تثمر عنب الثعلب. إذاً لكان اختلط الحابل بالنابل..

والآن، بعد أن خضعت له الأرض، وتعالى شجر التفاح واثمر تفاحاً، رأى يهوه مرة أخرى "أن هذا حسن، وكان مساء، وكان صباح: يوماً ثالثاً" (تكوين ١ ، ١٢ ـ ١٣).

بيد أنه ثمة أمر غريب آخر، فبفضل توزيع النور بصورة دقيقة، مرت ثلاثة أيام بصباحاتها ولياليها. وكان ذلك النور يترك مكانه لظلمات الليل، بعد أن يكون قد اضاء ذاك العـالم الوليد طيلة النهار، دون أن يكون له مصدر مرئي، فليس هناك كلام عن الشمس حتى الآن، أي أنها لم تكن قد خلقت بعد. لكن هذا الشيء استحق نصاً طويلاً في التورات هاكموه: "وقال يهوه: لتكن أنوار في جلد السماء (لتضيء الأرض، و) لتفصل بين الليل والنهار. وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين. وتكون أنواراً في جلد السماء لتنير الأرض. وكان كذلك. فعمل يهوه النورين العـظيمين: النور الأكبر لحكم النهار، والنور الأصغر لحكم الليل، والنجوم. وجعلها الله في جلد السماء لتنير على الأرض، ولتحكم على النهار والليل، ولتفصل بين النور والظلمة، ورأى يهوه ذلك أنه حسن. وكان مساء، وكان صباح: يوماً رابعاً" (تكوين ١ ، ١٤ ـ ١٩).

وهذا كله حقيقة صافية لا غش فيها، أليس كذلك؟ فالحديث هنا عن الشمس والقمر. إذاً وحسب التوارت، إن العـدان انقسم إلى ليل ونهار، قبل ظهور الشمس، التي لم "يخلقها" يهوه إلاّ في اليوم الرابع بعد ظهور العالم.

والحقيقة أنني لا أعرف ما الذي حدا "بالروح القدس" لان يلقن موسى مثل هذه الخرافات عن الشمس والنور؟ ولكن تخيل قارئي الكريم، أنه حتى نهاية القرن الميلادي السابع عشر، كان العلماء يعتقدون أن الشمس ليست مصدر الضوء، بل هي "تمرره" عبرها وحسب؛ أما الضوء، فهو موجود بذاته. وحتى رينيه ديكارت نفسه(٧) كان من انصار هذا الضلال..

واستمرت الحال هكذا حتى جاء الفلكي الدانماركي أولاف ريمر

(١٦٤٤ ـ ١٧١٠)، الذي يدين العـلم له باكتشاف حقيقة هامة جداً ناقضت تعاليم التوراة مناقضة تامة؛ وهي، أن الضوء الساقط فوق عالمنا مصدره الشمس، وهو لا ينتشر دفعة واحدة.. ثم حدد هذا العـالم سرعة الضوء ـ وهو ما ثبتت صحته غير مرة ـ مبيناً أنه يصل من الشمس إلى الأرض في ثمان دقائق وثمان عشرة ثانية، أي أن سرعته حوالي ثلاث مائة ألف كيلومتر في الثانية. وقد توصل ريمر إلى اكتشافه هذا عن طريق مراقبة هبوط الظلام فوق الاقمار التابعة لكوكب المشتري. كان ريمر يقيم عندئذ في فرنسا، فكتب بحثاً عن اكتشافاته وقدمه في اكاديمية باريس، في الثاني والعشرين من تشرين الثاني عام ١٦٧٥ .

أما كاتب سطور التورات، فقد كان فريسة الجهل التام بشؤون الفلك، ولكن هذا لا يعفي يهوه من مسؤولياته، كان عليه أن يعرف كل شيء عندما كتبت التورات.

وما يلفت النظر، أن التورات أعطت النجوم دوراً هزيلاً في عملية الخلق: "نجمان كبيران" هما، الشمس والقمر، القمر، وهو تابع هزيل للارض! بيد أن هذا الكاتب الجاهل لم يكن يعلم أن القمر والأرض، وحتى الشمس، لا تعني إلا القليل في بناء الكون! فحتى شمسنا الباهرة الضياء، التي تعد الضوء الرئيس لعالمنا الشمسي، ليست أكثر من نجم متواضع، إنها واحدة من عشرات مليارات النجوم، التي تتألف مِنها منظومة النجوم العظيمة، مجرتنا. أمّا المؤلف "المقدس"، فلا يرى سوى الأرض، ويربط كل شيء بها. لكن الأرض ليست سوى واحد من الكواكب. وهي تدور حول كوكب صغير نسبياً، هو الشمس، التي تكبر الأرض بـ ٣٠٠٠٠٠ مرة، ومع ذلك يضعها مؤلف كتاب التكوين تبعاً لجهله، في تبعية تابعتها، أي الأرض..

لا ريب أنه لو قدر لمؤلف الهراء التوراتي أن يعود إلى الحياة اليوم، لصعق لدى قراءاته أي كتاب شعبي في علم الفلك، أو زيارته لاي مركز فلكي، حيث يستطيع أن يراقب من هناك جبال القمر، وبقع الشمس، والاقمار التابعة لكوكب المشتري، والاجرام السماوية الأخرى، التي زعم أن يهوه "وضعها في الجلد السماوي"..

ولكن لنعد إلى التورات: "وقال يهوه: لتفض المياه زحافات ذات نفس حية، وليطر طير فوق الأرض، على وجه جلد السماء، فخلق يهوه التنانين العظام وكل ذوات الا نفس الحية الدبابة التي فاضت بها المياه كاجناسها، وكل طائر ذي جناح كجنسه، ورأى يهوه ذلك أنه حسن، وباركها يهوه قائلاً: اثمري واكثري واملئي المياه في البحار. وليكثر الطير على الأرض. وكان مساء، وكان صباح، يوماً خامساً.

وقال الله: لتخرج ذوات انفس حية كجنسها. بهائم ودبابات ووحوش أرض كاجناسها، وكان كذلك. فعمل الله وحوش الأرض كاجناسها، والبهائم كاجناسها وجميع دبابات الأرض كاجناسها. ورأى الله ذلك أنه حسن" (تكون ١ ، ٢٠ ـ ٢٥)..

أليس هذا رائعاً حقاً! وفرك يهوه الكلي القدرة يديه سروراً. ولكن عملاً آخر أكثر متعة، كان بانتظاره. فقد نظر إلى مخلوقاته كلها وتساءل قائلاً لنفسه:

ـ لكن أحداً من هذه الحيوانات كلها لا يشبهني. أنه لامر مؤسف حقاً! فأنا أملك رأساً جميلاً، واذنين غير كبيرتين، ونظرة حيّة، وانفاً مستقيماً، واسناناً رائعة، والحقيقة أنني أستطيع أن أصنع مرآة أرى نفسي فيها، ولكنني أعتقد أنه من الأفضل أن أرى نفسي إذا تخيلت شبيهاً آخر بي، حسن! يجب أن يكون في الأرض حيوان يشبهني..

وبينما شيخنا مستغرق في هذه المحاكمة الذهنية، كانت زمرة من القردة، التي خلقها لتوه، "تتشقلب" عند قدميه، فنظر إليها وقال في نفسه:
- إن في مخلوقاتي هذه ما يشبهني. ولكن ليس هذا هو المطلوب. فلكل من هذه القردة ذيل لا أحمل مثله. والحقيقة أن بينها من لا يحمل ذيلاً، ولكن.... ليس هذا هو المطلوب!

ثم أخذ يهوه قبضة تراب رطب، وشرع يصنع منها انساناً، ولكن هل يستقيم بعد هذا، قولنا: أن الله روح فقط، وليس له يدان؟

وتقول التورات أيضاً، إن يهوه بعد أن صنع الانسان "نفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفساً حية" (لتكوين ٢١ ، ٧)..

ونقع في الاصحاح الأول من سفر التكوين (سطر ٢٧)، على نقطة مبهمة يخيل إلينا أنها تجيز لنا أن نستنتج أن الله خلق الانسان في البداية، جنسين في واحد، ولم يعدل هذا الوضع إلاّ في وقت لاحق. فالمسألة المتعلقة بالمرأة لم تظهر إلاّ في نهاية الاصحاح الثاني، أما السطر السابع والعشرون من الاصحاح الأول، فيقول: "فخلق الله الانسان على صورته. خلقه ذكراً وأنثى، على صورة الله خلقه"[٨]. هذه هي الترجمة الحرفية للنص العبري لهذا السطر، الذي اعطى الدافع لانتشار خرافة الآلهة الثنائية الجنس. ومن جهة أخرى، كان هذا النص يتعرض للتحريف في كل مرة، على يد المترجمين المسيحيين ذوي النوايا الحسنة، ويعود سبب ذلك إلى غموضه بالذات..

بيد أنه من الخطأ تماماً، اعطاء هذا التخيل التوراتي أهمية كبيرة، وتنطوي التوارت على نصوص أخرى لا تحتاج أي فهم، بل قل إنها عصية على كل فهم. لذلك نرى، أنه حري بنا أن نلتفت إلى ما يعترف به جميعهم.

لقد خلق الله الانسان وأعلنه تاج الخلق. وفي اللحظة التي خلقه فيها دعاه ليرى الحيوانات كلها. "وجبل الله من الأرض كل حيوانات البرية، وكل طيور السماء، واحضرها إلى الانسان ليرى ماذا يدعوها، وكل ما دعا به الانسان ذات نفس حية، فهو اسمها" (تكوين ٢ ، ١٩).

لاريب أنه كان استعراضاً مسلياً. وانني لعلى يقين من أن أي عالم طبيعيات لم يكن ليجرؤ أن يأخذ مكان آدم في تلك الساعة.

وقال الله لآدم: "املؤوا الأرض، واخضعوها، وتسلطوا على سمك البحر، وعلى طير السماء، وعلى كل حيوان يدب على الأرض" (تكوين ١ ، ٢٨).

ولكن ما يعرفه الجميع، أنه على الضد من ارادة يهوه هذه، فقد أُرغم "ملك الطبيعة"، الانسان، ان يقاتل قتالاً مريراً ضد الأسود، والنمور، والدببة، والتماسيح والذئاب وما شابه، ولم يكن النجاح حليفه دوماً؛ بل ولم يغد الانسان فريسة للكواسر وحدها، فقد كانت الانسانية كلها فريسة لكثير من الطفيليات: البراغيث القمل، البق والأمراض التي تسببها الميكروبات.

أضف إلى هذا، أن الله الذي خلق الكواسر تحب "بفتيك" اللحم البشري، أمر الانسان أن يكون نباتياً. فالتورات تقول في هذا السياق: "وقال الله: إني أعطيتكم كل بقلٍ يبزر بزراً على وجه كل الأرض، وكل شجر فيه ثمر شجر يبزر بزراً. لكم يكون طعاماً" (تكوين ١ ، ٢٩).

ونحن بدورنا نرجو القارئ الكريم أن يحتفظ في ذاكرته، بسمة غذاء الناس الاوائل هذه.

وفي اليوم السادس أصبح كل شيء معداً، أو تقريباً معداً، وكان يهوه راضياً سعيداً، فقرر أن يمنح نفسه يوماً يرتاح فيه. تقول التورات: "وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل. فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل" (تكوين ٢ ، ٢)..

لنتابع قارئي الكريم، قراءة التورات: "وغرس يهوه جنة في عدن شرقاً، ووضع هناك آدم الذي جبله... وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة؛ ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس. اسم الواحد فيشون، وهو المحيط بجميع أرض الحويلة، حيث الذهب؛ وذهب تلك الأرض جيد، هناك المقل وحجر الجزع. واسم النهر الثاني جيحون، وهو الميحط بجميع أرض كوش. واسم النهر الثالث حداقل (دجلة)، وهو الجاري شرقي آشور، والنهر الرابع الفرات" (تكوين ٢ ، ٨ ، ١٠ ـ ١٤)..

بهذه التفاصيل، اراد المؤلف رسم حدود المكان الذي تقع فيه الجنة الارضية، رسماً دقيقاً، ولكن حبذا لو لم يقل شيئاً بهذا الصدد قط، لأنه من الصعب أن تجد من يضع نفسه في موقع أكثر غباء من هذا الموقع. فالباحثون يعترفون كلهم، بأن نهر فيشون هو، نهر فاز، الذي دعي فيما بعد باسم أراكس. ويقع هذا النهر في أرمينيا، وهو ينبع من منطقة هي من أكثر مناطق القفقاس وعورة، وإذا افترضنا جدلاً، أن تلك المنطقة تحتوي على الذهب وحجر الجزع، فإن أحداً لا يعرف ما هو "المقل"[٩]

من جهة أخرى، لا يمكن أن يكون ثمة خطأ بصدد نهري دجلة والفرات. وبناء على ذلك يتضح، أن التورات تحدد موقع الجنة الأرضية في مكان ما، يقع بين أرمينيا وبلاد الرافدين. ومع أن منابع أراكس ودجلة والفرات ليست بعيدة عن بعضها، إلا أن لكل منها منبعه المستقل. فاراكس،

وهو أكبر روافد نهر كورا، ينبع من بينغيل - داغ (في تركيا)، ويسير حتى بحر قزوين، أما دجلة والفرات، فالأمر لا يقتصر على أن لكل منهما منبعه المستقل، بل إنهما يلتقيان معاً قبل أن يصبا في الخليج العربي.

أما فيما يتصل بالنهر الذي يدعوه سفر التكوين جيحون، فإن خطأ المؤلف "المقدس" يعتبر خيالياً، فحسب السفر المذكور، إن هذا النهر "يحيط بجميع أرض كوش" (حوش). ولكن أرض حوش (وهو ابن حام ووالد نمرود)، هي حسب التورات، اثيوبيا بعينها. أي أن نهر جيحون هو النيل، الذي من المعروف أنه يجري في افريقيا، وفي اتجاه معاكس للاتجاه الذي يجري فيه دجلة والفرات، أي من الجنوب إلى الشمال، وإذا أخذنا نقطة انبثاقة في افريقيا الاستوائية، من منطقة بحيرة فيكتوريا، فإن المسافة، التي تفصل هذه النقطة عن المنطقة، التي تقع فيها منابع الانهار الثلاثة الأولى، هي ثلاثة آلاف كيلومتر. أما سفر التكوين، فيعلن أن الأنهار الأربعة تروي بستاناً واحداًهو، جنة عدن. والحقيقة أن المسافة بين منبعي دجلة والفرات ليست أكثر من مائة كيلو متر، ومع ذلك فإنها مسافة كبيرة لري بستان واحد. ولكن، ما هو هذا البستان المترامي الاطراف، الذي يحتوي على جبال ومنحدرات عظيمة تقع في أكثر بقاع الأرض وعورة؟

فلنعد ذهنياً إلى ذلك البستان العجيب، الذي تنطلق منه أربعة أنهار من منبع واحد، لتحمل مياهها في اتجاهات مختلفة. وها هو أبونا آدم يتنزه في اقطاعته غارقاً في لذة البطالة. وربما كان يقول لنفسه: أنا انسان، وادعى آدم، واعتقد أن اسمي يعني "الارض الحمراء"[١٠]، لأنني صنعت من الطين، كأي آنية عادية. كم لي من العمر؟ لقد ولدت منذ أيام قليلة، ولكن المثل القديم يقول: أن مظهر الرجل هو الذي يحدد سنه، وعليه استطيع

القول، أنني ولدت ولي من العمر ٢٨ عاماً، اسناني كلها في فمي، ...آ، كلا، ما زال ينقصني ضرس العقل. بنيتي لا باس بها، وكيف لا أكون شاباً جميلاً وأنا نسخة طبق الأصل عن الرب الاله ما عدا لحيتي وسني، كما أنه يتميز عني بصفته أكثر الكائنات مجداً وشهرة. هاكم صحتي، انظروا إلى يدي وساقي القوية، إلى عضلاتي المفتولة، إلى حمرة جسدي..ليس هناك أي أثر للروماتيزم! بل اتفل على الأمراض كلها، بما فيها الحصبة، التي صنعني أبي ومعي مناعة ضدها. إن الحياة في هذا المكان الرائع، لا بأس بها، فأنا اغدو وأعود، أقطف ثمار الاشجار كلها وآكل قدر ما أستطيع، أما التعب فهو شعور غريب عني، لأنني لا أعمل شيئاً قط. وإذا استلقيت على العشب، فإنما أفعل ذلك للمتعة وحسب. وفي اليوم الثالث أقام لي يهوه الطيب حفلة ترفيهية وصغيرة، تركت في نفسي أثراً طيباً مدى الحياة؛ فقد مرت الحيوانات كلها أمامي، وقال العجوز لي: "كل ما تدعو به ذات نفس حية، يكون اسمها"[١١]. ياله من كرم ضيافة!

صدقوني يا احفادي، إنه يصعب علي مجرد تصور عدد تلك الحيوانات، التي مرت أمامي في ذلك اليوم، ولم أتخيل في يوم من الايام، أن العـــالم فيه تلك الكائنات الحية كلها. ولكن جدكم الشاب لم يجد صعوبة تذكر، في منح كل كائن اسمه. أما اللغة، التي اتحدثها بطلاقة، مع أنني لم أدرسها في أي وقت أو مكان، فهي لغة غنية غنى غير طبيعي، وتتمتع بوفرة لا محدودة من التعابير. أضف إلى هذا، أنني كنت عارفاً بخصائص كل كائن وسماته، دون أن ابذل أي جهد في التفكير؛ فقد كنت أنظر إلى الحيوان الواقف أمامي واحدد سماته بكلمة واحدة، أي أن الاسم، الذي كنت أمنحه، كان في الوقت عينه، تعريفاً كاملاً غير منقوص. لنأخذ مثلاً، الحيوان الذي سنطلق عليه فيما بعد اسم "ايكفوس" باللغة

اللاتينية، و"إيبوس" باليونانية، و"بغيرد" بالالمانية (و "حصان" بالعربية ـ المترجم). لقد منحت هذا الحيوان اسماً حدد أوصافه بدقة متناهية، فله أربعة أطراف، وعرف، وذيل، ويوضع في فمه لجام. حقاً إنها لغة لا مثيل لها! ومن دواعي الاسى أن تندثر يوماً ما.

لقد كان استعراضي الكائنات الحية رائعاً، وعندما أصفه بالروعة، فذلك ليس كل شيء، لان استعراضنا يضم مشهداً هزلياً، يتمثل في ظهور الاسماك. فتصور يارعاك الله، أن بستاننا، الذي يقع على اليابسة، بعيداً عن شواطئ البحار، حيث لا توجد سوى الانهار، أي المياه العذبة، وإذا بالاسماك البحرية تتلوى قافزة في مياه دجلة والفرات كي تقدم نفسها لي؟ مسكينة، لا ريب أنها كانت تعاني الآماً قاسية بسبب عدم وجود المياه المالحة. ولكن من حسن الحظ، أن جدنا يهوه استدرك الأمر، وزاد اتساع انهار بستاني، وإلا لما استطاع أي حوت الدخول فيها..... وما أن أخذت أسماءها حتى ولت الأدبار مسرعة إلى المحيط..

غني عن القول، إنه قد يوجد من لا يصدق هذه القصة، فالكفرة سيرفضون حتماً، واقع ان الفقمة، وفيل البحر، والدب الأبيض، والبطريق، قد تمكنوا من الوصول إلى وادي دجلة والفرات للمشاركة في الاستعراض، فما بالك بقدوم الكنغر، وخلد الماء، والنعامة الاسترالية، والفيل، ووحيد القرن، وفرس النهر، والتمساح الافريقي، والببغاء، واللاما، والتمساح الامريكي، والانكنده الامريكية الجنوبية، و...... وماذا في ذلك؟ فلا مكان للنقد هنا! فأنا أقسم أنني رأيت في جنة عدن، الفقمة، والحيتان، والثعالب، والايائل، وحيوانات العـــالم كلها..

ويسأل المتعنتون: ولكن أجناس السمك الفريدة، التي تعيش في مختلف

التجمعات المائية، مثل سمك البايكال، والسمك العجيب، وإيل الشرق الأقصى، هذه، كيف وصلت إلى هنالك؟

لقد حصلت على إذن خاص من الله، وجاءت جواً لتشارك في العرض الذي أقيم في عدن.... فلتحل اللعنة على الكفرة الذين لا يقبلون هذا التفسير!

ولكن مالي أنا وهذا كله، في نهاية المطاف؟ انه لأسوأ بكثير بالنسبة لمن لا يصدقني حينما أقول: إن الحيوانات كلها مرت أمامي، الفقريات، الرخويات، والزواحف، لقد أعطيت الجراثيم والحشرات كلها أسماء، لكن الذي أثار دهشتي أكثر من هذه الكائنات كلها هو، دودة طويلة ملساء خرجت مني أن نفسي ببطء، إنها كائن يثير الاشمئزاز، هي نفسها الدودة التي سيطلق العلماء فيما بعد اسم "الدودة الشريطية الوحيدة" فما أن خرج هذا الكائن الأحمق مني، حتى انحنى لي باحترام شديد؛ وبعد أن منحته اسمه، عاد ودخل فيّ ثانية، عبر الثقب الخلفي، واستقر في داخلي، وانني لم أتحدث عن هذا الكائن المقرف، إلا لأكون دقيقاً في سرد قصتي، والحقيقة أنني لم أكن على علم بأن داخلي مسكون.

نظر آدم إلى صورته في الماء العذب، الذي يملأ منبع الانهار الاربعة العظمى، ثم استرخي على العشب بتكاسل.

ـ ما أروع الحياة! تمتم آدم وهو يتثاءب ويتمطى، ثم سيطر عليه كسل لم يعرفه من قبل. ما هذا! إنه لا يحس أي تعب كان، فماذا يعني هذا الاسترخاء؟ إنه لا يفهم شيئاً، ولا يستطيع مقاومة هذا الاحساس الغريب المبهم: يلتحم الجفنان ببعضهما رغماً عنه. آدم ينام. لقد كانت تلك أول حالة نوم في تاريخ الانسان، وبينما هو نائم، مرّ العجوز يهوه على مقربة

والقى نظرة على ذلك الشاب الكسول النائم. وقال لنفسه: الحقيقة أنني عندما أصنع شيئاً، أتقن صناعته؛ إنه شاب جميل، بنيته قوية وسليمة، إنني أكاد أقسم بأن هذا الشاب هو، أنا نفسي قبل عدة مليارات من القرون.

انحنى العجوز ولمس ساق آدم، فاجابه هذا الأخير بشخير أقوى.

ـ رائع، تابع المعلم "ألوهيم"،إذاً ليست ثمة حاجة لاجراء تخدير عام. فآدمي مستغرق في نوم عميق.. والآن إلى العــمل، فأنا اتيت إلى هنا لانجز مهمة في غاية الاهمية. ولأن أحداً لا يسمعني الآن، فبمقدوري أن اعترف بأنني لاحظت صباح هذا اليوم أني أقوم أحياناً، بعمل أخرق. فأين كان عقلي مثلاً، عندما صنعت انساناً بغير رفيقة؟ فقد أعطيت كل حيوان ذكر، أنثاه، ما عدا استثناءات قليلة. فالدودة الشريطية الوحيدة ثنائية الجنس، وهذا مفهوم، فلو أنها عاشت زوجاً لما سميت وحيدة[١٢] ولكن الانسان ليس دودة. إذاً، ينبغي أن أصنع له رفيقة، وسأصنعها من جسده نفسه. وعندما قال الرب الاله هذا "أخذ واحدة من اضلاعه وملأ مكانها لحماً. وبنى الرب الاله الضلع، التي أخذها من آدم، امرأة واحضرها إلى آدم". (تكوين ٢ ، ٢١ ـ ٢٢). إنني أستطيع أن اتخيل دهشة آدم عندما استيقظ من نومه ورأى أمامه لعبة حية فاتنة..

ـ ما هذا أيضاً..؟ تساءل آدم..

ـ انها زوجتك، أجابه يهوه، ولي الشرف أن اهنئك يا سيدي بزواجك الشرعي منها، والويل لك إن قلت إنها لا تعجبك!

ـ الحقيقة يا جدي المبجل، إنه لا بأس بها.

ـ ماذا تقول أيها الأحمق؟ لا بأس بها! زوجة بغير حماة أيها المغفل، إنك محظوظ.

وتقول التورات: إن آدم قال: "هذه الآن عظم من عظامي، ولحم من لحمي؛ هذه تدعى امرأة، لأنها من امرئ أخذت. لذلك يترك الرجل أباه وأمه، ويلتصق بامرأته، ويكونان جسداً واحداً" (تكوين ٢ ، ٢٣ ـ ٢٤).

ويجدر بنا أن نعيد ألى الاذهان هنا، أن القديس اوغسطين يؤكد على أن الله لم يعد ضلع آدم إلى مكانه، أي أن الرجل بقي مشوهاً، فاقداً أحد اضلاعه؛ ولكن يبدو أنه كان صلعاً "كاذباً" كما لاحظ فولتير بسخرية، "لأن نقص ضلع حقيقي واحد، يترك أثراً واضحاً"..

ويقول سفر التكوين أيضاً: "وكان كلاهما عريانين، آدم وامرأته، وهما لا يخجلان" (تكوين ٢ ، ٢٥). يفيدنا الشارحون الاتقياء هنا، بأن ذلك العري لم يستدع أي درجة من درجات الشعور بالخجل، الأمر الذي يبرهن على نقاء والدينا الأولين، ويعد علامة لكمالهما الروحي. ولكن، إذا كان العري هو علامة الكمال الاخلاقي، كما يرى اللاهوتيون، فإن هذا ينسحب أيضاً على، بشر الثقافات البدائية كلها، اضافة إلى الاينك الامريكيين، وبعض قبائل أفريقيا، وسكان بولينيزيا وميلانيزيا، وغيرهم من الجماعات البشرية، التي لم تكن ترتدي أيّ ملابس، ومع ذلك، عندما استعمر الاسبان، والبرتغاليون، والفرنسيون، والانكليز، شعوب البلدان المذكورة، قضوا على القبائل المحلية التي كانت تعيش حالة نقاء تامة، وقد بارك كهنة المسيحية تلك المجازر، ووجدوا المبرر النظري لوحشية "المتحضرين" تلك. ثم يؤكدون من جهة أخرى، أن البرد هو الذي أرغم الناس على ارتداء الملابس، ولم يعش الناس عراة إلاّ في المناطق الحارة. أضف إلى ذلك، أنه عندما يكون كلهم عاريا، لا يخجل من العري أحد..

الفصل الثاني:

السقوط في الخطيئة الاصلية..

ها قد وصلنا إلى المغامرة المدهشة، التي وضعت حداً نهائياً لحياة الرغد والنعيم، التي عاشها آدم وزوجته في لدن يهوه. فقد "أنبت الرب الاله من الأرض كل شجرة شهية للنظر، وجيدة للأكل، وشجرة الحياة في وسط الجنة، وشجرة معرفة الخير والشر". (تكوين ٢ ، ٩). "وأوصى الرب الاله آدم قائلاً: من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً، وأما شجرة معرفة الخير والشر، فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها، موتاً تموت". (تكوين ٢ ، ١٦ ـ ١٧)...

نشير قبل كل شيء، إلى أنه كانت للمواعظ الدينية كثرة من الكتب التعليمية، التي سميت "التاريخ المقدس". وقد التزمت تلك الكتب الصمت التام حيال النصوص التوراتية، التي تبعث على الخجل. لقد اعتادوا أن يحدثوا المؤمنين عن "شجرة معرفة الخير والشر" فقط. وسنرى الآن لماذا لا ينطق رجال الكنيسة بكلمة واحدة عن "شجرة الحياة". وسنسوق لهذا الغرض، السطر ٢٨ من الاصحاح الثالث، وهو النص الذي لا تذكره الكتب التي تعد لضعيفي الايمان.

لكننا سنهتم الآن بالثمرة التي قادت الانسان إلى هوة الخطيئة. ونذكّر في هذا السياق، بأن يوليان، الفيلسوف[1] الذي لا يطيق الكنسيون سماع ذكره، قد دون عدداً من الملاحظات المتعلقة بهذه الشجرة العجيبة، وكتب فولتير يقول: "إننا نعتقد أنه كان ينبغي على السيد الرب أن يأمر الانسان، مخلوقه، بأن يأكل من "شجرة معرفة الخير والشر"، قدر ما يستطيع؛ لأنه، بما أن الله منحه رأساً تفكر، فقد كان من الضروري تعليمه، وكان أكثر ضرورة، ارغامه على ادراك الخير والشر، كي يستطيع القيام بالتزاماته على أكمل وجه. لذلك كان ذاك التحريم غبياً وقاسياً. لقد كان أسوأ بألف مرة من منح الانسان معدة لا تهضم الطعام".

أما الاستنتاج الآخر الذي يفرض نفسه علينا، فيتلخص في اخفاء يهوه غرضاً معيناً، لأنه كان في نهاية الأمر سعيداً لسقوط آدم في الخطيئة. وأنا أظن أن آدم كان محقاً لو قال له:

ـ يا عجوزي الطيب! إذا لم أكن مخطئاً، فإن الخير هو الأمر الحسن، من الوجهة الاخلاقية، أي هو ما يرضيك؛ أما الشر، فهو على الضد من هذا، أي أنه الأمر السيء اخلاقياً، هو ما لا يعجبك.هل هذا صحيح؟

ـ أنت على حق يا صغيري..

إذاً امنحني القدرة على معرفة الشر حتى استطيع تفاديه، ثم ما هو مغزى وجود هذه الشجرة هنا، إذا كان محرماً عليّ أن اقترب منها والمسها؟

ويجيبنا نيابة عن الله، أولئك الذين يتسترون وراء اسمه، فيقولون: إن الله وضع الانسان، الذي ولد لتوه، في التجربة. لقد أراد أن يرى ما إذا كان آدم سيمتثل لارادته ويلتزم بذلك التحريم البسيط، أم لا. بيد أنه لا يصعب

دحض هذا التأكيد الهزيل، فاللاهوتيون يؤكدون تأكيداً قاطعاً بأن الله يعرف كل شيء، وأن المستقبل مكشوف أمامه كراحة الكف، وإذا كان الأمر كذلك، أفلم يكن عليه أن يعرف ماذا سيحدث؟ أفلا يقع كل شيء بارادته فقط؟ أليس الله نفسه من أراد للانسان أن يسقط في الخطيئة؟

وفيما بعد، ارتدت هذه الرواية كلها ضد يهوه. فقد أفادتنا التورات بأن "الحية" كانت أحيل جميع حيوانات البرية، التي عملها الرب الاله. فقالت للمرأة: أحقاً قال الله "لا تأكلا من كل شجر الجنة؟" فقالت المراة للحية: من ثمر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة، فقال الله: لا تأكلا منه، ولا تمساه لئلا تموتا، فقالت الحية للمرأة: لن تموتا، بل الله عالم أنه يوم تأكلا منه تنفتح أعينكما وتكونان كالآلهة عارفين الخير والشر. فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل، وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر، لأنها تعطي المعرفة؛ فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل" (تكوين ٣ ، ١ - ٦).

إن أول ما يثير الدهشة في هذه القصة هو، إن حديث "الحية" مع المرأة فيها، وواقعة الشرح الذي قدمته بلغة جدينا الأولين، لم يقدمها المؤلف لنا حدثاً خارقاً عجيباً، أو رمزاً، فسفر التكوين يقدم الحية حية وحسب. فهي من الزواحف، كلها مكر واغراء، وقد أغرت المرأة بعد أن رسمت لها صورة الحياة التي ستحياها، إن هي خالفت وصية جدها العجوز؛ ولم تستطع جدتنا الشابة مقاومة الاغراء، فسقطت سقوطاً مدويا لانزال نسمع صداه حتى يومنا هذا..

لقد وصفت التورات الحية وصفاً بلغتْ طبيعيته درجة جعلت اللاهوتيين المسيحيين يدخلون على الخرافة التوراتية تصحيحهم الخاص، بعد أن رأوا

أنها بعيدة عن الحقيقة بعداً غير مقبول. ولكن التصحيح المسيحي بدّل ما عرضه سفر التكوين تبديلاً كلياً يتناقض تماماً مع رواية التورات. فحسب هذا التعديل، الذي يتساوى مكره ونبله، ان الشيطان هو الذي أخذ شكل الحية وأغرى زوجة آدم. هكذا حرّف اللاهوتيون الأمر، وهكذا يعلمونه.

لكن هذا التأويل ليس أكثر من تحريف صريح لكتاب التكوين. أولاً، ليس في النص كلمة واحدة تجيز مثل هذا التأويل. ثانياً، بين مؤلفي أسفار العهد القديم ثمة اثنان فقط، جاءا على ذكر الشيطان وهما، صاحب كتاب أيوب، الذي قال: ان الشيطان قام في احدى الأيام ينازع الله في السماء؛ وصاحب كتاب طوبيا، الذي تحدث عن الشيطان زامودداس[٢٣]، الذي عشق امرأة تدعى سارة، فخنق أزواجها السبعة. بيد أن هذين الكتابين لم يظهرا إلاّ في نهاية التورات، ولا نقع فيهما، أو في أي سفر آخر من أسفارها على ذكر للشيطان ـ لو سفير[٣]، وهو الشيطان الذي يطيب للكنسيين اظهاره في كل مرة يريدون فيها اضافة مزيد من التوابل والتشويق للخرافات الدينية. اما التورات فلم تأتنا بأية قصة عن الشيطان الذي قام ضد الله، فهزمه مخائيل، رئيس الملائكة. ولذلك فان هذا وكل ما يخص الشيطان فيها، اختلق في زمن لاحق على كتابة أسفار التورات.

من جهة أخرى، هناك شارحون مضحكون آخرون، وفلاسفة من اتباع مذهب الشك، الذين يتسابقون لبلوغ مستوى مبتذل من الرمزية، فجعلوا من "شجرة معرفة الخير والشر" الشهيرة، شجرة تفاح؛ وقد افترض هؤلاء أن الغرض من مشهد حوار حواء والأفعى، هو ابلاغنا بأن مدام آدم[٤] لم تكن قد عرفت الحب من قبل، وانها تلقت أول درس فيه من الشيطان، الذي تحوّل إلى أفعى ليتسنى له بلوغ هدفه بسهولة.

ولكن مهما كانت هذه الطرفة مسلية، وهي ليست أسوأ من التأويلات الحسنة النية، فان علينا تركها، لأنها نصّ حرفه رجال الكنيسة. ان علينا أن نأخذ التورات كما هي. ففي النص الذي نعالجه الآن، يظهر الحيوان الذي يسمى حية بعينه، ولا حاجة لاقحام شيطان مافي الحدث. أما لمزات العشق المنسوبة إلى الحية، فلا وجود لها في هذا النص التوراتي. والحية الطبيعية الخالصة من أيّ اضافات أخرى، هي المقصودة هنا. وما تجدر الاشارة اليه، ان المؤلف يرى هذا الحيوان الزاحف بعينّي اتباع مختلف الديانات. فالقدماء اعتبروا الحية حيواناً في غاية الخبث والدهاء والأذى. وقد عبدتها بعض القبائل الافريقية(٥).

من جهة أخرى، نستطيع أن نصادف الحية المتكلمة في مختلف آداب الشرق، ومن المعروف أيضاً، أن المثيولوجيات التي ازدهرت في آسيا، مليئة بالحيوانات الناطقة. فعند الكلدانيين مثلاً، كانت السمكة اوانيس تخرج رأسها من مياه الفرات كل يوم لتلقي مواعظها الطويلة على الذين يتجمعون عند الشاطئ. وكانت تعطيهم مختلف النصائح والارشادات، وتعلمهم الغناء والزراعة.

لم تكن الحية التوراتية تحتاج ان يسكنها الشيطان. وهي، على وجه العموم، أقل خبثاً بكثير، مما حاول أن يصفها سفر التكوين. تتيمز قصة هذه "الحية" بسذاجة مفرطة، اضافة إلى أنها تعج بالتناقضات. فعلى سبيل المثال، ما الذي رمت اليه الحية عندما قالت لحواء: "ستكونان كالآلهة"؟ اذاً ثمة كثرة من الآلهة؛ زد إلى هذا، ان كلمة "آلهة" تتردد في نصوص توراتية أخرى. وسنرى لاحقاً أن الاله اليهودي يهوه، لا يعتبر نفسه الهاً واحداً وحيداً وحدانياً. ولكن لنبق الآن مع هذا التعبير، الذي وضع شارحي

الانجيل المسيحيين في حلقة مغلقة، اذ يؤكد هؤلاء، أن الزاحفة قصدت بكلمة "آلهة"، إلى الملائكة؛ فقال معارضوهم: لم يكن باستطاعة الحية أن تعرف الملائكة؛ وهي لم تكن تستطيع أن تعرف الآلهة" أيضاً، وللسبب نفسه. وهكذا تبقى السذاجة والتضليل سمتين دائمتين للتورات.

كلاّ، لم تكن الحية خبيثة إلى ذلك الحد. فنصائحها مبتورة ناقصة. ولو كانت على قدر واف من الذكاء، لقالت لجدتنا الأولى:

ـ كلي من الثمر المحرم، ثم كلي في اللحظة نفسها، من شجرة الحياة، فثمارها ليست محرمة عليكما.

ويهوه؟ أليس هو سبب الخطيئة الأول؟ لماذا وهب الحية نعمة الكلام؟ فلولا ذلك، لما استطاعت أن تتفاهم مع المرأة.

لم تسق لنا التورات الكلمات التي اقنعت بها حواء آدم ليأكل من الثمرة المحرمة. ولذلك، سنحاول سدّ هذا النقص.

تخيلوا أول امرأة أثارت حية فضولها. لاريب أنها اقتربت من "شجرة المعرفة" القائمة في وسط الجنة، على مقربة من "شجرة الحياة"، ثم رنت اليها طويلاً وهي مترددة. وقالت لنفسها:

ـ غني عن القول، ان الحية التي تحرشت بي الآن، ليست جميلة جداً. ولكن لها أسلوباً ليس غبياً، وأنا أرى أنه يجب الأخذ بنصيحتها، لأنه من الغباء ألاّ يعرف المرء شيئاً. فأنا أعيش وآدم كالحبش،بينما باستطاعتنا أن نكون كالآلهة. انها لثمرة مغرية حقاً! ولا يوجد في هذا البستان ما هو أبدع منها. بيد أنني سأكون حزينة جداً لو ظهر أن الحية خدعتني. فالحياة هنا رائعة، وعلى الرغم من رغبتي الشديدة لآكل تفاحة، إلاّ أنه اذا كان

الموت هو النتيجة، فالأمر في غاية السوء. وأخذت حسناؤنا تغدو وتروح قرب الشجرة؛ بينما الحية مختبئة على مقربة تتابع حركاتها أولاً بأول.

ـ كلاّ، قالت حواء في نفسها، إنه من العبث أن نموت لسبب سخيف كهذا. ولا شك في أن العجوز يهوه يخدعنا، فهو في نهاية المطاف، ذو صورة ملؤها الخبث، ياله من عجوز داهية! انه يريدنا أن نبقى طيلة الزمان لا نعرف شيئاً من الأشياء الرائعة، التي يتمتع بها الآلهة. وليس من غرض لتحذيره لنا سوى القاء الرعب في نفسينا، انه لا يريدنا أن نعرف كل شيء. آه من هؤلاء الشيوخ!

وبعد أن حسمت جدتنا أمرها، سحبت أحد مقاعد الجنة إلى تحت الشجرة، ثم وقفت عليه وقطفت تفاحة (اننا نقول تفاحة، على الرغم من أن التورات لا تعطينا حقاً لمثل هذه التسمية) وأخذت تنظر اليها وتتلمظ. أما الحية، فكانت ترى كل شيء والسعادة تغمرها.

أدنت مدام آدم التفاحة من فيها، لكنها توقفت لحظة لتتساءل، وكأن أمراً التبس عليها:

ـ كيف تؤكل هذه الثمرة يا ترى؟ بقشرتها، أم دونها؟ آه، سيان، فهي يجب أن تؤكل وحسب. ثم ترددت بعض الشيء لتتساءل ثانية:

ـ ان نعرف كل شيء أولا نعرف شيئاً؟ هذه هي المسألة. فعندما ألعب الطميمة مع آدم، هذا حسن أم سيء؟ انها لأحجية صعبة! وهل يجب أن نجزّ صوف الغنم، أم أننا نرتكب إثماً عندما نفعل ذلك؟ يا للهول! ان رأسي تدور. ثم تلك العادة التي ركبت آدم وهي، انه يدخل سبابته في أنفه؛ هل هذا سلوك جيّد أو شائن؟ أقسم بأنها ليست حياة، تلك التي نعيشها ونحن لا نعرف شيئاً من هذا كله!

وكانت المرأة قد جمعت شجاعتها كلها الآن وقضمت الثمرة،

ـ آه، ما أطيب طعمها! ياله من عجوز محتال! لقد حرّم علينا هذه الثمرة الرائعة! يقترب آدم وهو يحدث نفسه قائلاً:

ـ من سأمي صدت الآن شبوطاً من دجلة، ولكن بما أنني نباتي، فقد رميته في الفرات. يلاحظ قرينته.

ـ اي، ماذا تقضمين عندك يا امرأة؟

نهضت حواء واقفة على ساقيها الجميلتين وأجابت:

ـ أوي، لا تغضب، أرجوك، أن هذه الثمرة... من شجرة... انها.. ها.. ها.. أتعرف. انها من احدى الشجرتين اللتين في وسط البستان...

ـ هذا ما أراه فعلاً، ليأخذك الشيطان أيتها المرأة! انها ثمرة تلك الشجرة التي حرّمت علينا ثمارها. ما أشدّ غباؤك أيتها المرأة! هل نسيتي ما قاله العجوز؟

ـ أيّ عجوز؟ والدانا يهوه؟ إنه يخلط الأشياء كلها، بل يبدو أنه هزأ بنا!

ـ ماالذي تقولينه أيتها الحمقاء؟

ـ لقد هددنا بالموت، أتذكر؟

ـ طبعاً أذكر! بل تسري في جسدي قشعريرة الآن.

ـ ها ـ ها ـ هيه، أحمق أنت يا زوجي العزيز! فتهديده مجرد خدعة وحسب.

ـ ما هذا اللغو يا حواء؟ لا بد أنك فقدت عقلك.

ـ بل هي الحقيقية، لقد خدعنا العجوز، فبعد أن أكلت من من هذه الثمرة أصبحت أعرف طائفة من الأشياء.

ـ هل تعرفين الخير من الشر؟ أتعرفين ما يجب فعله، وما لا يجب فعله، هل تعرفين كيف ولماذا؟

ـ نعم يا عزيزي، بدأت أعرف. قف، لقد أصبحت أعرف كم حبة ملح يجب أن توضع في البيضة الواحدة.

ـ ليس هذا معقولاً يا امرأة!

ـ وأعرف أيضاً لماذا تغمض الديكة عيونها حين تصيح.

ـ انك مدهشة حقاً! ولكن أتعرفين لماذا لا تحمل الضفادع ذيولاً فوق مؤخراتها؟

ـ نعم لقد عرفت هذا للتو.

ـ هاتي إذاً أخبريني.

ـ لأن الذيل يعيقها أثناء الجلوس.

ـ انك مدهشة حقاً!

ـ وأكثر من هذا! إنني أعرف أيضاً،.... أتسمع؟ إني أعرف أنك ذكي، ولم تخنّي أبداً.

سيطرت على آدم حال من الذهول.

ـ ألف شيطان! أيّ زوجة عالمة عندي! في الحقيقية إنني لم أخنها أبداً ولكن لنفرض أنني خنتك، فهل هذا سيء أم لا؟

ـ إنه سلوك أحمق أيها السيّد المحترم! في غاية الحماقة!

شدته إليها وأجلسته بجانبها على المقعد، وقالت:

ـ على العموم يا أدومتي، يمكن الآن أن تصبح عالماً مثلي، وفي هذه اللحظة. كل من هذه التفاحة!

ـ هذا ما أريده فعلاً يا غاليتي. ولكن ما الفائدة في أن نغدو علماء، إذا كنا سنموت اليوم بسبب التفاحة؟ دعينا نفكر في الأمر يا امرأة: أن نموت بعد ألف عام، أفضل بكثير؛ ولكن، أن نكسر رقبتينا الآن، فهذا غباء خالص.

رفعت مدام آدم كتفيها استخفافاً، بينما تابع آدم حديثه:

ـ يبدو أنك لا تصدقين يا حبيبتي. انني أذكر جيداً كل كلمة قالها الأب يهوه.

لقد تحدثت معه شخصياً، وكان جدياً في كل كلمة قالها. وها أنا أعيد على مسامعك كلامه بالحرف الواحد: "أما شجرة معرفة الخير والشر، فلا تأكل منها؛ لأنك يوم تأكل منها، موتاً تموت". الأمر واضح يا هذه. وإذا كنت أنت في غنى عن جلدك، فان جلدي عزيز على قلبي.

ـ كم أنت مضحك يا رجل! انظر، هل أنا ميتة؟

ـ لا، ما زلت على قيد الحياة. لكن النهار لم ينته بعد، احذري!

ـ أخ من عناد الرجال! وأنت تستطيع أن تفخر يا عزيزي، بأنك أكثر عناداً من الحمار، كم من الوقت أحتاج لأقنعك بأن العجوز سخر منّا، ألم تتحدث منذ قليل عن العلماء.

ـ نعم، لقد فعلت، وماذا في ذلك؟

ـ كيف؟ أليسوا منبعاً أصيلاً للحكمة؟

ـ بالطبع!

ـ لكن العلماء بالذات هم الخالدون[٦]

هذه الحجة، جعلت الأمر يلتبس على الرجل، وفي الوقت عينه غدت زوجته أكثر لطفاً وأنوثة وتصميماً.

ـ أسعدني يا ابن يهوه وكل من هذه التفاحة! وعندما تفعل، نصبح نحن الاثنان كالآلهة.

ـ كالآلهة؟

ـ لا تكثر من الأسئلة أرجوك! فهذا ما قالته الحية.

وقرر آدم. طالما أن الحية تقول...

ـ حسن، هاتي التفاحة.

قضم آدم التفاحة بشهية. ومرت دقيقتان من الصمت التام، كانت تسمع في أثنائهما حركة النملة. وفجأة أطلق آدم صيحة مدوية. لقد دخلته المعرفة.

ـ يا ألف شيطان! إننا عاريان! ما هذه القباحة!

وضربت حواء كفّاً بكف وقالت:

ـ ليس معي مجرد رباط! وي، يا لخجلي!

ـ لنرتدِ، لنرتدِ، فلنسرع ونرتدي....

.... "فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان، فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر" (تكوين ٣ ، ٧).

أرجو من قارئي الكريم أن يلاحظ معي، أن أول ملابس بشرية خيطت من أوراق التين، وليس من أوراق العنب، أما مأثرة زراعة العنب، فستنسبها التورات فيما بعد، إلى البطريرك اليهودي نوح.(٧)

بعد أن ستر جدنا عورته وعورة زوجته، نظر كل منهما إلى الآخر، وقال آدم، لا يبدو هذا سيئاً على ما أظن.

ـ الحقيقة أن ورقة التين هذه تليق لي كثيراً، لاحظت حواء، ثم عقّبت: لكن الأوراق مغبّرة بعض الشيء، إذ يبدو أنهم لم يزيلوا الغبار عنها منذ أن زرع عجوزنا الشجرات. هات الفرشاة يا آدم!

لكن سعادتهما لم تدم طويلاً، فقد "سمعا صوت الرب الاله ماشياً في الجنة في وقت برودة النهار؛ فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الاله بين أشجار الجنة" (تكوين ٣ ، ٨).

ومرة أخرى نرى أن الاله التوراتي كائن جسدي تماماً؛ فهو يتنزه وقت البرود، ويتحدث كأي إنسان آخر، إذاً، يقدم سفر التكوين إلهه لنا، كما تفعل الخرافات الوثنية. والحقيقة أن مختلف الشعوب القديمة كانت تملك تصورات متماثلة عن الآلهة ككائنات تشبه البشر.

ويتساءل النقاد عن الصورة، التي ظهر الله فيها لآدم، ثم لأولئك الذين كلّمهم بفمه، فيؤكد الكنسيون أنها كانت صورة بشرية، ولم يكن لمثل هذا الأمر أن يكون غير ذلك قط، لأن الله "صنع الانسان على صورته ومثاله". إذاً، ما الذي يميز التصور اليهودي لله، عن تصور الديانات الأخرى له، وهي الديانات

نفسها، التي "وصمتها" المسيحية بالوثنية؟ فالرومان، الذين أخذوا معتقداتهم عن الاغريق، لم يتصوروا الآلهة إلاّ في صورة بشرية، الأمر الذي يرغمنا على القول: ليس الله هو من صنع الانسان على صورته ومثاله، بل الانسان هو الذي تخيّل الآلهة على صورته ومثاله. بيد أننا لن نلح على هذا القرار، لأنه إذا سرت إلينا عدوى مثل هذه الرؤية، نكون قد حجزنا لأنفسنا مكاناً في سعير جهنهم. ولكن رغبتنا كبيرة لأن نذكّر بملاحظة دوّنها أحد الفلاسفة[٨]، وتقول هذه الملاحظة: "لو كان للقطط إله، لنسبت إليه صيد الفئران".

إن مشاهد مثل، نزهة يهوه في جنّة عدن، تبينّ بوضوح، أن الحديث لا يجري هنا عن مجاز غامض، فالقصة سيقت باسلوب واقعي صرف.

"فنادى الرب الاله آدم، وقال له" أين أنت؟" (تكوين ٣ ، ٩).

لقد ظهر لنا آدم سيداً مسكيناً، تاعساً، مرتبكاً؛ ثم فقدت زوجته حماسها أيضاً. وها هما يحاولان الاختباء، ولكن أين لهما أن يختبآ من وجه من يرى كل شيء؟ فصوت يهوه يحيط بهما من كل صوب، كصوت سيّد متسلط صارم يهّم بمعاقبة عبده المشاكس. وبما أنهما وقعا، إذاً، ينبغي عليهما الاعتراف. ولذلك اقتربا من العجوز مطرقين معتذرين، فقال آدم: "سمعت صوتك في الجنة، فخشيت لأني عريان فاختبأت" (تكوين ٣ ، ١٠).

وها هما يقفان أمام سيدهما، الذي يقرأ الغيب بمنتهى الدقة والوضوح، والذي كان قد رأى حادث الحية والتفاحة، ولكنه يقف الآن غاضباً كأنه لم يكن يتوقع شيئاً مما حصل، أو أن الذي حدث لم يكن بارادته. غير أن التاعسين لم يفطنا إلى ذلك كله عندما كانا بين يدي العجوز تسري القشعريرة في جسديهما.

ـ لم أكن أنا أول من بدأ، بل هي التي أغرتني، لن أكررها ثانية، أقسم بعظمة يهوه ألاّ أعود إلى مثل هذه ثانية!

"فقال: من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة، التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟ فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي أعطتني من الشجرة فأكلت" (تكوين ٣ ، ١١ ـ ١٢). من الواضح أن آدم يوجّه هنا لوماً صريحاً للعجوز:

ـ إنك أنت، الهي الذي أعطيتني هذه المرأة زوجة لي. ألم تكن تعرف من أعطيتني رفيقة لحياتي؟ "فقال يهوه للمرأة: ما هذا الذي فعلت؟ فقالت المرأة": الحية أغرتني فأكلت" (تكوين ٣ ، ١٣).

والآن ينتقل الشيخ إلى اتخاذ قرار العقوبة، وهو يتحرّك وفق نظام معين: مَنْ أول مَنْ بدأ، الأفعى؟ إذاً اسمعوا: "لأنكِ فعلت هذا، ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية؛ على بطنك تسعين وتراباً تأكلين كل ايام حياتك؛ واضع عداوة بينك وبين المرأة، وبين نسلك ونسلها، هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه" (تكوين ٣ ، ١٤ ـ ١٥).

إن هذه العقوبة، التي أنزلت بالحية تؤكد تأكيداً قاطعاً، أن اللاهوتيين يكذبون بفظاظة عندما يرون الشيطان في هذه الأفعى، وينسبون إليه غواية المرأة ودفع الجنس البشري إلى هاوية الخطيئة الاصلية. فلو كان الشيطان هو المذنب لنزلت العقوبة به وليس بالحية.

ولكن العقوبة لم تنزل إلاّ بالحية كحيوان و "وحش" من وحوش البرية. فهل نفترض إذاً أن ذاك المستشار الشرير كان يسعى يوماً ما على قائمتين أو أربع، ثم سلبه يهوه اياها وأرغمه أن يزحف على بطنه؟ وإذا كان كذلك

فعلاً، فان هذه العقوبة غير عادلة، لأن الحية لم تكن طرفاً في المسألة كلها (الا يؤكد الكنسيون أن الشيطان أخذ صورة الحية وأغوى المرأة؟).

لنفترض مثلاً، أن أحد المحتالين تنكر يوماً في صورة كاهن القرية أو الحيّ، ثم نفذّ عملاً من أعمال الغش والنصب. فما الذي سيحدث لو ألقي عليه القبض، وجيء به إلى المحكمة ؟ هل سيقدم الكاهن للمحاكمة؟ بالطبع لا، لأن القصاص يجب أن ينزل بالمذنب الحقيقي.

لذلك، حسناً يفعل الكنسيون إذا صرفوا النظر عن حكاية الشيطان الذي أغوى أمنا حواء، لأنها ليست أكثر من قصة للتسلية لا تصمد أمام أي مستوى من مستويات النقد، أما إذا أصروا عليها، فيجب عليهم أن يقروا عندئذٍ، بان يهوه لم يستطع أن يرى الشيطان في قصة القصاص، فأنزله في الحية البريئة وسلبها أطرافها.

ومن جهة أخرى، إذا كان صحيحاً أن الناس يشمئزون من الحية، ويحاولون سحق رأسها إذا صادفوها، وتسعى هي للدغ أعقابهم، فان هناك بنداً في نصّ قرار العقوبة، لا تلتزم الأفاعي بتنفيذه، فهي لا تأكل التراب، ولم تنفذّ هذه العقوبة في اي يوم من الأيام، فهل كان قرار يهوه مؤقتاً؟ وإذا كان الأمر كذلك، تكون التورات قد سهت عن التنويه إليه، وهذا أمر غريب.

وثمة سؤال آخر هو، أي حيّة من الحيات لعبت دور الغواية في قصتنا هذه؟ الحِفث؟ البواء؟ الرقطاء؟... فأنواعها كثيرة. ولكن، فلنفترض أن الحفث هي التي أغوت مدام آدم، وأنها استحقت العقاب العادل هي و ذريتها كلها، نوعها كله. بيد أنه لو لم تستطع المرأة اغواء الرجل وجرّه إلى اقتراف الأثم الرهيب، لعوقبت ذريتها، ونجت ذريته. أما الحيات، فلم يأثم

منها سوى الحفث، ومع ذلك فان أنواع الحيات كلها تنوء تحت وطأة العقاب دون وجه حق!

"وقال للمرأة! تكثيراً أكثر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولاداً، وإلى رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك" (تكوين ٣ ، ١٦).

يتفق شارحو التورات كلهم، على أن هذه العقوبة تنسحب على جنس النساء كله، حتى نهاية العالم، وليس على مدام آدم وحدها، ونحن لن نتوقف عند الجور والتعسف اللذين يتسم بهما قرار يهوه هذا، بل سنشير في المقام الأول، إلى أنه فيما لو استطاعت المرأة الأولى مقاومة غواية الحية لها، لما ولدت أبناءها في الأوجاع، على أرجح تقدير، وهذا يجعلنا نفترض، أن تركيبها العضوي كان مختلفاً، قبل السقوط في الخطيئة. وفي اللحظة، التي نطق فيها يهوه بحكمه، تبدل ذاك التركيب تبديلاً جوهرياً. إنها يد الهية حقاً!

ويجدر بنا أن نشير في هذا السياق، إلى أنه على الرغم من الجبروت الكلي، الذي يتمتع الله به، إلاّ أنه لم يستطع تحقيق القصاص الذي أنزله بالجنس الانثوي كله، لأن كثيراً من النساء يلد بغير ألم. ثانياً، ثمة نساء كثيرات جداً لا تخضعن لأزواجهن، بل يقدنهم من أنوفهم!

"وقال لآدم" لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً: لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك؛ وشوكاً وحسكاً تنبت لك وتأكل عشب الحقل؛ بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي منها أخذت؛ لأنك تراب وإلى تراب تعود" (تكوين ٣ ، ١٧ ـ ١٩).

تبرز ثانية هنا، الملاحظات التي سقناها أعلاه، فالعقوبة تطال جنس

الرجال كله،، وليس آدم وحده؛ وهذا ما يتفق فيه اللاهوتيون جميعهم. أمّا الرهيب في قرار العقوبة، فهو البند الذي نزلت بموجبه عقوبة الموت بحق البشر. والحقيقة أن يهوه نسي تحذيره السابق وهو أن من يأكل الثمرة المحرمة، يموت في اليوم نفسه، وقد منح هذا النسيان المذنبين حياة مديدة فاذا صدّقنا التورات، عاش آدم بعد ذلك ٩٣٠ سنة (تكوين ٥ ، ٥). ولكن لو أن آدم لم يأكل التفاحة، لما مات في اي زمان، ولكنّا خالدين معه أيضاً.

وإذا كان يهوه كما وصفته التورات حقاً، فانه حسناً فعل إذ أبقى الحية لا تسمع شيئاً، ولا تستطيع قول شيء منذ ذلك الوقت، وإلاّ لأثارت الفضائح بالتأكيد. ويجدر بنا أن نلحظ هنا، أن حرمان نعمة الكلام لم يكن بين العقوبات التي أنزلها العجوز بالحية.

وثمة ملاحظة أخرى تبرز أمامنا بصورة تلقائية، وهي تلك المتعلقة بالخبز وعرق الجبين، فعلى الراجح، أن الأزمنة البدائية لم تعرف الخبز، وكان الناس فيها يأكلون ما يقع تحت أيديهم من مواد تؤكل. ومع هذا فإننا لن نتعنّت، وسنفترض أن يهوه قصد إلى الزمن المتحضّر. ولكننا لن ننسى أن نشير قبل ذلك، إلى أن الأوساط اليهودية، التي ظهرت التورات فيها، كانت قد عرفت الخبز، بعد انتقال اليهود إلى العيش في المراكز الحضرية، وممارسة الأعمال الزراعية. لكن الكنسيين يؤكدون أن التورات لم تكتب لليهود فقط، بل هي قانون لسكان الأرض كلها. بيد أن الخبز لا يؤكل إلاّ في البلدان التي يزرع القمح فيها.

فالاسكيمو لا يعرفون الدقيق. ويعيش كثير من البشر في مناطق من الهند، وأمريكا، وأفريقيا الوسطى والجنوبية، على الثمار، ولحوم الطرائد التي يصيدون.

قد يقول قائل: إن يهوه استخدم كلمة خبز بالمعنى المجازي، قاصداً في حقيقة الأمر صنوف الطعام كلها، وإذا كان الأمر هكذا حقاً، فلماذا لم تشمل العقوبة الناس جميعهم، لأنه إذا كان الكادحون يعملون حقاً للحصول على لقمة العيش، وإذا كان ثمة من يرى أنه يدفع كفّارة فعلاً، فان هذا لا ينسحب على الأغنياء الذين ينعمون بالملايين التي ورثوها! ورجال الدين المكتنزون؟ هل تتصبب جباههم عرقاً إلاّ من كثرة الدهن؟

ويقف السطر الثامن عشر من الاصحاح الثالث، موقفاً عدائياً من الانسان. لأنه فُرض عليه أن يأكل، إضافة إلى الخبز، عشب الحقل، مثله في هذا مثل الحيوانات. فما الذي تعطيه الأرض؟ "شوكاً وحسكاً" ! ومع ذلك، فقد فات يهوه أن الانسان يأكل اشياء أخرى كثيرة، غير العشب والخبز، فلماذا لا يرسل صواعقه لتدّمر المطاعم التي تقدم اللحوم في وجباتها اليومية؟

لنر معاً ما الذي حدث بعد النطق بالحكم: "ودعا آدم اسم امرأته حواء، لأنها أمّ كل حيّ" (تكوين ٣ ، ٢٠).

لم يهتم هذا الزوج اللطيف باعطاء صديقته اسماً؛ فقد دعاها امرأة وحسب، كما هو واضح في السطر ٢٣ من الاصحاح الثاني في سفر التكوين.

وسنرى الآن أن يهوه لم يطرد آدم وحواء من الجنة الأرضية لحظة اكتشافه الجريمة، كما يدّعون. بل ولمّا رأى أن ثيابهما المصنوعةمن ورق التين خفيفة، جعل من نفسه خياطاً و "صنع لآدم وإمرأته أقمصة من جلد وألبسهما" (تكوين ٣ ، ٢١). وغني عن القول، إن صناعة الاردية المذكورة تطلّبت قتل حيوانات برئية لا ذنب لها؛ وهذا يعني أن يهوه كان أوّل قاتل للحيوانات . وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا نلوم أجدادنا لأنهم سعوا إلى

استخدام لحوم الحيوانات في غذائهم؟

ولا ريب أن يهوه لم يكن ليطرد آدم حواء من الجنة في اي يوم من الأيام، لو لم يصادفهما بعد بعض الوقت، مرتديين الملابس المصنوعة من ورق التين ويتذكر في اللحظة نفسها "شجرة الحياة" الشهيرة، التي لم يفطن الرجل والمرأة أن يأكلا من ثمارها. "وقال الرب الإله: هوذا الانسان قد صار كواحد منّا، عارفاً الخير والشرّ؛ والآن لعلّه يمدّ يده ويأخذ من شجرة الحياة ويأكل ويحيا إلى الأبد" (تكوين ٣ ، ٢٢). هذا هو النص، الذي تلتزم كتب تعليم "التاريخ المقدس" الصمت حياله.

هكذا إذاً، لقد فات جدينا أن يأكلا من شجرة الحياة، التي لم تكن ثمارها حرّمت لهما، يا للأبلهين! فلو خطرت لهما فكرة أن يأكلا منها بينما يهوه يخيط لهما الملابس الجلدية، لحققا عليه انتصار الأزمنة كلها، ولما كان بمقدوره أن ينفّذ فيهما حكمه الصارم.

حقاً أن التورات كتاب مسلّ عندما يقرأ بانتباه. إن يهوه، الاله الواحد، الذي غالباً ما يزل لسانه ويتحدث عن وجود آلهة أخرى، لهو دائم الثرثرة بما يجب التزام الصمت حياله. إضافة إلى هذا، يعجز، وهو الكلي القدرة، على تنفيذ القرار الذي اتخذه هو نفسه، باعدام آدم وحواء. تخيلوا لو كان جدانا يتمتعان بقدر كاف من الفطنة وحيوية الروح، إذاً لأصبحنا خالدين، على الرغم من معارضة يهوه لذلك. ولكنه، لا بد أن يكون قد هنّأ نفسه عندما تذكر الشجرة اللعينة في الوقت المناسب.

"فأخرجه يهوه من جنة عدن، ليعمل الأرض التي أُخذ منها. فطرد آدم وأقام شرقي جنة عدن الكيروبيم ولهيب سيف متقلّب لحراسة شجرة الحياة" (تكوين ٣ ، ٢٣ ـ ٢٤).

إنها قطعاً "شجرة الحياة" البغيضة نفسها، التي كانت تشغل بال العجوز "ألوهيم" أكثر من أي شيء آخر، فينبغي منع آدم وحواء من الوصول إليها، بأيّ طريقة كانت، ومهما كلف الأمر. ولكن أيّ فكرة وحشية هي، فكرة خلق مثل هذه الشجرة؟ فيهوه، الذي يرى المستقبل بوضوح شديد، كان يعرف ، بالطبع، أن جدنا الأول سيقع في الأثم ويُحكم عليه بالموت، وأن ذلك الحكم سيمتد ليطال الجنس البشري كله، وفي مثل هذه الحال، تصبح "شجرة الحياة" عائقاً في طريقه. ألم يكن من الأفضل لو لم يزرعها؟ وذلك الكيروبيم ولهيب السيف المتقلّب عند بوابة جنة عدن، ما هذا الهراء أيضاً؟ الم يستطع يهوه الكلي القدرة، أن يقضي بكلمة واحدة على تلك الشجرة، التي فقد وجودها كل مغزى؟ ألم يفطن شيخنا إلى هذا أيضاً؟

والآن فلنسافر معاً بحثاً عن الجنة. بما أن يهوه اهتم بحراسة بوابات جنة عدن واضطر أن يلجأ إلى اتخاذ اجراءات دفاعية بدائية ضد محاولات الانسان الرامية إلى بلوغ طريق "شجرة الحياة"، اذاً، الجنة الأرضية والشجرة العجيبة موجودتان في مكان ما. واذا ما بحثنا جيداً في منطقة دجلة والفرات، ورأينا ملاكاً يحمل سيفاً ملتهباً، ويقف حارساً أمام بوابات ما، عندئذٍ نستطيع أن ننادي بأعلى صوت: ها قد وصلنا! انها هي، الجنة التي خلقها يهوه.

ولكن، من هو الحارس المزعوم؟ فالنص اليهودي القديم لسفر التكوين يستخدم كلمة "كيروب"[٩]. وهي تعني "ثوراً"، وقد اشتقت من كلمة "كاراب"، أي "يحرث". لقد أخذ اليهود عن البابليين كثيراً من العادات والتقاليد المتصلة بالدين. فصنعوا ثيراناً كبيرة صنعوا منها ما يشبه أبا الهول، وحيوانات معقدة وضعوها في معابدهم. وكانت تلك الصور ذات وجهين:

انساني، ووجه ثور؛ وكانت لها أجنحة وأرجل بشرية، وأطراف ثور. ثم جاء اللاهوتيون المسيحيون وجعلوا الكيروب "كيروبيم". والكيروبيمات عندهم هي، ملائكة فتية لا جسم لها، بل وليس لها شيء سوى رؤوس أطفال، وأجنحة صغيرة. وهي كثيرة جداً في الزخارف الكنسية. وقد لا يتوافق الفارس الذي يحرس مدخل الجنة، مع تصوّر المؤمنين السذج "للكيروبيمات"، فقد يكون "كيروب: بالمعنى اليهودي القديم لهذه الكلمة؛ أي له رأس ذو وجهين، واحدهما وجه ثور. وهذا ما يساعدنا على التعرف إليه بسهولة ويسر. أما اذا كان كيروبيما مسيحياً، لا جسد له، ولا يدين، فانه سيمسك بالسيف الملتهب بأسنانه، وستكون هذه هي، العلامة التي تميزه.

اننا شخصياً نميل إلى شكل الحارس الذي له رأس نصفه بشري ونصفه الآخر حيواني، رأس ثور.

ولم يبق لنا الآن إلا أن ننطلق بحثاً عن الجنة! وحتى إذا لم نستطع أن نصل تلك الاصقاع، فالرحلة بحد ذاتها ممتعة، وقد يتنسىّ لنا أن نتسكع حول الجنة، ونحدد موقعها على الخارطة الجغرافية، التي لا تزال تعاني هذا النقص الجوهري.

الفصل الثالث

موجز تاريخ البشر الأوائل

يبدأ الأصحاح الرابع من سفر التكوين، بتنويه مقتضب، ولكنه واضح، إلى أن جدّينا اهتما قبل كل شيء، بالذرية. "وعرف آدم حواء، امرأته؛ فحبلت وولدت قايين. وقالت: اقتنيت رجلاً من عند الرب. ثم عادت فولدت أخاه هابيل" (تكوين ٤ ، ١ ـ ٢).

ومن الغريب أن يجد لاهوتيونا المعنيون بتفسير التورات، ما يناقشونه هنا أيضاً. فقد رأى بعضهم، خلافاً للنص الذي سقناه هنا، أن علاقة الحب تحققت بين أول رجل وامرأة، عندما كانا في الجنة. ويعتقد آخرون، أن حواء التي خلقت لتوها، كانت قد فقدت عفتها. ويظن فريق ثالث، مستنداً إلى النص المؤما اليه، أن آدم لم يفكر في مضاجعة حواء قبل أن يطردا من الجنة.

ولم يتوقف الخلاف عند هذا الحدّ. فقد انقسم اللاهوتيون بعضهم ضد بعض، للسبب المدهش التالي: اذا اعتبرنا ان التواصل الزوجي بين "أوّل انسانين" وقع أثر الخروج من الجنة، فليس ثمة أسس تسمح أن نؤكد بأن ذلك وقع بعد لحظة الخروج مباشرة. اذاً، متى حدث ذلك؟ متى بالضبط؟

يبدو أن هؤلاء السادة يريدون معرفة كل شيء؛ فهذه الفئة من البشر تملك قدراً مذهلاً من الفضول، وخاصة بالنسبة لمثل هذه المسائل. انهم يؤكدون مثلاً، ان آدم أرجأ مواقعة حواء طيلة خمسة عشر عاماً، أو حتى ثلاثين عاماً. بينما يؤكد فريق آخر، وبمنتهى الجدية، ان آدم وحواء اتفقا على أن يمتنعا عن ممارسة الحب طيلة مائة عام تكفيراً عن اثمهما.

ولكن، أتظنون أن هذا كل شيء؟ اذا كنتم ترون الأمر هكذا، فأنتم لا تعرفون اللاهوتيين قط! فقد اختلق بعضهم خرافة تقول: ان آدم عاش بتولاً على امتداد مائة وخمسين عاماً، وكان ذلك كله بسبب تلك "الثمرة المحرّمة" وقد عاش طول الوقت المذكور مع المدعوة ليليت[1]، التي كانت مثله، مصنوعة من طين. وولد منها عدداً من الشياطين. وبعد انقضاء سنوات طويلة، تزوج آدم حواء، أي بعد أن رفع يهوه عنه عقوبة التفريق. وعندئذٍ فقط بدأ ينجب أولاداً. وأخيراً هناك من الشارحين من يؤكد، ان الشيطان عاشر حواء معاشرة الأزواج، بعد أن طردت من الجنة.

وفي مسألة الانجاب عند حواء، وجد اللاهوتيون مادة لا تنضب للتأملات الذهنية، والابحاث "العلمية". فناقشوا بالجدية كلها، المسألة التالية: هل كان لكل من آدم وحواء سرّة، أم لا؟

لاريب أن هذه التفاصيل لا تثير إلاّ الضحك، ولذلك سنحوّل الآن إلى ما هو جدي وجوهري. فالجدّي في التورات يثير المرح والضحك.

"وكان هابيل راعياً للغنم، وكان قابيل عاملاً في الأرض" (تكوين ٤ ، ٢). دعونا نعود إلى مشهد الخلق لنرى، مَنْ من ولدي آدم امتثل لرغبة يهوه عند اختيار مهنة حياته؟ انه قابيل بالطبع، لأن يهوه أمر الانسان أن يحرث الأرض ويأكل من انتاج الحقل حصراً. أمّا هابيل، فقد امتهن الرعي وتربية

الحيوانات. واذا كان قد سرح بالغنم والمعاعز، فانه لم يفعل ذلك ليمتع نظره بمرآها وهي ترعى، بينما هو يعزف على قيثارته. لقد ربّاها ليستفيد من لحمها في غذائه. ومع ذلك، فقد غدا هو نفسه حبيب يهوه. ولذلك نرى أنه ينبغي التحفّظ على السيّد يهوه في أحد المصحّات، وليس في صوامع الكنائس.

"وحدث بعد مضي بعض الوقت، ان قايين قدّم من أثمار الأرض قرباناً للرب، وقدّم هابيل أيضاً من أبكار غنمه ومن سمانها. فنظر الرب الى هابيل وقربانه، ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر. فاغتاظ قايين جداً وسقط وجهه" (تكوين ٤ ، ٣ ـ ٥)[٢].

الحقيقة ان موقف يهوه هذا يثير الغضب، لأنه أظهر جوراً وتعسفاً واضحين. "فقال الرب لقايين: لماذا اغتظت؟ ولماذا سقط وجهك؟ إن أحسنت أفلا ترفع وجهك؟ وإن لم تحسن فعند الباب خطيئة رابضة، واليك اشتياقها، وأنت تسود عليها" (تكوين ٤ ، ٦ ـ ٧).

بماذا أجاب قايين يهوه؟ نحن لا نعرف، لأن التورات لم تقل شيئاً في هذا الصدد. والحقيقة أنه ينبغي علينا أن نعترف، بأن اللغو المبهم الذي سيق الينا في السطر السابع، يمكن أن يضلل أياً كان. فالاجابة لم تكن سهلة، وقايين لم يكن نبياً، وإلا لاستطاع أن يقول ليهوه الخرف: اذاً، أنت ياسيدي تفضّل قرابين اللحم؟ حسن! لكنك بهذا تقدم مثلاً حذا حذوك فيه كهنة الوثنية كلهم. إنك تكشف عن ذوق سيلتزم به عبدة الأصنام كلهم. وسيعلن هذا الذوق فظاً لا يليق بالآلهة؛ وهل تعرف من سيعلن ذلك؟ انهم اتباع التورات أنفسهم، خدم دينك!

لكن قايين لم يجب بشيء. انه، وهو الذي بذل جهداً جباراً لينتج

أفضل أنواع اليقطين، الذي قدمه قرباناً ليهواه، ثم رأى قربانه مرفوضاً، أدرك أن العجوز يسخر منه، فأحسّ بطعنة عميقة أفقدته توازنه لبعض الوقت. وبدلاً من أن يغضب من هذا الاله الفظ الأحمق المزاجي، انقضّ على أخيه وقتله.

"وكلّم قابيل أخاه. وحدث اذ كانا في الحقل أن قابيل قام على هابيل أخيه وقتله" (تكوين ٤ ، ٨).

باختصار ووضوح. كان قابيل شاباً عملياً سريع الحركة. فقد دعا أخاه إلى نزهة في الحقل، ولما ابتعدا فيه، افتعل معه شجاراً سخيفاً ثم رفع المجرفة وهوى بها على رأسه فقتله. وهكذا، كان حبيب يهوه وحده أول بشر بادر إلى الموت.

ما الذي دار في رأس قابيل بعد ذلك؟ هل تأثر لبشاعة الجريمة التي ارتكبها؟ لا شيء من هذا قط، بل تحوّل في غمضة عين إلى مجرم عريق، إلى محكوم بالاشغال الشاقة المؤبدة. أما ضميره، فقد بقي هادئاً، غير معذب. لقد تكشف فلاحنا عن نذلٍ غير عادي، ووقحٍ صفيق جريء. "فقال الرب لقابيل: أين هابيل أخوك؟ فقال: لا أعلم؛ أحارس أنا لأخي؟" (تكوين ٤ ، ٩).

اليكم اللوحة: أطلّ الله من وراء الغيوم وسأل القاتل، بينما كان هذا الأخير يتفل من بين أسنانه بهدوء وسكينة لا يتمتع بهما إلاّ مجرم محترف واثق من أنه أخفى آثار جريمته كلها، ووضع قروناً على رؤوس أجهزة التحقيق. بيد أن يهوه لم يدع أي تفصيل من تفاصيل الواقعة يفوته؛فقد كانت عينه الالهية حادة النظر في هذه المرة.

"فقال: ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخ اليّ من الأرض" (تكوين ٤ ، ١٠). اذاً، عقاب قايين سيكون صارماً. فقد لعنه يهوه قائلاً: "متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها. تائهاً وهارباً تكون في الأرض" (تكوين ٤ ، ١٢). وهكذا حكم عليه بالتشرد، والحرمان من سقفٍ يأويه تحت ظله، وبالبقاء تائهاً طيلة أيام حياته، دون توقف. ولكن، اذا كان قايين لن يعرف في تشرده وتجواله، الاستقرار والراحة، فكيف سيمارس العمل الزراعي اذاً؟ اذ من المعروف أن هذا العمل يتطلّب الاستقرار، وكيف سيحرث الأرض، حتى لو لم تعطِ ثماراً؟

لقد أخذ قايين هذا كله على محمل الجد، فذعر ذعراً شديداً، حتى أنه نسي أن الانسانية كلها كانت تتألف عندئذٍ من ثلاثة أشخاص فقط، هو واحد منهم، وان أحداً لا يتربص به عند الزاوية ليقتله! "فقال قايين ليهوه: ذنبي أعظم من أن يحتمل؛ انك قد طردتني اليوم عن وجه الأرض، ومن وجهك اختفي وأكون تائهاً وهارباً في الأرض؛ فيكون كل من وجدني يقتلني" (تكوين ٤ ، ١٣ - ١٤). إلاّ أن غضب الرب سرعان ما تراجع، وبعد أن فقد حسّ الواقعية، أخذ قايين تحت حمايته ضد القتلة الذين لا وجود لهم أصلاً. فاذا لم يكن هذا كله مجرد هذيان، فما هو اذاً؟

"فقال له الرب" لذلك كل من قتل قايين، فسبعة أضعاف ينتقم منه. وجعل الرب لقايين علامة لكي لا يقتله كل من وجده" (تكوين ٤ ، ١٥). هنا يخيّل للقارئ، انه ستلي هذا النص قصص المغامرات التي وقعت لقايين في أثناء تشرده. بيد أن شيئاً من هذا لم يقع. لأن ذاك "المتشرد" كان قعيد بيت وحسب. "فخرج قايين من لدن الرب،وسكن في أرض نود، شرقي عدن. وعرف قايين امرأته فحبلت وولدت حنوك. وكان يبني مدينة، فدعا

اسم المدينة كاسم ابنه "حنوك" (تكوين ٤ ، ١٦ - ١٧). اذاً، لقد تزوّج قابيل، لكن المؤلف لا يقول لنا من هي زوجته هذه؟ فهل كانت لآدم وحواء بنات - ؟ ليس ثمة لهذا السؤال سوى اجابة واحدة هي، نعم. غير أن التورات لم تجد أنّهن يستحقن الذكر؛ وعلى أي حال، لقد تزوج قابيل واحدة من اخواته، ونحن لن نلومه على ذلك، لأن سفاح القربى كان الزامياً في أزمنة البشرية الأولى، كما يفيدنا "الكتاب المقدس".

لكن ما يثير الدهشة في هذا كله هو، المدينة التي بناها قابيل. الحقيقة أن الكيل طفح الآن! تصوّر يا رعاك الله، ان متشرداً يبني مدينة! من أين أتى بالعمال؟ وما هي أدوات البناء التي استعملها؟ وأخيراً، من أين جاء قابيل بالسكان لمدينته؟

أما السطور التالية من الأصحاح الرابع في سفر التكوين، فتصف لنا ذرية قابيل: حنوك وَلَدَ عيراد، وعيراد وَلَدَ محويائيل، ومحويائيل ولد متوشائيل، ونحن لا نعرف عن هذه الشخصيات شيئاً سوى اسمائها. ومثوشائيل وَلَدَ لامك، الذي كان حظه في مسائل الزواج، أسوأ من حظ أسلافه الاتقياء. فللامك المحترَم هذا هو من "اخترع" تعدد الزوجات، وكبداية، اتخذ لنفسه زوجتين. ولدت عادة له ولدين هما، يابال ويوبال، وولدت له صلّة، توبال وأخته نعمة.

ويبدو أن أبناء يابال كانوا يفضلون هواء الحقول النقي، على هواء المدينة، التي بناها جدهم قابيل، لأنهم كانوا أوّل بشر سكنوا الخيام. لكن أبناء يوبال اختاروا حياة المدينة؛ ثم ظهر أنهم أكثر أفراد العائلة مرحاً، لأنهم كانوا يحبون الموسيقى. فقد كان يوبال "أباً لكل ضارب بالعود والمزمار" (تكوين ٤ ، ٢١).

لقد كان لامك المزواج، ذا رأس لاملل فيه. فقد ساق لنا سفر التكوين واحدة من خطبه، أفضل سماتها أنها قصيرة؛ ولم يستطع أي من شارحي التورات أن يفهم شيئاً منها: "وقال لامك لامرأتيه، عادة وصلّة، اسمعا قولي يا امرأتي لامك: فاني قتلت رجلاً لجرحي، وفتى لشدخي؛ انه يُنتقم لقايين سبعة أضعاف، وأمّا للامك فسبعين مرة سبع مرات" (تكوين ٤ ، ٢٣ ـ ٢٤). وبعثت هذه الكلمات الذعر في قلّبي المرأتين، وأصابهما منها ذهول أنساهما طلب أي تفسير لالغاز الغطرسة هذه.

ثم تنتقل التورات مباشرة، إلى تسجيل واقعة ولادة شيث، الابن الثالث لآدم. "وعرف آدم امرأته أيضاً، فولدت ابناً ودعت اسمه شيثاً؛ قائلة: لان الله قد وضع لي نسلاً عوضاً عن هابيل، الذي قتله قايين. ولشيث أيضاً، وُلد ابن فدعا اسمه أنوش؛ حينئذٍ ابتُدِئ يُدعى باسم يهوه" (تكوين ٤ ، ٢٥ ـ ٢٦).

أما الأصحاح الخامس من سفر التكوين، فقد كرّس كله لسلسلة نسب نوح، الذي خرج من آدم عبر شيث. وتركت ذرية قايين جانباً، ثم أهملت تماماً ولم يُذكر بعد ذلك قط. اننا نقع على الخط التالي لتطوّر شجرة النسب، التي لم تذكر فيها سوى أسماء أكبر الأبناء: شيث، افوش، قينان، مهللئيل، يارد، اخنوخ، متوشالح، لامك، نوح. لكن ما يثير الفضول في هذا الاصحاح هو، طول عمر هؤلاء الأحبار؛ فقد كان آدم في ١٣٠ من عمره، عندما وُلد له شيث، وعاش بعد ذلك ٨٠٠ عام، ومات شيث عن عمر ٩١٢ عاماً؛ وعاش اخنوخ ٩٠٥ أعوام؛ وقينان ٩١٠ أعوام؛ أما لامك فلم يعش سوى ٧٧٧ ربيعاً. وتجدر الاشارة هنا إلى أن اخنوخ بن يارد، كان أكثر هؤلاء الشيوخ حنكة ودهاء، فهو ببساطة، لم يمت.

"وعاش اخنوخ خمساً وستين سنة وولد متوشالح. وسار اخنوخ مع الله بعدما ولد متوشالح، ثلاث مائة سنة، وولد بنين وبنات. فكانت كل أيام أخنوخ ثلاث مائة وخمساً وستين سنة. وسار اخنوخ مع الله، ولم يوجد لأن الله أخذه" (تكوين ٥ ، ٢١ - ٢٤).

انه لحدث مدهش! وليس مهماً بالنسبة الينا كيف طوّره اللاهوتيون، فنحن نتوقع منهم كل شيء. لكن متوشالح هو الذي حاز على الكأس في مباراة طول العمر، ومتوشالح هو ابن اخنوخ، الذي أخذه يهوه معه إلى السماء. ويبدو أن هذا الرجل كان فحلاً قوياً، فقد عاش بتولاً طيلة ١٨٧ عاماً، ثم أنجب لامك الثاني، وعاش بعد ذلك ٧٨٢ عاماً، وأظهر فحولته في هذه المرة أيضاً: "وعاش متوشالح بعدما وَلَدَ لامك سبع مائة واثنين وثمانين سنة، وولد بنين وبنات" (تكون ٥ ، ٢٦).

اذاً، لقد عاش هذا الرجل ٩٦٩ سنة! انه لأمر يثير الشك، ان لم يثر السخرية، فذلك العمر المديد كله في ذلك الزمان الغابر؟ ولكن ماذا نقول في نوح ابن ابن لامك؟ ودعا ابنه نوحاً، "وقال: هذا يعزينا عن عملنا وتعب أيدينا في حراثة الأرض التي لعنها الرب" (تكوين ٥ ، ٢٩). "وكان نوح ابن خمس مائة سنة، وولَدَ نوح ساماً وحاماً ويافثاً" (تكوين ٥ ، ٣٢). ونحن لا نعرف ما الحكمة في أن ينتظر المرء حتى يبلغ الخمس مائة من عمره، حتى يبدأ يقبّل زوجته؟ ولكن، ان تتأخر خير من ألاّ تفعل قط!

لقد كتبوا كثيراً عن العمر المديد جداً، الذي عاشه بطاركة سفر التكوين. ولما رأى علماء اللاهوت الكاثوليك، انه يصعب كثيراً تغيير هذه الخزعبلة، حاولوا انقاذ رواية "الكتاب المقدس" من السخرية بقولهم: ان ما يقصد اليه بهذه الأعوام الكثيرة هو، دورة القمر وحسب، لأنهم كانوا في

ذلك الزمان يحسبون الأشهر فقط. ولكن اذا أخذنا هذا الزعم على محمل الجد، فان متوشالح لم يعش سوا ثمانين عاماً. غير أن هذا التأويل أثار جنون المتزمتين، الذين لا يريدون التخلي عن الايمان بخرافة السنين الطويلة التي عاشها الناس الأوائل. فأكدوا على أن سنة التورات هي أثنا عشر شهراً غير منقوصة، أو أن الروايات التوراتية ستغدو موضوعات للتسلية وحسب. فحسب سفر التكوين، ان ابراهيم عاش مائة وخمسة وسبعين عاماً، واذا حوّلنا هذه السنوات الى دورات قمرية ،فاننا نحصل على أربعة عشر عاماً وسبعة أشهر، هي العمر الذي عاشه ابراهيم. ثم تقول التورات، ان اخنوخ وقينان ومهللئيل انجبوا أبكارهم في سن التسعين. السبعين، والخامسة والستين. وإذا حسبنا هذه السنين وفق الدورة القمرية، فانه ينبغي علينا أن نعترف عندئذٍ بأن المذكورين أنجبوا أولاداً وهم في سن، السابعة والنصف، الخامسة وعشرة أشهر، والخامسة وخمسة أشهر. وأخيراً، حسب النص التوراتي، ان ناحور أنجب في سن التاسعة والعشرين، أي، حسب دورة القمر، في الثانية وخمسة أشهر، فهل هذا معقول؟!

لذلك من الأفضل لو اعترف اللاهوتيون الكاثوليك بأن سنة التورات تتألف من اثني عشر شهراً غير منقوصة. عندئذٍ يصبح الأمر في غاية الطرافة، خاصة اذا علمنا أن جدنا الجليل نوح انتظر حتى قرع باب عامه الخمس مائة ليقرر أنه آن الأوان ليبدأ حياته الجنسية.

الفصل الرابع

الملائكة

ومغامرات غرامية على الأرض

هاقد وصلنا إلى واحد من أكثر أماكن التورات إثارة للفضول، وهو المكان الذي أسقطه الكنسيون من كتب تعليم "التاريخ المقدس"، معبرين بذلك عن صفاقة متناهية، وفنّ ومهارة في تزوير عقائد الدين. فآباء الكنيسة "المقدسون" يصرخون بأعلى صوت: ان التورات كتاب "الهي"، وانها كتبت تحت اشراف الله مباشرة، ولذلك فان مافيها كله حقيقة خالصة، وهي تستحق التبجيل كله. ولكن، لماذا لا يمنح رجال الكنيسة المؤمنين فرصة لمعرفتها كلها، دون حذف أيّ سطر من سطورها؟ فالكتب "المقدسة" يجب أن تؤخذ كما هي. أما حذف هذا المقطع أو ذاك منها لأنه يتناقض مع بعض بنود العلوم اللاهوتية التي أُعلنت عقائد ايمان، فانه ليس أفضل من رميها برمتها. لأنها لن تبقى بعد ذلك مقدسة، وتغدو مستحقة كل احتقار. فالكذب في بند ما، يشكل قرينة كافية لدحض منشئها الالهي كله.

فما أن يذكر اسم نوح، حتى ينتقل أي واعظ ديني كان، إلى قصة الطوفان، مؤكداً أن شرور الناس أثارت غضب يهوه وأرغمته على ارسال الطوفان ليجرف تياره كل شيء، بما عدا عائلة واحدة زعموا أن ربّها بقي صالحاً نقياً.

لكن التورات تقول شيئاً مختلفاً، اذ تعرض السبب الحقيقي لإثم البشر في أربعة سطور من الاصحاح السادس في سفر التكوين. ولا أظن أنه يحق للسادة اللاهوتيين التزام الصمت حيال هذا المقطع من كتابهم "المقدس"! واذا كان المقطع المذكور يضعهم في موقف حرج، فقد كان ينبغي على "الروح القدس" أن يرى ذلك مسبقاً ويمتنع عن تلقينه لكاتب سفر التكوين! العلقم مرّ طعمه، لكن معلميّ الكنيسة وكهنتها "المقدسين"، كانوا، قد شربوه مرّة قبل ذلك. ويتمثل هذا العلقم الآن في السطور الأولى من الاصحاح السادس في سفر التكوين، حيث نقرأ: "وحدث لمّا ابتدأ الناس يكثرون على الأرض، وولد لهم بنات، ان رأى أبناء الله أن بنات الناس حسنات، فاتخذوا لانفسهم زوجات من كل ما اختاروا. فقال الرب: لن يظل الانسان مزدرياً روحي إلى الأبد، ولأنه بشر، فلتكن أيامه مائة وعشرين سنة. كان في الأرض طغاة، في تلك الأيام، وخاصة منذ الوقت الذي أصبح يدخل فيه بنو الله على بنات الناس، وبدأن يلدن لهم أولاداً: هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم" (تكوين ٦ ، ١ - ٤).

وعلى الرغم من أن كتاب التكوين لا يروي لنا قصة خلق الملائكة، إلاّ أنه ينوه إلى هذه الكائنات هنا للمرة الثانية: "الكيروب" في المرة الأولى، وهو حارس بوابات بستان عدن. ونحن نرى من المفيد أن نقول هنا بضع كلمات عن ايمان اليهود القدماء بالملائكة.

فمن المعروف أن المسيحيين أخذوا دينهم عن معتقدات اليهود القدماء، لكنهم أنشؤوا عقائد جديدة لا نقع على اثر لها في التورات. فقصة ثورة الشيطان، هزيمته أمام ميخائيل، رئيس الملائكة، مختلقة جملة وتفاصيل. ونحن لا نستطيع أن نتجاهل هذه المسألة عند دراستنا التورات من وجهة نظر العقيدة المسيحية.

فحسب تعاليم اللاهوت المسيحي، ان سيّد السماء، الله، قال لنفسه يوماً: لا يليق بي وأنا الكلّي القدرة، أن أقف عند خلق السماء والأرض فقط؛ وبما أنني عمّرت الأرض بالبشر، فلماذا لا أُعمّر السماء أيضاً؟ وفي يوم من الأيام رأينا، أن يهوه ضاق ذرعاً بالخراب الكوني. وها هو يضيق الآن ذرعاً بالعيش وحيداً في الجنة. وبما أنه كان ماهراً في صنع كل ما يخطر بالبال من أشياء مسلية، وكائنات حية، فقد خلق لنفسه الملائكة، ولم يكن لهؤلاء إلاّ مهمة واحدة هي، خلق جوٍّ من المرح يمنع تسرب الملل الى نفس العجوز. ثم أعدّ يهوه لنفسه عرشاً يجلس فوقه أثناء قيادته الاجتماعات السماوية. ولكي يروّح الملائكة عن نفس السيّد يهوه، فانهم لا يتوقفون عن الغناء. وبما أنهم مخلوقات خارقة، فهم لا يتعبون.

ولكن ها هو أحد الملائكة، يختار عرش العلّي القدير لنفسه، فقد رأى أنه لا ضير في أن يشغل هو نفسه كرسيّ الرئاسة بدلاً من العجوز القادر الخالق يهوه، وقد دعا الكنسيون ذلك الملاك الشاب المتمرد الطموح، باسم لوسفير ـ الشيطان. وقد رأى بعض الملائكة في دافع زميلهم الاجرامي، طرفة رائعة؛ ويبدو أن هؤلاء كانوا من الملائكة الذين أرهقتهم تمارين الغناء التي لا تنتهي، فانضموا إلى ذاك المقدام، بينما وقف أكثر الملائكة ضد مساعيه، وقام بينهم المدعو ميخائيل، وهو كبير الملائكة، فأخذ على عاتقه

مهمة الدفاع عن مصالح يهوه. وتولى قيادة جنود السماء، وجَلَدَ الملاك العاصي بكل قسوة، ثم قذف به إلى جهنّم، إلى "مملكة" تحتية ما، أُسست له في الحال، وسقط معه إلى هناك، أنصاره كلهم، وعاد العجوز إلى كرسي الرئاسة ثانية.

تلك هي الخرافة التي جعل الكنسيون منها عقيدة من عقائد الايمان، فرددوها على مسامع المؤمنين، وارتعش هؤلاء خوفاً، وهو ما سعى اليه الكنسيون: احذري أيتها الخراف الطاهرة! فاذا عصيت ارادة السادة الكهنة، سقطت إلى الهاوية التي هوى فيها الملائكة الحمقى، إلى جهنّم.

في التورات اليهودية القديمة، أي في أسفارها التي كتبت بعد السبي البابلي (بعد مضي أكثر من ألف عام على التاريخ الذي يُنسب اليه موت موسى)، يجري الحديث عن الشيطان، ويوصف فيها ابليس بأنه أكثر الشياطين أهمية. فالشياطين هي، أرواح شريرة، لكنها مثل يهوه والمقربين منه. ولا نقع فيها على أيّ ايضاح آخر. فهم لا يصفون الشياطين بأنها كائنات تاعسة، مطرودة من الجنة السماوية، ومقيدة إلى جدران جهنم المستعرة. ففي قصة أيوب، نرى ابليس يتجوّل في السماء متبختراً، بل ويدخل في جدال مع يهوه نفسه. ولمّا رأى النّقاد أن هذه الشياطين تعيش في التورات عيشة مرحة، ولا تعاني عذابات جهنهم، أشاروا إلى أن هذه الحال تتوافق مع عقائد الكلدانيين والفرس، الذين يعود تاريخ كتبهم المقدسة إلى زمن أكثر عمقاً في التاريخ من كتاب اليهود. وبناء على هذا سجلوا الاستنتاج التالي: في فترة السبي البابلي، أضاف اليهود الى معتقداتهم بعض معتقدات الشعوب التي تأتى لهم العيش بين ظهرانيها. أضف إلى هذا أن الاسم الذي أطلقه اليهود على الشيطان الرئيس، يحمل طابع الديانة

الكلدانية أو البابلية: "ساتانا"، أي ابليس، ليست كلمة يهودية، بل كلدانية، معناها، "الكره".

وهكذا نكتشف أن يهوه أخفى عن شعبه "المختار" قصة المؤامرة التي حاكها بعض الملائكة ضده، وأخفى عنه ايضاً، الاسم الحقيقي للمتمرّد الرئيس. فالتورات لا تدعوه لو سفير في ايّ نصّ من نصوصها. فهذا الاسم أطلقه المسيحيون عليه. ومع ذلك، حاول أحبار الكنيسة جهدهم ليجدوا في العهد القديم أشارة ما بصدد لو سفير. لكنهم فشلوا، فلجؤوا إلى تزوير متقن خدعوا به المؤمنين، الذين لا يقرؤون التورات، بل يستمعون إلى قراءاتها وتفسيرها من الكهنة المحترفين. لذلك، لابد من اخراج هذا التزوير ووضعه على صفحة بيضاء، ولكننا نستميح القارئ عذراً لبعض الاستطراد الذي لابد منه كي نضع النقاط على الحروف في هذه المسألة.

في نبوأة أشعياء (١٤ ، ١٢) يجري الحديث عن لوسفير باسمه الحقيقي. هذا ما يؤكده اللاهوتيون، بعد أن يسوقوا بداية السطر المذكور بصيغة يجري تحريفها بمساعدة الترجمة اللاتينية للتورات. ففي هذا الاصحاح، يصبّ هذا اليهوذي المتزمت جام حقده على البابليين، الذين طال زمن استعبادهم لليهود، ويتنبأ للملك البابلي بقرب انهيار مملكته وتحولها إلى رماد. فيصرخ قائلاً: "لأن الرب سيرحم يعقوب، ويختار أيضاً اسرائيل؛ ويريحهم في أرضهم.. انك تنطق بهذا الهجو على ملك بابل وتقول: كيف باد الظالم بادت المغطرسة! قد كسر الرب عصا الأشرار، قضيب المتسلطين.

كيف سقطت من السماء يا زهرة بنت الصبح! كيف تحطمت على الأرض يا قاهر الأمم. وأمّا أنت فقد طرحت من قبرك كغصن أشنع، كلباس

القتلى المضروبين بالسيف، الهابطين إلى حجارة الجب كجثة مدوسة. لا تتحد بهم في القبر، لأنك أخربت أرضك، قتلت شعبك: لا يسمى الى الأبد نسل فاعلي الشر" (أشعياء ١٤، ١، ٤، ٥، ١٢، ١٩، ٢٠).

لكي يستطيع المرء آن يؤكد بأن الحديث يجري هنا عن لوسفير ـ ابليس، يجب أن يتمتع بأقصى درجات الصفاقة. فاشعياء يتحدث بوضوح ظاهر، عن الملك البابلي وحسب؛ وليس حديثه هذا أكثر من فيض من الحقد والغضب والوعيد، موجهة كلها إلى نبوخذ نصّر، الذي سبى اليهود وأذلهم واستعبدهم.

أمّا الآن، فسنرى كيف حرّف "القديس" هيرودنيم[1] التورات أثناء ترجمتها إلى اللغة اللاتينية. لقد استغلّ هيروينم مقارنة أشعياء للملك البابلي بنجمة الصبح (كوكب الزهرة)، التي يدعوها اليهود خليل (صبح)، ويدعوها الرومان لوسفير (حامل الزهرة)، ثم سمح لنفسه أن يبسط الشطر الأول من السطر الثاني عشر، باللغة اللاتينية كمايلي: "Quomodo cocidisti de coel, Lucifer, qui mane orieberis ("كما سقطت أنت من السماء يالوسفير، أنت الذي يستيقظ كل صباح").

وعندما يأتي النص اليهودي الأصلي على ذكر اسم خليل، فانه يتحدث عن الملك البابلي، فيقارنه بنجمة الصبح ـ الزهرة. امّا اللاهوتيون فيطلقون صيحة النصر معلنين: "إن التورات تؤكد على سقوط لوسفير! وهذا ما يتحدث عنه أشعياء النبي". انها لثقة تبلغ حدّ الوقاحة! مرة أخرى نقول: ان الكتب اليهودية "المقدسة" القديمة، لا تقدم أي أساس لخرافة عصيان لوسفير وهزيمته!

نعود الآن إلى ملائكة الاصحاح السادس من سفر التكوين، ونرجع إلى مصادر ليست أقل قداسة من سابقاتها، وفيها نقع على بعض التفاصيل

المتصلة بمعايشة سكان السماء لنساء الأرض الجميلات. ان الكتب التعليمية التي وضعت لتعليم بسطاء الناس "التاريخ المقدس"، لا تحتوي على أيّ تنويه عن المغامرات، التي كشفت عنها السطور الأربعة المذكورة. وما يجدر ذكره أن تلك السطور لم تحذف من التورات. لكن هذا ليس كل شيء، فلخدمِ الدين، ولهم فقط، كتاب آخر يحيطونه بجلال كبير، ولا يسعون لنشره، إنه كتاب أخنوخ[٢].

وأنا آمل ألاّ يكون قارئي الكريم قد نسي الشيخ اخنوخ، إنه هو نفسه ذاك الحبر الذي عاش ٣٦٥ عاماً، وحظي بحب يهوه، فأخذه معه إلى السماء "بلحمه وعظمه"، كما أخذ جوبتر هينميدس[٣]. ولكن خرافة تقول: ان أخنوخ كتب سفراً، ولحسن الحظ أنه لم يحمله معه إلى الجنة، بل عهد به إلى ولده ميتوشالح، ثم حمله نوح معه إلى الفلك أثناء الطوفان.

والحقيقة أن هذا الكتاب بقي زمناً طويلاً لا يعرف عنه أحد شيئاً؛ وثمة من يؤكد أنه كان موجوداً في "زمن الرسل" (أي منذ ١٩ قرناً)، غير أن أحداً لا يعرف أين. ويجدون البرهان على ذلك، في العهد الجديد، اذ تقول رسالة يهوذا الرسول: "وتنبأ عن هؤلاء (عن الآثمين ـ المترجم) أيضاً أخنوخ السابع من آدم قائلاً: هو ذا قد جاء الرب في ربوات قديسيه، ليصنع دينونة على الجميع، ويعاقب جميع فجّارهم على جميع أعمال فجورهم التي فجروا بهم...". وبما أن الذي يقتبس من الكتاب هو "رسول مقدس"، فعلينا أن نصدقه! لأنه يعرف! لكن اللاهوتيين تساءلوا على امتداد قرون: ما الذي جرى لكتاب اخنوخ؟

أخيراً وقع الرحالة الهولندي جيمس بريوس على هذا الكتاب الشهير في أبيسينا (أثيوبيا). والحقيقة أنه هاجم الخرافة الاثيوبية، لأنه من غير المعقول أن

يكون أخنوخ قد كتب رواياته باللغة الاثيوبية. بيد انه من الرائع حقاً ان تساعد "العناية الالهية" المرء عندما يمارس اللاهوت! فالكتاب الذي كتبه أخنوخ باللغة التي كانت سائدة قبل "بلبلة بابل"، كان له مصير مدهش. فبصرف النظر عن اندثار اللغة البدائية دون أثر، فقد وُجد اليهودي الذي استطاع ان يترجم الكتاب المذكور؛ ولكن الترجمة اليهودية القديمة لهذا الكتاب فُقدت بغير اثر. وفجأة وقع عليها هولندي آخر، في نهاية القرن الثامن عشر، اذ وجد النص الكامل للترجمة اليهودية للكتاب في اثيوبيا. ونحن لا يسعنا إلاّ أن نشكر "العناية الالهية" على اهتمامها بكتاب اخنوخ.

جاء بريوس بلقيته الثمينة إلى مكتبة جامعة اوكسفورد، وكاد اللاهوتيون يفقدون صوابهم فرحاً. فتتالت الترجمات، وصدرت الترجمة الانكليزية للكتاب في عام ١٨٣٨ ، بقلم الاسقف الايرلندي ريتشارد لودرنيس.

يتألف كتاب اخنوخ من أحد عشر اصحاحاً[٤]. يروي الثاني منها قصة عشق الملائكة لبنات البشر: "بما أن عدد الناس زاد كثيراً، فقد أصبح عندهم كثير من الفتيات الجميلات. فأُغرم الملائكة بأكثرهن حسناً، واقترفوا بسبب ذلك كثيراً من الآثام. لقد دبَّ الحماس فيهم فقالوا: لننزل إلى الأرض ونختر لانفسنا زوجات من بين أجمل فتيات البشر. عندئذٍ قال لهم سيميازاس، الذي جعله يهوه أميراً على ألمع الملائكة: انه لسعي مشكور، وأمنية رائعة، لكنني أخشى ألاّ يكون بمقدوركم تحقيقها فأجد نفسي مرغماً على أن أنجب وحدي أطفالاً من بنات البشر. فأجابه جميعهم: اننا نقسم على اننا سنحقق غايتنا، ولنكن ملعونين إن نحن أخلفنا. واتحدوا بهذا القسم كلهم. كان عددهم في أول الأمر، مائتي ملاك. وقد وقع هذا في الزمن الذي عاش فيه يارد والد اخنوخ.

وهكذا توجه الملائكة الى الأرض معاً، فصعدوا إلى جبل حرمون، جبل القَسَمِ، وهي أسماء زعمائهم العشرين، سيميازاس، أتاكورث، أراسيئيل، حوبابيئيل، كورامام، راميئيل، سامبسيك، زكينيل، بالكينيل، حزاقيئيل، ثارمار، اماريئيل، اناغيماس، ثاوزائيل، ساميئيل، سارايناس، يغميئيل، ثيريئيل، يوميئيل، ساريئيل. هؤلاء، وكثير غيرهم أخذوا لأنفسهم زوجات من بنات البشر، بعد ١١٧٠ عاماً من لحظة خلق العالم. فولد العماليق من تلك الزيجات...".

اذاً، ليس ثمة عصيان ضد يهوه، انما الأمر يتلخص في ان عدداً من صيادي الحب نزل إلى الأرض بزعامة الأمير سيميازاس، بحثاً عن الحب وحسب؛ وسيميازاس هذا ليس لوسفير أو ابليساً. ولكن، للتاريخ نقول: ان يهوه أخذ يتململ ضيقاً عندما رأى أنه سيبقى وحيداً اذا ما بقي سيل الملائكة ـ العشاق يتدفق إلى الأرض. غير أنه كظم غيظه وصبر طويلاً. ويعطينا سفر التكوين وكتاب أخنوخ رؤيتين مختلفتين بصدد انفجار غضبه العظيم. اذاً، الأمر على غير ما يرام.

فحسب سفر التكوين، ان ملاحقة الملائكة فتيات البشر، جعلت هؤلاء في غاية الحساسية. ونحن نرى في هذا مادة تشغل اللاهوتيين. فبامكان اللاهوتي أن يقول: اذا كانت اللعبة قد أعجبت فتيات البشر، وانهن كنّ شبقات لا يرتوين، فانه كان بمقدور الملائكة، وهم كائنات خارقة، ان يمنحوهن قدراً خارقاً من اللذة الجسدية الحسية، الأمر الذي كان سيؤدي إلى اثارة غيظ بني البشر، الذين لا يستطيعون منافسة الكائنات السماوية في هذا الميدان. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: ما علاقة يهوه بهذا كله؟ ألم يوص البشر أن يثمروا ويتكاثروا؟

بيد أن كتاب اخنوخ يعرض الأمر من زاوية أخرى. فالملائكة غدوا على الأرض آباء سعداء، وأخذوا يهتمون بأولادهم، وصاروا ذوي مهارات فائقة. فعلموا أبناءهم صقل الحجارة الكريمة، والسحر، وفن قراءة المستقبل بالاجرام السماوية، بل وعلموا عشيقاتهم الأسرار العظمى. وسرعان ما تفوّقت عشيقات الملائكة وأولادهن العماليق، على بني البشر الآخرين. واذا كنت تملك فن السحر، فما الذي يصعب عليك فعله؟!

"وأخذت الأرض تنتحب، وامتلأت 'بصيحات الأسى". فأثرت "آلام" الأرض في أربعة من الملائكة الأصدقاء، الذين طلبوا من يهوه وضع حدّ لتلك المهزلة. وفي الوقت عينه، نشأ نزاع بين السيّد ازازيل ـ وهو ملاك متزوج من فتاة أنسية ـ والأمير سيميازاس، فتلقى هذا الأخير بضع لكمات على فكيه فَقَدَ منصبه على اثرها، وحل ازازيل زعيماً بدلاً منه. فأرسل يهوه رافائيل ليقضي على ازازيل، وحوصر صاحبنا في أحد الكهوف الواقعة في برية دودويل.

بعد هذه الأحداث رأى يهوه أن الطوفان ضرورة لابد منها لتطهير الأرض من الشرور، وهي الطريقة الوحيدة التي رآها ناجعة لمنع العماليق من ممارسة السحر على الأرض، فأغرقها بالمياه وأغرق معها البشر المساكين، الذين عانوا مرارة رزالة العماليق السحرة. لكنه قبل أن ينفّذ قراره الرهيب، استدعى الملائكة الذين نزلوا إلى الأرض ليتسكعوا ويتزوّجوا، وأمرهم بالرجوع عن غيّهم، وبالسلوك سلوكٍ مستقيم والكف عن ممارسة الزنى مع بنات البشر.

ويجب علينا أن نفترض بأن الملائكة أصبحوا بلا جنس (ليسوا إناثاً ولا ذكوراً) منذ ذلك الوقت. فلكي يتفادى السيّد يهوه وقوع مزيد من العبث في المستقبل، الزمهم، على الراجح، أن يتخلّوا عن أعضائهم التناسلية إلى

الأبد، وهذا بالضبط ما كان يفعله ملوك الشرق بكل رجل يشغل وظيفة في حريمهم. ونحن نرى في حذف الكنسيين هذا المقطع من الكتب التي يضعونها لتعليم "التاريخ المقدس"، ضرباً من العبث، لأنهم بهذا حرموا الناس معرفة سبب كون الملائكة مخصيين.

أما ازازيل التاعس، الذي سجنه رافائيل في الكهف، فقد نُسي تماماً وغرق في الطوفان!

والآن، هل بقي عند أحد شك في أن العناية الالهية وحدها التي ساعدت على العثور على كتاب اخنوخ؟ انه لم يُفقد عند المسيحيين الأوائل، فالرسول يهوذا يقتبس منه، وتحدث عنه بعض آباء الكنيسة بصفته كتاباً معروفاً. وحافظ هذا الكتاب على مكانته الرفيعة عند المسيحيين، حتى القرن الميلادي الرابع. ولكن، بعد أن فطن رجال الكنيسة إلى أن "أخنوخ" يشرح في كتابه، السطور الأربعة الأولى من الاصحاح السادس في سفر التكوين ويؤكدها، حذفوا الكتاب من التورات.

أما بعد أن رأينا كيف تصوّر اليهود الملائكة، لا يسعنا إلاّ أن نؤكد على أن الكنيسة المسيحية أدخلت على الرؤية اليهودية تغيرات كبيرة. ومع ذلك فهي تعترف بأن اليهود هم، شعب الله المختار، وتقر بالكتب الدينية اليهودية كتباً "مقدسة لا شك فيها".

فدرجات الملائكة عند اليهود عشر درجات هي: ١ ـ كادوشيم، أو المقدسون الطاهرون؛ ٢ ـ افاميم، أو السريعون؛ ٣ ـ أوراليم، أو الاقوياء؛ ٤ ـ شاسماليم، أو المتوهجون؛ ٥ ـ سيرافيم، أو الشرارات؛ ٦ ـ مالاخيم، أو الرسل؛ ٧ ـ ألوهيم، أو الالهيون؛ ٨ ـ بن ألوهيم، أو أبناء الله؛ ٩ ـ كيروبيم، أو الملائكة الثيران؛ ١٠ ـ إبشيم، أو المتحمسون. إلاّ أن البابا

غريغوري الأول وزعهم توزيعاً مختلفاً تماماً. فنزولاً عند ارادته "الكلية القداسة"، قسم الملائكة في المسيحية إلى ثلاث درجات في كل منها ثلاث رتب: الدرجة الأولى هي، السيرافيم، الكيروبيم والمذابح؛ الدرجة الثانية، ملائكة القوة، والسلطة، والسيطرة؛ والدرجة الثالثة، ملائكة البداية، رؤساء الملائكة، والملائكة العاديون. وان دلّ هذا التقسيم على شيء، انما يدل على مدى قوة السلطة التي يتمتع بها البابا؛ لأن حق اعادة توزيع الرتب السماوية ليس بالأمر العادي.

ومما يذكر هنا، ان رجال الكنيسة المسيحية يؤكدون على أن اليهود لم يفهموا كتبهم "المقدسة"، وانهم لا يفهمون ديانتهم حتى الآن، ولا يعرفون "الايمان الحق". تخيّل ان هؤلاء اليهود الحمقى "لم يدركوا" ان أشعياء، عندما هاجم الملك البابلي و"تنبأ" له بيوم انهيار مملكته، انما كان يقصد في حقيقة الأمر، ليس هذا الملك، بل الخرافة القديمة عن العصيان الذي أعلنه لو سفير ضد يهوه! وما الربوات اليهود سوى كومة من الاغبياء، لانهم لم يستطيعوا قراءة ذلك بين السطور! ويؤكد أحبار الكنيسة المسيحية، ان التورات تضم بين دفتيها أشياء كثيرة أخرى لم يرها اليهود.

"الثالوث" على سبيل المثالّ حاول، اذا شئت، أن تقنع يهودياً مؤمناً بأنه يسجد لإله واحد في ثلاثة أقانيم. ولكنني أقول لك مسبقاً، إنك عبثاً تبدد وقتك وجهدك، لأنه سيسخر منك قائلاً: لو أن يهوه كان واحداً في ثلاثة أقانيم لاعترف بذلك لموسى، أو للآباء الأوائل، أو للرسل. وسيحمل التورات بين يديه ليؤكد على أنها لا تحتوي على أيّ كلمة يمكن أن تكون مجرّد تنويه لوجود "الثالوث"، الذي يعتبره هو أمراً مفهوماً، وأن التورات تؤكد قطعاً، بأن يهوه شخصية واحدة وحدانية لا تتجزّأ.

وعندما يرى اللاهوتي المسيحي هذه "الحماقة"، ويبتسم بلطف ووداعة، ويرفع كتفيه استخفافاً. فهو يكفيه، أيها السادة، أن يسوق أوّل سطرين في سفر التكوين حتى يبرهن لكم أن "الثالوث" كان موجوداً في الأزمنة كلها، وان هذا الأمر واضح ولا يحتاج برهاناً. ثم يأخذ التورات ويقرأ عليكم بكل فخامة ومهرجانية، مايلي: "في البدء خلق الوهيم السموات والأرض. وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرفّ على وجه المياه". هذه هي الترجمة الحرفية للنص اليهودي. ألا ترون هنا الاله الأب، والاله الابن، والاله الروح؟

الحقيقة أنهم للوهلة الأولى لا يظهرون. ولكن ما أن يضع أحدنا نظارات اللاهوت المسيحي على عينيه، حتى يميز هذا الثالوث بوضوح تام. وهذه النظارات ستتمثل، اذا سمحتم لي، في المحاكمة العقلية التي يسوقها القديس أوغسطين في الفصل الثاني من كتابه "De cantico novo". صدقوني انه لا شيء أكثر اقناعاً من هذه المحاكمة. فاللاهوتيون جميعهم يعتبر أوغسطين نور اللاهوت.

اليكم المحاكمة المنتظرة: ان التعبير التوراتي "في البدء"، والذي يعني بداية الأزمنة والأشياء، هو في حقيقة الأمر "الاله الابن". أتريدون البرهان؟ اليكموه. تناول من فضلك كتاب "العهد الجديد" واقرأ الاصحاح الثالث في "رؤيا يوحنا اللاهوتي"، حيث يسمّى المسيح هناك "بداءة خليقة الله". ثم افتح انجيل يوحنا واقرأ معي في الاصحاح الثامن بماذا أجاب يسوع اليهود عندما سألوه "من أنت؟ فقال لهم يسوع: أنا من البدء".

اذاً تصبح القراءة الصحيحة للسطر الأول من سفر التكوين كمايلي: "في الاله الابن، الذي هو البداية، خلق ألوهيم الأب السموات والأرض".

وبهذا تظهر معنا أوّل شخصيتان من الثالوث، وسنرى الثالثة بعد لحظة. ولكن فلنأخذ نظارات أو غسطين ثانية لنر ان هذا الثالث الذي هو "الاله الروح" يختبئ في السطر الثاني من سفر التكوين: "وروح الوهيم يرفّ فوق وجه المياه".

تخيّل يا سيدي أن أولئك اليهود الحمقى، لم يروا هذا كله في السطرين الأولين من كتابهم! إنه لعمى مذهل حقاً!

افرح ايها "الاله الروح" الذي بدد وقته كله يرفّ فوق المياه. لكن السؤال الذي يبرز من تلقائه هو: أحقاً "الروح القدس" حمامة؟ اننا نعتقد أنه بطة! مجرد بطة!

الفصل الخامس

الطوفان الكوني[1]

يتوخى سفر التكوين الحذر الشديد في وصفه تفاصيل الجرائم والآثام التي اقترفها أحفاد آدم على الأرض في أثناء معاشرة الملائكة نساء البشر. فهو يقول: "ورأى الرب أن شر الانسان قد كثر في الأرض، وان كل تصوّر أفكار قلبه، انما هو شرير كل يوم"(٦ ، ٥).

نقول دون مواربة، إن أحفاد آدم تركوا الصلاة عند الصباح والمساء، على أغلب الظن، لأنه ما من شيء يجعل يهوه غاضباً الى هذه الدرجة، سوى الخلل بمواعيد الصلاة. وهذا ما يقوله لك كل كاهن. فمن ينسى أن يرفع الصلوات ليهوه في مواعيدها، معرّض للسقوط في الخطيئة كل حين.

"فحزن الرب لأنه عمل الانسان في الأرض. وتأسف في قلبه. فقال: امحو عن وجه الأرض الانسان الذي خلقته. الانسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء. لأني ندمت أني خلقتهم" (تكوين ٦ ، ٦ ـ ٧). اذاً، انه حزن يهوه! وهو ليس حزناً عادياً يا صاحبي! أضف إلى هذا، ان أسى العجوز كان عميقاً إلى درجة فَقَدَ فيها اتزانه الروحي والعقلي، الأمر الذي

قاده إلى قرار ابادة الحيوانات أيضاً، علماً بأن هذه التاعسة لم تأثم ولم تفعل ما يغضبه. ويخيّل للوهلة الأولى، ان أبسط حلّ أمام الشيخ كان تغيير الناس، إلاّ أنه آثر أن يميتهم غرقاً. ويجب أن نعترف بأن هذا الموقف لم يكن موقفاً أبوياً.

"أمّا نوح فوجد نعمة في عيني الرب" (٦ ، ٨). فقد كان الرجل "باراً كاملاً في جنسه" (٩). لذلك جاءه يهوه زائراً محذراً من الكارثة الوشيكة الوقوع. ثم منحه فرصة للخلاص. "فقال الله لنوح: نهاية كل بشر أتت أمامي، لأن الأرض امتلأت ظلماً منهم؛ فها أنا مهلكم من الأرض. أصنع لنفسك فلكاً من خشب الجفر؛ واجعل الفلك مساكن؛ وأطله من داخل ومن خارج بالقار. واصنعه هكذا: ثلاث مائة ذراع يكون طول الفلك، وخمسين ذراعاً عرضه، وثلاثين ذراعاً ارتفاعه. واصنع كوى للفلك ، وتكمله إلى حد ذراع من فوق، وضع باب الفلك في جانبه؛ واجعل فيه مساكن سفليه ومتوسطة وعلوية. فها أنا آتٍ بطوفان الماء على الأرض، لأهلك كل جسد فيه روح حياة، من تحت السماء؛ كل ما في الأرض يموت. ولكن أقيم عهدي معك، فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك، ونساء بنيك معك. ومن كل حي، من كل ذي جسد اثنين، من كلٍّ تُدخل إلى الفلك لاستبقائها معك، تكون ذكراً وانثى من الطيور كأجناسها، ومن البهائم كأجناسها، ومن كل دبابات الأرض كأجناسها، اثنين من كلٍّ تُدخل اليك لاستبقائها. وأنت خذ لنفسك من كل طعام يؤكل، واجمعه عندك، فيكون لك ولها طعاماً. ففعل نوح حسب كل ما أمره به الله، هكذا فعل" (تكوين ٦ ، ١٣ - ٢٢).

لقد استمر بناء الفلك مائة عام[٢]. ولم يأذن يهوه لنوح أن يحذر باقي

البشر من الخطر القاتل الزاحف اليهم. أي أن نوحاً وعائلته كانوا يعدّون عدتهم في الخفاء. ولا ريب أن الدهشة كانت ترتسم على وجوه القوم عندما كانوا يرون نوحاً يبني في الحقل فلكاً طوله ثلاث مائة ذراع، أي حوالي مائة وخمسين متراً، وهو طول سفينة كبيرة. وكان بعضهم يظن أن العجوز فَقَدَ عقله، فيهزأ ويمشي. أما نوح فكان يسمع سخرياتهم بصبر ويتابع عمله بأناة وتأن.

لن تبدو الاعوام المائة التي استغرقها بناء الفلك طويلة، اذا تذكرنا أن آلاف الضرورات كانت مرتبطة بتلك المنشأة، لكن التورات لم تأت على ذكرها. فقد كان ينبغي على أبناء نوح الثلاثة، على سبيل المثال، أن يجوبوا بلاد العالم كلها ليأتوا بمختلف أنواع الحيوانات. وبما أنه كان ينبغي عليهم حماية أنفسهم داخل الفلك نفسه، من بطش الأسود والنمور والفهود والتماسيح، وغيرها من الكواسر، فقد كان عليهم أن يتقنوا فنون الترويض. وكان يجب عليهم أيضاً، ان يعدّوا كميات كبيره من الطعام، بما في ذلك اللحوم الضرورية لذاك العدد الهائل من الكواسر؛ اضافة إلى الحبوب والثمار وما شابه.

وعلينا أن نفترض أن الخشب الذي صنع منه الفلك هو، من أفضل أنواعه. لأنه اذا ما قرر أحدهم أن يصرف مائة عام على صنع سفينة، فانه لن يجد الخشب الذي يبقى سليماً حتى نهاية عملية البناء، ولتحولت مؤخرة السفينة إلى فتات متآكل عندما يصل البنّاؤون إلى مقدمتها. وهكذا تتحوّل العملية إلى اعادات متكررة؛ فما هو نوع الخشب الذي استخدمه نوح يا ترى؟ حتى الآن لا أحد يعرف. وعلى الرغم من أن التورات تسميه خشب "الجفر"، إلاّ أن أحداً لم يستطع أن يتعرف على هذه الشجرة حتى الآن[٣].

عندما انتهى بناء الفلك قال يهوه لنوح: "ادخل أنت وجميع بيتك إلى الفلك، لأني اياك رأيت باراً أمامي في هذا الجيل" (تكوين ٧ ، ١). وتبينّ تتمة الحديث، أن يهوه نسي تعليماته السابقة. فقد رأينا أنه أمر العجوز بألاّ يأخذ معه سوى زوج من كل حيوان، لكنه عاد وأدخل على خطته تعديلاً هاماً، في اللحظة الأخيرة، فقال: "من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة، ذكراً وأنثى، ومن البهائم التي ليست طاهرة، اثنين، ذكراً وأنثى"(٧ ، ٢)[٤]. ولا تذكر لنا التورات ما اذا كان يهوه قد أشار إلى نوح بعلامات التقسيم إلى "طاهرة" و"غير طاهرة". ولكن كتاباً آخر يُنسب إلى موسى، هو كتاب اللاوين، يعدد الحيوانات التّي يعتبرها اليهود "طاهرة"، وتلك التي يعتبرونها "نجسة"(١١). "فالطاهرة" بين البهائم هي، تلك التي مشقوقة اظلافها، وتجترّ. بيد أن الجمل والأرنب يجتران، لكن اظلافهما غير مشقوقة، ولذلك فهما حيوانان نجسان؛ والخنزير اظلافه مشقوقة لكنه لا يجتر، فهو نجس. ومن الطيور النجسة، التي حرّم يهوه أكل لحومها: النسر، الحدأة، العقاب، الغراب، النعامة، البومة، النورس، الباشق، الكراكي، البجع، القوق، الرخم وما شابه.

وأعلن الاله الأب لنوح، أن الطوفان سيبدأ بعد سبعة أيام. وكان ينبغي على الشيخ نوح أن يدرس التاريخ الطبيعي ليعرف ما إذا كان عليه أن يحمل معه سبعة غرانيق، أو غرنوقين فقط، فيلين أم سبعة فيلة، اثنين من وحيد القرن أم سبعة، اثنين من جاموس النهر أم سبعة..

"وحدث بعد السبعة الأيام، أن مياه الطوفان صارت على الأرض. في سنة ست مائة في حياة نوح، في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر من الشهر، في ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم، وانفتحت طاقات

السماء" (تكوين ٧ ، ١٠ ـ ١١). يتضح من هذا النص، ان "الروح القدس واثق من وجود تجمع مائي كبير في الجانب الآخر من السماء، فرّغ من مياهه عبر فتحات خاصة. "وكان المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة. وفي ذلك اليوم عينه، دخل نوح وسام وحام ويافث، بنو نوح، وامرأة نوح وثلاث نساء بنيه. هم وكل الوحوش كأجناسها، وكل البهائم كأجناسها، وكل الدبابات التي تدب على الأرض كأجناسها، وكل الطيور كأجناسها، كل عصفور، كل ذي جناح" (تكوين ٧ ، ١٢ ـ ١٤).

يا له من فلك! إذا جمعنا الزمن المذكور في هذا الاصحاح وما يليه، فسيتبين لنا أن نوحاً وعائلته وتلك الحيوانات التي أنقذها، أمضوا في الفلك ٣٩٣ يوماً. ولكن اللاهوتيون لا يقولون لنا كيف تمكن ثمانية أشخاص أن يطعموا تلك الحديقة من الحيوانات كلها، على امتداد أكثر من عام، ويحافظوا على نظافة مرابطها. ويجب أن تطرح هنا أيضاً، مسألة التكاثر! إلى كم من اللحوم احتاج الأمر! أيّ كمية هائلة من المواد الغذائية! وأي عمل مضن كان على نوح وأفراد عائلته القيام به كي يحافظوا على نظافة الفلك!

ولما آن الاوان جاء يهوه بنفسه واغلق ابواب "الفلك": "وأغلق الرب عليه" (٧ ، ١٦). وبعد أن تعاظمت المياه، أبحرت السفينة. "فتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء، خمس عشرة ذراعاً في الارتفاع، تعاظمت المياه" (٧ ، ٩ ـ ٢٠).

غني عن القول: أنه يصعب كثيراً على المرء أن يتخيل ذلك الكم من المياه، خاصة إذا ما أخذنا بالحسبان أن أعمق نقطة في المحيط الهادئ (وهدة مارين)، تزيد عن أحد عشر ألف متر، بينما أعلى جبل في العالم ـ جومولو

نغما (إيفريست) في الهمالايا ـ ارتفاعه ٨٨٨٠ م فوق سطح البحر.

"فمات كل ذي جسد كان يدب على الأرض، من الطيور والبهائم والوحوش ، وكل الزحافات التي كانت تزحف على الأرض، وجميع الناس؛ كل ما في أنفه نسمة روح حياة، من كل ما في اليابسة مات. فمحا الله كل قائم كان على وجه الأرض؛ الناس والبهائم والدبابات وطيور السماء، انمحت من الأرض؛ وبقي نوح والذين معه في الفلك فقط. وتعاظمت المياه على الأرض مائة وخمسين يوماً" (٧ ، ٢١ ـ ٢٤).

لقد كان السمك وحده السعيد في ذلك الخضم المتلاطم! ولكن لكل شيء نهاية: "ثم تذكر الله نوحاً وكل البهائم التي معه في الفلك. واجاز الله ريحاً على الأرض، فهدأت المياه، وانسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء، فامتنع المطر من السماء، ورجعت المياه على الأرض رجوعاً متوالياً. وبعد مائة وخمسين يوماً، نقصت المياه، واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر، على جبل أراراط، وكانت المياه تنقص نقصاً متوالياً إلى الشهر العاشر. وفي العاشر، في أول الشهر ظهرت رؤوس الجبال" (٨ ، ١ ـ ٥).

كم من العجائب المفاجئة في هذه السطور الخمسة! أولاً، إننا سعداء بلقاء "ريح يهوه" اللطيفة، مرة أخرى، فبعد نهاية الخراب الكوني، لم يعد لها أي عمل، وكان شارحو التوارت قد أدغموها "بروح يهوه". "ففي البدء"، تقول التوراة كانت هذه الروح "ترف فوق وجه الغمر". أما الآن، فلكي يجفف يهوه مياه الطوفان، اطلق "الروح القدس" ("روح يهوه")، التي يصفها الانجيل بأنها "حمامة الله" (أو بطة الله، إذا شئتم)، والقى على عاتقها مهمة مستحيلة وهي، تجفيف مياه الطوفان.

ونحن لا نرتاب في أن الأمر كان يتطلب تدخل أحد أفراد "الثالوث المقدس"، لأنه لم يكن بمقدور أي ريح عادية أن تجفف ذاك الكم الهائل من المياه. وبما أن مستوى مياه الطوفان كان أعلى من جبال الأرض بخمسة عشر ذراعاً، فقد توصلت بعض الحسابات إلى أن حجمها كان يساوي حجم اثني عشر محيطاً أحدها فوق الآخر. وعليه فقد كان ذلك الطوفان العجيبة الأكثر تميزاً بين العجائب التي صنعها يهوه كلها، لأنه بعد صنع المحيطات التي يدركها البصر، عاد وقضى عليها كلها بنفخة واحدة من فيه. أيّ رئتان عند تلك "الحمامة"!

والعجيبة الأخرى التي يجب ألا نغفل الاشارة إليها هي: في اليوم السابع عشر من الشهر السابع، رسى فلك نوح فوق قمة ارارات، التي يبلغ ارتفاعها ٥١٥٦ متراً؛ أما الجبال التي يزيد ارتفاعها على ارتفاع ارارات، كقمم الهمالايا الاربع عشرة التي يبلغ ارتفاعها ٨٠٠٠ م، أو القمم الأخرى (في أمريكا الجنوبية وافريقيا)، فلم تظهر إلا في اليوم الأول من الشهر العاشر، أي بعد ستة أسابيع. إنها لعجيبة حقاً!

وتضم رواية التورات عن نهاية الطوفان، أكثر قصص الغراب والحمامة سذاجة على الاطلاق، لكنها لا تمثل أيّ أهمية بالنسبة إلينا، فقد اطلق نوح "الغراب" أولاً، "فطار ولم يحط إلا بعد أن جفت المياه عن الأرض". ثم "أرسل الحمامة"، لكنها لم تجد مكاناً لرجلها، فعادت إليه، إلى الفلك. فعاد وأطلقها بعد سبعة أيام، فعادت إليه تحمل ورقة زيتون بمنقارها. عندئذ علم نوح أن "المياه قد قلت عن الأرض" ثم تخبرنا التورات بأن نوحاً كان قد بلغ عامه ٦٠١ .

وقال يهوه لنوح، إنه آن الأوان ليخرج من الفلك. وخرجت الحيوانات

والبهائم بنظام نموذجي، على أغلب الظن. أضف إلى هذا، أنه يجب أن نعتقد (وهذا ما لا تقوله التورات)، بأن المياه المالحة انفصلت عن العذبة في الحال (عجيبة اخرى!)، لكي تتمكن الانهار والبحيرات والبحار أن تعود إلى مجاريها ثانية، كما كانت عليه حالها قبل ذلك، ثم عادت الاسماك، كل إلى المياه التي تلائم طبيعته.

"وبنى نوح مذبحاً للرب، واخذ من كل البهائم الطاهرة، ومن كل الطيور الطاهرة، وأصعد محرقات على المذابح، فتنسم الرب رائحة الرضى، وقال الرب في قلبه: لا أعود ألعن الأرض ثانية من اجل الانسان، لأن تصور قلب الانسان شرير منذ حداثته؛ ولا أعود أيضاً أميت كل حي، كما فعلت" (تكوين ٨ ، ٢٠ - ٢١).

وفي أثناء ذلك منح يهوه بركته لنوح وأبنائه، واجاز لهم أن يأكلوا كل طعام آخر، اضافة إلى الحبوب والنباتات. "وبارك الله نوحاً وبنيه" وقال لهم: اثمروا واكثروا واملؤوا الأرض، وليكن خوفكم ورهبتكم على كل حيوانات الأرض، وكل طيور السماء، مع كل ما يدب على الأرض، وكل أسماك بحر: قد دفعت إلى أيديكم كل دابة حية تكن طعاماً لكم؛ كالعشب الأخضر دفعت إليكم الجميع؛ غير أن لحماً بحياته ودمه لا تأكلوه، فأنا أسترد دمكم أيضاً، الذي فيه حياتكم، استرده من يد كل حيوان، ومن يد الانسان، ومن يد أخيه، وسافك دم الانسان، يسفك الانسان دمه: لأن الله على صورته عمل الانسان" (٩ ، ١ - ٦).

يتبين مما سبق عرضه، أن للحيوانات روح، وهي تسكن الدم، ويبدو أيضاً، أن يهوه لا يستطيع أن يتقبل قتل الانسان، لكن الاله التوراتي يتصف بسرعة نسيانه أقواله، وسنرى كيف سيحرض اليهود على القتل. بيد أن

تلك المجازر البشعة ستقدم لنا على أن الدم المسفوك فيها ليس دماً بشرياً.

وبما أن العجوز يهوه التزم بعدم اغراق البشر بعد ذلك، فإن الاتفاق يتطلب توقيعاً، وتوقيعه هو، قوس قزح، الذي لم يظهر إلى الوجود إلا في ذلك اليوم المشهود. "وضعت قوسي(٥) في السحاب، فتكون علامة ميثاق بيني وبين الأرض، فيكون متى انتشر سحاباً على الأرض، وتظهر القوس في السحاب، أني أذكر ميثاقي الذي بيني وبينكم وبين كل نفس حية في كل جسد. فلا تكون أيضاً المياه طوفاناً تهلك كل ذي جسد" (٩ ، ١٣ - ١٥).

والحقيقة أنه كان لحذر يهوه الشرير هذا ما يبرره، فالذاكرة كثيراً ما تخون صاحبها، حتى وإن كان الاله يهوه نفسه! ونلاحظ في هذا السياق، أن النص المقدس" يقول: "قوسي"، "أنا وضعت قوسي". وهذا يعني بوضوح، أن قوس قزح لم يكن موجوداً قبل ذاك الحدث. وبما أن قوس قزح يتشكل من انكسار أشعة الشمس وانعكاسها في قطرات الماء، فمن الجلي أن الأرض لم تعرف المطر كوسيلة للري، خلال القرون الفاصلة بين خلق العالم والطوفان، أي أن الشجر والنباتات كانت تنمو تلقائياً، إذ كان يكفيها العرق الذي كان يسيل من جباه البشر العاملين، أو أن ذاك المتشرد، قايين، الذي بنى المدن، بنى أيضاً شبكات الري الصناعي في أنحاء الأرض كلها..

الفصل السادس

نوح البار ومباركة يهوه ذريته..

لقد أضيف إلى قصة الطوفان مشهدان آخران ممتعان هما: سكر نوح و"برج بابل". "وابتدأ نوح يكون فلاحاً، وغرس كرماً؛ وشرب من الخمر فسكر، وتعرى داخل خبائه، فابصر حام ابو كنعان عورة أبيه، واخبر أخويه خارجاً، فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على اكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجههما إلى الوراء، فلم ينصرا عورة أبيهما" (٩ ، ٢٠ - ٢٣).

إذن، سلك سام ويافث سلوكاً محترماً يليق بولدين طيبين، علماً بأن أبيهما كان ثملاً، أما حام، فقد كان سلوكه وقحاً، ولذلك لم تتأخر اللعنة حتى نزلت عليه؛ لكن تعالوا لنرى معاً على رأس من نزلت فعلاً: "فلما استيقظ نوح من خمره، علم ما فعل به ابنه الصغير فقال: ملعون كنعان؛ عبد العبيد يكون لاخوته. وقال مبارك الرب إله سام؛ وليكن كنعان عبداً له؛ ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن، سام، وليكن كنعان عبداً له" (٩ ، ٢٤ - ٢٧). وهكذا نزلت اللعنة على كنعان الشاب الذي لم يقترف أيّ

اساءة بحق جده. فهل كان العجوز لا يزال تحت تأثير الخمرة لما نطق بلعنته؟ ومع ذلك، فقد كرسها يهوه.

يتفق اللاهوتيون على أن نوحاً أعطى آسيا لسام، وأوروبا ليافث، وافريقيا لحام. فولد كنعان وحام الزنوج والملونين. لذلك ينبغي أن تكون ذريتهما عبيداً للاوروبيين. لكن السؤال هو: كيف أصبح أبناء نوح الثلاثة، مؤسيسن لثلاثة أعراق مختلفة، وهم المولودون من أب واحد، وأم واحدة؟

ومع ذلك، علينا أن ننحني أمام ارادة يهوه و"كتابه المقدس"، ونعترف بأن العرق الآسيوي الأصفر، خرج من صلب سام، والأوروبي الأبيض من صلب يافث، والافريقي الأسود من صلب حام وكنعان، بيد أن سؤالاً يتبادر إلى الذهن: من أين جاء الامريكيون الحمر البشرة؟ أغلب الظن أن "الروح القدس" سها أن يخبر مؤلف كتاب التكوين عن ذلك! وعلينا أن نقر بأن هؤلاء لا أب لهم!

لننتقل الآن إلى موضوع بناء البرج الشهير في بابل. "كانت الأرض كلها لساناً واحداً، ولغة واحدة، وحدث في ارتحالهم شرقاً، أنهم وجدوا بقعة في أرض شنعار، وسكنوا هناك. وقال بعضهم لبعض: هلم لبناً ونشويه شياً. فكان لهم اللبن مكان الحجر. وكان لهم الحمر مكان الطين. وقالوا: لنبن لانفسنا مدينة وبرجاً، رأسه بالسماء.... فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما. وقال الرب: هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم، وهذا ما بدؤوا يعملونه؛ هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم، حتى لا يسمع بعض لسان بعض. فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض. فكفوا عن بنيان المدينة. لذلك دعي اسمها بابل، لأن الرب بلبل هناك لسان كل الأرض، ومن هناك بددهم الرب على وجه الأرض كلها" (تكوين ١١ ، ١ ـ ٩).

يؤكد بعض اللاهوتيين برضى وثقة، أن برج بابل كان قد بلغ ١٥٠٠م ارتفاعاً، عندما هدمه يهوه؛ أي أنه كان أعلى بعشر مرات، من أعلى هرم مصري (هرم خوفو، ١٤٧م). لكن الاهرامات بقيت غصية على الفناء، ولم يبق من برج بابل أثر. فكيف أمكن اختفاء هذه المنشأة الجبارة، دون أن تترك أي أثر يدل عليها؟ ومرة أخرى ينسى "الروح القدس" أن ينبئ مؤلف سفر التكوين بهذا؟

اضف إلى هذا، وحسب التورات نفسها، أنه لم يكن هناك ما يكفي من البشر، وما يكفي من المهارة لبناء مثل تلك المنشأة المهولة. إذاً، لم يبق لنا سوى أن ننظر إلى هذه القصة على أنها "عجيبة" دينية عظيمة! ولم يكن ظهور اللغات المفاجئ عجيبة أقل عظمة. ويقول فولتير بهذا الصدد: "لقد بحث الشارحون عن اللغات، التي ولدت من توزع الشعوب هذا، لكنهم لم يلقوا بالاً لأي لغة من اللغات القديمة، التي كان يتحدث بها الناس، الذين استوطنوا المنطقة الممتدة من الهند إلى اليابان، ومن المثير للفضول أن نحصي عدد اللهجات، التي تتحدث بها الكرة الأرضية الآن. ففي أمريكا أكثر من ثلاث مائة لغة، وفي قارتنا أكثر من ثلاثة آلاف لهجة. وكل مقاطعة من مقاطعات الصين لها لغتها المحلية. فسكان بكين لا يفهمون لغة سكان كانتون فهماً جيداً، والهندوسي القاطن سواحل مالابار، لا يفهم لغة الهندوسي القاطن بناريس. وما يمكن قوله، على وجه العموم، إن سكان الأرض، لم تكن لديهم أي فكرة عن العجائب، التي ارتطبت ببناء "برج بابل"، تلك العجائب، التي لم يسمع بها سوى اليهود القدماء"..

وما يثير الدهشة أيضاً، أن الاحداث التاريخية الكبرى، التي تضعها التورات في أساس ولادة البشرية كلها، لم يسمع بها أي شعب آخر. ونحن

نستطيع أن نفهم عدم معرفة الاغريق والرومان والمصريين والكلدانيين والفرس والهندوس والصينيين، بجدعون وشمشون، أو أي شخصية أخرى من الشخصيات الخرافية اليهودية القبلية. ولكن، إذا كانت هذه الشعوب لم تسمع بآدم ونوح، فهذه مسألة أخرى غير مفهومة. لأنه بما أن الطوفان قضى على كل حي على وجه الأرض، ونوح هو من جدد الجنس البشري، فحري بمؤرخي الشعوب كلها أن تعرف هذا البطريرك (الأب الأول بعد الطوفان). ثم كيف حصل ألا تدون أسفار تاريخ العالم كلها، أسماء مثل: آدم وحواء، قايين وهابيل، افنوخ ومتوشالح، لامك ونوح، سام وحام ويافث؛ هذه الأسماء، التي لا تعرفها سوى كتب شعب صغير يعيش حياة التنقل والترحال، وثقافته ثقافة بدائية؟

بعد أن توزع أبطال ملاحو الطوفان العظيم، في مختلف بقاع الأرض، واسسوا شعوباً جديدة، نسوا كل شيء، وبطريقة مذهلة، فقد نسوا كيف خلق يهوه "السموات والأرض"، وكيف عاش أول انسانان في الجنة، بل لقد سقطت من ذاكرتهم أسماء الناس الاوائل. أما اليهود، فوحدهم الذين حافظوا على ذاكرة طيبة! ثم أخذت الشعوب الأخرى عنهم الحكايات التورتية كلها. حتى مأثرة استنبات العنب، ولم تنقذ نوحاً من النسيان، لأن العدد الأكبر من البشر يبجل باخوس كمخترع للخمر[١].

أما فيما يخص الطوفان، فيتفق النقاد على اعتباره كارثة طبيعية محلية ممكنة الحدوث فعلاً، ويؤكدون أن مثل هذه الجوائح قد تكرر مرات عديدة. فقد عرف الاغريق اسطورة ديفكاليون[٢]. ولو كان الطوفان كونياً، لكان اسم نوح كونياً أيضاً، ولنسيت أسماء مثل، ديفكاليون الاغريقي، واوتنابيشتيم الكلداني. وما يثير الدهشة أيضاً، أن هسيود وهوميروس[٣]، لم

يأتيا على ذكر آدم أو نوح، اللذين كان أحدهما اباً للجنس البشري، والآخر منقذاً له من الفناء. أن مثل هذا الصمت لا مثيل له، ونحن لا نستطيع أن نقبل أن تكون "الحمامة الالهية" على هذه الدرجة من الشعوذة والتضليل، كي تعطي الانسان الأول، ثم منقذ الجنس البشري، اسمين كيفيين مختلقين اختلاقاً، ولم يسمع بهما أحد سوى أصحاب أسفار التورات.

الفصل السابع

حياة العفّة التي عاشها ابراهيم

لاريب أن القارئ يتذكر قرار يهوه بالاّ تتجاوز حياة الانسان ١٢٠ عاماً (تكوين ٦ ، ٣). ولكن، على الرغم من قطعية ذلك الحكم الإلهي، قرر سام بن نوح أن يعيش ٦٠٠ عام (١١ ، ١٠ ـ ١١)، وارفكشاد ٤٣٨ عاماً (١٢ ـ ١٣)، وشالح ٤٣٣ عاماً (١٤ ـ ١٥)، وعابر ٤٦٤ عاماً (١٦ ـ ١٧)، وفالج ورعو ٢٣٩ عاماً (١٨ ـ ٢١)، وسروج ٢٣٠ عاماً (٢٢ ـ ٢٣)، وناحور ١٤٨ عاماً (٢٤ ـ ٢٥)، وتارح ٢٠٥ أعوام[٢٣]. ويقودنا أحفاد سام هؤلاء، إلى ابراهيم، الذي نُسب إليه دور كبير في خرافات اليهود[١]. ولا تفيدنا التورات بأيّ معلومات عن أسباب حب يهوه الكبير لابراهيم، الذي كان اسمه في البداية ابراهام، وكان يعيش في بلاد حاران حياة هادئة، إلى أن جاءه الاله يهوه في أحد الصباحات وأمره أن يحزم حقائبه. "وقال الرب لابراهيم: انطلق من أرضك، وعن عشيرتك وبيت أبيك، إلى الارض التي أُريك؛ وأنا أجعلك أمة كبيرة، وأباركك وأعظّم اسمك، وتكون بركة. وأبارك مباركيك، وشاتمك العنه، ويتبارك بك جميع عشائر الأرض (تكوين ١٢ ، ١ ـ ٣).

وعلى الرغم من الخمس والسبعين سنة، التي كان ابراهيم قد خلّفها وراءه، إلاّ أنه أذعن للأمر، ولم يطلب أيّ تفسيرات لذلك العرض الغريب، بل قام فجمع امتعته وأخذ طريقه، دون أن يعرف إلى أين. وسارت خلفه زوجه ساره، وابن أخيه لوط وزوجه، وعدد من الخدم.

وسارت القافلة قاطعة عدة مئات من الكيلومترات، قبل أن تصل أرض كنعان. فقد كانت تلك هي الأرض التي أراد يهوه أن يريها ابراهيم، دون ابطاء، محققاً بذلك وعده له بأنها ستكون لذريته. لقد جاب رحّالتنا ومن معه، طويلاً في السهول الرملية القاحلة. ولكي يشجّع العجوز نفسه، ويرسّخ ايمانه، اقام مذبحاً ليهوه في وسط الصحراء، وشرع يرفع الصلوات اليه متوسلاً أن يقوده إلى المكان المنشود بأسرع وقت، لأن ذلك الطريق الطويل كان قد فعل فعله في ساقيه الهرمتين.

قطعت القافلة أرض كنعان وسواها من الأراضي، متجهة جنوباً حتى وصلت مصر. "فلما قارب أن يدخل مصر قال لساراي امرأته: أنا أعلم أنك امرأة جميلة المنظر، فيكون اذا رآك المصريون أنهم يقولون: هذه امرأته، فيقتلونني ويستبقونك، فقولي انك اختي حتى يُحسن اليّ بسببك، وتحيا نفسي عبرك، ولما دخل ابرام مصر، رأى المصريون أن المرأة حسنة جداً، ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون؛ فأُخذت المرأة إلى بيته، فأحسن إلى ابرام بسببها، فصار له بقر وغنم وحمير وعبيد وإماء واتن وجمال" (تكوين ١٢ ، ١١ ـ ١٦).

إنها لمغامرة شريفة حقاً، وقدوة يقتدى بها، و"الكتاب المقدس" لا يوجّه كلمة لوم واحدة إلى الجد ـ الغونس[٢]. لكن بعض شارحي التورات لام ابرام لوماً شديداً، غير أن القديس أوغسطين أخذ البطريرك العجوز تحت

حمايته. ويجدر أن نلحظ هنا، أن ساره كانت عندئذٍ في عامها الخامس والستين. وغني عن القول، ان هذه السنين والترحال المرهق في الصحراء اللاهبة، لم يكن لها أيّ تأثير على مستوى جمال ساره. انها، دون ريب، "عجيبة" توراتية أخرى. وسنرى بعد حين، كيف استولى على هذه العجوز ملك آخر، وكانت قد بلغت وقتها التسعين من عمرها.

وما أن ضمّ فرعون الحسناء ساره إلى حريمه، وهمّ أن يضع فوق رأس ابراهيم قروناً، أو قرنين، حتى رأت عين يهوه الساهرة دوماً، ما كان يجري في حريم صاحب الجلاله "ملك مصر": "... فضرب الرب فرعون وأهله ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة ابرام. فاستدعى فرعون ابرام وقال له: ماذا صنعت بي: لما لم تعلمني أنها امرأتك، خذها وامض. وأمر فرعون قوماً يشيعونه هو وامرأته وكل ماله" (تكوين ١٢ ، ١٧ - ٢٠).

وها هو ابرامنا في الطريق ثانية. لكنه الآن "غني جداً بالماشية والفضة والذهب" (١٣ ، ٢). وهذا واضح، لأنه لم يُرجع إلى فرعون أي شيء مما ربحه من تجارته بامرأته ساره. "فمضى في مراحله من الجنوب إلى بيت آيل، إلى الموضع الذي كان فيه خباؤه أولاً بين بيت آيل والعاي" (١٣ ، ٣). وخلال هذه الرحلة وقع خلاف بين رعاة ابرام ورعاة ابن أخيه لوط. فاقتسم العم وابن أخيه الارزاق،لكنهما حافظا على علاقات ودية طيبة بينهما. وقرر ابرام أن يستوطن أرض كنعان. بينما ذهب لوط الى وادي الأردن، واستقر في سدوم.

وبعد وقت قصير نشبت الحرب بين بعض الملوك، ومنهم ملك سدوم. وفي أثناء احد الغارات التي شُنّت على سدوم، وقع لوط أسيراً. وكان ابرام قد انتقل في تلك الأثناء إلى حبرون، حيث وصله النبأ المؤلم عن أسر ابن

أخيه. فامتلأ قلبه غيظاً مقدساً، وقرر أن ينقذ لوطاً. وهنا بالذات بانت قدرة العجوز وانفجرت مواهبه. فقدتبيّن أنه كان تحت إمرة ذاك البدوي المتنقل، الذي لا يملك شبراً واحداً من الأرض، عدد كبير من الخدم. وتقول التورات: أنه سلّح ٣١٨ فرداً منهم، واستطاع على رأس هذه الجماعة الصغيرة، ان يبدد جيوش اربع من أقوى ممالك تلك المنطقة وهي: مملكة شنعار وملكها امرافال، ألآسار وملكها أريوك، عيلام وملكها كدرلاعومر، ومملكة تدعال ملك الامم. إنه لنصر باهر حقاً! لكن ابرام لم يكتف به، فطارد فلول الأعداء حتى دان (ولم تكن قد قامت بعد ـ المؤلف)، "وتفرّق عليهم ليلاً وهو وعبيده، فكسرهم وطاردهم...فاسترجع جميع المال، ولوطاً أخاه، وماله، ردهما، والنساء وسائر القوم" (١٤ ، ١٤ ـ ١٦).

مرت السنون، وزاد القلق في صدر ابرام. فقد كان دائم التساؤل: كيف ستكون له ذرية؟ متى يتحقق وعد يهوه، الذي سيجعل منه أباً لشعب عظيم؟

بعد هذه الأمور، كان كلام يهوه إلى ابرام في الرؤيا: "لا تخف يا ابرام، أنا ترسك، سيكون أجرك عظيماً جداً. فقال ابرام: اللهمّ يارب! ماالذي ستعطنيه؟ أنا عقيم، وقيّم بيتي هو اليعازر الدمشقي. وقال ابرام: انك لم ترزقني عقباً، فهوذا ربيب بيتي يرثني. فاذا بكلام الرب اليه قائلاً: لا يرثك هذا، بل يخرج من صلبك مَن يرثك. ثم أخرجه إلى خارج وقال: انظر إلى السماء واحص الكواكب ان استطعت أن تحصيها وقال له: هكذا يكون نسلك" (١٥ ، ١ ـ ٥). فصدّق ابرام اباه يهوه وقرر أن ينتظر. "وأما ساراي امرأة ابرام، فلم تلد له. وكانت لها أمة مصرية اسمها هاجر. فقالت ساراي لابرام: هو ذا قد حبسني الرب عن الولادة، فادخل على امتي، لعل بيتي

يني. فسمع ابرام لقول ساراي" (١٦ ، ١ - ٢). وهذا يعني أن ساره كانت ستتبنّى مولود امتها. فحسب العرف الشرقي، كان الأب أو الأم، يضع المولود على ركتبيه، فيصبح ابنه بالتبني.

"فأخذت ساراي، امرأة ابرام، هاجر المصرية، امتها، بعد عشر سنين من مقام ابرام في أرض كنعان، فاعطتها لابرام، رجلها، لتكون زوجةله. فدخل على هاجر، فحملت. فلمّا رأت أنها قد حملت، هانت مولاتها في عينيها. فقالت ساراي لابرام: ظلمي عليك، اني دفعت أمتي إلى حجرك، فلما رات أنها قد حملت، هنت في عينيها. يحكم الرب بيني وبينك. فقال ابرام الساراي: هذه امتك في يدك، اصنعي بها ما يحسن في عينيك. فاذلتها ساراي، فهربت من وجهها" (تكوين ١٦ ، ٣ - ٦).

والحق يقال، ان حياة هذا "الأب المقدس" تعتبر نموذجاً لكل حياة إلهية طاهرة نقية! لحسن الحظ، ان الملاك صادف هاجر في الصحراء وانعشها. "...ارجعي إلى مولاتك واتضعي تحت يديها. وقال لها ملاك الرب: لا كثرن نسلك تكثيراً حتى لا يحصى لكثرته. وقال لها ملاك الرب: ها أنت حامل، وستلدين ابناً وتسمينه اسمعيل[٣]، لأن الرب قد سمع صوت شقائك" (١٦ ، ٩ - ١١).

"ولما كان ابرام ابن تسع وتسعين سنة، تجلى له الرب وقال له: أنا الله القدير، أسلك أمامي وكن كاملاً، فاجعل عهدي بيني وبينك، واكثرك جداً جداً. فسقط ابرام على وجهه، وخاطبه الله قائلاً: ها أنا أجعل عهدي معك، وتكون أباً لجمهور من الامم، ولا يكون اسمك ابرام بعد اليوم، بل يكون اسمك ابراهيم، لأني جعلتك أبا جمهور أمم، وسأنميك جداً جداً، وأجعلك أمماً، وملوك منك يخرجون، وأقيم عهدي بيني وبينك، وبين

نسلك من بعدك، مدى اجيالهم، عهد الدهر، لأكون لك الهاً ولنسلك من بعدك. واعطيك أرض غربتك، لك ولنسلك من بعدك، مدى اجيالهم. هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم، وبين نسلك من بعدك: يختتن كل ذكر منكم، فتختتنون القلفة من أبدانكم(٤)، ويكون ذلك علامة عهد بيني وبينكم، وابن ثمانية أيام يختتن، كل ذكر منكم مدى اجيالهم، المولود في منازلكم، والمشترى بفضة من كل غريب، ليس نسلكم. يختتن المولود في بيتك، والمشترى بفضتك، فيكون عهدي في أبدانكم عهداً مؤبداً، وأي أقلف من الذكور لم تختتن القلفة من بدنه، تقطع تلك النفس من شعبها إذ نقض قد نقض عهدي. وقال الله لابراهيم، ساراي امرأتك، لا تسمها ساراي، بل سمها سارة. وأنا أباركها وأعطيك منها ابناً واباركها وتكون منها أمم وملوك شعوب. فسقط ابراهيم على وجهه وضحك وقال في نفسه: ألا بن مائة سنة يولد، أم لسارة وهي ابنة تسعين؟ فقال ابراهيم لله: لو أن اسمعيل يحيا بين يديك، فقال الله: بل سارة امرأتك ستلد لك ابناً وتسميه اسحق، وأقيم عهدي معه عهداً مؤبداً، ولنسله من بعده. وأما اسمعيل فقد سمعت قولك فيه، وها آنذا أباركه وأنميه وأكثره جداً جداً، ويلد اثني عشر رئيساً، واجعله أمة عظيمة. غير أن عهدي أقيمه مع اسحق الذي تلده لك سارة في مثل هذا الوقت من السنة المقبلة. فلما فرغ الله من مخاطبته ارتفع عنه" (تكوين ١٧ ، ١ - ٢٢)..

عند قراءتنا الوصف التوراتي لمشهد ظهور الاله يهوه لابراهيم، لا نستطيع إلا أن ننحني احتراماً. فمؤلف تلك الكلمات ملهم من الروح القدس، وعبثاًيحاول رجال الكنيسة أن يبرهنوا على هذا، لأن فكرة يهوه تبلغ هنا ذرى ليس بمقدور أي انسان فان أن يبلغها. ومما لا ريب فيه أنه لم يكن ليخطر للاسكندر المقدوني (٥)، لما عقد اتفاقه مع ملوك الهند مثلاً، أن

يقترح عليهم أن يختتنوا ويختنوا ذكور رعيتهم، رمزاً للصداقة التي لا تنفصم عراها. وعندما أخذ نابليون القيصر الروسي، الاسكندر الأول، بين احضانه في تيلزيت، كان يفكر بتوطيد صداقته مع الروس على قاعدة كرههما المشترك لبريطانيا، ولو حدث وقال له مرافقه، المارشال ميورات: "صاحب الجلالة، بدلاً من أن تطلب من القيصر أن يضع توقيعه تحت نص الاتفاق العسكري، اطلب منه أن يختتن في صباح الغد ويختن معه أفراد حاشيته وضباطه، لأن القلفة أفضل ضمان لتحالف وطيد بين الامبراطور يتين: عندئذ كان نابليون سيشك في سلامة القوى العقلية عند مارشاله، ويرسله إلى أفضل اطبائه. بيد أن الاسكندر المقدوني ونابليون، كانا مجرد انسانين في نهاية الأمر، والعقل الالهي وحده القادر على بلوغ فكرة اقامة تحالف ابدي على أساس ختان الأعضاء التناسلية. ولكن إذا كان الختان ذا منشأ الهي، فلماذا رفضه المسيحيون؟

لكن ابراهيم امتثل لامر إلهه يهوه من فوره: "فأخذ ابراهيم اسمعيل ابنه، وجميع مواليد بيته، وسائر المشترين بفضته، كل ذكر من أهل منزله، فختن القلفة من أبدانهم في ذلك اليوم عينه، بحسب ما أمره الله به، وكان ابراهيم ابن تسعة وتسعين سنة عند ختنه لحم قلفته، وكان اسمعيل ابنه، ابن ثلاث عشرة سنة حين ختنت القلفة من بدنه، وفي عين ذلك اليوم اختتن ابراهيم واسمعيل ابنه، وكل رجال منزله، مواليد بيته، والمشترين بالفضة من الغرباء، اختتنوا معه" (١٧ ، ٢٣ - ٢٧).

كيف يستطيع المسيحيون أن يؤكدوا بعد هذا، بأن ديانتهم تقوم على أساس الدين اليهودي؟ حتى المسيح نفسه خضع لطقس الختان. وقلفته الآن موضوع من مواضيع العبادة، وواحدة من التحف الثمينة المحفوظة في كنيسة

القديس يوحنا اللاثرياني في روما. بل إن قلفة ابن مريم فرخت بطريقة تمثل، بحد ذاتها، "عجيبة" من الطراز الأول؛ فهذه التحفة موجودة الآن في: شارو (قرب بواتيه)، وفي بيو ـ أن ـ فيليه، وفي كولومب "قرب شارتر"، وفي شالونينا ـ مارنيه، وفي انتفربين، وهيلديسفيم؛ أضف إلى هذا، أن الكنيسة تحتفل بيوم الختان في أول يوم من أيام العام الجديد.

وقد لاحظ الامبراطور يوليان في نقده للمسيحية، أن أنصار العقيدة الجديدة يخالفون أصول الديانة اليهودية، لكنهم يعتبرون أنفسهم أبناءها المخلصين. وبيّن هذا الامبراطور الفيلسوف، الفرق في الطقوس والغاء تقديم القرابين، ومخالفة قانون استهلاك اللحوم، والاحتفال بيوم الأحد[٦] بدلاً من السبت و.....

ثم يقول يوليان: "إنني أسألكم أيها الجليليون: لماذا لا تختتنون؟ ألم يأمر يسوع بتنفيذ الشريعة كاملة؟ أليس هو القائل: "لا تظنوا أني أتيت لاحل الناموس والانبياء، إني لم آت لأحل، لكن لاتمم" (متى ٥ ، ١٧). أو لم يقل أيضاً: "فكل من يحل واحدة من تلك الوصايا الصغار، ويعلم الناس هكذا، فإنه يدعى صغيراً في ملكوت السموات"(١٩). وإذا كان المسيح قد أمر حازماً بضرورة التقيد بأدق تفاصيل الشريعة، وفرض العقوبة على من يخالف أصغر تعاليمها، فلماذا تخالفونها كلها، أيها الجليليون؟ إما أن يسوع لم يكن يقول الحقيقة، وإما أنكم تخالفون الشريعة".

لكن القديس كيريليوس[٧]، اعترض على ملاحظة يوليان هذه. ويجب أن نعترف بأن حجج هذا القديس واهية وضعيفة. يقول كيريليوس: "الختان لا فائدة منه، إذا رفضنا مغزاه الروحي، وإذا كان لا بد من أن يختتن الناس أنفسهم، وإذا كان الله يلعن الجسد ويذمه، فلماذا لم يخلقه منذ البداية كما

يريده أن يكون؟ ونضيف إلى هذا السبب، سبباً ثانياً: ليس في جسم الانسان أي مكان زائد، أي مكان لا فائدة منه؛ فالطبيعة صنعت كل شيء بدقة وعقلانية، وكل ما صنعته الطبيعة ضروري. وأنا أعتقد بأن الجسم البشري لا بد أن يعاني، فيما لو سلب أي جزء من أجزائه الطبيعية، ألا يعرف خالق الكون ما ينفع الجسد؟ ألم يضع هذا نصب عينيه، عندما صنع جسم الانسان، إذا كانت المخلوقات الاخرى تامة كلها، فلماذا الختان إذاً؟ قد يقولون دفاعاً عن هذه الشعيرة، ما يقوله اليهود وبعض عبدة الأصنام: إنها تحافظ على نظافة الجسد. وأنا لا أعتقد بصحة هذا الرأي. فهذه الشعيرة إهانة للطبيعة، التي لم تصنع أي عضو زائد أو عديم النفع. بل على الضد من هذا، فكل ما نعتقده فاسداً فيها ومعيباً، هو ضروري ونبيل، خاصة إذا امتنا شهوات الجسد؛ يجب أن يتحمّل الانسان تبعات الجسد كلها، ويبقي عليه كما هو في الولادة".

إذن، يتساءل القديس كيريليوس عن ضرورة الختان، اي أنه يرفض مغزاه الصوفي. ولقد كان بمقدور الامبراطور يوليان أن يجيبه: ليس الختان ضرورياً، إذا شاءت قداستكم، ولكن الأمر ليس في هذا، بل فيما إذا كان يهوه قد أوصى ابراهيم بالختان حقاً كعلامة أبدية صادقة لعهده معه ومع أتباع عقيدته. فالواضح من النص التوراتي، أن نية يهوه كانت هكذا فعلاً، وأنه عبّر عنها بوضوح وجلاء. وفيما بعد سيعيد موسى العمل بطقس الختان تنفيذاً لارادة يهوه(٨). ويسوع المسيح، الذي قال إنه جاء ليتمم الناموس، لا لينقضه، لم يتحدث قط عن ضرورة إلغاء طقس الختان. ولم يشر الانجيليون إلى أنه المح في أي زمان ومكان، إلى ضرورة إلغاء هذا الطقس. فلماذا اعتبر المسيحيون أنفسهم في حلٍّ من هذا القانون، بعد مضي زمن قصير على وفاة مشرّعهم الالهي؟

ويستند اللاهوتيون المسيحيون إلى قول "الرسول المقدس" بولس التالي: "الختان ضروري في القلب فقط" لكن أعمال الرسل تفيد (١٦ ، ٣) بأن بولس نفسه ختن تلميذه اليوناني تيموثاوس ملتزماً في ذلك دقة تعليمات الشريعة اليهودية إذاً. لقد عدّ بولس الختان ضرورياً ونافعاً؟ فلماذا بدّل رأيه بعد ذلك؟.

هل كشف يهوه له أمراً؟ هو لا ينوّه إلى ذلك. هل اصبح أكثر فهماً فيما بعد؟ إذا اعتبرنا بصحة هذا الافتراض، فان ذلك يعني، أن "الرسول المقدس" كان جاهلاً خلال حقبة طويلة من حياته، على الرغم من كونه رسولاً لابن مريم.

أما فولتير فيقول: "لم يعط العلماء أي تعليل منطقي مقنع لعملية الختان. بعضهم يفترض أن هذا الطقس يحافظ على نظافة الجسد. وأنا أعتقد بأنهم لم يروا هذا الطقس في اي يوم من الأيام، وإلاّ لأدركوا مدى ضعف نتائج هذه العملية ولرأوا كيف يمكن استبدالها بالغسيل العادي، بكل بساطة، وهو أمر أكثر سهولة وأقلّ خطورة، لأنه ليس نادراً أن يموت الأطفال بسبب هذه العملية. ويقولون أيضاً: بما أن اليهود عاشوا في منطقة حارة، فان الهدف من طقسهم هذا هو، تفادي النتائج التي قد تترتب عن القيظ، والتي كان يمكن أن تظهر في التهاب العضو التناسلي الذكري. لكن هذا غير صحيح! ففلسطين ليست من البقاع الحارة أكثر من أوروبا، وفي بلاد فارس الحرارةأعلى بكثير، أما في الهند، فالحرارة مرتفعة إلى درجة كبيرة، ومع ذلك فان سكان هذه البلدان لم يفكروا يوماً بختن أعضائهم الذكرية حفاظاً على صحتهم.

إن السبب الحقيقي للختان يكمن في غباء الكهنة اليهود أنفسهم. ففي

مختلف البلدان والعصور، اختلقوا فكرة تقديم أعضاء من الجسد قرباناً للآلهة: بعضهم جعل في جسده ندباً، ككهنة بيلون أو مارس[٩]؛ وبعضهم خصى نفسه، ككهنة كيبيلا[١٠]، وآخرون كانوا يضعون مسامير في مؤخراتهم، والسحرة الهنود يضعون على أعضائهم الذكرية، خواتم، وثمة من يجلد الاتقياء بالسوط، كما كان يفعل اليسوعي جيرار بكاترين كادبير. ويستأصل كهنة هوتنغوت احدى الخصيتين على شرف آلهتهم، ويضعون بدلاً منها كمرة من الأعشاب العطرية أما المتزمتون المصريون القدماء، فقد اكتفوا بتقديم جزء من قلفتهم إلى اوزيريس[١١]، أي أنهم كانوا يختتنون أنفسهم جزئياً. ثم جاء اليهود، الذين أخذوا كثيراً عن المصريين، وأقاموا طقس الختان الكامل، وما زالوا عليه حتى الآن. أما العرب والاثيوبيون، فقد عرفوا هذا الطقس في أزمنة قديمة جداً، وأخذ الأتراك هذا الطقس عن العرب؛ أما المسيحيون فيسكبون الماء فوق رأس الطفل، أو يغطسونه فيه، ويتصف هذا كله بالقدر نفسه من المنطق، ويبدو أنه يرضي الله بالقدر نفسه أيضاً".

لنعد الآن إلى بطريركنا. فأغلب الظن أن قرار يهوه بتغيير اسمه واسم زوجته، اربكه. ويعتبر هذا أكثر غرابة، لأن عملية التغيير بحدّ ذاتها، كانت بسيطة جداً: ابراهيم بدلاً من ابرام، وساره بدلاً من ساراي. الم يكن يهوه الهاً مضحكاً حقاً! بيد أن التورات غدت بعد ذلك الحدث، أكثر تشويقاً وفكاهة.

"وتجلى له الرب في بلوط ممرا، وهو جالس بباب الخباء عند احتداد القيظ، فرفع طرفه ونظر، فإذا ثلاثة رجال وقوف أمامه. فلما رآهم بادر للقائهم من باب الخباء، وسجد إلى الأرض" (تكوين ١٨ ، ١ ـ ٢) ثم دار

بينه وبينهم حديث ممتع شيّق هو عبارة عن خلط اعتباطي لصيغتي المفرد والجمع، الأمر الذي يدل على أن البطريرك كان يتحدث لغته بشكل سيء جداً، وأن الحرّ قد أثّر على دماغه فعلاً فقد قال: "ياسيدي! إن نلت حظوة في عينيك، فلا تجز عن عبدك، فيقدمون قليل ماء، ويغسلون ارجلكم، وتتكؤون تحت هذه الشجرة؛ وأقدم كسرة خبز فتسندون بها قلوبكم ثم تمضون، لأنكم جزتم بعبدكم. ثم قالوا اصنع كما قلت" (تكوين ١٨ ، ٣ ـ ٥).

ويرى اللاهوتيون المسيحيون، أنه إذا كان يهوه قد جاء ابراهيم في ذلك الزمان بصحبة ملاكين، فانه لم يفعل ذلك إلاّ ليظهر شخصيات "الثالوت المقدس" الثلاثة. ولكن ابراهيم لم يكن يتمتع بحذاقة اللاهوتيين، ولذلك لم يفهم هذا المغزى، كما لم يفهمه أي نبي يهودي قبل اللاهوتيين المسيحيين.

"فأسرع ابراهيم إلى ساره في الخباء وقال: هلّمي بثلاثة أصواع من دقيق سميذ، فاعجينها واصنعيها مليلاً" (١٨ ، ٦) ويقول المترجمون الحديثون: "خذي ثلاثة مكاييل دقيقاً". وهم لا يلجؤون إلى هذا التفسير المبهم إلاّ لأن ما أملاه "الروح القدس" على مؤلف سفر التكوين، كان شيئاً فظيعاً. فالنص العبري يستخدم كلمة "ايفا" والايفا تساوي خمسة وعشرين ليتراً، وهي كمية من الخبز كبيرة جداً! والحقيقية أن العادة الشرقية كانت تقضي بتقديم صنف واحد من الطعام للضيف، ولكن بكثرة، وعلى أي حال، فقد اعتقد البطريرك العجوز أن ضيوفه على درجة كبيرة من الشراهة.

لكن هذا ليس كل شيء، فقد "بادر ابراهيم إلى القطيع، فأخذ عجلاً رخصاً ودفعه إلى الغلام، فأسرع في اعداده. ثم أخذ زبداً ولبناً والعجل الذي أعدّه، وجعل ذلك بين ايديهم، ووقف هو أمامهم تحت الشجرة حتى

أكلوا. ثم قالوا: اين ساره امرأتك؟. قال: هي في الخباء. وقال أحدهم: سأرجع اليك في مثل هذا الوقت من العام القادم، ويكون لساره امرأتك ابن، وكانت ساره تسمع عند باب الخباء، وهو وراءه. وكان ابراهيم وساره شيخين طاعنين في السن، وقد امتنع أن يكون لساره كما للنساء. فضحكت ساره في نفسها قائلة: ابعد فنائي يكون لي تنعّم، وسيّدي قد شاخ؟ فقال الرب لابراهيم: ما بال ساره قد ضحكت قائلة: أيقيناً ألد وقد شخت؟ أعلى الرب أمر عسير؟ في مثل هذا الوقت من السنة القادمة أعود إليك فيكون لساره ابن" (١٨ ، ٧ - ١٥).

ألا يوافقني قارئي الكريم على أن الاستماع إلى حديث يهوه مع ابراهيم، أمر ممتع وطريف، لأن تفاصيل هذا الحديث تفرح الروح بسذاجتها. فمؤلف كتاب التكوين يصف ما حدث وما قيل كله، بدقة تجعل القارىء يحسب أن الرجل كان موجوداً ويرى كل شيء بأم عينه. وعلى ايّ حال، إمّا أن وحياً هبط عليه أو أنه كذّاب خارق.

لقد حاول بعض الشارحين المعاصرين، الذين اشكلت عليهم السذاجة المضحكة، التي تتصف بها تلك التفاصيل، أن يبرهن على رمزية القصة كلها؛ فاقترح أن تُفهم المسألة على الشكل التالي: إن يهوه والملاكين، الذين جاؤوا إلى ابراهيم، تظاهروا بالشراهة، ولكنهم في حقيقة الأمر، لم يأكلوا أيّ شيء، بل تظاهروا بأنهم يأكلون. ولكن كفى نفاقاً أيها السادة! فالتورات يجب أن تؤخذ كما هي؛ أمّا إذا قبلنا تأويلات اللاهوتيين الذين يرون نصوص التورات الأخرى غير معقولة، فسنرى التورات كلها عندئذٍ، كتاباً رمزياً وحسب، ويصبح ماروته "الحمامة" كله مجرد أحداث خيالية لم تقع في اي زمان ومكان، التورات حلم، اختلاق؟ هذه هي النتيجة التي

تقود إليها طريقة السادة المبشرين في محاكمة الأشياء! لا ريب ايها السادة، أنه من الأفضل القبول بكون الاله الذي نعرف أنه "يصنع من التراب" و "ينفخ الروح" و "يسير"، يأكل أيضاً ويهضم ما يأكله و..... بل وهو ليس منيعاً على الضيق الذي يسببه القيظ، كم هي حال صديقه ابراهيم.

بعد أن انتهى الضيوف من تناول طعام الغداء، قاموا بنزهة صغيرة: "ثم قام الرجال من هناك وتطلعوا نحو سدوم؛ وكان ابراهيم ماشياً معهم ليشيّعهم. فقال الرب: هل أخفي عن ابراهيم ما أنا فاعله! فابراهيم سيكون أمة كبيرة وقوية وتتبارك به جميع أمم الأرض" (١٨ ، ١٦ ـ ١٨).

إذاً، شعوب الأرض كلها تتبارك بابراهيم! ويرى الشارحون اليهود والمسيحيون، في هذا النص تأكيداً على وجود إله واحد للأرض كلها، وهو إله ابراهيم، لكن المسيحيين لا يتخلّون لليهود عن هذا البطريرك العجوز. وإذا تذكرنا أن اليهود والمسيحيين يختلفون في تبجيل ابن مريم، فان سؤالاً آخر يطرح نفسه: أيّ من الديانتين سيحالفها النصر؟ أي هل ستغدو الأرض يهودية، أم مسيحية، إنه سؤال هام! أليس كذلك؟!.

لكننا لسنا في عجلة من أمرنا وسننتظر. بيد أن ما يجدر الاشارة إليه الآن هو، أن عدد سكان العالم بلغ الآن الثلاثة مليارات نسمة، أو زاد، منهم ٤٠٠ ـ ٥٠٠ مليون كاثوليكي، أي أولئك الذين يعتبرون أنفسهم الانصار الوحيدين للمسيحية الحقة. وهناك عدد مماثل من الأرثوذكس والطوائف المسيحية الأخرى، التي تعتبر نفسها نصيرة المسيحية الصحيحة. ولكي تتحقق نبوأة يهوه، يجب أن يتحد هؤلاء في ايمان واحد، وعليهم بعد ذلك أن يجعلوا اليهود يعترفون بوجوب "الثالوت"، ثم "لا يبقى إلا" اقناع المسلمين، والكونفوشيين، والبوذين، والبراهمان، والدواسيين وسواهم،

باعتناق المسيحية. أو ربما استطاع اليهود تحقيق هذه المهمة "البسيطة". وعلى اي حال، فان نبوأة اعتناق البشر كلهم ديانة ابراهيم، لم تتحقق حتى الآن، وهي لن تتحقق في أيّ وقت كان، بالطبع.

ولكن ما هي الخطة، أو الخطط، التي كان يهوه متردداً في اطلاع حبيبه ابراهيم، عليها؟ لقد زان العجوز الأمور من مختلف جوانبها وقرر أنه لن يلعب الطميمة مع ابراهيم. وبدا أن هذا الأخير قد أدرك أخيراً، أن الرحالة الثلاثة الذين التهموا عجله و ٨٠ ليتراً عجيناً ، عدا عن مشتقات الحليب الأخرى هم في واقع الأمر، كائنات سماوية خارقة، وأن بينهم صديقه القديم يهوه بنفسه.

وقال الرب: "إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر، وخطيتهم قد عظمت جداً؛ انزل وأرى، هل فعلوا بالتمام حسب الصراخ الآتي إلّي، أم لا فالاعلم" (١٨ ، ٢٠ - ٢١). وهكذا يظهر لنا يهوه ادارياً جيداً، فهو لم يكن يرغب في أن يأخذ المعلومات التي ترفعها الشرطة إليه، على أنها الحقيقية الوحيدة. وقد يقول قائل: إن الله الذي يرى كل شيء، لا يمكن أن يخفى عليه شيء، ولذلك كان يعرف كل شيء دون اللجوء إلى أي تحقيقات كانت. غير أننا لن ننسى أن هذا كله حدث في جوّ حارّ جداً، وأن الوجبة الوفيرة الدسمة، التي كان قدمها إليه ابراهيم، أثرت بعض الشيء على حيوية عقله الالهي.

"وانصرف الرجال من هناك وذهبوا نحو سدوم؛ وأمّا ابراهيم، فكان لم يزل قائماً أمام الرب. فتقدم ابراهيم وقال: أفتهلك البار مع الأثيم؟ قد يكون في هذه المدينة خمسون باراً؟ أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين باراً الذين فيه؟ حاشاك أن تفعل مثل هذا الأمر، أن تميت البار مع

الأثيم، فيكون البار كالأثيم، ادّيان كل الأرض لا يصنع عدلاً؟ فقال الرب: إن وجدت في سدوم خمسين باراً، فاني أصفح عن المكان كله من أجلهم. فأجاب ابراهيم وقال: إني قد شرعت أكلّم المولى وأنا تراب ورماد، ربما نقص الخمسون باراً خمسة، أتهلك المدينة كلها بالخمسة؟ فقال: لا أهلك إن وجدت هناك خمسة وأربعين باراً فعاد بكلمة أيضاً وقال: عسى أن يوجد هناك أربعون، فقال الرب: لا أفعل من أجل الأربعين. فقال ابراهيم: لا يسخط المولى: عسى أن يكون هناك ثلاثون؟ فقال الرب: لا أفعل إن وجدت هناك ثلاثين. فقال ابراهيم: إني قد شرعت أكلّم المولى، عسى أن يوجد هناك عشرون، فقال الرب: لا أهلك من أجل العشرين. فقال ابراهيم لا يسخط المولى، أتلكّم هذه المرة فقط، عسى أن يوجد هناك عشرة؛ فقال الرب: لا أهلك من أجل العشرة. وذهب الرب عندما فرغ من الكلام مع ابراهيم، ورجع ابراهيم إلى مكانه" (١٨ ، ٢٢ - ٣٣).

الفصل الثامن

الأب المقدس، لوط

لم يمض يهوه مع رفيقيه، مع أنه أراد أن يرى كل شيء بنفسه، ويتضح من العرض اللاحق للقصة، أنه عاد إلى ملكوته. "فجاء الملاكان إلى سدوم مساء، وكان لوط جالساً في باب سدوم، فلما رآهما، قام لاستقبالهما وسجد بوجهه إلى الأرض. وقال: يا سيدّي! ميلا إلى بيت عبدكما وبيتا واغسلا ارجلكما، ثم تبكران وتذهبان في طريقكما . فقالا: لا بل في الساحة نبيت. فألح عليهما جداً، فمالا إليه ودخلا بيته، فصنع لهما ضيافة وخبز فطير، فأكلا، وقبل أن يضجعا، أحاط بالبيت رجال المدينة، رجال سدوم، من الحدث إلى الشيخ، كل الشعب من أقصاها. فنادوا لوطاً وقالوا له: اين الرجلان اللذان دخلا إليك الليلة؟ أخرجهما إلينا لنعرفهما. فخرج إليهم لوط وأغلق الباب وراءه، وقال: لا تفعلوا شراً يا أخوتي، هوذا لي ابنتان لم تعرفا رجلاً، أخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم، وأما هذا الرجلان، فلا تفعلوا بهما شيئاً، لأنهما قد دخلا تحت سقفي. فقالوا: ابعد إلى هناك، ثم قالوا: جاء هذا الانسان ليغرّب، وهو الآن

يريد أن يحكم. الآن نفعل بك شراً أكثر منهما، فضيّقوا على لوط جداً وتقدموا ليكسروا الباب، فمدّ الرجلان أيديهما وأخرجا لوطاً إليهما، وأغلقا الباب وأمّا الرجال الذين على باب البيت فضرباهم بالعمى، من الصغير إلى الكبير، فعجزوا عن أن يجدوا الباب" (١٩ ، ١ ـ ١١).

ارفع اعتذاري المتواضع إلى قارئي الكريم عن هذا الاسهاب في اقتباس هذا النص التوراتي، بيد ان سوقه كاملاً كان ضرورة لا بد منها، ولن ننسى هنا أن الأسطر المقتبسة كتبت تحت إشراف مباشر من "الروح القدس"! ومن جهة أخرى، لاضير في أن نسوق هنا تعليق فولتير عليه: "هذا المقطع بالذات يُشْكِلُ على العقل الانساني، أكثر من أي مقطع آخر في كتاب التورات. فإذا كان هذان الملاكان، أو الالهان، بغير جسد، فهذا يعني أنهما اتخذا صورتين بشريتين في غاية الحسن والجمال حتى أثارا رغبة شعب بكامله، إثارة رهيبة. تخيّل فقط، أن الشيوخ والأطفال، الفتيان والرجال، اندفعوا كلهم حشداً واحداً إلى بيت لوط ليرووا رغبتهم الجنسية في الملاكين. إن الطبيعة البشرية لا تتسم بفعل مثل هذه الدناءة علانية وبمثل هذه الصورة الجماعية، بل ينتحون مكاناً خفياً قصياً لممارستها. ولذلك فالأغلب أن يكون السدوميون قد طلبوا الملاكين المشاغبين، لأنهما جاءا يطلبان الخبز في زمن المجاعة. ونحن لا نقع على مثل هذه الشناعة حتى في الديانات الوثنية. ويعتقد اللاهوتيون، أن الرجال الثلاثة الذين زاروا ابراهيم هم: الله الأب، الله الابن، الله الروح القدس، وهذا يجعل فعلة أهل سدوم أكثر شناعة؛ لكن هذه القصة ما زالت غامضة حتى الآن".

أمّا تقديم لوط ابنتيه البريئتين، بدلاً من الملاكين، أو الالهين، فهو أمر أكثر خسّة وإثارة للاشمئزاز. فكل ما في هذه الرواية يدل على دناءة هذا القديس

البار، التي لم ينوّه إليها أيّ كتاب. لكن اللاهوتيين يقعون في هذه الخرافة على شيء ما مشترك بينها وبين خرافة فيليمون وبافكيدا[1]. إلاّ أن هذه الأخيرة لا تحتوي أي شكل من اشكال الخسّة، وهي أكثر تعليماً وعظة، فزيوس وهرمس عاقبا المدينة لأنها رفضت استضافتهما، وهذا يذكرنا بواجب التعاطف مع الآخرين وحبهم، ولا يقود إلى أيّ مستنقع نتن.

ويؤكد آخرون على أن المؤلف "المقدس" أراد أن يتفوّق على قصة فيليمون وبافكيدا، كي يثير مزيداً من الاشمئزاز نحو الإثم الذي كان منتشراً في البلدان الحارة انتشاراً واسعاً. ولكن بدو صحراء سدوم يؤكدون على أن القوافل العابرة كانت تقدم إليهم الفتيات الناضجات، وهم لم يطلبوا غلماناً في اي وقت كان.

وقصة الملاكين لم تأت هنا رمزاً أو كناية، فكل ما جاء فيها حرفّي ودقيق، أضف إلى هذا، أنه من غيرالواضح، أيّ رمزية يمكن أن نستخلصها هنا لصالح العهد الجديد، الذي يؤكد "آباء الكنيسة" أن العهد القديم "صورته الأصلية".

لنتابع النص "المقدس" للكتاب الالهي، الذي ينبغي علينا أن نعتبره صادقاً، تحت طائلة السقوط في الخطيئة المميتة. ونحن سنقع على ما هو أكثر فظاظة. "وقال الرجلان للوط: من لك هنا أيضاً؟ أصهارك وبنيك وبناتك، وكل من لك في المدينة، أخرجه منها وأخرج، لأننا مهلكان هذا المكان" (١٩ ، ١٢). ولكن لماذا هذه الأسئلة كلها؟ ألا يعرف الملاكان أفراد عائلة لوط؟ "فقد تعاظمت الشكوى على سكانه إلى الرب، فأرسلنا لنهلكه. فخرج لوط وكلّم أصهاره وقال: قوموا اخرجوا من هذا المكان، لأن الرب مهلك هذه المدينة، فكان كمازح في أعين أصهاره. ولما طلع الفجر

أخذ الملاكان يتعجلان لوطاً قائلين: قم خذ امرأتك وابنتيك لئلا تهلك باثم المدينة. ولما توانى أمسك الرجلان بيد امرأته وبيد ابنتيه لشفقة الرب عليه، وأخرجاه ووضعاه خارج المدينة. ولّما أخرجاهم قال له أحد الملاكين: انج بروحك، ولا تنظر إلى ورائك، ولا تقف في كل الدائرة. اهرب إلى الجبل لئلا تهلك. فقال له لوط: لا يا سيدي هوذا عبدك قد وجد نعمة في عينيك، وعظمت لطفك الذي صنعت إليّ استيفاء نفسي، وأنا لا أقدر أن أهرب إلى الجبل، إذ لعلّ الشرّ يدركني فأموت. فها هي المدينة هذه قريبة للهرب، وهي صغيرة، أهرب إلى هناك، أليست صغيرة؟ فقال له: إني قد رفعت وجهك في هذا الأمر أيضاً، فلن أقلب المدينة التي تكلمت عنها أسرع بالهرب إلى هناك، لأني لا أستطيع أن أفعل شيئاً حتى تجيئني إلى هناك. لذلك دعي اسم المدينة صوغر. وإذا أشرقت الشمس على الأرض، دخل لوط إلى صوغر.

فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً و ناراً، وقلب تلك المدن وكل الدائرة، وجميع سكان المدن ونبات الأرض، ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح، وبكّر ابراهيم في الغد إلى المكان الذي وقف فيه أمام الرب، وتطلّع نحو سدوم وعمورة، ونحو كل أرض الدائرة، فرأى دخان الأرض يصعد كدخان الأتون" (١٩ ، ١٣ - ٢٩).

لقد تفنن اللاهوتيون تفنناً مثيراً للفضول، في معرض برهانهم على أن إثم عمورة كان نقيضاً لإثم سدوم. لكن كتاب التورات لا يشير إلى هذا من قريب أو بعيد وغدا واضحاً الآن ذاك "الصراخ" الذي انطلق من سدوم وعمورة إلى السماء، كما أكّد يهوه في حديثه مع ابراهيم؛ ففي سدوم تعالى صراخ النسوة اللواتي هجرهن أزواجهن ليستمتعوا بممارسة اللواط، أما

في عمورة، فقد تعالى صراخ الرجال الذين هجرتهم نساؤهم ليمارسن السحاق. ولكن، لماذا قضى الغضب الالهي على نساء سدوم؟ ولماذا لم يرحم العجوز يهوه رجال عمورة التاعسين، الذين أذلتهم ميول زوجاتهم الشاذة؟

ومن الواضح أيضاً، أن السيّدين السدوميين اللذين أزمعا الزواج بابنتي لوط، لم يكونا لواطيين؛ فقد كان قرار زواجهما راسخاً، وقاب قوسين أو أدنى من التحقيق، حتى أن "الرجل المقدس" دعاهما صهريه. ولم يشر المؤلف "المقدس إلى أن صهري لوط كان منغمسين في الإثم الشائن، الذي هلكت سدوم وأهلها بسببه، ولا يشار إليهما ين حشد السدوميين الذين جاؤوا لاغتصاب الملاكين. بل ترغمنا التورات على الاعتقاد بأنهما كان شخصين مستقيمين لزما بيتهما، لأن لوطاً ذهب ليوقظهما، ويأخذهما معه. ومع ذلك هلكا مع الآخرين.

وفيما يخص زوجة لوط، لا بد أن نقّر بأنها دفعت ثمناً غالياً لتعاطفها الذي أرغمها على الالتفات إلى مدينتها الأم. وربما كانت قد تركت أهلها فيها. فقد أكّد بعض الكتّاب اليهود والمسيحيين، الذين عاشوا في القرون الميلادية الأولى، انها تحوّلت إلى عمود من الملح. فاليهودي يوسف فلاثي[٢]، يؤكد في كتابه "العاديات اليهودية"، انه رأى هذا العمود بأم عينه، وأنه كان بامكان أيّ كان أن يراه ويلمسه. بيد أن أصحاب مذهب الشك يفترضون، أنه يمكن لليهود المحليين أن ينحتوا مثل هذا العمود ويزعموا أنه زوجة لوط. فالمنحوتات الملحية، التي اكتشفت، لم تكن قليلة، وقد عاشت زمناً طويلاً. ومن جهة أخرى، ذهب القديس هيرينيه[٣] بعيداً جداً، عندما أكد التالي: "زوجة لوط، ليست جسداً يتعفّن، ولكن بقاءها

الأزلي في صورة عمود من الملح، يجعلها قادرة على أن تحافظ على عفتها الانثوية العادية". وهذا ما يؤكده بالجدّيّة نفسها، اللاهوتي الكاثوليكي الأكثر شهرة، ترتوليان، في "ملحمة سدوم"[٤].

غير أن الرومان لم يكونوا على علم بهذا كله، عندما جاؤوا إلى فلسطين. وبعد أن اغتصبوها، لم تكن لديهم أي رغبة في الذهاب إلى سدوم ليروا عمود الملح الشهير، لأنه لم يكن لمثل هذا العمود وجود قط. كما لم يسمع أيّ من بومبي، أو تيطوس، أو ادريان[٥]، بلوط أو زوجته، أو ابنتيه، أو بابراهيم أو أي فرد من أفراد هذه العائلة "المقدسة". وعندما يمضي الحجاج اليوم لزيارة "المقدسات" التوراتية الواقعة في ضواحي البحر الميت، فانهم لا يجدون أيّ تمثال من الملح أو القطران. ولم يفطن المسلمون المحليون الى اقامة شكل ما هناك يرضي الحجاج. لكنهم يقودونهم إلى بلوطة ممراً، التي التهم يهوه ورفيقاه تحتها عجل العجوز ابراهيم وكمية مهولة من الخبز والجبن والزبدة والقشطة.

واذا عدنا إلى الجغرافي الاغريقي العظيم، سترابون[٦] الذي عاش في الحقبة التي تنتسب إليها الخرافة المسيحية عن ميلاد يسوع المسيح، فسنرى أنه درس آسيا الصغرى دراسة مفصّلة، وخاصة فلسطين، التي وصفها بدقة متناهية. وقد درس سترابون منطقة سدوم والبحر الميت على وجه الخصوص؛ بيد أنه لم يقل كلمة واحدة عن عمود الملح، الذي زعم يوسف فلافي أنه رآه بأم عينه، بعد سنوات قليلة من رحلة سترابون. إلاّ أن ما وصفه سترابون يثير الفضول حقاً: "هناك أسس كثيرة تدعو إلى الاعتقاد بأن هذه المنطقة كانت فريسة للنار: صخور محترقة، شروخ كثيرة، أرض من الرماد، أنهار تفوح منها رائحة كريهة، واطلال المنازل منتشرة في كل مكان. وهذا

يرغمنا على أن نصدّق ما يزعمه السكان المحليون من أنه كانت تقوم هنا في زمن ما، ثلاث عشرة مدينة عاصمتها سدوم. ولكن هزّة أرضية، وحمماً بركانية، وتيارات مياه البحيرة الكبريتية، ابتلعت هذه البلاد، ولم يبق منها سوى الصخور شاهدة على الكارثة. بعض المدن غرق، وبعضها الآخر تركه سكانه لينجوا بأرواحهم" (سترابون، "الجغرافيا"، الكتاب XVI، الفصل ١١). غني عن القول، ان هذا الوصف لا يشبه ما جاء في كتاب التكوين: "فامطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من السماء".

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى ما جاء في الاصحاح الرابع عشر من سفر التكوين: "وعمق السديم كان فيه كثير من آبار القطران. فهرب ملكا سدوم وعمورة وسقطا هناك، وهرب الباقون إلى الجبل" (سطر ١٠). اذاً، تعترف التورات نفسها بأن الأرض هناك كانت قطرانية قبل وقوع الكارثة.

ولدى العلماء امكانية أخرى للقول بأن "الحمامة الالهية" هزأت بالمؤلف "المقدس". فطبيعة تلك الصحراء تحمل آثار كارثة جيولوجية عانت منها الكائنات الحية التي كانت تعيش في المنطقة؛ هذا إذا افترضنا أنه كانت هناك مثل هذه الكائنات أصلاً. فالبحر الميت، الذي يصبّ فيه نهر الأردن، تبلغ مساحة سطحه ٩٢٠ كم٢، ويبلغ طوله ١٠٠ كم، وتصل أكثر نقاطه عرضاً إلى ٢٠ كم. ومياه هذا البحر تتبخّر، فهو يبتلع مياه نهر الأردن كلها وحده، ومع ذلك لا يزيد منسوب الماء فيه. ويقع البحر الميت على ارتفاع ٣٩٢م تحت سطح البحر، ويصل عمق أعمق نقطة فيه إلى ٤٠٠م. ومن المعروف أن الهواء الحار الجاف، الذي يقترن هنا بضغط جويّ فريد (٧٩٣مم)، يستهلك كمية مهولة من الماء. وتدل الطبقات المستنقعية المنتشرة في كل مكان هنا، وكذلك المواد القطرانية الكثيرة، والانهيارات الأرضية

المتكررة، تدل كلها على أن هذه المنطقة لم تكن مأهولة في أي يوم من الأيام.

ولكن اذا أردت ألاّ تصدق بأن "الحمامة" سخرت من مؤلف سفر التكوين "المقدس"، واذا كانت لديك رغبة في تصديق قصة المطر الناري، الذي هطل من السماء ليقتل الذين كانوا يمارسون اللواط والسحاق في سدوم وعمورة، فعليك أن تعترف اذاً، بأن يهوه الذي لا يتغيّر، قد كذب بعض الكذب. أليس هو نفسه مَنْ أقسم لنوح بأنه لن يعود إلى قتل الناس ثانية؟ ألم يقم قوس قزح علامة لعهده بألا يرسل الطوفان ثانية؟ فان تقسم بألاّ ترسل الطوفان، ثم تستبدل تيارات الماء بتيارات من النار والكبريت، لهي سياسة غير شريفة.

لنتابع الآن قصة سفر التكوين. يقول المؤلف "المقدس": ان لوطاً، الذي لم يقع في الاثم الذي سقط فيه سكان مدينته، قد أُنقذ من الهلاك، هو وابنتاه. وفي اللحظة نفسها يبيّن لنا المؤلف أمثلة حياة العفة والطهارة التي كانت تعيشها هذه "العائلة المقدسة". ونؤكد مرة أخرى، ان هذا المشهد التوراتي الجديد، لا يحتوي على أي كلمة ذمّ أو لوم بحق الهاربين الثلاثة من جحيم سدوم. "فللحمامة الالهية" خصوصيتها، التي تتمثل في أنها تروي لنا عن أكثر الدناءات اثارة للاشمئزاز، وهي تفعل ذلك بهدوء وبرود أعصاب، كما لو أن ما ترويه هو، من مقومات السلوك الانساني السوي المعتاد. حتى سفاح القربى، يبدو عرفاً معتاداً في الجماعة الأبوية، وفق الرواية "المقدسة".

ليأذن لي قارئي الكريم، مرة أخرى، ان اقتبس مقطعاً آخر من سفر التكوين، فهو ضروري بدقته كلها لكي نبيّن أن مثل هذه "النصوص

المقدسة" هي، الأكثر قداسة بين النصوص الأخرى كلها، وانها أساس الايمان المقدس الطاهر، وجسده.

يقول النص: "وصعد لوط من صوغر، وسكن في الجبل وابنتاه معه، لأنه خاف أن يسكن في صوغر، فسكن في المغارة هو وابنتاه. فقالت البكر للصغيرة: أبو ناقد شاخ، وليس في الأرض رجل ليدخل علينا، كعادة كل الأرض؛ هلمّ نسقي أبانا خمراً ونضجع معه، فنحيي منه نسلاً. فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة، ودخلت البكر واضجعت مع أبيها، وهو لم يعلم باضجاعها ولا بقيامها، وفي اليوم الثاني قالت البكر للصغيرة: اني قد اضجعت مع أبي البارحة، فلنسقه خمراً الليلة ثم تدخلين فتضجعي معه، فنحيي منه نسلاً.وسقتا اباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً، وقامت الصغيرة واضجعت معه، وهو لم يعلم باضجاعها ولا بقيامها. فحبلت ابنتا لوط منه. وولدت البكر ابناً ودعت اسمه موآب، وهو أبو الموآبيين الى اليوم؛ والصغيرة أيضاً ولدت ابناً ودعت اسمه بن عمي، وهو ابو بني عمون الى اليوم" (تكوين ١٩ ، ٣٠ ـ ٣٨).

فليكن "الروح القدس" هو من حمل هذا النص من السماء، فهذا لن يمنعنا من وصفه بالشناعة والخسة والدناءة و....

ولم تنج مغامرة لوط وابنتيه من الانتقاد العادل المرّ، الذي وجهه اليها المفكر العظيم فولتير. وها نحن نترك الحديث له، لأن أفكاره العبقرية مازالت تحافظ على أهميتها، حتى يومنا هذا ويقول فولتير:

"لا يفيدنا النص التوراتي بما فعله لوط عندما رأى زوجته وقد تحوّلت إلى عمود من الملح؛ ولم يذكر لنا أيضاً، اسميّ ابنتيه. امّا فكرة إسكار الوالد بهدف "الاضجاع معه"، فهي فكرة توراتية فريدة. ولا تقول التورات لنا:

من أين جاءت الفتاتان بالخمرة؟ ولكنها تقول لنا: ان لوطاً اخترق عذرية ابنتيه دون أن يلحظ دخولهما عليه، أو خروجهما من عنده. بيد أنه يصعب كثيراً على الرجل أن يفضّ بكارة فتاة دون أن يعرف شيئاً عمّا فعل. انه حدث لا نستطيع أن نجد له تفسيراً؛ وليس مفهوماً أيضاً، قلق ابنتي لوط على مصير الانسانية. فابراهيم كان قد انجب اسماعيل من هاجر، والشعوب كانت منتشرة في كل مكان، وصوغر، التي خرجت منها الفتاتان، كانت قريبة".

من أين حصلتا على الخمر، ان لم يكن من الخمارات المحلية؟ ويشيرفوليتر الى تشابه هذه القصة مع قصة ميّرا التي ولدت أدونيس من ابيها كينراس[٧]. لكن ميّرا عوقبت عقاباً صارماً على جريمتها هذه؛ بينما نالت ابنتا نوح مكافأة عظيمة من وجهة نظر اللاهوت؛ فقد أصبحتا والدتين لذرية كثيرة.

الفصل التاسع

نهاية قصة

"صديق يهوه المقدس"، ابراهيم

هاهو البطريرك الالفونس، ابراهيم، يعود إلى المسرح من جديد، وقد جاء الآن ليلجأ إلى الطريقة التي أثرى في مصر بها. "وانتقل ابراهيم من هناك إلى أرض الجنوب، وسكن بين قادش وشور، وتغرّب في جرار. وقال ابراهيم عن سارة امرأته: هي أختي. فأرسل ابيمالك، ملك جرار، وأخذ سارة. فجاء الله ابيمالك في حلم الليل وقال له: ها أنت ميت من أجل المرأة التي أخذتها، فانها متزوجة ببعل. ولكن لم يكن أبيمالك قد اقترب اليها. فقال ياسيد، أأُمة بارّة تقتل؟ ألم يقل لي هو: انها أختي؟ وهي أيضاً نفسها قالت: هو أخي. بسلامة قلبي ونقاوة يدي فعلت هذا. فقال له الله في الحلم: أنا أيضاً علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا، وأنا أيضاً أمسكتك عن أن تخطئ إليّ. لذلك لم أدعك تمسّها. والآن ردّ امرأة الرجل، فانه نبيّ فيصلّي لأجلك فتحيا؛ وان كنت لست تردها، فاعلم أنك موتاً تموت، انت وكل من لك.

فبكر ابيمالك في الغد، ودعا جميع عبيده وتكلّم بكل هذا الكلام في مسامعهم، فخاف الرجال جداً. ثم دعا أبيمالك ابراهيم وقال له: ماذا فعلت بنا؟ وبماذا اخطأت اليك حتى جلبت عليّ وعلى مملكتي خطية عظيمة؟ أعمالاً لا تُعمل عملت بي. وقال ابيمالك لابراهيم: ماذا رأيت حتى عملت هذا الشيء؟ فقال ابراهيم: اني قلت ليس في هذا الموضع خوف الله البتة، فيقتلونني لأجل امرأتي، و بالحقيقة أيضاً، هي أختي ابنة أبي، غير أنها ليست ابنة أميّ، فصارت لي زوجة.وحدث لمّا أتاهني الله من بيت أبي، قلت لها: هذا معروفك الذي تصنعين إليّ: في كل مكان نأتي اليه، قولي عني: هو أخي. فأخذ ابيمالك غنماً وبقراً وعبيداً وإماء وأعطاها لابراهيم، ورد اليه سارة امرأته. وقال ابيمالك: هوذا أرضي قدامك، أسكن فيما حسن في عينيك؛ وقال لسارة: قد أعطيت أخاك ألفاً من الفضة، هو لك غطاء عين من جهة كل ما عندك وعند كل واحد، فانصفت. وصلّى ابراهيم إلى الله، فشفى ابيمالك وامرأته وجواريه فولدن. لأن الرب كان قد اغلق كل رحم لبيت ابيمالك بسبب سارة امرأة ابراهيم (٢٠ ، ١ ـ ١٨).

ولن ننسى أن نشير هنا إلى أن سارة كانت قد بلغت عندئذٍ عامها التسعين.

يخطر في الذهن عدد من الملاحظات: هل قال ابراهيم الحقيقة عندما أكد لابيمالك بأن سارة هي زوجته وأخته في الوقت نفسه؟ اذا كانت هذه هي الحقيقة فعلاً فأمامنا مثال آخر على سفاح القربى "المقدس". وانه "لكتاب مقدس" ممتع حقاً!

ولكن هذا ليس كل شيء. فاذا كان ابيمالك قد ظهر في هذه القصة رجلاً شريفاً محترماً، فان ابراهيم كان فيها مثال الرجل النتن، من ايّ جهة

نظرت اليه. واذا كان هو أخا ساره بالدم فعلاً، فان هذا لا يبرر له دوره كقوّاد وكذاب. فاخته، التي هي زوجته، تحولت بين يديه إلى مصدر دخل جيّد. وهو كذب عندما نفى أنها زوجته. أمّا المبرر الذي ساقه عندما كُشف مكره ودناءته، فقد أظهره لنا محتالاً يستحق درجة الدكتوراه في علم اللاهوت. وحتى الامكانيات العقلية المحدودة، التي كان يتمتع بها اؤلئك الناس، لم تستطع أن تبرر له فعلته الشنيعة.

ومن جهة أخرى، هل يعتبر هذا البطريك المحبوب، هذا المحظوظ، الذي يوليه يهوه نفسه عناية خاصة، أخاً لساره؟ إن نصوص التورات الأخرى كلها تثبت عكس ذلك ففي قصته مع فرعون مصر، لجأ ابراهيم إلى كذبه المثمر، لأول مرة. ولكن عندما فضح الفرعون أمره، لم يختلق الأعذار التي ساقها لابيمالك. وهذا يجعلنا نعتقد بأنها ليست أكثر من اختلاق وليد لحظته، انها الفكرة الأولى التي خطرت "للنبي المقدس"، عندما كان يرزح تحت وطأة تقريع ملك جرار له لماذا لم يدفع بهذا التبرير أمام فرعون؟

زد الى هذا كله أن "الروح القدس" يناقض نفسه. ففي الاصحاح الحادي عشر، قدّم لنا عائلة تارح، والد ابراهيم: "تارح وَلَدَ ابراهيم، وناحور، وهاران، وهاران وَلَدَ لوطاً. ومات هاران قبل تارح أبيه، في أرض ميلاده، في أور الكلدانيين. وآتخذ ابراهيم وناحور لأنفسهما امرأتين؛ اسم امرأة ابراهيم ساراي واسم امرأة ناحور ملكة بنت هاران، أمي ملكة وأبي سكه"(تكون ١١ ، ٢٧ ـ ٢٩). أي ناحور تزوّج ابنة أخيه. ولو كانت ساره ابنة تارح وأخت ابراهيم وناحور وهاران، لما تجاوز المؤلف هذه الواقعة أبداً، خاصة وأنه روى مثل هذه التفاصيل كلها، أثناء سرده لوقائع قصة عائلة تارح. بل التورات نفسها تدعو ساره بكنّة تارح: "وأخذ تارح ابرام

ابنه، ولوطاً بن هاران ابن أخيه، وساراي كنّته، امرأة ابرام ابنه؛ فخرجوا معاً من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان، فأتوا حاران وأقاموا هناك. وكانت أيام تارح مائتين وخمس سنين. ومات تارح في حاران"(١١ ، ٣١ - ٣٢).

اذاً، لم يجد ابراهيم أي حرج في تصريحه لابيمالك بأن أخته هي زوجته، بل جعل من سفاح القربى مبرراً لكذبه وخداعه. واذا كان قد قرر أن يكشف لملك جرار عن السرّ الذي أخفاه عن فرعون مصر، فان "الروح القدس" كذب عندما لقّن هذا المقطع لمؤلف كتاب التكوين، ووقع معه في التناقض.

غني عن القول بالطبع، أن هذا كله مجرد اختلاق هدف به مؤلف أخرق جاهل. أمّا "الروح القدس"، ففي مساعيه كمضلل، وبحثه عن سابقات لا أخلاقية نتنة، لقّن كل ما ورد في خاطره، فدوّن المؤلف باذعان ورضى مختلف ضروب الشائنات والسابقات الشنيعة، دون أن يلقي بالاً لتناقضها الصريح وتشويشها، بل وعجزها الفيزيائي العادي.

ثم كيف لم يدرك مؤلف هذه السطور التوراتية، ان "الحمامة" الماكرة تسخر منه، اذْ أرغمته على تسمية "أرض جرار" مملكة؛ بينما يقول الجغرافيون القدماء، ان جرار مجرد واد رملي صغير قاحل، ليس فيه حياة نباتية، انه مكان صحراوي ميت لا يمكن أن تعيش فيه روح بشرية. فهل كان ابيمالك ملكاً على هذه الصحراء؟ وكم من الوقت بقيت ساره عنده؟ ولماذا لم تدقّ مدام ابيمالك عنق ساره الجميل؟

وهاكم نقطة أخرى تدلّ على صفاقة طُرف "الروح القدس". وكان المشهد التالي قد وقع بعد القضاء على سدوم وعمورة، وقبل أن يحقق يهوه

وعده الذي قطعه تحت بلوطة ممرا. يبدأ الاصحاح الحادي والعشرون هكذا: "وافتقد الرب سارة كما قال؛ وفعل الرب لسارة كما وعد؛ فحملت وولدت لابراهيم ابنا في شيخوخته، في الوقت الذي كان الله قد حدده" (٢١ ، ١ - ٢).

وبما أن الولادة كانت بعد عام من ظهور يهوه والملاكين عند بلوطة ممرا، فان اقامة ابراهيم في أرض جرار كانت، في الأشهر الثلاثة الأولى التي تلت الطوفان الناري، اذا أخذنا بعين الحسبان الفترة الزمنية المعتادة لحمل سارة كأنثى. واذا افترضنا أن اقامة ابراهيم في جرار استمرت الاشهر الثلاثة كلها فان السؤال الذي يطرح نفسه هو، كيف استطاعت زوجات صاحب الجلالة ابيمالك، وجواريه واماؤه، ان يلحظن عقمهنّ، أي أن "يهوه أغلق أرحامهن"؟ هل يمكن للمرأة أنْ تعرف بهذه السرعة أنها فقدت القدرة على الانجاب؟

يجب أن نقرّ مع اللاهوتيين، الذين لا تدهشهم أي عجيبة مهما كانت تثير الاشمئزاز، بأن يهوه مزح هنا مزحة شنيعة، لكنها فريدة في طرافتها، هل تتخيلّون معي أيّ تعابير ارتسمت على وجه ملك الصحراء، ووجوه رعيته عندما رأوا "أرحام نسائهم مغلقة"؟! لابدّ أنهم عدّوا ذلك مزحة شريرة جداً. ولذلك يصبح مفهوماً تماماً، لماذا أعطى ابيمالك ابراهيم كل ما أراد، كي يضع حداً لتلك الكارثة التي ابتليت مملكته بها، وقال للنبي وزوجته اخته: "أسرع واذهب من هنا".

واذا كنت قارئي الكريم تظنّ، أن عجائب كتاب التكوين قد انتهت عند عجيبة "الأرحام المغلقة". فأنت تسرعت قليلاً! لأنه بعد هذه العجيبة جاءت عجيبة انجاب سارة ابنها الأول الأوحد، وهي في التسعين من عمرها. إنه لطريف ذَكَرُ الحمام هذا!

والآن، إلى شأن آخر. فبعد أن أصبح لابراهيم ابنه الشرعي، طرد اسماعيل الذي كان قد أنجبه من أمته المصرية هاجر.

"فسمّى ابراهيم ابنه المولود له، الذي ولدته له سارة، اسحق. وختن ابراهيم اسحق ابنه وهو ابن ثمانية أيام، كما أمره الله. وكان ابراهيم ابن مائة سنة حين ولد له اسحق. وقالت سارة قد أنشأ الله لي فرحاً، فكل من سمع يفرح لي؛ وقالت: من كان يقول لابراهيم: ان سارة سترضع ابناً، فقد ولدت ابناً في شيخوخته. وكبر الصبي وفطم، وصنع ابراهيم مأدبة عظيمة في يوم فطام اسحق. ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لابراهيم، ساخراً. فقالت لابراهيم: اطرد هذه الأمة وابنها، فان ابن هذه لا يرث مع ابني اسحق. فساء هذا الكلام جداً في عيني ابراهيم، من جهة ابنه، فقال الله لابراهيم: لا يسوء في عينيك لأمر الصبي، وأمر أمتك. فكل ما تقوله لك سارة، اسمع لقولها، لأنه باسحق يكون لك نسل. وابن الأمة أيضاً اجعله أمة، فانه نسلك. فبكر ابراهيم في الغداة وأخذ خبزاً وقربة ماء، فدفعهما إلى هاجر وجعلها على منكبيها، وأعطاها الصبي وصرفها، فمضت وتاهت في برية بئر سبع؛ ونفذ الماء من القربة، فطرحت الصبي تحت بعض الشجر ومضت فجلست تجاهه بعيداً قدر رمية قوس، لأنها لم تكن تريد أن ترى موت ابنها، فجلست تجاهه ورفعت صوتها وبكت، وسمع الله صوت الغلام،فنادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها: مالك يا هاجر، لا تخافي، فان الله قد سمع صوت الغلام حيث هو، قومي فخذي الغلام ولتكن يدك معه، فاني اجعله أمة كبيرة.وكشف الله عن عينيها فرأت بئر ماء، فمضت وملأت القربة ماء وسقت الغلام. وكان الله مع الغلام حتى كبر، فأقام في البرية، وكان رامياً بالقوس. وأقام في برية فاران، واتخذت له أمه امرأة من أرض مصر" (تكوين ٢١ ، ٣ ، ٢١).

.اذاً طرد ابراهيم ابنه البكر وأمه هاجر مزوّداً اياهما بكسرة خبز وقربة ماء، وأقل ما يمكن أن يوصف به هذا الاجراء هو، أنه سلوك وحشي لا انساني خسيس، ويتسم بالنذالة ويثير الاشمئزاز، خاصة وأنه صدر عن سيّد جبار هزم جيوش أربع ممالك قوية، علماً بأن مقاتليه لم يكونوا سوى خدمه ال ٣١٨ ، سيّدٍ امتلك ثروة كبيرة بتأجيره لزوجته اخته، إلى فرعون مصر، وملك جرار. هذه هي الوصايا "الخالدة"، والاخلاق المثالية التي يعلمها "الكتاب المقدس"!

ثم يفيدنا سفر التكوين بأن البطريرك العظيم عاش بعد ذلك زمناً طويلاً في أرض فلسطين. ولكن ابراهيم الذي أسكرته فرحة انجابه ولداً من حبيبته سارة، لم يكن ينتظر من سيده وحاميه، يهوه الجبار تلك المزحة الفظيعة التي سيلعبها معه بعد قليل، عندما سأله: "أنت تحب وحيدك يا رسول قلبي؟ اذاً كي ترضيني، عليك أن تقتله". هذه هي المفاجأة التي لم يكن ينتظرها ابراهيم من يهوه الذي اختاره وحده. والحقيقة أن هذا كله كان مجرد دعابة! اذ يبدو أن الكلّي الجبروت، أحب أن يروّح عن نفسه قليلاً! فخطرت له فكرة أن يرى التبدلات التي ستطرأ على سحنة ابراهيم عندما يقذفه بهذا الطلب الصاعق. ونرى لزاماً علينا أن نسوق هنا، النص الأصلي لهذا المشهد، لأنه في غاية الروعة!

وكان بعد هذه الأمور أن الله امتحن ابراهيم فقال له: يا ابراهيم! قال: لبيك! قال: خذ ابنك وحيدك الذي تحبه اسحق، وامض إلى أرض مورية، واصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي اريك، فبكر ابراهيم من الغداة وأكفّ حماره وأخذ معه غلامين واسحق ابنه، وشقق حطباً لمحرقة، وقام ومضى إلى الموضع الذي اشار له الله اليه. وفي اليوم الثالث رفع ابراهيم طرفه فأبصر الموضع من بعيد. فقال لغلاميه: امكثا انتما هنا مع الحمار، وأنا

والغلام نمضي الى هناك فنسجد ونرجع اليكما. وأخذ ابراهيم حطب المحرقة وجعله على اسحق ابنه، وأخذ بيده النار والسكين وذهب كلاهما معاً. فقال اسحق لابيه: هذه النار والحطب، فأين الحمل للمحرقة؟ فقال ابراهيم: الله يرى الحمل للمحرقة يا بني. ومضيا معاً. فلما أفضيا إلى الموضع الذي أشار له الله اليه، بنى ابراهيم المذبح هناك ونضدد الحطب، وأوثق اسحق ابنه وألقاه على المذبح فوق الحطب، ومدّ يده وأخذ السكين ليذبحه؛ فناداه ملاك الرب من السماء قائلاً: لا تمدد يدك إلى الغلام، ولا تفعل به شيئاً فاني الآن عرفت أنك متّقِ الله، فلم تذخر ابنك وحيدك عني. فرفع ابراهيم طرفه واذا بكبش وراء معتقل بقرنيه في الجداد، فعمد اليه ابراهيم واخذه وأصعده المحرقة بدلاً من ابنه. وسمّى ابراهيم ذلك الموضع، الرب يرى، ولذلك يقال اليوم: جبل الرب يرى. ونادى ملاك الرب ابراهيم ثانية من السماء وقال: بنفسي أقسمت، يقول الرب: بما أنك فعلت هذا الأمر ولم تذخر ابنك وحيدك، لا باركنّك واكثّرنّ نسلك كنجوم السماء ورمل البحر، ويرث نسلك مدن اعدائه، ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض، لأنك سمعت قولي. ثم رجع ابراهيم إلى غلاميه، فقاموا ومضوا معاً إلى بئر سبع، واقام ابراهيم ببئر سبع" (تكوين ٢٢ ، ١ ـ ١٩).

يؤكد النقاد، أن ابراهيم الذي طلب من الرب يهوه الرأفة لسكان سدوم وعمورة، لم يتوسل إليه أن يرحم وحيده الصغير. ولذلك يتهمون البطريرك بالكذب عندما قال لخادميه: "امكثا أنتما هنا مع الحمار، وأنا والغلام نمضي إلى هناك فنسجد ونرجع إليكما" وبما أنه كان يعلم، أنه ذاهب إلى الجبل ليذبح اسحق ويقدمه قرباناً، فقد كذب عندما وعدهما بعودته مع الغلام. ولكنها كانت كذبة بربرّي وحسب، أمّا الكذبتان السابقتان، فكانتا كذبتّي قواد بخيل يبيع جسد زوجته.

ومن جهة أخرى، لا يمكننا إلاّ أن ننظر بدهشة إلى هذا العجوز، الذي يحمل الفأس ويقطع حطباً يكفي لحرق ذبيحة بشرية. ثم يضع الحطب فوق حمار وخادمين سارا به أكثر من يومين وليلتين. ولكن لو فرضنا جدلاً أن الحطب كان حمل حمار فقط، فكيف استطاع طفل في الثالثة عشرة من عمره أن يحمله ويصعد به إلى الجبل؟ ويتحدث النص التوراتي أيضاً، عن "نار" حملها ابراهيم معه إلى مكان المحرقة ليشعل الحطب بها، والذي لا شك فيه، أن مجمرة عادية لا تسع من الفحم ما يكفي لاضرام مثل تلك النار الكبيرة، عداك عن هذا، هل ستتسع مثل تلك المجمرة كمية من الفحم تبقي مشتعلة فيها طيلة أكثر من ثمان وأربعين ساعة؟ ويشار أيضاً إلى الجبل الشهير، جبل مورية، الذي بني معبد أورشليم فوقه فيما بعد، بيد أن الجبل المذكور ليس سوى صخرة جرداء ليس عليها أي شكل من أشكال الحياة؛ ولم ينبت فوقها أي شجر في أي زمان، فقد كانت منطقة أورشليم مرصوفة كلها بالحجارة، وكانوا يأتونها بالأخشاب من أماكن أخرى.

ولكن هذه العقبات كلها لم تمنع يهوه أن يمتحن عبده المطيع ابراهيم الذي تلقى بركة خاصة منه لقاء هذه الطاعة، وسنرى لاحقاً أن القاضي يفتاح سيقدّم ابنته[1] الوحيدة، قرباناً لهذا الرّب نفسه، ومع ذلك لم يتدخل أي ملاك لانقاذ التاعسة. مسكين يفتاح! إنه لم يعمل قوّاداً لزوجته، ولذلك لم يستطع أن يرق إلى درجة "القداسة" التي أحيط بها ابراهيم "صديق يهوه".

يقول الاصحاح الثالث والعشرون: أن ساره توفيت في حبرون، وعمرها ١٢٧ عاماً. ولكي يدفنها، اشترى ابراهيم مغارة المكفيلة من سيّد محلي يدعى عفرون. قال عفرون: "أرضي تساوي أربع مائة مثقال من الفضة،

وهذا ليس بشيء بالنسبة لي أو إليك؛ فادفن ميتتك فيها. فلما سمع ابراهيم ذلك منه، وزن له الفضة التي ذكرها على مسامع بني حثّ، أربع مائة مثقال فضة، مما هو رائج بين التجار " (تكوين ٢٣ ، ١٥ - ١٦).

يثير دهشتنا في هذا النص، أن ابراهيم، هذا الرجل الثري الكبير، لم يكن يملك من الأرض ما يستطيع أن يدفن فيه زوجته. كما لفت انتباه الناقدين، هذا الحديث الغريب عن " الفضة الرائجة بين التجار"، أي أنها عملة سُكّت خاصة للتعامل التجاري. ولكن الثابت تاريخياً، أن أرض كنعان لم تعرف سَكّ النقود في زمن ابراهيم.

ومن الاصحاح الخامس والعشرين نعرف، أن هذا العجوز الهرم قرر أن يستقرّ مطمئناً، فتزوج امرأة جديدة تدعى قطورة، وكان عمره حينذاك ١٤٠ عاماً في أقل تقدير. وكانت ساره قد دعته بالشيخ العجوز منذ أكثر من أربعين عاماً، ولولا أن تدخلت السماء وقتئذٍ لما أصبح أباً، ولكنه تزوج ثانية على أي حال، وأنجبت له قطورة ستة أبناء دون أيّ "ظاهرات" عجيبة. وأولاده منها هم: زمران، يقشان، ميدان، يشباق، وشوح.

وأخيراً توفى العجوز عن ١٧٥ عاماً، وأوصى بتركته كلها إلى اسحق، أما أولاده الآخرون، فلم يحصلوا إلاّ على بعض الهدايا. فدفنوا القوّاد "المقدس" إلى جانب سارة في مغارة المكفيلة.

الفصل العاشر

الأب المقدس اسحق، وولداه.

سنتابع في هذا الفصل مصير الوعود الالهية المتعلقة "بالتكاثر الاعظم" لذرية ابراهيم، فبعد وفاة سارة، وقبل زواجه من قطورة، اهتم البطريرك بترتيب شؤون ولده المحبوب. وكان هذا العمل فائق الأهمية بالنسبة للتربية الدينية الأخلاقية (انظر تكوين ٢٤).

لقد عرفنا ان ناحور، أخ ابراهيم، تزوّج ابنة أخيه ملكة. ولكن هذا السيّد لم يكن من عشاق الصحارى أو هواتها، كما كانت حال ابراهيم، فاستقرّ في وادي الرافدين. وهناك أنجبت له ملكة ثمانية أبناء. لكنه لم يكتف بهذا العدد، فاتخذ لنفسه خليلة اسمها رؤومة، أنجبت له هي الأخرى أربعة أبناء (تكوين ،٢٢ ٢٠ ـ ٢٤) ثم تزوّج هؤلاء وأنجبوا ذرية. فأنجب بتوئيل لابان ورفقة. وقد اصطفى يهوه هذه الأخيرة لتصبح مدام اسحق.

وفي أحد الصباحات دعى ابراهيم كبير خدمه ومدبّر شؤون بيته، اليعازر الدمشقي، الذي لم تذكر التورات اسمه سوى مرّة واحدة، إذ دعته بعدئذٍ "عبداً. ولما مثل اليعازر بين يدي ابراهيم قال هذا الأخير: "ضع يدك تحت

فخذي فاستحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض، أن لا تأخذ زوجة لأبني من بنات الكنعانيين الذين أنا مقيم فيما بينهم، بل اذهب إلى أرضي وإلى عشيرتي وتأخذ زوجة لابني اسحق" (٢٤ ، ٢ ـ ٤).

ولقد أصبح طقس القَسَم هذا موضوعاً للتسلية عند الشارحين من أتباع مذهب الشك، والسبب في ذلك هو، أن النص اليهودي القديم يقول دون مواربة: "خذ عضوي وخصيتي بيدك". ويفسّر الاتنوغرافيون هذا، بأن الأعضاء التناسلية الذكرية كانت تحظى باحترام كبير، ليس تبعاً لطقس الختان الذي يربطها بيهوه وحسب، بل لأنها، كمصدر لتكاثر الجنس البشري، وضمانة لبركة يهوه، عُدَّت رمزاً للقوة و الجبروت. لكن مهما بدا طقس القسم هدا غريباً، علينا أن ننحني له احتراماً، لأننا يجب ألاّ نرتاب لحظة واحدة في، أن "الروح القدس" هو صاحبه.

إذاً، عندما نصادف كلمة "فخذ" في الترجمات الحديثة للتورات، علينا أن نفهمها مجازاً. فإذا قرأنا على سبيل المثال، أن أحد الزعماء خرج من "فخذ" يهوذا فإننا نقرر بهذا تحريفاً مقصوداً للنص، لأن كلاً منا يعرف أن الأطفال لا يولدون من "الأفخاذ"، زد إلى هذا، أن "الحمامة الالهية" لم تخجل يوماً أن تدعو الأشياء بأسمائها الحقيقية، مهما كانت هذه الأسماء كبيرة.

وهكذا "وضع العبد يده تحت فخذ مولاه ابراهيم (أو الأصح، "أخذ العبد عضو ابراهيم وخصيتيه بيده")، وحلف له على ذلك" (تكوين ٢٤ ، ٩). ثم قام فأخذ عشرة جمال ومضى إلى بلاد الرافدين. أليست قريبة!

ولمّا اقترب اليعازر من المدينة التي أمل أن يجد اقارب ابراهيم فيها، كان التعب والعطش قد أخذ منه كل مأخذ. ولكن لحسن الحظ أنه قابل هنا فتاة

سوداء الشعر فاتنة الحسن، متوجهة إلى البئر التي تقع خارج بوابات المدينة. وهذه الحسناء الفاتنة هي التي ساعدت اليعازر، فسقته وسقت جماله، وهنا يأتي دورنا لتعجب للمهارة الالهية، فتلك الحسناء لم تكن سوى رفقة ابنة بتوئيل، حفيدة ابراهيم. وبعد أن قدّم اليعازر الهدايا، سألها: مع من "له شرف" الحديث؟ وكان موقفاً! قادت رفقة الضيف إلى بيت أبيها وقدمته إلى العائلة. وقصّ عليهم اليعازر أخبار رحلته الطويلة بحثاًعن عروس لاسحق في هذه البلاد. وغني عن القول حتماً، أن صرخة تعجب ندت عن بتوئيل ولابان": يد يهوه واضحة هنا! فلترحل رفقة معك لتصبح زوجة لسيّدك.

هذا النجاح السهل السريع سرّ اليعازر كثيراً، فقام وزيّن رفقة بخواتم الذهب، والملابس الفاخرة، وقَدّم بعض الهدايا لأفراد العائلة الآخرين. ولمَا عبّرت والدة رفقة عن رغبتها إرجاء رحيل ابنتها عشرة ايام، أعلنت هذه الأخيرة أنها في عجلة من أمرها كي تتعرّف إلى زوجها المقبل. وعلى الرغم من أنه يصعب علينا أن نفترض بأن اليعازر كان يحمل صورة اسحق الشاب، إلاّ أن رفقة سرعان ما وقعت في حبه روحياً، كما أصبح اسحق من جهته، مغرماً بها أيما غرام، مع أنه لم يكن قد رآها قط، بل ولم يكن على يقين من أن الدمشقي سيعود إليه بتلك العروس. ألم يقض أيامه ولياليه على الطريق الكبيرة منتظراً عودة القافلة؟ إننا نستطيع أن نتخيل فرحته لما رأى أليعازر عائداً ذات صباح، ولم يكن خالي الوفاض. وبينما كان الدمشقي يقدم كشفاً كاملاً عن رحلته، كان الشاب والفتاة منغمسين في ملذات الغرام. "وادخلها اسحق خباء سارة أمه، وأخذها فصارت له زوجة، وأحبها وتعزى بها عن أمه" (تكوين ٢٤ ، ٦٧).

ولكن جهود اسحق ضاعت سدى في سنوات الزواج الأولى، ولم يستطع أن يصبح أباً بالسرعة التي أراد. وكان هذا كافياً كي يتهم سفر التكوين رفقة بالعقم. فالنساء في التورات هنّ المذنبات دائماً! "ثم دعا اسحق إلى الرب من أجل امرأته، لأنها كانت عاقراً؛ فاستجابه الرب وحملت رفقة امرأته" (تكوين ٢٥ ، ٢١). ويبدو لي أن يهوه أوجع رأسه عبثاً هنا، لأنه كان قد قطع وعداً لابراهيم أن يهبه ذرية لا عد لها؟ ثم إن الوحي بنفسه اختار رفقة زوجة لابن ابراهيم، أي أنه لم يكن باستطاعة يهوه أن يهب اسحق زوجة عاقراً، إلا إذا حنث بوعده. فمن الواضح إذاً، أنه عندما "اغلق رحم" هذه المسكينة، إنما فعل ذلك كي يستمتع بفتحة ثانية، بعد أن يعذبها بعض الشيء، ويقلق اطمئنان وريث حبيبه ابراهيم الفونس.

ومع ذلك فإن الأمر لم يتم دون تعقيدات: "وتقاتل الولدان في جوفها ، فقالت: "إن كان الأمر هكذا، فما لي والحمل؟ ومضت تسأل الرب" (٢٥ ، ٢٢).

بيد أن المؤلف المقدس نسي أن يقول لنا، إلى أين مضت رفقة بالضبط تتحدث إلى يهوه؟ فلم يكونوا قد اخترعوا الهيكل بعد، وكان يهوه يظهر حيث يطيب له، ومتى طاب له. ولكن، على أي حال، فقد استطاعت رفقة أن تسأله، وهو لم يضن عليها بالاجابة: "...إن في جوفك امتين، ومن احشائك يتفرع شعبان، شعب يقوى على شعب، وكبير يستعبده صغير" (٢٥ ، ٢٣).

وها هو المخاض أخيراً، فقد كان على رفقة أن تعاني آلام الولادة عقاباً لها على شراهة حواء آكلة التفاحة. "... إذاً في بطنها توأمان، فخرج الأول أحمر، كله فروة شعر، ودعو اسمه عيسو، وبعد ذلك خرج أخوه ويده

قابضة بعقب عيسو، فدعي يعقوب؛ وكان اسحق ابن ستين سنة لما ولدتهما" (٢٥ ، ٢٤ - ٢٦).

غني عن القول، إنه نادراً ما يولد طفل وهو ممسك بعقب طفل آخر. وتتمثل ندرة مثل هذا الأمر في، أنه لم يحدث ما يشبه ذلك حتى الآن، ولم نسمع أنه حدث قبل ذلك. ولكن، ما العمل! وإذا كانت مثل هذه الأشياء لم تحدث في أي زمان ومكان آخرين، فهذا لا يعني أنها لم تحدث عندئذ، وعجيبة يهوه هذه، لا تقارن بالعجائب التي سنلقاها بعد قليل.

وهكذا اعلن عيسو الولد الأكبر لاسحق. ولكن من المعروف أن بعض المسائل الحقوقية المعقدة كانت تحسم مسألة البكورة لصالح المولود الذي رأى النور ثانياً. وحجتهم لاتخاذ مثل هذا القرار هي، أن من حبل به أولاً، يشغل مكاناً قصياً داخل الرحم، وعليه، ينبغي اعتبار يعقوب الابن البكر لاسحق. غير أن الجنينين كانا في قتال دائم داخل رحم رفقة، أي كانا يبدلان موقعيهما دائماً! والعجيب في الأمر، أنه لم يخطر لاحد أن يقرر حق البكورة بالقرعة، بل أقروا الطريقة الأكثر سهولة.

وهي، اعطاء حق البكورة لمن يخرج إلى النور أولاً، بيد أن يعقوب ضرب عرض الحائط بهذا كل، وانتزع حق البكورة من أخيه عيسو بالخداع والحيلة.

"فبكر الغلامان، وكان عيسو انساناً يعرف الصيد، انسان البرية، ويعقوب انساناً كاملاً يسكن الخيام، فأحب اسحق عيسو لأن صيده أعجبه؛ وأما رفقة فكانت تحب يعقوب. وطبخ يعقوب طبيخاً؛ فأتى عيسو من الحقل تعباً، فقال عيسو ليعقوب: أطعمني من هذا الأحمر لأنني تعب. لذلك دعي أسمه آدوم.

فقال يعقوب: بعني اليوم بكوريتك. فقال عيسو: ها أنا ماض إلى الموت، فما لي ولهذه البكورية؟ فقال يعقوب: احلف لي اليوم. فحلف له، وباعه بكوريته. واعطى يعقوب عيسو خبزاً وطبيخ عدس. فأكل وشرب، وقام ومضى. واحتقر عيسو البكورية" (٢٥ ، ٢٧ ـ ٣٤)...

إننا لن نتوقف عند غرابة مثل هذا النزاع في زمن لم يكن قد ظهر فيه حق البكورية بعد، فلم يأمر يهوه إلاّ بعد زمن طويل، بأن يأخذ الابن البكر نصيباً مضاعفاً من تركة أبيه، ولكننا لن نستطيع تجاوز ما يتصف به سلوك يعقوب هذا من خسة ونذالة. فحسب النص "المقدس"، إن عيسو كان يموت جوعاً، وأن يعقوب استغل حال أخيه تلك، أسوأ استغلال. فهل من مبرر لسلوك يعقوب؟ إنه لم يكتف بأن باع عدسه بثمن باهظ جداً، بل ابتز أخاه كما يبتز قاطع الطريق الفدية من ضحيته؛ فقد أرغمه على قسم يمين التنازل عن حقوقه. ولم تكن هذه المرة الأخيرة التي يظلم فيها يعقوب عيسو.

ولكن ما هو موقف يهوه إزاء هذه الصفقة الرخيصة التي خدع عيسو فيها بكل وقاحة؟ هذه الصفقة الهزيلة، هذا التنازل، الذي يلغيه أيّ قاض كان لأنه ناتج عن الابتزاز، أقره يهوه نفسه، يهوه العادل، حامي الضعيف، المنتقم من كل ظالم. هذا الاله بجلاً له كله اعترف ليعقوب بحق البكورية وأقر افلاس عيسو.

بعد زمن، أظهر اسحق أنه يستحق شرف كونه أبناً لابراهيم وحافظاً "لتقاليد البر" التي اتسم بها سلوك "البار" الذي اختاره يهوه. فقد انتشر الجوع في البلاد، وهاجر اسحق إلى جرار، حيث كان يحكم فيها ـ وهذا من غرائب الأمور ـ إبيمالك نفسه، وقد قررت التورات الآن أنه ملك

فلسطيني. ونحن لا يساورنا شك في أنه كان بمقدور يهوه أن يهب اسحق وعائلته ما يكفي من الخبز دون عناء، لكنه آثر أن يعطيه بدل الخبز رؤيا قدم له في أثنائها وجبة دسمة من النصائح التي كان قد اتخم والده ابراهيم بها، قال يهوه: "أكثر نسلك كنجوم السماء، واعطي ذريتك جميع هذه البلاد، وتتبارك في نسلك جميع أمم الأرض". إنها إذاً الأغنية القديمة نفسها! "فأقام اسحق في جرار". وعندما سأله الناس فيها عن رفقة قال: "أنها أختي".

"ولمّا طالت اقامة اسحق في جرار، حدث ذات يوم أن أبيمالك ملك الفلسطينين أشرف من الكوة فرأى اسحق يداعب رفقة امرأته. فدعا اسحق إليه وقال: إنها امرأتك، فكيف قلت أنها أختي؟ فقال له اسحق: لأني قلت لعلي أموت بسببها؛ فقال أبيمالك: ما هذا الذي صنعت بنا؟ لولا قليل لضاجعها أحد أفراد الشعب فجلبت علينا ذنباً، وأوصى أبيمالك جميع الشعب قائلاً: الذي يمس هذا الرجل وامرأته موتاً يموت" (٢٦ ، ٨ - ١١)؟

مسكين أبيمالك! يبدو أنه لم ينس عجيبة "اغلاق" الارحام على الرغم من مضي ثمانين عاماً على مغامرة سارة. وما يثير التساؤل هو، أن التورات تؤكد أن الفلسطينيين يعبدون آلهتهم وليس إله ابراهيم واسحق. ومع ذلك تؤكد ان الملك الوثني يعترف بالاله اليهودي وبالوهية وصاياه. إنه لتضليل ما بعده تضليل..

"وزرع اسحق في تلك الأرض فأصاب في تلك السنة مائة ضعف: هكذا باركه الرب" (٢٦ ، ١٢). والدلالة واضحة ومعبرة: اسحق يزرع في بلاد لا يملك فيها شبراً واحداً من الأرض. وإذا تذكرنا أن أرض جرار لم تكن سوى صحراء خاوية ليس فيها سوى الرمال والحجارة، فإن "العجيبة" ستبدو أعظم: موسم بمائة ضعف، وفي الرمال! تقول التورات: إن اسحق

أثرى بسرعة. وهذه مسألة سهلة إذا كانت مثل تلك المواسم موجودة!.

ولكن الفلسطينيين الذين حسدوا "الأب المقدس"، ملؤوا الآبار التي حفرها ابراهيم في زمنه، حجارة، الأمر الذي وضع بداية لنشوء النزاعات، فطلب ايمالك من اسحق أن يترك الأرض ويرحل. فامتثل اسحق للأمر ومضى إلى الوادي وأقام فيه، ثم أعاد فتح آبار والده، فنشأت النزاعات ثانية، وظهر يهوه من جديد. فدبت الشجاعة في قلب اسحق؛ ووقع اتفاقاً جديداً مع أيمالك؛ وأقيمت وليمة عظيمة احتفالاً بالسلام.

ويرى قارئي الكريم أنني أعفيه هنا من التفصيلات المملة، مع أنها "مقدسة". أمّا عيسو، فقد "اتخذ يهودیت ابنة بيري الحثي، وبسمة ابنة إيلون الحثي، زوجتين له، فكانتا مرارة نفس لاسحق ورفقة". (٢٦ ، ٣٤ - ٣٥)..

الفصل الحادي عشر

الأب المقدس يعقوب، وأخوه الضال عيسو.

"لمّا شاخ اسحق وخبا بصره، دعا إليه ابنه البكر عيسو، وقال له: يا بني! فأجابه عيسو: لبيك يا أبي. قال: إنني قد شخت ولست أعرف يوم وفاتي، فخذ عدتك وجعبتك وقوسك واخرج إلى البرية، وصد لي صيداً؛ ثم اصنع لي طعاماً من الذي أحبه وأتني به حتى تباركك نفسي قبل أن أموت.

وكانت رفقة تستمع إلى حديث اسحق مع ابنه عيسو. بعد أن ذهب عيسو إلى البرية ليصطاد صيداً يأتي به، قالت رفقة ليعقوب ابنها: سمعت أباك يقول لاخيك عيسو: حديث أئتني بصيد واصنع لي طعاماً لآكل وأباركك أمام الرب قبل وفاتي، فالآن قم يا بني واسمع لقولي: اذهب إلى الغنم وجئني بجديين من المعزى لأعد لك منهما طعاماً لأبيك، ثم تحمله إليه ليأكل ثم يباركك قبل وفاته. فقال يعقوب لامه: ولكن عيسو رجل أشعر وأنا رجل أملس، وإذا جسني أصبح في عينيه كمتهاون وأجلب اللعنة على

نفسي لا البركة. فقالت له رفقة: لعنتك عليّ يا ابني. أسمع لقولي فقط واذهب لتحضر الجديْين. فذهب يعقوب وأتى بالجديين فأعدت منهما طعاماً يحبه اسحق؛ ثم أخذت ثياب عيسو ابنها البكر التي كانت عندها في البيت والبستها لابنها يعقوب الاصغر. والبست يديه وملاسة عنقه جلود جدي المعزى، وأعطت الطعام الذي أعدت والخبز إلى يعقوب ابنها، فدخل إلى أبيه وقال: يا أبي! فقال: ها أنذا! من أنت يا ابني؟ فقال يعقوب لابيه: أنا عيسو بكرك. فقد فعلت كما طلبت مني، قم اجلس وكل صيدي لكي تباركني نفسك. فقال اسحق لابنه: لقد عدت بسرعة يا ابني، فقال: الرب الهك يسر لي. فقال اسحق ليعقوب: تقدم لاجسك يا ابني؛ أأنت هو ابني عيسو أم لا؟ فتقدم يعقوب إلى أبيه فجسه وقال: الصوت ليعقوب، ولكن اليدين يدا عيسو. ولم يعرفه، لأن يديه كانتا مشعرتين كيدي عيسو أخيه، فباركه وقال: هل أنت هو ابني عيسو؟ فقال: أنا هو،فقال: قدم لي لآكل من صيدك حتى تباركك نفسي. فقدم له فأكل، وأحضر له خمراً فشرب، وقال اسحق: تقدم وقبلني يا ابني؛ فتقدم وقبله، فشم رائحة ثيابه وباركه. وقال: أرى رائحة ابني كرائحة حقل باركه الرب. فليعطك الله من ندى السماء ودسم الأرض، وكثرة حنطة وخمر؛ ليستعبد لك شعوب وتسجد قبائل، كن سيداً لاخوتك، وليسجد لك بنو أمك، ليكن لاعنوك ملعونين ومباركوك مباركين". (تكوين ٢٧ ، ١ - ٢٩)..

لا ريب أن هذا النص يستحق عدداً من الملاحظات؛ ولكننا نرجئ ذلك لنرى نهاية هذه القصة التعلمية اليهودية النموذجية.

"وحدث لمّا فرغ اسحق من بركة يعقوب، ويعقوب خرج من لدن اسحق أبيه، أن عيسو عاد من صيده. فأعد هو أيضاً طعاماً ودخل إلى أبيه

وقال: ليقم أبي ويأكل من صيد ابنه حتى تباركني نفسك. فقال اسحق: من أنت؟ فقال: أنا أبنك بكرك عيسو. فارتعد اسحق ارتعاداً عظيماً جداً وقال: فمن هو الذي اصطاد صيداً وأتى به إلي فأكلت قبل أن تجيئ وباركته؟ نعم، ويكون مباركاً. فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة ومرة جداً، وقال لأبيه: باركني أنا أيضاً يا أبي؛ فقال: قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك. فقال عيسو: إلا أن اسمه دعي يعقوب، فقد تعقبني مرتين: أخذ بكورتي، وها هو الآن يأخذ بركتي، ثم قال: أما أبقيت لي بركة؟ فأجاب اسحق: إني قد جعلته سيداً لك، ودفعت إليه جميع اخوته عبيداً، وعضدته بحنطة وخمر، فماذا أصنع إليك يا ابني؟ فقال عيسو لابيه: ألك بركة واحدة يا أبي؟ باركني أنا أيضاً. ورفع عيسو صوته وبكى. فأجاب اسحق أبوه وقال له: هوذا من دسم الأرض يكون مسكنك، ومن ندى السماء من فوق، وبسيفك تعيش، ولأخيك تستعبد، ولكن يكون لك حينما تجمح أنك تكسر نيره عن عنقك" (٢٧ ، ٣٠ ـ ٤٠). ثم لم يحصل شيء! سرق يعقوب البركة من عيسو، كما يفعل أي لص عادي.

إلى بابا روما وبطاركة المسيحية كلهم: إما أن تكون قصة اسحق ورفقة وعيسو ويعقوب، مجرد هراء سخيف، و"الروح القدس" ملهم التورات، مجرد كذاب يخدع المؤمنين بأمثلة من مثل هذا التخريف الأحمق، مؤكداً بذلك، أنه يمكن أن يروى للمؤمنين السذج كل ما يخطر على بال؛ أو أن هذه القصة صحيحة كلها، وعندئذ يمثل يهوه أمامنا كأي مغفل عادي، لأن أحداً لم يرغمه على ربط بركته ببركة أبله مثل اسحق، الذي خدعه يعقوب دون عناء يذكر. وعلى أي حال فإن الأمر سيان بالنسبة للفكر الحر، لأن بمقدور حامليه أن يسخروا قدر ما يشاؤون، من رجال اللاهوت، والاساقفة، والبابا، والبطاركة، والقديسين، والأنبياء، بل ومن يهوه العجوز الخرف نفسه.

فالواضح من النص "المقدس" أن بركة اسحق لم تكن مجرد مباركة ابوية عادية، أي تمني السعادة والرخاء اللذين يرجوهما الآباء عادة لابنائهم، بل كانت فعلاً رسمياً احتفالياً تترتب عنه نتائج دقيقة محددة، مثله في هذا مثل أي فعل قانوني ديني له قوة وثائقية. ومع أن المباركة كانت شفهية فقط، فقد كانت لها قوة الوثيقة المدونة لصالح الشخص المسمى فيها، بصرف النظر عمن يكونه هذا الشخص؛ لأن المباركة الدينية كانت تتمتع بقوة لايجوز الغاؤها أو التراجع عنها. وهنا يكمن سبب حزن اسحق العميق عندما علم أنه راح ضحية خداع يعقوب. لقد ترك سلوك يعقوب الدنيء، في نفسه جرحاً عميقاً، بيد أن اصلاح ما فسد لم يكن بيده. لأن يعقوب سرق بركة عيسو ورحل بها. ونحن هنا أمام فعل جنائي، فأي محكمة تدين يعقوب بجرم التزوير والكذب، كما تدين والدته رفقة كشريكة ومحرضة على ارتكاب الجرم مع سبق الاصرار والتصميم.

ولكن كيف حدث ووقع اسحق في الفخ بمثل تلك السهولة؟ تقول التورات إن العجوز عرف صوت يعقوب، وهو متردد يملأ الشك قلبه، ولذلك خطا خطواته بحذر شديد، ومع ذلك خُدع كأيّ أحمق ساذج. فقد كان بانتظار صيد عيسو لأنه كان يحب الطرائد، وهذا واحد من الأسباب التي جعلته يحب عيسو الصياد أكثر؛ ولكن هاهم يقدمون إليه لحم تيس معزى، إلاّ أن لسانه الحسّاس لتذّوق لحم الطريدة لم يستطع في هذه المرّة أن يفرّق طعمه من طعم لحم حيوان منزلي. لله درّك يا رفقة، أيّ طباخة ماهرة كنت! ويبدو أن العجوز التاعس لم يكن قد فقد حاسة الذوّق فقط، بل وتصدعت عنده حاستا الشم واللمس أيضاً، فقد غطت رفقه عنق يعقوب ويديه بجلد الماعز، ولكن مهما كان شعر عيسو كثيفاً، أيعقل أنه كان شعر الماعز؟ ولم يخطر لاسحق أن يلمس باقي جسم يعقوب، بل

اكتفى برائحة ملابس عيسو، ولا شيء آخر. ولكن، ألم يكن عليه أن يميّز رائحة جلد الحيوان المذبوح منذ برهة؟ هذا عن اسحق المتداعي.

ولكن كيف استطاع يهوه نفسه، أن يربط مباركاته الراسخة القاطعة، بمباركات اسحق العرضية الخاطئة التي سرقت منه بخدعه يستطيع اكتشافها آخر البلهاء ؟ أليس يهوه هنا مجرّد عبد للشكلانية الخاوية التي ليس لها أيّ أهمية؟ وهذا ما يجعل "الحاكم الكلّي الجبروت" صديقاً مناسباً جداً للعجوز الأحمق المتداعي اسحق.

ويجدر بنا أن نذكّر هنا بأن، هذه الملاحظات لها كامل قوتها إذا اعترفنا بأن حدوث مثل هذا المشهد أمر ممكن، غير أن القصة كلها محض اختلاق صرف، ولذلك ينبغي على الكنيسة ألاّ تقدّم لنا "حمامتها" كمؤلف جدّي محترم يجب الخضوع لآرائه.

أما عيسو المظلوم المستاء لفقدانه البركة الجديدة التي وعده والده بها، ثم سكبها فوق رأس يعقوب النذل، فقدأقسم أن يقتل ذاك الطاووس المتأنق. فدبّ الذعر في قلب رفقة التي اشارت على يعقوب بالرحيل إلى أخيها لابان، بينما اشار عليه العجوز اسحق أن يستغل المناسبة ويتزوج احدى بنات خاله.

وفي الوقت الذي توجه فيه يعقوب إلى بلاد الرافدين، رحل عيسو إلى "بلاد اسماعيل" وتزوّج ابنته محلة، لأنه رأى أن زوجتين لا تكفيانه.

هاهو يعقوب في طريقه إلى حاران، ونحن لن نتركه وحيداً في تلك الطريق الصحراوية الطويلة الموحشة.

"وصادف مكاناً وبات هناك، لأن الشمس كانت قد غابت. وأخذ من

حجارة المكان ووضع تحت رأسه، واستلقى في ذلك المكان، ورأى في حلمه سلّماً منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء، والملائكة صاعدة نازلة عليها. وها هو الرب واقف عليها فقال له: انا الرب إله ابراهيم وإله اسحق؛ (لاتخف). الارض التي انت مضجع عليها أعطيها لك ولنسلك، ويكون نسلك كتراب الأرض، وتمتد غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً. ويتبارك فيك وفي نسلك جميع قبائل الأرض. وها أنا معك أحفظك حيثما تذهب وأردّك إلى هذه الأرض، لأني لا أتركك حتى أفعل ما كلمتك به.

فاستيقظ يعقوب من نومه وقال: حقاً إن الرب في هذا المكان، وأنا لم أعلم! وخاف وقال: ما أرهب هذا المكان! ما هذا إلاّ بيت الله، وهذا باب السماء.

وبكّر يعقوب في الصباح وأخذ الحجر الذي وضعه تحت رأسه واقامه عموداً وصبّ زيتاً على رأسه؛ ودعى اسم المكان بيت ايل. وكان اسم المدينة قبل ذلك، لوز. ونذر يعقوب نذراً قائلاً: إن كان الله معي وحفظني من هذا الطريق الذي أنا سائر فيه، وأعطاني خبزاً لآكل وثياباً لألبس، ورجعت بسلام إلى بيت أبي، يكون الرب لي إلهاً، وهذا الحجر الذي اقمته عموداً، يكون بيت الله، وكل ما تعطيني فإني أعشّره لك" (تكوين ٢٨ ، ١١ - ٢٢).

لن نناقش هنا مسألة وجود مدينة اسمها لوز، وأخرى بيت ايل؛ نذكر فقط أن أيّ جغرافي لم يأت على ذكر هذه المدينة في اي زمان ومكان. ولكن ما الذي يدهشنا؟ فهذا ليس إلاّ فراسة عمليّة كان يتصف بها يعقوبنا؛ فقد خدع أخاه عيسو، وأباه اسحق، بل وخدع يهوه نفسه، غير أنه لم يرد أن يتجاوزه هذا الأخير، ولذلك وضع له شروطاً محددة وواضحة، تقوم

عليها علاقاتهما في المستقبل. فمنذ برهة فقط، أراه إلهُ أجداده رؤية مدهشة: ملائكة تؤدي تمارين بهلوانية فوق السلّم، ثم وعده بجبال من الذهب وبمفاتيح السماء، وأول احساس انتاب يعقوب هو، الخوف الممزوج بالاحترام والرهبة، ولكنه سرعان ماامسك بزمام نفسه، ووعى أن ذلك مجرد حلم ليس أكثر. وعندئذٍ قال لإله أجداده: إذا قدمت لي الأكل والكساء، فأنك إلهي الذي اسجد له. بمعنى آخر، "إذا لم تعطني شيئاً، فأنك ستتلقى خازوقاً يا أخ!". ووعد يعقوب يهوه بعشر ما يرزقه، فإذا وهبه ثوراً مثلاً، فسيقدم قرنيه قرباناً له.

ولقد قارن بعض النقاد نزوة يعقوب هذه، بعادات بعض الشعوب القديمة التي كانت ترمي آلهتها في النهر انتقاماً منها لأنها لم تعط المطر في حينه، أو لم تمدّ يد العون في الصيد، وأنا نفسي عرفت عجوزاً عاقبت "القديس" يوسف لأنها لم تربح في اليانصيب. فقد أدارت هذه المسيحية التقية الطيبة وجه صورته إلى الجدار، ومع أنها كانت تقية وطيبة، إلاّ أنها كانت ماكرة لدرجة جعلتني أظن أنها خرجت من بذرة يعقوب مباشرة.

بعد انتهت هذه المغامرة المثيرة، تابع يعقوب طريقه، ولما وصل يوماً إلى بئر في حقل، حيث كان القطيع يرد الماء، تعرّف هناك إلى راعية مليحة الوجه. وكانت تلك الفتاة هي، راحيل بعينها. ونحن لا نصادف آبار الماء في التورات إلاّ عندما تشحّ مخيلة مؤلفيها ولا يجدون مكاناً آخر لمثل هذه اللقاءات: ألم يلتق الدمشقي رفقة عند بئر الماء أيضاً؟ وهو، مثله مثل يعقوب، لم يكن يعرفها من قبل، لكنه كان يبحث عنها، كما كان يعقوب يبحث عن خاله لابان.

كانت راحيل بنت لابان الصغرى، وقد قادت يعقوب إلى أبيها، حيث

تعرّف إلى العائلة الكريمة كلها. وتقول التورات في معرض وصفها للحظة، إن عينيّ ليئة، ابنة لابان الكبرى، كانتا ضعيفتين، فلم يرقص قلب يعقوب لها. بعكس راحيل الجميلة الوجه، التي سرعان ما دخلت قلبه وأحبها، "حسنة الصورة، وحسنة المنظر" وذات يوم جلس يعقوب يتبادل الرأي مع خاله، فرمى هذا الأخير بعض العبارات التي بعثت الأمل في نفس الأول. ولمّا لم يكن لابان أقلّ عمليّةً من يعقوب، فقد قال له مباشرة:

ـ يا فتاي الطيّب! تريد أن تتزوّج راحيل؟ حسن، لا مانع عندي، ولكن عليك أن تستحقها أولاً.

ـ وكيف يا خال؟

ـ اخدمني في بيتي سبع سنوات لأرى إن كنت تحسن العمل أم لا، وهل أنت فتى مستقيم أم لا؟

وهكذا تمت الصفقة. وطال امتحان الخال لابن اخته سبع سنوات بالتمام؛ كان يعقوب يقوم أثناءها بأكثر الأعمال المنزلية ارهاقاً. ومع ذلك فهي سبع سنوات فقط. وها هي انتهت وجاء يوم الزفاف. كانت العادة اليهودية تقضي بأن يغطي وجه العروس بازار قاتم كثيف؟. وكان يعقوب يرقص قلقاً كالسمكة. أما لابان، الرجل المهم، فقد أدى في هذه المسألة، دور موظف سجّل العقود المتصلة بالزواج، ودور الراقين الديني أيضاً، فأعلن أن عقد القران قد تم، فغمر يعقوب فيض من السعادة، وكان الاحتفال فخماً جداً. وهاكم النصّ التوراتي الأصلي، الذي لقنه "الروح القدس" للمؤلف، واصفاً المشهد:

"جمع لابان جميع أهل المكان وصنع وليمة. وكان في المساء أخذ ليئة

ابنته وأتى بها، فدخل عليها. وأعطى لابان زلفة جاريته لليئة ابنته جارية. وفي الصباح، إذ هي ليئة. فقال يعقوب للابان: ما هذا الذي صنعت بي؟ أليس براحيل خدمت عندك؟ فلماذا خدعتني؟ فقال لابان: لا يفعل هكذا في مكاننا، أن تعطي الصغيرة قبل البكر، أكمل أسبوع هذه فنعطيك تلك بالخدمة التي تخدمني أيضاً سبع سنين أخر، ففعل يعقوب هكذا، أكمل اسبوع هذه، فأعطاه راحيل ابنته زوجة له؛ وأعطى لابان راحيل ابنته جاريته جارية لها. فدخل على راحيل أيضاً، وأحب راحيل أكثر من ليئة. وعاد فخدم عنده سبع سنين أخر" (تكوين ٢٩ ، ٢٢ - ٣٠).

وهكذا خدع لابان ابن اخته يعقوب، الذي كان قد خدع اباه وأخاه قبل ذلك، والحقيقة أننا لا نستطيع أن نفهم، كيف لم يستطع يعقوب أن يكشف الخدعة مع أنه كان قد أمضى سبع سنوات في بيت خاله، ويجب أن يكون قد عرف ليئة وراحيل معرفة جيدة، فكيف إذاً قضى معها: فوقها أو تحتها ليلة كاملة دون أن يعرفها؟ ولكن ما لنا ولهذا الشك، أنه "الروح القدس" على أيّ حال!.

"ورأى الرب أن ليئة مكروهة، ففتح رحمها، وأما راحيل فكانت عاقراً" (تكوين ٢٩ ، ٣١).

حسن! لكن التورات تروي لنا في السطور الأربعة التي تلي، أمراً أكثر دلالة. فقد عرفنا أن يعقوب أدى واجبة الزوجي مع ليئة في الأسبوع الأول من الزواج فقط ومع ذلك أنجبت له ليئة أربعة أبناء هم على التوالي: رأوبين ، شمعون، لاوي، ويهوذا.

"فلمّا رأت راحيل أنها لم تلد ليعقوب، غارت من أختها وقالت ليعقوب هب لي بنين وإلاّ فأنا أموت. فحمي غضب يعقوب على راحيل وقال:

ألعلي مكان الله الذي منع عنك ثمرة البطن؟ فقالت: ها هي جاريتي بلهة، ادخل عليها فتلد على ركبتي وارزق أنا أيضاً منها بنين. فأعطته جاريتها زوجة؛ فدخل عليها. فحبلت بلهة وولدت ليعقوب ابناً؛ فقالت راحيل: قد قضى الله لي وسمع لصوتي واعطاني ابناً، لذلك دعت اسمه داناً، وحبلت بلهة أيضاً وولدت ابناً ثانياً ليعقوب: فقالت راحيل: مصارعات الله قد صارعت اختي وغلبت، فدعت اسمه نفتالي، ولما رأت ليئة أنها توقفت عن الولادة، أخذت زلفة جاريتها واعطتها ليعقوب زوجة. فولدت زلفة ليعقوب ابناً. فقالت ليئة: بغبطتي، لأنه تغبطني بنات، فدعت اسمه أشير″ (تكوين ٣٠، ١ - ١٣)..

إنه حقاً مقطع تعليمي رائع! أما باقي النص فهو أكثر تعليمية. ولكن قبل أن نسوقه، نرى لزاماً علينا أن نشير إلى، أن المعتقدات الشرقية القديمة، التي لا تزال تنتشر في بعض الاماكن حتى يومنا هذا، تؤكد، أن لجذر نبات اللفاح النادر الوجود، قدرة على لشفاء من العجز الجنسي، وليس صعباً اخضاع هذا الجذر الكثير الفروع، لمختلف ضروب المقارنات. وهذا ما أحسن استغلاله مشعوذو العصور كلها، فكانوا يصفونه حجاباً؛ ويعدون منه شراباً خاصاً يقدمونه للناس على أنه شراب الحب. ولم يترك ″الروح القدس″ الفرصة تفوته، بل استغلها ليتسلى بها أيضاً. فلقن مؤلف سفر التكوين سابقة جديدة تدعم الاعتقاد بالقوة المهيجة لجذر نبات اللفاح.

″ومضى رأو بين في أيام حصاد الحنطة فوجد لفاحاً في الحقل وجاء به إلى ليئة أمه. فقالت راحيل لليئة: اعطني من لفاح ابنك؛ فقالت لها: ألم تكتف بانك أخذت رجلي، وتريدين الآن أن تأخذي لفاح ابني؟ فقالت راحيل: إذاً يضجع الليلة معك عوضاً عن لفاح ابنك. فلما أتى يعقوب من

الحقل في المساء خرجت ليئة لملاقاته وقالت: إلي تجيء الليلة لأني قد استأجرتك بلفاح ابني: فاضجع معها تلك الليلة. وسمع الله لليئة فحبلت وولدت ليعقوب ابناً خامساً. فقالت ليئة: قد اعطاني الله اجرتي لأني أعطيت جاريتي لرجلي، فدعت اسمه يسّاكر" (الذي يعني الانتقام) (تكوين ٣٠ ، ١٤ - ١٨)..

ثم أنجبت ليئة ولداً آخر دعته زبولون، وبنتاً دعتها دينة. ولا تفيدنا التورات بالاسباب التي جعلت يعقوب يتجاوز اشمئزازه من هذه المرأة ويعود إلى مضاجعتها مرة أثر أخرى. أما فيما يخص راحيل، فقد فعل اللفاح فعله، أو أن يهوه قرر أخيراً أن "يفتح رحمها"، فقد حملت وولدت ابنها يوسف.

نعود الآن إلى بطل قصتنا هذه، يعقوب. لا أظن أن قارئي الكريم يعتقد أنه أمضى أربعة عشر عاماً من عمره يغسل الاطباق وينظف أرض البيت والزرائب عند لابان؛ فالتورات تقول، إنه خبأ في جيبه حجراً للابان، وانتظر الفرصة السانحة بصبر وأناة، ولما أتت انتقم من خاله انتقاماً رهيباً. فقد رمى واحدة من مزاحاته المعسولة السامة المجربة: طلب من لابان أن يعطيه أجراً، كل ما هو أرقط وأبلق في قطيعه؛ فوافق لابان دون تردد، لأنه كان على يقين بأنه سيمضي زمن طويل قبل أن تقع مثل هذه العجيبة. بيد أنه سيندم ندماً شديداً لأنه لم يحسب حساباً، لمكر صهره التوراتي المقدس. فحسب التورات، أن يعقوب أخذ قضباناً من لبن ولوز ودلب، فقشر فيها خطوطاً بيضاً وأوقفها في مساقي القطيع قبالة الغنم؛ .فتوحمت الغنم عند القضبان، وولدت مخططات ورقطاً وبلقاً" (٣٠ ، ٣٧ - ٣٩). وعندما رأى لابان الذي حل بقطيعه، عقدت الدهشة لسانه، ولكنه اضطر أن يفرز ليعقوب ذلك العدد الكبير من الرؤوس.

ونحن بدورنا ننصح هواة الاغنام المخططة والبلقاء والرقطاء، أن يلجؤوا إلى هذه الطريقة البسيطة والمضمونة لتهجين الحيوانات.فالطريقة واستخدامها تضمنهما ماركة "الحمامة المقدسة"..

ولم يكتف يعقوب بهذه الخدعة المرة التي سلب فيها لابان تسعة أعشار قطعانه، بل قام في أحد الايام ورحل دون أن يخبر أحداً بذلك. فقد فر هارباً ومعه عائلته كلها، بعد أن وافقت زوجتاه على خطته، بل إن راحيل سرقت أصنام أبيها كلها وحملتها معها.

وها هو لابان يائس تماماً، وقد دفعه يأسه إلى ملاحقة صهره وابنتيه حتى ادركهم. وعلى الرغم من حديثه الحنون ولسانه المعسول، إلا أنه لم يستطع اقناع يعقوب بالعودة. عندئذ قال له: اعد إلي اصنامي في أقل تقدير، "لماذا سرقت آلهتي؟". بيد أن يعقوب لم يفهم ماذا يعني ذلك. فاقترح على خاله أن يفتش أشياءه كلها. وبينما كان لابان يفتش أشياء ليئة، دست راحيل أصنام أبيها تحت حداجة الجمل التي تجلس عليها، ثم اعتذرت لابيها قائلة: "لا يغتظ سيدي أني لا أستطيع أن أقوم أمامك، لأن علي عادة النساء" وبحث لابان طويلاً دون جدوى، فالاصنام أختفت وحسب. وبعد مشهد صاخب، افترق الخال وابن اخته، بعد أن أقاموا كومة من الحجارة لتشهد على اتفاقهما بألا يؤذي أحدهما الآخر، وإذا أراد قارئي الكريم أن يقرأ الأصل التوراتي لهذه القصة كلها، فما عليه سوى أن يتناول كتاب "العهد القديم" ويفتح الاصحاح الحادي والثلاثين من كتاب التكوين، أما الاصحاحات الثاني والثلاثون والثالث والثلاثون. فقد كرسا لوصف رحلة عودة يعقوب إلى أرض الكنعانيين، حيث يلتقي عيسو، ويتصالح معه في مشهد مؤثر. ثم تصف التورات ملعوب يهوه الجديد، ونحن نقصد هنا إلى

قصة العراك الذي وقع بين الاله يهوه ويعقوب، فقد أراد يهوه أن يوجه لكمة أو لكمتين إلى فك يعقوب، ولكنه تراجع وهو يحمل أثر لكمة أرسلها يعقوب إلى ما فوق عينيه، فانتفخ مكانها.

قاد يعقوب زوجاته الأربع والقافلة، عبر مخاضة يبوق ليلاً. "وبقي يعقوب وحيداً، وصارعه انسان حتى طلوع الفجر، ولما رأى أنه لا يقدر عليه، ضرب حق فخذه، فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه. وقال ("الانسان المجهول"): اطلقني، لانه قد طلع الفجر، فقال "يعقوب": لا أطلقك إن لم تباركني. فقال: ما اسمك؟ فقال: يعقوب، فقال: لا يدعى اسمك يعقوب بعد الآن، بل اسرائيل، لأنك صارعت الله والناس وقدست. وسأل يعقوب وقال: اخبرني باسمك، فقال: لماذا تسأل عن اسمي؟ وباركه هناك فدعا يعقوب اسم المكان فنئيل وقال: لأني رأيت الله وجهاً لوجه، وانقذت نفسي"..(تكوين ٣٢ ، ٢٤ - ٣١)..

يقول النقاد: إن اسم اسرائيل الذي منحه يهوه ليعقوب هو، اسم أحد ملائكة المثيولوجيا الكلدانية. وتفيد الخرافة اليهودية بأن، اسم اسرائيل يعني "القوي ضد الله". أما الكاتب اليهودي الواسع الثقافة، فيلون[١] فيؤكد، أن اسم اسرائيل هو اسم كلداني، وليس يهودياً، وهو يعني "الذي رأى الله". ولكن مهما كان الأمر، فليس بمقدورنا أن نقرأ هذه القصة دون أن نبتسم. ومن الصعب جداً أن نقع في أي مثيولوجيا، ما عدا الأكثر بدائية منها، على وصف لانسان تساوي قوته قوة اله من الآلهة. أما هنا فيعقوب لم يصمد في وجه الاله يهوه وحسب. بل انتصر عليه أيضاً، بغض النظر عن أنه خلع له حقه.

والآن، إلى مغامرة تعليمية أخرى. لقد رأى قارئي الكريم أن ليئة أنجبت

ستة أبناء، وفي المرة السابعة انجبت ابنتها دينة. ونحن نعرف أيضاً عدد السنوات التي قضاها يعقوب في بيت لابان. ففي أثناء نزاعه معه، عندما كان فاراً، قال يعقوب لخاله: "لقد خدمتك أربع عشرة سنة بابنتيك، وست سنين بغنمك" (٣١ ، ٤١). إذاً، يجب أن يكون ابنه رأوبين قد ولد في العام الثامن فقط؛ وإذا تذكرنا أن ليئة لم تلد خلال عامين في أقل تقدير (لقد أعارت يعقوب جاريتها زلفا طيلة العامين اللذين توقفت فيهما عن الولادة)،فيجب أن نفترض أن ولادة دينة جاءت في العام السادس عشر لاقامة يعقوب في دار لابان، إذاً، لم تكن الطفلة قد تجاوزت الرابعة من عمرها بعد، عندما ترك يعقوب ديار خاله ورحل إلى أرض الكنعانيين. إننا نرجو القارئ الكريم أن يتذكر هذه الملاحظة جيداً، لأننا سنرى بعد قليل أن هذه الطفلة دينه، أثارت هوى عنيفاً في قلب ابن احد ملوك كنعان، فور وصول يعقوب إلى أرض الكنعانيين، أي بعد عراكه مع يهوه ومصالحة عيسو. "وصل يعقوب سالماً إلى مدينه شكيم التي في أرض كنعان، ونزل أمام المدينة. ثم ابتاع قطعة أرض نصب فيها خيمته، من يد بني حمور أبي شكيم بمائة قسيطة" (٣٣ ، ١٨ ، ١٩). وهذا الشكيم نفسه هو، الذي وقع في حب دينه التي بالكاد تجاوزت الرابعة من عمرها.

"وخرجت دينة ابنة ليئة التي ولدتها ليعقوب، لتنظر بنات تلك الأرض فرآها شكيم بن حمور الحوي رئيس الأرض، فأخذها واضجع معها وأذلها. وتعلقت نفسه بدينة ابنة يعقوب، واحب الفتاة ولاطف الفتاة. فكلم شكيم أباه قائلاً: خذ لي هذه الصبية زوجة" (تكوين ٣٤ ، ١ - ٤).

ومضى الملك حمور ليخطب الفتاة من أبيها. والحقيقة أنه كان ينبغي على شكيم أن يعتذر لأنه تصرف بتلك الطريقة العملية. بيد أنه قرر أن ينفذ

التزامات يعقوب كلها. وتفيدنا التورات بأن يعقوب كان ينوي حل المسألة سلمياً، ولكن اخوة دينة رفضوا رفضاً قاطعاً أن يكفر شكيم عن إثمه بالزواج من دينة.

"وجاء بنو يعقوب من الصحراء حين سمعوا، وحنق القوم وشق عليهم جداً أنه قد صنع فاحشة في اسرائيل إذ ضاجع ابنة يعقوب، ومثل ذلك لا يصنع فقال لهم حمور: إن ابني شكيم علقت نفسه بابنتكم، فاعطوها له زوجة وصاهرونا، أعطونا بناتكم وخذوا بناتنا، وأقيموا معنا، فهذي الأرض بين أيديكم قيموا بها اتجروا وتملكوا. وقال شكيم لابيها واخوتها: هبوني حظوة في عيونكم، وما تطلبون مني أفعل. أكثروا علي المهر والعطايا جداً، فأعطيكم كما ترسمون لي وأعطوني الفتاة زوجة. فأجاب بنو يعقوب شكيم وحمور أباه بكيد ومكروا بهما،لأنه دنس دينة أختهم، وقالوا لهما: لا نستطيع أن نعطي اختنا لرجل أقلف، فهو عار عندنا، لكننا بهذا نوافقكم إذا صرتم مثلنا، فيختتن كل ذكر منكم، فنعطيكم بناتنا ونتخذ بناتكم ونقيم عندكم ونصير شعباً واحداً، وإن لم تقبلوا أن تختتنوا، نأخذ ابنتنا ونمضي. فحسن كلامهم عند حمور وابنه شكيم، ولم يلبث الفتى أن صنع ذلك، لأنه كان قد شغف بابنة يعقوب، وكان هو أوجه جميع أهل بيته"(تكوين ٣٤ ، ٣٧ - ١٩)..

بعد هذه المشاورات، جمع حمور وابنه شعبهما وعرضا عليه الاقتراح، فوافق جميعهم على التحالف مع عائلة يعقوب. وفي اليوم نفسه تم ختن ذكور الشعب كله.ولكن في اليوم الثالث "وهم متألمون، أخذ ولدا يعقوب، شمعون ولاوي، أخوا دينة، كل سيفه ودخلا المدينة فقتلا كل ذكر، وقتلا حمور وابنه شكيم أيضاً، وأخذا دينة من بيت شكيم وخرجا، ثم نهب بنو

يعقوب المدينة انتقاماً لتدنيس اختهم، فأخذوا الغنم والبقر والحمير وكل ما في المدينة وما في الصحراء. وسبوا وغنموا جميع ثروتهم وكل أطفالهم ونسائهم وسائر ما في البيوت" (٣٥ ، ٢٥ ـ ٢٩)..

لاشك أنه سلوك وحشي دنيء غادر وخسيس، هذا إذا تحدثنا بلغة المتحضرين لا بلغة التورات. فقد ظهر أن أبناء يعقوب وناسه هم، مجّرد قطاع طرق لا ذمة لهم ولاعهد. فقد قدم أهل البلاد بلادهم لهم، ومدوا يد الصداقة والتآخي، والعيش بسلام، ولكن "شعب يهوه المختار" غدر بهم، كما يغدر اللصوص العابرون. فليس ثمة قاتل أكثر غدراً وسفالة وتعطشاً للدماء. ومرة أخرى يرى الناقدون من أصحاب مذهب الشك في هذا ضرباً من الشعوذة التي اعتاد "ذكر الحمام" الالهي ممارستها. فشمعون ولاوي، اللذان يزعم أنهما ارتكبا هذه المجزرة البشعة، كانا لايزالان غلامين بالكاد تجاوزا سن الطفولة. لقد ولد شمعون في العام التاسع لاقامة يعقوب عند لابان،أما لاوي، فقد رأى النور في العام العاشر منها. أي أن أحدهما كان في العاشرة من عمره والآخر في الحادية عشرة، عندما أبادا ذكور مدينة بكاملها. هل يدهشكم هذا؟ أليس ذان الغران من صلب يعقوب الذي غلب يهوه نفسه؟...

يفيدنا الاصحاح الخامس والثلاثون من سفر التكوين، بأن يعقوب حزن فجأة لأن زوجاته من عبدة الاوثان، واعتقاده بأن ذلك سيجر عليه ويلات عظيمة، جعله يقول "لأهل بيته وسائر من معه: أزيلو الآلهة الغريبة التي بينكم، وتطهروا وابدلوا ثيابكم".

ما أمر به يعقوب نفذ في الحال. فقد أعطت راحيل، وليئة، وزلفا، وبلهة أصنامهن إلى يعقوب، فدفنها تحت بلوطة في ضواحي المدينة التي أبيدت

منذ قليل. هذا الاجراء، نال اعجاب يهوه، فشوش عقول سكان البلاد ولم يطاردوا أبناء يعقوب.

ثم يظهر يهوه في هذا الاصحاح مرة أخرى، ولكن حديثه كان في هذه المرة حديث عجوز ممل يشكو ما يعانيه. وفي الربيع مضى يعقوب في طريق طويلة قادته إلى أفراتة. وفيها ولدت راحيل وتوفيت أثناء الوضع. "وكان قبل أن تفيض نفسها، عند موتها أنها سمته ابن ألمي، وأما أبوه فسماه بنيامين".

دفن يعقوب حبيبته راحيل ووضع حجراً فوق قبرها، وهو ما زال قائماً حتى اليوم. وفيما هو غارق في احزانه، نجح ابنه البكر رأوبين في اغواء بلهة زوجة البطريرك المقدس، وركبها. وعندما تناهى إلى يعقوب أن ابنه زين له رأسه بقرنين جميلين، أغمض عينيه ولم يغضب، كما لم يظهر أي حال من الانزعاج، وأخيراً وصل يعقوب إلى وادي حمرا، حيث وجد هناك البطريرك الكبير اسحق، الذي مات بعدئذ عن عمر تجاوز المائة والثمانين عاماً، فدفنه عيسو ويعقوب.

وهكذا غدا يعقوب رأساً لعائلة كبيرة، وكانت لعيسو عائلته الكبيرة أيضاً. ويفيدنا الاصحاح السادس والثلاثون بمعطيات هامة عن سلسلة نسب هذا الأخير، وهي معطيات تتطلب "دراسة معمقة" ينبغي على اللاهوتيين انجازها. فهي لائحة طويلة من أسماء غير متوقعة ولا مثيل لها.

ويلاحظ النقاد مرة أخرى، أن هذا الاصحاح، كما الاصحاح الذي قبله، يحتوي على سطرين يؤكدان مرة أخرى، أن موسى لم يؤلف سفر التكوين، ولم يكن بمقدوره أن يكون مؤلفه. فالسطر التاسع عشر من الاصحاح الخامس والثلاثين يقول: إن راحيل "دفنت على طريق افراته،

وهي بيت لحم" ولكن هذه المدينة لا يمكن أن تكون قد حملت اسم افراتة في زمن موسى، لأن الذي أعطاها هذا الاسم هو، كاليب، وقد سماها افراتة تيمناً باسم زوجته؛ وكان كاليب هذا قد عاش في زمن يشوع بن نون، خليفة موسى. وهذا يعني أنه لم يكن بوسع موسى أن يعلم بوجود مدينة افراتة، فما بالك ببيت لحم، فافراتة لم تأخذ اسم بيت لحم إلا بعد عدة قرون من زمن ابن نون.

أما السطر الحادي والثلاثون من الاصحاح السادس والثلاثين، فيبين كذب الادعاءات اللاهوتية بأن موسى هو مؤلف سفر التكوين. ففي معرض تعداده لاحفاد عيسو يقول المؤلف الحقيقي للسفر: "وهؤلاء الملوك الذين ملكوا في أرض آدوم قبل أن يملك ملك في بني اسرائيل". وغني عن القول أن هذه الكلمات لم تكتب قبل الملك الاسرائيلي الأول في أقل تقدير، أي بعد شاول. ولنفرض أن الكلمات التالية جاءت في وثيقة ما: "لقد حكم الامراء المذكورون، قبل زمن طويل من قيام الجمهورية في فرنسا". ألا يعني هذا بالضرورة، أن هذه الكلمات لم تكتب إلا بعد أن سقط النظام الملكي في فرنسا؟

الفصل الثاني عشر

يوسف "الفاتن"، صعوده الصاعق

وصلنا الآن إلى قصة يوسف التي تبدأ في الاصحاح السابع والثلاثين من سفر التكوين. لقد كان هذا الطاووس أحب أبناء يعقوب الى قلبه، ولذلك أهداه رداء جميلاً موشى. وكان يوسف معروفا بحبه لتفسير الأحلام، وكان قد خطا على هذه الطريق في وقت باكر جداً، ففي السابعة عشرة من عمره أثار دهشة أهله بقدرته على ممارسة هذا الفن. ولكن لسوء طالعه، أنه اعتاد ترديد أحلامه بصوت عال، وكانت أحلامه كلها تجعل القدر يرفع شأنه ويحط من شأن اخوته الأحد عشر الآخرين. ففي أحد الأيام، رأى يوسف في حلمه أنه واخوته في الحقل يجمعون حزماً، فوقفت حزمته وسقطت حزم اخوته ساجدت لها. وحلم مرة أخرى بأن الشمس والقمر وأحد عشر نجماً سجدوا له.

غير أن هذا الهوس أخذ يثير حنق اخوته، فكادوا له، وأضمروا شراً. ولما أرسله يعقوب اليهم في أحد الأيام إلى وادي دوفائين، حيث كانوا يسرحون بالقطيع، عزم تسعة منهم على قتل هذا المتغطرس المنفوش. لكن رأويين

وقف ضد القتل ومنعه. فاكتفوا بنزع قميصه عنه، ثم رموا به في بئر مهجورة. وفي الوقت عينه مرت على مقربة قافلة تجارية. وقد دعا المؤلف "المقدس" اولئك التجار تجاراً اسماعيليين تارة ومديانيين تارة أخرى، دون أن يفرّق بين التسميتين، بيد أننا لن نتوقف عند هذه المغالطة البسيطة. يهوذا وخزه ضميره عندما تصوّر فجأة أن يوسف قد يموت في قاع البئر جوعاً، فاقترح على الآخرين صفقة تجارية صغيرة يكون يوسف هو السّلعة فيها، أي عرض عليهم بيع ذلك الثرثار الثقيل كأيّ عبد عادي. لأن ذلك أكثر انسانية من القتل وأكثر فائدة لهم.

.حسناً، اتفقنا، قال الآخرون، واشترى التجار يوسف بعشرين من الفضة. فذهب اخوته وأخذوه من البئر، وتسلّم التجار سلعتهم ورحلوا[1].

لكن رأوبين وبنيامين لم يشتركا في الصفقة. أين كانا؟ نحن لا نعرف، والتورات لا تقول شيئاً عن ذلك. بيد أن النص التوراتي يسمح بالاستنتاج، بأن رأو بين كان ينوي اخراج يوسف من البئر سراً. ولذلك حزن حزناً كبيراً عندما ذهب إلى البئر ووجده خالياً، فجاء إلى اخوته وقال: "الولد ليس موجوداً، وأنا إلى أين أمضي؟". لكنهم وهم المنافقون المراوغون، كخدم الدين، ذبحوا تيساً من الماعز ولطخوا الثياب الجميلة بدمه وأرسلوها إلى العجوز يعقوب مع الكلمات التالية: "وجدنا هذا، اثبته، أقميص ابنك هو أم لا؟". فندت عنه صرخة ألم وقال: "قميص ابني؛ وحش ضار افترس يوسف افتراساً". لقد كان العجوز يائساً حزيناً حزناً كبيراً، فممزّق ثيابه ثم شدّ على حقويه، وناح على ابنه أياماً كثيرة". وما فتئ يردد ودموعه تنهمر، "اني أنزل الى ابني نائحاً إلى الجحيم" (٣٧ ، ٣٣ - ٣٥).

أمّا التجار فقد ساقوا يوسف معهم إلى مصر، وباعوه هناك إلى شخصية

كبيرة في قصر فرعون. وقد دعى الكتاب "المقدس" تلك الشخصية "فوطيفار قيّم قصر فرعون، رئيس الخصيان". وسيفيدنا سفر التكوين في اصحاح آخر، أنه كانت لدى هذا الخصي زوجة وابنة. ولكننا لن نستبق الأحداث. بينما كان يوسف في بيت فوطيفار، وقعت في بيت يهوذا، الابن الرابع ليعقوب سلسلة من الأحداث الدينية التعليمية. ففي "ذلك الوقت، انفرد يهوذا عن اخوته ونزل برجل عدلامي يقال له حيرة. ورأى يهوذا هناك بنت رجل كنعاني اسمه شوع، فتزوجها ودخل بها" (٣٨ ، ١ - ٢).

ما يلفت النظر في هذا النص، أنه على الرغم من أن يهوه العلي حرّم على الآباء الأوائل أن يتزوّجوا وثنيات، وخاصة الكنعانيات اللعينات، إلاّ أنهم كانوا يفعلون ذلك بعناد واصرار؛ بيد أنهم وعلى الرغم من ذلك، بقوا هم بالذات أحباء يهوه. وفيما بعد، أخذ المسيحيون حماقات التورات وقذاراتها كلها. فجعلوا نسب يسوع المسيح انتقاء من المتهتكين والوثنيين والزناة.

فحملت وولدت ابناً اسماه عيراً. ثم حملت أيضاً وولدت ابناً فسمته أونان. وعاودت فولدت ابناً وسمته شيلة. وكان في كازيب حين ولدته. واتخذ يهوذا زوجة لعيرٍ بكره، اسمها ثامار. وكان عير بكر يهوذا شريراً في عيني الربّ، فأماته الرب" (تكوين ٣٨ ، ٣ - ٧).

لقد تفنن اللاهوتيون طويلاً، واعمل كلّ منهم الفكر والفراسة لدراسة سلوك عيرٍ هذا، الذي تمرّ التورات به مرور الكرام؛ وكانوا في أثناء ذلك يحسبون الحساب لنهاية هذه القصة، واضعين نصب أعينهم أن يهوه يريد أن يخرج "مسيحه" من صلب هذا اليهوذا. فقد افترض كلّ من عمل على شرح سلوك عير، أن هذا الأخير كان يضاجع زوجته ثامار في مؤخرتها،

لأنه لم يكن يريد أن ينجب أطفالاً، فقتله يهوه. ودليلهم على ذلك، ان "الكتاب المقدس" نفسه يقول: "وكان عير شريراً في عيني الرب". وهو القول نفسه الذي نطق يهوه به عندما كان يصب غضبه على سدوم.

ولكن مهما كانت الحال، فقد كان حظ ثامار مع زوجيها سيئاً. وقال يهوذا لأونان: "ادخل بامرأة أخيك فتزوّجها، وأقم نسلاً لأخيك" (٣٨ ، ٨). ومن المعروف أن العرف اليهودي كان يقضي بأن يكون الأولاد الذين يولدون من هكذا زواج، ورثة للأخ المتوفي، ولا يُعدّون أولاداً لأبيهم الحقيقي.

"وعلم أونان أن النسل لن يكون له، فكان اذا ضاجع امرأة أخيه، قذف على الأرض، لئلا يجعل نسلاً لأخيه" (٣٨ ، ٩ - ١٠).

اذاً، من اسم أونان اشتقت كلمة "انانيزم" (العادة السرية)، لأن أونان هذا هو مبدع هذه الطريقة في الحصول على اللذّة الجنسية. هذا ما قاله الرب الاله يهوه، ولا اعتراض على قوله!

"فقال يهوذا لثامار كنته: أقيمي أرملة في بيت أبيك، حتى يكبر شيلة ابني، لأنه خاف أن يموت هو أيضاً كأخويه. فمضت ثامار وأقامت في بيت أبيها. ولما طالت المدة، ماتت ابنة شوع، زوجة يهوذا، وسلا يهوذا بعدها، وصعد إلى جزاز غنمه في تمنة ومعه حيرة، صاحبه العدلامي. فعلمت ثامار وقيل لها: هو ذا حموك صاعد إلى تمنة ليجزّ غنمه. فخلعت ثياب ترملها وتغطت بالخمار وتنقبت وجلست في مأتى العينين على طريق تمنة، فرأت شيلة قد كبر ولم تُزوّج به. ولما رآها يهوذا حسبها بغياً، لأنها كانت مغطية وجهها، فمال اليها إلى الطريق وقال: هلمّ أدخل عليك، لأنه لم يعلم أنها كنته، فقالت: ماذا تعطيني حتى تدخل عليّ؟ قال: ابعث بجدي معز من

الماشية، قالت: اعطني رهناً الى أن تبعث إليّ؛ قال: ما الرهن الذي أعطكيه؟ قالت: خاتمك وعمامتك وعصاك التي بيدك؛ فأعطاها ودخل عليها فعلقت منه. ثم قامت ومضت فنزعت خمارها ولبست ثياب ترملها. وبعث يهوذا بجدي معز مع صاحبه العدلامي ليفك الرهن من يد المرأة، فلم يجدها؛ فسأل أهل موضعها وقال: أين البغي التي كانت عند العينين على الطريق؟ قالوا: ليس هنا أيّ بغي قط. فقال يهوذا: لتذهب بما عندها لئلا يلحقنا خزي، فاني قد أرسلت الجدي وأنت لم تجدها. وبعد مضي ثلاثة أشهر أخبروا يهوذا وقالوا: لقد بغت ثامار كنّتك، وها هي حامل من البغاء. فقال يهوذا: أخرجوها فتحرق؛ وبينما هي مخرجة بعثت إلى حميها فقالت: أنا حامل من الرجل الذي له هذه الأشياء، وقالت: أثبت لمن هذا الخاتم والعمامة والعصا؛ فأثبتها يهوذا، وقال: هي ابرّ مني، لأني لم أزوّجها لشيلة ابني، ولم يعد أيضاً يعرفها. ولما كان وقت ولادتها، اذا بتوأمين في جوفها. ولما ولدت أخرج أحدهما يده، فأخذت القابلة قرمزاً وعقدته عليها وقالت: هذا أخرج أولاً، فلمّا ردّ يده، خرج أخوه فقالت: لماذا انقطع لأجلك السياج؟ فسمي فارص، وبعد ذلك خرج أخوه الذي على يده القرمز، فسمي زارح" (تكوين ٣٨ ، ١١ - ٣٠).

غني عن القول أن أحداً لا يستطيع اتهامنا بعرض موجز يشوّه حقيقة النص "المقدس". ومع أنه ثمة عدد غير قليل من القراء، يفضّل أن يُعرض المشهد بايجاز، شريطة أن يكون النقد مسهباً، إلاّ أن طابع المادة التي نتعامل معها في دراستنا هذه، لا يقبل الايجاز والاختصار، إلاّ اذا كان الأمر يتعلّق بمشاهد لا تتسم تفاصيلها بأهمية كبيرة. ولكن عندما تسوق التورات لنا مشهداً مثل مغامرة ثامار، فانه لابد من اقتباسه بالحرف الواحد، لأن "الروح القدس" هو من لقنه. اضافة إلى هذا، ينبغي أن نلقي مزيداً من الضوء على

المشهد المعني، لنظهر لآلئ النص "المقدس" كلها. وهذا ما يحرم اللاهوتيين كل امكانية لايهام القراء بأننا نخدعهم عبر تحريف "الكتاب المقدس".

فالقذارات المرتبطة بقصة ثامار وشناعاتها كلها، تؤلف جزءاً لا يتجزّأ من الكتاب "المقدس"؛ والكنيسة لا تدحضها على الرغم من انحطاطها والاشمئزاز الذي تثيره في النفس. أليس غريباً أن تقبل ثامار أن تصبح مجرد قحبة لوالد زوجيها، بعد أن فشلت في زواجين متتاليين؟ أولا يبدو غريباً أيضاً أن يدفعها هذا الفشل إلى رفع ساقيها تحت حميها انتقاماً منه لأنه نسي أن يزوّجها ابنه الثالث؟

يقول فولتير في هذا السياق: "انها وضعت الخمار لتشبه البغي، بيد أن الأمر على النقيض تماماً، لأن الخمار كان دائماً من ملابس النساء المحترمات المستقيمات. واذا كان صحيحاً أن القحبات كنّ يقفن في شوارع المدن الكبرى، التي ينتشر البغاء فيها، ليصطدن الزبائن، كما هي الحال الآن في لندن، وباريس، وفينيسيا، وروما، فانه من غير المحتمل قط أن تقف قحبات كنعان الصغيرة على تقاطع الطرقات لاصطياد المارة. وما يزيد الأمر غرابة، أن يمضي بطريرك عجوز مثل يهوذا، مع قحبة ليفرغ شهوته فيها في وضح النهار وعلى طريق عام، مغامراً بسمعته وهيبته. وأخيراً من غير المعقول قط أن يجرؤ يهوذا ويأمر بحرق كنّته الحامل بغاء، حسب ظنه، وهو في أرض كنعان التي لا يملك شيئاً فيها؛ والأمر الأشدّ غرابة هو، أن ينفذ أمره للتو وتضرم نار العقاب، وكأنه قاض في تلك الأرض".

بعد قصة ثامار تعود التورات بنا إلى قصة يوسف، فنصادف هنا مشهداً هو نسخة طبق الأصل عن قصة تينريوس، وفيدرا، وهيبوليت. فقد أفادنا المؤلف "المقدس" بأن فوطيفار، الخصّي الغني كان متزوّجاً؛ وعلى الرغم من

أنه لم يكن من أتباع إله يوسف، إلاّ أنه كان يعترف دائماً بأن هذا الاله يساعد عبده في كل شيء: "ورأى مولاه أن الرب معه، وان جميع ما يعمله ينجحه الرب في يده" (٣٩ ، ٣). ومع ذلك، فان الخصيّ لم يعتنق اليهودية، لكنه "ترك جميع ما كان له في يد يوسف، ولم يكن يعرف معه شيئاً إلاّ الخبز الذي كان يأكله. وكان يوسف حسن الهيئة وجميل المنظر. وكان بعد هذه الأمور، أن امرأة مولاه طمحت عينها إلى يوسف وقالت له: ضاجعني. فأبى وقال لإمرأة مولاه: هو ذا مولاي لا يعرف معي شيئاً مما في البيت، وجميع ما هو له جعله في يدي، وليس في هذا البيت شيء فوق يدي، ولم يمسك عني شيئاً غيرك. لأنك زوجته؛ فكيف أصنع هذه السيئة العظيمة وأخطئ الى الله؟ وكلمته يوماً بعد آخر فلم يقبل أن يضاجعها. فاتفق في أحد الأيام أنه دخل البيت لامر ما، ولم يكن في البيت أحد من أهله، فامسكت بثوبه قائلة: ضاجعني، فترك رداءه بيدها وفرّ هارباً إلى الخارج" (٣٨ ، ٦ ـ ١٢). ولمّا عاد فوطيفار قصت عليه زوجته الأمر عكس ما كان. قالت: "أتاني العبد اليهودي الذي جئتنا به، ليتلاعب بي؛ وكان عندما رفعت صوتي وصرخت، انه ترك رداءه بجانبي وهرب خارجاً" (٣٨ ، ١٧ ـ ١٨).

وما أن سمع فوطيفار بهذا الغدر المزعوم، حتى غضب أشدّ الغضب، ولم يشأ أن يسمع من يوسف أيّ كلام، فأمر برميه في السجن الذي يسجن الملك مساجينه فيه. لكن ارادة يهوه تدخلت! فقد أُعجب رئيس السجن بيوسف وأحبه كثيراً؛ فجعله رئيساً على باقي النزلاء، وصارت ادارة شؤون السجن كلها إلى العبد اليهودي. وبعد زمن لم تحدده التورات، غضب فرعون على خبازه وساقيه فرماهما في السجن، حيث يوسف. وفي أحد الصباحات رأى يوسف أن رفيقيه متكدران، فسألهما عمّا يكدرهما.

فأجاباه: "رأينا حلما وليس لنا من يفسره. فقال لهما يوسف: أليس التفسير عند الله؟ قصّا عليّ. فقصّ رئيس السقاه حلمه وقال: رأيت كأن جفنه كرم بين يدي، وفي الجفنة ثلاثة قضبان، وكأني بها أفرعت واقعلت وانضجت عناقيدها وصارت عنباً. وكانت كأس فرعون في يدي، فأخذت العنب وعصرته في كأس فرعون وناولته الكأس. فقال يوسف: هذا معناه: الثلاثة القضبان هي، ثلاثة أيام. بعد ثلاثة أيام يرفع فرعون رأسك ويردك إلى منزلتك، وتناول فرعون كأسه كالعادة الأولى، حيث كنت ساقيه. انما اذا جاد أمرك فاذكرني في نفسك واصنع إليّ رحمة واجر ذكري لدى فرعون واخرجني من هذا البيت؛ لأني قد خُطفت من أرض اليهود؛ وهنا أيضاً رموني في هذا الجب من غير أن أفعل شيئاً. ولمّا رأى رئيس الخبّازين أنه قد فسّر له بخير، قال ليوسف: رأيت أنا أيضاً في حلمي كأن ثلاث سلال حواري على رأسي، وفي السلة العليا من جميع طعام فرعون مما يصنعه الخباز، والطير تأكله من السلة، من فوق رأسي. فأجاب يوسف وقال: هذا معناه: الثلاث السلال هي، ثلاثة أيام. بعد ثلاثة أيام ينزع فرعون رأسك عن بدنك ويعلّقك على خشبة فتأكل الطير لحمك" (٤٠ ، ٨ ـ ١٩).

غني عن القول بالطبع، ان ما قال يوسف تحقق بالحرف الواحد؛ ولكن الساقي المحظوظ نسي رفيقه يوسف. وبعد عامين رأى "ملك مصر" نفسه حلماً أقضّ مضجعه. فقد حلم الرجل أنه يقف على ضفة نهر، واذا بسبع بقرات سمان ثم تبعتها سبع عجاف التهمت السمان. فاستيقظ الفرعون من نومه، وعاد ليغفو ثانية فرأى، سبع سنابل جميلة مليئة نضرة، نبتت على ساق واحدة؛ وسبعاً أخرى جافة ضعيفة نبتت على الساق نفسها وابتلعت الأولى. ولمّا عجز عن فهم مغزى حلمه، دعى إليه حكماء بلاده وسحرتها ليتشاور معهم، فكان رأي جميعهم واحد وهو، ان حلم الملك غامض بقدر

ما هو غريب. وعندئذٍ تذكّر الساقي رفيقه اليهودي السجين، فاخبر فرعون بأمره، واستدعي يوسف في الحال.

ولمّا كان تفسير الاحلام هواية يوسف الاثيرة، فانه لم يجد أيّ صعوبة في تفسير حلميّ فرعون؛ فلكليهما مغزى واحد هو: البقرات السبع السمان، والسنابل السبع اليانعة هي كلها، سبع سنوات من المواسم الوفيرة؛ والبقرات السبع العجاف مع السنابل السبع الجافة هي، سبع سنوات عجاف قاحلة. ولذلك يجب على صاحب العظمه أن يختار رجلاً حازقاً حكيماً ليشرف على شؤون المملكة ويخزّن خمس المحصول كل عام. فأعجب الرأي فرعون ووزراءه. وقال الملك لهم: "هل نجد مثل هذا رجلاً فيه روح الله؟". ثم التفت إلى يوسف وقال: "بعدما عرّفك الله هذا كله، فليس فهيم حكيم مثلك". و أخذ خاتمه وناوله إلى يوسف والبسه ثياب بزّ ووضع طوقاً من الذهب في عنقه، وأمر أن يطاف به في مركبته الثانية وينادى أمامه: "اركعوا"، "ووضعه على جميع أرض مصر" (٤١ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٣).

ولكن هذا لم يكن كل شيء، فقد بدّل يوسف اسمه تنفيذاً لأمر فرعون، وأصبح يدعى "صفنات فعنيج"[٢]. ثم زوّجه. ولكن هل يحزر أحدكم مع من أقام له "صاحب الجلالة" النسب؟ منذ برهة قدمت التورات لنا فرصة لندهش من كون فوطيفار متزوجاً، على الرغم من كونه خصيّ، كما يقول النص اليهودي التوراتي الأصلي، ثم وضعت "الحمامة" بيضة أخرى مع مفاجأة أخرى: ففي أثناء اقامة يوسف في السجن، كان فوطيفار المخصيّ، الذي تزوّج تلك المرأة الشبقة التي لا ترتوي، قد بدّل وظيفته. فهو في الاصحاحين ٣٧ و٣٩ ، رئيس حرس الملك، ثم أصبح في الاصحاح

٤١ ، كاهن هليوبوليس وانجب بنتاً في سن الزواج. اذاً، ابّان تلك الفترة صارت مدام فوطيفار أمّاً، الأمر الذي يدفعنا للاعتقاد بأن آلهة مصر كانت تصنع "العجائب" هي الأخرى. ونحن عندما نتعامل مع الكتب "المقدسة" لأي مثيولوجيا كانت، يجب علينا أن نكون على أهبة الاستعداد لكل طارئ. ولذلك لن نعجب من أن التورات لن تقدم لنا فوطيفار خصياً بعد الآن.

ويبدو على أغلب الظن، أن الصلاة التي رفعها إلى القديس انطونيوس[٣] قد مكنته استعادة ما كان قد فقده في يوم ما. وهذا ما ساعده أيضاً على أن يصبح أباً لفتاة صغيرة رائعة الحسن، هي اسنات؛ ولكن ليس قبل أن يغدو كاهن هليوبوليس، مدينة إله الشمس رع، وهي المدينة المصرية التي كانت لها قدسية خاصة. لقد ترعرعت تلك الحسناء وكبرت بسنوات عمرها وجمالها، حتى غدت ثمرة ناضجةآن أوان قطافها مع حلول الوقت الذي كان يجب أن يتزوّج فيه يوسف، رئيس وزراء "مملكة مصر". والحقيقة أن عدالة فرعون وحكمته تدهشنا، فيوسف البار عانى الأمرّين من غباء فوطيفار وشبق زوجته، فهل لقارئي الكريم بطريقة أكثر عدلاً لارضاء مشاعر يوسف الجريحة، من تزويجه ابنة ذين الزوجين بالذات، فوطيفار وزوجته.

يجيز لنا هذا الشطر من قصة يوسف أن نقرر بعض الافكار التي تؤيد الفكرة التي سقناها في بداية هذا البحث؛ حيث قلنا عندئذٍ، ان التورات استخدمت كلمة "ألوهيم"، أي، "آلهة" في أثناء وصفها عملية خلق العالم، وفي مناسبات كثيرة أخرى. وكان اليهود القدماء يسجدون لاله واحد أطلقوا عليه اسم يهوه، وقد عدّوه أعظم من الآلهة الأخرى كلها. وهو عندهم إله واحد لا يتجزّأ. أمّا استخدام كلمة آلهة فيدل على أن اليهود

كانوا يعترفون بوجود آلهة أخرى غير يهوه. ومن المعروف أيضاً أن الشعوب الأخرى كانت تؤمن بآلهتها القبلية. وقد آمن اليهود انفسهم بالقوى الخارقة لتلك الآلهة، ولم يروا فيها أبالسة أو أرواحاً نجسة. بيد أن تزمتهم هو الذي دفعهم إلى التأكيد على أن يهوه كان الاله الأكثر جبروتاً بين الآلهة الأخرى. ولهذا بالذات اهتمت التورات بابراز القوة الخارقة لاله يوسف.

فوطيفار، الساقي، فرعون ووزراؤه، المصريون كلهم كانوا يعتنقون ديانة غير ديانة يوسف؛ ولكنهم لم يتخلّوا عن آلهتهم كرم ليوسف وحدة ذكائه التي فاقت ذكاء كهنة مصر وحكمائها، بل بقي كل فريق متمسكاً بعقيدته، ولم يكن ايمان هؤلاء يناقض ايمان أؤلئك. فقد بقي يوسف مخلصاً ليهوه على الرغم من زواجه بوثنية، وبصرف النظر عن تعايشه معها روحاً بروح دون أن تعتنق هي اليهودية. ومن هذه الزاوية بالذات، يحظى هذا المشهد بدلالات كثيرة. فيوسف لم يستخدم منصبه الجديد ليكسب أنصاراً ليهوديته. فقد كان يكفيه أن تسمع منه أن ليهوه قوة خارقة، وأنه أقوى بكثير، من ألهة الشعب الذي يدير هو الآن شؤونه.

من المعروف أن خرافات العرب واليهود نشأت عن مصدر مشترك أخذ الجانبان منه "القصص المقدسة" لديانتيهما. فقصة يوسف دوّنت في فلسطين وعرفتها جزيرة العرب قبل التورات. ولم يبدل الزمان فيها سوى بعض التفاصيل. أمّا القصة نفسها، فقد بقيت عند الشعوب التي خرجت من الجزيرة العربية. فحسب القرآن ان فوطيفار لم يكن خصيّاً، وان اسنات كانت رضيعة على حضن أمها لمّا اتهمت يوسف بمحاولة الاعتداء عليها. ومنذ ان كانت الفتاة صغيرة، أظهرت ذكاء نادراً؛ ففي أحد الايام، وكان والد هايروي قصة زوجته مع يوسف، وهو الحدث الذي عذّبه طويلاً، حتى

أنه احتفظ بالرداء الشهير الذي كان قد تمزّق أثناء المشادة؛ أشار عليه أحد الخدم أن يسأل ابنته اسنات، رأيها في ذلك الحادث. وعلى الرغم من أن الصغيرة كانت قد تعلمت الكلام لتوها، إلاّ انها قالت لوالدها: "اسمع يا ابي! اذا كانت أمي قد مزّقت رداء يوسف من الامام، فهذا دليل على أنه هو الذي كان يريد اغتصابها، أمّا اذا كان رداؤه ممزّقاً من الخلف، فذلك يعني أن أمي هي التي ركضت وراءه".

لقد اعترف كل من القرآن والتورات بأن اسنات كانت زوجة مثالية. فولدت ليوسف ولديه، منسي وافرائيم ابان سنوات الخير السبع. ثم حلت السنوات العجاف، لكن المصريين لم يجوعوا، لأن يوسف كان قد رتّب امور الحياة في انحاء البلاد كلها، فملأ المخازن بالأرزاق. وفي سنوات الآلام والمعاناة، كانت مصر غنية لدرجة جعلت الهاربين من ويلات المجاعة يأتونها من مختلف البلدان ليشتروا قمحها.

الفصل الثالث عشر

انتقام يوسف

خرج ابناء يعقوب كلهم، باستثناء بنيامين، إلى مصر ليشتروا قمحاً. وبكل سذاجة تريد التورات اقناعنا بان يوسف، الذي يدير شؤون بلاد مترامية الاطراف، كان يشارك شخصياً بتوزيع الأرزاق على قوافل الغرباء التي كانت تتدفق على مصر من مختلف اصقاع الأرض. فكيف كان رئيس الوزراء هذا يجد الوقت الكافي للاهتمام بمثل هذه الامور الصغيرة؟ لا نجد اجابة في التورات على هذا التساؤل. وعلى أي حال، فقد عرف يوسف اخوته، أما هم فلم يعرفوه. فعاملهم بكثير من الصرامة؛ وابان اقامتهم في مصر، لم يظهر أي مصري ليقول لهم، إن حاكم مصر المحسن وأكثر رجالها شهرة هو، من أبناء جلدتهم! وهو نفسه لم يعرفهم بنفسه، بل اتهمهم بالتجسس على لبلاد ليزيد تنكره، فانكروا التهمة وقالوا:

ـ كان عددنا اثني عشر أخاً، توفى أحدنا، والأصغر بقي عند والدنا.

ـ حسناً، حسناً قال يوسف، أنني أعرف أنكم جئتم إلى هنا جواسيس وحسب، وما هدفكم سوى تحديد نقاط الضعف التي قد يستطيع شعبكم اختراقها واحتلال البلاد.

ولكن كيف كان اليهود سيحتلون مصر وهم يتألفون وقتئذ من عائلة يعقوب وحدها، لأن عيسو أصبح رئيس الآدوميين بعد أن سرق يعقوب بركة اسحق منه؛ بينما كانت مصر بلاداً قوية واسعة تغص بالسكان، وقد غدت أم الدنيا بفضل احتياطيها من المواد التموينية، وبفضل خصوبة خيال مؤلف سفر التكوين.

ـ لكي أعرف ماإذا كنتم صادقين أم لا ـ تابع يوسف حديثه ـ سألقي بكم في السجن ما عدا واحداً عليه أن يمضي إلى أرضكم ويأتيني بأخيكم الصغير.

ـ ثم أرسل العشرة إلى السجن فعلاً. وبعد ثلاثة أيام أتوه بهم ثانية. فقال:

ـ قد غيرت رأيي، وسأبقي واحداً منكم في السجن فقط، وليذهب الآخرون بالقمح. ولكن عليكم أن تعودوا سريعاً ومعكم صغيركم، أو سيموت رهينتكم في السجن عندي.

ثم اختار يوسف شمعون رهينة واطلق الآخرين؛ واصر رجاله أن يعيدوا نقود اخوته فيضعونها لهم في أكياس القمح دون علمهم. ولكن أحدهم فتح كيسه في الطريق ليطعم دابته، وكانت دهشته كبيرة لما وجد نقوده فيه؛ ثم اكتشف الآخرون أن نقودهم وضعت في أكياسهم أيضاً، الأمر الذي جعل الدهشة قلقاً. وعندما وصلوا أرض كنعان اخبروا العجوز بما وقع لهم. فرفض يعقوب كل حديث عن ارسال بنيامين إلى مصر، ولكنه اضطر إلى الاذعان للامر الواقع، بعد أن نفذ القمح، فقال:

ـ إذا كان لا بد من ارسال الولد معكم، فافعلوا ما ترونه مناسباً، خذوا

معكم الثمار والبلسم، والعسل، والبلسان، ولاذناً، وفستقاً، ولوزاً، وخذوا أيضاً ضعف الفضة التي وجدتم في الأكياس، وقدموا هذا كله هدية لذلك الرجل.

ـ وها هم أبناء يعقوب في مصر ثانية. وما أن رأى يوسف بنيامين معهم حتى زاد في اكرامهم وأمر باطلاق سراح شمعون، ثم أقام وليمة فاخرة على شرفهم، ولما أرادوا اعادة نقود القمح الأول، رفض يوسف أن يأخذها مؤكداً أن حسابات صندوقه كاملة لا نقص فيها. وقال:

ـ يبدو أن يهوه هو من وضع لكم النقود في الأكياس..

هذه القصة الساذجة التافهة، نجدها في الاصحاح الثالث والاربعين من سفر التكوين. فيوسف لم يكن بعيداً عن المكر والخداع، على الرغم من طيبته وحسن طويته. إذ بينما كان أخوته يأكلون ويشربون ويمرحون، أمر خادمه أن يضع كأسه الفضية الرائعة بين أشياء بنيامين. ولما انتهت الوليمة، أذن للرجال بالرحيل إلى عجوزهم. ما إن ابتعدت القافلة، حتى أرسل خادمه ليلحق بها مع كوكبة من الفرسان. فأدركوهم ووجه الخادم لهم تهمة سرقة الكأس قائلاً: لقد سرقتم كأس الحاكم الثمينة "التي يرجم بها" (تكوين ٤٤ ، ٥).

إذاً، كان ابن يعقوب المدلل أول من "بصّر في فنجان القهوة". غني عن القول إن ابناء يعقوب رفضوا تهمة السرقة وقالوا: نحن لا نسرق أبداً، وقد رأيتم أننا حملنا إليكم الفضة التي وجدناها في أكياسنا. ثم وافقوا على البقاء عبيداً طيلة حياتهم، إذا وجدت تلك الكأس اللعينة بين أشياء أي منهم، بل وليمت موتاً من سرقها. وبدأ البحث. وليس صعباً علينا أن نتصور قوة الصاعقة التي نزلت على رؤوس افراد شعب يهوه عندما عثر

على الكأس بين أشياء بنيامين نفسه. ولكن ما العمل والدليل يصفع بقسوة؟

وهكذا أعيد الرجال إلى مصر ثانية، وهم يائسون يرثى لحالهم. ولكن لحسن حظهم أن يوسف كان قد قرر التخلي عن هذا المزاح الثقيل. فما أن التقاهم ثانية حتى اظهر نفسه لهم وغفر فعلتهم الشنيعة به. عندئذ حل الفرح وكان عميماً؛ ولا أظنني بحاجةإلى خيال خصب لاتصور الوليمة الفاخرة التي أقامها رئيس الوزراء احتفالاً بالنهاية السعيدة.

ثمة تفصيل واحد في هذه القصة، يثير الفضول. فالتورات تتحدث عن بنيامين كما عن طفل صغير لم يتجاوز أعوام الطفولة. ولكن إذا عدنا إلى قصة ولادته، التي كلفت راحيل حياتها، لاتضح لنا أن بنيامين لم يكن أصغر من يوسف بأكثر من أربع أو خمس سنوات. فعندما بيع يوسف عبداً كان عمره سبعة عشر عاماً، وقصة ثامار زوجة ولدي يهوذا، شكلت فترة لا تقل عن عشرين عاماً، أي أن يوسف كان في حوالي الأربعين من عمره، عندما وجده أخوته في مصر. أما بنيامين الصغير، فكان قد ابتعد كثيراً عن سن الطفولة، لكن التورات ضعيفة جداً في علم الحساب، وهنا مقتلها.

لقد فرح فرعون مصر فرحاً عظيماً للقاء رئيس وزرائه باخوته. وطلب يوسف من اخوته أن يمضوا في الحال إلى أرض كنعان ويأتوا بالعجوز الذي ينتظر هناك؛ فقد قرر أن يسكنهم في أرض جاسان[1] المصرية ريثما يتراجع الجوع. ووافق فرعون على الفكرة.

"فقال فرعون ليوسف: قل لاخوتك، اصنعوا هذا: حملوا دوابكم وانطلقوا وادخلوا أرض كنعان، وخذوا أباكم وبيوتكم وتعالوا إلي فأعطيكم خير أرض مصر، وتأكلوا دسم الأرض. وأنت مأمور أن تقول لهم، اصنعوا هذا: خذوا لكم من أرض مصر عجلات لاطفالكم ونسائكم واحملوا

أباكم وتعالوا؛ ولا تحزن عيونكم على أثاثكم، فإن خير جميع أرض مصر هو لكم" (تكوين ٤٥ ، ١٧ ـ ٢٠)..

لا ريب أن قارئي الكريم يدرك صعوبة وصف سعادة يعقوب عندما علم أن يوسف حي يرزق، وأي رزق! فقد فقد وعيه وسقط أرضاً، ولما عاد وعيه إليه قال: "أمضي وأراه قبل أن أموت"..

وها هو يعقوب يرحل إلى البلاد التي يشغل ابنه فيها منصب رئيس الوزراء. فخرج يوسف للقاء البطريرك الشيخ وهو يركب أكثر عرباته فخامة، ولما التقاه تعانق الرجلان وبكيا فرحاً.

ثم يلي ذلك تعداد "النفوس القادمة من آل يعقوب إلى مصر، من خرج من صلبه، ذلك سوى نسوة بنيه ستة وستون نفساً" (٤٦ ، ٢٦)؛ ولنتذكر هنا أن يوسف قال لاخوته واقاربه كلهم" "إذا استدعاكم فرعون وقال لكم: ما حرفتكم؟ قولوا: كنا ذوي ماشية منذ صغرنا إلى الآن، نحن وآباؤنا جميعاً، لكي تقيموا بأرض جاسان، لأن كل راعي غنم هو عند المصريين رجس" (٤٦ ، ٣٣ ـ ٣٤)..

وقال فرعون نفسه ليوسف: "أبوك واخوتك قدموا عليك، فهذه أرض مصر بين يديك، انزلهم باجودها، ليقيموا بأرض جاسان، وإن كنت تعلم أن فيهم ذوي حذق، فاقمهم وكلاء على ماشيتي" (٤٧ ، ٥ ـ ٦).. إذاً كان لفرعون قطيعه؟ وسنرى أيضاً أن شعبه كان يملك غير قليل من الحيوانات. فمن أين جاءت التورات إذاً بقولها: إن المصريين يكرهون الرعاة ويحتقرونهم؟

الفصل الرابع عشر..

حكمة يوسف في ادارة مصر..

ألا يريد سيدي القارئ أن يتعرف معي إلى حكمة يوسف في ادارة الدولة؟ إنها قصة البر والتقوى!

"وجمع يوسف جميع الفضة التي في أرض مصر وفي أرض كنعان بالميرة التي كانوا يبتاعونها وادخلها بيت فرعون. فلما نفذت الفضة من أرض مصر ومن أرض كنعان.. أقبل المصريون إلى يوسف قائلين: اعطنا طعاماً لئلا نموت أمامك، فإن الفضة قد نفذت. فقال لهم يوسف: إذا كانت فضتكم قد نفذت فهاتوا ماشيتكم، ابعكم بماشيتكم، فجاؤوا يوسف بماشيتهم، فاعطاهم طعاماً بالخيل وبالماشية، من الغنم والبقر والحمير، أعطاهم طعاماً بكل ماشيتهم في تلك السنة" (تكوين ٤٧ ، ١٤ ـ ١٧).

من الجدير ذكره أن هذا كله وقع في العام الثالث للجوع: الجفاف كان قوياً إلى حد منع القمح أن ينبت للعام الثالث على التوالي، وإذا كانت الأرض قد رفضت أن تنبت القمح، فإنها لم تنبت العشب أيضاً. ولكن ماذا كان القطيع يأكل؟ ألم تُفِدِ التورات بأنه كان عند المصريين قطيع كبير، مع أنهم كانوا "يكرهون" تربية الحيوانات ورعيها؟

إن ما يثير دهشتنا أيضاً، أن المؤلف "المقدس" يلزم الصمت التام حيال الفيضان الدوري لنهر النيل، وهو الشرط الذي يشكل أساس الزراعة المصرية. ونحن نرى في هذا التجاوز أساساً كافياً لاعتبار قصة السنوات السبع العجاف مجرد اختلاق لا أساس له، لأنه عن غير المعقول قط ألا يفيض النيل سبع سنوات متتالية، وقد كان من شأن مثل هذا التبدل في الظاهرات الطبيعية أن يغير وجه البلاد إلى الأبد. وكان الأمر يتطلب اقامة سد عملاق ليمنع امتلاء أعالي النيل بمياه الأمطار الاستوائية الغزيرة، وإلا فالفيضان السنوي واقع لا مرد له. غير أن مثل تلك المنشأة كان سيجعل من أثيوبيا كلها مستنقعاً مقفراً. أما إذا كانت الامطار السنوية قد امتنعت عن الهطول في المنطقة الافريقية الحارة طوال سبع سنوات، لتوجب أن تتحول المنطقة الاستوائية كلها إلى منطقة ميتة لا حياة فيها. اضف إلى هذا أنه كان شأن مثل تلك الجائحة أن تأخذ حجم كارثة من تلك الكوارث التي بدلت وجه مناطق كثيرة في العالم، وعندئذ كان لا بد أن يشار إليها في تاريخ المصريين، وهم شعب أكثر عراقة وقدماً من اليهود بكثير، علاوة على أن تاريخهم مدون بتفاصيله.

"ولما تمت تلك السنة اتوا إليه في السنة الثانية وقالوا له: لا نخفي عن سيدي أن، الفضة والمواشي أصبحت كلها عنده، ولم يبق أمام سيدي إلا أجسادنا وأرضنا، فلماذا نموت نحن وأرضنا جميعاً؟ اشترنا وأرضنا بالخبز، فنصير وأرضنا عبيداً لفرعون، وأعط بذاراً لنحيا ولا نموت، ولا تصير أرضنا قفراً.

فاشترى يوسف كل أرض مصر لفرعون، فقد باع المصريون حقولهم لأن الجوع اشتد عليهم، فصارت الأرض لفرعون، وأما الشعب. وجعل

الشعب عبيداً له من أقصى مصر إلى أقصاها. إلا أنه لم يشتر أرض الكهنة. لأنه كانت للكهنة فريضة من فرعون. فأكلوا فريضتهم التي أعطاها فرعون. لذلك لم يبيعوا أرضهم.

فقال يوسف للشعب: إني قد اشتريتكم اليوم وأرضكم لفرعون. هوذا لكم بذار فتزرعون الأرض؛ وتؤدون خمس المحصول إلى فرعون، والأربعة الاخماس تكون بذاراً للحقل وطعاماً لكم ولمن في بيوتكم، وطعاماً لاودكم. فقالوا: أحييتنا، ليتنا نجد نعمة في عيني سيدي فنكون عبيداً لفرعون" (تكوين ٤٧ ، ١٨ ـ ٢٥).

غني عن القول، إن هذه الطريقة في ادارة البلاد، كان يجب أن تجلب ليوسف مجد الظالم المستغِلّ، وليس مجد الطيب البار، كما تصوره التورات. وإذا كانت هذه القصة صحيحة، وإذا كان الشعب قد آمن حقاً بأن حاكمه كان يفعل خيراً في سنوات الجوع الأولى، فإن ما فعله يوسف في سنوات الجوع الأخيرة، لا مبرر له سوى البلاهة. فما فعله يوسف بالمصريين كان سابقة فريدة في تاريخ البشرية، وهو سلوك يتسم بالخسة والنذالة وحسب. ولو فعل أي رئيس وزراء، في أي مكان وزمان، ما فعله يوسف لوطئه الشعب بالنعال. ولكن لحسن الحظ أن هذه القصة السخيفة ليست أكثر من سابقة غبية لا وجود لها. فمن العبث أن يشتري المرء بهائم البلاد كلها، في وقت امتنعت الأرض فيه أن تطلق العشب من جوفها. ولو استطاعت المراعي أن تعطي شيئاً ما، لحذت الحقول حذوها، ومن المعروف أن أرض مصر هي أرض رملية، ولذلك فإن الفيضانات وحدها كافية لنمو العشب والنباتات الأخرى. وإذا صدقنا أن الفيضان امتنع طيلة سبع سنوات، فإن هذا يعني أن القطيع كان يجب أن ينفق كله، عدا عن ذلك،

أن ذلك العام كان العام الرابع للجوع، فما الفائدة من توزيع البذار على الشعب إذا كانت الأرض لن تعطي محصولاً خلال ثلاث سنوات أخرى؟ إن هذه السنوات العجاف السبع هي، واحدة من أكثر السابقات الخرافية بين تلك التي نقلها "ذكر الحمام" إلينا في سفر التكوين.

ويلفت النظر أيضاً، ذلك الاحترام الكبير الذي يكنه المؤلف "المقدس" للكهنة المصريين، فهم وحدهم الذين حظوا باحترام يوسف، وأرضهم لهم. ولما سقط الشعب كله في هوة العبودية، بقي الكهنة يطعمون على حساب الجوعى. إذاً، فالتورات تحتوي على عقائد يحاول "ممثلو الله على الأرض" حشوها في الوعي الشعبي. وفي هذا المشهد بالذات، تحاول التورات أن تملأ الشعوب احتراماً لكهنة أي عبادة كانت. ولذلك يجب على الكهنة ألا يلتهم أحدهم الآخر، بل أن يغسل واحدهم يدي أخيه في ظلم الناس وإذلالهم!

ثم تتابع "الحمامة"، أو "البطة" إذا شئتم، روايتها فتقول: امضى يعقوب سبعة عشر عاماً أخرى في مصر، ومات عن مائة وسبعة وأربعين عاماً. وقد كرست التورات اصحاحين كاملين (٤٨ و٤٩) للبركات التي سكبها البطريرك المحتضر. لقد بارك يعقوب ابناءه الاثني عشر الذين كانوا قد تحلقوا حوله. لكنه لاحظ وجود غريبين في البيت فسأل عنهما؛ فقال له يوسف. إنهما ولداه، إذاً على امتداد السبعة عشر عاماً التي قضاها يعقوب في مصر، لم يتسن له التعرف بعائلة ولده الأثير! كما لم يجد يوسف ما يكفي من الوقت ليدعو أباه مرة واحدة إلى بيته!

على أي حال هذا شأنهما. ولنعد الآن إلى البركات التي منحها البطريرك العجوز لابنائه، فهي ليست خالية من اللوم وبعض الحقد. فرأوبين

فقد حق البكورية جزاء له على تزيين رأس والده بقرنين جميلين. قال يعقوب: "رأوبين أنت بكري! وأول قدرتي، فضل الرفعة، فضل العزة؛ فائراً كالماء، ولا تتفضل، لأنك صعدت على مضجع أبيك ودنسته، على فراشي صعد" (تكوين ٤٩ ، ٣ - ٤).

وفي ذلك اليوم اكتشف العجوز مرة أخرى أنه كان يريد أن يزوج دينه الصغيرة إلى الأمير شكيم، وأنه يدين المجزرة التي ارتكبها شمعون ولاوي، ولذلك لم يمنحهما حق البكورية الذي حرم رأوبين منه، أضف إلى ذلك أنه أدان عنفهما بحزم: "شمعون ولاوي اخوان، آلات ظلم سيوفهما؛ في مجلسهما لا تدخل نفسي، بمجمعها لا تتحد كرامتي، لأنهما في غضبهما قتلا انساناً، وفي رضاهما عرقبا ثوراً؛ ملعون غضبهما فإنه شديد، وسخطهما فإنه قاس أقسمهما في يعقوب وافرقهما في اسرائيل" (٤٩ ، ٥ - ٧).

يرى اللاهوتيون أن ما نطق به يعقوب على فراش الموت هو، نبوءات. ولكن من الطريف أن نرى لاحقاً، أن أحفاد لاوي لم يكونوا عاثري الحظ أبداً. فإليهم بالذات منح حق وراثة اسرائيل بخيراته وامتيازاته كلها.

قصارى القول، كان يجب على يعقوب أن يعطي البكورية إلى يوسف، بكره من راحيل الحبيبة؛ يوسف عزاء شيخوخة يعقوب ومصدر فرحه وثروة بيته. لكن يعقوب اختار يهوذا؛ يهوذا الذي حرض اخوته على بيع يوسف عبداً إلى تجار غرباء؛ يهوذا الذي ضاجع كنته، أرملة ولديه، كان هو الأقرب إلى قلب يعقوب، وله أعطى العجوز المحتضر حق البطريركية الذي كان جزءاً من تركته الالهية.

"يهوذا! إياك يحمد اخوتك، يدك على قفا اعدائك، يسجد لك بنو

أبيك؛ يهوذا جرو أسد. من فريسة صعدت يا ابني. جثا وربض كأسد وكلبوة، من ينهضه؟ لا يزول قضيب من يهوذا أو مشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون (أي الموفق، المصالح ـ المترجم) وله يكون خضوع شعوب. رابطاً بالكرمة جحشه وبالجفنة ابن أتانه، غسل بالخمر لباسه وبدم العنب ثوبه. مسود العينين من الخمر، ومبيض الاسنان من اللبن" (٤٩ ، ٨ ـ ١٢).

أما ابناء يعقوب الآخرين، فقد تلقوا بركات أقل تعقيداً بكثير. وعلى الرغم من أن يوسف لم يرث بطريركية يعقوب، إلا أنه حظي ببعض الكلمات الطيبة. ثم أرغم يعقوب أبناءه على التعهد بنقل رفاته من مصر ودفنها في مغارة الكفيلة التي في أرض كنعان، حيث يرقد ابراهيم وسارة واسحق ورفقة وليئة. "ولما فرغ يعقوب من توصية بنيه، ضم رجليه إلى السرير وأسلم الروح وانضم إلى قومه" (٤٩ ، ٣٣)..

بعد وفاته، حظي هذا العجوز المزاوج بتكريم غير عادي، فقد حنطوا جسده، ونقل إلى ارض كنعان حيث دفن في المغارة إياها. وإذا صدقنا رواية التورات، فقد حزن عليه المصريون وبكوه طيلة سبعين يوماً.

ثم عاش يوسف حتى أفول نجمه وهو يعيل اخوته وعائلاتهم الكبيرة. وقد أحاط به أحفاده وابناؤهم، ومات عن مائة وعشرة أعوام. وتدعوه المسيحية "قديساً صديقاً"..

الفصل الخامس عشر

حبيب الله الجديد، موسى..

الخروج هو، السفر الذي يروي قصة فرار اليهود من مصر وتيههم في صحراء سيناء؛ ثم أضيف إليه سفر اللاويين. فسفري العدد والتثنية. وتفيد التورات بأن رحلة اليهود من مصر إلى أرض كنعان استغرقت أربعين عاماً، فتعالوا معنا إلى خريطة شبه جزيرة العرب وفلسطين لنتتبّع القافلة. لقد خرج اليهود من مصر "أمام بعل صفون" (خروج ١٤ ، ٢ ، ٩).. الذي يسمى الآن بالسويس. فقد زعم أنهم عبروا البحر الأحمر في هذا المكان، ثم ساروا على امتداد الساحل الشرقي لخليج السويس وانحدروا إلى رفديم عبر المنطقة الجبلية في سيناء. وفي الجزء الجنوبي من شبه جزيرة سيناء، انعطفوا نحو الشمال الشرقي إلى سيروت (عين العدرا). وصعدوا من هناك شمالاً متجاوزين البحر الميت من جهة الشرق، ليصلوا إلى أريحا.

هذه الطريق كلها لا يتجاوز طولها الالف كيلو متر. ولو أَن مشوها أعرج سار فيها لقطعها ماشياً، في ثلاثة أشهر، جاعلاً له استراحة في كل خان من خانات الطريق، أما شعب يهوه المختار، فقد صرف أربعين عاماً من

الزمن ليقطعها. إنه لهراء يثير السخرية، ومع ذلك يقدمه الكهنة اليهود والمسيحيون إلى مائدة المؤمنين الذين يلتهمون كل ما يقدم إليهم دون أي تساؤل. ولو أنهم حملوا أنفسهم عناء التفكير قليلاً وهم يقرؤون سفر الخروج، لعجبوا، في أضعف الايمان، من أن موسى لم ينوه بكلمة واحدة إلى تاريخ الدولة المصرية، وسياستها، أو ديانتها، أو قوانينها، أو أخلاقها، أو آثارها؛ وهو الذي عاش في قصر ملكها سنين طويلة، وهي التي كانت عندئذ تتربع على عرش حضارات تلك الازمنة. لقد كان المصريون في عصر موسى يقفون في طليعة الشعوب المثقفة. ففي تلك الحقبة ازدهرت مدينتا طيبة وممفيس، ويبدو أن مؤلف سفر التكوين لم يسمع بهما قط. كما أنه لم يكتب كلمة واحدة عن المدن المصرية الغنية الأخرى التي نالت شهرة عالمية واسعة في زمن موسى. أما فيما يخص حكام مصر آنئذ، فإن المؤلف "المقدس" يدعوهم فراعنة كلهم على حد سواء، غير عارف أن فرعون ليس اسماً، فمن المعروف أن المصريين دعوا ملوكهم فقط، "بالفراعنة"، تماماً كما يدعو اليابانيون حكامهم اليوم "بالميكادو".

وعندما يتحدث موسى عن عدد مختلف من ملوك مصر، وينسب إليهم احداثاً تفصل بعضها عن بعض قرون عدة، دون أن يجد لهم إسماً سوى "فرعون"، فإنه يشبه بذلك مؤرخاً مزعوماً يقول في هرائه بصدد تاريخ روسيا، مثلاً: "صاحب الجلالة القيصرالملك"، عندما يدور الحديث عن إيفان الرهيب، بطرس الأكبر،نيقولاي الأول، دون أن يدعو أياً منهم باسمه. ومثل هذا المؤلف ليس أكثر من جاهل يضلل قارءه؛ فكيف يمكننا أن نقف موقفاً جدياً من مؤلف سفر التكوين؟ إنه يعرض لنا بدقة متناهية، أسماء أقل الحكام شأناً، عندما يجري الحديث عن ممالك انقرضت ولا يمكن التحقق من وجودها أصلاً، بل ولم يكن لها أي وجود واقعي، وفي

أغلب الظن أنه ابتدعها، كسدوم وعمورة وجرار. أما عندما يتعلق الأمر بدولة تاريخية هامة ومعروفة مثل مصر، فإن معلوماته تغدو ضحلة لدرجة، أنه لا يميّز، إذا كان يتحدث عن تحوتمس، أمنحوتيب أو رمسيس. إذاً معلومات مؤلف سفر التكوين مفصلة عندما لا يمكن التحقق منها، وهي مجرد جمل انشائية عامة، عندما يحتاج إلى ان يتفادى الدقة التي ستكشف النقاب عن اختلاقاته المفضوحة.

أما اللاهوتيون، الذين أعلنوا "الاسفار الخمسة" أعلى درجات تجلي الحقيقة، فلم يستطيعوا أن يروا في حينه، ما سيكتشفه الآثاريون في مصر؛ وحددوا بهدوء وثقة، زمن وجود العالم، على أساس الخرافات التوراتية. فحسب الحسابات الرومانية الكاثولوكية، أن "خلق العالم" وقع قبل ٤٠٠٤ أعوام قبل ما أسموه بميلاد المسيح، وأن الطوفان الكوني حدث في عام ٣٢٩٦[١] قبل الميلاد المذكور. بيد أن القائد العسكري المصري المعروف مينا الذي أسس أول سلالة فرعونية كان قد وحد مصر في مملكة قوية جبارة قبل ٣٢٠٠ عام من بداية التقويم المسيحي.

لقد قرؤوا الآثار المصرية وفكوا رموزها، وقرؤوا سفر القرون الذي كان مكتوباً على حجارة المعابد والنصب التذكارية؛ وأصبح تاريخ الفراعنة العظماء، وتاريخ المعابد والمدن، معروفاً لنا. وفيما يخص "خروج" اليهود من مصر، وهو الحدث الذي ينسبه اللاهوتيون إلى بداية القرن الخامس عشر قبل الميلاد، فيجب أن يكون قد حدث في عهد الفرعون تحوتمس الثالث أو امنحوتيب الثالث. ولكن تاريخ حكم هذين الفرعونين لا يتوافق مع رؤية سفر الخروج. فقد أخضع هذان الملكان الجباران لسلطتهما كلا من: أثيوبيا، شبه جزيرة العرب، بلاد الرافدين، كنعان، نينوى وجزيرة قبرص. كما كان

الفينيقيون و الارمن من اتباعهم. وانتشرت أنباء نجاح اسلحتهم انتشاراً واسعاً في غربي آسيا. لقد وصلتنا لائحة طويلة باسماء الملوك والشعوب التي خضعت لسلطة فراعنة مصر آنئذ. ولكن لم تصلنا أي معلومات عن أي فرعون مات بالطريقة المهينة التي تحدثت التورات عنها. ونحن إنما سقنا هذه المعلومات الأولية. لنوضح طريق تتبع اسطورة موسى بوعي ومعرفة.

وهكذا قارئي الكريم، تكاثر الستة والستون يهودياً في مصر تكاثراً لا مثيل له، فقد امتلأت تلك الأرض منهم" (خروج ١ ، ٧). وكان الفرعون الذي حكم مصر وقت ئذ، قد نسي ما قدمه يوسف لمصر من خدمات. كان ذلك الفرعون صارماً وقاسياً جداً (سندعوه بالاسم الذي دعته التورات به). فدعا إليه القابلتين اليهوديتين، السيدة شفرة والسيدة فوعة، وأمرهما بقتل كل ذكر تلده امرأة يهودية، ولكنهما لم يمتثلا لأمر فرعون هذا، ولما دعاهما إليه وسألهما عن عدم تنفيذهما امره المذكور قالتا له: "إن النساء اليهوديات لسن كالمصريات؛ فإنهم قويات يلدن قبل أن تأتيهن القابلة" (١ ، ١٩)..

عندئذ اصدر فرعون أمره برمي مواليد اليهود الذكور في نهر النيل، فزرع بذلك يأساً قاتلاً في العائلات اليهودية. ومما سهل تنفيذ هذا القرار، كون اليهود عبيداً عند المصريين، وليس لهم أي حق من حقوق الحماية؛ وكان موظفو فرعون قد سلبوهم أبسط الحقوق الانسانية العادية، وأرغموهم على تأدية أكثر الاعمال مشقة وقذارة.

ولكن ها هي احدى الوالدات اليهوديات تتمكن من اخفاء وليدها عن أعين رجال فرعون طيلة ثلاثة أشهر. ولما أيقنت أنها لن تستطيع اخفاءه أكثر من ذلك، أخذت الطفل فوضعته في صندوق طلته بالقار، ثم رمت به بين

الحلفاء على ضفة النهر[٢]. وطلبت إلى أخته أن تراقبه من بعيد. وفي اللحظة المنتظرةجاءت ابنة فرعون لتستحم في النهر مع رفيقاتها.

بيد أن المؤلف "المقدس" سها عن قول كلمة عرفان أو مديح في جرأة الاميرة الشابة التي جاءت تعوم في نهر كان يعج بالتماسيح، وهو ضرب من الشجاعة تستحق الاميرة عليه مديح القارئ. علاوة على هذا، كان قصر فرعون في ممفيس "مجرى النيل الأوسط"، والمسافة بين ممفيس وجاسان التي استوطنها اليهود، تبلغ أكثر من ثمانين كيلومتراً. ولكن الاميرة ظهرت على أي حال، وفي الوقت المناسب، فكل شيء في الكون يقع وفق مشيئة يهوه التوراتي، أي أن مشيئته هي التي رمت صغار اليهود في النيل طعاماً لتماسيحه؛ بيد أنه شاء أن ينقذ هذا الطفل وفقاً لخططه المستقبلية. وغني عن القول أيضاً، أن يهوه نفسه أرسل ابنة فرعون لتستحم على بعد ثمانين كيلومتراً من قصر أبيها، وكان قبل ذلك قد جعلها تتجاوز خوفها من التماسيح والجواميس النهرية. ولقد حدث كما أرادت النبوأة بالضبط: عثرت الأميرة على الصندوق، وهز مشاعرها بكاء الطفل الذي أدركت لتوها أنه يهودي صغير. ثم جاءت الام، فعهدت ابنة فرعون إليها ارضاعه لقاء اجر سخي، ثم رحلت سعيدة بعملها النبيل. وبعد فطام الصبي جاءت أمه به إلى الأميرة التي تعلقت به كثيراً، وهي التي دعته موسى؛ ويزعم أن اسمه هذا يعني "المأخوذ من المياه"، ثم توسلت أبيها والحت في توسلها إلى أن وافق على بقاء اليهود في قصره.

لقد فتن موسى الملك وابنته ومن في القصر كلهم، وكان واضحاً بالطبع، إن مستقبلاً باهراً بانتظاره. وفي أحد الايام رأى موسى مصرياً يضرب يهودياً. فقتل المصري، ثم هرب لاجئاً إلى أرض مديان، وهي بلاد

تقع في جنوب شرقي شبه جزيرة سيناء. لكننا نحذر هنا من الخلط بين هذه البلاد، ومقاطعتين أخريين تطلق عليهما التورات الاسم نفسه؛ وقد نسبت موقعيهما إلى المنطقة الواقعة شمالي بحر إيلات (خليج العقبة). وشرقي البحر الميت. بيد أن التورات تخلط خلطاً عجيباً بين أراضي مديان هذه. فهل فقد "الروح القدس" الخارطة التي زوده بها العجوز يهوه، وركن إلى ذاكرته التي ظهر أنها في غاية الضعف؟ أم أنه اعتمد على سذاجة المؤمنين فقط؟

في مديان الأولى يتعرف موسى إلى كاهن وثني اسمه يثرون، وهو أب لسبع بنات أسرت المدعوة منهن صفورة قلب الهارب الشاب، فعقد قرانه عليها وطال شهر العسل؛ وها هو موسى أب سعيد لغلام دعاه جرشوم.

وفي أثناء ذلك، كانوا قد جعلوا من الفرعون الحاكم، مومياء، ولكن خليفته تابع سياسة البطش باليهود، وزاد من وطأة العبودية عليهم. عندئذ تذكر يهوه وعده لابراهيم واسحق ويعقوب، ونسي اساءات اليهود إليه، كما نسيها موسى بدوره..

كان يثرون صاحب قطيع، وكان يطلب من صهره أن يسرح به أحياناً، وفي أحد الأيام وصل موسى بالقطيع إلى جبل حوريب التابع لمنطقة سيناء الجبلية، ولكن ذلك الجبل كان يقع بعيداً عن جبال سيناء. وفجأة رأى موسى عليقة تشتعل ولا تحترق.

فوقف وقد عقدت الدهشة لسانه: "فناداه الله من وسط العليقة" (خروج ٣ ، ٤).. وأمره أن يخلع نعليه. فامتثل موسى لامر يهوه. وبعد ذلك أعلن له هذا الأخير أنه يلقي على عاتقه مهمة كبيرة؛ عليه أن يمضي إلى مصر ليعرض على فرعونها تحرير اليهود من العبودية، والسماح لهم بالخروج من

مصر، الأمر الذي لم يوافق فرعون عليه إلا بعد أن رأى بعضاً من عجائب موسى..اضافة إلى هذا كان على موسى أن يرفع من معنويات ابناء جلدته. فسأل الرؤيا المشتعلة في العليقة عن اسمها. "فقال الله لموسى: أَهيّه الذي أهيه. وقال: هكذا تقول لبني اسرائيل: أهيه أرسلني إليكم" (خروج ٣ ، ١٤). ومن النصائح التي زود يهوه موسى بها لرحلته القادمة إلى مصر، النصيحة التالية: "تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها، امتعة فضة، وامتعة ذهب، وثياباً، وتضعونها على بنيكم وبناتكم، فتسلبون المصريين" (٣ ، ٢٢).

ولكن موسى عبر عن شكه في أن يصدقه بنو اسرائيل، فما بالك فرعون نفسه؛ عندئذ وفي الحال، منحه يهوه القدرة على صنع "العجائب". فقد تحولت العصا التي كان يحملها صهر يثرون، إلى أفعى، ثم عادت إلى ما كانت عليه. وقال يهوه أيضاً: "ادخل يدك إلى عبك"، فأدخلها، ولما أخرجها كانت بيضاء كالثلج، من البرص؛ ثم أعادها بأمر يهوه، إلى عبة ثانية وأخرجها، فإذا هي عادت إلى طبيعتها وعلم يهوه موسى كيف يحول الماء دماً والدم ماء[٣].

ومع ذلك بقي موسى متردداً، فقال ليهوه: إن التأتأة تعيقه أن يكون خطيباً ناجحاً يلهم الشعب. ومع أن يهوه غضب من موقف موسى، إلا أنه لم يشف لسانه من التأتأة، وهذا كان ينبغي عليه أن يفعله، بل رأى، ولتكن مشيئته، أن يعطيه هاروناً أخاه مساعداً له. ومن الجدير أن نلاحظ هنا، أن هاروناً كان يعيش في مصر حياة علنية عادية، ونحن لا ندري أبداً، كيف تسنى لامه أن تنقذه من جلادي فرعون.

بعد هذا الحديث الطويل مع الرؤيا، ودع موسى حماه ورحل ومعه

زوجته وولداه. "وحدث في الطريق أن الرب التقاه في النزل ليلاً، وطلب أن يقتله فأخذت صفورة صوانة وقطعت عزلة ابنها ورمت بها عند قدميه وقالت: إنك عريس دم لي" (٤ ، ٢٤ ـ ٢٥)..

الفصل السادس عشر

قصة الكوارث العشر في مصر.

خرج هارون ليلاقي موسى، وكان يهوه قد أخبره مسبقاً بقدومه؛ وبعد أن اطلع منه على تفاصيل المهمة التي القيت على عاتقهما، توجها معاً إلى فرعون. لكن هذا الأخير لم يلق بالاً لحديث الرجلين، بل زاد قسوة اضطهاد اليهود.

ثم تروي التورات أن هاروناً جاء إلى فرعون ورمى عصاه أمامه، فتحوّلت حسب قول يهوه، إلى أفعى. ولكن عصيّ الكهنة المصريين الذين استدعاهم فرعون، تحوّلت بدورها إلى أفاعي، فابتلعتها أفعى هارون. وبهذا تكون العجيبة الأولى في حمل فرعون على تحرير اليهود قد فشلت.

وفي اليوم التالي حوّل هارون مياه النيل إلى دم "أمام عيني فرعون". وفعل عرّافو مصر الفعل نفسه. فمات السمك، وحفر المصريون آباراً على ضفتي النيل ليحصلوا على المياه العذبة، لكن جهودهم فشلت. بيد أن المؤلف "المقدس" لم يبيّن لنا كيف حصل اليهود على مياه الشرب.

تلا ذلك زحف الجعلان، وقد تمكن سحرة القصر من تنفيذ هذا الملعوب أيضاً. فغطّت الجعلان أرض مصر كلها. وتبع الجعلان البعوض، ثم الذباب. ولم يتمكّن عرافو مصر وسحرتها من تكرار هاتين "العجيبتين"؛ ومع ذلك بقي قلب فرعون قاسياً ولم يطلق اليهود (خروج ٨).

وكانت الكارثة الخامسة هي، هلاك مواشي المصريين وخيولهم وحميرهم وغنمهم. ولكن هذا لم يؤثر في فرعون أيضاً؛ الأمر الذي اضطر موسى الى الكارثة السادسة، فأخذا ملئ أيديهما رماداً وذرّاه أمام عيني فرعون، فغطّت البثور أجسام المصريين كلهم. وفي الكارثة السابعة ابادت عواصف البرد والنار مزروعات المصريين كلها، ولم تنج منها سوى أرض جاسان حيث يقيم "أحباء يهوه". ونذكر هنا أن فرعون كان يوافق على اطلاق سراح اليهود، بعد وقوع كل كارثة، ثم يعود ويحنث بوعده، بعد انزياحها (خروج ٩).

الكارثة الثامنة: رفوف من الجراد التهمت ما بقي بعد البرد والنار (بيد أننا لا نعتقد أنه بقي للجراد ما يأكله، أو لفرعون ما يخاف عليه!). ثم يندم فرعون، فتحمل الرياح الجراد إلى البحر الاحمر، ويعود ليخلف وعده ويرفض اطلاق سراح اليهود. فتحلّ الجائحة التاسعة: يخيّم ظلام دامس فوق مصر. يوافق فرعون على تحرير اليهود، ولكنه يريد استبقاء مواشيهم وقطعانهم التي لم تصب بأيّ أذى جراء ما وقع (خروج ١٠).

إلى هنا ونفذ صبر يهوه، فأرسل ملائكته لتذبح كل بكر ذكر في أرض مصر، من البشر والبهائم، وكي لا تقع أخطاء (لأن المجزرة كانت ستقع ليلاً)، كان على كل يهودية أن تذبح ضأناً للعشاء، وتجعل بدمه علامة فوق عتبة البيت. ويزعم أن الفصح اليهودي نشأ عن تلك الليلة الدموية الرهيبة.

ويجب علينا أن نفترض، أن الجلادين الملائكة الذين نفّذوا أمر سيدهم الخرف، كانوا يحملون سيوفاً ومشاعل ليتبيّنوا العلامة. ولسنا نحن من يصف الملائكة بهذا الوصف بل التورات هي التي تفعل. والذي لا ريب فيه أن "الحمامة" ضحكت كثيراً عندما كانت تلقن المؤلف "المقدس" هذا الهراء كله.

"فحدث في نصف الليل، ان الربّ ضرب كل بكر في أرض مصر، من بكر فرعون الجالس على كرسيه، إلى بكر الاسير الذي في السجن، وكل بكر بهيمة. فقام فرعون ليلاً هو وكل عبيده، وجميع المصريين. وكان صراخ عظيم في مصر، لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت" (خروج ١٢ ، ٢٩ ـ ٣٠) فأرسل فرعون الى موسى وهرون متوسلاً أن يخرجا من مصر مع قبيلتهما كلها. "وفعل بنو اسرائيل بحسب قول موسى، فطلبوا من المصريين أمتعة فضة، وأمتعة ذهب وثياباً؛ وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم، فسلبوا المصريين" (خروج ١٢ ، ٣٥ ـ ٣٦).

ثم يفيدنا سفر الخروج بأن العائلات اليهودية التي بقيت في أرض جاسان من أيام يعقوب، اجتمعت كلها قبل الرحيل، في رعمسيس. وتوجه الركب منها جنوباً إلى سكوت؛ وكان عدد الخارجين ٦٠٠،٠٠٠ يهودي من الرجال، "عدا الأولاد". وانضمّ اليهم "لفيف كثير من الناس"، كما كان معهم كثير من الغنم والمواشي، وعظام يوسف.

وصل اليهود الى بعل صفّون (السويس)، وتوقفوا عند البحر. والمكان الذي تشير التورات إليه هو، الطرف الشمالي لخليج السويس. أمّا إذا كان اليهود قد اجتازوا مياهً ماحقّاً، فتلك لم تكن سوى قناة الفراعنة أي كانت تصل النيل "ببلاد البحيرات المرّة". ولكن لمّا رأى فرعون أن موسى وقومه

رحلوا، أسف لذلك أسفاً شديداً، لأنه فقد بذلك مواطنين صالحين جرّوا على بلاده ما ذكرنا من ويلات. "فشدّ مركبته وأخذ قومه معه؛ وأخذ ست مائة مركبة منتخبة، وسائر مركبات مصر، وقادةً عليها كلها. وسعى المصريون وراءهم، جميع خيل مركبات فرعون، وفرسانه، وجيشه، وأدركوهم وهم نازلون عند البحر، عند ثغر الحيروث، أمام بعل صفّون" (١٤ ، ٦ - ٧ ، ٩).

ولكن من أين جاء المصريون بأؤلئك الفرسان كلهم، وتلك العربات كلها، بعد أن أودت الجائحة الخامسة بالخيول والحمير والجمال والثيران المصرية كلها، دون استثناء؟ وتستمر التورات في اختلاقاتها فتخبرنا بأن موسى قاد اليهود عبر البحر بسرعة، وكأنهم فوق اليابسة. فقد رفع عصاه وضرب البحر بها فشقه، وفتح طريقاً ليهوده. وظنّ فرعون بسذاجته التوراتية، أن تلك الطريق كانت الطريق الأنسب بالنسبة اليه. فدخل "قاع البحر" وخلفه جيشه الجرار كله، ولم يكن موسى يريد أكثر من ذلك! فضرب البحر ثانية بعصاه، فعادت المياه إلى مجراها في اللحظة التي كان المصريون قد بلغوا فيها منتصف الطريق. "فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون، الذي دخل وراءهم في البحر. ولم يبق منهم ولا واحد" (١٤ ، ٢٨).

ومن الجدير أن نلحظ هنا، أن فرعون لم يلحق باليهود ليعمل السيف في رقابهم، بل ليعيدهم إلى مصر. ياله من ملك! لقد كان هذا الرجل يملك رأساً توراتية نموذجية لا تستقر على حال. كان عدد رجال اليهود الأقوياء المسلحين جيداً، يبلغ حوالي ٦٠٠،٠٠٠ رجل، واذا أضفنا الأطفال والنساء والأقوام الأخرى التي انضمت اليهم، فقد يصل العدد إلى ٣،٠٠٠،٠٠٠

نسمة. ولكي يتمكن أيّ قائد من أسر ذلك العدد من البشر، كان يلزمه جيش تعداده أكثر بكثير من الجيش الذي قاده فرعون عندما طارد اليهود؛ وربما كان فرعون فعل ذلك، لو لم تكن ملائكة يهوه "الكلّي الرحمة" قد ذبحت أطفال المصريين البكور، فالطفل يستطيع حمل السلاح أيضاً! وتقول التورات، ان الشعب سار وراء ملكه. ولن ننسى أن اليهود نفّذوا أمر الاله يهوه وسرقوا المصريين قبل فرارهم، ولذلك لم يتأخر أحد ممن سرقت أشياؤه الثمينة، عن مطاردة اللصوص، وعليه يجب أن نعتقد بأن ملايين المصريين غرقت مع فرعون.

ولكن مؤرخاً مصرياً واحداً لم يقل أيّ كلمة عن هذه الكارثة المفجعة التي لا مثيل لها في تاريخ الأعمال الوحشية السابقة؛ كما لم يتحدث أيّ منهم عن الكوارث العشر الشهيرة التي حلّت بالمملكة المصرية. ويحاول بعض اللاهوتيين أن يتذرع بان الشعور الوطني المصري هو الذي منع المؤرخين المصريين عن تاريخ الاحداث المذكورة ونحن نقول: فليكن الأمر هكذا فعلاً! ولكن ماذا عن المؤرخين الذين ينتسبون إلى جنسيات أخرى؟ ما الذي منع هؤلاء من تدوين تلك الأحداث المأساوية، لو أنهم سمعوا بها؟ وكيف أمكنهم ألاّ يسمعوا بها؟ فمن المعروف أن ذلك الغَرَقُ العملاق، الذي أودى بحياة المصريين كلهم، كان يجب أن يحرر مائة وخمسة عشر ملكاً كانوا يؤدون الاتاوة لفرعون مصر امنحو تيب "الغريق"! حتى هيرودوت، الذي درس تاريخ مصر دراسة جيدة، وساق كثيراً من أخبار شعبها، لم يقل كلمة واحدة عن الأحداث إيّاها.

وعلى الرغم من ذلك الكذب كله، فإن التورات لا تخجل من هذا "الخروج اللامعقول"، فتزيد: إن أبناء يعقوب وقفوا يضحكون من المصريين

حتى كادت بطونهم تتمزق. وأخذت مريم اخت هارون وموسى، الدّف وشرعت تنشد الأغاني، وطفقت اليهوديات ترقصن فرحاً، ويقول الاصحاح الخامس عشر، إن موسى أنشأ من فوره نشيداً على شرف إلهه، أنشده اسرائيل كله، ولن ننسى أن "مطربيّ" اليهود وراقصاتهم ألّفوا فرقة "فنية" تعدادها ٣،٠٠٠،٠٠٠ نسمة. وقد استطاعوا أن يحفظوا كلمات النشيد ولحنه في لحظة واحدة. آه، كما كنت أتمنى أن أشهد تلك الحفلة !يا للشيطان! كم كان ذلك ممتعاً!.

الفصل السابع عشر

بأمر الاله يهوه،

أربعون عاماً في الصحراء..

ها هم اليهود يجوبون شطراً من شبه جزيرة العرب، تغطيه الحجارة والصخور. أما هدف المسير فهو كنعان، كنعان القديمة نفسها التي شدت إليها قبل ذلك، بطاركة اليهود الاوائل، لقد تاق بنو يعقوب إلى حياة الاستقرار، فلماذا لا يمارسون حياة الحضر وقد اجتمعوا الآن في عائلة كبيرة؟ خاصة وأن موسى أكد لهم استناداً إلى أقوال العجوز يهوه، بأن أرض الكنعانيين هي، أكثر مناطق العالم خصباً، لكن الوصول إليها كان أمراً صعباً، بسبب عدم وجود طرق تؤدي إلى هناك، ولم تكن البرصلة قد اخترعت بعد.. إلا أن غيمة سماوية وقفت على رؤوس اليهود وقادتهم ليلاً نهاراً: في النهار، كانت الغيمة عموداً من دخان أسود، وفي الليل عمود نار. ويقول "الكتاب المقدس": إن يهوه نفسه كان يختبئ في "العمودين". وفي الصحراء، كان لطريقة القيادة هذه امتيازات عدة، كما كانت لها

عيوبها أيضاً؛ ومنها أنه لم يكن باستطاعة اليهود أن يأخذوا أي قسط من الراحة خلال مسيرهم، لأن الغيمة كانت تسير وتسير غير عابئة. فما العمل؟ هل يمكن ترك ذلك الدليل؟

أضف إلى هذا أن المهرج العجوز ابتكر مادة أخرى ليتسلى. فالطريق من السويس إلى أريحا تمر عبر الشمال إلى سواحل المتوسط، أما الدليل الالهي فقد اتجه جنوباً. وكي لا نجانب الحق نقول: إن يهوه وجد لشعبه المختار بعض التسليات التي هونت عليه طريقه الطويلة. لقد اتجه يهوه من بعل صفون إلى الشطر الغربي من برية شور، حيث تاهوا فيها طيلة أيام ثلاثة دون قطرة ماء واحدة يشربونها. ولما جاء هم الفرج أخيراً وسمعوا خرير الماء في مكان يدعى مارة، اندفعوا إليها ليرووا ظمأهم، لكن المياه كانت مرة!

"فتذمر الشعب على موسى قائلين: ماذا نشرب؟ فصرخ إلى الرب فأراه الرب شجرة طرحها في الماء، فصار عذباً. هناك وضع له فريضة وحكماً، وهناك امتحنه. فقال: إن كنت تسمع لصوت الرب الهك وتضع الحق في عينيه وتصغي إلى وصاياه، وتحفظ جميع فرائضه، فلن أضع عليك مرضاً مما ووضعته على المصريين، فأنا الرب شافيك.

ثم جاؤوا إلى إيليم، وهناك اثنتا عشرة عين ماء، وسبعون نخلة. فنزلوا هناك عند الماء"(خروج ١٥ ، ٢٤ - ٢٧)..

ولكن لكي تظلل النخلات السبعون جمهرة من البشر عدد رجالها المسلحين ست مائة ألف رجل، كان يجب أن تكون متباعدة كثيراً، وسعفها غاية في الطول. هكذا يتعرى في بعض الاحيان، كذب المؤلفين "المقدسين"، الذين لا تحرجهم مبالغة.

تركت القافلة إيليم واتجهت جنوباً حتى بلغت صحراء سين الواقعة في السفح الجنوبي لجبال ساحل خليج السويس. وقد قادهم هذا الاتجاه إلى المنطقة الجبلية في سيناء. وبصرف النظر عن عظمة طبيعة المنطقة، إلا أنها موحشة تماماً. أضف إلى ذلك أن المؤن نفذت، والصحراء خالية من أي خان أو بار يقدمون فيه الجعة؛ فتذمرت الملايين الثلاثة الزاحفة خلف موسى: "فتذمر كل جماعة بني اسرائيل على موسى وهرون في البرية. وقال لهم بنو اسرائيل: ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر، إذ كنا جالسين عند قدور اللحم ونأكل خبزاً للشبع. فاخرجتمانا إلى هذا القفر لكي تميتا كل هذا الجمهور جوعاً" (١٦ ، ٢ ـ ٣)..

لا ريب أن اليهود كانوا قتلوا موسى لو لم يمنحه يهوه القدرة على تلبية حاجاتهم بطريقة ليس بمقدور أي بهلواني أن يكررها اليوم. فقد ظهرت طيور السمان في تلك الصحراء على غير توقع؛ وبما أنه لم يكن عند اليهود أفران لاعدادها، فقد كانت تسقط على موائدهم مطهوة جاهزة للأكل، كما يفترض بنا أن نعتقد. ولكن لا تحسب قارئي الكريم، أن هذا كل شيء: "ففي الصباح كان سقيط الندى حوالي المحلة، ولما ارتفع سقيط الندى، إذ على وجه البرية شيء دقيق مثل قشور دقيق كالجليد على الأرض، فلما رأه بنو اسرائيل قال بعضهم لبعض: من هو؟ لأنهم لم يعرفوا ما هو: فقال لهم موسى: هو الخبز الذي أعطاكم الرب لتأكلوا...... ودعا بيت اسرائيل اسمه مناً. وهو كبزر الكزبرة ابيض، وطعمه كرقاق بعسل" (١٦ ، ١٥ ـ ٣١).

نعرف من هذا الاصحاح أن شعب يهوه المختار أصبح يحصل على جعالة يومية من المن، وقد استمرت الحال هكذا على امتداد الأعوام الأربعين التي قضاها تائهاً في الصحراء، بيد أننا بصرف النظر عن آيات المجد التي

نرفعها إلى "الروح القدس"، نجد أنفسنا مضطرين للفت انتباهه إلى، أن المنّ لا يتساقط في صحراءسيناء وحدها، بل تعرفه أماكن أخرى مختلفة في العالم: في كالابريا، فارس، تركيا وسواها. وهو يستخدم كملينّ فعال. إذاً، لقد أولى يهوه صحة يهود اهتماماً خاصاً؛ فكان يملأ بطونهم محاذراًإصابتهم بالامساك. وقد استمرت هذه العناية الاستثنائية طيلة أربعين عاماً أيضاً، وهو ما يفيدنا به الاصحاح السادس عشر من سفر الخروج.

وصل اليهود الآن إلى جبل حوريب، وكان العطش قد أخذ منهم كل مأخذ، فأحاطوا بموسى طالبين الماء، وضرب موسى الصخرة بعصاه فانبجس الماء وارتوت الملايين الثلاثة، ثم اندارت تنصب خيامها. لكن مفاجأة غير سارة كانت بانتظارهم هنا. فقد كان عماليق وشعبه يجوسان تلك البلاد؛ وكان هؤلاء الأخيرون قد كرهوا أحفاد يعقوب كرهاً شديداً. والجدير ذكره الآن أن، عماليق هو، حفيد عيسو، وهو ابن أليفاز الذي ولدته عدّا بنت إيلون الحثّي لعيسو؛ وقد أنجبه اليفاز من سريته تمناع. ولكن كيف بقي هذا الرجل على قيد الحياة ذلك الزمن كله؟ من سوء حظنا أن "الحمامة" نسيت أن تفسر هذا اللغز لنا، كما لم يجد المؤلِّف "المقدس" ما يثير الدهشة في بقاء عماليق على قيد الحياة أكثر من اربع مائة عام. لأنه كي يصير أبناء يعقوب شعباً قوياً لديه ٦٠٠،٠٠٠ ألف مسلّح، تطلّب الأمر تعاقب عدد من الأجيال. والتورات نفسها تؤكدان، المسافة الزمنية الفاصلة بين رحيل يعقوب إلى مصر، والأحداث التي يصفها كتاب الخروج هي، أربع مائة وثلاثين عاماً. أي أن عماليق كان قد بلغ الاربع مائة عام من عمره عندما هاجم اليهود في سيناء. ولم يهتم "لروح القدس" بعبء تلك السنوات على كاهل عماليق. فروى لنا عن مغامراته العسكرية بكل هدوء وراحة ضمير.

ولكن مهما كان الأمر، فإن عماليق كان رجلاً مخيفاً، لدرجة أوقعت الرعب في قلوب أحفاده من ابناء أخيه يعقوب. بيد أنه لم يكن من مخرج أمامهم سوى التصدي له، فأمر موسى قائد جيوشه يشوع بن نون أن، يجمع أفضل مقاتليه، ثم صعد هو و هارون وحور إلى جبل قريب يكشف ساح القتال. أثناء المعركة، كان موسى يقف رافعاً يده، فتميل الكفة لصالح اليهود؛ وما أن ينزلها حتى يتحوّل النصر لصالح عماليق (١٧ ، ١٩). ولما تعب أخيراً، طلب إلى هارون وحور أن يسندا يديه حتى "مغيب الشمس" فتلقى وجيشه درساًقاسياً "فهزم يشوع عماليق بحدّ السيف" (١٧ ، ١١).

في الاصحاح الثامن عشر، نلتقي بيثرون كاهن مديان، في ضيافة صهره موسى. وقد روى له هذا الأخير عما وقع لهم في طريقهم من مصر. ولم ينس موسى أن يسهب في الحديث عن "العجائب" التي صنعها؛ ويبدو أن الأمر أغرى "الكاهن" الوثني، فاعتنق دين موسى قائلاً: "الآن علمت أن الرب أعظم من جميع الآلهة" (١١)، ثم قام وقدم قرباناً للاله يهوه، وقبل أن يقفل يثرون عائداً إلى بلاده، زود صهره بعدد من النصائح، فاشار عليه أن يعطي بعضاً من مسؤولياته، وخاصة الصغيرة منها، إلى رجال تابعين له، فيقود بعضهم ألفاً، وبعضهم الآخر مائة و.... فوجد موسى النصيحة مناسبة جداً، واقام من فوره، تسلسلاً هرمياً في ادارة شؤون ملايينه الثلاثة. وفي تلك الحقبة نفسها أسس موسى مؤسسة رجال الدين، أسوة بالمصريين وغيرهم من شعوب المنطقة؛ ومنحها امتيازات كثيرة وصلاحيات واسعة. فجعل من قبيلة لاوي، أي قبيلته هو، طائفة كهنوتية، وصار أخو هارون أول كاهن أكبر، وبهذا تكون قد نظّمت شؤون العبادة في الديانة اليهودية.

وبالطبع أدعى موسى أنه اتخذ تلك الاجراءات تنفيذاً لأمر يهوه الذي

كلمه على جبل سيناء. فصعد صهر يثرون إلى قمة الجبل وحيداً، وهناك سلمه العجوز يهوه وصاياه العشر التي غدت الأساس الديني للعقيدة اليهودية. وكان سيناء محاطاً في تلك الاثناء بوميض من النار السماوية، وكانت تسمع أصوات الرعد من مختلف الاتجاهات؛ وهي علامات لا تظهر إلا إذا كان يحدث أمر عظيم الشأن. ولم ينس يهوه أن يلقن موسى القوانين المدنية أيضاً. لقد استمرت جلسات المحادثات بين موسى وإله اليهود زمناً طويلاً، "وعندما فرغ من الكلام مع موسى في جبل سيناء، أعطاه لوحي الشهادة، لوحي حجر مكتوبين باصبع الله" (٣١ ، ١٨).

وبينما موسى في خلوته مع يهوه، كان اليهود قد نسوا العجائب التي صنعها موسى لهم، بل نسوا ظهور يهوه ذاته؛ فسكبوا عجلاً من الذهب ليسجدوا له. وما يثير الدهشة هنا أن هارون أخ موسى، أي الكاهن الأكبر، هو من سكب العجل لهم، فقد جمع حلي النساء والبنات اليهوديات لهذا الغرض. ولكن التورات لم تقل لنا: من هم النحاتون، السباكون والصياغ الذين عملوا مع الكاهن الأكبر المرتد؟ ولم يستغرق سكب العجل العملاق سوى ليلة واحدة، ولو نُفِّذ العمل نفسه في معمل جيّد لاستغرق انجازه أشهراً عدة؛ أما البدو فقد انجزوه في وقت قياسي.

ولما نزل موسى من الجبل حاملاً اللوحين الالهيين تحت ابطه، ورأى العجل الذهبي في وسط معسكره وجموع شعب يهوه المختار تخر ساجدة له وتقدم القرابين وهي ترقص وتنشد، ثار ثورة لا يصعب على القارئ تصورها، ومما زاد في شد عقدة لسانه، أن هارون نفسه، ذلك الابله المعتوه الذي انتقاه له يهوه نفسه مساعداً، هو الذي كان يقود تلك الطقوس الوثنية. "فحمي غضب موسى وطرح اللوحين من يديه، وكسرهما في أسفل الجبل" (٣٢ ، ١٩).

أما مشهد تحطيم الصنم، فها نحن نقتبسه عن التورات نفسها: "ثم أخذ العجل الذي صنعوا واحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعماً، وذراه على وجه الماء وسقى بني اسرائيل" (٣٢ ، ٢٠). علينا أن نعترف هنا أن تحويل الذهب إلى "رماد" برميه في النار، عملية خفي سرها على كل حي إلا موسى، ثم مات السر مع موت زعيم اليهود. أضف إلى هذا أن التورات أوضحت لنا أن مسحوق الذهب مادة صالحة للشرب بعد حلها في الماء، وهذا ليس أمراً هيناً. فمن المعروف أن الذهب ينحل مع الكبريت،وليس صعباً على أحد أن يتخيل ذلك الطعم الذي يجعل الاحشاء تقفز في الجوف؟ بيد أن أمتع ما في هذه القصة هو، أن موسى لم يوجه اللوم إلى هارون الذي سكب الصنم بيديه الآثمتين، بل أمر اللاويين، الذي لم تكن جريمتهم أقل بشاعة من جريمة هارون، أن يحملوا أسلحتهم ويجوبوا المعسكر ويقتلوا "كل واحد أخاه، وكل واحد صاحبه، وكل واحد قريبه. ففعل بنولاوي بحسب قول موسى، وقع من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل" (٣٣ ، ٩ - ١١)..

وبعد أن هدأت ثورة يهوه، أمر موسى أن يصنع خيمة الاجتماع وينصبها خارج المعسكر ليتسنى له الثرثرة مع "النبي" متى شاء، دون أن يضطره إلى صعود الجبل كالعادة. وقد حدث ذلك على الصورة التالية: "وكان عمود السحاب إذا دخل موسى الخيمة، ينزل ويقف عند بابها، ويتكلم الرب مع موسى فيرى جميع الشعب عمود السحاب واقفاً عند باب الخيمة. ويقوم كل الشعب ويسجد كل واحد في باب خيمته. ويكلم الرب موسى وجهاً لوجه، كما يكلم الرجل صاحبه" (٣٣ ، ٩ - ١١).

ولما رأى موسى أن علاقات الصداقة بينه وبين يهوه صارت قوية ومتينة،

قرر أن يستغل قدرة "خالق" الكون كله. وفي أحد الأيام، جمع شجاعته كلها وطلب إلى يهوه أن يظهر له بكل عظمته وهيبته. فكيف تعامل العجوز الجبار مع هذا الطلب؟ نشير في هذا السياق إلى أن كتب تعليم "التاريخ المقدس" تتجاوز هذا المقطع في التورات؛ أما نحن فلا نجد غضاضة في اقتباس نص توراتي طويل، ليتسنى لنا توضيح الأمر.

قال موسى: "أرني مجدك. فقال "الله لموسى": أجيز مجدي كله أمامك، وأعلن لك اسم يهوه، وارحم من ترحم، وأرأف بمن ترأف. ثم قال: لا تقدر أن ترى وجهي، لأن الانسان الذي يراني لا يستطيع أن يبقى حياً. وقال الرب: ها أنا عندي مكان: قف على هذه الصخرة، وعندما يجتاز مجدي، أضعك في شقها وأغطيك بكفي حتى أعبر؛ وعندما أرفع يدي، تراني من الخلف، ولا ترى وجهي" (٣٣ ، ١٨ - ٢٣).

والآن، ينبغي على من يستمع إلى تشدق المبشرين الدينيين أن يقرأ في هذا لنص بانتباه وتمعن، وخاصة عندما يتحدث هؤلاء السادة عن يهوه، الذي يدعونه الله.

لنعد إلى موسى ولوحيه. لقد طرحهما أرضاً فانكسرا، الأمر الذي أرغم العجوز يهوه على تخصيص وقت آخر لاعادة نقشهما من جديد على حجرين آخرين. ولسنا نعلم ما الذي حال دون اصدار الطبعة الثانية للوصايا من خيمة الاجتماع، هل كانت الوسائل التكنولوجية اللازمة لذلك موجودة على قمة جبل سيناء فقط حتى وجد موسى نفسه مرغماً على صعوده مرة أخرى؟

وعندما نزل موسى من الجبل بعد أربعين يوماً وليلة أخرى، ومعه اللوحان، لم يكن يعلم أن وجهه يشع ضياء لأنه كلم يهوه. ولما رآه هارون

وبنو اسرائيل كلهم ووجهه يضيء، خافوا أن يقتربوا منه (٣٤ ، ٢٩ ـ ٣٠). وكان يحدث له الشيء نفسه عندما يخرج من خيمة الاجتماع، لذلك رسموا صورته وعلى رأسه شعاعان كأنهما قرنان.

وينتهي سفر الخروج بخمسة اصحاحات (٣٥ ، ٤٠)، عرضت فيها كثرة من القوانين اليهودية الصغيرة الأخرى، التي لقنها يهوه لموسى.

الفصل الثامن عشر

كتاب موسى الثالث، اللاويون..

لا يمثل كتاب اللاويين هذا أيّ أهمية. لأنه لا يحتوي من المشاهد إلا مشهد تكريس هارون وابنائه كهنة "اصحاح ٨"، وقصة ناداب وأبيهود، ولدي هارون اللذين أخذا ناراً غريبة في مبخريتهما وقرباهما من الاله يهوه فأحرقا حيين أمام المعبد (اصحاح ١٠). وكتاب اللاويين هو من حيث الجوهر، تعداد طويل ومملّ لمختلف ضروب القرابين والطقوس الدينية اليهودية. ففيه يعرض المؤلف "المقدس" رؤيته عن الكهنوت والحيوانات "الطاهرة" و"النجسة"، ومختلف أشكال الاثم. كما يولي المؤلف اهتماماً خاصاً لمرض البرص والمصابين به، ويقر قداسة الكهنة وطهارتهم، ويأمر باقامة الاعياد، وتقديم بواكير المحاصيل قرابين للاله يهوه، ويسهب في حديثه عن مختلف ضروب التطهر، وخاصة تطهر المرأة بعد الولادة (اصحاح ١٢)؛ ولا ينسى التجديف على مجد يهوه والخروج عن الدين، فيعاقب عليهما بالموت.. ويفرد هذا لسفر مكانة خاصة لقوانين الحياة المدنية وأصولها ومعاييرها. فيتألف لدينا من هذا كله، كماً مبلبلاً من التعليمات

الغريبة المتناقضة التي لا يمكن أن تقرأ بغير ملل قاتل.

في هذا السفر نفسه يعلن الارنب من الحيوانات "النجسة"، وعلى الرغم من كونه حيواناً مجتراً، حسب زعم "قداسة" المؤلف، إلا أن أظلافه غير مشقوقة (١١ ، ٥ ـ ٦): من المعروف أن الأرنب يحرك فمه وأنفه بصورة شبه دائمة تقريباً، وهذا ما دعا صاحب سفر اللاويين إلى تصنيفه بين المجترات.

ويحتوي كتاب اللاويين على شرح ديني للامراض وأسبابها وطرق معالجتها، فيظهر فيه المؤلف "المقدس" معيناً لا ينضب في هذا المضمار، لكنه يبدو كريهاً بالدرجة نفسها. فبعض اكتشافاته مشوه تشويهاً تاماً: "وإن بصق من به السيلان على الطاهر، فليغسل ثيابه ويرتحض بالماء، ويكون نجساً إلى المغيب" (لاويين ١٥ ، ٨). ولكن المصاب بالسيلان يشفى بالايمان. وإذا كان قارئي الكريم يظن أن التورات تصف أي دواء لهذا الداء اللعين، فهو طيب الظن، بيد أن الأمر ليس هكذا قط! "فعندما يطهر من سيلانه، يحسب سبعة أيام من طهره ويغسل ثيابه ويرحض بدنه بماء معين فيطهر. وفي اليوم الثامن يأخذ يمامتين أو فرخي حمام، ويجيء إلى أمام الرب، إلى باب خيمة الاجتماع ويدفعهما إلى الكاهن" (١٥ ، ١٣ ـ ١٤).

إذاً، تقدم التورات لمريض السيلان ارشادات تتعلق بمرحلة ما بعد شفائه من مرضه، ولكنها عاجزة تماماً عن تقديم أي ارشادات تتصل بمعالجة المرض نفسه.

ويلفت النظر في هذا السياق، بعض المحرمات التي تفرض على المريض. وتؤكد هذه المحرمات أن المشرع "المقدس" لم يترك لنا مجالاً للشك في مدى شناعة المعايير الاخلاقية والسلوكية التي فرضها احفاد يعقوب. وثمة

ادانة في هذا السفر، لمواقعة الحيوانات، الأمر الذي يدل على سعة انتشار هذه الظاهر بين أوساط شعب الاله يهوه المختار، كما يعدد لنا الاصحاح العشرون مختلف أشكال البغاء والعهر التي يمكن أن تجود بها مخيلة خصبة؛ وقد فرضت عقوبة الموت على جميعها. فقد قال يهوه في هذا الاصحاح: "وإن ضاجع أحد امرأة طامثاً فكشف سوءتها وعرّى مسيلها، وهي كشفت مسيل دمها، فليقطع كلاهما من بين شعبهما"(١٨).

وهاكم في الختام بعض الاشارات التي يمكن أن تكون نموذجاً لأسلوب كتاب "الأحبار اليهود" وقبل أن نبدأ نودّ أن نلفت انتباه القارىء إلى أنه ينبغي عليه أن يقرأ هذا النص بخشوع خاص، لأنه كلام الاله يهوه ذاته: "لا يقرب أحد إلى ذي قرابته لكشف عريه. أنا الرب عري أبيك وعري أمك لا تكشفهما، انها أمك، فلا تكشف عريها. وعري زوجة أبيك لا تكشف، إنه عري أبيك. وعري اختك ابنة أبيك أو ابنة أمك المولودة في البيت، أو في خارجه، لا تكشف عريها. وعري أخت أبيك لا تكشفه، إنها ذات قرابة لأبيك. وعري أخت أمك لا تكشفه، إنها ذات قرابةلامك. وعري عمك لا تكشفه وإلى امرأته لا تقرب، إنها عمة لك. وعري كنّتك لا تكشف، إنها زوجة ابنك لا تكشف عريها. وعري زوجة أخيك لا تكشفه، إنه عري أخيك. وعري امرأة وابنتها لا تكشف ولا تتخذ ابنة ابنها أو ابنة ابنتها لتكشف عريهما، إذ هنّ ذوات قرابة، إنها فاحشة. وامرأة مع أختها لا تتخذ لتكون ضرّتها لكشف عريها معها في حياتها" (لاويين ١٨ ، ٦ ـ ١٨).

إنها الطهارة بعينها، والأخلاقية كلها! ولكن التورات نفسها تقول غير مرّة: ان "مختاريّ يهوه المقدسين" و "اصدقاء الاله" هؤلاء غالباً ما كانوا يخالفون هذه المحرمات.

الفصل التاسع عشر

سفر العدد

لقد سمّي الكتاب الرابع من كتب التورات الخمسة التي تنسب إلى موسى، بسفر العدد، لأن اصحاحاته الأربعة الأولى تحتوي تعداداً لليهود في الشهر الثاني من العام الثاني للتيه. وقد بلغ تعداد اليهود عندئذٍ ٦٠٣،٥٥٠ ألف مسلّح (١ ، ٤٦).

أما الاصحاحات الاثنان والثلاثون الأخرى، فهي تتابع تجوال اليهود في الصحراء . ومع ذلك فإننا نصادف في هذا السفر أيضاً مختلف ضروب القواعد الصغيرة القليلة الأهمية والمتشابهة؛ فحوالي نصف الاصحاح الثامن كُرّس مثلاً، لتعليمات اشعال السراج. ونشير في هذا السياق إلى أن كتاب العدد يحوي تعليمات للأزواج الغيورين الذين يرتابون في اخلاص زوجاتهم ولكنهم لا يستطيعون اثبات واقعة الخيانة لسبب ما.

ففي حديثه مع موسى قال له يهوه: "مر بني اسرائيل وقل لهم: اي رجل زاغت زوجته فخانته وضاجعها رجل مضاجعة نسل وأخفى ذلك عن بعلها واستترت تنجسها ولاشاهد عليها وهي لم تؤخذ... فليأت ذلك الرجل

بامرأته إلى الكاهن.... ويحلّف الكاهن المرأة ويقول لها: إن كان لم يضاجعك رجل ولم تنحازي إلى نجاسة مع غير بعلك، فأنت بريئة من هذا الماء المرّ الجالب اللعنة؛ ولكن إن كنت قد انحزت إلى غير زوجك وتنجست به وجعل غيره معك مضاجعته؛ ويستحلف الكاهن المرأة بحلف اللعنة ويقول الكاهن للمرأة: يجعلك الرب لعنة وحلفاً بين شعبك بان يجعل الرب فخذك ساقطة وبطنك وارماً، ويدخل هذا الماء الجالب اللعنة في أمعائك لتوريم البطن واسقاط الورك؛ فإذا سقاها الماء، فان كانت قد تنجست وخانت بعلها خيانة، يدخل فيها ماء اللعنة للمرارة فيرم بطنها وتسقط وركها وتكون المرأة لعنة فيما بين شعبها" (عدد ٥ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٩ - ٢٢ ، ٢٧).

وأطلق يهوه على هذا القرار الالهي اسم "قانون الغيرة". ولكن لنعد الآن إلى اليهود الذين تابعوا طريقهم في الصحراء تحت قيادة موسى. وكان يهوه قد أمره أن يصنع بوقين من الفضة تنفخ فيهما إشارة الرحيل. وفي هذه المرحلة من الطريق رأه اليهود أن المنّ وحده لا يكفي، فتذمروا في أحد الأيام وطلبوا اللحم من موسى. ولكن ما الذي منعهم عن أكل اللحم هذه المدّة كلها؟ ألم يخبرنا "ذكر الحمام" بأن اليهود ساقوا معهم من مصر أعداداً كبيرة من المواشي والأغنام والماعز؟ خروج (١٨ ، ٣٨). ألم يطلب يهوه غير مرة، أن تُقدم له القرابين من بكور الأغنام؟ ألم ينحر هارون وزملاؤه الكهنة الذبائح للعجل الذهبي في سيناء؟ فهل نحروا البهائم كلها عندئذٍ؟

إن هذا كله مبهم غير واضح ؛ فإذا ما وصف "الروح القدس" عملية تقديم القرابين في الصحراء، نرى عند اليهود قطيعاً كثيراً سيق من مصر؛ وما أن تنتقل الرواية إلى الحديث عن موضوع آخر، حتى نرى هؤلاء اليهود

أنفسهم يعانون الجوع ولا يأكلون سوى المنّ الملينّ، ونحن لن نسمح لأنفسنا إن نقول، أن "الروح القدس" يناقض نفسه بنفسه، فهذا تجديف! ولكننا مرغمون ان نستنتج: ان يهوه كان التهم القطعان كلها قرابين، وإن "الروح القدس" نسي أن يخبرنا بذلك، ومهما يكن الأمر، بما أن اليهود رفعوا صوتهم مطالبين باللحم، بعد أن غادروا سيناء، فهذا يعني أنه لم يبق عندهم بهيمة واحدة مما يؤكل لحمها.

على أيّ حال، رفع موسى تلك المطالب إلى يهوه العلّي القدير. "وهبت ريح من لدن الرّب، فساقت سلوى من البحر والقته على المحلّة، على مسيرة يوم من هنا، ويوم من هناك حوالي المحلّة على نحو ذراعين عن وجه الأرض" (عدد ١١ ، ٣١).

وغني عن القول هنا، أنه كان ينبغي على يهوه أن يلبي طلب شعبه "المختار" هذا، ألم يلتهم قطعان اليهود كلها قرابين؟! واندفع اليهود يلتقطون الطيور.

ولكن "وبينما اللحم بعد بين أسنانهم قبل أن يمضغوه، اذ اشتد غضب الرب على الشعب فضربه الرب ضربة عظيمة جداً. فسمي ذلك الموضع قبور الشهوة، لأنهم دفنوا فيه القوم المتشهين" (١٢ ، ٣٣ ـ ٣٤) وما تلك الشهوة الجريمة سوى رغبة بسيطة موضوعها، أكل شيء من اللحم!.

بعدئذٍ توجهت القافلة شمالاً. وتقول التورات: إن المحلّة التي دخلها المهاجرون اسمها صحراء فاران، وهي الشطر الشمالي الشرقي من شبه جزيرة سيناء. وهنا يرتكب المؤلف "المقدس" غلطاً آخر، إذ يلحق بتلك المنطقة أرضاً مديانية أخرى، وأمر موسى أن يرسل جواسيسه، فرداً واحداً من كل قبيلة؛ فوصل هؤلاء إلى حبرون الواقعة غربي البحر الميت، أي في

وسط أرض كنعان التي يقطنها العموريون. وعاد الجواسيس الاثنا عشر بعد أربعين يوماً، وهم يحملون معهم رماناً وعنباً وتيناً ليؤكدوا صحة المعلومات التي جاؤوا بها. وكانت عناقيد العنب كبيرة إلى درجة جعلت عدة رجال يحملونها، وهو دليل قاطع على خصوبة الأرض التي كان شذاذ الآفاق هؤلاء يحلمون بها، ولكن بقية تقرير الجواسيس نزلت على رؤوس اليهود كالماء البارد، فجعلت حماسهم يخبو في الحال. قال الجواسيس:

ـ الحقيقة إننا لم نرى مثل هذه الثمار في أيّ مكان آخر. ولكن سكان هذه البلاد أقوياء جداً، ومدنها محصّنة تحصيناً قوياً. "لقد رأينا هناك الجبابرة، بني عناق، من الجبابرة، فكنّا في أعيننا كالجراد، وهكذا كنّا في أعينهم" (١٣ ، ٣٤).

وبناء على ذلك رأى عشرة من الجواسيس، عدم التعرض لهذه البلاد القوية. ومال الشعب إلى رأيهم. ولكن يشوعاً وكالب اعتبرا الأرض التي رأياها رائعة إلى درجة عظيمة، ولذلك لا يجوز تركها دون محاولة الاستيلاء عليها، واعتقدا بان محاولة كهذه هي، عمل نبيل. ولكن بما أن اليهود لم يؤيدوا حماسهما، فقد أعلن يهوه أن كل من عارض رأي يشوع وكالب سيموت دون أن يبلغ الهدف، واستثني من هذا الحكم يشوع وكالب فقط. ثم لم تمض أيام قليلة حتى ظهر العماليق والكنعانيون ولقنوا بني يعقوب درساً لن ينسوا طعم مرارته قط.

ومن الأحداث الهامة التي ينقلها سفر العدد لنا، تجدر الاشارة إلى مؤامرة قورح، وداثان، وأبيرام ومعهم مائتان وخمسون من الأنصار الذين قرروا أن موسى وهارون ليسا أهلاً لقيادة اللاويين، ولذلك يجب إزاحتهما. لكن الأرض انشقت على حين غرة وابتلعت المتآمرين وعائلاتهم، ونزلت نار من

"عند يهوه" أحرقت أنصارهم المائتين والخمسين، ولم يكتف يهوه المنتقم الجبار بذلك كله، فأرسل وباء قتل ١٤،٧٠٠ يهودي على سبيل الاحتياط، ولم يكن أيّ من هؤلاء قد شارك في المؤامرة. عندئذٍ فقط، أشعل اللاويون البخور للرّب يهوه(١٦).

بعدئذٍ طلب يهوه من موسى أن يطلب من رؤساء القبائل اليهودية ليأتي كل منهم بعصا مكتوب عليها اسم القبيلة التي يرأس. ثم وضعت العصي كلها في خيمة الاجتماع بعد أن أضيفت إليها عصا بني لاوي التي حملت اسم هارون، وفي اليوم التالي عقدت الدهشة السنة جميعهم عندما رأى أن عصا هارون ازهرت، بينما بقيت العصي الأخرى كما هي، بل إن عصا هارون أثمرت لوزاً شهياً.

إذاً لم يبق عند أحد شكّ في أن يهوه يثبت هارون في مرتبة الكهنوت. فاقتنع الشعب وتعهد بالاّ يشاغب بعد الآن غيرةً من اللاويين(١٧).

والسؤال الآن هو: إذا كانت "العجيبة" قد أقنعت الناس حقاً، فلماذا أرسل يهوه الوباء إذاً وقتل ١٤،٧٠٠ بريء لم يشترك أيّ منهم في المؤامرة؟

ويتحدث الاصحاح التاسع عشر عن مشهد "هام جداً: لقد طلب يهوه أن تقدّم له بقرة حمراء صحيحة لم تحمل النير يوماً؛ فوجدوها وجاؤوا بها إلىأليعازر الكاهن الذي "أخذ من دمها باصبعه ونضح إلى جهة وجه خيمة الاجتماع سبع مرّات"(٤).

أما الاصحاح العشرون فيخبرنا أن الجماعة جاءت إلى صحراء سين ثانية. ولم يكن في المكان ماء. فتمرّد الشعب على موسى مرّة أخرى، فاضطر إلى استعمال عصاه مرّة ثانية ضد الصخرة، فانبجس الماء منها.

"ورفع موسى يده وضرب الصخرة بعصاه مرتين، فخرج ماء غزير، فشربت الجماعة ومواشيها"(١١).

إذاً ثاروا على موسى وطالبوه باللحم ومعهم مواشي؟

ثم أمر يهوه موسى وهارون وابنه اليعازر أن يصعدوا إلى جبل هور. ولمّا وصلوا إلى قمة الجبل، فعل موسى ما أمره الرب به، فخلع ملابس هارون ووضعها على اليعازر، وفي اللحظة عينها مات هارون وله من العمر ١٢٣ عاماً.

وكان يحكم الصحراء ملك يدعى عراد. فلمّا علم باقتراب اليهود انقض عليهم بجيوشه فهزمهم وأخذ منهم أسرى. فرفع اليهود صلاة كسير القلب، حزين النفس إلى يهوه، وطلبوا عونه لينتقموا. "فنذر اسرائيل نذراً للرب وقال: إن دفعت هؤلاء القوم إلى يدي، أحرّم مدنهم. فسمع الرب لقول اسرائيل ودفع الكنعانيين فحرموهم مدنهم" (٢١ ، ٢ ـ ٣).

في المعركة الثانية أحرز بنو يعقوب نصراً ساحقاً على الكنعانيين، وهدموا مدنهم كما وعدوا الههم. ثم انعطفوا جنوباً ومضوا في عمق صحراء فاران، وهنا في ذلك المكان الموحش تجلّت رحمة يهوه على شعبه الخاص باسطع صورها؛ فقد أرسل عليهم ثعابين سامة كانت وسيلته الجديدة لانزال العقاب بهم جرّاء تمردهم الجديد ضد موسى؛ "فلدغت الشعب فمات قوم كثيرون من اسرائيل". عندئذٍ سكب موسى حية نحاسية[1] ووضعها في مكان عال ليراها الملدوغ فيشفى (٢١ ، ٦ ـ ٩).

ثم جاب اليهود الصحراء بعض الوقت وجاؤوا ثانية إلى الشمال على مقربة من العموريين الذين كان يحكمهم الملك سيحون. فأقاموا حماماً

رهيباً من الدم، وقضوا على هذا الشعب بحد السيف. كما قضوا على عوج وشعبه. وبهذا يكون شعب يهوه قد استولى على أرض جديدة.

وصل اليهود إلى ضفاف البحر الميت الآن. ولم يبق لهم إلاّ أن يجتازوا سلسلة جبلية صغيرة ليصلوا إلى بلاد أحفاد موآب بن لوط، وهو نفسه موآب الذي أنجبته ابنة لوط من أبيها في أعقاب رواية السكر الشهيرة. ولكن أرض موآب كانت تتصل من الشرق بأرض مديان (هذه هي مديان الثالثة)، وكان الموآبيون والمديانيون يعيشون حياة صداقة وأخوة ووئام.

ولمّا وصلت أخبار اقتراب اليهود من أرض موآب، سارع ملكها بالاق ليتشاور مع وزرائه وبعض رجال مملكة الحكماء، وبعد مشاورات مكثفة اتخذ القرار التالي. في ذلك الوقت كان يعيش في مدينة فتور رجل يدعى بلعام بن بعور، مهنته العرافة واستنزال اللعنات. فقرر بالاق أن يرسل إليه طالباً البركة والتوفيق للموآبيين وحلفائهم، ولم ينس أن يطلب منه لعنة معتبرة لليهود.

في بداية الأمر رفض بلعام أن يبارك بالاق والموآبيين وحلفاءهم ومع ذلك، فقد تهيأ له أن يهوه يسمح بتلبية طلب بالاق. فقام وانطلق مع الوفد الذي جاء إليه. وفيما هو راكب أتانه، اعترض ملاك يهوه طريق الاتان حاملاً بيده سيفاً مسلولاً. فعادت الاتان أدراجها وانطلقت في الحقل لتتفادى المرور في المكان الذي يقف الملاك الغاضب فيه.

"فضرب بلعام الاتان ليردها إلى الطريق؛ فوقف ملاك الرب في خندق للكروم له حائط من هنا وحائط من هناك؛ ولما أبصرت الاتان ملاك الرب، زحمت الحائط وضغطت رجل بلعام بالحائط فضربها أيضاً. ثم اجتاز ملاك الرب أيضاً ووقف في مكان ضيّق حيث لا سبيل للنكوب يميناً أو

شمالاً. فلما أبصرت الاتان ملاك الرب ربضت تحت بلعام. فحمي غضب بلعام وضرب الاتان بالقضيب؛ ففتح الرب فم الاتان فقالت لبلعام: ماذا صنعت بك حتى ضربتني الآن ثلاث دفعات؟ فقال بلعام للاتان: لأنك ازدريت بي، ولو كان في يدي سيف الآن لقتلتك. فقالت الاتان لبلعام: ألست أنا أتانك التي ركبت عليها منذ وجودك إلى هذا اليوم؟ هل تعوّدت أن أفعل بك هكذا؟ فقال لا. ثم كشف الرب عن عينيّ بلعام فأبصر ملاك الرب واقفاً في الطريق وسيفه مسلول في يده، فخرّ ساجداً على وجهه. فقال له ملاك الرب: لماذا ضربت أتانك الآن ثلاث دفعات؟ ها أنذا خرجت لأمنعك، لأن طريقك ليست طريق حق أمامي؛ فأبصرتني الاتان ومالت قدّامي الآن ثلاث مرات ولو لم تمل من قدامي لكنت الآن قتلتك واستبقيتها. فقال بلعام لملاك الرب: أخطأت، إني لم أعلم أنك واقف تلقائي في الطريق، والآن ان قبح في عينيك فاني ارجع . فقال ملاك الرب لبلعام: اذهب مع الرجال وإنما تتكلّم بالكلام الذي أكلمك به فقط. فانطلق بلعام مع رؤساء بالاق" (٢٢ ، ٢٣ ، ٣٥)، وجاءت هذه القصة لتمنح اليهود ثلاث بركات الهية بفم بلعام، الأمر الذي اثار حنق بالاق، فصرخ قائلاً: "لتشتم أعدائي دعوتك، وها أنت باركتهم ثلاث دفعات؛ فالآن اهرب إلى مكانك ؛ قلت أكرمك إكراماً، ولكن الرب منعك عن الكرامة" (٢٤ ، ١٠ - ١١). وسنرى كيف كافأ اليهود بلعام على مباركاته هذه.

ولسنا ندري لماذا بدّل بالاق غضبه إلى عطف واحسان. يقول الاصحاح الخامس والعشرون، إن أحفاد يعقوب أقاموا بين المديانيين والموآبيين بهدوء وسكينة، ولن ننسى أنه كان لأولئك الضيوف الثقيلي الظل جيش تعداده ست مائة ألف مقاتل على أتم استعداد لإبادة بالاق وشعبه وحلفائه، ولكنه لسبب ما، هدأ ولم يعد يفكر بالقتال. وهكذا عمّ السلام

دون اتفاق أو مباحثات. "واقام اسرائيل في شطيم، وابتدأ الشعب يزني مع بنات موآب اللواتي دعونه إلى ذبائح آلهتهنّ، فاكل الشعب وسجد لآلهتهن" (٢٥ ، ١ - ٢).

بيد أن ذلك لم يكن ليرضي اللاويين قط، لأن الكهنة الوثنيين تمكنوا أن يسلبوهم مصدر رزقهم. وعندئذٍ رأى فيخاس بن اليعازر الكاهن، يهودياً يدعى زمري يدخل بيت حسناء مديانية تدعى كزبي، "فقام من وسط الجماعة وأخذ رمحاً بيده ودخل وراء الرجل الاسرائيلي إلى القبة وطعن كليهما، الرجل الاسرائيلي والمرأة في بطنها" (سطر ٨). وقبل هذا الحادث بقليل كان يهوه قد عاقب شعبه بوباء راح ضحيته أربعة وعشرون ألف روح. ثم جاءت طعنة فيخاس فشرحت صدر الرب الذي قام من فوره فقضى على الوباء، وأصدر أمراً إلى موسى أن يستعد لشنّ هجوم شامل على الموآبيين والمديانيين لافنائهم (٢٥ ، ١٦ - ١٨).

وقبل أن يبدأ موسى بتنفيذ خطة الهه، أجرى احصاء جديداً لشعبه، وكانت قد مضت ثمانية وثلاثون عاماً على الخروج من مصر. خلال هذا الزمن كان اليهود قد تجددوا وأصبح بامكانهم دخول "أرض الميعاد"؛ ونذكر هنا بأن يهوه كان قد قرر بالاّ يدخل تلك الأُرض أيّ من الذين خرجوا من مصر، ما عدا يشوع بن نون وكالب بن يفنّة. وجاءت نتيجة الاحصاء لتفيد بان عدد اليهود الذين يستطيعون حمل السلاح، "من سنّ العشرين فما فوق" هو، ٦٠١،٧٣٠ نسمة، ما عدا ٢٣،٠٠٠ ألف لاوي.

وهكذا بدأ اليهود تنفيذ "ارادة الإله يهوه" بإبادة الشعب الذي استضافهم ضيافة أخوية. وقد اختير لتحقيق هذا الهدف، ألف مقاتل من كل قبيلة، أي ١٢٠٠٠ "منتقم للرب" فنزلت بالمديانيين ضربة قاسية، وقُتل

رجالهم كلهم، إضافة الى "الملوك الخمسة"، كما قتل اليهود بلعام بن بعور "بالسيف"، وهو النبي الرائع الذي باركهم "ثلاث دفعات" منذ زمن وجيز. "وسبا بنو اسرائيل نساء مديان وأطفالهم، ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم وكل أملاكهم، وأحرقوا مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار" (عدد ٣١ ، ٩ ـ ١٠).

ولكن تبيّن أن موسى كان متعطشاً لسفك الدماء أكثر من مقاتليه، فلم يكتف بتلك المجزرة الشنيعة "فسخط (موسى) على وكلاء الجيش، رؤساء الالوف، و رؤساء المئات القادمين من الحرب وقال لهم موسى: هل أبقيتم كل انثى حيّة؟ إن هؤلاء كنّ لبني اسرائيل سبب خيانة للرب، حسب كلام بلعام، فكان الوباء في جماعة الرب. فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، وكل امرأة عرفت رجلاً بمضاجعة رجل اقتلوها، ولكن جميع إناث الأطفال اللواتي لم يعرفن مضاجعة ذكر، ابقوهن لكم حيّات" (٣١ ، ١٤ ـ ١٥ ، ١٧ ـ ١٨).

ولمّا حصوا الغنائم تبيّن أنهم استولوا على: ٦٥٧،٠٠٠ رأس من الغنم والماعز، ٧٢،٠٠٠ رأس من المواشي، ٦١،٠٠٠ من الحمير، و ٣٢،٠٠٠ انثى "لم تعرف رجلاً" (٣١ ، ٣٢ ، ٣٥). وقد أبقي قسم من هذه الغنيمة للرب، بما في ذلك ٣٢،٠٠٠ عذراء مديانية.

أمّا باقي فصول كتاب العدد فتتحدث عن قواعد توزيع الارث، مواعيد تقديم القرابين في الأعياد، تعليمات حول اقتسام "أرض الميعاد" بعد الاستيلاء عليها. وهذا كله يعيد تكراره لنا كتاب يشوع بن نون بالتفصيل المملّ.

الفصل العشرون

سفر التثنية

يمثّل سفر التثنية[1]، وهو الكتاب الخامس والأخير من كتب موسى الخمسة، أهمية أقل من تلك التي كانت لسفريّ اللاويين والعدد. ففي صيغة خطب منسوبة إلى موسى، يتكرر هنا مختلف القوانين التي كانت قد صيغت من قبل وعرضت. وتشغل الاولى من هذه الخطب أربعة اصحاحات تضمنت عرضاً لكل ما وقع منذ خروجهم من مصر، وتذكيرهم "بسيل الخيرات" التي غمرهم بها يهوه. أمّا الخطبة الثانية فتشغل واحداً وعشرين اصحاحاً يتكرر فيها مرّة أخرى، مغزى الشرائع الدينيةوالمدنية وأهميتها بالنسبة لليهود. يلي ذلك نسق طويل من الشروط المرتبطة بتنفيذ أصول الشريعة: سيكون اليهود شعباً مباركاً، وستتكلل مساعيهم كلها بالنجاح، إذا التزموا بأوامر يهوه التزاماً صارماً دقيقاً، وستحلّ اللعنات عليهم وتنزل النوازل كلها بهم، إذا هم اخلّوا بأمر واحد منها.

وبما أن المؤلف كان حريصاً على التأكيد بان يهوه نفسه كان يتكلّم بفم موسى، فقد رأينا أنه يجدر بنا أن نسوق بعض نماذج البلاغة الالهية: "ثيابك

لم تبل عليك، ورجلك لم تتورم هذه الأربعين سنة" (تثنية ٨ ، ٤) ها هي إذاً "عجيبة" أخرى لا تقلّ روعة عن أيّ "عجيبة" دينية.

فحسب الاحصائيين اللذين أشرنا إليهما، كان عدد المقاتلين بين المهاجرين ٦٠٠،٠٠٠ مسلح لحظة الخروج من مصر حتى بلوغ بلاد الموآبيين. ولكن الجيل الذي وصل إلى موآب لم يكن هو الجيل نفسه الذي خرج من مصر. فالجيل القديم مات كله "حسب كلمة الرب" ويمكننا أن نفترض أن عدد اليهود الذين خرجوا من مصر هو، ثلاثة ملايين نسمة، بمن فيهم الشيوخ والنساء والبنات والفتيات؛ ويملي هذا الافتراض علينا، عدد المسلحين الـ ٦٠٠،٠٠٠ .

وإذا كانت تلك الملايين الثلاثة قد لاقت وجه ربّها خلال الأربعين عاماً الماضية، فهذا يعني أن ثلاثة ملايين عملية تبديل ملابس وأحذية قد جرت فعلاً، لكن التعداد الأخير أظهر أن عدد جنود القتال بلغ ٦٠١،٧٣٠ رجلاً، ما عدا ٢٣،٠٠٠ لاوي.

وإذا افترصنا أنه كان لكل جندي ولاوي زوجة واحدة وثلاثة أبناء فقط، وأن نصف الأزواج كان لهم آباء وأمهات على قيد الحياة، فان عدد الذين وصلوا إلى موآب سيبلغ حوالي اربعة ملايين ونصف المليون نسمة، وكان ينبغي تأمين ملابس وأحذية لهذا العدد كله. وهو الأمر الذي يجعل "العجيبة" أكثر عظمة وإبهاماً، لأنه كان ينبغي على يهوه العجوز أن يجد لشعبه المختار حوالي مليونين ونصف المليون زوجاً من الأحذية، في تلك الصحراء المقفرة، هذا عدا العدد نفسه من الملابس الرجالية والنسائية.

وتجدر الاشارة إلى ما قاله في هذا السياق، "القديس" جوستين[٢]، في معرض ردّه على تساؤلات أنصار مذهب الشك ومحاكماتهم، وقد جاء

ردّه هذا في مؤلفه "حوار مع تريفون اليهودي"؛ فقد أكّد "القديس" أن الأمر لم يقتصر على عدم تلف ملابس اليهود وأحذيتهم خلال الأعوام الأربعين وحسب، بل أن ملابس أطفالهم وأحذيتهم نمت بطريقة عجيبة مع نمو أجسادهم. أمّا "القديس" هيرونيم فيقول في رسالته الثامنة والثلاثين : "عبثاً تعلّم الحلاقون مهنتهم، فهم لم يستطيعوا ممارستها طيلة أربعين عاماً، لأن شعر رؤوس اليهود لم ينم،وكذلك أظافرهم". لعلّ هذا يقنعكم في نهاية الأمر "بعجائب يهوه"!

لنشر الآن إلى وصية يهوه التي لن تدهش أحداً: "احترز من أن تترك اللاوي كل ايام حياتك، على أرضك" (تثنية ١٢ ، ١٩) . وإذا تذكّرنا أن اللاويين هم الكهنة، يصبح الأمر واضحاً الوضوح كلّه!.

إذا خرجت لمحاربة أعدائك ودفعهم الرب الهك إلى يدك، وسبيت منهم سبياً، ورأيت في السبي امرأة جميلة الصورة، والتصقت بها واتخذتها لك زوجة، فحين تدخلها إلى بيتك تحلق رأسها وتقلّم أظفارها وتنزع ثياب سبيها عنها، وتقعد في بيتك تبكي أباها وأمها شهراً من الزمان، ثم بعد ذلك تدخل عليها وتتزوّج فتكون لك زوجة. وان لم تُسّر بها فأطلقها لنفسها ولا تبعها بفضة ولا تسترقّها لأنك أذللتها" (٢١ ، ١٠ - ١٤). إنه الطهر بعينه! أليس كذلك؟!

"من سحقت خصيتاه أو قُطع قضيبه، لا يدخل في جماعة الرب" (٢٣ ، ١) وهل من تعليق على هذه الحكمة الالهية؟!

"إن كان فيك رجل غير طاهر من عارض الليل، يخرج إلى خارج المحلّة، لا يدخل إلى داخل المحلّة. ونحو اقبال المساء يغتسل بماء، وعند غروب الشمس يدخل إلى داخل المحلّة" (٢٣ ، ١٠ - ١١) أي أن مثل هذا الرجل

لا يستطيع أن يشارك في القتال وقد رأى فولتير أن عليه أن يقول بعض الأفكار بهذا الصدد، فقال: "يؤكد كثير من علماء الفنون العسكرية أن أحلام الشهوة الجنسية ترتاد الفتيان الأقوياء الجسم عادة، ولذلك كان الأمر الذي قضى بابعادهم عن الجيش طيلة يوم كامل يتسم بالحمق وعدم الحكمة، وكان يمثّل خطورة جدية، لأن المعارك الحاسمة كانت تقع في ساعات النهار. لقد كان من شأن مثل ذلك القرار أن يبثّ روح الجبن في صفوف الجيش. وأخيراً ألم يكن من الأيسر لو اغتسل الرجل داخل المعسكر حيث تتوفر المياه، من أن يخرج خارجه ليبحث عن الماء وقد يجده أو لا يجده؟".

ولم تقف اهتمامات يهوه عند هذا الحد، بل ذهبت أبعد. فقد اهتم الشيخ بتنظيم عملية التغوّط عند شعبه: "ويكون ذلك موضع خارج المعسكر، لتخرج إليه خارجاً، ويكون لك رفش مع عدتك لتحفر به عندما تجلس خارجاً، ثم تغطي برازك؛ لأن الرب الهك سائر في وسط معسكرك لينقذك ويدفع أعداءك أمامك. فليكن معسكرك مقدّس، لئلاّ يرى فيك شيئاً قذراًفيرجع عنك" (٢٣ ، ١٢ ـ ١٤).

يتطلّب هذا النص "المقدس" تسجيل ملاحظات لها أهمية خاصة. فقد رأينا أن للإله يهوه يدان استعملهما أثناء عملية الخلق، ورجلان يسير عليهما في كوكبنا عندما يرى ذلك ضرورياً؛ وعلمنا منذ وقت قريب أن له ظهر وقد رآه موسى بأمّ عينه، كما له أنف يشمّ به "الروائح الطيبة". وها نحن نرى في نصنا هذا أن أنف يهوه ليس مجرّد زخرفة لوجه "خالق" العالم؛ إنه أنف حقيقي! وبما أن هذا الرّب يحب الأكل كثيراً (لنتذكر عجل ابراهيم وطحينه في الغداء الشهير عند بلوطة ممرا) فقد صنع لنفسه أنفاً "يشمّ به الروائح الطيبة" ولا يطيق الروائح الكريهة.

من جهة أخرى ليس صعباً علينا أن ندرك أنه كان بمقدور الكلّي القدرة وقاية أنفه من شمّ الروائح الكريهة. فاليهود هم "شعب يهوه المختار" الذي اختاره لخاصته. ولكن هذا العجوز لم يفكر يوماً أن يخلص شعبه من الأثار الكريهة لعملية هضم الطعام، وهو الذي لا يطيق رائحة البراز البشري. لقد كان عليه أن يجعل الطعام ينحّل في الأجسام اليهودية انحلالاً كاملاً، ويلغي أي شكل من أشكال ترحيل فضلات معداتهم. ألا يبدو هذا الحل، المخرج الأمثل والأبسط من هذا المأزق؟ أضف إلى هذا، أن هذا التعديل البسيط في عمل وظائف أعضاء الجسم اليهودي، كانت سيجعل من هؤلاء القوم كائنات أكثر تميزاً، لأن الختان ليس ميزة خاصة بهم، أمّا إذا أراد يهوه ألاّ يمنح اليهود ذلك الامتياز الرائع المتمثّل في عدم احتواء أحشائهم على المعي والمستقيم، وكان حريصاً على أن تكون ليهوده فسحة كباقي الناس، فان عليه عندئذٍ أن يمنح نفسه أنفاً لا يشمّ الروائح الكريهة، التي قد تنبعث من معسكر أحبائه، ولو كانت لنا مثل صلاحياته، لأصدرنا أمراً يقضي بجعل رائحة براز اليهود في زمن الحرب، كرائحة البنفسج، أو كأيّ رائحة أخرى يطيب للشيخ شمها، وليس أيسر من هذا الحل بالنسبة لمن له القدرة الكلّية!

يقولون، إن قصيدة واحدة لا عيب فيها، تساوي ملحمة. وعندي أن السطور ١٢ ، ١٣ ، ١٤ من الاصحاح الثالث والعشرين في سفر التثنية تساوي مزامير داود كلها، فهي تفتح أمام علم اللاهوت أفقاً لا حدود له! ففي ذلك الأنف الالهي الكاره الروائح الشنيعة، عمق لاهوتي لا قرار له، لكل من يريد أن يتعمق ويحلل تحليلاً جيداً.

إننا ندعو باباروما وبطاركة المسيحية كلهم إلى محاكمة بسيطة، ونرجو منهم بكل الاحترام والتبجيل أن يضعوا بحث المسألة التالية أمام المجامع

المقدسة: ألا يجعل وجود السطور الثلاثة الموما إليها، "سرَّ القربان" أكثر تعقيداً مما هو معقّد الآن؟ قصارى القول، إذا صدرت عن الكاهن حركة ما غير لبقة، في اثناء إقامته الخدمة الالهية، وبالتحديد أثناء نطقه بالكلمات المقدسة عندما يؤدي سرّ المناولة، فهل سيقرر الله بعدئذٍ أن يتجسّد في الخبز والدم؟

لا يقولنّ أحد لي بأنّ هذا غير ممكن. فعند ما كنت فتى أدرس في مدرسة القديس لودفيك الداخلية في باريس، كنت غالباً ما اشارك فرقة الكنيسة تادية الأناشيد الدينية؛ وقد تأتي لي مرّة أن أخدم واحداً من رجال الدين المقدسين هو، الأب جوردان الذي كانت له أمعاء دائمة التهوية. وقد يقع الذنب في عادته السيئة تلك، على عاتق البازلاّء التي كانوا يقدمونها في المدرسة؟! على أيّ حال هذا هو المبرر الذي وجدته أنا له. ولا أزال أذكر ذلك الصباح عندما كنت جاثياً على ركبتيّ خلف الأب المحترم رافعاً حبريته، وإذا بجوف العجوز يطلق ثورة غدا من الصعب علّي بعدها أن استمّر في تأدية واجباتي الدينية.

في ذلك الوقت كنت أنظر إلى مسألة تلبّك معدة الكاهن جوردان، انطلاقاً من تأذي أنفي البشري بالرائحة الكريهة التي تنبعث من مؤخرة أبينا المذكور. ولكني وأنا أتصفح "الكتاب المقدس" الآن مستغرقاً في روعته، لفتت السطور الثلاثة المذكورة انتباهي، وأثارت غيرتي وارغمتني أن أفكّر بأن علّي واجباً مقدساً هو، طرح قضية الرائحة النتنة التي يطلقها الكاهن عبر مؤخرته وهو ينطق بكلمات : "هذا هو جسدي؛ هذا هو دمي".

وبما أن العهد الجديد لا يجوز أن يتناقض مع العهد القديم، الذي يؤلف سفر التثنية جزءاً لا يتجزأ منه، وبما أن العهدين من تأليف :"الروح القدس"

نفسه، فمن المنطقي أن نفترض إذاً، أن الله (يهوه)، الذي ثبت لنا أنه لا يطيق الروائح الكريهة، لن يتجسد في القربان المقدس راضياً، بل يُشدُّ إلى هناك شداً عندما يقيم القداس الالهي كاهن يعاني من تراكم الغازات في أمعائه. ولكن السؤال يبقى قائماً: هل يأتي يهوه إلى القربان أم لا يأتي؟ هل ينتظر إلى أن تتبدد الرائحة النتنة، أم أنه يعود أدراجه إلى السماء؟ هذه هي المسألة التي تتسم بأهمية عالمية شاملة، والتي لي شرف وضعها أمام "أُمّي، الكنيسة المقدسة".

المسألة إذاً فائقة الأهمية، لأنه إذا كان القربان الذي يوزعه مثل هذا الكاهن مجرد خبز عادي لم تعلق به أي شعرة من لحية يهوه ربّ الجنود، فهذا يعني أن الذين تناولوا ذلك الخبز خُدعوا بكل وقاحة. والآن، تخيلّوا مؤمناً وضع أمل حياته كله في قطعة الخبز تلك آملاً أن تزيح عبء آثامه عن كاهله. أرجو أن تقدّروا فداحة الكارثة! و ارجو أصحاب القداسة والغبطة والنيافة و ....، أن يدعو الى التآم المجمع المقدس في الحال!

إننا لا نريد أن نغلق كتاب التثنية قبل أن نتوقف عند مسألة أخرى هي: "إذا تخاصم رجلان بعضهما بعضاً، رجل وأخوه وتقدمت امرأة احدهما لكي تخلص رجلها من يد ضاربه، ومدت يدها وأمسكت بعورته، فاقطع يدها ولا تشفق عينك" (٢٥ ، ١١ - ١٢). أليس يهوه بحق الهاً يعرف كل شيء؟ إنه يتنبأ بكل شيء قطعاً!

ثم أوصى الرب موسى بأنه يجب على اليهود الذين يدخلون "أرض الميعاد"، أن يكرسوا جبلين من جبالها لإقامة طقس غريب؛ فيباركون الشعب على جبل جرزيم، ويلعنونه على جبل عيبال. وها أنذا اسوق بعضاً من نماذج التهديد الالهي التي جاءت في الاصحاح الثامن والعشرين:

"يرسل الرب عليك اللعن والاضطراب والزجر، في كل ما تمتد إليه يدك لتعمله حتى تهلك وتفنى سريعاً بسبب سوء أفعالك، إذا تركتني"[٢٠].
"يضربك الرب بالسلّ والحمّى والبرداء والالتهاب والجفاف واللفح والذبول، فتتبعك حتى تفنيك"[٢٢]. "يضربك الرب بقرحة مصر والبواسير والجرب والحكة، حتى لا تستطيع الشفاء"[٢٧]. "ويضربك الرب بالجنون والعمى وحيرة القلب"[٢٨]. "تخطب امرأةً ورجل آخر يضاجعها"[٣٠].
"يضربك الرب بقرح خبيث على الركبتين وعلى الساقين من اسفل قدميك إلى قمة رأسك"[٣٥]؛ "وتكون دهشاً ومثلاً وهزأة في جميع الشعوب"[٣٧]
"بذاراً كثيراً تخرج إلى الحقل، وقليلاً تجمع، لأن الجراد يأكله"[٣٨]؛ "بنين وبنات تلد، لا يكونون لك، لأنهم إلى السبي يذهبون"[٤١]؛ "يجلب الرب عليك أمّة من بعيد، من قصاء الأرض، كما يطير النسر، أمة لا تفهم لسانها، أمة جافية الوجه لا تهاب الشيخ ولا تحنّ إلى الولد"[٤٩ - ٥٠]؛
"فتأكل ثمرة بطنك ولحم بنيك وبناتك الذين أعطاهم الرب إلهك لك"[٥٣]؛ "الرجل المتنعمّ فيك والمترفّه جداً، تبخل عينه على أخيه وامرأة حضنه وبقية أولادها الذين يبقيهم ولا يعطي أحداً منهم لحم أولاده الذي سيأكله"[٥٤ - ٥٥] وهكذا إلى أخر الاصحاح.

إن ما يلفت الانتباه في هذه العقوبات، أنها كلها جسدية ليس فيها عقوبة روحية واحدة، الأمر الذي لا يتوافق مع عقوبات الكنيسة المسيحية.
هذا ما تجب الاشارة إليه إضافة إلى أن العهد القديم لا يأتي على ذكر جهنم أو المطهر في أيّ فصل من فصوله، ونحن رأينا منذ قليل،، أن يهوه اهتم بأمكنة تبرّز يهوده، ولكنه لم يهتم بأرواحهم قط. ففي أيّ من اسفار التورات، لانقع على تعبير "خلود الروح"؛ ومما يذكر هنا أن المسيحيين أخذوا ديانتهم من هذه الأسفار نفسها.

بعد سلسلة التهديدات المذكورة يأتي مقطع تاريخي، فبعد أن دقّ موسى أبواب عامه المائة والعشرين، سلّم صلاحياته إلي يشوع بن نون، الأمر الذي أثار نقمة أليعازر الكاهن، وأمر موسى يشوعاً أن يقود اليهود إلى كنعان. ونحن نعفي القارىء من النشيد الذي أنشده موسى في وداع يهوده، ونتجاوز البركات التي استنزلها على كل قبيلة من قبائل اسرائيل، لنصل لحظة اذعانه للقرار الالهي الذي أتاه من فوق بأن يصعد إلى جبل نبو حيث ينتظر الموت فوقه، ولكنه يستطيع أن يرى من هناك "أرض الميعاد" كلها قبل موته "الحق".

تؤكد الكنيسة المسيحية والكنيسة اليهودية على حدّ سواء، أن "الأسفار الخمسة" هي من تأليف موسى. ويجب ألاّ يظن أحد بأن أحداً غير صهر يثرون كتبها، وإذا ما سوّلت لأحد نفسه واعتقد غير ذلك، فسيجد نفسه مطروداً خارج مظلة الكنيسة. لأن اللاهوتيين يؤكدون بعناد الحمير، على أن موسى هو من كتب تلك الأسفار كلها، من أول سطر فيها إلى آخر كلمة من كلماتها، وأن "الروح القدس، الحمامة" هو من لقنّه إياها كلمة كلمة.

إن الكتاب العادي، أي الكتاب البشري، ينتهي في مثل هذه الحال بصعود موسى إلى جبل نبو؛ وفي أحسن الأحوال كان الانسان العادي سينتهي كتابه بالأسطر التالية: "أحسّ بأنني ماض في رحلة أبدية، وها أنا ألقي قلمي، لأنني أشعر باقتراب الموت". ولكن موسى كاتب "مقدس" لم يستطع أن يتركنا بمثل هذه البساطة. لذلك كرّس الاصحاح الأخير من سفر التثنية ليخلّد ذكرى وفاته ودفنه، ويصف لنا حزن اليهود لموته، بل ولم ينس أن يمدح نفسه ببعض الكلمات فقال: "فمات هناك موسى عبد الرب، في أرض موآب، حسب قول الرب، ودفنه في الجواء في أرض موآب، مقابل

بيت فغور، ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم.... فبكى بنو اسرائيل موسى في عربات (سهول) موآب ثلاثين يوماً، فكملت أيام بكاء مناحة موسى.

ويشوع بن نون كان قد امتلأ روح حكمة إذ وضع موسى يديه عليه، فسمع له بنو اسرائيل وعملوا كما أوصى الرب موسى. ولم يقم بعد نبي في اسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجهاً لوجه" (٣٤ ، ٥ ـ ٦ ، ٨ ـ ١٠).

غني عن القول إن أيّ قارىء آخر لهذه السطور سيؤكد على أن لا علاقة لموسى بكتابتها قط. ومع ذلك يصرّ اللاهوتيون على أن الاسلوب هو اسلوب موسى نفسه، وأنه لم يستخدم في الفصول السابقة صيغة المتكلّم قط أثناء حديثه عن نفسه، بل استخدم دائماً صيغة الغائب. إذاً، بما ان الكنيسة قالت كلمتها، فما علينا إلاّ القبول والصمت! أمّا رأي الكنيسة بدقة، فقد عرضه العالم اللاهوتي بافل هيرونيم في النص التالي: "،، الكتب الخمسة" هو الاسم المشترك لأسفار التورات الخمسة الأولى. مؤلفها هو موسى. و "الكتب الخمسة" هي كتب صحيحة وأصلية، ولاشك في اصالتها كما أنه لاشك في اصالة الكتب الأكثر أصالة. وهي أكيدة كما هو أكيد وجود موسى نفسه، ولا يجوز رفض أصالة كتب يقرّها إيمان أصيل لشعب وصفت هذه الكتب تاريخه ووضعت تشريعه وأسست عبادته الدينية، خاصة وأن هذه الكتب تتسم بطابع القدم الذي ينسب إليه. ولا يعقل أن تكون مثل هذه الكتب من ابداع رجل آخر سوى الرجل الذي تحمل اسمه. هذا هو كتاب "الكتب الخمسة" فالإيمان الشعبي اليهودي الأصيل، وروح القدم اللذان يتميّز بهما هذا العمل، واستحالة التزوير، تؤكد

كلها على أصالته تأكيداً قاطعاً. لقد كتب موسى "الكتب الخمسة" بالهام من الروح القدس" (الموسوعة الكاثوليكية، ط . فرنسية ٦٩٠ C.V.T.
لنسجد يا أخوتي، ولا نعجب لأي شيء بعد هذا المنطق!.

الفصل الحادي والعشرون

بطولات يشوع بن نون "المقدسة"

بعد وفاة موسى تسلّم يشوع بن نون[1] زعامة اليهود. ولكي يبعث يهوه الأمل في قلوب غلاظ القلب هؤلاء، جاء بنفسه لزيارة ابن نون وكرر على مسامعه وعوداً توراتية معروفة.

"قم اعبر هذا الأردن، أنت وكل الشعب، إلى الأرض التي أنا معطيها لكم، كما قلت لموسى. من البرية ولبنان هذا، إلى النهر الكبير، نهر الفرات، جميع أراضي الحثيين، وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس، يكون تخمكم. لا يقف إنسان في وجهك كل أيام حياتك. كما كنت مع موسى أكون معك، لا أهملك، ولا أتركك، تشدّد وتشجع، بذلك أنت تقسم لهذا الشعب الأرض التي حلفت لآبائهم أن أعطيهم" (يشوع ١ ، ٢ ـ ٦).

ليست هذه المرة الأولى التي يكرر العجوز الخرف فيها وعوده التي كان قد قطعها لإبراهيم واسحق ويعقوب. أيّ مملكة عظيمة، وأيّ وعد كاذب هذا الذي قطعه يهوه لشعبه المدلل! كان يجب أن تكون تلك المملكة أكبر من مملكة آشور[2] نفسها. ولكنه أفلس معهم، وكان افلاسه بحجم المملكة

المزعومة، فلم يستطع "شعب يهوه المختار" أن يستولي إلاّ على مساحة بسيطة من الأراضي الموصوفة هنا، وقد كلفهم الاستيلاء عليها عذابات وآلاماً مريرة. أمّا على ضفاف الفرات، فقد عاش اليهود عبيداً اسرى سباهم البابليون. ولم يكن نهرهم "العظيم" سوى نهر الأردن الصغير.

فما الذي فعله خليفة موسى رداً على أوامر إلهه؟

"فأرسل يشوع بن نون من شطيم رجلين جاسوسين سراً، قائلاً: اذهبا انظر الأرض وأريحا. فذهبا ودخلا بيت امرأة زانية اسمها راحاب (إحدى جدات يسوع المسيح، انظرمتىّ ١)، وباتا ليلتهما عندها" (٢ ، ١).

ومما يذكر هنا أن بعض الترجمات تعظم شأن السيدة راحاب هذه، ولكن النص التوراتي يقول بصراحة ووضوح، إن راحاب كانت تعيش على مصدر رزق واحد هو، البغاء. ولكن، لماذا نصادف مثل هذا الخلل في بعض الترجمات؟ أليس لأن هذه القحبة العلنيةاحدى جدّات يسوع المسيح، كما يقول الانجيل[٣]؟

"فأرسل ملك أريحا إلى راحاب يقول: اخرجي الرجلين اللذين أتيا إليك ودخلا بيتك، لأنهما أتيا لكي يتجسسا الأرض كلها. فأخذت المرأة الرجلين وخبأتهما وقالت: نعم جاء إلّي الرجلان، ولكنني لا أعلم من اين هما؛ وعندما آن وقت إغلاق البوابات بعد هبوط الظلام، ذهبا ولا أعلم إلى أين، اسعوا سريعاً وراءهما حتى تدركوهما" (يشوع ٢ ، ٣ ـ ٥).

وبعد رحيل رجال الملك عقدت راحاب اتفاقاً مع الجاسوسين. فقد أخبرتهما بأن البلاد أصبحت تعرف بعجائب "خروج اليهود من مصر"، وأنها تخاف الجيوش اليهودية خوفاً قاتلاً. أمّا هما فقد اتفقا معها على

علامة تنقذها وأهل بيتها من الموت عندما سيستولي اليهود على أريحا ويبيدون أهلها. ثم نزل الجاسوسان عن السور بحبل، لأن بيت القحبة كان "في سور المدينة" (٩ ـ ٢٤).

لله درّ فولتير حين لاحظ: "ما الذي أرغم ابن نون على اللجوء إلى خدمات هذه التاعسة إذا كان الله قال له بلسانه، إنه سيساعده؛ ألم يكن واثقاً من أنه سيقاتل معه؟ لقد كان يشوع على رأس جيش جبار تعداده ٦٠٠،٠٠٠ مسلّح، اختار منهم ٤٠،٠٠٠ لاقتحام أريحا، التي لم تكن محصنة في يوم من الأيام، فقد كانت عاصمة لشعب لا تجربة له في الميدان العسكري، وإلاّ لما بنى عاصمته في واد مفتوح؛ الأمر الذي أفقده إمكانية حمايتها. لم يبق من أريحا اليوم سوى بعض الأكواخ الوضيعة التي تأوي ثلاث مائة نسمة".

أما فيما يخص راحاب، فقد تساءل اللاهوتي كالميت[٤] في حينه، هل اقترفت راحاب خطيئة الكذب أم لا، حينما أكّدت بأن الجاسوسين اليهوديين ذهبا، بينما في واقع الأمر، كانا لا يزالان فوق سطح بيتها؟ ويجيب على السؤال بنفسه فيقول: حسناً فعلت، ولم تخطىء، لأنه "بما أنها كانت على معرفة بنوايا الله في إبادة الكنعانيين ودفعهم إلى ايدي اليهود، فلم يكن باستطاعتها أن تعترض على ذلك، أو تسلك سلوكاً يعيق تحقيق إرادة الله، أضف إلى هذا أنها كانت على قناعة بحسن نوايا الله وأفكاره، وكانت على معرفة بالظلم الذي كان يمارسه الكنعانيون. ولذلك لم يكن بمقدورهاأن تتصرف تصرّفاً أكثر عدالة أو تعقلاً".

فأجابه العالم فريري[٥] قائلاً: "إذا كان الأمر كذلك، فهذا يعني أن راحاب القحبة كانت ملهمة من الله كما يشوع، وهذا غريب حقاً. ولكن

يبدو على أغلب الظن أنّ علينا أن نقرّ بان راحاب كانت مجرد مجرمة تستحق أقصى العقاب، فقد خانت وطنها وسلّمته إلى برابرة متوحشين".

والآن، لنمض قدماً مع يشوع، فقد أمر بيدء الحملة على أريحا، ولكن كان ينبغي عبور نهر الأردن كخطوة أولى لا بدّ منها لبدء الهجوم. فسار الكهنة في مقدمة الحملة حاملين "تابوت العهد" ولمّا وصلوا إلى النهر، دخلوا المياه باندفاع مَنْ على يقين بحصول "عجيبة" وهذا ما حصل! ففي اللحظة التي وطأت فيها اقدامهم مياه النهر، وقفت هذه الأخيرة وكأن سدّاً غير مرئي فصل بينها. وبقي الكهنة في منتصف النهر، إلى أن عبر الشعب كله. وتخليداً لذكرى تلك العجيبة، أُقيم قرب نهر الأردن أثنا عشر حجراً. وما أن انتقل "تابوت العهد" إلى الضفة الأخرى حتى عادت المياه إلى مجراها المعتاد (الاصحاحان ٣ و ٤).ولمّا وصلت أخبار تلك العجائب إلى ملوك الشعوب الأخرى، دبّ اليأس في قلوبهم.

وهنا لفت يهوه انتباه يشوع إلى أن طقس الختان، الذي فرضه على بني اسرائيل "إلى الأبد"، قد طوه النسيان منذ "الخروج من مصر". ولا تفسّر التورات لنا سبب هذه الظاهرة الغريبة. فلم يختن أي ذكر من ذكور اليهود الذين ولدوا في الصحراء. علماً بأن عدد اليهود كان قد وصل عندئذٍ إلى اربعة ملايين نسمة من الجنسين، أي حوالي مليوني ذكر. فليتخيل قارئي الكريم أيّ كمية من جلود قضبان ذكور اليهود قطعت بأمر يشوع؟ حتى أن التورات أطلقت على المكان، الذي وقعت فيه تلك المجزرة اسم "تلّ القلف" (٥ ، ٣).

وبعد أربعة عشر يوماً حلّ الفصح وظهر أن اليهود كانوا يملكون من القمح ما يكفي لصنع الفطير، وفي ذلك اليوم نفسه، توقف نزول المنّ (٥ ، ١٢).

وحسب أوامر العجوز الكلي القدرة، أحاط الجيش اليهودي بأريحا ودار الجنود حول القلعة ستة أيام وهم يهددون ويتوعدون، بينما الكهنة ينفخون في الأبواق النحاسية، وقد أثار هذا الأسلوب القتالي دهشة المحاصرين، ولكنهم لم يستسلموا. وفي اليوم السابع دارت الجيوش مرّة أخرى سبع دورات حول سور القلعة، وهي بلباس الميدان الكامل، وكانت ترافقها في هذه المرة موسيقى أخرى أكثر قوة وعنفاً، ثم انضم إلى هذا الضجيج الوحشي صراخ وحشي أخر كان ينبعث من حناجر يهود المؤخرة. فسقطت أسوار المدينة وانهارت حصونها. فأمر يشوع بابادة السكان جميعهم، الرجال والنساء والشيوخ والأطفال، بل و " البقر والغنم والحمير" ولم ينج من تلك المذبحة سوى راحاب قحبة أريحا، وأهلها. "وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها إنما الفضة والذهب وآنية النحاس جعلوها في خزانة بيت الرب" (٦ ، ٢٣).

ما ابلغ الكلمات التي قالها اللورد بولينغبروك[٦] بهذا الصدد: "هل يعقل أن يكون اله أباًللناس كلهم، وفي الوقت نفسه يقود ذلك البربري المتوحش ويرافقه؟ إن أكثر آكلي لحوم البشر دموية تخجل أن يكون شبيهاً لابن نون! يا عظمة الله! لقد أتى من عمق الصحراء ليبيد مدينة غريبة ويقتل سكانها كلهم، ويذبح حيواناتها كلها ثم يحرق منازلها بما فيها، بينما هو لا يملك سقفاً يأوى تحته، ولم يرحم سوى قحبة نتنة خانت وطنها، واستحقت أن تُسام مرّ العذاب. ولو لم تكن هذه الخرافة عديمة الجدوى، لكانت مثيرة للاشمئزاز وحسب. وعلى اي حال، لا يستطيع كتابة مثل هذه الأشياء سوى سكير نذل، ولا يصدقها سوى سكير أحمق نهش الغباء ما في جمجمته".

لقد كان صاحب هذه السطور واحداً من أبرز رجال انكلترا. فبعد أن صار بولينغبروك وزير خارجية بلاده، غدا ملهم اتفاق السلام الاوترختي الشهير وصانعه، ذلك الاتفاق الذي وضع نهاية لحروب لودفيغ الرابع عشر الدموية، ويُعدّ ذلك الاتفاق عملاً عظيماً بحق، وهو مأثرة حياة هذا الرجل الذي قال عن التورات: "إنها لوصمة بحق الله وظلم بحق البشر، أن ينظر إلى هذا التداخل الرث بجدية؛ فقد تشابكت فيها السابقات تشابكاً يتسم بدرجة عالية من التشويش، أو بمستوى رفيع من الشناعة والقبح".

لنعد إلى مؤلفنا "المقدس" وترهاته، فقد زعم أن الاستيلاء على اريحا وتهديمها كانا سبباً لحوك المؤامرات ضد "اسرائيل". فلما رأى ملوك تلك المنطقة واقع فهم اليهود للاحتلال، وطريقة تعاملهم مع المدن التي يستولون عليها، قرروا أنه، أفضل للجنس البشري أن يباد مثل هؤلاء البرابرة قبل أن يتسنى لهم إبادة الباقية من حضارة المنطقة. لذلك تداعو لعقد حلف ضد ذلك الوباء، واتخذوا قرارات هامة بهذا الصدد[٩].

بيد أن ملوك كنعان لم يحسبوا حساباً لعامل هام كانت له أهمية "مقدسة": لقد كان الله نفسه مع يشوع بن نون، فنشر الفوضى والبلبلة بين صفوف جيوشهم، وتمكن الاسرائيليون من "ضربهم ضربة عظيمة في جبعون، وطردهم في طريق عقبة بيت حورون، ورماهم وضربهم إلى عزيقة وإلى مقيدّة" (يشوع ١٠ ، ١٠). أضف إلى هذا كله أن الله العطوف اشترك في المعركة نفسها، بدافع الغطرسة على اغلب الظن: "بينما هم هاربون من أمام اسرائيل، وهم في منحدر بيت حورن، رماهم الرب بحجارة عظيمة من السماء إلى عزيقة فماتوا، والذين ماتوا بحجارة البرد هم أكثر من الذين قتلهم بنو اسرائيل بالسيف[١١].

بيد أن يشوعاً لم يعتبره نصراً كاملاً. "حينئذٍ كلّم يشوع الرب يوم أسلم الرب الاموريين أمام اسرائيل، وقال أمام عيون اسرائيل: يا شمس دومي على جبعون ويا قمر على وادي إيلون! فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه. أليس هذا مكتوباً في سفر ياشر: "فوقفت الشمس في كبد السماء، ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل"؟ ولم يكن مثل ذلك اليوم قبله ولا بعده، سمع الرب صوت إنسان لأن الرب حارب عن اسرائيل" (١٠ ، ١٢ ـ ١٤).

عندما تقرأ هذه الرواية تعتريك الدهشة، فبعد الحجارة التي هطلت من السماء على رؤوس الأعداء، كان يشوع بحاجة إلى عجيبة أخرى، فأوقف مسير الشمس والقمر. وحسب القصة أن قنديل النهار كان لا يزال عالياً، وبدا ان الوقت يكفي لقطع رأس أخر الهاربين قبل هبوط الظلام فوق طريق حورون؛ هذا إذا افترضنا ان احداً قد نجا من حجارة العجوز الحقود. والحقيقة ان اللاهوتيين سيعترضون قائلين: لقد فرّ بعض الهاربين بسرعة كبيرة جداً، لدرجة ان ادراكهم استغرق سبع ساعات اخرى ولكن العلم لم يستطع ان يتبين او يبينّ حتى الآن، كيف توقفت الشمس عن المسير وهي لا تدور حول الأرض اصلاً، ونحن لانستطيع أن نفهم ايضاً كيف كان ذلك اليوم اطول بضعفين من أيّ يوم آخر، دون ان يحدث أيّ خلل في الكواكب وانتظام الظلام. لقد أثارت "عجيبة يشوع هذه كثيراً من الضحك لذى كل متنوّر، وهذه هي ايجابيتها الوحيدة".

يقال إن احدى محاكم التفتيش اتهمت عالماًبتأييد تعاليم كوبونيكوس عن دوران الأرض حول الشمس،فاجاب بحنكة العلماء وفطنتهم،:"اعتقد انه بعد عجيبة يشوع بن نون لم تعد الشمس تدور حول الأرض".

كان يقود جيوش العموريين، التي ابادها اليهود، خمسة ملوك، بدا انهم افلحوا في التخلّص من حجارة يهوه وسيوف احبائه، فالتجؤوا إلى احد الكهوف (١٦)، ولمّا وصل الخبر الى يشوع امر باغلاق باب المغارة بحجارة كبيرة (١٨)، فالقى الملوك الخمسة انفسهم في مصيدة للفئران، ثم امر يشوع باخراجهم من هناك، وطلب إلى قادة جيوشه ان "يتقدموا ويضعوا أرجلهم على اعناق الملوك الخمسة". وبعد ان اوسعوهم ضرباً، قتلوهم وعلقوا جثثهم على خمسة اعواد، وفي المساء اعيدت الجثث إلى الكهف، واعيد إغلاق مدخله بالحجارة، ويؤكد المؤلّف "المقدس" ان ذلك كله بقي "حتى هذا اليوم عينه" (٢٢ ، ٢٧).

وتابع ابن نون انتصاراته وبطولاته "الفذّة"، فضرب كل ارض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وكل ملوكها: لم يبق شارداً، بل حرّم كل نسمة، كما امر الرب إله اسرائيل" (١٠ ، ٤٠) ثم طارد الملوك الآخرين كلهم حتى صيدون، وقتلهم كلهم، ولم يبق احداً منهم قط، عرقب خيلهم واحرق مركباتهم بالنار. ثم رجع يشوع في ذلك الوقت واخذ حاصور وضرب ملكها بالسيف (منذ قليل كانت حاصور زعيمة تحالف الملوك الخمسة، الذين دفنوا في المغارة)؛ وضربوا كلّ نفس بها بحدّ السيف حرّموهم. ولم تبق نسمة، واحرق حاصور بالنار" (١١ ، ٩ ـ ١١). و"حارب يشوع الملوك اياماً كثيرة" (١٨). "وجاء يشوع في ذلك الوقت وقرض العناقيين الملوك من الجبل، فلم يبق عناقيون في ارض بني اسرائيل، لكنهم بقوا في غزة وجت واشدود" (٢١ ـ ٢٢). "جميع الملوك، واحد وثلاثون".

واحد وثلاثون ملكاً؟! ليأخذهم شيطان! ولكن، أليس هذا كثيراً جداً بالنسبة لأرض لا يبلغ امتدادها سوى بضع عشرات من الكيلومترات؟

بعد ان قضي تماماً على "الشعوب" التي كانت تستوطن "ارض الميعاد" غدا اليهود سادتها لا ينازعهم عليها منازع. ولم يبق سوى توزيعها على قبائلهم، ومن الاصحاح ١٣ حتى ٢١ ضمناً. يسرد كتاب يشوع بالتفصيل القاتل، اسماء قطع الأرض التي وزعت على كل "سبط" من اسباط بني يعقوب. ونصادف في الفصول المذكورة تعداداً لكمّ من "المدن". فعلى سبيل المثال، حصلت قبيلة يهوذا على مائة مدينة، ما عدا القرى. وقد ذكر يشوع في اصحاحه (١٥ ، ٢٠ ، ٦٣): امّا اللاويون فقد حصلوا على ثمان واربعين مدينة موزعة في اراضي القبائل الاثنتي عشر؛ وحددت ست مدن منها كملاجئ (اصحاح ٢٠ ، ١) وكان يهوه نفسه قد قال: يشغل اللاويون ثمان واربعين مدينة مبعثرة في اراضي "الأسباط" الاثني عشر. فيعيشون وتسرح قطعانهم في ضواحيها، اضف إلى هذا، ان مدن اللاويين مسارح "تكون من أسوار المدينة الى جهة الخارج الف ذراع حواليها" (عدد ٣٥). امّا المدن الملاجئ الست، فقد خصصت لايواء الذين ارتكبوا جرائم قتل عن غير قصد. وقد رأى اللورد بولينغبروك، ان كاتب هذه النصوص التوراتية لاويّ جاهل: ويبدو انها كتبت في الزمن الفاصل بين الممالك، اي بعد عصر يشوع بعصور كثيرة. يقول اللورد: لم يكن لليهود في أيّ حقبة من تاريخهم ٤٨ مدينة محصنة. وبالكاد كان لدى هيرودوس مثل هذا العدد من المدن، وهو الملك اليهودي الجبار الوحيد ففي زمن داود، كانت اورشليم هي المدينة الوحيدة التي سكنها اليهود. فهؤلاء كانوا قوماً رحّلاً قليلي العدد. ولم يكن عندهم أيّ مدن في عهد يشوع بل يمكن ان يقال الشئ نفسه عن عهد القضاة ايضاً.

امّا لائحة اسماء المدن التي جاءت في كتاب يشوع، فهي كذب وتضليل... ولم يكتف ذلك اللاوي الجاهل بتلك الحماقات كلها، فأكد

على وضع ست مدن اخرى تحت تصرّف اللاويين لايواء المجرمين القتلة. فايّ تشجيع وايّ تسهيلات قُدمت لهذه الفئة! وانت سيدي القارئ، تقف حائراً تتساءل: ما الذي يثير الاشمئزاز اكثر، الغباء المتمثل في تخصيص ٤٨ للكهنة في تلك الصحراء، أو تحصيص ست منها ملاجئ للقتلة؟

حسب هذا النص التوراتي الشهير، انه كانت لدى القبائل الاسرائيلية حوالي ٦٠٠ مدينة. والحقيقة ان المخيلة الدينية لا حدود لها، مدى الاختلاق واسع رحب، حتى وإن كان "الروح القدس" نفسه ملهم التورات! لاحظ معي يا سيدي ان ذلك الاقليم من العالم لا يشغل سوى درجتي طول في اكثر مناطقه اتساعاً، ودرجتين ونصف درجة عرض في اكثر حقب ازدهار جبروت اليهود، وهي ليست حقبة يشوع بالطبع.

ولمّا انتهى خليفة موسى من توزيع "ارض الميعاد" رأى ان مهمته انتهت فقرر ان يموت وعمر ١١٠ سنوات. لكنه استمّر بقتل الناس ويبيد الشعوب حتى آخر لحظة في حياته، ففصول كتابه تردد بغير ملل انه لم يبق على نسمة واحدة من الشعوب التي انتصر عليها. لكن الطريف في الأمر، اننا نقابل، بعد موته. الشعوب التي كان قد ابادها عن بكرة أبيها، وهي اكثر ازدهاراً وقوة من اي وقت آخر. فهي الشعوب نفسها التي جعلت من احبّاء يهوه ويشوع عبيداً اذلاء الى ان قام شاول وداود.

الفصل الثاني والعشرون

تاريخ القضاة "المقدس"

يبدأ كتاب القضاة رواياته بوصف حرب قبيلتي يهوذا وشمعون ضد ١٠،٠٠٠ كنعاني يقودهم أدوني بازق. وغني عن القول، إن هذا الجيش الكنعاني الذي ظهر هنا على حين غرّة، قد أبيد عن بكرة أبيه بالسيف الاسرائيلي، وقد سيم أدوني بازق أقسى العذاب قبل أن يُذبح، فاقتلع "جنود يهوه" الاصابع الكبيرة من يدّي الرجل وقدميه. وعندئذٍ قال أدوني بازق: "سبعون ملكاً مقطوعة أباهم ايديهم وارجلهم كانوا يلتقطون تحت مائدتي؛ وكما فعلت، كذلك جازاني الله. وأتوا به إلى أورشليم فمات هناك" (قضاة ١ ، ٧).

إذاً كان أدوني ملكاً جباراً، طالما أنه استطاع أن يأسر سبعين ملكاً. وتقول التورات إن عاصمته كانت في مدينة بازق، بيد أن الآثاريين والمؤرخين لم يقعوا على اثر لهذا الملك الجبار أو لمملكته. وهو أمر غريب حقاً، لأن المائدة الكبيرة، التي كان يلتقط الفتات تحتها سبعون ملكاً، كانت قمنية وحدها أن تصنع له مجداً لا ينسى.

ومهما كانت الحال، فإننا إذا أضفنا هؤلاء الملوك السبعين إلى الملوك الواحد والثلاثين الذين ابادهم يشوع بن نون، لأصبح لدينا، إضافة إلى الطاغية ادوني بازق، مائة وملكان؛ أي أنه كان يوجد في أرض كنعان مائة ومملكتان. وإذا ألقينا نظرة إلى الخارطة الجغرافية وقسمنا أرض الكنعانيين إلى مائة جزء فقط، فلن يصيب الجزء الواحد منها أكثر من مائتي كيلومتر مربع، وهي مساحة صغيرة بعض الشيء بالنسبة للمملكة، أليس كذلك؟ ولكن بما أن "الكتاب المقدس" لا يقول إلاّ الحقيقة، فإنه ينبغي علينا إذاً أن نتخيل تلك الممالك يزحم بعضها بعضاً، ولا ريب أن الازدحام كان يسود داخل كلّ منها أيضاً؛ ومن هنا جاءت مهمة بني اسرائيل في إعادة الأمور إلى نصابها وباستيطانهم "أرض الميعاد" بدلاً من الكنعانيين.

ولكن أمراً آخر يبلبل ذهن المؤمن وهو، كيف لم يستطع يهوه الكلي القدرة أن يحسم الأمر مع بعض الكنعانيين؟ فبعد أن أبادهم يشوع بن نون عن بكرة أبيهم، عادوا ليظهروا ثانية وكأن الأرض انشقت وقذفت بهم في هذا البلاد الفريدة.

"وكان الله مع يهوذا فملك الجبل، ولكنه لم يطرد سكان الوادي، لأن لهم مركبات حديد" (قضاة ١ ، ١٩). يبدو أن احتياطي يهوه من الحجارة السماوية كان قد نفذ حتى ذلك الوقت. ونحن إذا أمعنا النظر في هذا النص التوراتي لتساءلنا، كيف تسنى للكنعانيين، الذين نجوا بأرواحهم بفضل عرباتهم السريعة، أن يستخدموا تلك العربات في بلاد جبلية تكثر فيها المنحدرات؟ فالتاريخ يقول لنا: إن العربات القتالية ظهرت في المناطق السهلية. وأن أوّل من استخدمها هم الفرس والبابليون، ولكن بعد أن انقضت ثلاثة قرون على زمن يشوع بن نون.

ويبيّن لنا الاصحاحان الثاني والثالث من كتاب القضاة، أن الاعتراف بجميل يهوه كان لا يزال شأناًغريباً عن اليهود. ولذلك سرعان ما أنزل فيهم عقاباً شديداً، فهزمهم أمام الكنعانيين وسقطوا عبيداً تحت اقدامهم. فبعد وفاة يشوع، اختار اليهود قضاة ليحكموا فيهم. وكانت تلك واحدة من الحقب المظلمة الكثيرة في تاريخ اليهود. لقد ترك بنو اسرائيل "الرب إله آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر،وساروا وراء آلهة أخرى من الشعوب التي حولهم وسجدوا لها وأغاظوا الرب. تركوا الرب وعبدوا البعل وعشتروت" (٢ ، ١٢ - ١٣).

"فسكن بنو اسرائيل في وسط الكنعانيين والحثيين والاموريين والفرزيين والحوّيين واليبوسيين، واتخذوا بناتهم زوجات لهم، وأعطوا بناتهم لبنيهم، وعبدوا آلهتهم" (٣ ، ٥ - ٦).

ولكي نستطيع أن نعطي تقويماً أفضل لتلك الزيجات الغريبة، ينبغي علينا أن نستذكر مرّة أخرى، أن جيش يشوع بن نون المؤّلف من ست مائة ألف مقاتل، كان قد اباد سكان هذه البلاد حتى أخر نسمة، وإذا كان موسى قد أبقى على حياة اثنين وثلاثين ألف عذراء كنعانية، فان خليفته المتوحش لم يبق على حياة أيّ كائن: "لا انسان ولا حيوان".

"فحمي غضب الرب على اسرائيل ودفعهم إلى يدكوشان رشعتايم، ملك آرام النهرين، فعبد بنو اسرائيل رشعتايم ثماني سنين" (٣ ، ٨).

/يقول الناقد الانكليزي وولستون،[1] بصدد هذا النص إنه ينبغي علينا أن نختار بين تاريخ يشوع بن نون وتاريخ القضاة، لأن أحد هذين التاريخين كاذب بالضرورة؛ فالسفرين "المقدسين" يحتويان على تناقضات مدهشة ينفي أحدها الأخر نفياً قاطعاً. "فليس من المعقول أن يسقط اليهود في

العبودية مباشرة بعد أن أبادت جيوشهم الجبارة سكان أرض كنعان الأصليين كلهم، ثم من هو كوشان رشعتايم ملك بلاد ما بين النهرين الذي نزل على بني اسرائيل كالقضاء العاجل ووضع القيود في ايديهم وأرجلهم؟ كيف جاء من بلاده البعيدة؟ ولماذا لا نعرف شيئاً عن حملته؟ والحقيقة أن "الكتاب المقدس" يقول: إن، ذلك كان عقاباً من الرب، أنزله في اليهود عقاباً لهم على تزواجهم مع الشعوب الكنعانية، ولكن أيّ قوم من الأقوام المتوحشة يستطيع أن يقول هذا؟ أن أحداً لا يعقل إمكانية استبعاد شعب تعداده أربعة ملايين نسمة، وعنده ست مائة ألف مسلّح،، فما بالك إذا كان مستبعدوه هم شعوب الأرض التي سحقها لتوه واستولى على بلدانها. ولا يعقل أيضاً أن تكون جيوش يهوه البربرية أبادت السكان الأصليين إبادة تامة، وإلاّ كيف استطاع "شعب يهوه المختار" أن يتزاوج مع شعب ابيد لتوه؟ لا ريب أن الدفاع عن هذا الكمّ من التناقضات هو، ضرب من المستحيل".

يقول سفر القضاة: بعد ثماني سنوات ظهر القاضي عثنيئيل وحرر اليهود من العبودية، وأنهم قتلوا كوشان (٩ ـ ١٠) لكن التورات لم تعط أيّ معلومات أخرى عن تلك الحرب التي كانت قاسية جداً، على أرجح تقدير، بيد أن أيّ مصادر تاريخية أخرى لم تشر إليها.

وبعد أربعين عاماً (١١ ـ ١٤) سقط اليهود من جديد، عبيداً عند الملك الموآبي عجلون؛ على الرغم من أن مملكة موآب كانت قد بادت واندثرت منذ زمن طويل، وفق التورات نفسها، كما أبيد سكانها الموآبيون والمديانيون على يد اليهود غير مرّة، وفي كل مرّة لم يكن يبقى أحد منهم؟!

لقد استمرت العبودية الموآبية ثمانية عشر عاماً، إلى أن انتهت على يد

أهود وهو يهودي لا تقول التورات عنه شيئاً سوى أنه أعسر. حمل أهود الهدايا إلى الملك عجلون وطلب أن يستقبله على انفراد، متذرعاً بأن عنده له سرّ يريد أن يفضي به إليه. فأمر الملك الحضور بالخروج وبقي مع اليهودي وحيداً، فاستل الأخير سيفه "وضربه في بطنه" ثم فرّ هارباً دون أن يلحظه أحد (٢١ - ٢٢). فأيقظت هذه العملية الارهابية الحماس في صفوف اليهود، فقاموا وقتلوا عشرة آلاف موآبي وعمّ السلام البلاد ثمانين عاماً.

"وكان بعده (بعد أهود) شمجر بن عناة الذي قتل ست مائة فلسطيني بمنساس البقر، وهو أيضاً خلّص اسرائيل" (٣٠ ، ٣١).

ولكنّ شعب الاله يهوه ما لبث أن وقع في عبودية الملك الكنعاني يابين. ولكن، لحسن حظه أن امرأة تدعى ديبورة، وهي نبية محترمة، بُعثت فيه، فدعت إليها باراقاً وأيقظت فيه حمية الرجال، كما أيقظتها في عشرة آلاف مقاتل من بني زبولون ونفتالي قادهم باراق إلى المعركة؛ فقضى قضاء تاماً على جيش يابين الذي كان يقوده سيسرا، وشتته إلى شراذم صغيرة، في أول مواجهة بين الجيشين.

بيد أن "الجنرال" سيسرا تمكن من الفرار، وجاء واختبأ في خيمة ياعيل، امرأة حابر، الذي يدعوه المؤلف "المقدس" بالقيني. كانت ياعيل امرأة مضيافة، وهي التي دعت سيسرا ليختبيء عندها، ولكنها لم تفعل ذلك إلاّ بعد أن همس لها ربّ الجنود بكلمتين اثنتين. فخرجت للقاء الجنرال ودعته قائلة: "ملْ يا سيدي، ملْ يا سيدي و لا تخف" (٤ ،١٨).

وما أن دخل سيسرا خيمتها حتى قدمت اللبن له فارتوى منه، فغطته باللحاف. وعندئذٍ أخذت ياعيل وتد الخيمة والميتدة، واقتربت منه بهدوء ثم دقتّ الوتد في صدره فاخترقته إلى الأرض "وإذا بباراق يطارد سيسرا،

فخرجت ياعيل لاستقباله وقالت له: تعال فاريك الرجل الذي أنت طالبه، فجاء إليها وإذا سيسرا ساقط ميتاً والوتد في صدغه" (٤ ، ٢٢).

وقتل اليهود الملك يابين، كالعادة، وقد اتبعوا في ذلك طريقة يهوه المعروفة. ثم أنشدت ديبورة بالمناسبة، واحداً من أناشيدها الجميلة، تغنتّ فيه بتلك المجزرة(٥). ولكننا نعفي القارىء من هذا الهراء السخيف.

غير مصائب اليهود لم تنته عند هذا الحدّ. فقد ظهر المديانيون من جديد (أشباحهم!)[٢]، ووضعوا نصب أعينهم هدف افساد حياة أحفاد يعقوب. ومع أن الاخيرين لم يكونوا عبيداً عند المديانيين، إلاّأنهم كانوا عرضة لمختلف ضروب الاذلال والهوان، لقد زرعوا الأرض وانتظروا محصولاً جيداً، فجاء المديانيون الحقول على ظهور كثرة كثيرة من الابل، فأبادوا المزروعات كلها، وساقوا الثيران والبقر والقطيع، وأتلفوا البساتين. وتزعم التورات أن اليهود المساكين ألفوا أنفسهم مرغمين على الصعود إلى الجبال والعيش في الكهوف لينجوا بأرواحهم من سيوف المسعورين (٦ ، ١ ـ ٦). واستمرت هذه المضايقات سبع سنوات متتالية، إلى أن عطف الاليه الطيب أخيراً وأرسل لشعبه المدلل بطلاً جديداً.، وكي يكون المثال أكثر إثارة للدهشة، وقع اختيار العجوز هذه المرة، على الشاب الضئيل جدعون، الذي كان سقيماً واهناً بالكاد يستطيع أن يساعد والده في عمله. ففي أحد الأيام ظهر "ملاك الرب" لجدعون صباحاً "وقال له: الرب معك أيها الجبار" (٦ ، ١٢). ولم يصدق جدعون كلام الملاك، خاصة بعد أن اخبره بأن مهمة تحرير اسرائيل من المديانيين قد القيت على عاتقه هو. "إن كنت قد اصبت حظوة في عينيك، فاعطني علامة على أنك أنت الذي تكلمني: لا تبرح من هنا حتى آتيك وأخرج تقدمتي وأضعها أمامك. فقال له: إنني مقيم حتى

تعود. فدخل جُدعون وأعد جدياً من الماعز، وإيفة دقيق فطيراً، وجعل اللحم في سل ومرق اللحم وضعه في قدر، وخرج إليه تحت البطمة وقدمه. فقال ملاك الله: خذ اللحم والفطير وضعهما على هذه الصخرة وصب المرق. ففعل كذلك. فمدّ ملاك الرب طرف العصا التي بيده ومسّ اللحم والفطيرة، فصعدت نار من الصخرة وأكلت اللحم والفطير، وغاب ملاك الرب عن عينيه" (٦ ، ١٧ - ٢١)..

عندئذٍ دعا جدعون عشرة من خيرة خدم والده، ومضى معهم ليلاً فهدم مقام بعل، وقطع اشجار الحرشة المكرسة لآلهة مديان، وأقام ناراً من أخشاب تلك الاشجار، ثم قدم ثوراً كاملاً قرباناً ليهوه. ولّما ذاع خبر الاعتداء على المكان المقدس، ثارت ثائرة سكان المدينة وطلبوا رأس جدعون. ولكن والده يوآش رفض تسليم ابنه إلى الحشد الساخط، فثارت ثائرة اعداء اسرائيل كلهم، واتحد "المديانيون والعماليق وكل سكان الشرق"، ثم عبروا الاردن واقاموا معسكراً لهم في وادي يزرعيل. "وحلّ روح الرب على جدعون".

بيد أنه كان لا يزال يتساءل ما إذا كان الرب قد اختاره هو حقاً لابادة اعداء اسرائيل. فدعا قبائل مناسي وأشير وزبولون ونفتالي، وهي القبائل التي كان اعتماده الأكبر عليها. وبعد ذلك طلب من الرب أن يؤكد له بالدليل القاطع، أنه يسانده حقاً..

"وقال جدعون لله: إن كنت مخلص بني اسرائيل على يدي، كما قلت، فها أنذا واضع جزاز الصوف في البيدر، فإذا سقط الندى على الجزاز وحده، وعلى سائر الأرض جفاف، علمت أنك مخلص اسرائيل على يدي كما قلت. فكان كذلك.. وبكر في الغد فعصر الجزاز فخرج منه من الماء سطل. فقال جدعون لله: لا تغضب عليّ فإني اتكلم هذه المرة فقط،

واجرب هذه المرة بالجزاز. ليكن على الجزاز وحده جفاف، وعلى سائر الأرض ندى، فصنع الرب كذلك في تلك الليلة، فكان على الجزاز وحده جفاف وعلى سائر الأرض ندى" (٦ ، ٣٦ - ٤٠)..

حقاً إنها لعجيبة الهية لا شائبة فيها! وأظن أنكم فتنتم بها أيضاً حتى الأعماق..

لقد انتشرت اخبار تلك العجائب العظيمة بين الاسرائيليين انتشار النار في الهشيم، وجاء بنو يعقوب كلهم ليحاربوا إلى جانب جدعون. بيد أن حماسهم لم يدم طويلاً. فقد قال "بطلنا" في احدى خطبه: "من كان خائفاً مرتعداً فليرجع وينصرف"، وبعد هذه الكلمات لم يبق معه سوى عشرة آلاف مقاتل. ومع ذلك رأى يهوه أن العدد ما زال كبيراً جداً، فاقترح على جدعون انتقاء مجموعة من الاشداء الشجعان لترافقه في حملته. فأمر جدعون الآلاف العشرة أن تنزل إلى النهر لتشرب. أما هو فقد وقف يراقب الحشد الظامئ بانتباه شديد. وقبل ذلك كان الرب قد قال له: "كل من ولغ في الماء بلسانه كما يلغ الكلب، أقمه ناحية، وكذا كل من جثا على ركبتيه ليشرب. فكان عدد من ولغ في الماء من راحته إلى فمه، ثلاث مائة رجل، وسائر الشعب أجمع جثا على ركبه ليشرب. فقال الرب لجدعون: بهولاء الثلاث مائة رجل الذين ولغوا، اخلّصكم وادفع مدين إلى يدك، وسائر القوم فليرجع كل واحد إلى موضعه" (٧ ، ٥ - ٧)..

وهكذا أخذ جدعون الثلاث مائة رجل "الذين ولغوا كالكلاب"، آملاً على ما يبدو، أن تظهر انيابهم الحادة في الوقت المناسب. والآن قارئي الكريم، انتبه من فضلك ولا تتجاوز اي سطر من سطور رواية البطولات التوراتية الجديدة، وسترى بأم العين،أن الاسكندر المقدوني، يوليوس قيصر

ونابليون بونابرت لم يكونوا أكثر من صبية أغرار، إذا ما قورنوا بجدعون السقيم، قائد جيوش صاحب الجلالة يهوه "ملك السماء".

كان معسكر المديانيين يقوم في الوادي. فقسم بطلنا مغاويره الثلاث مائة، إلى ثلاث مجموعات، وأعطى بوقاً لكل مقاتل منهم، اضافة إلى جرة فخار فارغة في داخلها مشعل. "وقال لهم: كما ترونني أصنع فاصنعوا أنتم، وها أنذا داخل إلى طرف المعسكر، فافعلوا كما أفعل. ومتى نفخت في البوق أنا وجميع من معي، فانفخوا أنتم في الابواق أيضاً حول المعسكر، وقولوا: للرب ولجدعون!" (٧ ، ١٧ - ١٨)..

ثم أقام المهاجمون ينتظرون هبوط الليل. ولما هبط، نزل جدعون مع والغيه الثلاث مائة إلى معسكر المديانيين. وبعد أن اشعل كل منهم مشعله ووضعه في الجرة الفارغة، نفخ جدعون ورجاله في الابواق على حين غرة، وشرعوا يكسرون الجرار محدثين ضجيجاً صاخباً، وترافق ذلك كله بصراخ وحشي اطلقته حناجرهم. فأفاق المديانيون في حال من الهلع والبلبلة وشرعوا يذبحون بعضهم.

وتسوق التورات تعداداً لضحايا تلك المجزرة: قتل رجال افرائيم "جنرالين من المديانيين هما: عوريب وزيب، بينما قتل جدعون نفسه، الملكين، زاباخ ووصلمناع. ثم يقول النص "المقدس" أن "زاباح وصلمناع كانا في قرقر ومعهما نحو خمسة عشر ألف مقاتل هم كل ما بقي من جيش المشرق كله، وكان الذين قتلوا مائة ألف وعشرين رجلاً مخترط سيف" (٨ ، ١٠).

إذاً، لقد كان عدد الذين نزلوا في وادي يزرعيل من المديانيين والعماليق وشعوب الشرق الأخرى، حوالي ١٣٥٠٠٠ رجل. إنه لمعسكر ضخم حقاً! فاقامة معسكر لمائة ألف رجل تحتاج إلى ١٥ كم^{٢} من الأرض. وبما أن

رجال جدعون بقوا "كل في مكانه"، فهذا يعني أنه كان عليهم، لكي يحيطوا بالمعسكر، أن يتوزعوا سلسلة المسافة بين كل حلقة من حلقاتها ٥٠ ـ ٧٠ متراً. وإذا تذكرنا أن العملية وقعت ليلاً، فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف استطاع "الوالغون" الثلاث مائة ان يروا بعضهم من تلك المسافة، وأن يكرر كل منهم حركات "المارشال" جدعون وهو يكسر الجرة؟ وفي نهاية الأمر، أي انطباع يمكن أن يولده تكسير ثلاث مائة جرة على خط امتداده بين ١٥ ـ ٢٠ كم؟! لنفرض أن أولئك الرجال الثلاث مائة دخلوا معسكر الخصم في انساق متراصة، فما هو تأثيرهم في مساحة قدرها ١٥ كم[٢]؟ فما بالك وقد كانوا موزعين على الخط الخارجي للمعسكر؟ لا ريب أن تأثيرهم كان يساوي صفراً؛ وأن خطة "المارشال" الأبله ذهبت كفقاعة صابون. وإذا كان هذا السقيم قد استطاع أن يفعل شيئاً، فإن ما فعله فعلا هو، واحدة "من العجائب الالهية العظمى" وحسب. ولكن، ربما أحدث يهوه بالثلاث مائة بوق ضجيجاًيعادل ضجيج ثلاث مائة ألف منها، ثم زاد صخب تكسير الجرار الثلاث مائة بنسبة ألف مرة؛ وردد زعيق الوالغين الثلاث مائة عبر صدى الهي خارق!!! على أي حال، لا تقول التورات شيئاً بهذا الصدد. ولكن، من الواضح أن حكاية "الحمامة" الالهية في صيغتها هذه، ليست سوى هراء مستحيل ممسوخ.

ولكن مهما تعددت التأويلات وكثرة التعليقات، فإن جدعون غدا في زمنه، أكثر رجال بني يعقوب شهرة وأوسعهم شعبية. ولذلك كان من قبيل تحصيل الحاصل أن يعرضوا عليه أن يصبح ملكاً عليهم؛ بيد أن بطلنا كان متواضعاً بقدر ما كان عملياً. فقد رفض التاج وطلب متواضعاً: "خرصاً من غنيمة كل منكم". وقد بلغ وزن الخروص التي قدمت له ١٧٠٠ ثقل ذهباً.

ثم تتابع التورات قصة جدعون، فنعرف منها أنه كان رجلاً مزواجاً انجب سبعين ولداً (٨ ، ٣٠). وكان له ولد يدعى ابيمالك انجبته له سريته التي كانت تقيم في شكيم. وفي أحد الايام الهادئة قام ابيمالك وذبح اخوته "على صخرة واحدة"، ما عدا اصغرهم الذي اسمه يوثام، إذ تمكن من الهرب والتخفي. وكان أهل شكيم فخورين بابن مدينتهم المقدام، فجعلوه ملكاً غليهم، لكنه ما لبث أن فقد شعبيته، فاندلعت في عاصمته "حركة ثورية" اطلقها المدعو جاعل. إلاّ أن ابيمالك استولى على المدينة واقام في أهلها مذبحة مروّعة، فتحصن قادة الانتفاضة في برج شكيم، فحاصرهم واحرق البرج.

وبعد ردح قصير ضرب ابيمالك طوق الحصار حول مدينة تاباص، لكنه تلقى فيها حجرا على أم رأسه، قذفته به احدى نساء المدينة من أعلى البرج. وغني عن القول، إن الحجر هشم رأس "الملك". غير أن ابيمالك، تمالك نفسه لبرهة وقال لاحد رجاله: "اقتلني لئلاّ يقال: قتلته امرأة" (٩ ، ٥٤): فانفذ الفتى سيفه في مليكه وقتله.

هكذا انتهى ابن جدعون الشهير. وبعده تذكر التورات السيدين، تولع بن فوأه بن دودو، ويائير الجلعادي، اللذين صارا قاضيين في اسرائيل. وكان عمر الأول٢٣ عاماً، وعمر الثاني٢٢ عاماً. وتفيد التورات بأنه كان لهذا الأخير ٣٠ ولداً يركبون ٣٠ حماراً فتياً. وما عدا هذا التفصيل "المقدس"، لا تذكر التورات عنهم شيئاً...

الفصل الثالث والعشرون

يفتاح وشمشون

لم يستفد يهود ذلك الزمان من الدروس والمحن التي تلقوها وعانوا منها، فقد كانوا يميلون للعبادات الوثنية دائماً، ويرمون جانباً عبادة إلههم يهوه على الرغم من أنه كان عليهم ألاّ ينسوا لحظة واحدة، الويلات التي لحقت بهم من جرّاء السجود لبعل وعشروت والعجل وغيرها من الأصنام التي كان العجوز يهوه يغار منها غيرة قاتلة، وهاهم يسقطون مرة أخرى في "مستنقع" الوثنية، فعوقبوا بالعبودية عند العمونيين هذه المرة، وكانت هذه هي المرة السادسة التي يسقطون فيها عبيداً في البلاد التي كان جيشهم المؤلف من ست مائة ألف مسلح قد استولى عليها، البلاد التي اباد يشوع بن نون سكانها عن بكرة أبيهم.

وبعد ثمانية عشر عاماً من العبودية، عاد اليهود ليجدوا "نعمة" في عيني عجوزهم الطيّب، فوجد لهم بطلاً يحررهم هذه المرّة أيضاً. "وكان يفتاح الجلعادي جبار بأس، وهو ابن امرأة بغي ولدته لجلعاد. ثم ولدت زوجة جلعاد له بنين؛ فلما كبروا طرد يفتاح وقالوا له: ليس لك ميراث في بيت

أبينا لأنك ابن امرأة غريبة. فهرب يفتاح من وجه أخوته وأقام في أرض طوب؛ فاجتمع إليه قوم بطّالون، وكانوا يخرجون معه" (١١ ، ١ - ٣).

قصارى القول، ان ابن العاهرة هذا صار زعيم عصابة من اللصوص، وقطاع الطرق، وهو بالذات مَنْ اختاره يهوه لتحرير بني يعقوب من القهر. والحقيقة أن الرجل أباً رائعاً، وهذه واحدة من ميزاته الحسنة، فلم يكن له من الذرية سوى ابنة واحدة وحيدة، وكان هو يحبها حباًبلغ درجة العبادة، فقد أغرقها بالجواهر والثياب الفاخرة، فالحصول على مثل هذه الأشياء لم يكن يمثّل أي صعوبة بالنسبة للص قاتل.

وهاهم أبناء جلدته يأتونه في يوم من الأيام متوسلين أن ينقذهم من نير العمونيين فلبّى الرجل طلبهم وبدأ حملته. ومن المعروف بالطبع، أن أي لصوصية لا تنفي التقوى، وهو ما ينسحب على الجلعادي أيضاً؛ فقد رفع يفتاح صلاته إلى ربه ونذر أن يقدم له أول فرد من أفراد عائلته تقع عليه عينه فور عودته منتصراً.

وغني عن القول، إن أيسر الأمور على يهوه كان، ترتيب انتصار محسوب، وبما أن العجوز أحب يفتاح كثيرآ، وأحسّ بطعم الذبيحة المنذورة، فقد ضاعف قدرة بطله عشر مرات، الأمر الذي أدى إلى تمزيق العمونيين إلى شرذام صغيرة مبعثرة، وتهديم عشرين من مدنهم!.

إننا نستطيع، لا ريب، أن نتخيّل مدى زهو يفتاح وهو عائد إلى مدينته مكللاً بتاج النصر، وقد خرجت للقائه جماعات من الفتيات "بالدفوف والرقص"، وكانت ابنته الأثيرة على رأسها. فهي لم تكن تعرف شيئاً عن نذر أبيها. وبما أن كلمة الشرف أثمن شيء عند قاطع الطريق، فقد تقرر مصير الفتاة التاعسة إذاً، ولكنها نفسها كانت سعيدة لأنها ستقدم ذبيحة

إلى يهوه؛ فطلبت مهلة شهرين "لكي تبكي بتوليتها" وكان لها ما طلبت.

بعد انقضاء الشهرين جرت مراسم تقديم الذبيحة تحت قيادة يفتاح نفسه. وكان الحزن يعتصر قلب الأب التاعس، ولكن كان هناك من يتلّمظ لاحساً أصابعه لذة. إنه يهوه. وقد قال اللاهوتيون بهذا الصدد: إن الله أخذ الفتاة في حضنه. أيّ مهرّج هذا العجوز الماكر!.

والسؤال الآن هو: كيف يجرؤ اللاهوتيون على القول، بعد هذه القصة: إن شعب الله المختار لم يعرف الذبائح البشرية؟ إذاً، لم يكن إله اليهود، أي الاله الرسمي للمسيحية، بأفضل من مالوخ، الإله الفنيقي والقرطاجي؛ لأنه كان مثله ـ بقبل الذبائح التي من الدم واللحم البشري، ويتلذذ بها غير شاعر بالاشمئزاز الذي يجب أن يثيره هذا الضرب من الذبائح.

ولكنه يهوه الكلي القدرة، مالك كل شيء! وهو حرّ بما يفعل. فلنعد إذاً إلى يفتاح الجبار، الذي لم يكتف بابادة العمونيين. فقتل أيضاً ٤٢٫٠٠٠ يهودي ممن يلثغون بنطق أحد الأحرف. تقول التورات، إن قبيلة افرايم تنطق حرف الشين سيناً؛ فجمع يفتاح سفاحيه عند معبر نهر الأردن، وهناك.... ولكن من الأفضل أن نسوق النص التوراتي لهذه القصة المرعبة. يقول النص: "وأمسك الجلعاديون على افرائيم مخاوض الاردن، فكان اذا أحد النادّين من افرائيم قال: دعوني أعبر، يقول له الجلعاديون: افرائيمي أنت؟ فيقول لا؛ فيقولون له: إذن قل سبّولَت، فيقول سبولت غير منتبه إلى تحقيق لفظها، فيقبضون عليه ويذبحونه على مخاوض الاردن. فقتل في ذلك الوقت من افرائيم اثنان وأربعون ألفاً" (١٢ ، ٥ ـ ٦). يالتعطّش يهوه إلى الدماء!

حكم يفتاح قاضياً في قومه، ست سنوات ثم مات. فجاء بعد ابصان، ايلون وعبدون. ولا تعطي التوارات أيّ معلومات عن هؤلاء، سوى عدد ما

انجبوه من بنين وبنات، فقد انجب ابصان مثلاً، ثلاثين ولداً، وثلاثين بنتاً.

* * *

ها قد وصلنا إلى قصة شمشون، ومن لا يعرفها؟ إنه هرقل التورات! وعلى غير انتظار يصعد الفلسطينيون إلى مسرح العمليات التوراتية؛ ويظهر أيضاً أنهم كانوا يمثّلون خطراً جدياً على نقاء الدم اليهودي. فاوّل ما فعله هؤلاء "الكفّار" أنهم استعبدوا شعب الله المختار أربعين عاماً، ساموه خلالها مرّ العذاب، وأذاقوه الذل والمهانة. وعندما أدرك أخيراً أنه قد آن الأوان لانقاذ ابناء اسرائيل، بادر من فوره إلى طريقته القديمة المعروفة: أرسل ملاكه إلى المدعو منوح، وهو من قبيلة دان، وكانت زوجة هذا الرجل عاقراً. ولكنها أحّست، بعد تلك الزيارة مباشرة ، أنها غدت حاملاً. وكان قد أرغمها على القسم بالاّ تقصّ شعر المولود مدى حياته. ولمّا فات زمن الحمل، أنجبت السيّدة منوح ولداً، غمر مجيؤه حياة والده بفرح عظيم. وقد دعاه باسم شمشون.

ومنذ صغره أظهر شمشوننا قوة بدنية خارقة؟ ففي أحد الأيام قتل أسداً ليلهو فقط، وكان ذلك الضاري قد زرع الرعب في المنطقة كلها. ولمّا شبّ وغدا رجلاً، قرر أن يتزوج. وهذ أمر طبيعي، ولكن الأمر الغريب في هذه المسألة هو، أن هذا الرجل الذي اختاره يهوه ورفعه فوق سائر بني اسرائيل، أصرّ على الزواج من فلسطينية. وقد باءت بالفشل جميع الجهود التي بذلت لثنيه عن عزمه.ولم يستطع أحد اقناعه بان قوانين موسى تمنع بل تحرّم الزواج من الوثنيات، بيد أنه صمّ اذنيه وأصرّ على موقفه قائلاً: لكلّ قاعدة استثناء. ثم انفذ رأيه وتزوج الفلسطينية.

في مأدبة الزفاف التي استمرّت عدة ايام، القى شمشون أحجية على فتيان عائلة زوجته، وكان على الطرف الخاسر في اللعبة أن يعطي الطرف الآخر ثلاثين قميصاً وثلاثين رداءً. وكانت زوجته راغبة في خسارته ليربح أهلها الرهان المغري، وقد تمكنت أن تعرف منه حلّ الاحجية ثم نقلته لهم.

وهكذا وجد العريس نفسه مرغماً على دفع الرهان. فقام ومضى إلى عسقلون وافتعل فيها عراكاً مع ثلاثين فلسطينياً، فقتلهم ونزع عنهم ملابسهم وادى رهانه بشرف وأمانة، دون أن يكلّفه الأمر جهداً خاصاً، فهو في نهاية الأمر منذور لله ومختار منه. أما زوجته التي تبينّ أنها كانت قد أصبحت منذ الأيام الاولى لزواجهما تقوده من أنفه، فقد تعرضت لمفاجأة مذهلة؛ فما كاد اليوم السابع لمأدبة العرس ينقضي، حتى كان والدها قد زوّجها إلى شاب آخر، أقرب أصدقاء ابن منوح إلى قلبه. (١٤).

بعد أن خسر الرهان، تجوّل شمشون في الناحية عدة أيام ثم عاد إلى زوجته ومعه جدي يريد أن يقدمه هدية استرضاء لها. ولكنه قابل حماه عند باب خبائها، فمنعه من الدخول إليها قائلاً: "ظننت أنك بغضتها فزوّجتها من صاحبك، ولكن هذه اختها الصغرى أحسن منها، فقال شمشون لهم: أنا بريء من الفلسطينيين الآن إذا انزلت بهم شراً" (١٥ ، ٢ ـ ٣) بعد ذلك بدأ منذور يهوه انتقامه من الشعب الفلسطيني كله. وهاكم قصة انتقامه الأول: اصطاد ثلاث مائة ثعلب (بالضبط ثلاث مائة!) "وأخذ مشاعل فجعل الثعالب ذنباً إلى ذنب، وجعل بين كل ذنبين مشعلاً، وأوقد المشاعل وأرسلها في زرع الفلسطينيين، فأحرقت الأكداس والزرع، حتى الزيتون (١٥ ، ٤ ـ ٥). هذه الفعلة اثارت غيظ الفلسطينيين، ولما عرفوا سببه الحقيقي، احرقوا حما شمشمون وابنته وهما حيين، اعتقاداً منهم بان ذلك

سيهدىء من غيظ شمشون. بيد أن شيئاً من هذا لم يحدث؛ فقد أعلن لهم أن انتقامه موجّه ضد الفلسطينيين كلهم، وأن ذلك الانتقام بدأ لتوّه.

"وضربهم ساقاً على فخذ" (٨). ولكن التورات لا تقول أين ومتى وفي أيّ الظروف وقع ذلك الأمر، وهل "ضربهم" بمفرده أم بمساعدة يهود آخرين. ومهما كان الأمر، فقد زادت الأمور سوءاً واعد الفلسطينيون، بعد أن ضُربت سيقانهم، لاقامة حمام دم يهودي، وفي اثناء ذلك كان شمشون يقيم في كهف صخرة عيطم. فجاءه إلى هناك ثلاثة آلاف من قبيلة يهوذا واشبعوه تقريعاً، ثم اتهموه بأنه جر على اليهود مصائب جديدة، فبسببه اجتمع الفلسطينيون وحاصروا اليهود، الذين لا طاقة لهم على قتالهم.

ولماذا أنتم قلقون إذا كانوا يطلبونني أنا؟ أوثقوني جيداً وسلموني إلى أعدائنا فيرتدون عنكم!

وهذا ما حصل. ففرح الفلسطينيون كثيراً عندما تسلّموا الشاب الذي اقض مضاجعهم. ولكنهم ما كادوا يمسكون به حتى قطع قيوده والتقط فك حمار مرميّ على جانب الطريق، وقتل به ألف فلسطيني كانوا يحيطون به.

وبعد أن انهى شمشون تمرينه الجسماني هذا، أحسّ بالعطش والتعب. ولكن المشهد وقع كله في البرية وليس ثمة بئر على مقربة. "ثم إنه عطش جداً فصرخ إلى الرب وقال: قد جعلت بيدي عبدك هذا الخلاص العظيم، والآن أهلك عطشاً وأقع في ايد القلف. فشقّ الله مورم الفك فخرجت منه مياه فشرب ورجعت إليه روحه وعاش" (١٥ ، ١٨ ـ ١٩)

وأخيراً، قادت هذه البطولات شمشون إلى كرسيّ كبير قضاة اسرائيل، فشغله عشرين عاماً. ومن الجدير ذكره أن شمشون لم يظهر تقيداً صارماً

بالمعايير الأخلاقية، عندما كان يشغل المنصب المذكور، فقد كان منذور يهوه هذا ضيفاً دائماً في بيوت الدعارة، وهو لم يتبع ذلك السلوك سراً، بل على مرأى من جميعهم. وفي أحد الأيام وقع له أمر كاد ينتهي بمأساة لولا أن يهوه كان دائماً الى جانبه لا يفارقه حتى وهو يتقلّب فوق أجساد النساء العاريات في بيوت الدعارة والفسق. فقد استمرّ شمشون مغرماً بالفلسطينيات، وقد قاده غرامه بهن إلى غزّة، وهي مدينة فلسطينية محصنة تابعة لأعداء اسرائيل، و "صادف هناك امرأة بغياً فدخل عليها. فقيل لأهل غزة: ان شمشون هنا، فأحاطوا به وكمنوا له كل الليل عند باب المدينة، وسكتوا الليل كله وقالوا: عند ضوء الفجر نقتله. فرقد شمشون إلى نصف الليل، وقام عند نصف الليل فأخذ مصراعي باب المدينة بعضاديته، وقلع الباب ومغلاقه وحمله على منكبيه وصعد بذلك إلى رأس الجبل الذي قبالة حبرون" (١٦ ، ١ ـ ٣).

وكأي داعر لارجاء برجوعه عن غيّه، وقع حبيب يهوه بغرام فلسطينية أخرى من وادي سوريق تدعى دليلة، ولمّا عرف أعداؤه بغرامه بتلك الحسناء الفاتنة، جاؤوا إليها وعرضوا عليها مبلغاً كبيراً من المال لقاء تسليمها شمشون إليهم، شريطة أن يكون في أشدّ حالاته ضعفاً. فوافقت المرأة على عرضهم، ومضت إلى غايتها بوضوح لا يخفى على ابله. فقد سألت عشيقها مراراً وتكراراً أن يكشف لها سرّ قوته. فوقع اليهودي في الفخ كآخر أحمق تستطيع أن تتخيل وجوده.

قالت دليلة لشمشون: أخبرني بماذا قوتك العظيمة وبماذا توثق لتقهر؟ فقال لها شمشون: إذا أوثقوني بسبعة أوتار طرية لم تجف بعد، فإني أضعف وأصير كواحد من الناس. فدفع إليها أقطاب الفلسطنيين سبعة أوتار طرية لم

تجف بعد، فشدته بها والكمين رابض عندها في المخدع. ثم قالت: قد دهمك الفلسطينيون ياشمشون، فقطع الأوتار كما يقطع خيط المشاقة إذا شيط بالنار. ولم يُعلم بما قوته. فقالت له دليله: قد خدعتني وكذبتني، فأخبرني الآن، بماذا توثق؟ فقال لها: إن أوثقوني بحبال جديدة لم تستعمل قط، فإني أضعف وأصير كواحد من الناس، فأخذت دليلة حبالاً جديدة وشدته بها، وقالت له: قد دهمك الفلسطينيون يا شمشون، والكمين رابض في المخدع. فقطع الحبال عن ذراعيه كما يقطع الخيط. فقالت دليلة لشمشون: إلى متى تخدعني وتكذبني؟ أخبر بماذا توثق؟ فقال لها": إذا أضفرت سبع خصل رأسي مع السدى. فمكنتها بالوتد وقالت له: قد دهمك الفلسطينيون يا شمشون، فاستيقظ من نومه وقلع وتد النسيج والسدى، فقالت له: كيف تقول: إني أحبك، وقلبك ليس معي؟ هذه ثلاث مرّات وأنت تخدعني، ولم تخبرني بماذا قوتك العظيمة؟ ولما كانت تضايقه بكلامها كل يوم ضاقت نفسه إلى الموت فأطلعها كل ما في قلبه وقال لها: لم يعل رأسي موسى، لأني ناسك لله من بطن أمي، فان حلُق رأسي فارقتني قوتي وضعفت وصرت كواحد من الناس. وأحسّت دليله أنه كاشفها بكل ما في قلبه، فأرسلت ودعت أقطاب الفلسطينيين وقالت: اصعدوا هذه المرة فانه قد كاشفني بكل ما في قلبه، فصعدوا اليها والفضة بايديهم، فاضجعته على ركبتيها ودعت رجلاً فحلق سبع خصال رأسه وطفقت تعينه، ففارقته قوته، وقالت: قد دهمك الفلسطينيون يا شمشون فاستيقظ من نومه وقال: اخرج كما كنت اصنع كل مرّة، وهو لا يعلم أن الرب قد فارقه. فقبض عليه الفلسطينيون وقلعوا عينيه ونزلوا به إلى غزة وشدّوه بسلسلتين من نحاس، وكان يطحن في السجن" (١٦ ، ٦ - ٢١).

بالطبع، إنه من الصعب جداً تأليف هراء أكثر غباء وسخفاً من هذا

اللغو! فكل كلمة من كلمات هذه القصة تنضح بالغباء، وليس فيها ما يسلّي حتى الأطفال.

وفي معرض تعليقه على هذه القصة قال اللورد بولينغبروك : إن فك الحمار الذي ظهر في قصة شمشون، قد جاء على أغلب الظن، من فم المؤلف "المقدس" نفسه فهذا ليس أكثر من انتحال أخرق من ممسوخ للرواية الوثنية لاسطورة هرقل. ومثلها أيضاً قصة تقديم إيفجينيا قرباناً، وهي القصة التي الهمت صاحب قصة يفتاح الجلعادي الذي قدم ابنته فريسة ليهوه. والحقيقة أن اللاهوتيين يؤكدون على أن الميثولوجيا الاغريقية هي التي اقتبست التورات وحرّفتها، بيد أن هذا التجريح البالغ الذي يتعهده منافقون محترفون، تحبطه تواريخ دقيقة أشار اللاهوتيون أنفسهم إلى بعضها.

فهم يقولون مثلاً، إن صموئيل هو كاتب سفر القضاة، وقد كتبه في عهد الملك شاول، ولكن اسطورة هرقل ظهرت عند الاغريق قبل حرب طروادة بزمن طويل، وهذه الأخيرة وقعت قبل انتخاب شاول ملكاً على الاسرائيليين بأكثر من مائتي عام. زد إلى هذا، أن الاسطورة الوثنية. صيغت بدقة واحكام وفطنة، وهو ما لا تتصف به الاسطورة اليهودية فنهاية هرقل أقلّ عبثية بكثير، من نهاية شمشون. ففي الاسطورة الاغريقية أسرت فتنة امفالي هرقل إلى درجة نسي معها بطولاته القتالية وحبه الترحال. فأقام قرب حبيبته، التي اصبح تأثيرها عليه كبيراً جداً، وفي الوقت الذي كانت فيه ملكة ليديا تتبختر بثياب البطل، متسلحة بعصاه الرهيبة، كان هذا الأخير عند قدمي هذه الحسناء مرتدياً ثيابها ويحاول أن يتعلّم حياكة الصوف، فيكسر ابرة الحياكة ويتلقى صفعات عشيقته عل مؤخرة رأسه. لكن هذا المشهد يمثّل تعبيراً نموذجياً للتأثير الذي يمكن أن تحوزه المرأة الحبيبة على

الرجل العاشق حتى وان كان عظيماً. والمجاز لا يتعدى هنا حدود الممكن أو المعقول.

وإذا كان هرقل قد نسي هيبته وكرامته، فعلينا أن نقرّ بأن هذا كله حدث في ظل سيادة العلاقات الغرامية بين العاشقين. فها هما يتجوّلان كل في ملابس الآخر، ونسيت أمفالي موقع مملكتها، فقادت هرقل إلى أحد الكهوف حيث قضيا ليلتهما بعيداً عن قصرها. وفي أحد الأيام خان هرقل أمفالي ووقع في غرام احدى المقربات منها. ثم تلت ذلك مغامرات أخرى قام بها هذا البطل الاسطوري. وأخيراً، ايست ديانيرا من خيانات زوجها التي بدا أنها لن تنتهي، فأرسلت إليه رداء القنطور، معتبرةً إيّاه طيلساناً قادراً أن يعيد لها زوجها العاق ويجعله يؤدي واجباته الزوجية، ولكن هرقل لم يستطع أن يتحمّل الآلام التي سببتها له العباءة، ولمّا لم يستطع أن يخلعها،ـ قرر أن ينتحر ليضع حداً لآلامه الرهيبة، فاضرم ناراً عظيمة ورمى بنفسه فيها.

إذاً، الذي لا ريب فيه، أن قصة شمشون ودليله هي تقليد مسخ لاسطورة هرقل وأمفالي. ومع ذلك، نحن نجيز الاعتقاد بأنه كان باستطاعة "الروح القدس" أن يقدم بطليه في صورة أفضل من تلك التي رأيناهما فيها، فمن الواضح أن شمشون لم يكن يثق بدليله،وقد كذب عليها مرّات ثلاث بصدد المصدر الحقيقي لقوته. وقد اتضح له في كل مرة أن ثقته بدليله يمكن أن تقوده إلى صدام حقيقي مع أعدائه؛ ومع ذلك باح لها بحقيقة سرّ قوته، وهو أثمن ما يملكه، وهنا بالذات يكمن الهراء واللغو؛ هذا إذا لم يكن هذا القاضي اليهودي آخر الحمقى، ونحن لم نتساءل بعد كيف استطاع شمشون أن يدير أحجار الرحى الثقيلة في السجن بعد أن فارقته قوته؟ وبدا أن الأمر يجب أن يكون على الضد من ذلك، أي أن يبقى شمشون قوياً

كما كان، ثم يُرغم على تأدية أعمال نسائية ما، كذلك العمل الذي أداه هرقل. ولكن كلما توغلت في الغابة أعمق، كلما زادت كثافة الشجر. وكلما تابعت قراءة هذه القصة تكشّف لك مزيد من الحماقات التي لا مبرر لها . فقد عرف الفلسطينيون مصدر قوة شمشون مثلاً، وفي هذه الحال، فان أبسط حدود الحذر والحيطة كانت تتطلّب منهم قصّ ضفائره من وقت لآخر. بيد ان شيئاً من هذا لم يحدث، بل أعطوه فرصة أخرى دون أن ينتابهم أيّ قلق.

وسرعان ما اقام الفلسطينيون حفلاً كبيراً على شرف الاله داجون. وجاؤوا بشمشون من السجن إلى القصر الذي اجتمع فيه ثلاثة آلاف محتفل من الرجال والنساء، ثم وضعوه بين العموديين اللذين كانا البناء يستند عليهما (!). "ثم قبض شمشون على العمودين اللذين في الوسط القائم عليهما البيت، واتكأ عليهما آخذاً أحدهما بيمينه والآخر بشماله، وقال شمشون، لتمت نفسي مع الفلسطينيين، وانحنى بشدة، فسقط البيت على الأقطاب وعلى جميع الشعب الذي في البيت. فكان الموتى الذين قتلهم في موته، أكثر من الذين قتلهم في حياته" (١٦ ، ٢٩ - ٣٠).

غني عن القول، إنه لا ينبغي على المرىء أن يكون ميالاً إلى الوثنية حتى يعترف بان موت هرقل كان أكثر شاعرية من موت هذا اليهودي الأحمق. أما مقارنة حياة البطلين فتظهر لنا شمشون هزيلاً سخيفاً قاحلاً لا روح فيه. وكيف ترضي بطولاته قلب المؤمن، إذا نظرنا إليها من الوجهة الدينية؟ فحسب التورات، لم يهاجم شمشون الفلسطينيين ويحرق حقولهم لأن ثورة وطنية اجتاحت قلبه ضد أعداء قومه ومستعبديهم، ولم يفعل ذلك لينتقم للإله التوراتي الذي رماه داجون الفلسطيني تحت قدميه، بل فعل ما

فعله ليرضي نزوة ذاتية دفعته إلى الانتقام من الذين عاشوا بينهم أمتع ايام حياته. فقد أُهين لأن الفلسطينية، التي أُغرم بها، لم تبق زوجة له سوى ستة أيام، وأعطيت بعدها زوجة لأقرب اصدقائه؛ لقد كان ذلك المغوار الابله يطفئ غليله نافثاً سموم حقده على الفلسطينيين، وهو أمر لا صلة له بالشعور بالاضطهاد القومي. علاوة على ذلك، يبدو أن شمشون كان يحتقر بنات اسرائيل،ولذلك كان يبحث عن النساء بين الفلسطينيات فقط. ولكن اين يهوه من هنا؟ فشمشون لا يفكر فيه إلاّ قدر تفكيره بثلج العام الماضي.

أمّا هرقل، فهو بطل اغريقي وطني، وإذا كنّا لا نعترف بأن بطولاته حقيقية، فيجب علينا أن نأخذ بالحسبان، أن قصص بطولاته كانت تنبع من أنبل الاحاسيس وأصدق المشاعر. فبطولات هرقل ليست مجرد تجلٍّ فظّ للقوة البدنية: لقد استخدم هرقل قوته لنصرة الضعفاء دائماً، وكان يفعل ذلك بطيبة خاطر. ففي ايام شبابه، صادف هرقل الفضيلة والرزيلة، وقد اتخذت كلّ منهما صورة امرأة فاتنة دعته بالحاح، فمن اختار؟. احداهما برقت في عينيه بألف اغراء قادر كلّ منها على جذب أي رجل وإخضاعه، فلفتت نظره إلى طريق سهل واسع نبتت فيه الورود. بينما دعته الأخرى إلى طريق وعر ضيق وخطر. فاختار ابن ألكيمينا الطريق الثانية، طريق الفضيلة، بعد أن أجرى بعض المحاكمات الذهنية العاقلة- التي لم تكن تتناسب وصغر سنه . فقد أدرك أن الطريق الذي اختاره هو، طريق السعادة الحقيقية، أمّا الطريق الواسع المزروع بالورود، فينتهي بآلام داخلية وجدانية.

إذاً فليتلفْ بابا روما وجوقة البطاركة حناجرهم صراخاً، فلن يفلحوا في اقناع أي متنور بأن الوثنية من عمل الشيطان، ولن يكون بمقدورهم نفي حقيقة أن المجازية الوثنية مفعمة بأخلاقية سامية جداً. لقد أمض هرقل حياته

كلها في محاربة الطغاة والوحوش، ولا يفعل إلا ما هو خير للبشر. فقاتل مختلف ضروب جلادي البشر، وأباد أعتى القتلة واللصوص. إن هذه المقارنة تمثّل مقتل بطل التورات. فلكي يفضّل المرء شمشون على هرقل، يجب أن يكون عبداً للبلاهة الدينية.

الفصل الرابع والعشرون..

قصة أحد اللاوين..

ينتهي كتاب القضاة بواحدة من الحكايات التي قلما تساهم في رفع مستوى سمعة الشعب الذي اختاره الاله يهوه، وهي لا تختلف في هذا عن غيرها من القصص التوراتية الآخرى. فقد كان لاحد اللاوين عشيقة. وبينما كانا في طريق ما، توقفا في مدينة جبع التي يقطنها بنو بنيامين، فنزلا في بيت عجوز مضياف. إذاً تعالوا الآن لنقرأ النص "المقدس" لهذه الحكاية: "فلما طابت انفسهم، إذا رجال المدينة، قوم بنو بليعال قد احاطوا بالبيت وطفقوا يقرعون الباب، وقالوا للشيخ رب البيت: اخرج الرجل الذي داخل بيتك لنعرفه. فخرج اليهم الرجل صاحب البيت وقال لهم: لا يا اخوتي، لا تفعلوا شراً بعد ما دخل هذا الرجل بيتي، لا تفعلوا هذه الفاحشة، هذه ابنتي العذراء وسريته اخرجهما اليكم فاذلوهما واصنعوا بهما ما يحسن في عيونكم، ولا تصنعوا بهذا الرجل هذا الأمر الفاحش. فأبى القوم أن يسمعوا له، فأخذ الرجل سرّيته وأخرجها إليهم خارجاً، فعرفوها وتعللوا بها الليل كله إلى الغداة وتركوها عند الفجر. فجاءت المرأة عند اقبال الصباح

وسقطت عند باب البيت حيث كان مولاها وكانت هناك إلى النهار، فقام مولاها بالغداة وفتح باب البيت وخرج ليذهب في سبيله، فإذا بالمرأة سريته مطروحة على باب البيت ويداها على العتبة؛ فقال لها: قومي بنا ننطلق، فلم تجبه، فحملها على حماره وقام الرجل وانطلق إلى مكانه، وأتى بيته وتناول سكيناً وأخذ سريته فقطعها مع عظامها اثنتي عشر قطعة وزعها في جميع تخوم اسرائيل" (١٩ ، ٢٢ - ٢٩).

يقول بولينغبروك في معرض تعليقه على هذا المشهد: إنه نسخة طبق الأصل عن مشهد السدوميين عندما أرادوا اغتصاب الملاكين. ثم يقول: إننا نستطيع أن نغفر للشباب الاغريقي المتأنق مشاركته في حفلات التهتك التي يذهب إليها متعطراً فتستيقظ فيه أحاسيس تتقزز منها النفس البشرية. ولكن ما الذي نستطيع قوله عن أهالي جبعة، وهم أكثر إثارة للاشمئزاز من الكلاب وقت السفاد؟ والآن حقٌّ لنا أن نتساءل: هل يمكننا أن نصادف في غير الكتاب الذي ينسب إلى "روح القدس" صورة أشد كراهة من الذي وقع لهذا اللاوي، الذي يرجح أن يكون غبار الطريق قد غطى لحيته الكهنوتية وزادها قذارة، ومع ذلك أثار شهوة رجال مدينة جبعة كلهم؟.

ويتابع بولينغبروك قائلاً: "في قصص التاريخ القديم كلها، لا نقع على ما هو أكثر قباحة من هذا العفن، فالملا كان اللذان جاءا إلى سدوم، كانا شابين نضرين مقدسين، بل وربما كانا فاتنين أيضاً، كما هي حال الملائكة كلهم، وهو أمر من شأنه إثارة شهوة أهل سدوم، أمّا أهل جبعة فقد بلغوا الدرك الأسفل من العهر".

أما تقطيع جسد المرأة الميتة إلى اثنتي عشرة قطعة، وارسالها إلى قبائل اسرائيل الاثنتي عشرة، فهو فعل يمثّل سابقة تثير النفور أيضاً. فقد كان ذلك

يتطلب ارسال اثني عشر رسولاً يحملون تلك الهدايا المرعبة، ولكن، أين كانت تنتشر القبائل الاسرائيلية الاثنتا عشرة؟ وإلى من كان يجب تسليم القطع الاثنتي عشرة، طالما أن القبائل كانت تعيش بغير زعماء معترف بهم؟ ألم يكن بنو اسرائيل كلهم عبيداً عند الفلسطينيين؟.

"فخرج بنو اسرائيل كلهم، واجتمعت جماعة إلى الرب في المصفاة كرجل واحد، من دان إلى بئر سبع وأرض جلعاد، ووقف وجوه جميع الشعب، وكل أسباط اسرائيل، في مجمع شعب الله، أربع مائة ألف راجل مخترط سيف" (٢٠ ، ١ - ٢).

لاريب أن قارئي الكريم لا يزال يذكر، أن هذا كله يقع بعد موت شمشون مباشرة، أي عندما كان اليهود عبيداً للفلسطينيين. فكيف اجتمعت القبائل إذاً؟ وكيف سمح السادة لعبيدهم أن يجمعوا ذلك العدد الكبير من المسلحين؟ لا تقول التورات شيئاً عن هذا كله. يبدو أن "الحمامة المقدسة" نسيت الحال المزرية التي كان فيها الشعب الذي اختاره يهوه. أضف إلى هذا أنه كان يجب رفع الشكوى إلى الفلسطنيين، أصحاب البلاد ليتخذوا الاجراء اللازم ضد مقترفي تلك الشناعة؛ فقد كان ذلك من حق الحكام فقط.

ثم تفيد التورات بأن ٢٦،٧٠٠ مخترط سيف من قبيلة بنيامين(١٥) وقفوا يدافعون عن الجناة. بينما دفعت القبائل الاحدى عشرة الاخرى بأربع مائة ألف مسلّح إلى ساح القتال(١٧). وقد لاحظ فولتير أنه "لو أضفنا إلى هذا العدد، الجنود الشيوخ، والنساء، والأطفال، لاصبح بمقدورنا تقدير عدد اليهود آنئذٍ بمليون وسبع مائة ألف نسمة، ما عدا الكهنة". ولكن، كي تستطيع استعباد هذا العدد من البشر، الذين لهم ٤٢٦،٠٠٠ مسلّح، يجب

أن يكون تحت أمرتك جيش لا يقل عدد مقاتليه عن ثمان مائة ألف مسلّح في اقل تقدير. زد إلى هذا، أن كتاب الملوك الاول (١٣ ، ١٩) يؤكد بان الفلسطينيين لم يسمحوا بان يكون عند اليهود حدادا واحداً، خوفاً من أن يصنعوا السيوف والرماح، فقد كان اليهود يتوجهون إلى الفلسطينيين ليشحذوا أدوات العمل.

والسؤال الآن، أين الصدق من الكذب في هذين النصين؟ في أيّ سطر من هذه السطور كان "الروح القدس" أكثر تعبيراً في سخريته من غباء المؤمنين به؟

والآن، سنرى أيّ مجزرة وقعت في أعقاب الاغتصاب الجماعي لقحبة اللاوي الرسمية. ففي اجتماع الأربع مائة ألف مقاتل روى الكاهن ما وقع له. يا إلهي! أيّ صوت جبّار كان لدى ذلك العجوز الذي استطاع أن يسمع قصته أربع مائة ألف مستمع؟!.

ولم تترك لنا التورات مجالاً لتوقع ما قاله اللاوي، فقد ساقت لنا خطبته كاملة. فهو بعد أن اشار إلى نزوة الجبعيين القبيحة التي كاد أن يقع هو نفسه ضحيتها، طالب بالثأر لشرف عاهرته المهدور فقال: "لقد أذّلوا سريتي حتى ماتت". وتجدر الاشارة هنا إلى أن الرواية اتهمت رجال مدينة جبعة كلهم بفعل الاغتصاب، أمّا في حديث اللاوي المفجوع، فقد قالت "الحمامة": إن "من جميع هذا الشعب، سبع مائة رجل عسر الأيدي، أولئك الذين يرمون الحجر بالمقلاع على الشعرة فلا يخطؤون" (٢٠ ، ١٦).

إذاً، لقد استمرت عملية الاغتصاب، التي قام بها رجال مدينة جبعة، ليلة كاملة. وإذا اعتبرنا أن الذين ارتكبوا الجريمة هم السبع مائة فقط، وأخذنا بالحسبان أن الليل لا يستمر في فلسطين أكثر من عشر ساعات، فعلينا أن

نقرّ عندئذٍ بأن هؤلاءالرجال الشبقين كانوا يفرغون قذائف فجلاتهم في فرج تلك التاعسة بسرعة مذهلة! وغني عن القول بالطبع، أن المرأة لم تستطع ابداء أي مقاومة، وسرعان ما تحوّلت إلى كتلة هامدة فاقدة كل احساس. ومع ذلك فالمذهل في الأمر هو،أن تتحمل عشيقة ذلك الكاهن سبعين رجلاً في الساعة، أي أقل من دقيقة للرجل الواحد! وهذا ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الرجال نظموا الأمر منذ بدء عملية الاغتصاب بحيث سارت الأمور وفق نظام معيّن استغلت فيه كل ثانية. فهل يستطيع أحد ألاّ يرى في التورات بعد هذا، كتاب "العجائب" المذهلة الفريدة من نوعها؟!.

فنهض بنو اسرائيل بكرة ونزلوا على جبعة، وخرج رجال اسرائيل لمحاربة بنيامين؛ و اصطف بنو اسرائيل للحرب عند جبعة. فخرج بنو بنيامين من جبعة، فأسقطوا من اسرائيل في ذلك اليوم اثنين وعشرين ألف رجل" (٢٠ ، ١٩ - ٢١).

إننا لانعجب من وقوف يهوه إلى جانب بنيامين التي قامت تدافع عن رجال العهر والفسق، فهذا دأبه دائماً، أنه يساند المجرمين والمغتصبين واللصوص والقوادين وما شابه....

"فخرج عليهم بنيامين من جبعة في اليوم الثاني فأسقطوا من بني اسرائيل أيضاً ثمانية عشرألف رجل كلهم مخترطو سيف" (٢٥) وبهذا تكون خسائر الاسرائيليين قد بلغت في يومي قتال ٤٠،٠٠٠ رجل ممن يقاتلون في سبيل الحق. ولكن لا تتعجّل قارئي الكريم، وانتظر معنا نهاية هذا العبث. فبنو اسرائيل سينتصرون في نهاية المطاف، وهذا ما يريح قلوبنا التي يعتصرها الألم لحالهم؛ ولكن ما يثير الشجن في نفوسنا هو، ذلك العدد الكبير من القتلى اليهود الذين سقطوا بسيوف أخوتهم!!!

بيد أن القبائل الاسرائيلية لم تنتصر لأنها أبلت بلاء حسناً في الدفاع عن الحق، بل لأن فنحاس بن اليعازر بن هارون رفع صلاة حارة إلى الرب الإله، بصدد هذا الأمر. أيعقل أن يكون فنحاس بعينه؟! ألم يزل صاحبنا على قيد الحياة؟ نعم سيدّي، إنه هو! ومع ذلك لم تشر التورات إليه من قريب أو بعيد، خلال هذا الزمن الطويل كله!

"وأقبل من قبالة جبعة عشرة آلاف رجل منتخبون من كل اسرائيل؛ فاشتد القتال، ولم يعلم بنو بنيامين أن البلاء قد مسهم. فهزم الرب بنيامين أمام اسرائيل؛ وأهلك بنو اسرائيل من بنيامين في ذلك اليوم خمسة وعشرين ألفاً ومائة، كلهم مخترطو سيف. فأيقن بنو بنيامين بالهزيمة، وأخرج رجال اسرائيلين بنيامين لأنهم اعتمدوا الكمين الذي أقاموه على جبع" (٣٤ - ٣٦).

عندئذٍ ولّوا الأدبار باتجاه الصحراء. فتبعتهم جيوش اسرائيل. وأحاط اليهود "بيني بنيامين" وطاردوهم حتى دعة، "وداسوهم على دعة، إلى مقابل جبعة من جهة مشرق الشمس". وفقد "بنو بنيامين" ثمانية عشر ألف رجل في ذلك الحصار (٤٢ - ٤٤). ثم اتجه الفارّون إلى صخرة الرمون، وهناك أباد الاسرائيليون منهم خمسة آلاف أخرى كانوا قد أدركوهم في الطريق. واستمرت مطاردة اسرائيل لبنيامين حتى جدعوم. فقتلوا منهم ألفاً أخرى (٤٥). ولم ينج من بنيامين في تلك الحرب سوى ست مائة رجل تحصنوا في صخرة الرمون، وأقاموا هناك أربعة أشهر. أمّا الاسرائيليون فقد عادوا من ساحة المعركة إلى جبعة وقتلوا كل من لجأ إليها من البشر والحيوانات؛ واضرموا النار في مدن بنيامين وقراهم كلها.

غير أن ما يلفت النظر في هذه الرواية هو، التشوش الذي يعاني ذهن

"الروح القدس" منه، وقد يكون سبب ذلك كثرة الأرواح البشرية التي ابادها دفاعاًعن شرف عاهرة الكاهن الرسمية. فقد افادنا لتوّه بأن، عدد المقاتلين عند بنيامين٢٦،٧٠٠ مقاتل، بمن فيهم مقاتلوا جبعة الاشداء، ولكن عملية حسابية بسيطة تبيّن أن بنيامين خسر في تلك الحرب ٥٠،٠٠٠ ألفاً من مقاتليه. ونحن لا نجد تفسيراً لهذا التناقض إلاّ بأحد أمرين: إمّا أن يكون بنو بنيامين أنجبوا في اثناء العمليات القتالية فضاعفوا عدد مقاتليهم، ونكون عندئذٍ أمام "عجيبة" مثيرة حقاً؛ أو أن "الروح القدس" نسي قواعد الجمع الحسابي عندما كان يلقّن هذا الاختلاق العجيب، وهذا ما يجعل من "العجيبة" أمراً أكثر إثارة للعجب!.

أمّا الأمر الطريف الآخر في هذه الحكاية فهو، ظهور فنحاس فيها. فقد ظهر هذا الرجل الشهير على مسرح الحدث، عندما لم يكن أحد ينتظره، لأنه يجب أن يكون في لدن يهوه. ونحن كنا قد اعتقدنا بأنه دُفن منذ زمن بعيد إلى جانب جده هارون، أو إلى جانب والده أليعازر في أقل تقدير. ولكن شيئاً من هذا لم يحصل! وذهب حزننا عليه عبثاً. فالسطر ٢٨ من الاصحاح ٢٠ في كتاب القضاة، لم يترك لنا مجالاً للشك أو اللبس، فالحديث يجري فيه عن "فنحاس بن اليعازر بن هارون"، وليس عن أيّ شخص آخر يحمل اسم فنحاس.

ولكن أين المعضلة في هذه كله؟ إنه فنحاس ابن أخ موسى، وانتهى الأمر هنا! إذاً عدّوا معي على أصابع ايديكم.

فهذا الرجل هو نفسه فنحاس الذي قرأنا في مكان آخر إنه في حياة موسى، قتل اليهودي زمري وهو يضاجع الحسناء المديانية كزبي. وكان سفر العدد قد أعطانا وصفاً رسمياً لتلك المأثرة التي اجترحها فنحاس (عدد ٢٥ ،

٧و١١) ولقد وقع ذلك الحدث في موآب قبل أن يدخل بنو يعقوب "أرض الميعاد"، وقبل عبور الاردن بزمن طويل. أي أن كثيراً من المياه كان قد جرى في النهر منذ مقتل زمري حتى مذبحة بني بنيامين. ومن المفيد أن نتذكر أن المجزرة وقعت بعد وفاة شمشون، وهي خاتمة كتاب القضاة.

لاريب أنكم تذكرون معي إن يهوه لم يسمح سوى للجنرال يشوع والسيد كالب بدخول أرض الكنعانيين، وحرّم هذه النعمة على جميع اليهود الآخرين من الذين خرجوا من مصر في سن العشرين، وتقول التورات إن يشوع عاش مائة وعشرة أعوام. وإذا جمعنا الأربعين عاماً، التي قضاها تائهاً في الصحراء مع غيره من اليهود، مع الأعوام العشرين التي كانت تشكل سنّه لحظة عبور البحر الأحمر، لتبينّ لنا أنه كان في الستين من عمره عندما اصبح خليفة موسى على اليهود. وهذا يعني أنه حكم اليهود وقادهم خمسين عاماً.

والآن، كم مضى من الزمن منذ أن عبر اليهود نهر الأردن، وحتى ابادة "بني بنيامين"؟ يشوع حكم ٥٠ عاماً، وفي السطر العاشر من الاصحاح الثاني في سفر القضاة، أن جيلاً كاملاً "نشأ من بعدهم لا يعرف الرب ولا ماصنع لاسرائيل" لنعط هذه الجيل ٢٠ عاماً. ثم جاء أوّل سقوط لليهود في العبودية عند الملك الرافيديني، واستمر ٨ سنوات. تلاه التحرير، وحكم القاضي عثنيئيل ٤٠ عاماً. وجاءت العبودية الثانية في عهد الملك عجلون واستمرت ١٨ عاماً. ثم رمي نير هذه العبودية بفضل القاضي أهود الذي حكم اسرائيل ٨٠ عاماً. حلّت بعدها العبودية الثالثة في عهد الملك يابين واستمرت ٢٠ عاماً. تلاها انتصار ديبورة وباراق، ثم ٤٠ عاماً من السلام. وظهر المديانيون من جديد وجلبوا معهم العبودية الرابعة التي استمرت ٧

سنوات. فجاء جدعون ومعه الحرية من تلك العبودية و ٤٠ عاماً من السلام. ثم سقط اليهود تحت النير مرّة أخرى، لكنه نير أبيمالك هذه المرة، وهو من أبناء جلدتهم، وقد استمر نيره ٣ سنوات. وحكم القاضي تولع ٢٣ عاماً، تلاه يائير ٢٢ عاماً. ثم نزلت بهم العبودية السادسة واستمرت ١٨ عاماًقام بعدها القاضي التاعس يفتاح وحررهم وحكم فيهم ٦ أعوام. بعد ذلك جاءتهم عبودية الفلسطينيين التي استمرت ٤٠ عاماً. بعدئذٍ ظهر شمشون وبطولاته، وقد حكم فيهم ٢٠ عاماً. وبهذا يكون المجموع ٤٨٠ عاماً! وهو الزمن الذي يفصل بين عبور اليهود نهر الأردن ومعهم فنحاس الذي رافق والده اليعازر وشهد وفاة شمشون.

الخلاصة، أن الكاهن فنحاس كان قد بلغ الخمس مائة من العمر عندما طلب إلى يهوه الوقوف إلى جانب اسرائيل ضد بنيامين، لأنه دافع عن السبع مائة الذين امتهنوا كرامة عاهرة اللاوي وداسوا شرفها!

ولكن لماذا تنسى التورات الاشارة إلى سنّ الكاهن الأكبر فنحاس؟ فالدقة هنا ضرورية، وقد يقول المرتابون: إن "الروح القدس" خاصم الحساب ونسي التأريخ وأيّ تأريخ"؟ إنه التأريخ المقدس!

وبعد أن سحقت القبائل الاسرائيلية قبيلة بنيامين، ندمت ندماً شديداً على فعلتها، وناح اليهود قائلين: "ويل لنا! لماذا اختفى سبط منا؟" لكن تذكروا الست مائة بنياميني الذين تحصنوا في صخرة الرمون. وتساءلوا: لماذا لا يكون هؤلاء البذرة التي تنمو فيها شجرة بنيامين ثانية؟ ولكنهم تذكروا أنهم كانوا أقسموا منذ بدء العمليات القتالية بالاّ يزوّج أيّ اسرائيلي بناته إلى أيّ رجل من سبط بنيامين وبدؤوا البحث عن مخرج . وها هو أحد الفطنين يقوم بينهم ويقّدماقتراحاًمفاده، انه لا بدّ أن تكون هناك عائلات لم تشارك

في العمليات العسكرية عند المصفاة، وهي بالتالي لا علاقة لها بالقَسمِ المذكور. وبعد بحث مضنٍ وجدوا، أن يهود مدينة يابيش لم يشاركوا في الاجتماع الذي قرر إبادة "بني بنيامين" وعلى الفور تألفت فرقة من الجلادين كِلّفت بابادة يهود يابيش الأبرياء، ولم يهنأ لهؤلاء القتلة بال إلاّ بعد أن أبيدت يابيش ولم يبق منها سوى أربع مائة عذراء سيقت إلى صخرة الرمون.

ولكن مائتي بنياميني بقوا دون زوجات، أي أن الأزمة بقيت قائمة. حينئذٍ تذكر شيوخ اليهود العيد العظيم الذي يقام في مدينة شيلو على شرف يهوه؛ فأصدروا القرار الحكيم التالي: يسمح "لرجال بني بنيامين" الذين لم يحصلوا على زوجات أن يختطفوا زوجات لهم من بنات اسرائيل أثناء إقامة المراسم الاحتفالية الدينية. وهذا ماوقع، ولم تكن أمهات الفتيات وآباؤهن راضين، بيد أنهم حُرموا حق الاحتجاج. وعاد بنو بنيامين إلى مدنهم وقراهم المهدمة فعمروها من جديد.

لكن النقّاد رأوا أن إعادة بناء قبيلة بكاملها، بهذه الطريقة، أمر غريب بعض الشيء. إلاّ أن النقّاد قوم كفرة، ولذلك لن نعير ملاحظاتهم أيّ اهتمام.

أثناء الاحتفال بعيد الرب، كان "تابوت العهد" موجوداً في شيلوه، أي أن يهوه نفسه كان هناك. وبما أنه لم يقذف النار واللهب اللذين يستخدمهما عادة لإبادة المجرمين، فليس ثمة دليل أكثر قوة على أنه كان راضياً الرضى كله عن خاطفي الفتيات.

وعليه فليصمت النقّاد، وليسجدوا للرؤيا الالهية!.

الفصل الخامس والعشرون

قصة حياة راعوث،

جدة يسوع المسيح

ها نحن وصلنا إلى قصة راعوث ونعمى، وهي القصة التوراتية التي تستنزل منا دموع البهجة. وسوف نبدأ روايتها وقلبنا ملؤه الحنان والعطف. فبعد أن غدت نعمى أرملة، فقدت ولديها المتزوّجين امرأتين موآبيتين، وقد أذعنت احداهما لمحاولات حماتها وعادت "إلى شعبها، بينما أعلنت الثانية لحماتها قائلة: "حيثما ذهبتِ إذهب، وحيثما بتّ أبيت، شعبك شعبي والهك الهي" (راعوث ١ ، ١٦).

لقد كان الفقر ينهش الحماة وكنّتها، فاليوم السعيد في حياتهما هو اليوم الذي تلتقطان فيه بعضاً من سنابل القمح في حقل محصود. وحدث مرّة ان كانت راعوث تجمع السنابل في حقل رجل يدعى بوعوز، وهو "من عشيرة اليملك" (٢ ، ١). ومع أن القانون كان يبيح للرجل طرد راعوث من حقله، إلاّ أنه لم يفعل، وليس هذا وحسب، بل قال لها: "لقد أمرت

غلماني ألاّ يتعرضوا لك؛ وإذا عطشت فاذهبي إلى الأوعية واشربي مما استقاه الغلمان. فخرت بوجهها وسجدت إلى الأرض وقالت له: قد حظيت عندك يا سيدي! لأنك عزّيتني و لاطفت قلب أمتك، وأنا لست كاحدى جواريك" (٢ ، ٩ ، ١٠ ، ١٣).

بعد هذا الحديث "تكرّم" بوعوز الغني ودعاها إلى تناول طعام الغداء مع خدمه قائلاً: "كلي من الخبز واغمسي لقمتك بالخلّ.... فأكلت وشبعت واستبقت ما فضلّ عنها" (١٤).

وبعدت أن علمت نعمى أين جمعت راعوث السنابل وتناولت طعام الغداء الذي أتتها بما تبقى منه، ضربت كفّاً بكف وقالت: "إن الرجل ذو قرابة لنا، وهو من أوليائنا" ثم لمعت في ذهن العجوز فكرة حسنة: لماذا لا تتزوج كنتها هذا البوعوز الثري؟ وقالت لها نعمى: "والآن، فان بوعوز، الذي كنتِ مع فتياته، هو ذو قرابة لنا، وها هو يذري الشعير في البيدر هذه الليلة. فاغتسلي وتطيبي والبسي ثيابك وانزلي إلى البيدر ولا تظهري له حتى يفرغ من الأكل والشرب فاذا رقد، عايني الموضع الذي يرقد فيه، وادخلي واكشفي جهة رجليه واضجعي فانه يخبرك بما ينبغي أن تصنعي. فقالت لها: كل ما قلت لي اصنعه. ونزلت إلى البيدر وفعلت كما أمرتها حماتها. فأكل بوعوز وشرب وطابت نفسه فجاء ليضّجع عند طرف العرمة، فدخلت إليه وكشفت رجليه واضجعت. وكان عند انتصاف الليل أن الرجل قلق والتفت فإذا بامرأة مضّجعة عند رجليه فقال: من أنت؟ فقالت: أنا راعوث أمتك فابسط ذيل ثوبك على امتك لأنك ولّي. فقال: مباركة أنت من الرب يا بنية لأن رحمتك الأخيرة خير من الأولى، إذ لم تطلبي الشبان، فقراء كانوا أم أغنياء. والآن لا تخافي يا بنية، ومهما قلت فاني

أفعله لك، فقد علم كل من في باب شعبي انك امرأة فاضلة" (٣ ، ٢ - ١١).

ولكن بوعوز اراد الالتزام بتعاليم التورات في مسألة زواجه من راعوث الأرملة، فذكّر بان لها ولياً آخر أقرب إليها منه وعليه يجب أن يطرح الأمر عليه ليتفق معه؛ ولكن ذلك الرجل رفض أن يتزوّج الموآبية. عندئذٍ دعا بوعوز الشعب وأعلن أمامه أنه يتخذ راعوث زوجة له.

"ودخل عليها فرزقها الرب حبلاً وولدت ابناً فقالت النساء لنعمى: تبارك الرب الذي لم يعدمك اليوم ولياً يذكر اسمه في اسرائيل، ويكون لك جبر قلب وعولاً لشيبتك لأن كنتك التي أحبتك قد ولدته وهي خير لك من سبعة بنين. فأخذت نعمى الصبي و جعلته في حجرها وحضنته، سمته الجارات باسم قائلات: قد ولد لنعمى ابن ودعونه عوبيد، وهو ابويّسى أبي داود" (٤ ، ١٣ - ١٧).

تلك هي قصة راعوث، الكنة التوراتية المثالية، ونعمى زين الحموات. وينبغي علينا أيضاً أن نؤدي الواجب أمام بوعوز ذي القلب الكبير، الذي ما جاءت إليه راعوث حتى أذن لها أن تأكل مع خادماته وتغمس الخبز بالخل كي لا تتأذى حنجرتها.

أمّا ما يثير تساؤل النقاد فهو، سلوك بوعوز التالي: لماذا يقضي ذلك الرجل الغني ليلته في العراء على بيدر القمح، وكأنه عامل فقير؟ والأكثر غرابة هو، أن تستطيع راعوث الاضجاع إلى جانبه خفية، كما يقول لنا مؤلف هذه "القصة المقدسة". فهم يرون سمات سلوك غريب فيما رآه مؤلف القصة أمراًعادياً عندما ارغم امرأة شابة أن ترتكب فاحشة دون أن تشعر بأي درجة من درجات الخجل. ويقولون أيضاً: إذا كان ينبغي على

بوعوز أن يتزّوج راعوث لأنه قريب زوجها، ألم يكن على نعمى، التي تقوم مقام والدتها، أن تزوّجها له بطريقة شريفة؟ ألم يكن من واجبها ألاّ تدفع كنتّها إلى سلوك لا يليق بامرأة شريفة؟ أضف إلى هذا أنه كان يجب على نعمى نفسها أن تعرف أن لها قريباً آخر أحق من بوعوز بالزواج من راعوث.

ومن المعروف أن الكنيسة المسيحية تعيد نسب يسوع المسيح إلى داود بن يسيّ، أي إلى بوعوز وراعوث. وبهذا نقع مرّة أخرى على البغاء وسفاح القربى في سلسلة نسب من اختاره يهوه ليكون تجسيداً له على الأرض. فقد خرج بوعوز من نسل فارص الذي ولدته ثامر ليهوذا، عندما تظاهرت بأنها عاهرة وأغرت حماها يهوذا، والد زوجيها المتوفيين، أضف إلى عراقة هذا النسل، أن بوعوز نفسه هو، ابن سلمون من راحاب قحبة أريحا الشهيرة. أما راعوث فهي موآبية، اي أنها تنتسب إلى القبيلة التي نشأت نتيجة مضاجعة لوط لابنته الكبرى. هؤلاء هم أجداد يسوع المسيح البررة المحترمون! وهذا هو الدم "الطاهر" ليهوه الذي تجسّد انساناً.

ولكن ما يثير الفضول في هذه القصة، أن "الحمامة" لم تلاحظ وهي تلقنها لمؤلفها، بان الكذب الفظّ يطلّ من زواياها كلها. فبين سلمون زوج راحاب العاهرة، ويسّي وداود، هناك بوعوز وعوبيد فقط. ولكن راحاب وسلمون من معاصري يشوع بن نون؛ فقد تزوجت راحاب سلمون بعد سقوط أريحا بيد اليهود. ومن ناحية أخرى عاش عوبيد مع عالي، الكاهن الأكبر، وكان صموئيل خليفة عالي، معاصراً ليسّي؛ وصموئيل هو آخر قضاةاسرائيل، وهو الذي مسح شاول أوّل ملك على اسرائيل، ثم عزله "ومسح داود ملكاً".

وهكذا يتبين لنا أن التسلسل التاريخي في كتاب راعوث يتناقض تناقضاً

حاداً مع مثيله في كتابي يشوع بن نون والقضاة، لأنه لا يمكن من الناحية الفيزيائية أن يعاصر أيٌّ فرد كل تلك الكوارث والحروب وفترات العبودية وعصور الاستقلال التي امتدت ٤٥٠ عاماً، وهي المساحة التاريخية التي تغطيها الكتب الثلاثة المذكورة، وليس معقولاً من الناحية الفيزيائية البحتة، أن يكون سلمون وبوعوز قد عاشا في زمن يشوع بن نون وزمن راعوث، اي في بداية العصر وفي نهايته.

الفصل السادس والعشرون

النبي المقدس صموئيل

في زمن توراتي ما، كان يعيش رجل يدعى ألقانة، وكانت له زوجتان شرعيتان جداً، اسم احداهن حنة واسم الأخرى فننة. وكان يهوه قد أغلق رحم الأولى لأمر في نفسه. الأمر الذي أدى إلى وقوع كثير من المشاحنات بين حنة وزوجها المحترم، كما كانت فننة الولود،الكريهة كالإثم والحامضة كالخلّ، تسخر كل يوم من عقم حنة . ولمّا ضاقت الدنيا بحنة، قررت أن تحج ولكن إلى اين؟ تقول التورات، إن "تابوت العهد" كان وقتئذٍ في شيلو تحت حماية الكاهن الأكبر عالي وولديه حفني وفنحاس (وهذا الأخير ليس أبن اليعازر). فقام ألقانة ومضى مع العائلة إلى شيلو.

ولما جاءت حنة إلى شيلو "صعدت إلى بيت الرب فبكت ولم تأكل. فقال لها ألقانة، رجلها: يا حنة!.... لماذا تبكين، ولماذا لا تأكلين، ولماذا يكتئب قلبك؟ أما أنا خير لك من عشرة بنين؟ فقامت حنة بعدما أكلوا في شيلو وبعدما شربوا. وعالي الكاهن جالس على الكرسي عند قائمة هيكل الرب. وهي مرّة النفس. فصلّت إلى الرب وبكت بكاء، ونذرت نذراً

وقالت: يا رب الجنود! إن نظرت نظرة إلى مذلّتي وذكرتني ولم تنس أمتك، بل أعطيتها زرع بشر، فإني أعطيه للرب كل ايام حياته ولا يعلو رأسه موسى.

وكان إذ أكثرت الصلاة أمام الرب، عالي يلاحظ فاها، فان حنة كانت تتكلّم في قلبها، وشفتاها تتحركان فقط، وصوتها لم يسمع. فظنها عالي سكرى، فقال لها: حتى متى تسكرين؟ انزعي خمرك عنك" (ملوك الأول ١ ، ٧ - ١٤).

ودون أن ترتبك شرحت حنة بلواها للكاهن، ولما رأى عالي خطأه، اهتم لأمر المرأة. ولن نشرح هنا الطريقة العجيبة التي تستخدم في مثل هذه الأحوال، فهي معروفة ومجرّبة، وما زالت تستخدم حتى الآن، وليس صعباً تخمين ما حصل، فبعد أن حصل عالي على اذن ألقانة، دعى حنة إليه في الهيكل. والحقيقة أن المرأة ترددت بعض الشيء، ولكن زوجها هدأ من قلقها وقال: اذهبي مع هذا السيّد، فهو سيعطيك طيلساناً لتمسكي به، وهذا سيساعدك بالتأكيد. وهكذا دخلت حنة "الهيكل".

بيد أن خلوة حنة طالت في الهيكل، فجلس ألقانة ينتظرها تحت الرواق الخارجي للهيكل. وأخيراً ظهرت الزوجة العزيزة يرافقها حفني وفنحاس ولدا عالي، وكان وجها الرجلين يشعان فرحاً لسبب ما لايعرفه سواهما وحنة، وربما عالي أيضاً. وقد أكّد الرجلان لألقانة بان يهوه سينبت الزرع في رحم حنة هذه المرّة. وهذا ما حصل. فبعد تسعة أشهر ولد في عائلة ألقانة ولد دعوا اسمه صموئيل. وأكدت حنة نذرها قائلة، إنها لن تقصّ ضفيرة واحدة من شعر الصبي.

ولمّا شبّ صموئيل جاءت حنة به إلى الكاهن الأكبر عالي، لأنه كان

مكرساً ليهوه. فأرغموه هنا على الانشاد في فرقة المعبد، وتنظيف أرض الهيكل. وقد أكد عالي لحنة تأكيد "نبي"، بان مستقبلاً باهراً غير عادي، ينتظر الصبي. ففرحت المرأة الطيبة فرحاً عظيماً، وفاضت مشاعرها فأنشدت قبل أن تحرّك من مكانها نشيداً جاء كامل نصّه في الاصحاح الثاني من سفر الملوك الأول. ونحن نعفي قارءنا الكريم من قراءته، طمعاً في شكره.

"وكان بنو عالي بني بليّعال، لم يعرفوا الرب، ولاحّق الكهنة من الشعب. كلما ذبح رجل ذبيحة، يجيء غلام الكاهن عند طبخ اللحم وفي يده منشال ذو ثلاثة أسنان، فيضرب في المرحضة أو المرجل، أو المقلي، أو القدر، وكل ما يصعد به المنشل يأخذه الكاهن لنفسه، هكذا كانوا يفعلون بجميع اسرائيل الآتين إلى هناك في شيلو؛ كذلك قبل ما يحرقون الشحم، يأتي غلام الكاهن ويقول للرجل: أعط لحماً ليشوي الكاهن، فانه لا يأخذ منك لحماً مطبوخاً، بل نيئاً. فيقول له الرجل: ليحرقوا الشحم أولاً، ثم خذ ما تشتهيه نفسك. فيقول له: لا بل الآن تعطي أو آخذ عنوة؛ فكانت خطية الغلمان عظيمة جداً أمام الرب، لأن الناس استهانوا تقدمته" (٢ ، ١٢ ـ ١٧).

لكن هذا ليس كل شيء. فقد كان ولدا عالي "يضاجعان النساء المجتمعات في باب خيمة الاجتماع" (٢٢). وكان الكاهن العظيم على معرفة بشائنات ولديه كلها، ولكن هدوء المحترف، الذي يتمتع به رجال الدين، وثقة عالي بأن المؤمنين يتحملون كل شيء، جعلاه ينظر إلى سلوك ولديه وكأنه سلوك كهنوتي عادي.

وعلى الرغم من ذلك كله، تقول التورات في الاصحاح نفسه: إن والدة صموئيل كانت تزور ولدها في شيلوه بصورة دائمة. "وبارك عالي ألقانة

وامرأته وقال: يجعل لك الرب نسلاً من هذه المرأة، بدل العاريّة التي أعارت للرب! وذهبا إلى مكانهما. ولما زار الرب حنة، فحملت وولدت ثلاثة بنين وبنتين، وكبر الصبي صموئيل عند الرب" (٢ ، ٢٠ - ٢١).

على أغلب الظن أنّ المرتابين لن يصدقوا أن زيادة عدد أفراد عائلة ألقانة قد حدث دون مشاركة ولدي عالي. ولكن المؤمنين سيعارضون قائلين: ان ربّ الجنود وحده اهتم باخصاب بويضات رحم حنة الطيبة، وكان ذلك عملاً خيّراً، بينما كان حفني وفنحاس مجرّد نذلين يضاجعان المؤمنات اللواتي جئن للصلاة عند باب خيمة الاجتماع، ولقد كانت مضاجعة النسوة اللواتي اختارهن يهوه تجديفاً رهيباً، وليس أقلّ منها شناعة إنزال المنشل في القدر المقدس، الذي تطبخ فيه لحمة الرب نفسه.

"وكان الصبي صموئيل يخدم الرب أمام عالي؛ وكانت كلمة الرب عزيزة في تلك الأيام، ولم تكن الرؤيا كثيرة. وكان في ذلك الزمان، إذ كان عالي مضجعاً في مكانه وعيناه ابتدأتا تضعفان، ولم يقدر أن يرى، وقبل أن ينطفىء سراج الله، وصموئيل مضطجع في هيكل الرب الذي فيه تابوت الله، ان الرب دعا صموئيل فقال: هاأنذا. وركض إلى عالي وقال: هاأنذا! إنك دعوتني. فقال: لم أدع، ارجع واضطجع. فذهب واضطجع. ثم عاد الرب ودعا صموئيل، فقام صموئيل وذهب إلى عالي وقال: ها انذا! فقد دعوتني، فقال: لم أدع يا بني. ارجع واضطجع. ولم يكن صموئيل قد عرف الرب بعد، ولا أعلن له كلام الرب بعد. وعاد الرب فدعا صموئيل ثالثة، فقام وذهب إلى عالي وقال: هانذا! لقد دعوتني. ففهم عالي أن الرب يدعو الصبي. فقال لصموئيل اذهب واضطجع، وإذا دعاك قل: تكلّم يا رب فان عبدك سامع. فذهب صموئيل واضطجع في مكانه.

فجاء الرب ووقف ودعا كالمرات الأولى: صموئيل! فقال صموئيل: تكلّم لأن عبدك سامع؛ فقال الرب لصموئيل: هوذا أنا فاعل أمراً في اسرائيل؛ كل من سمع به ظن اذناه. في ذلك اليوم اقيم على عالي كل ما تكلّمت به عن بيته، وقد أخبرته بأني أقضي على بيته إلى الأبد بسبب الشر الذي يعلم أن ابنيه قد أوجبا اللعنة على نفسيهما بسببه، ولم يردعهما. ولذلك أقسمت لبيت عالي أنه لا يكّفر عن شرّ بيت عالي بذبيحة أو بتقدمة إلى الأبد" (٣ ، ١ ـ ١٤).

وفي الصباح أراد العجوز أن يعرف نتيجة مغامرات الصبي في الليلة الماضية؛ ولا يصعب علينا بالطبع، أن نتخيّل ماعاناه اللاوي الصغير وهو يروي لمعلمه ما سمعه من ربّ الجنود "فأخبره صموئيل بجميع الكلام ولم يخف عنه، فقال: هو الرب، وما يحسن في عينيه يعمل، وكبر صموئيل وكان الرب معه ولم يدع شيئاً من جميع كلامه يسقط إلى الأرض. وعرف جميع اسرائيل، من دان إلى بئر سبع، أنه قد اؤتمن صموئيل نبياً للرب" (١٨ ـ ٢٠).

لقد أثار القسم الأول من قصة صموئيل، آخر قضاة اسرائيل، بعض الملاحظات النقدية. فقدّم فيريريه بعض الملاحظات العامة بصدد نسبة "الكتاب إلى صموئيل، وأكد على الخطأ الذي يجب ألاّ يقع فيه أيّ مؤرخ جدي، وهو أن الكاتب أبقى القارىء في عتمة كثيفة حجبت رؤية الحال العامة التي كان يعيشها الشعب الذي يجري الحديث عنه. والحقيقة أنه يصعب علينا كثيراً أن نحدد أطر الرقعة الجغرافية التي شغلها اليهود في زمن كهانة عالي؛ أين عاشوا بالضبط؟ وهل كانوا عبيداً، أم أتباعاً للفينيقيين الذين يصرّ الكتّاب اليهود الجهلة على تسميتهم فلسطينيين؟ وعلى أي حال، كان مؤلّف كتاب "الملوك الأول" كاهناً على أغلب الظن، فهو لم يلق بالاً

إلاّ للأمور التي تتصل بمهنته وحسب، متجاهلاً أهمية كل مسألة أخرى.

يقول صاحب سفر "الملوك الأول"، أن مدينة شيلو كانت مقرّ الكاهن الأكبر عالي وقد لاحظ فولتير، أن القرية المسماة شيلو كانت تابعة للفينيقيين، ولا نعتقد بأنهم كانوا سيوافقون على وجود كبير كهنة ديانة أخرى في عقر دارهم. أمّا إذا كان "تابوت العهد" قد وضع في تلك القرية حقاً، فان إقامته هناك كانت سراً. وسنرى لاحقاً أن الفلسطينيين أخذوا التابوت بعد مضي زمن طويل، بعد معركة عنيفة سُحق جنود يهوه فيها، وإذا كان الأمر كذلك، فكيف نفسّر حجّ اليهود إلى شيلو إذاً؟

وينّوه المؤلف في معرض وصفه لما حدث لصموئيل، إلى أن يهوه قلل أحاديثه مع يهوده.، وهنا تطلّ علينا أيديولوجية الشعوب البدائية مرّة أخرى؛ فحسب هذه الايديولوجية انه إذا ما هُزم شعب، هُزم إلهه أيضاً؛ وعندما ينهض، ينهض معه.

ويرى كثيرون أنه إذا كان الاله اليهودي المسيحي هو خالق الكون فعلاً، فانهم يرغمونه على لعب دور شديد الغباء: يقبع داخل صندوق، وفي منتصف الليل ينادي غلاماً ما ثلاث مرات عبثاً ودون أن يفضي له بما أراد قوله. وقد عجب وولستون لعدم قدرة صموئيل على تمييز صوت العجوز الكلي القدرة؛ والحقيقة أنه يصعب كثيراً على المرىء أن يميّز صوتاً لم يسمعه من قبل. ولكن هذا يعني في الآن عينه، أن المؤلف يقدم لنا الاله المعني يملك صوتاً بشرياً له طابع يميّزه عن أصوات البشر الآخرين، كما هي حال كلّ منّا، وهذا برهان آخر على أن اليهود تصوّروا إلههم كائناً له جسد، ورأوا فيه إنساناً خارقاً يعيش حياة عادية بين الغيوم، وينزل إلى الأرض عندما يرى ذلك ضرورياً؛ فيزور من يحب ويدافع عنهم عند

الضرورة، لكنه يتركهمم يواجهون مصيرهم في بعض الأحيان. قصارى القول، انه كالآلهة اليونان وغيرها من الآلهة "الوثنية" الأخرى.

ها هو صموئيل يغدو رجلاً، و "الحمامة المقدسة" لم تضع حداً لسلوك حفني وفنحاس. فهل تابع الرجلان انزال المنشل في القدور التي تطبخ فيها لحمة يهوه؟ إننا لا نعرف سوى أن صموئيل أخبر الاسرائيليين بكل شيء، فأصبحت ادانة سلوك عالي وعائلته "سرّاً يعرفه جميعهم". ولكن هذا لم يمنع المؤمنين من اعالة الكاهن وولديه، وربما اقلع هذان عن سلوكهما الشائن، خوفاً من العقاب؟ بيد أن الاله التوراتي إله حقود لا ينسى أيّ إهانة توجّه إليه. وإليكم ما حدث.

وخرج اسرائيل للقاء الفلسطينيين للحرب، ونزلوا عند حجر المعونة، وأما الفلسطينيين فنزلوا في أفيق، واصطفوا للقاء اسرائيل، واشتبكت الحرب، فانكسر اسرائيل أمام الفلسطينيين، وضربوا من الصف في الحقل نحو أربعة آلاف رجل. فجاء الشعب إلى المحلة. وقال شيوخ اسرائيل لماذا كسرّنا اليوم الرب أمام الفلسطينيين؟ فلنأخذ تابوت عهد الرب من شيلو فيدخل في وسطنا ويخلّصنا من يد أعدائنا. فأرسل الشعب إلى شيلو وحملوا من هناك تابوت عهد ربّ الجنود الجالس على الكروبيم. وكان هناك ابنا عالي، حفني وفنحاس مع تابوت عهد الله.

وكان عند دخول تابوت عهد الرب إلى المحلّة، أن جميع اسرائيل هتفوا هتافاً عظيماً حتى ارتجت الأرض؛ فسمع الفلسطينيون صوت الهتاف وقالوا: ويل لنا، فلم يكن مثل هذا منذ أمس ولا ما قبله. ويل لنا! من ينقذنا من يد هؤلاء الآلهة القادرين؟ هؤلاء الآلهة الذين ضربوا مصر بجميع الضربات في البرية. تشددوا وكونوا رجالاً ايها الفلسطينيون لئلاّ يستعبدكم

اليهود كما استعبدتموهم، فكونوا رجالاً وحاربوا. فحارب الفلسطينيون وانكسر اسرائيل وهرب كل واحد إلى خيمته. وكانت الضربة عظيمة جداً، وسقط من اسرائيل ثلاثون ألف راجل، وأُخذ تابوت العهد، ومات ابنا عالي، حفني وفنحاس.

فركض رجل من بنيامين وجاء إلى شيلو في ذلك اليوم وثيابه ممزّقة وتراب على رأسه. ولمّا جاء إذا عالي جالس على كرسي بجانب الطريق يراقب، لأن قلبه كان مضطرباً لأجل تابوت الله. ولمّا جاء الرجل ليخبر في المدينة، صرخت المدينة كلها؛ فسمع عالي صوت الصراخ فقال: ما هو صوت الضجيج هذا؟ فأسرع الرجل إلى عالي وأخبره. وكان عالي ابن ثمان وتسعين سنة، وقامت عيناه ولم يقدر أن يبصر. فقال الرجل لعالي: أنا هربت اليوم من الصف. فقال: كيف كان الأمر يا بني؟ فأجالب المخبر وقال: هرب اسرائيل أمام الفلسطينيين، وكانت أيضاً كسرة عظيمة في الشعب، ومات ابناك حفني وفنحاس، وأُخذ تابوت الله. وكان لمّا ذكر تابوت الله، سقط عالي عن الكرسي إلى الوراء وانكسرت رقبته ومات، بعد أن قضي لاسرائيل أربعين سنة.

وكنّته امرأة فنحاس كانت حبلى تكاد تلد. فلما سمعت خبر أخذ تابوت الله وموت حميها وزوجها، ركعت وولدت، لأن مخاضها انقلب عليها. وعند احتضارها قالت لها الواقفات عندها: لا تخافي قد ولدت ابناً، فلم تجب ولم يبال قلبها؛ فدعت الصبي ايخابود قائلة: قد أُخذ المجد من اسرائيل، لأن تابوت الله قد أُخذ، ولاجل حميها ورجلها. فقالت: زال المجد من اسرائيل، تابوت الله قد أُخذ" (٤ ، ١ ـ ٢٢)

ولكن المؤلف "المقدس" لم يقل لنا كلمة واحدة عن سخط اليهود على

مستعبديهم الفلسطينيين، كما لم يشر إلى سبب الحرب، أو المنطقة التي كان يقطنها اليهود. فقد اقتصر بيانه على أن اليهود خسروا ثلاثين ألف قتيل، على الرغم من وجود "تابوت العهد" بينهم. ويلاحظ فولتير قائلاً: "كيف يمكننا أن نصدّق بان شعباً مستعبداً خسر تلك الخسائر كلها، ثم عاد ونهض بتلك السرعة؟".

وغني عن القول، إن النقّاد ارتابوا منذ زمن طويل، بصدق أخبار المؤلف "المقدس" ، و لاحظوا ميله إلى المبالغة في وصف الهزائم والانتصارات على حدّ سواء. وفي أحد مقاطع التورات، نراه يولي تمجيد صموئيل اهتماماً أكثر من ذلك الذي يوليه لتوضيح التاريخ اليهودي. ولذلك عبثاً ننتظر منه وصفاً صادقاً لبلاد اليهود وللظروف التي وقع العصيان فيها، وللقلاع، أو حتى للكهوف التي استولى الثائرون عليها، أو لاجراءات الدفاع والقادة الذين أداروا المعركة؛ فلا شيء عن هذه المسائل الهامة كلها! ومن هنا جاءت ملاحظة بولينغبروك بأن اللاوي، الذي كتب هذه القصة، إنما كتبها كما كتب كهنة القرون الوسطى عن بعض الأحداث من منظورهم الكهنوتي. ويضيف فولتير ساخراً: "لا شك أن الله وجّه كلمته إلى صموئيل بعد أن اصبح نبياً، وأنه غدا منذ طفولته، أكثر أهمية بكثير، من الثلاثين ألف قتيل الذين لم يحصل لهم شرف سماع صوت الله قط. وقد يكون هذا هو سبب اهتمام "الكتاب المقدس" بالحديث مفصلاً عن الأنبياء اليهود، وليس عن الناس اليهود".

والآن أرجو من قارئي الكريم الانتباه كله! فالأمر جدّي ومقدس جداً، لأن ما سنورده هو من "الروح القدس" نفسه. فلكي يعاقب حفني وفنحاس، اللذين كانا ينزلان المنشال الثلاثي الرؤوس في قدره، لم يجد

يهوه طريقة أفضل من وقوعه في قبضة الفلطسينيين، وهو قابع في "تابوت العهد" الشهير. ومع ان حفني وفنحاس دافعا عن التابوت، أي عن يهوه نفسه وقتلا في سبيل ذلك، إلاّن العجوز اراد (ونحن لا نستطيع ادراك كنه الارادة الالهية) أن يميتهما مع ثلاثين ألف يهودي آخر لم ينزل أيّ منهم أيّ منشال في قدره، في أيّ يوم.

وأخيراً، ألم يسقط يهوه نفسه في مستنقع التجديف على ذاته الالهية، عندما سلّم نفسه للوثنيين؟ وقد لاترون أن هذا الأمر منطقي؟ ولكنه سلوك العلي على أي حال! وهو ما يوجع لك رأسك به أي لاهوتي.

نشير بداية إلى أن هؤلاء الفلسطينيين كانوا قوماً يحترمون الآلهة ويبجلونها، وإنهم أظهروا اسمى درجات الاحترام للاله اليهودي الاسير؛ وكنا قد رأينا منذ قليل أنهم يخافون جبروته. وبما أن سلوكهم كان يتسم بالتسامح ونبذ التفرقة الدينية، الأمر الذي لا يجيز لهم اهانة مقدسات الديانات الأخرى، فقد أحاطوا صندوق الاله اليهودي بالاحترام والتقدير.

ولكن، لو وقع جوبتر أو بوذا بين يدي جهاز التفتيش المسيحي، لقذفوا به إلى اقبية التعذيب دون تردد، أما الفلسطينيون، الذين كانوا يعرفون بأن الصندوق الذي وقع بين أيديهم يأوي الاله اليهودي، فقد حملوه في موكب احتفالي وجاؤوا به إلى اشدود، حيث كان يقوم أكثر معابدهم فخامة وهو، معبد الاله داجون. فوضعوا "تابوت العهد" فيه إلى جانب داجون نفسه، أي في أكثر زوايا المعبد مقدسية. وربما حاكم الفلسطينيون الأمر كما يلي: بما ان إله اسرائيل إله من المرتبة الأولى، ونحن على علم بالعجائب التي صنعها في مصر عندما قرر أن يخرج يهوده منها، وبما أن الحظ حالفنا وألقينا عليه القبض، فلنحاول أن نهتم به لنستميله إلى جانبنا، فنضعه إلى جانب داجون، فإله حام آخر لا يضرّ ابداً.

ولكن الفلسطينيين كانوا كمن يحاول اصطياد النجوم، إذ سرعان ما أيقنوا بان الاله اليهودي إله شرير مؤذ. فعند المساء عاد كهنة معبد داجون إلى منازلهم وتركوا يهوه مع داجون وجهاً لوجه. ولو قدّر للفنينيقيين أن يصطادوا بدلاً من يهوه أنوبيساً مصرياً أو هرموذاً فارسياً أبو للوناً اغريقياً. لسار كل شيء على ما يرام، ولجلس الإلهان يتسامران يشتكي كل منهما للآخر المضايقات التي يسببها له عابدوه من البشر، ثم استلقى كلاهما للنوم، وهكذا دواليك إلى أن تتوطد العلاقة بينهما ويصبحا صديقين.

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث! فقد استغل ربّ الجنود غياب كهنة داجون ليتعامل معه كعدّو لدود، وكانت به رغبة شديدة ليثبت بأنه أكثر جبروتاً. أمّا داجون فلم يكن إلهاً حقوداً أو شريراً، من حيث الجوهر، ولذلك لم تكن تقدّم إليه قرابين بشرية، بل ويمكن القول بأنه كان الهاً طيباً. ولا بد أن يكون الذهول قد اعتراه لمّا خرج يهوه من صندوقه على حين غرة، وهاجمه في منتصف الليل كالمسعور، وألقاه أرضاً.

ولا تصف لنا التورات تفاصيل ما حدث، بيد أنه يتبينّ من النص أن ذلك هو ما حدث بالضبط. "وأخذ الفلسطينيون تابوت الله وأدخلوه إلى بيت داجون، وأقاموه بقرب داجون؛ وبكّر الاشدوديون في الغد وإذا بداجون ساقط على وجهه إلى الأرض أمام تابوت الرب، فأخذوا داجون وأقاموه في مكانه" (٥ ، ٢ ـ ٣). أما ما وقع لداجون في الليلة الثانية، فقد كان أفظع. فيهوه أحسّ بالاهانة لأن داجون قاسمه سجود الاشدوديين ؛ وربما أحسّ هو نفسه بان غيرته تثير الاشمئزاز ، وأن سلوكه كان شديد الفظاظة؛ فقبع في صندوقه النهار كله.

آخ، لو قدّر لمؤمنيّ ذلك الزمن رؤية العجوز يهوه يمدّ رأسه خارج

الصندوق، أو لو انه حرّضهم بعض التحريض، إذاً لارتدّ الاشدوديون عن عبادة داجون. لكن ربّ الجنود آثر أن يجلس ساكناً هادئاً ولم يظهر لأحد، فالغيظ كان ينهش قلبه وهو صامت. لقد فضّل البقاء في العتمة، كي يطلق العنان لغيظه فيما بعد، ويروي غلّه.

في هذه المرة تلقى داجون ضربة قاسية: "وبكّروا صباح الغد وإذا بداجون ساقط وجهه على الأرض، أمام تابوت الرب ورأسه ويداه مقطوعة على الاعتبة، ولم يبق سوى بدن السمكة فقط" (٥ ، ٤).

هذا كله أثار حفيظة سكان المدينة، ونشر القلق والبلبلة في صفوفهم. ومع ذلك لم يفقهوا شيئاً مما وقع، فقد كانت طويتهم النقية تبتعد بهم عن الظنون، ولذلك لم يتهموا القابع في الصندوق بشيء. ولكن سرعان ما وقع بهم عقاب رهيب: "فثقلت يد الرب على الاشدوديين، وأخربهم وضربهم بالبواسير في اشدود وتخومها" (٦). وعندئذٍ فقط، أدرك الاشدوديون أن تلك الأفعال إنما هي سموم حقد إله بني اسرائيل الشرير السفاح. فأمر الشيوخ بنقل "تابوت العهد" إلى مدينة أخرى، واختاروا مدينة جت مقراً جديداً لإقامة الاله الكريه. وما أن ظهر "التابوت" الشؤم في جت حتى ظهرت معه البواسير في مؤخرات سكان المدينة كلهم. فنقلوا "التابوت" إلى عسقلون، حيث حلّت البلية نفسها، وهكذا كانت البلاد تئن تحت ضربات "سوط الرب" "والذين لم يموتوا ضربوا بالبواسير، فصعد صراخ المدينة إلى السماء" (١٢).

على امتداد ثمانية أشهر والفلسطينيون ينقلون التابوت البغيض من مدينة لأخرى، وحيثما كان يظهر هذا الاله، كانت تظهر معه العقابيل في مؤخرات الناس. فقرروا أخيراً معرفة رأي المنجمين. وقد كان هؤلاء كهنة

الديانة "الكاذبة"، لكنها كاذبة من وجهة نظر المسيحية بالطبع. وبصرف النظر عن موقف المسيحية من أولئك الكهنة، إلاّ أنهم أظهروا براعة أنبياء ذوي مستوى عال! لقد قرر الفلسطينيون إعادة صندوق الشر هذا!

"فقالوا: (الكهنة والعرّافون): إذا أرسلتم تابوت إله اسرائيل، فلا ترسلوه فارغاً، بل ردّوا له قربان إثم. حينئذٍ تُشفَون ويُعلم عندكم لماذا لا ترتفع يده عنكم. فقالوا: وما هو قربان الاثم الذي نرد له؟ فقالوا: حسب عدد أقطاب الفلسطينيين، خمسة بواسير من ذهب، وخمسة فئران من ذهب، لأن الضربة واحدة عليكم جميعاًوعلى اقطابكم؛ واصنعوا تماثيل بواسيركم وتماثيل فئرانكم التي تفسد الأرض، وأعطوا إله اسرائيل مجداً لعلّه يخفف يده عنكم وعن آلهتكم وعن أرضكم. ولماذا تغلظون قلوبكم كما أغلظ المصريون وفرعون قلوبهم. وعندما أظهر لهم الرب قوته عليهم، أطلقوهم فمضوا؛ والآن خذوا واصنعوا عربة واحدة جديدة، واربطوا إليها بقرتين مرضعتين لم يعلهما نير، وارجعوا ولديهما عنهما إلى البيت، وخذوا تابوت الرب و اجعلوه على العربة، وضعوا متعة الذهب التي تردّونها له قربان اثم، في صندوق بجانبه، واطلقوه فيذهب وانظروا، فان صعد في طريق تخمه إلى بيت شمس، فانه هو الذي فعل بنا هذا الشرّ العظيم، وإلاّ فنعلم أن يده لم تضربنا، وأن ذلك كان علينا عرضاً" (٦ ، ٣ - ٩).

عندما يقرأ المرء هذه القصة فانه يتذكّر قصة سارة ابنة التسعين عاماً، التي أخذها ايمالك، ملك جرار، جارية له بعد أن قدمها ابراهيم إليه على أنها اخته، وكان جمالها قد فتن الملك! ولا ريب أن القارىء سيتذكر في هذا السياق، أن يهوه "أغلق ارحام" نساء جرار كلهن، إلى أن أطلق الملك زوجة البطريرك القواد. ولكن اصبع الاله اليهودي دخلت هنا عضواً آخر في

أجساد الرجال الفلسطينيين. مسكينة تلك الأرحام! فعلى الرغم من براءتها مما حدثٍ، إلاّ أنها أُذيقت آلاماً مريرة! ولماذا عفا هذا الاله الغريب عن قوادة ابراهيم وهو المذنب الوحيد في كل ما جرى في جرار؟ فهو وحده الذي تاجر بفرج سارة متظاهراً بأنها اخته. ولماذا يعاقب هذا الابله نفسه الفلسطينيين لأنهم استولوا عليه مع صندوقه؟ أليس هو من سمح بذلك؟ إنه حقاً لسرّ مقدس وبلبلة إلهية.

لكن الفلسطينيين عملوا بنصيحة كهنتهم وعرّافيهم. فصنعوا خمسة فئران ذهبية وخمسة بواسير ذهبية مثّلت مجتمعة قربان إثم المدن الفلسطينية الخمس وهي: أشدود، جت، عسقلون، غزّة وعقرون. فرموا بالتابوت وهذه القرابين فوق العربة التي جرّتها بقرتان فتيتان أُبعد عجليهما عنهما، وأطلقتا في الحقول دون حوذي. "فاستقامت البقرتان في الطريق إلى بيت شمس وكانتا تسيران في سكة واحدة وتجأران، ولم تحيدا يميناً ولا شمالاً، وأقطاب الفلسطينيين يسيرون وراءهما إلى تخم بيت شمس" (٦ ، ١٢).

إن في هذه الروعة عظيمة! وأن المؤمنين لعلى حق بأن يفخروا بجوهر هذا الدين! والحقيقة أن التورات لا تعاني نقصاً في الأنبياء. وحتى الكهنة والعرافون الفلسطينيون، أبناء "الشعب الملعون" يعتبرون فيها أنبياء حقيقيين. فلكل بلاد أنبياؤها، ومؤلفو التورات، الذين هم أنبياء أيضاً، يحترمون لقبهم حتى في عبدة الأوثان، زملائهم في المهنة. وفي جبروته الخارقة يظهر يهوه عظمته في الهام أنبياء ديانات "كاذبة"، كما وقع لبلعام. فيهوه لا يمنع صناعة العجائب حتى عن كهنة المعتقدات المعادية له، وهو الأمر الذي رأيناه على مثال كهنة مصر الذين أعادوا صناعة بعض عجائب موسى. أوليس رجوع البقرتين إلى مكان "تابوت العهد" حدثاًعجيباً مذهلاً أيضاً؟ فقد

سارتا إلى يهود بيت شمس دون حوذي، ألم تدفعهما يد يهوه إلى هناك؟ وهذا بحدّ ذاته ألم يجعل منهما نبيّين؟ فيهوه قادر على كل شيء! فلنتذكر "أتان بلعام" التي نطقت بلسان بشري.

"وكان أهل بيت شمس يحصدون حصاد الحنطة في الوادي، فرفعوا أعينهم ورأوا التابوت وفرحوا برؤيته.

فاتت العربة إلى حقل يهوشع البيتشمسي، ووقفت هناك، وكان هناك حجر كبير فشققوا خشب العجلة واصعدوا البقرتين محرقة للرب. فأنزل اللاويون تابوت الرب والصندوق الذي معه، والذي فيه امتعة الذهب، ووضعوهما على الحجر الكبير، وأصعد أهل بيت شمس محرقة وذبحوا ذبائح في ذلك اليوم للرب" (٦ ، ١٣ ـ ١٥).

وليس هذا كل شيء! فقد مضى وقت طويل لم يذْ هذا السفاح فيه أحداً من شعبه الحبيب. ولكن كيف يستطيع أن يعلن عن عودته إلى "حضن اسرائيل" بطريقة أفضل من ارتكاب مجزرة؟ إذاً تعالوا نستمتع معاً، ولتفرح قلوب المؤمنين بهكذا إله! "وضرب أهل بيت شمس لأنهم نظروا إلى تابوت الرب؛ وقتل من الشعب خمسين ألف رجل وسبعين رجلاً، وناح الشعب لأن الرب ضرب الشعب ضربة عظيمة" (٦ ، ١٩).

ان يهوه لا يحب المزاح قط، ولا يطيق أيّ فضول تجاه شخصه، ألم يكن قد أعلن مراراً وتكراراً أن من يرى وجهه موتاً يموت، إلاّ في بعض الأحوال النادرة؟ ألم يكن أهل بيت شمس على علم مسبق بهذا؟ إذاً ما معنى سلوكهم الأحمق بفتحهم الصندوق لينظروا ما في داخله؟ يبدو أن الفلسطينيين كانوا أكثر حكمة و ورعاً عند مالم يرفعوا الغطاء "المقدس". ولذلك اكتفى يهوه بضرب شروجهم بالبواسير.

وثمة ملاحظة أخرى هي: على الرغم من أن الجغرافيا لا تعرف مدينة تدعى بيت شمس إلاّ أنها يجب أن تكون مدينة هامة، طالما أن عدد سكانها كان أكثر من ٥٠،٠٧٠ فضولياً الذين أبيدوا في مكانهم. ويبيّن لنا قتل هذه الأرواح كلها، ما الذي يستطيع فعله "الروح القدس".

فلنحاكم الأمر هكذا إذاً. فمن الناحية الفيزيائية الصرف،، ليس بمقدور ٥٠،٠٧٠ إنساناً أن يحيطوا بالتابوت، في آن واحد. أليس كذلك؟ لنفرض إذاً أن عشرة أشخاص، أو عشرين، أو ثلاثين شخصاً إذا أردتم، اقتربوا ورفعوا غطاء الصندوق ورأوا ما في داخله فسقطوا شهداء شجاعتهم. وسنفرض أيضاً أن ثلاثين فضولياً آخر لم يفهموا الدرس وكرروا وقاحة زملائهم فحصلت النتيجة نفسها، ثم جاءت دفعة ثلاثين ثالثة، والنتيجة نفسها. ألا ينبغي أن يجد سكان بيت شمس بعدئذٍ صعوبة متزايدة في الاقتراب من التابوت؟ بسبب تراكم الجثث حول التابوت المقدس، في اقل تقديرا ولا ريب أن الانسان يجب أن يكون على قدر كبير من العناد "الحميري" كي يضحي بحياته ليرضي فضوله. ومهما بلغت "حميرية" أهل بيت شمس، فقد كان عليهم أن يبتعدوا عن ذلك الصندوق اللعين في نهاية الأمر، لأن تراكم الجثث سيجعل بلوغه أمراًفي غاية الصعوبة. والمنطق، أيّ منطق، ماعدا المنطق التوراتي، يفترض بأن ما حصل يجب ان يكون العكس، فما أن سقط بضع عشرات حتى دفع الخوف بالآخرين إلى الفرار. ولا ريب أن العدد الذي ساقته التورات مبالغ فيه كثيراً. ويبدو أن "الحماقة المقدسة" أضافت ٥٠،٠٠٠ قتيل إلى ال ٧٠ قتيلاً الذين ربما كانوا قد سقطوا نتيجة حدثٍ ما.

ونحن سنحاول من جانبنا، ألاّ ندهش أحداً بقولنا، إن سكان بيت

شمس الناجين من المذبحة، بذلوا كل جهد ممكن إلى دفع الصندوق الرهيب بعيداً عنهم. ويفيدنا النص التوراتي بأنهم استطاعوا اقناع أهل قرية يعاريم باستضافته، وقد بقي هناك عشرين عاماً. بعدئذٍ قرر يهوه أن يمنح شعبه الحبيب النصر على الفلسطينيين في الموقعة التي دارت رحاها بين المصفاة وبيت كار" (٧ ، ١١).

أمّا صموئيل، فقد أقام قاضياً على اسرائيل، ولم يقصّ شعر رأسه قط، ملتزماً بذلك نذر أمه، وتشهد له التورات بأنه تمكن أن يكسب حبّ الاسرائيليين واحترامهم، وأنه حظي بشهرة شعبية لم يسبق لها مثيل. وعندما شاخ ابن حنة، أقام ولديه، يوئيل وأبيّا، مساعدين له. بيد أنهما لم يكونا بأفضل من حفني وفنحاس. "ولم يسلك ابناه طريقه، بل ما لا وراء المكسب، وأخذا رشوة، وعوجّا القضاء" (٨ ، ٣).

ولكن، من المثير حقاً أن، يهوه الذي قتل ولديّ عالي، لم يرسل صواعقه على ولديّ صموئيل اللذين داسا الشريعة وسلكا سلوكاً شائناً؛ وهو إنما فعل ذلك لأنهما لم يمسا مصالحه الخاصة، فبقيت جرائمهما في عينيه بسيطة سخيفة، إذا ما قورنت بجرائم حفني وفنحاس اللذين أنزلا المنشل في قدره وأخذا اللحم منه.

الفصل السابع والعشرون

جلوس شاول على العرش

من الخطأ الظن بأن الشيخوخة ارغمت صموئيل على تسليم صلاحياته إلى ولديه، فقد بقي هذا الرجل يلعب الدور الرئيس في حياة اسرائيل، حتى آخر لحظة في حياته. وفي أحد الصباحات الصافية جاءه شيوخ اسرائيل وطلبوا إليه أن يقيم فيهم ملكاً، كما هي الحال عند الشعوب المجاورة، فاختلى النبي مع يهوه ليشاوره بالأمر، ثم رسم لهم بعد نهاية الخلوة، صورة بشعة عن السلطة الملكية. فقال لهم:

تريدون ملكاً؟ حسن! ولكن اعلموا أولاً أيّ أعراف وتقاليد عند الملك : "ياخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه ولمراكبه وفرسانه، فيركضون أمام مراكبه، ويجعل لنفسه رؤساء الوف و رؤساء خماسين، فيحرثون حراثته، ويحصدون حصاده، ويصنعون عدة حربه وأدوات مراكبه، ويأخذ بناتكم عطارات وطباخات وخبازات، ويأخذ أجود حقولكم وكرومكم وزيتونكم، ويعطيها لعبيده، ويعشّر زروعكم وكرومكم ويعطي لخصيانه وعبيده. ويأخذ عبيدكم وجواريكم وشبانكم الحسان، وحميركم ويستعملهم لشغله؛

ويعشّر غنمكم وأنتم تكونون له عبيداً فتصرخون في ذلك اليوم في وجه ملككم الذي اخترتموه لأنفسكم فلا يستجيب لكم الرب في ذلك اليوم" (ملوك أول ٨ ، ١١ ـ ١٨).

ولكن على الرغم من موهبته الخطابية، لم يستطع صموئيل اقناع مستمعيه. ويجب علينا أن نعترف هنا بأن وصفه الدقيق للنظام الملكي كان نابعاً من اسفه الشديد لأن اليهود قرروا أخيراً الحدّ من سلطة الكهنة. بيد أن المسألة كلها تلخصت في أن احباء يهوه السذّج، الذين امتصّ الكهنة دماءهم قروناً، قاموا يسعون الآن لتبديل المصاص، أو بمعنى أدق، لتنصيب مصاص آخر. ثم انتهى الأمر بأن قال يهوه لنبيّه: "اسمع لصوتهم وملّك عليهم ملكاً؛ فقال صموئيل لرجال اسرائيل: اذهبوا كل واحد إلى مدينته" (٢٢).

والآن، على رأس مَنْ وضع يهوه أوّل تاج اسرائيلي؟ "وكان رجل من بنيامين اسمه قيس بن ابيئيل بن صرور بن بكورة بن أفيح، ابن رجل بنيامني جبّار بأس. وكان له ابن اسمه شاول، شابّ وحسن، ولم يكن رجل في اسرائيل أحسن منه. من كتفه فما فوق كان أطول من كل الشعب" (٩ ، ١ ـ ٢).

لم يكن شاول فتى خبيثاً؛ فقد كان يرعى أُتن أبيه. وفي أحد الأيام شردت الاتن، فأرسله والده مع واحد من الخدم ليبحث عنها، فجاب المنطقة كلها دون أن يعثر على أثرها. فأشار عليه الخادم أن يسأل "العرّاف" فلاحظ شاول بأن "العرّاف" يأخذ أجراً، وليس معهما شيء يدفعانه. فقال الخادم:

ـ لا تقلق يا سيدي، فأنا أحمل ربع شاقل من الفضة، وسنعطيه "لرجل الله".

وهكذا مضى الاثنان إلى البلدة، ولمّا وصلاها سألا عن "العراف" فأرشدتهما بنات البلدة إلى بيته، فدخلا عليه. "والرب كشف اذن صموئيل قبل مجيىء شاول بيوم واحد قائلاً: غداً في مثل هذا الوقت أرسل إليك رجلاً من أرض بنيامين، فامسحه رئيساً لشعبي اسرائيل، فيخلّص شعبي من يد الفلسطينيين؛ لأني نظرت إلى شعبي وقد وصلني صراخه، فلما رأى صموئيل شاول، قال له الرب: هوذا الرجل الذي كلّمتك عنه، وهو الذي سيحكم شعبي" (٩ ، ١٥ - ١٧).

وسأل شاول صموئيل عن "العرّاف"، فأجابه بأنه هو "العرّاف" نفسه، ثم دعاه إلى مائدته وكان عند "العراف" في ذلك اليوم ثلاثون رجلاً. ولمّا جلسوا إلى المائدة، خصّ شاول بمكان الصدارة منها، وجاءه الطاهي بوجبة أعدت له خاصة. ولكي يطمئن شاول عل الأتن، أكد له صموئيل بأنه قد عُثر عليها، وأنه سيجدها في البيت فور عودته إلى أبيه. وفي صباح اليوم التالي، قبل أن يقفل شاول عائداً إلى بيت أبيه، سكب صموئيل الزيت فوق رأسه وأخبره بأن صار الآن ملكاً على اسرائيل، وأن "روح الله" حلّ فيه.

ومنذ تلك اللحظة، تبدّل ابن قيس تبدلاً تاماً، ولم يعد هو نفسه. ولمّا وصل بيت أبيه، رأى اتنه الحبيبة عند بوابة الفناء، فأثر المشهد فيه أشدّ التأثير، وشرع "يتنبأ" بثقة ومهارة تحسب معهما أن التنبؤ كان مهنته التي لم يمارس سواها قط (١٠ ، ١ - ١٦).

في ذلك الوقت كان "تابوت العهد" في المصفاة. وهناك جمع صموئيل شعب اسرائيل؛ ولكن "الحمامة المقدسة" لم تذكر شيئاً عن تاريخ الاجتماع، أو كيف اتسعت تلك المدينة الصغيرة لتلك الملايين كلها. وقال صموئيل "لبني اسرائيل : هكذا يقول الرب إله اسرائيل: إني اصعدت

اسرائيل من مصر،وأنقذكم من يد المصريين، ومن يد جميع الممالك التي ضايقتكم؛ وأنتم رفضتم اليوم الهكم الذي هو مخلصكم من جميع الذين يسيؤون إليكم، وقلتم له: بل تجعل علينا ملكاً. والآن قفوا أمام الرب حسب أسباطكم والوفكم.

فقدّم صموئيل أسباط اسرائيل وأخذ سبط بنيامين حسب عشائره. وأخذ عشيرة مطري، وأخذ شاول بن قيس، وبحثوا عنه فلم يجدوه" (١٠ ، ١٨ - ٢١).

ولم يقل صموئيل للشعب: "إن يهوه أشار عليّ بشاول منذ وقت، وأني سكبت الزيت فوق رأسه، وهو سيكون ملككم". وقد تلافت اجراءات الانتخاب كل امكانية للغيرة أو الحسد، كما تلافت إمكانية بروز عدم الرضى. فسيّد المصير هو يهوه نفسه، ولذلك كان النبي العجوز مطمئناً لانتخاب شاول بالذات، لأنه ليس باستطاعة الله أن يترك الانتخابات لعبث القدر، الذي قد يلغي "المسح المقدس" لمن اختاره هو نفسه للتو.

أما نحن فعلينا أن نتذكر الآن "نبوأة" يعقوب؛ ألم يَعِدْ قبيلة يهوذا بالملك على اسرائيل؟ (انظر ٤٩ ، ٨) ما الذي حصل إذاً، هل نسي الرب تلك النبوأة في اللحظة التي كانت تقوم فيها مملكة اسرائيل؟ ولكن لا بأس! فهو سيتذكر ويصحح الخطأ. وسرعان ما سنرى هذا التاج ينتقل من فوق رأس شاول، إلى رأس أحد أحفاد يهوذا. وبذلك يُستَدرَك النسيان الالهي وتتحقق "نبوأة" البطريرك العجوز.

أما الآن فلنحنِ رؤوسنا احتراماً لنتائج الانتخابات، التي تركها المرشح الوحيد فيها وفرّهاربا. أين شاول؟ ما الذي حدث له؟ سؤالان تناقلتهما الألسن فوراً؛ وسئل يهوه نفسه عن مكان وجود شاول. "فقال الرب: هوذا

قد اختبأ بين الأمتعة. فركضوا وأخذوه من هناك فوقف بين الشعب، فكان أطول من كل الشعب، من كتفه فما فوق، فقال صموئيل لجميع الشعب: أرأيتم الذي اختاره الرب؟ إنه ليس مثله في جميع الشعب، فهتف كل الشعب وقال: ليحى الملك" (١٠ ، ٢٢ - ٢٤).

ويُفهم من النص الذي يلي هذا المقطع، أن صموئيل كان رئيس وزراء الملك الجديد. فقد وضع القوانين والتشريعات الرئيسة السارية في مملكة اسرائيل، ووضعت مخطوطته الثمينة في "تابوت العهد" لتحفظ فيه. ولكن سرعان ما نشب الخلاف بين شاول وصموئيل. وكان قد مضى حوالي الشهر على الحدث المشهود في تاريخ اسرائيل، ولم تبدر عن شاول أيّ بادرة تنمّ بأنه طاغية مستبد، ولم تظهر عليه أي سمة من السمات التي حذّر صموئيل اليهود منها. فبدلاً من ان يبني الملك لنفسه قصراً فخماً، ويحيط نفسه بالخدم والحشم والحرس، عاد ابن قيس إلى أرضه وتابع حياته الفلاحية المعتادة. ولكن ناحاش العموني أراد الاستيلاء على يابيش اليهودية وضمها.

"وصعد ناحاش العموني، وحاصر يابيش جلعاد. فقال جميع أهل يابيش لناحاش: اقطع لنا عهداً وسنخدمك. فقال لهم ناحاش: اقطع لكم عهداً ولكن شريطة أن اسمل العين اليمنى لكم، لاجعل ذلك عاراً على جميع اسرائيل. فقال شيوخ يابيش: اتركنا سبعة أيام لنرسل رسلاً إلى جميع تخوم اسرائيل، فإن لم ينهض أحد لمساعدتنا، نخرج إليك. وجاء الرسل إلى جبعة شاول وتكلموا بهذا الكلام في آذان الشعب، فرفع كل الشعب أصواتهم وبكوا" (١١ ، ١ - ٤).

في ذلك الوقت عاد الملك شاول من الحراثة في حقله ومعه ثوريه. (فحلّ روح الله على شاول... وحمي غضبه جداً، فأخذ فدان بقر وقطعه وأرسل

إلى كل تخوم اسرائيل بيد الرسل قائلاً: من لا يخرج وراء شاول ووراء صموئيل، هكذا يفعل بيقره. فوقع رعب الرب على الشعب وخرج كرجل واحد. وعدّهم في بازق، فكان بنوا اسرائيل ثلاث مائة ألف، ورجال يهوذا ثلاثين ألفاً.

وقالوا للرسل الذين جاؤوا: هكذا تقولون لأهل يابيش جلعاد: غداً عندما تحمي الشمس، يكون لكم خلاص. فأتى الرسل وأخبروا أهل يابيش، ففرحوا. وقال أهل يابيش: غداً نخرج إليكم فتفعلون بنا ما يحسن في أعينكم. وكان في الغد أن شاول جعل الشعب ثلاث فرق، ودخلوا في وسط المحلة عند سحر الصبح، وضربوا العمونيين حتى حمي النهار، والذين بقوا تشتتوا حتى لم يبق منهم اثنان معاً" (١١ ، ٦ ـ ١١).

لقد بعثت هذه المأثرة "المقدسة"، التي اجترحها "الملك الفلاح" روح العزة و الفخار في نفوس اليهود، فاحتفلوا بانتصار جيشهم الجرار.

أمّا النقاد، فلم يدهشهم كون الملك شاول مزارعاً يعتني بقطعان والده، فقد كان يقود شعباً صغيراً على أي حال. ولكنهم لا يعترفون بقدرة مثل هذا "الملك" على استنفار جيش قوامه ٣٣٠,٠٠٠ مقاتل خلال خمسة أيام، خاصة وأن ذلك وقع في زمن يعترف المؤلف نفسه، بأن الاسرائيليين كانوا فيه عبيداً عند الفلسطنيين؛ بزمن لم يكن فيه لدى اليهود ـ كما تقول التورات ـ سيف أو رمح، أو أيّ سلاح معدني؛ حتى أدواتهم كانوا يشحذونها عند الحدادين الفلسطينيين باذنٍ خاص (ملوك أول ٣١ ، ١٩ ـ ٢٢).

وفي الاصحاح الثاني عشر سيقت لنا الخطبة العصماء التي اعلن صموئيل فيها استقالته متذرعاً بالشيخوخة. وهكذا انتهى عهد القضاة وبدأ عهد الملوك. والحقيقة أن صموئيل لم يترك الحلبة بارادته الطيبة!؛ فقد قال

في خطبته: إن اليهود أضافوا اثما جديداً إلى آثامهم السابقة، عندما طلبوا ملكاً عليهم. واختتم كلامه قائلاً: بما أنه أصبح عندكم الآن ملك، فحافظوا عليه، إنه مسيح الرب. ولكي يبرهن لليهود مرّة أخرى مدى قربه من يهوه، صنع صموئيل عجيبة من تلك التي لا نجدها إلاّ في التورات.

قال صموئيل لاسرائيل كلّه: "والآن قفوا أيضاً وانظروا هذا الأمر العظيم الذي يفعله الرب أمام أعينكم. أما هو حصاد الحنطة اليوم؟ ولكنني سأدعو الرب فيعطي رعوداً ومطراً فتعلمون وترون أن الشر الذي عملتموه بطلبكم ملكاً، عظيم في عينّي الرب، ودعا صموئيل الرب فأعطى رعوداً ومطراً في ذلك اليوم. وخاف جميع الشعب الرب وصموئيل جداً" (١٢ ، ١٦ ـ ١٨) ثم مضى النبي العجوز بعد أن وعد قومه بالاّ ينساهم في صلواته. بيد أن استقالة صموئيل لم تكن سوى مناورة سياسية في غاية الذكاء والحكمة.

وبعد أن وصلت أخبار التبدلات التي وقعت في بنية "الحكومة الملكية"، إلى الفلسطينيين، أخذوا يستعدون لشن هجمات جديدة على الاسرائيليين. ولكن تلك الاستعدادات لم ترفع الروح المعنوية عند رعايا الملك شاول. فقد انفضّ عنده ال ٣٣٠،٠٠٠ ألفاً الذين أحاطوا به منذ أيام، وذابوا في الأرض الكنعانية كما يذوب الملح في الماء. "وتجمعّ الفلسطينيون لمحاربة اسرائيل: ثلاثون ألف مركبة، وستة آلاف فارس، وشعب كالرمل الذي على شاطىء البحر في الكثرة، وصعدوا ونزلوا في مخماس، شرقي بيت آون؛ ولمّا رأى رجال اسرائيل أنهم في ضنك، لأن الشعب تضايق، اختبؤوا في المغاور والغياض والصخور والصروح والآبار، وعبر بعض اليهود الاردن إلى أرض جاد وجلعاد، وكان شاول لا يزال في الجلجال وكل الشعب ارتعد وراءه" (١٣ ، ٥ ـ ٧).

في الوضع الناشىء، رأى شاول أنه من المفيد تقديم ذبيحة للرب، وأعلن صموئيل أنه سيأتي بنفسه ليخدم يهوه. "وانتظر (شاول) سبعة أيام حسب ميعاد صموئيل، ولم يأت صموئيل إلى الجلجال، وأخذ الشعب ينفضّ عنه. فقال شاول: قدموا إلّي المحرقة وذبائح السلامة، فاصعد المحرقة. وكان لمّا انتهى من اصعاد المحرقة، إذا صموئيل مقبل، فخرج شاول للقائه مرحباً به، فقال صموئيل: ماذا فعلت؟ فقال شاول: لقد رأيت أن الشعب أخذ يتفرّق عني، وأنت لم تأت في أيام الميعاد، والفلسطينيون تجمعوا في مخماس، فقلت: الآن يأتي الفلسطينيون إلّي إلى الجلجال، وأنا لم أتضرّع إلى وجه الرب بعد، فقررت واصعدت المحرقة، فقال صموئيل لشاول: لقد سلكت سلوكاً أحمق، ولم تحفظ وصية الرب الهك التي أمرك بها، وكان الآن سيثبت مملكتك على اسرائيل إلى الأبد؛ أما الآن فمملكتك لا تقوم، والرب انتقى لنفسه رجلا حسب قلبه، وأمره أن يترأس على شعبه، لأنك لم تحفظ ما أمرك به الرب. وقام صموئيل وصعد الجلجال إلى جبعة بنيامين، أما شاول، فقد عدّالشعب الموجود معه، نحو ست مائة رجل" (١٤ ، ٨ ـ ١٥).

غني عن القول بالطبع، إن هذا العدد ليس أكثر من حفنة مضحكة، بالنسبة لملك كان يقف لتوّه على رأس جيش قوامه ٣٣٠،٠٠٠ ألف رجل. والحقيقة أنه يجب علينا أن نعترف بأن صموئيل لم يعبّر عن غيظه الشخصي وحسب. فالتورات لم تقدمه كاهناً أكبر في أيّ مكان وزمان؛ لأن الكاهن الأكبر كان، "أخيّا بن أخيطوب اخي ايخابود بن فنحاس بن عالي، كاهن الرب في شيلو" (١٤ ، ٣).

أمّا صموئيل فلم يكن سوى كاهن ونبي. وكانت لشاول الميزات نفسها، لأنه أيضاً صار يتنبأ" منذ أن سُكب الزيت فوق رأسه. وهذا يعني

أن شاول لم يرتكب أيّ خطأ، ولم يتجاوز صلاحياته عندما اعتبر أن من حقه تقديم الذبيحة إلى يهوه. ثم ألا ترون معي أن صموئيل تعمّد أن يتأخر في الوصول إلى الجلجال لتتوفر له ذريعة ذمّ شاول وجعله مكروهاً من الشعب؟ واذا كان في اسرائيل شخص لم يحك الدسائس للجلوس على العرش، فهذا الشخص هو، ابن قيس راعي الاتن، شاول المتواضع. ولكن الحال العامة لم تكن على ما يرام. "فلم يكن حدّاد في أرض اسرائيل كلها؛ لأن الفلسطينيين خافوا أن يصنع الاسرائيليون سيفاً أو رمحاً. فقد كان يأتي كل اسرائيلي إلى الفلسطينيين لكي يحدد سكته ومنجله وفأسه ومعوله، عندما كانت تكل حدود السكك والمناجل والمثلثات الأسنان والفؤوس، ولترويس المغاسيس. ولذلك لم يكن لدى الشعب في يوم الحرب سيف ولا رمح، إلاّ مع شاول وابنه يوناثان" (١٣ ، ١٩ ـ ٢٢).

من الواضح اذاً، أن القوى لم تكن متساوية. ويجب أن نفترض أيضاً، أن الـ ٣٣٠،٠٠٠ مقاتل، الذين سحقوا العمونيين منذ عام واحد مضى، لم يكن معهم أيّ سلاح. لكن تفوّقهم العددي قادهم إلى النصر. أمّا الآن فليس وراء شاول سوى ست مائة أعزل من أيّ سلاح، وعليه فان الواقع يختلف جذرياً، ومن السهل أن ندرك أن لون وجه شاول كان مكفهرّاً جداً عندما قابل حشود الفلسطينيين المدججة بالسلاح.

ولكن من حسن الحظ، أن يوناثان ابن شاول، كان شاباً مقداماً لا يخشى الموت. ففي أحد الصباحات أخذ معه خادمه حامل سلاحه، ومضى إلى معسكر الفلسطينيين دون علم أبيه، ورأى جنود الأعداء على مشارف المعسكر، وقد أقاموا فوق واحد من المرتفعات التي تسيطر على المنحدرات. وقد رآهما الفلسطينيون أيضاً فقالوا: "هاهم اليهود خارجون من الثقوب

التي اختبؤوا فيها. ونادى رجال الصف يوناثان وحامل سلاحه، وقالوا: اصعدا الينا فنعلمكا شيئاً. فقال يوناثان لحامل سلاحه: اصعد ورائي لأن الرب قد دفعهم إلى يد اسرائيل. فصعد يوناثان على يديه ورجليه، وحامل سلاحه وراءه؛ فسقط الفلسطينيون أمام يوناثان. وكان حامل سلاحه يقتل وراءه. وكانت الضربة الأولى التي ضربها يوناثان وحامل سلاحه، نحو عشرين رجلاً في نحو نصف تلم فدان أرض" (١٤ ، ١١ - ١٤).

وفي ذلك الوقت دعى شاول أخيّا، واستعدّ ليشهد تقديم الذبيحة. وفجأة تعالى الصخب والصراخ في معسكر الجيش الفلسطيني. "وصاح شاول وجميع الشعب الذي معه وجاؤوا إلى الحرب، وإذا بسيف كل واحد على صاحبه؛ اضطراب عظيم جداً. وعندئذٍ اليهود الذين كانوا مع الفلسطينيين منذ أمس وما قبله، الذين صعدوا معهم إلى المحلة من حواليهم، صاروا هم أيضاً مع اسرائيل الذين مع شاول ويوناثان؛ وسمع جميع رجال اسرائيل الذين اختبؤوا في جبل افرايم، أن الفلسطينيين هربوا، فشدّواهم أيضاً وراءهم في الحرب. فخلّص الرب اسرائيل في ذلك اليوم، وعبرت الحرب إلى بيت آون" (١٤ ، ٢٠ - ٣٢).

تخيّل يا رعاك الله، حتى بيت آون! إنه حقاً لنصر موزّر!

"وضنك رجال اسرائيل في ذلك اليوم، لأن شاول حلّف الشعب قائلاً: ملعون الرجل الذي يأكل خبزاً حتى المساء، حتى انتقم من أعدائي؛ فلم يذق جميع الشعب خبزاً. وجاء كل الشعب إلى الوعر، وكان عسل على وجه الحقل، ولمّا دخل الشعب الوعر، اذا بالعسل يقطر، ولم يمدّ أحد يده إلى فيه، لأن الشعب خاف من القسم. وأمّا يوناثان، فلم يسمع عندما استحلف أبوه الشعب فمدّ طرف النشابة التي في يده وغمسه في قطر

العسل وردّ يده إلى فيه فاستنارت عيناه، فقال له واحد من الشعب: قد حلّف أبوك الشعب حلفاً قائلاً: ملعون الرجل الذي يأكل خبزاً اليوم، فاعيا الشعب. فقال يوناثان: قد كدّر أبي الأرض، انظروا كيف استنارت عيناي لأني ذقت قليلاً من هذا العسل، فكم بالحري لو أكل اليوم الشعب كله من غنيمة أعدائه التي غنم؟ أما كانت الآن ضربة أعظم على الفلسطينيين؟" (١٤ ، ٢٤ - ٣٠).

ثم يتابع المؤلّف "المقدس" روايته فيقول: ان الشعب المنهك انقضّ على الغنيمة، "فأخذ غنماً وبقراً وعجولاً، وذبحوا على الأرض، وأكل الشعب على الدم، فاخبروا شاول قائلين: هو ذا الشعب يخطئ إلى الرب بأكله على الدم؛ فقال: قد أثمتم؛ دحرجوا إليّ حجراً.

ثم قال شاول: تفرّقوا بين الشعب وقولوا له أن يقدّم إليّ كل واحد ثوره، وكل واحد شاته، واذبحوا هنا وكلوا، ولا تخطئوا إلى الرب بأكلكم مع الدم. فقدّم جميع الشعب كل واحد ثوره بيده في تلك الليلة، وذبحوا هناك" (١٤ ، ٣٢ - ٣٤).

ولم يبق لنا نحن إلاّ أن نتخيّل حجم تلك المجزرة. "وبنى شاول مذبحاً للرب، وكان ذلك أوّل مذبح يقيمه للرب. وقال شاول: لننزل وراء الفلسطينيين ليلاً وننهبهم إلى ضوء الصباح ولا نبق منهم أحداً. فقالوا: افعل كل ما يحسن في عينيك. وقال الكاهن: لنتقدم هنا إلى الله؛ فسأل شاول الله: أأنحدر وراء الفلسطينيين؟ أتدفعهم ليد اسرائيل؟ فلم يجبه في ذلك اليوم" (١٤ ، ٣٥ - ٣٧).

ووضع شاول اذنه على "تابوت العهد" الذي أمر الكاهن الأكبر آخيّا أن يؤتى به إلى المكان، ولكنه عبثاً حاول أن يسمع صوت يهوه منه. فقد حرد

هذا الأخير ولم تصدر عنه نأمة. عندئذٍ أدرك شاول بأن أمراً ما قد وقع فأثار غضب العجوز العنيد. ما الذي أثار حنق ربّ الجنود؟ هل تطاول آخيا على قِدْرِ الربّ، كما كان يفعل جدّه المحترم؟ هذا مستحيل! لأن آخيا على علم أكيد بأن جدّه دفع حياته ثمناً لشراهته. وكان شاول يشعر بأنه لم يخطئ إلى ربّه. ويوناثان، الذي لعق العسل، لم يكن على علم بلعنة أبيه، ولذلك فهو بارّ على أغلب الظن، أضف إلى هذا أنه لم يكن واضحاً ما إذا كان يهوه قد أقرّ لعنة شاول التي لا معنى لها قط. لأن منع الأكل عن الجيوش في يوم المعركة، هو ضرب من الغباء.

اذاً، اذا كان ثمة من أغضب يهوه، فان الشعب هو مصدر ذلك الغضب، لأنه التهم قطيع الفلسطينيين كله، مع الدم، مخالفاً بذلك الشريعة. وفي ذلك اليوم نفسه، قضى هذا الشعب الشره على قطيعه الخاص، ولكن وفق أصول الشريعة. ونشير في هذا السياق إلى ان التورات لم تتحدث عن حدوث أيّ تلبّك معوي عند اليهود. فربما قُدّت أعضاؤهم من حديد؟

"فقال شاول لجميع اسرائيل: أنتم تكونون في جانب، وأنا ويوناثان ابني في جانب؛ فقال الشعب لشاول: اصنع ما يحسن في عينيك. وقال شاول للرب إله اسرائيل: هب صدقاً، فأُخذ يوناثان وشاول، أما الشعب فقد خرج. فقال شاول: ألقوا بيني وبين يوناثان ابني، فأُخذ يوناثان. فقال شاول ليوناثان: أخبرني ماذا فعلت؟ فقال يوناثان: ذقت ذوقاً بطرف النشابة التي بيدي قليل عسل، وها أنذا أموت. فقال شاول: هكذا يفعل الله، وهكذا يزيد، إنك موتاً تموت يا يوناثان. فقال الشعب لشاول: أيموت يوناثان الذي صنع هذا الخلاص العظيم في اسرائيل؟ حاشا. حيّ هو الرب، لا تسقط

شعرة من رأسه إلى الأرض، لأنه مع الله عمل في هذا اليوم؛ فافتدى الشعب يوناثان ولم يمت" (١٤ ، ٤٠ ـ ٤٥).

ثم تفيد هذه الرواية "المقدسة"، بأن الفلسطينيين عادوا إلى أرضهم بسلام وأمان، وأنهم حاربوا اليهود طول حياة شاول (٥٢).

وخلال ردح من الزمن الذي لم يحدده المؤلّف "المقدس"، كان حكم الملك شاول موشّى بالأمجاد والانتصارات. وكان ولدان آخر إضافة إلى يوناثان، كما كانت له بنتان هما: ميرب وميكّال. وسنلقاهما قريباً.

الفصل الثامن والعشرون

آثام شاول وعقابه

في الاصحاح الخامس عشر من كتاب الملوك الأول يعود صموئيل العجوز إلى مسرح الأحداث، ليحرّض بني اسرائيل ويدفعهم إلى مقاتلة شعب آمن مسالم هو، العماليق. "وقال صموئيل لشاول: اياي ارسل الرب لمسحك ملكاً على شعبه اسرائيل، والآن فاسمع صوت كلام الرب، هكذا يقول رب الجنود: إني قد افتقدت ما عمل عماليق باسرائيل حين وقف له في الطريق عند صعوده من مصر. والآن اذهب واضرب عماليق، وحرّم كلّ ماله، ولا تقف عنهم، بل اقتل كل رجل وامرأة، وكل طفل ورضيع، والبقر والغنم والجمال والحمير" (١٥ ، ١ ـ ٣).

من الواضح أن أكثر النقاد اعتدالاً، لا يستطيع أن يتحدث عن هذا النص "المقدس" إلاّ باشمئزاز ورعب. وقد قال فيه بولينغبروك: "كيف؟ أيُرغم خالق الكون على النزول إلى زاوية ما من زوايا الكرة الأرضية، وليس له هدف سوى أن يقول ليهوده:

ـ آ.... لقد تذكرت الآن! فمنذ نيفّ وخمس مائة عام مضت، كان

هناك شعب صغير رفض السماح لأجدادكم بالعبور من أرضه؟ تريدون محاربة مستعبديكم الفلسطينيين؟ حسن! ولكن اتركوا هذه المعركة القاسية الآن، واعدّوا حملة ضد ذلك الشعب الصغير، الذي تصدى لأجدادكم في غابر الأيام، ومنعهم من تخريب أملاكه. أبيدوا هناك المواشي والقطعان، الجمال والحمير، لأنه من الضروري جداً ألاّ يكون عندكم مواشي وأغنام تستفيدوا من لحومها، في حربكم المقبلة مع الفلسطنيين الأقوياء، وألاّ يكون عندكم جمال وحمير تحمل أمتعكتم إلى المعركة".

إضافة إلى هذا تفيد التورات بان شاول "جمع الشعب وعدّه في طلايم، مائتي ألف راجل، وعشرة آلاف رجل من يهوذا" (١٤).

وهكذا غدا مع شاول جيش أكثر عدداً بقليل مما كان معه في الجلجال، حيث لم يبق معه من المقاتلين سوى ست مائة رجل. ولا نعرف شيئاً عن المائة والعشرين ألف رجل الذين كانوا معه في حربه الأولى؛ فمنذ زمن وجيز كان الجيش اليهودي يتألف من ٣٣٠،٠٠٠ مقاتل مقدام جاؤوا لمحاربة العمونيين بأيدٍ عارية. ولم يبق الآن منهم سوى ٢١٠،٠٠٠ رجل. فأين اختفى الباقون؟ هل سقطوا صرعى في ساح القتال؟ أم أن النسيان نزل ضيفاً على ذاكرة "الحمامة المقدسة" مرّة أخرى.

كان انتصار الجيش اليهودي ساحقاً، فقد هزم العماليق من "حويلة حتى مجيئك إلى شور". وأسر شاول أعداداً كبيرة من الناس، فذبحهم أتقياء يهوة عن بكرة أبيهم. ولكن شاول أشفق على عجاج ملك العماليق، واعتبر أن من واجبه معاملته معاملة مميزة بصفته ملكاً مثله. بيد أن هذا الموقف لم يعجب السيّد يهوه، فجاء إلى صموئيل وقال له: "ندمت على أن جعلت شاول ملكاً، لأنه رجع عني ولم يقم كلامي. فاغتاظ صموئيل وصرخ إلى

الرب الليل كله" (١٥ ، ١١) فما هي نتائج الرؤيا الالهية وعويل صموئيل ليلة كاملة؟ هذا الاصحاح من سفر الملوك قدّمه لنا فولتير في مأساة "شاول"، حيث تدور الأحداث في الجلجال، وتبدأ بحديث بين الملك وأحد المقربين منه، وهو المدعو بازا.

"**بازا.** يا شاول العظيم! أيها الجبار بين الملوك! أنت الذي تسود على بحيرات ثلاث وعلى مدى اتساعه ٥٠٠ مرحلة! أنت الذي هزمت عجاج العظيم، ملك العماليق، القائد الذي اسرجوا له أقوى الحمير! أنت الذي ستخضع الأرض كلها لقوانينك، كما وعد يهوه اليهود مراراً! فأي شجن يمكن أن يفسد انتصارك النبيل وآمالك العظيمة؟

شاول. آه يا عزيزي بازا! مغبوط ألف مرّة من يرى قطعان بنيامين ويعصر العنب الحلو في وادي الانجاد! وأسفاه! لقد ذهبت لأبحث عن أتن أبي، فوجدت تاج المملكة، ومعه الاتن وأنت تعلم أن صموئيل مسحني بارادة الرب وقد فعل كل ما بوسعه كي لا يختار الشعب سواي ملكاً، وما أن تم انتخابي حتى تحوّل هذا الرجل إلى ألدّ أعدائي.

بازا.لقد كان عليك أن تنتظر ذلك منه يا مولاي، لأنه كاهن وأنت كنت جندياً. لقد حكم هو قبلك، والناس دائماً يكرهون. خلفاءهم.

شاول. وهل كان يأمل بأن يحكم أكثر؟ لقداشرك ولديه الساقطين في شؤون الحكم. وأخيرا قام الشعب نفسه ضد مثل هذه السلطة الكهنوتية. وانتخب الملك، وأُعلنت آيات مقدسة عن ارادة الرب، وأقرّها الشعب نفسه، ثم بدأ صموئيل يتداعى. ولم يكفه حقده عليّ كملك اختارته السماء، فحقد عليّ كنبي أيضاً. فهو يعلم أنني منحت نعمة النبوأة مثله، وأنني تنبأت كما تنبأ هو. فالمثل الجديد الذي انتشر مؤخراً في اسرائيل

يقول: "أشاول أيضاً بين الأنبياء"، وهذا يؤذي سمع صموئيل. ومن سوء طالعي أنهم يعتبرونه حتى الآن، كاهناً، ولذلك فهو خطر.

بازا. ولكن انتصارات مولاي وطدت دعائم سلطته، ويمكن ان يغدو أسيرك الشهير، عجاج، ضمان اخلاص شعبك لك، هذا الشعب الذي يفخر بانتصاراتك وعطفك.... وهاهم يقودونه إليك (**يدخل عجاج تحت الحراسة**).

عجاج. أيها المنتصر الجبار الرحيم، مثال الامراء الذين يجيدون الانتصار والرحمة! اسجد عند قدميك المقدسين، مرني أن أدفع الفدية. سأكون جارك وحليفك المخلص، سأكون تابعك الوفي وأنا لاأرى فيك إلاّ رجل خير سيّد. سأسجد وأحب فيك صورة الاله الصارم المتسامح.

شاول. أيها الملك العظيم ذو الحريم الكثير! أنا أديت واجبي وأنقذت حياتك، لأنه يجب على الملوك احترام بعضهم، أمّا من ينتقم بعد أن ينتصر، فلا يستحق النصر. ولذلك لن أحدد ثمن حريتك، لأنها ستكون رمزاً لصداقة شعبينا، وليست رمزاً للعبودية.

عجاج. نبلك عظيم أيها الملك، يا لك من شجاع عظيم! كم هو كبير تأثيرك على قلبي! سأعيش وأموت مخلصاً لشاول العظيم. مملكتي كلها له (**يظهر صموئيل محاطاً بالكهنة**).

شاول. صموئيل! ما هي أخبارك؟ هل أتيت من الرب أم من الشعب أم من نفسك؟

صموئيل. بل جئت باسم الرب!.

شاول. وما هي ارادته؟

صموئيل. لقد أمرني أن أقول لك، إنه نادم لأنه وضعك على العرش.

شاول. الله نادم؟ ولكن لا يندم إلاّ من اقترف خطأ، والله لا يمكن أن يخطىء!

صموئيل. ولكنه يمكن أن يندم لأنه وضع على العرش رجلاً يخطىء.

شاول. بلى! ومَنْ من البشر لا يخطىء؟ فما هو ذنبي؟

صموئيل. ذنبك أنك عفوت عن أحد الملوك.

عجاج. كيف هذا؟! وهل تعتبر أعظم أعمال الخير جريمة؟

صموئيل. اخرس ولا تجدف! **(ثم متوجها إلى شاول)** شاول، يا ملك اليهود السابق! ألم يأمرك الرب يهوه بلساني أن تبيد العماليق كلهم، وألاّ ترحم امرأة أو فتاة أو رضيعاً؟

عجاج. أهذا ما أمرك ربّك به؟! أنت مخطىء دون شك! لا بدّ أنك تريد أن تقول: إن شيطانك هو من أمر بهذا!

صموئيل. (إلى الكهنة) استعدوا لتنفيذ أوامري. وأنت يا شاول، هل أطعت الله؟

شاول. أنا لم أعتبر الأمر ثابتاً وأكيد، فقد اعتقدت أن الرحمة هي أولى سمات الكائن العلوي، وأن قلبه مليىء بالمحبة والعطف.

صموئيل. لقد أخطأت أيها الرجل الخائن. يهوه يوبخك! وصولجانك ينتقل إلى يد أخرى.

بازا. (إلى شاول) . أيّ وقاحة! اسمح لي يا مولاي أن القّن هذا اللعين درساً لا ينساه!.

شاول. حذار يا بازا. ألا ترى أن الشعب معه، وأننا سنقتل إذا قاومنا، فأنا حقاً تعهدت....

بازا. أيعقل أن يكون مولاي قد وعد باقتراف تلك الفظاعة؟.

شاول. ليس مهما! فاليهود أكثر إثارة للاشمئزاز، وسيقفون مع صموئيل ضدي.

بازا. (**في سرّه**) يا لك من ملك تاعس!.

شاول. حسن أيها السادة الكهنة! ما الذي ينبغي علّي فعله؟

صموئيل. سأريك كيف ينفذون إرادة يهوه (**ثم متوجهاً إلى الكهنة**) ايها الآباء المقدسون، ياأبناء لاوي! أروني غيرتكم، فليؤت بطاولة فوقها هذا الملك ذو القضيب الأقلف عدوّ الاله يهوه (**يأخذ الكهنة عجاجاً فيوثقونه ويلقون به على الطاولة**).

عجاج. ماذا تريدون، أيتها الوحوش البشرية؟.

شاول. يا صموئيل المقدس. باسم الرب....

صموئيل. لا تذكر اسمه، فأنت لست أهلاً لذلك! الرب يأمرك أن تبقى هنا لتكون شاهداً على هذه الذبيحة التي قد تغفر إثمك.

عجاج (**إلى صموئيل**). إذاً أنت تذبحني؟ أيّها الموت كم أنت مرّ!

صموئيل. نعم أذبحك، فأنت كثير الشحم. وهذا ما يحبه يهوه الرب.

عجاج. وأسفاه يا شاول! كم يؤلمني أن تكون تابعا لهذا المتوحش.

صموئيل (**إلى عجاج**) اسمع أيّها الوثني! أتريد أن تصبح يهودياً؟ هل تريد أن تختتن؟

عجاج. لنفرض أني ضعيف بما يكفي لأعتنق دينكم، فهل ستعفو عنّي؟.

صموئيل. لا! ولكن سيكون لك شرف الموت وأنت على دين يهوه، وهذا يكفيك!

عجاج . اضرب أيها الجلاد! وقبل أن أموت فاني أبصق في لحية يهواك أيها الوغد!

صموئيل. إلّي بالفأس، باسم الرب: سأقطع يديه، وأنتم تقطعون رجليه، وهكذا، قطعه قطعة **(يساعد الكهنة صموئيل على تقطيع جسد عجاج، باسم الاله يهوه).**

شاول. ولماذا يجب علّي أن أكون شاهداً على مثل هذه الوحشية الآدمية؟.

بازا. سيعاقبك الله لأنك صبرت على هذا.

صموئيل (إلى الكهنة). خذوا هذا الجسد وهذه الطاولة. فليحرق جسد هذا الكافر. وليبْك خدمنا عليه!

(إلى شاول). وأنت أيها الملك، عليك ألاّ تنسى بان الخضوع اعظم من الذبيحة.

شاول (سقط في كرسيه) إنني أموت! لا طاقة لي على هذه الفظاعة، **هذا العيب!**".

إذا كان قارئي الكريم يرى مبالغة ما، في هذا العرض، فأنّي أعيده إلى الاصحاح الخامس عشر من الملوك الأول، حيث توصف عملية ذبح عجاج

بتلك الطريقة الوحشية، وبيد صموئيل الجزار نفسه. عدا عن ذلك، أعلن صموئيل لشاول بأنه لم يعد ملكاً على اسرائيل منذ اللحظة، وأنه يرفضه. "ودار صموئيل ليمضي، فأمسك بذيل جبّته فانمزق؛ فقال له صموئيل: يمزّق الرب مملكة اسرائيل عنك اليوم ويعطيها لصاحبك الذي هو خير منك" (١٥ ، ٢٧ - ٢٨).

ثم قفل عائداً إلى الرامة، ومنها إلى بيت لحم، إلى المدعو يّسى حفيد بوعوز وراعوث، وبعد أن قدّس هناك، وقدّم ذبيحة ليهوه الأكول.، قال ليّسى:"هل الأولاد هنا كلهم؟ فقال يّسى: بقي الصغير يرعى الغنم. فقال صموئيل ليّسى: أرسل وأتِ به، ولانجلس حتى يأتي إلى هنا، فأرسل وأتى به، وكان أشقر مع حلاوة العينين وحسن المنظر. فقال الرب: قم امسحه، لأنه هذا هو، فأخذ صموئيل قرن الدهن ومسحه وسط اخوته، وحلّ روح الرب على داود من ذلك اليوم فصاعداً. ثم قام صموئيل وذهب إلى الرامة" (١٦ ، ١١ - ١٤).

لقد دُهش النقاد لحديث الرب مع صموئيل في بيت يّسى وبحضور آخرين؛ ومن غير الواضح ما إذا كان الحديث قد دار عبر "رؤيا" أم لا. ويميل اللاهوتيون إلى التأكيد بأن يهوه تحدّث إلى نبيّه بصوت داخلي؛ وإذا كان الأمر كذلك، فكيف تأكّد للحاضرين إذاً، أن ما كان يجري أمامهم مهمة إلهية خاصة يؤديها صموئيل؟ ويلاحظ فولتير أن، "شاول مَلَكَ لأن صموئيل سكب الزيت فوق رأسه. وهو عندما فعل الأمر عينه مع داود، لم يكن بإمكان الحاضرين ألاّ يعرفوا بأن ما يروه هو، عملية صنع ملك جديد، أيّ أن عائلة يّسى كلها كانت تغامر بحلول غضب شاول عليها. فثمة أمر خطأ هنا".

الحقيقة أن المسرح الشعبي الايطالي لم يعرف مشهداً أكثر هزلاً من مشهد ظهور الكاهن في بيت الفلاح حاملاً في جيبه قارورة ملئية زيتاً جاء يسكبه فوق رأس فتى أشقر، بهدف قلب نظام الحكم، ولكن تلك الدولة وذلك الفتى لم يحظيا بأفضل مكان لعرض كوميديا بدائية.

"وقال عبيد شاول له: هوذا روح رديء من قبل الله يبغتك؛ فليأمر سيدنا عبيده أن يفتشوا عن رجل يحسن الضرب بالعود ويكون إذا كان عليك الروح الرديء أنه يضرب بيده فتطيب. فقال شاول لعبيده! جدوا لي رجلاً يحسن الضرب وأتوا به إلي. فأجاب واحد من الغلمان وقال: لقد رأيت ابناً ليّسى البيتلحمي يحسن الضرب، وهو جبار بأس ورجل حرب وفصيح و رجل جميل والرب معه. فأرسل شاول إلى يّسى يقول: ارسل إلّي داود ابنك الذي مع الغنم، فأخذ يّسى حماراً حاملاً خبزاً وزقّ خمر وجدي معزى، وأرسلها بيد داود ابنه إلى شاول. وجاء داود إلى شاول ووقف أمامه فأحبه جداً، وكان له حامل سلاح. فأرسل شاول إلى يّسى يقول: ليقف داود أمامي، لأنه وجد نعمة في عيني. وكان لمّا جاء الروح من قبل الله على شاول، أن داود أخذ العود وضرب بيده، فكان يرتاح شاول ويطيب، ويذهب عنه الروح الرديء" (١٦ ، ١٥ ـ ٢٣).

ولكن ما هذا الهراء بحق الجحيم،؟ أدواد الذي يقدمه المؤلّف لنا راعياً بسيطاً، كان في الوقت نفسه موسيقياً معروفاً في طول البلاد وعرضها؟ إنه مجرّد شاب صغير السن، أقرب إلى الغلام منه إلى الشاب، فكيف يمكن وصفه "بالرجل الشجاع، ورجل الحرب،"؟ ثم، ألا يعرف خادم شاول، الذي كان يعرف داود جيداً، بان صموئيل مسح هذا الأخير ملكاً، وأن وجوده في القصر يمثل خطراً قاتلاًعلى شاول؟ وهدايا يّسى إلى الملك، ألا

تثير السخرية هي الأخرى؟ وما الذي يمكن قوله عن يهوه، الذي يرسل نوبات الصرع على شاول تترى، ثم يعالجه بموسيقى منافسه، أليس هذا كله غباء لا جدوى منه؟!.

الفصل التاسع والعشرون

الرواية المقدّسة

عن انتصار داود على جليات.

في الاصحاح السابع عشر من سفر الملوك الأول، وصف مفصل لمبارزة جليات وداود، نعرضه هنا: "وجمع الفلسطينيون جيوشهم للحرب، وجاؤوا إلى سوكو، التي ليهوذا، ونزلوا في وادي البطم، حيث اصطفوا للحرب مع الاسرائيليين، وكان الفلسطينيون وقوفاً على جبل من هنا، واسرائيل وقوفاً علي جبل من هناك، والوادي بينهم، فخرج رجل مبارز من جيوش الفلسطينيين اسمه جليات، وهو من جت، طوله ست أذرع وشبر، وعلى رأسه خوذة من نحاس، وكان لابساً درعاً حرشفياً وزنه خمسة آلاف شاقل نحاس، وجرموقاً نحاسياً على رجليه، ومزراق نحاس بين كتفيه، وقناة رمحه كنول النساجين، وسنان رمحه ست مائة شاقل حديد، وحامل الترس كان يمشي أمامه، فوقف ونادى صفوف اسرائيل وقال لهم: لماذا خرجتم تحاربون؟ ألست فلسطينياً أنا، وأنتم عبيد شاول؟ اختاروا رجلاً ولينزل إلّي،

فان قدر أن يحاربني ويقتلني، نصير عبيداً لكم، وان قدرت عليه تصيرون أنتم عبيداً لنا وتخدموننا. وقال الفلسطيني، أنا عيّرت صفوف اسرائيل هذا اليوم. أعطوني رجلاً فنتحارب،. ولما سمع شاول وجميع اسرائيل كلام الفلسطيني هذا، ارتاعوا وخافوا جداً" (١٧ ، ١ - ١١).

لنضف الآن بعض الايضاحات إلى وصف جليات. فقد كان وزن درعه ٥٠٠٠ شاقل من النحاس، أي أكثر من ٨٠ كغ، ووزن رمحه حوالي ٦٠٠ شاقل من الحديد، أي حوالي ١٠ كغ. أي أن الرجل كان يحمل ما وزنه ٩٠ كغ. وهذاليس كل سلاحه، زد إلى هذا أن طول هذا العملاق يزيد عن الثلاثة أمتار، ويجب ألاّ يثير هذا دهشتنا بعد أن التقينا العماليق في سفر التكوين. والحقيقة أنه لم يعد لمثل هؤلاء وجود في أيامنا هذه، فبنية جسم الانسان لا تتوافق مع مثل هذا الطول قط، ولا يمكن لوجوده إلاّ أن يترك تأثيراً قاتلاً على عمل وظائف الجسم كلها، ويحوّل العملاق إلى كائن ضعيف لا حول له ولا قوة. ويرى فولتير أن الله خلق جليات لهدف واحد وحيد هو، تعظيم دواد وحسب.

"وذهب بنو يّسى الثلاثة الكبار وتبعوا شاول إلى الحرب... وأما داود فكان يذهب ويرجع من عند شاول ليرعى غنم أبيه في بيت لحم" (١٧ ، ١٣ - ١٥) ومن الغريب أن داود الذي كان شاول قد جعله حامل سلاحه، ترك مهامه وواجباته في الوقت الذي اشتد فيه اوار المعركة، ليتفرّغ لرعي الغنم.

"وكان الفلسطيني يتقدم ويقف صباحاً ومساء طيلة أربعين يوماً. فقال يّسى لداود ابنه: خذ لأخوتك أيقة من هذا الفريك، وهذه العشر الخبزات واركض إلى المعسكر. وهذه العشر القطع من الجبن قدمها لرئيس الألف،

وافتقد سلامة أخوتك واستعلم عن حاجاتهما. وكان شاول وجميع رجال اسرائيل في وادي البطم يحاربون الفلسطينيين. فبكّر داود صباحاً وترك الغنم مع حارس وحمل وذهب كما أمره يّسى ، وأتى إلى المتراس والجيش خارج إلى الاصطفاف، وهتفوا للحرب. واصطف اسرائيل والفلسطينيون صفاً مقابل صف؛ فترك داود الأمتعة التي معه بيد حافظ الأمتعة وركض إلى الصف وسأل عن سلامة أخوته، وفيما هو يكلّمهم إذا برجل مبارز اسمه جليات الفلسطيني من جت، صاعد من صفوف الفلسطينيين، وتكلّم بمثل هذا الكلام فسمع داود. وجميع رجال اسرائيل لمّا رأوا الرجل هربوا منه وخافوا جداً. فقال رجال اسرائيل: أرأيتم هذا الرجل الصاعد؟ ليعيّر اسرائيل هو صاعد؛ فيكون أن الرجل الذي يقتله يغنيه الملك غنى جزيلاً، ويعطيه بنته، ويجعل بيت أبيه حراً في اسرائيل. فكلّم داود الرجال الواقفين معه قائلاً: ماذا يفعل للرجل الذي يقتل ذلك الفلسطيني ويزيل العار عن اسرائيل؟ فمن هو هذا الفلسطيني الأغلف حتى يعيّر صفوف الله الحي. فكلّمه الشعب بمثل هذا الكلام قائلاً: كذا يُفعل للرجل الذي يقتله" (١٧ ، ١٦ - ٢٧).

إذاً، لم يكن حب الوطن، أو كرامة القدم هما دافع داود إلى القتال، بل الطمع بالمكافأة هو، حافزه الوحيد: "فقال داود لشاول: لا يسقط قلب أحد بسببه، عبدك يذهب ويحارب هذا الفلسطيني. فقال شاول لداود: لا تستطيع أن تذهب إلى هذا الفلسطيني لتحاربه،، لأنك غلام وهو رجل حرب منذ صباه. فقال داود لشاول: كان عبدك يرعى غنم أبيه، فجاء أسد مع دبّ وأخذ شاة من القطيع، فخرجت وراءه وقتلته وأنقذتها من فيه، ولما قام عليّ أمسكته من ذقنه وضربته فقتلته؛ لقد قتل عبدك الأسد والدب معاً. وهذا الفلسطيني الأغلف يكون كواحد منهما، لأنه عيّر صفوف الله الحيّ،

وقال داود: الرب الذي أنقذني من يد الأسد والدب، هو الذي ينقذني من يد هذا الفلسطيني: فقال شاول لداود اذهب وليكن الرب معك" (١٧ ، ٣٢ ـ ٣٧).

لقد صعقت هذه الرواية الملك شاول، كما كان سيصعق لها أيّ مستمع أخر. تخيلوا للحظة أسداً أو دبّاً يختطف شاة من قطيع العجوز يّسى ، ثم ينطلق الراعي الصغير خلفه وينتزع المسكينة من بين أنيابه وينهال على الجاني ضرباً وركلاً بيديه وقدميه الحافيتين، أيّ لوحّة! هل يستطيع أحد أن يجد مثل هذه البطولات إلاّ في التورات؟

ونحن كنا قد أخذنا علماً بأن الأسود كانت تجوب حقول فلسطين وبراريها منذ زمن القاضي شمشون، الذي قتل أحدها بيديه العاريتين. وكان ذلك بحد ذاته مفاجأة لقاريء التورات. أما مع داود، فقد صادفنا الدب وقد أغرته قطعان فلسطين. ولكن لسوء حظ التورات أنّ علماء الطبيعة اكتشفوا بأن الدّب لا يعيش في منطقة يقطنها الأسد. والعكس صحيح. "طزّ" في علماء الطبيعة! فليس علمهم سوى كذب وباطل. أمّا "الحمامة المقدسة" فقد تحدثت عن دببة تعيش في خط الاستواء، وأسود تستوطن القطب الشمالي.

"وألبس شاول داود ثيابه، وجعل خوذة من نحاس على رأسه، وألبسه درعاً. فتقلدّ داود بسيفه فوق ثيابه وهمّ أن يمشي، لأنه لم يكن قد جرّب. فقال داود لشاول: لا أقدر أن أمشي بهذه، لأنني لم أجربها. ونزعها داود عنه، وأخذ عصاه وانتقى له خمسة حجارة ملساء من الوادي وجعلها في كِنْفِ الرعاة الذي له، أي في الجراب، ومقلاعه بيده وتقدم نحو الفلسطيني، وتقدم الفلسطيني إلى داود والرجل حامل الترس أمامه" (١٧ ، ٤٠ ـ ٤١).

حامل سلاح جليات؟ لا تذكره إلاّ نصوص التورات التامة، بينما يلغى في كتب تعليم "التاريخ المقدس"، بل تقدم هذه الكتب جليات لنا جندياً راجلاً عادياً، فلماذا تقتطع الكنيسة المعاصرة النص التوراتي "المقدس"؟ إن حامل سلاح العملاق الفلسطيني لا يستحق هذا الالغاء الذي لا مبرر له. فمن المعروف أن فرسان الجيوش القديمة كان يرافقهم جنود مهمتهم العناية بأسلحتهم؛ وأصبح اسم هؤلاء الآن، مراسلين. إذاً كان جليات فارساً في الجيش الفلسطيني، وإلاّ لما رافقه حامل سلاح، وتفيد التورات نفسها بانه كانت عند الفلسطينيين فرق كبيرة من الفرسان. وما يجدر ذكره أن هذه "الحمامة البطة" الغريبة الأطوار، نسيت أن تصف لنا جواد جليات. غير أننا نستطيع أن نتصور أيّ جواد ذلك الجواد الحامل رجلاً طوله ثلاثة أمتار. ولا نعرف في أيّ بلاد كانت تربى مثل تلك الخيول الجبارة.

ولكن لنعد إلى النص التوراتي. "ولمّا نظر الفلسطيني ورأى داود، احتقره لأنه كان غلاماً وأشقر جميل المنظر. وقال لداود: ألعلّي كلب حتى تأتي إلّي بعصا؟ ولعن الفلسطيني آلهة داود؛ ثم قال: تعال إلّي فأعطي لحمك لطيور السماء ووحوش البرية. فقال داود: أنت تأتي إلّي بسيف ورمح وترس، وأنا آتي إليك باسم ربّ الجنود، إله صفوف اسرائيل الذي عيّرتهم،، في هذا اليوم يحبسك الرب في يدي، فاقتلك واقطع رأسك، وأعطي جثث جيش الفلسطينيين هذا اليوم لطيور السماء وحيوانات الأرض، فتعلم كل الأرض أنه يوجد إله لاسرائيل، وتعلم هذه الجماعة كلها أنه ليس بسيف ولا برمح يخلّص الرب، لأن الحرب للرب، وهو يدفعكم ليدنا، ولما قام جليات وتقدّم للقاء داود، أسرع داود وركض للقائه. ومدّ داود يدّه إلى الكنف وأخذ منه حجراً ورماه بالمقلاع، فأصاب جليات في جبهته، فارتزّ الحجر فيها وسقط على وجهه إلى الأرض. وهكذا تمكن داود من جليات بالمقلاع

والحجر. ولم يكن في يد داود سيف، فركض ووقف على الفلسطيني وأخذ سيفه واخترطه من غمده، ثم قطع به رأس جليات. فلّما رأى الفلسطينيون أن جبارهم قد مات هربوا.وقام رجال اسرائيل ويهوذا وهتفوا ولحقوا بهم حتى مجيئك إلى الوادي، وأبواب عقرون، وسقط قتلى الفلسطينيين في طريق شعرايم إلى جتّ وإلى عقرون، ثم رجع بنو اسرائيل من الاحتماء وراء الفلسطينيين ونهبوا محلتهم، وأخذ داود رأس جليات وأتى به إلى اورشليم، ووضع أدواته في خيمته" (١٧ ، ٤٢ - ٥٤).

ولكن مهلاً ، مهلاً! أكان لداود الصغير خيمته؟ وحمل رأس جليات إلى اورشليم؟ إن هذا لغريب حقاً، فاورشليم لم تكن بين براثن البربرية اليهودية عندئذ، وسنرى كيف استولى بنو اسرائيل على هذه المدينة فيما بعد؛ بل إن داود نفسه سيحتلها بعد أن يخلف شاول على العرش اليهودي والحقيقة أنه آن لنا أن نعتاد تناقضات "الكتاب المقدس".

لمّا رأى شاول داود خارجاً للقاء جليات، قال لابينير رئيس الجيش: ابن من هذا الغلام يا ابينير؟ فقال أبينير: وحياتك أيها الملك لست أعلم. فقال الملك: أسأل ابن من هذا الغلام؟ ولما رجع داود من قتل جليات، أخذه ابينير وأحضره أمام شاول ورأس جليات بيده، فقال له شاول:ابن من أنت يا غلام؟ فقال داود: بن يّسى البيتلحمي" (١٧ ، ٥٥ - ٥٨).

ما هذا اللغو المملّ؟ أين يضع هذا "الملهم الالهي" للتورات عقله؟ ففي الاصحاح السادس عشر كان قد روى لنا بالتفصيل المملّ، أن شاول طلب من يعزف له على القيثارة لتهدئةنفسه المتوترة دائماً، فجاء أحد خدمه بالشخص المطلوب، ولم يكن ذلك العازف سوى داود ابن يّسى هذا نفسه، وقد عرف شاول عائلته عندئذٍ؛ بل وأرسل شاول يطلب من العجوز يّسى

أن يطلق الغلام له، لأنه أُعجب كثيراً به. و قالت "الحمامة" لنا أيضاً، ان داود غالباً ما كان يترك شاول ويأتي إلى بيت لحم. وفجأة لم يتعرف شاول، وأبينير، أو أيّ من خدم قصر الملك على داود الذي خرج لقَتال جليات؟! هكذا إذاً، بكل بساطة يتحوّل موسيقي الملك وحامل سلاحه إلى رجل مجهول لجميعهم؟ أو ينبغي علينا أن نفترض بان "الروح القدس" كان ثملاً عندما لقنّ هذا الاصحاح؟ الحقيقة أنه احتمال بعيد عن الواقع.

إذاً، يخبرنا "الروح القدس" دون حرج،، بان شاول لم يسمح لداود أن يعود إلى بيت أبيه بعد أن سمع موسيقاه. أضف إلى هذا أن صداقة قوية نشأت بين عازف القيثارة ويوناثان ابن شاول؛ ومع ذلك لم يتعرف يوناثان على داود.

الفصل الثلاثون

الصراع على العرش

بهذا تكون قد بدأت مرحلة جديدة في حياة الفتى الذي مسحه صموئيل ملكاً، وهو لم يكن يريد منافسة شاول على العرش، بل رضي بأن يكون حامل سلاحه، وعازف قيثارته. ولكنه على الرغم من تواضعه، سرعان ما كدّر صفو عيش "صاحب الجلالة" شاول.

"وكان عند مجيئهم، حين رجع داود من قتل الفلسطيني، أن النساء خرجت من جميع مدن اسرائيل بالغناء والرقص، للقاء شاول الملك بدفوف وفرح ومثلثات. فقالت النساء اللاعبات: ضرب شاول ألوفه، وداود عشرات الوفه" (١٨ ، ٦ - ٧).

لا ريب أنه مهما بلغت عملقة جليات، فهو لا يعادل عشرات الألوف. ولذلك رأى شاول، الذي تميّز في القتال باجتراح كثير من البطولات، ان الاحتفاء الذي حظي به حامل سلاحه العازف الجيّد، قد تعدى حدود اللياقة وبلغ درجة الاستهانة به شخصياً، "فتكدّر شاول جداً، وساءه هذا الكلام وقال: أعطين داود عشرات الألوف، وأما أنا فأعطينني الألوف. فلم

يبق له سوى المملكة. ومنذ ذلك الحين و شاول ينظر إلى داود بعين الحذر. وكان في الغد أن الروح الرديء من قبل الله، اقتحم شاول، وجنّ في وسط البيت. وكان داود يضرب بيده على الأوتار، كدأبه كل يوم ، وكان الرمح بيد شاول، فأشرعه وقال في نفسه: أضرب داود حتى إلى‌الحائط، ولكن داود حاد من طريقه مرتين" (١٨ ، ٨ ـ ١١).

وبعد زمن قصير جعل الملك داود رئيس ألف كي يبعده عنه (١٣)، وأخذ داود يحرز النجاح تلو النجاح، الأمر الذي جعل شعبيته في تزايد مستمر، وأخذ اسمه يتردد على كل لسان. وسنرى بعد قليل كيف ضاعف يهوه عدد قرائن حمايته لداود.

في أحد الأيام دعا شاول داود إليه وقال له: "هاهي ابنتي الكبيرة ميرب، أعطيك إياها امرأة؛ إنما كن لي ذا بأس، وحارب حروب الرب" (١٧). وفي أعماق نفسه كان شاول يعتقد بان الفلسطينيين سيقتلون داود عاجلاً أم آجلاً. لكن داود قال للملك: "من أنا، وما هي حياتي وعشيرة أبي حتى أكون صهر الملك" (١٨). ومن المفيد أن نذكّر هنا بأن داود ما زال يخفي واقعة مسح صموئيل له ملكاً. "وكان في وقت اعطاء ميرب ابنة شاول لداود، أنها اعطيت زوجة لعدرئيل المحولي" (١٩). وليس ثمة تعليل في النص التوراتي لهذا الانعطاف المفاجىء . "ولكن ميكال ابنه شاول الصغرى، أحبت داود، فاخبروا شاول فحسن الأمر في عينيه؛ وقال شاول: أعطيه إياها فتكون له شركاً، وتكون يد الفلسطينيين عليه. وقال شاول لداود ثانية: تصاهرني اليوم" (٢٠ ـ ٢١).

ويفهم من باقي النص أن دواد كان سعيداً بالزواج من ميكّال الحسناء، ولكن شاول ندم على تسرّعه بالموافقة. فما أن تأكدت له رغبة داود في

الزواج من ابنته حتى بدأ يطلب منه ما يستحيل تحقيقه،ولن يكون بمقدور أحد أن يدرك في يوم من الأيام، الصعوبات التي اخترعها شاول "وقال شاول: هكذا تقولون لداود: ليست مسرّة الملك بالمهر، بل بمائة غلفه من الفلسطينيين" (٢٥). أي أن الملك لم يكن يريد أن يعطي ابنته مهرها، بل كان يرى أنه يجب على داود أن يقدم المهر للملك. وأيّ مهر؟ مائة غطاء من تلك التي تحملها قضبان الذكور الفلسطينيين! ويبقى عصياً على الفهم ما إذا كان داود وعروسه قد أفادا من تلك الجلود، وكيف؟ أو ما هو النفع الذي كانت ستقدمه للقصر الملكي؟.

وقبل انتهاء المهلة التي منحها شاول لدواد ليحصل على المهر، "قام داود وذهب هو ورجاله، وقتل مائتين من الفلسطينيين، وأتى داود بغلفهم، وقدّموها للملك لمصاهرته. فأعطاه شاول ميكال ابنته زوجة" (١٨ - ٢٧).

هل يستطيع قارئي الكريم أن يتخيل اللوحة: ينظمون عقد الزواج في احتفال مهيب، ورئيس ديوان الملك يعدّ مائتي جلدة قضيب، واحدة أثر الأخرى، وميكّال المغرمة تدفن وجهها الجميل في صدر داود وهي مفتونة بهدية الزواج التي قدمها لها! بيد أن الفلسطينيين رفضوا أن يكونوا مجرد مصدر لاغطية الأعضاء التناسلية الذكرية التي يقدمها الشبان اليهود هدايا في أعراسهم. فاستؤنفت الحرب. "وخرج قادة الفلسطينيين للحرب، ومن حين خروجهم كان داود يُفلح أكثر من جميع عبيد شاول، فتوقّد اسمه" (٣٠).

ومنذ ذلك الحين كثّفت نوبات الصرع زياراتها لرأس شاول. بيد أننا لا نستطيع أن نفهم، لماذا سعى المؤلِّف "المقدس" إلى رسم صورة كريهة عن شاول؟ فحسب الرواية التوراتية، أن يهوه نفسه كان يسوق "الروح الرديء

إلى شاول، أي أنه كان يدفعه إلى الجنون، وليس المجنون مسؤولاً عن أفعاله، وشاول بالأحرى.

"وقال شاول ليوناثان ابنه، ولجميع عبيده أن يقتلوا داود؛ أما يوناثان بن شاول، فقد سُرّ بداود جداً، فاخبره قائلاً: أبي يسعى لقتلك، حافظ على نفسك". (١٩ ، ١ ـ ٢). اضافة إلى هذا حاول يوناثان أن يصلح ذات البين. "وتكلّم يوناثان عن داود حسناً مع شاول أبيه، وقال له: لا يخطئ الملك إلى عبده داود، لأنه لا يخطئ اليك، ولأن أعماله حسنة لك جداً، فقد وضع حياته بيده وقتل الفلسطيني، فصنع الرب خلاصاً عظيماً لجميع اسرائيل؛ وأنت رأيت وفرحت، فلماذا تخطئ إلى دم بريء بقتل داود بلا سبب. فسمع شاول لصوت يوناثان، وحلف شاول: حيّ هو الرب، لا يقتل داود. فدعا يوناثان داود وأخبره بجميع هذا الكلام، ثم جاء بداود إلى شاول، فكان أمامه كأمس وما قبله" (١٩ ، ٤ ـ ٧).

اذاً، كان الحقد على داود يترك قلب شاول فور عودته إلى حاله الصيعية، فيترك التفكير بقتل صهره إلى أن يرسل الرب عليه الروح الرديء".

في تلك الأثناء كانت الحرب مع الفلسطينيين قد بلغت ذروتها، وكان الموسيقي الشاب يحقق فيها الانتصار تلو الآخر. "وكان الروح الرديء على شاول من قبل الربّ، وهو جالس في بيته ورمحه بيده، وكان داود يعزف على الأوتار" (٩). ولا ريب أن القارئ خمّن ما حصل. "فأراد شاول أن يطعن داود بالرمح حتى الحائط، ففر داود منه، ووقع الرمح في الحائط. فهرب داود ونجا تلك الليلة" (١٠).

لقد لجأ داود إلى زوجته المغناج التي حاولت أن تهدئ من روعه. "وأرسل شاول خدمه إلى بيت داود ليراقبوه ويقتلوه في الصباح. وقالت

ميكّال له: ان كنت لا تنجو بنفسك هذه الليلة فانك تقتل غداً، وانزلته من الكوة ففرّ هارباً ونجا. وأخذت ميكّال الترافيم ووضعته في الفراش، ووضعت لبدة المعزى تحت رأسه وغطته بثوب. وأرسل شاول رسلاً لأخذ داود، فقالت: هو مريض، ثم أرسل شاول الرسل ليروا داود قائلاً: اصعدوا إليّ به على الفراش لكي اقتله؛ فجاء الرسل واذا في الفراش الترافيم ولبدة المعزى تحت رأسه. فقال شاول لميكّال: لماذا خدعتني فأطلقت عدوّي حتى نجا؟ فقالت: هو قال: اطلقيني وإلاّ قتلتك" (١٩ ، ١١ - ١٧).

ان علينا ألاّ ننسى لحظة واحدة أننا ندرس أكثر الكتب المقدسة قداسة، انه نتاج الفكر الالهي، والقاعدة التي تستند اليها أسس الايمان، وهو الكتاب الذي يسعى لاخضاع البشر كلّهم لقوانينه. ومع ذلك، هل يمكن العثور على قصة أكثر بلاهة وغباء من هذه القصة؟ فطرفة تلبيس الصنم هذه لا تنفع موضوعاً لسقط المتاع من المسرحيات. انها تحت مستوى أكثر العروض ابتذالاً في معرض العروض الشعبية الهزلية. ولكن الخوف من نار جهنّم الحارقة، يرغمنا على الايمان بأن ميكّال ساعدت زوجها، مسيح الرب داود، على الهرب من النافذة، ووضعت الصنم مكانه في السرير بعد أن وضعت عليه لبدة المعزى. يبدو أن اللبدة كانت تشبه ثياب نوم داود.

لقد قرأنا أن النص التوراتي أطلق على التمثال تسمية "ترافيم". وتترجم الاصدارات الحديث هذه الكلمة إلى "تمثال". ولكن المعنى الحرفي لكلمة "ترافيم" هو، صنم". اذاً، كان لدى ميكال صنمها؟ فهل اعتقدت أن لبدة المعزى التي غطت رأس الصنم بها كبيرة الشبه برأس زوجها؟ انه موضوع مدهش لامتحان السادة رجال اللاهوت المقدسين.

ثم تبدأ قصة التورات بعدئذٍ بما يشبه الكذب مباشرة: "فهرب داود ونجا

وجاء إلى صموئيل في الرامة، وأخبره بكل ما عمل شاول به، ثم ذهب هو وصموئيل وأقاما في نايوت الرامة ... فأخبر شاول وقيل له: ها هو داود في نايوت الرامة. فأرسل شاول رسلاً لأخذ داود، ولمّا رأوا جماعة الأنبياء يتنبؤون، وصموئيل واقفاً رئيساً عليهم، كان روح الله على رسل شاول فتنبؤوا هم أيضاً. ثم عاد شاول فأرسل رسلاً آخرين فتنبؤا هم أيضاً ثم عاد شاول فأرسل رسلاً ثالثة فتنبؤا هم أيضاً. فذهب بنفسه إلى الرامة، وجاء إلى البئر العظيمة التي عند سيخو وسأل وقال: أين صموئيل وداود؟ فقيل له: ها هما في نايوت الرامة.

فذهب إلى هناك، إلى نايوت الرامة، فكان عليه روح الله أيضاً، وكان يذهب ويتنبأ حتى جاء آلى نايوت في الرامة، فخلع هو ثيابه أيضاً وتنبأ أمام صموئيل، وانطرح عرياناً ذلك النهار كله، وكان الليل، لذلك يقولون: أشاول أيضاً بين الأنبياء؟". (١٩ ، ١٨ ـ ٢٤).

اننا لم نسق هذا النص التوراتي بحرفيته، إلاّ عن سابق قصد. فمن المعروف أن النبي هو من يقرأ المستقبل المجهول، ولكي يستطيع أن يفعل ذلك، يجب أن يكون ملهماً من الله. هكذا يفهم المؤمنون معنى كلمة "نبي". والنبي لا يتنبأ عادة إلاّ لينطق بقرب وقوع واقعة ما، واحدة: يسألون العرّاف والعرّاف يجيب. أو أن "رجل الله" يذهب إلى مدينة ما، أو إلى قصر الملك، لينبئه بقرب وقوع كارثة ما، أو حدث مؤلم. هذا ما يفعله الأنبياء، أي أولئك الذين يقدمون أنفسهم ضليعين في معرفة الاشياء الخفية. ولكن أحداً لا يتخيل موكباً من الأنبياء، الذين يقذفون نبوءاتهم دون توقف كنافورة ماء. أفي مشفى المجانين فقط؟!

حتى رجال الشرطة تحوّلوا إلى أنبياء وانضموا إلى صموئيل وداود

والآخرين وتنبؤوا معهم. وأخيراً شاول نفسه، الذي جاء بحثاً عن صهره ليقتله، شرع يتنبأ في الطريق، ثم تعرّى في اجتماع القديسين، أو الأنبياء الذين كانوا يتنبؤون جماعة. ان هذا كله يشبه لوحات الجنون التي نشاهدها في مشافي الأمراض العقلية.

ومن المفيد أن نذكر في هذا السياق، مالاحظه بولانجيه[1] في القرن الثامن عشر، حين قال: إن هذا الهراء السخيف يشبه قصة قاض ريفي كان يعيش ويعمل في بريطانيا السفلى. فقد أرسل دعوة قضائية إلى أحد الشهود، وكان هذا الأخير يعاقر الخمرة في الحانة، فبقي مراسل القاضي معه فيها، فأرسل القاضي مراسلاً آخر علق في القارورة بدوره، وأخيراً جاء القاضي نفسه وانضم إلى المجموعة المحترمة. فأرجئت القضية.

ثم يفيدنا الاصحاح العشرون، بأن داود هرب من نايوت وجاء إلى يوناثان واختبأ عنده. وحاول هذا الأخير أن يدافع عن يوناثان ثانية أمام الملك، الذي كان قد كفّ عن التنبؤ. وقام يوناثان بمحاولته هذه في أثناء وليمة احتفالية كبيرة أقامها شاول بمناسبة حلول "الشهر الجديد". وعندما جلس المدعوون جميعاً إلى المائدة، لاحظ الملك أن مكان داود خال، عندئذ بدأ يوناثان مهمته الحميدة. ولكن الملك لم يرغب في سماع أيّ كلام، بل ازداد غيظاً.

""فأجاب يوناثان أباه وقال: لماذا يقتل؟ ماذا عمل؟ فصابى شاول الرمح نحوه ليطعنه، فعلم يوناثان أن أباه قد عزم على قتل داود. فقام عن المائدة بحمّو غضب ولم يأكل خبزاً في اليوم الثاني من الشهر، لأنه اغتمّ على داود، لأن أباه قد أخزاه" (٢٠ ، ٣٢ ـ ٣٤).

بعد ذلك ذهب يوناثان ليخبر داود بفشله في كسر عناد أبيه. فاستمع

داود إليه و"قام من جانب الجنوب وسقط على وجهه إلى الأرض وسجد ثلاث مرّات؛ وقبّل كل منهما صاحبه، وبكى كل منهما مع صاحبه حتى زاد داود" (٤١).

وجاء داود إلى الكاهن أخيمالك في نوب، ليطلب عنده ملجأً. فاستقبله الكاهن وأطعمه من الخبز المقدس، ولكنه الح إلى أنه لا يستطيع أن يضمن له السلامة. فطلب داود من أخيمالك سلاحاً يدافع به عن نفسه، في حال الضرورة، فقال له الكاهن: "أن سيف جليات الفلسطيني الذي قتلته في وادي البطم، ملفوف في ثوب خلف الأفود، فان شئت أن تأخذه، فخذه، فليس لدينا سواه هنا. فقال داود: لا يوجد مثله، أعطني اياه" (٢١ ، ٩).

أخذ داود سيف جليات ومضى إلى جت، وهي مدينة فلسطينية، ملكها أخيش؛ وقد أمل أن يجد ملجأً عند عدوّ اسرائيل اللدود. ولمّا اقترب من جت، تعرّف عليه بعض رجال أخيش. وكان هذا وحده يكفي لانزال الرعب في قلب ابن يسّى. هل سيتكرم الملك الفلسطيني ويرأف لحاله؟ لم يكن عند داود كبير أمل في هذا. "داود...خاف جداً من أخيش، ملك جت. فغيّر عقله في أعينهم، وتظاهر بالجنون بين أيديهم، وأخذ يخربش على مصاريع الباب ويسيل ريقه على لحيته. فقال أخيش لعبيده: ترون الرجل مجنوناً، فلماذا تاتوني به؟" (٢١ ، ١٢ ـ ١٤). "فذهب داود من هناك ولجأ إلى مغارة عدلام، ولمّا سمع أخوته وجميع بيت أبيه، نزلوا اليه إلى هناك. واجتمع اليه كل رجل متضايق، وكل من كان عليه دين، وكل رجل مرّ النفس، فكان عليهم رئيساً، وكان معه نحو أربع مائة رجل" (٢٢ ، ١ ـ ٢). بعد ذلك عهد داود بوالديه العجوزين إلى ملك موآب، وبدأ حملته. وبهذا تكون قد بدأت المعركة العلنية بين داود وحميه شاول.

وصلت أنباء استضافة الكاهن اخيمالك داود، إلى شاول. فاستدعى هذا الأخير الكاهن ومعه باقي الكهنة ليقدمهم للمحاكمة. "فقال له شاول: لماذا فتنتم عليّ أنت وابن يسّى باعطائك اياه خبزاً وسيفاً وسألت له من الله ليقوم عليّ كامناً كهذا اليوم؟ فأجاب اخيمالك الملك وقال: ومن من جميع عبيدك مثل داود أمين؟ انه صهر الملك، وصاحب سرّك ومكرّم بيتك. فهل اليوم ابتدأت أسأل له من الله؟ حاشاي، لا يتهم الملك عبده وجميع أهل بيتي بهذا. لأن عبدك لم يعلم شيئاً من كل هذا، صغيراً أو كبيراً. فقال الملك: موتاً تموت يا اخيمالك. أنت وكل بيت أبيك" (٢٢ ، ١٣ ـ ١٦).

ولكن جنود الملك رفضوا تنفيذ أمره، ولم يجرؤ أحد أن يرفع يده على الكهنة. "فقال الملك لدواغ: درْ أنت واقتل الكهنة. فدار دواغ الآدومي وقتل الكهنة، فقتل في ذلك اليوم خمسة وثمانين رجلاً لابسيّ أفود الكتان. وضرب نوب مدينة الكهنة بحد السيف: الرجال والنساء والأطفال والرضّع، والثيران والحمير والغنم" (١٨ ـ ١٩).

اننا نوجزالعرض قدر الامكان. ولكن برامج تعليم "التاريخ المقدس" التي توضع للمؤمنين، مختصرة إلى درجة تبرز معها ضرورة اعادة انشائها من جديد، بمساعدة النصوص التوراتية لكثير من المشاهد التي يتجاوزها كنسيونا بصمت المرتبك الحائر. ولا تفتقر التفصيلات الغريبة التي نقع عليها في "الكتاب المقدس"، إلى قوّة الاغراء في أحيان كثيرة. وكان بودّنا أن نكون أكثر ايجازاً فيما لو كان الأمر يتعلّق بكتاب عادي. بيد أن ما بين يدينا هو، نتاج العقل الالهي نفسه، ونحن لن نسمح لأنفسنا أن تتجاهل الدرر الالهية التي يعج كتاب العهد القديم بها.

طفق ابن تسّى يتجوّل في صحراء زيف. وزاد عدد شذّاذ الآفاق الذين

انضموا إليه مائتي مشرّد. وعلى الرغم من كل شيء، التقى داود ويوناثان في الغابة، وجددا العهد على صداقة وحب ابديين.

وفي تلك الأثناء نما إلى شاول أن الفلسطينيين بدأوا حملة جديدة ضد اليهود، فرجع عن ملاحقة صهره ليتصدى لهم. وبعد أن دحرهم وفرغ من أمرهم، عاد يلاحق داود من جديد. وكان هذا الأخير قد جعل مقرّه في عين جدي، حيث كان ينشر من هناك نشاطه المثمر في المنطقة كلها. ونحن عندما نقول المثمر، انما نقصد إلى هذا المعنى بالضبط، لأن ابن يسّى جعل نفسه زعيماً لعصابة من اللصوص والقتلة والنصابين، كما تقول التورات نفسها؛ فقد جمع داود حوله ٦٠٠ قاتل، وقادهم ليعيثوا فساداً في الجبال والوديان، ولم يرحموا صديقاً أو عدوّاً، فكانوا يسلبون كل من يقع لهم في طريق.

لقد تمكن شاول أن يقترب من داود مرتين. وكان الملك يقود ٣٠٠٠ مقاتل من خيرة جنوده. وفي المرتين أظهر الصهر رأفة مؤثرة تجاه حميه. أمّا نحن فنرى أن "الحمامة الالهية" كانت في مزاج صاف عندما لقنت المؤلف هذا المقطع من سفر الملوك الأول. ولا بد أن يهوه نفسه قد أدار دفة الأمور. إلاّ أنه لم يكن يصعب عليه أن يدبّر لداود فرصة يظهر رأفته فيها في ظروف أقل تهريجاً. واذا كانت تلك المغامرات قد جاءت مشوّهة قزمة، فإن الأمر لم يكن على هذه الحال إلاّ لأن "الثالوث المقدس" أراد أن يروّح عن نفسه بعض الترويح، وينوّع روايته المملّة. ونحن لا نريد أن نسلب هذه المغامرات صبغتها الالهية. ونَدين بالشكر الجزيل لمن أسقطها من "التاريخ المقدس" الأصلي. وهاكم الرواية كما جاءت على لسان الحمامة: "أخذ شاول ثلاثة آلاف رجل منتخبين من جميع اسرائيل، وذهب يطلب داود ورجاله على

صخور الوعول. فجاء إلى صير الغنم التي في الطريق، وكان هناك كهف، فدخل ليقضي حاجة طبيعية، وكان داود يجلس مع رجال في مغابن الكهف؛ فقال رجال داود له: هذا هو اليوم الذي قال لك عنه الرب: ها أنذا أدفع عدوّك ليدك فتفعل به ما يحسن في عينيك، فقام داود وقطع طرف جبة شاول سراً. وكان بعد ذلك أن قلب داود آلمه، لأنه قطع طرف جبة شاول. وقال لرجاله: حاشاني من قبل الرب أن أفعل هذا الأمر بسيّدي، بمسيح الرب، فأمد يدي إليه، لأنه مسيح الرب هو، ووبخ داود رجاله بالكلام، ولم يدعهم يقومون على شاول وأما شاول، فقام من الكهف وذهب في طريقه.

ثم قام داود بعد ذلك وخرج من الكهف ونادى وراء شاول قائلاً: يا سيدي الملك! ولما التفت شاول إلى ورائه، خرّ داود على وجهه إلى الأرض وسجد. وقال داود لشاول: لماذا تسمع كلام الناس القائلين: هو ذا داود يطلب اذيتك؟ وها قد رأت عيناك اليوم كيف دفعك الرب ليدي في الكهف، وقيل لي أن اقتلك، ولكنني اشفقت عليك وقلت: لا أمدّ يدي إلى سيدي لأنه مسيح الرب. فانظر يا أبي، انظر طرف جبتك بيدي، ومن قطعي طرف جبتك وعدم قتلي اياك اعلم وانظر أنه ليس في يدي شرّ ولا جرم، ولم أخطئ اليك وأنت تصيد نفسي لتأخذها. يقضي الرب بيني وبينك، وينتقم الرب منك، ولكن يدي لا تكون عليك؛ وكما يقول مثل القدماء: من الأشرار يخرج شرّ، ولكن يدي لا تكون عليك.

وراء من خرج ملك اسرائيل؟ أنت من تطارد؟ كلباً ميتاً، برغوثاً واحداً؟ الرب الديان يقضي بيني وبينك، ويرى ويحاكم وينقذني من يدك.

ولما فرغ داود، قال شاول: أهذا صوتك يا ابني، داود؟ ثم رفع صوته

وبكى، وقال لداود: أنت ابرّ مني، لأنك جازيتني خيراً، وأنا جازيتك شراً، وقد أظهرت اليوم أنك عملت بي خيراً، لأن الرب دفعني بيدك ولم تقتلني؛ فإذا وجد رجل عدوه فهل يطلقه في طريق خير؟ الرب يجازيك خيراً عما فعلت لي اليوم؛ والآن لقد علمت أنك تكون ملكاً وتثبت بيدك مملكة اسرائيل؛ فاحلف لي الآن بالرب أنك لا تقطع نسلي من بعدي، ولا تبيد اسمي من بيت أبي، فحلف داود لشاول ثم ذهب شاول إلى بيته، وأمّا داود ورجاله فصعدوا إلى الحصن" (ملوك أول ٢٤ ، ٢ - ٢٢).

إنه لمشهد حماسي حقاً! ولكن ما لا يفهم فيه هو، لماذا شبه داود نفسه بالكلب الميت والبرغوث؟ والحقيقة أنه لا يمكن لهذا المشهد أن يكون رائعا لو رافقته ظروف أخرى، فقد سيق شاول إلى الكهف ليعفو داود عنه وهو يتخلّص من نفايات أمعائه؟! ألم يكن بمقدور "الروح القدس" أن يخلق ظرفاً أكثر جمالية لتجلي رحمة داود ورأفته بعدوه؟ ولكن يهوه أراد أن يكون الأمر كما كان، ولتكن مشيئته! غير أن هذا لا يمنعنا من القول: إنه أظهر هنا الهاماً ابداعياً مشوباً بذوق يثير الشك. ومن المعروف أن الاكليروس يصرخ ضد بعض أعمال الروائي المعروف، ذي النزعة الطبيعية إميل زولا، التي يصف فيها الرائحة الكريهة التي يطلقها الرجال.ولكن روايات زولا ليست كتباً مقدسة، ولن يخطر لأحد أن يجعلها اساساً لديانة ما، في أيّ يوم من الأيام.

لقد كان بمقدور "الحمامة المقدسة" أن تجعل داود يطأ غواط شاول بقدمه عندما أسرع يخرج من الكهف، وأن ذلك زاد من سعادته. ولا ريب في أن المؤمنين كانوا سيقبلون تلك البركة أيضاً.

وفي المرّة الثانية أظهر ابن يّسى مزيداً من سعة الصدر وطيبة القلب،

ولكن في ظروف أقل قذارة. فقد نزل شاول وجيشه فوق تل الحميلة، وأقام معسكره هناك، فتسلل داود الى خيمة شاول ليلاً ومعه رجل يدعى أبيشاي. وفي هذه المرّة كان الرب شريكاً مباشراً لداود. يقول النص التوراتي:

"فجاء داود وأبيشاي إلى الشعب ليلاً، وإذا بشاول مضجع نائم عند المتراس، ورمحه مركوز في الأرض عند رأسه، وأبينير والشعب مضجعون حوله، فقال ابيشاي لداود: قد حبس الله اليوم عدوّك في يدك، فدعني اضربه بالرمح الى الأرض دفعة واحدة، ولا أُثنّي عليه. فقال داود لأبيشاي: لا تهلكه، فمن الذي يمدّ يده إلى مسيح الرب ويبرّأ؟ وقال داود: حيّ هو الرب، إن الرب سوف يضربه، أو يأتي يومه فيموت أو ينزل إلى الحرب فيهلك؛ حاشالي من قبل الرب أن أمد يدي إلى مسيح الرب. والآن قم فخذ الرمح الذي عند رأسه، وكوز الماء و هلّم. فأخذ داود الرمح وكوز الماء من عند رأس شاول، وذهبا ولم ير ولا علم ولا انتبه أحد، لأنهم جميعاً كانوا نياماً، فقد وقع سبات الرب عليهم.

عبر داود إلى العبر ووقف على رأس الجبل عن بعد، والمسافة بينهم كبيرة ونادى داود الشعب وأبينير قائلاً: ألا تجيب يا أبينير؟ فأجاب أبينير وقال: من أنت الذي ينادي الملك؟ فقال داود: أما أنت رجل ومن مثلك في اسرائيل؟ فلماذا لم تحرس سيدّك الملك؟ لقد جاء واحد من الشعب لكي يقتل سيدك الملك، ليس حسناً هذا الأمر الذي عملت، حيّ هو الرب! إنكم أبناء الموت أنتم، لأنكم لم تحافظوا على سيدكم مسيح الرب، فانظر الآن أين هو رمح الملك وكوز الماء الذي كان عند رأسه.

وعرف شاول صوت داود فقال: أهذا صوتك يا ابني داود؟ فقال داود: إنه صوتي يا سيدي الملك" (٢٦ ، ٧ ـ ١٧).

لقد انتهى هذا المشهد نهاية سابقه، مع فارق بسيط تمثّل في أن ابن يّسى لم يشبّه نفسه هنا بالكلب الميت، واكتفى بأن يكون برغوثاً في هذه المرة. ثم اعاد الكوز والرمح إلى الملك.

ولكن السؤال الذي يلحّ علينا هو، لماذا حظي شاول بلعنة التورات خلافاً لأبطالها الآخرين كلهم؟ إننا إذا حاكمنا الأمر محاكمة عقلية بشرية، فان شاول لا يترك انطباعاً سيئاً: ثورات جنونه ضد داود كانت نتيجة لعمل "الروح الرديء". أضف إلى هذا أن ابن يّسى ليس أكثر من فرد حقير يرثى له. فشاول لم يكن إنساناً شريراً بطبعه، وهو عدوّ لدود للعنف عندما يكون متحرراً من تأثير "الروح الرديء". أضف إلى هذا أنه لم يخن أبناء جلدته، كما فعل داود عندما وضع نفسه ومرتزقته في خدمة الفلسطينيين، اعداء اسرائيل التاريخيين. بيد أن الكنسيين يقولون لنا: إنه لا عمل للعقل البشري هنا، فليكن الأمر هكذا إذاً!!.

الفصل الحادي والثلاثون

نهاية شاول المحزنة

لم يترك يهوه مناسبة تمرّ دون أن يظهر فيها حمايته لداود ووقوفه معه، فقد كان هذا الاخير يناسب رغباته كلها. استمتعوا معنا، على سبيل المثال بقصة نابال وأبيجايل، التي سنسوقها هنا استناداً إلى النص "المقدس"، ولن نتجاوز إلاّالتكرار والاطالة.

لقد كان يعيش في معون رجل غني جداً. وكان يجزّ عندئذٍ غنمه في الكرمل واسم هذا الرجل هو نابال، واسم زوجته ابيجايل... فأرسل داود عشرة من الغلمان إلى نابال يطلب منه "ما وجدته يدك". ولكن نابال أجاب: "من هو داود؟..... لقد كثر اليوم العبيد الذين يفرّون من أمام سادتهم؛ أآخذ خبزي ومائي وذبيحي الذي ذبحت لجازّيّ وأعطيه لقوم لا أعلم من أين هم؟... فقال داود لرجاله: ليتقلّد كل واحد منكم سيفه...وتقلّد داود أيضاً سيفه، وسار خلف داود حوالي أربع مائة رجل، ومكث مائتان مع الأمتعة... فأسرعت ابيجايل وأخذت مائتي رغيف خبز، وزقّي خمر، وخمسة خرفان معدّة، وخمس كيلات من الفريك، ومائة عنقود من الزبيب، ومائتي قرص من التين، ووضعتها على الحمير".

ودون أن تخبر زوجها، مضت أبيجايل للقاء داود. "ولمّا رأت ابيجايل داود، أسرعت ونزلت عن الحمار، وسقطت أمام داود على وجهها وسجدت إلى الأرض"... فقال لها داود: "مبارك الرب إله اسرائيل الذي أرسلك اليوم لاستقبالي، ومبارك عقلك، ومباركة أنت لأنك منعتني اليوم من اتيان الدماء وانتقام يدي لنفسي... ولو لم تسرعي وتأتي لاستقبالي، لما بقي لنا بال إلى ضوء النهار بائل حائط"...

وبعد عشرة أيام مات نابال. "ولمّا سمع داود أن نابال قد مات، قال: مبارك الرب الذي انتقم نقمة تعييري من يد نابال،وأمسك عبده عن الشرّ، وردّ الرب شرّ نابال على رأسه، وأرسل داود وتكلّم مع ابيجايل ليتخذها له امرأة... فقامت وسجدت على وجهها إلى الأرض وقالت: ها هي أمتك جارية لغسل أرجل عبيد سيدي؛ ثم بادرت وقامت وركبت الحمار مع خمس فتيات لها ذاهبات وراءها، وسارت وراء رسل داود، وصارت له امرأة. ثم أخذ داود أخينوعم من يزرعيل، فكانتا له كلتاهما امرأتين، فأعطى شاول ميكال، امرأة داود، لفلطي بن لايش الذي من جليم" (٢٥ ، ٢ ـ ٤٢).

والآن، لنفرض أننا أردنا أن نكتب قصة لصّ شهير، فهل نستطيع أن نكتب قصة مغايرة لهذه القصة؟ ففي الوقت الذي تفخر فيه التورات بداود، تقدم لنا نابال رجلاً فظاً و قاسياً. بيد أن الحقيقة هي الحقيقة، فسلوك داود يثير الاشمئزاز وحسب. ولكن يهوه نفسه شارك في موت الزوج الذي تكرهه زوجته، وبتدخله الشرير هذا، يكون يهوه قد بارك، في الوقت نفسه، بغاء داود، مسيحه "المقدس"،وابيجايل وعهرهما، إنها لأخلاقية غريبة بعض الغرابة! أليس كذلك؟!

في تلك الأثناء مات صموئيل. "ومات صموئيل فاجتمع جميع اسرائيل

وندبوه ودفنوه في بيته في الرامة" (٢٥ ، ١) ولكن موته هذا لم يمنعه من متابعة وصف الأحداث التي وقعت بعد ذلك، كما فعل موسى في حينه. ويجب أن نقرّ بان صموئيل حطمّ الرقم القياسي العالمي الذي كان قد سجلّه موسى في هذا الشأن. فهذا الأخير لم يفعل سوى أن وصف مأتمه وحزن الشعب عليه. أمّا مؤلف صموئيل الذي كتبه بعد موته، فقد غطى الأحداث التي وقعت خلال عهد شاول وعهد داود كله أيضاً. ثمانية وثلاثين اصحاحاً ملآى بالأحداث التي رآها المؤلف بعد موته! إنها لعجيبة العجائب! لنفرض أن صموئيل تمكن من رؤية ذلك كله من عليائه السماوية، وبأم عينيه أيضاً فكيف كتبه بيده التي دفنت مع جسده بالاحترام الذي استحقه. ستبقى الاجابة على هذا السؤال، سرّ إلهياً!!.

ونحن لن نبحث عن ذلك السرّ، وسنعترف بأن النبي المتوفي وافق على كتابة أحداث عهدي الملكين اللذين مسحهما بنفسه. ويخبرنا صموئيل دون أدنى شعور بالحرج، بان داود "قام وعبر هو والست مائة رجل الذين معه، إلى خيش بن معول، ملك جت" (٢٧ ، ٢). وأعطاه خيش مدينة صقلع ليقيم فيها، وعاش مسيح الرب المقدس عاماً كاملاً وأربعة اشهر بين أعداء قومه. و"صعد داود ورجاله وغزوا الجشوريين والحرزيين والعمالقة، الذين سكنوا هذه البلاد من شور إلى أرض مصر، منذ أقدم الأزمنة، وخرّب داود الأرض، ولم يبق رجلاً ولا امرأة، وأخذ الغنم والبقر والحمير والجمال والثياب، ورجع وجاء إلى أخيش... ولم يبق داود على رجل أو امرأة، ولم يأت بأحد إلى جتّ إذ قال: لئلاّ يخبر عنّا قائلين: هكذا فعل داود، وهكذا عادته كل أيام اقامته في بلاد الفلسطينيين. فصدّق أخيش داود، وقال في نفسه: قد صار مكروهاً لدى شعبه اسرائيل، فيكون لي عبداً إلى الأبد" (٢٧ ، ٨ - ١٢).

والآن، ما رأيكم بهذا المسيح المقدس، أعظم أجداد يسوع المسيح، وحبيب يهوه؟ يعيد النقاد إلى الأذهان، ان داود تظاهر بالجنون أمام الملك الفلسطيني؛ وهذه بالطبع، ليست وسيلة محترمة لاكتساب ثقة الملك الذي تنوي خدمته في ساحات القتال، كما وقع فيما بعد. ويضيف النقاد: إن الطريقة التي خدم داود بها الملك، أكثر غرابة: يرغمه على الثقة بأنه ينهب اليهود، بينما هو ينهب حلفاءه ويذبحهم، إنه يبيد كل شيء،ولا يرحم حتى الأطفال، خوفاً من أن يعرف الملك حقيقة ما يحصل.

ولكن كيف حصل ألاّ يعرف أخيش بشيء مما وقع على امتداد ستة عشر شهراً؟ لاريب أنه كان في تلك الأثناء أكثر جنوناً من داود عندما جاءه في أوّل مرة. أمّا اللاهوتيون فلا يستاؤون من سلوك هذا "المسيح"؛ ويؤكدون أنه لا ضير البتة من أن يبيد داود حلفاءه ويسحقهم، لأنهم كانوا وثنيين.بل إنهم يرون في داود معبّراً عن الغضب الالهي، ويحلّونه من آثامه ويسبّحون "بقداسته".

في الاصحاح التالي يعدّ الفلسطينيون العدة لشن حملة ضد اليهود، ويتحوّل داود من حامل سلاح الملك اليهودي شاول، وصهره، إلى قائد حرس الملك الفلسطيني. ونحن أصبحنا الآن على مقربة من مشهد ساحرة عين دور.

"فاجتمع الفلسطينيون وجاؤوا ونزلوا في شونم، وجمع شاول جميع اسرائيل ونزل في حلبوع. ولمّا رأى شاول جيش الفلسطينيين، خاف واضطرب قلبه جداً، فسأل من الرب فلم يجبه الرب لا بالأحلام ولا بالاوريم[1] ولا بالأنبياء. فقال شاول لعبيده: فتشوا لي عن امرأة صاحبة جان، فاذهب إليها واسألها، فقال له عبيده: هناك امرأة صاحبة جان في عين دور.

فتنكر شاول، ولبس ثياباً أخرى، وذهب هو ورجلان معه وجاؤوا إلى المرأة ليلاً وقال : اعرفي لي بالجان واصعدي لي من أقول لك، فقالت المرأة: أنت تعلم ما فعل شاول، وكيف قطع أصحاب الجان والتوابع من الأرض، فلماذا تضع شركاً لنفسي لتميتها؟ فحلف لها شاول بالرب قائلا: حيّ هو الرب! إنه لا يلحق بك إثم في هذا الأمر، فقالت المرأة: من أصعد لك؟ فقال: اصعدي لي صموئيل. ولمّا رأت المرأة صموئيل صرخت بصوت عظيم وكلمت شاول قائلة: لماذا خدعتني وأنت شاول؟فقال لها الملك: لا تخافي، فماذا رأيت؟ فقالت المرأة لشاول: رأيت آلهة يصعدون من الأرض فقال لها: ما هي صورته؟ فقالت رجل شيخ صاعد وهو مغطى بجبة، فعلم شاول أنه صموئيل، فخرّ على وجهه إلى الأرض وسجد. فقال صموئيل لشاول: لماذا أقلقتني باصعادك أياي؟ فقال شاول: لقد ضاق بي الأمر جداً، الفلسطينيون يحاربونني، والرب فارقني، ولم يعد يجيبني لا بالأنبياء، ولا بالأحلام، دعوتك لكي تعلمني ماذا اصنع؟ فقال صموئيل: ولماذا تسألني والرب فارقك وصار عدّوك؟ وقد فعل الرب لنفسه ما قاله عبري أنا، ينزع الرب المملكة من يدك ويعطيها لقريبك داود؛ لأنك لم تسمع لصوت الرب، ولم تفعل حموَّ غضبه في عماليق، لذلك فعل الرب بك اليوم هذا الأمر؛ ويدفع الرب اسرائيل أيضاً معك ليد الفلسطينيين، وغداً أنت وبنوك تكونون معي، ويدفع الرب جيش اسرائيل أيضاً ليد الفلسطينيين.

فأسرع شاول وسقط على طوله إلى الأرض، وخاف جداً من كلام صموئيل، وأيضاً لم تكن فيه قوة، لأنه لم يأكل طعاماً النهار كله والليل. ثم جاءت المرأة إلى شاول ورأت أنه مرتاع جداً فقالت: قد سمعت جاريتك لصوتك، فوضعت نفسي في كفي وسمعت لكلامك الذي كلمتني به؛ والآن؛ والآن اسمع أنت أيضاً لصوت جاريتك فاضع قدامك كسرة خبز،

فكل تكون فيك قوّة إذ تسير في الطريق. فأبى وقال: لا آكل، فألحّ عليه عبده والمرأة أيضاًفسمع لصوتهم وقام عن الأرض وجلس على السرير وكان للمرأة عجل مسمّن في البيت ، فاسرعت وذبحته وأخذت دقيقاً وعجنته، وخبزت فطيراً ثم قدمه لشاول وعبديه، فأكلوا، وقاموا وذهبوا في تلك الليلة" (٢٨، ٤ ـ ٢٥).

لقد أثار هذا المشهد من المشاحنات بين رجال اللاهوت. وهو الأمر الذي شكّل موضوعاً مسلياً بالنسبة للشارحين من أنصار مذهب الشك. والحقيقة أن في هذه القصة ما يسلّي. ففي زمان ومكان استغل المشعوذون والنصابون ثقة البسطاء من الناس استغلالاً سيئاً، مرغمين أياهم على دفع ثمن غال لاجابات خفية مبهمة مختلفة. أمّا هنا فالغرامة لم تأخذ شيئاً من شاول. بل نحرت له العجل المسمّن وأعدت مائدة على شرفه .

ومن المعروف أن العرافين يظهرون ما مبهماً، يتمتع بقدرة على الحركة بفضل خدعة خفية لا تظهر دائما. أمّا عرافة عين دور،، فلا تكلّف نفسها عناء مثل هذا العمل فكل ما فعلته أنها قالت لشاول. أنها ترى ظلاً، وهو يصدقها تماماً.

وقد قال فولتير في هذا السياق: "لو كانت هذه الرواية في أي كتاب آخر، غير الكتاب المقدس، لعدّت مجرّد خرافة عادية، بل وسيئة البناء ولكن بما أن المؤلف هنا هو "الروح القدس" فالخرافة تستحق التعظيم كغيرها من هراء هذا المؤلف". أما فيما يخص اللاهوتيون، فانهم لا يشكون في صحة حدوث المشهد، ولكنهم لا يعرفون بالضبط، من هو الشخص الذي استدعته المشعوذة. فالقديس يوستين يسلّم في "حوار مع تريفون اليهودي"، بان السحرة في الأزمنة الماضية، كانوا يستدعون أرواح الأنبياء والصديقين

باذن خاص من يهوه، فقد كانت أرواح هؤلاء في جهنم، بصرف النظر عن حياة البّر والتقوى التي عاشوها على الأرض، وبقيت فيها إلى أن نزل يسوع المسيح إليها وأخرجها منها، فحسب القديس يوستين اذن، أنه لا شيء يمنع رؤية ساحرة عين دور لروح صموئيل نفسها.

أما الاب المقدس الآخر، اوربغين[٢] فقد ذهب أبعد من أخيه في الرب، يوستين، بكثير فالساحرة لم تستدع روح صموئيل وحسب، بل استدعت جسده أيضاً، وألاّ لما استطاعت أن ترى الملابس البيضاء التي كان يرتديها. ويطرح هذا الأمر سؤالاً فضولياً آخر: هل يرتدون الملايس في جهنمّ أيّ ملابس؟ وهل كانت لديهم فيها ملابس ضد الاحتراق؟.

أما الآن فقد ابتعد اللاهوتيون المعاصرون عن تأكيدات زملائهم المسيحيين الأوائل الساذجة، لقد رأوا الجانب المضحك في تفسيرات أوريغين ويوستين اللذين أعتقدا بان الساحرات والكهان هم قدور الشيطان التي كانت لها سلطة استدعاء الأرواح، بما فيها أرواح "القديسيين" بيد أنهم يؤكدون، أن المشعوذة استدعت شيطاناً ادعى أنه صموئيل. ولكن النص التوراتي يدحض هذه الشروحات السفسطائية؛ وهو يكرر غير مرّة: "وقال صموئيل لشاول"، و "خاف شاول من كلام صموئيل" وأخيراً يسأل صموئيل شاول: "لماذا أقلقتني؟"

ويظهر من ناحية أخرى سؤال ليست الاجابة عليه بالأمر السهل. فقد حلت اللعنة التوراتية على شاول منذ أن أخذته الشفقة باسيره، الملك عجاج. ولذلك رأى المؤمنون فيه رجلاً نهايته محتومة. وقد لعن الكهنة اسم ملك اسرائيلي مرّات لاعدّ لها" حتى أصبح مجرد ذكر اسمه يثير الخوف فيهم. وإذا نحن قرأنا النص "المقدس" بامعان لبدأ ينشأ لدينا تصوّر مفاده،

أن يهوه قد دحض نفسه بنفسه في اللحظة الأخيرة، و أُنقذ شاول. فقد أعلن له صموئيل قائلاً: "غداً أنت وبنوك تكونوا معي". وصموئيل مقيم في جهنمّ الصدّيقين. لأنه حسب اللاهوت المسيحي، كان ثمة جهنمان قبل قيامة ابن مريم: جهنمّ البؤساء التي ابتلعت قورح وداثان وابيرام، وجهنمّ الاخيار، حيث اقام الآباء الأوائل والأنبياء وقديسو العهد القديم كلهم بانتظار "قيامة المسيح" التي فتحت لهم "أبواب السماء" وهذا يعني، أن انضمام شاول إلى صموئيل سيقوده حتماً إلى جهنمّ الصديقين، فبصرف النظر عن اللعنة التي نزلت على قمة رأسه، إلاّ أنه كان مسيح الرب يهوه.

وهاكم أخيراً ما يمكن أن يسطّ هذه الشكوك كثيراً. هل هناك ثقة راسخة في أن الواقع الحقيقي قد عرف في زمن ما، أياً من شاول أو صموئيل؟ أليست قصتهما شعوذه أخرى من شعوذات مؤلفي التورات؟ فباستثناء الكتب اليهودية، ليس هناك ذكر للملك باسم شاول، أو نبي باسم صموئيل، علماً بان حوليات مدينة صور، تحدثت عن سليمان، ولم يأتِ على ذكر داود قط.

ما العمل؟ هناك كثير من الناس يستغرب الصمت الذي احيطت به الشخصيات التي أخرجتها التورات إلى مسرح "التاريخ المقدس" ذلك الصمت العنيد الذي التزمه معاصرو تلك الشخصيات تجاهها. وثمة كثرة أخرى من الناس لا تستطيع أن "تهضم" قصصاً توراتية مثل: مبارزة داود الصغير للعملاق جليات الذي طوله ثلاثة أمتار، المهر الذي قدمه داود لميكال ابنه شاول والذي تألف من مائتي رأس قضيب ذكري فلسطيني، وما شابه من القصص. وعندما يضاف إلى هذا كله مشهد مشعوذ عين دور، لا بدّ من أن يصاب قارىء التورات بتلبّك معوي سببه امساك أو اسهال.

في أثناء ذلك كان داود "المقدس" لا يزال قائماً على خدمة الجيش في المؤخرة، لأن قادة معسكر أفيق - كما يفيد الاصحاح ٢٩ - لم يكونوا راضين عن وجود ذلك العنصر الشاذ بين صفوفهم، فطلبوا إلى الملك ان يبعده ولكن في اثناء تلك المباحثات، جاء العمالقة و أحرقوا مدينة صقلع، حيث يقيم مسيح الرب المقدس. ولما عاد داود من معسكر الفلسطينيين ومعه الست مائة قاتل، لم يجدوا نساءهم وأطفالهم في المدينة فقد ساقهم العمالقة أسرى (٣٠ ، ١ - ٣). وهذا إن دلّ على شيء فانما يدل على أن العمالقة لم يكونوا مجرّد قتلة سفاحين، كما هم يهود يهوه، فقد حافظوا على حياة أسراهم، ومنهم زوجتا داود، ابيجايل وأخينوعم. وانطلق داود خلف العمالقة فابادهم وحرر الأسرى وعاد بهم.

ينتهي كتاب الملوك الأولى بوصف موت شاول، فقد وقعت بينه وبين الفلسطينيين معركة في وادي جلبوع، ولحقت الهزيمة بجيش ربّ الجنود. "فشد الفلسطينيون وراء شاول وبنيه،، وضربوا يوناثان وأبيناداب ولكيشوع، أبناء شاول. واشتدت الحرب على شاول فأصابه الرماة، رجال القسّي، فجرح جرحاً بليغاً، وقال شاول لحامل سلامه: استلّ سيفك واطعنّي به لئلاّ يأتي هؤلاء الغلف ويطعنوني ويقبحوني؛ فلم يشأ حامل سلاحه، لأنه خاف جداً؛ فأخذ شاول السيف وسقط عليه، ولما رأى حامل سلاحه أنه قد مات،، سقط هو أيضاً على سيفه ومات...

ولما رأى رجال اسرائيل الذين في عبر الوادي، والذين في عبر الأردن، ان رجال اسرائيل قد هربوا، وان شاول وبنيه قد ماتوا، تركوا المدن وهربوا، فأتى الفلسطينيون وسكنوا فيها. وفي الغد،، لمّا جاء الفلسطينيون ليعرّوا القتلى، وجدوا شاول وبنيه الثلاثة ساقطين في جبل جلبوع، فقطعوا رأسه

ونزعوا سلاحه وأرسلوا إلى أرض الفلسطينين في كل جهة لأجل التبشير في بين أصنامهم وفي الشعب. ووضعوا سلاحه في بيت عشتروت،، سمّروا جسده على سور بيت شان، ولما سمع سكان يابيش جلعاد بما فعل الفلسطينيون بشاول، قام كل ذي بأس وساروا الليل كله، وأخذوا جسد شاول وأجساد بنيه عن سور بيت شان وجاؤوا بها إلى يابيش وأحرقوها هناك، وأخذوا عظامهم ودفنوها تحت الأثلة في يابيش، وصاموا سبعة أيام" (٣١ ، ٢ ـ ٥ ، ١٧ ـ ١٣).

أما كتاب الملوك الثاني فيبدأ برواية قصة موت شاول،، ولكنه يروي لنا قصة مختلفة تماماً عن تلك رواها كتاب الملوك الأول. والتناقض بين الروايتين صارخ، وهو يكشف مرة أخرى عن صفاقة "الحمامة المقدسة" وممثليها، والوقاحة التي يسخرون بها من المؤمنين.

"وكان بعد موت شاول، ورجوع داود من مضاربة العمالقة، ان داود أقام في صقلع يومين لقد نسي "الروح القدس" ان العمالقة أحرقوا هذه المدينة منذ أيام قليلة. ملوك أول (٣٠ ، ١). وفي اليوم الثالث اذا برجل أتى من معسكر شاول وثيابه ممزقة وعلى رأسه التراب. فلما جاء إلى داود، خرّ إلى الأرض وسجد. فقال له داود: من أين أتيت؟ فقال: من معسكر اسرائيل نجوت، فقال له داود: كيف كان الأمر؟ أخبرني، فقال: ان الشعب هرب من القتال وسقط كثيرون منه وماتوا، ومات شاول ويوناثان ابنه أيضاً. فقال داود للغلام: كيف عرفت انه قد مات شاول ويوناثان ابنه؟ فقال الغلام: اتفق أني كنت في جبل جلبوع، واذا شاول يتوكأ على رمحه، واذا بالمركبات والفرسان يشدّون وراءه، فالتفت إلى ورائه فرآني ودعاني فقلت: ها أنذا! فقال لي: من أنت؟ فقلت: عماليقي أنا. فقال: قف عليّ واقتلني،

لأنه قد اعتراني الدوار ولأن كل نفسي بعد فيّ. فوقفت عليه وقتلته لأني علمت أنه لا يعيش بعد سقوطه، وأخذت الاكليل الذي على رأسه والسوار الذي على ذراعه وأتيت بهما إلى سيدي هنا.

فامسك داود ثيابه ومزّقها، وكذا جميع الرجال الذين معه، وندبوا وبكوا وصاموا إلى المساء على شاول وعلى يوناثان ابنه، وعلى شعب الرب وعلى بيت اسرائيل لأنهم سقطوا بالسيف. ثم قال داود للغلام الذي أخبره: من أين أنت؟ فقال: أنا رجل غريب عماليقي. فقال له داود: كيف لم تخف أن تمدّ يدك لتهلك مسيح الرب؟ ثم دعا داود واحداً من الغلمان وقال: تقدم أوقع به، فضربه، فمات. فقال له داود: دمك على رأسك لأن فمك شهد عليك قائلاً: أنا قتلت مسيح الرب" (ملوك ثاني ١ ، ١ - ١٦).

بعد ذلك انشأ داود مرثية حزينة مبكية (أوردتها التورات) عن مصير شاول ويوناثان المأساوي. لكننا لن نسوق إلاّ هذا المقطع الصغير: "قد حزنت عليك يا أخي يوناثان، كنت عزيزاً لي جداً، محبتك لي أعظم من محبة النساء"(٢٦).

الفصل الثاني والثلاثون

استواء داود،

الملك الوديع على العرش

لقد اقتربنا الآن من الحقبة التي ربما كان تاريخ اليهود قد بدأ منها، انها حقبة تتسم أحداثها بدرجة ما من الصحة. فمنذ عهد شاول أخذت اللحظات المبهمة التي تثير الشك تختفي رويداً رويداً من التاريخ اليهودي. والحقيقة أننا سنصادف هنا مزيداً من "العجائب" الخارقة المدهشة، لكنها لن تكون أكثر من زخرفة توشي سيرة شخصيات لا تثير حقيقة وجودها الجدل دوماً.

من المعروف أن أسفار كتاب التورات تثير نقاشاً كبيراً. فاللاهوتيون يؤكدون على أن أشخاصاً معينين كتبوها ونقلوا الينا عبرها أحداث الزمن الذي عاشوا فيه. فنسبوا "الاسفار الخمسة" إلى موسى، وسفر يشوع بن نون إلى يشوع هذا نفسه، وسفر الملوك الأول والثاني إلى صموئيل. ويحاول اللاهوتيون اضفاء طابع جدّي على التورات عبر تكريس هذه الفرضية.

ويجنّ جنونهم عندما يقال لهم ان تلك الأسفار لم تكتب إلاّ في زمن بعيد جداً عن زمن وقوع الأحداث الموصوفة فيها، ويقع ذلك الزمن كله بعدما سمّي بالسبي البابلي.

ومساندة منا لرؤية نقّاد التورات، نسوق هنا سطراً من كتاب الملوك الثاني يؤكّد مرة أخرى كذب ادعاءات اللاهوتيين: "... إن يتعلّم بنو يهوذا نشيد القوس، كما هو مكتوب في سفرياشر" (١ ، ١٨). وهذا السفر نفسه ذكره يشوع بن نون بصدد عجيبة ايقافه الشمس والقمر: "فدامت الشمس ووقف القمر، حتى انتقم الشعب من أعدائه. أليس هذا مكتوباً في سفر ياشر: "فوقفت الشمس في كبد السماء ولم تعجّل للغرب نحو يوم كامل؟" (يشوع ١٠ ، ١٣). واذا لم يكن يشوع بن نون نفسه شخصية مثيولوجية، فان "عجيبته" وقعت قبل خمس مائة عام من مُلْك داود. وهذا يعني من الوجهة الفيزيائية، أنه لم يكن بمقدور ابن نون أن يسوق نصّ مرثية داود لشاول ويوناثان التي دوّنها كتّاب كتب التورات بعد خمس مائة عام من وفاته.

وكتاب ياشر هذا الذي تذكره التورات غير مرّة، الغاه الكهنة اليهود أنفسهم؛ ثم أبادوه تماماً وهم يقولون:ك انه "فُقِد، مع شديد الأسف". وما يجدر ذكره، أن وجود هذا الكتاب كان يشكّل حرجاً كبيراً لهم، لأنه يبيّن بصورة قاطعة، ان التورات لم تكتب بقلم موسى وصموئيل وداود وغيرهم، وان كتّابهم الحقيقيين وصفوا أحداثاً لم يشاهدوها أو يعاصروها بأنفسهم. والنصان التوراتيان اللذان قارناهما منذ قليل، يبرهنان برهاناً قاطعاً على وجود اضافات "مقدسة" إلى النص التوراتي؛ بل وتسمح لنا هذه المقارنة أن نخمّن من هم أصحاب الآذان الطويلة التي تتدلّى هنا.

ولكن، لنعد الآن إلى داود. فعلى الرغم من أن صموئيل مسحه ملكاً على اسرائيل منذ زمن طويل، إلا أنه لم يعتبر نفسه ملكاً إلاّ بعد مقتل شاول؛ فبعد ذلك فقط أخذ داود يكتشف عظمته الملكية. وأوّل عمل ملكي قام به هذا الرجل هو، أنه سأله إلهه السؤال التالي: أيّ مدينة يجعلها عاصمة لمملكته. فجاءه الجواب في الحال: "حبرون" (ملوك ثاني ٢ ، ١). ثم دعا الشعب فلم يعترف به سوى زعماء يهوذا، و"مسحوا داود ملكاً على بيت يهوذا" (٢ ، ٤). وكان ذلك هو المسح الثاني لداود.

وأقام داود في حبرون مع زوجتيه، أخينوعم وأبيجايل. ولكي ينسى ميكال ابنة شاول، استبدلها بأربع نساء أخرجنّ: معكة ابنة تلماي ملك جشور، حجيث، ابيطال وعجلة (٣ ، ٢ ـ ٥). ويجب علينا أن نفترض بالطبع، أن هؤلاء النسوة عشن في سلام ووئام.

وجد داود أنه يحتاج "جنرالاً" لقيادة جيوشه. ونحن لم ننسى بعد أبيشاي الذي رافق داود ليلاً إلى معسكر حخيلة، حيث سرقا رمح شاول وكأسه. وكان لأبيشاي أخان هما: يوآب وعسائيل. وقد جعل داود يوآب هذا قائداً عاماً لقواته المسلّحة. وسنرى أن هذا الرجل سيلعب دوراً هاماً جداً في عهد داود.

وملك داود في حبرون على بيت يهوذا، سبع سنين وستة أشهر (٢ ، ١١).

ولكن أبينير، قائد جيش شاول، لم يعترف بشرعية اختيار قبيلة يهوذا داود ملكاً. وقدّم للشعب بدلاً منه، إيشبوشث ابن داود الأصغر. واعترفت قبائل اسرائيل الأحدى عشر الاخرى بابن شاول ملكاً عليها، واختار هذا الأخير مدينة محانيم عاصمة له. ولكنّ ملكه لم يدم سوى عامين.

وهكذا وقعت الحرب الأهلية! والتقى الطرفان عند بركة جبعون. فاقترح أبينير على يوآب مبارزة يشارك فيها اثنا عشر شاباً من بنيامين ومثلهم من أنصار داود. "وأمسك كل واحد برأس صاحبه وضرب سيفه في جنب صاحبه، وسقطوا جميعاً" (١٦). ثم اندلعت بعدئذٍ مَعركة شاملة هُزم فيها أعداء داود. وفرّ أبينير نفسه هارياً من المعركة. فطارده أخ يوآب، عسائيل الذي " كان خفيف الرجلين كظبي البر" (١٨). "فسعى عسائيل وراء ابينير، ولم يمل في السير يمنة ولا يسرة من وراء أبينير، فالتفت أبينير إلى ورائه وقال: أنت عسائيل؟ فقال: أنا هو، فقال له أبينير: مل إلى يمينك أو يسارك واقبض على أحد الغلمان وخذ لنفسك سلبه. فلم يشأ عسائيل أن يميل من ورائه. ثم عاد ابينير وقال لعسائيل: مل من ورائي وإلاّ ضربتك إلى الأرض، وعندئذٍ كيف أرفع وجهي لدى يوآب أخيك؟

فأبى أن يميل، فضربه أبينير بزج الرمح في بطنه فخرج من خلفه فسقط هناك ومات في مكانه. وكان كل من يأتي إلى الموضع الذي سقط فيه عسائيل ومات يقف... وضرب عبيد داود من بنيامين ومن رجال أبينير، فمات ثلاث مائة وستون رجلاً. ورفعوا عسائيل ودفنوه في قبر أبيه الذي في بيت لحم. وسار يوآب ورجاله الليل كله، فأصبحوا في حبرون (٢ ، ١٩ - ٢٣ ، ٣١ - ٣٢).

لا ريب أننا سنشعر بالأسف لو تجاوزنا وصف تلك المعركة الشهيرة، لأن ذلك كله في "التاريخ المقدس" الذي لقنه يهوه نفسه، وبالتالي فإن "الأفعال" الالهية، كتلك التي قرأنا للتو، تكتسب أهمية خاصة، وتستحق أن نشير اليها. ونحن يجب ألاّ ننس لحظة واحدة، انه باسم هذا الهراء السخيف كله، وهذه الحماقات التي أعلنت مقدسة، يعتبر رجال الدين في

كثير من بلدان العالم، موظفين حكوميين يتمتعون بامتيازات خاصة، وتجبى، من السكان أموال خاصة تنفق عليهم وكأنهم علماء أنبل العلوم ومعلمو أسمى الحقائق وأكثرها فائدة.

وفي الوقت الذي رفضت فيه قبائل اسرائيل الاحدى عشر أن تعترف بداود ملكاً عليها، كان هو يرسخ دعائم بيته وينجب مزيداً من الأطفال. إذاً، لم يكن مسيح الرب "المقدس" يهدر وقته عبثاً. "وولد لداود بنون (ستة) في حبرون" (٣ ، ٢).

وبسبب النساء انتقل أبينير إلى جانب داود. وهاكم النص التوراتي لهذه الطرفة "المقدسة". "وكانت لشاول سرية اسمها رصفة بنت أية. فقال إيشبوشث لأبينير: لماذا دخلت إلى سرية أبي؟ فاغتاظ أبينير جداً من كلام ايشبوشث وقال: ألعلي رأس كلب؟ أنا ضد يهوذا صنعت اليوم معروفاً مع بيت شاول أبيك، ومع أخوته، ومع أصحابه ولم أسلمك ليد داود، وأنت تطالبني اليوم باثم امرأة. هكذا يصنع بأبينير، وهكذا يزيده، انه كما حلف الرب لداود، كذلك اصنع له: انقل المملكة من بيت شاول وأُقيم كرسي داود على اسرائيل وعلى يهوذا، من دان إلى بئر سبع.

ولم يقدر بعد أن يجيب أبينير بكلمة لأنه خاف منه. فارسل أبينير من فوره رسلاً الى داود قائلاً: لمن هي الأرض؟ وقال أيضاً: اقطع معي عهدك، وها هي يدي معك لردّ جميع اسرائيل اليك. فقال (داود) حسناً: أنا أقطع معك عهداً، إلاّ أني اطلب منك أمراً واحداً هو، أن لا ترى وجهي مالم تأت بميكال بنت شاول حين تأتي لترى وجهي. وارسل داود رسلاً إلى ايشبوشث بن شاول يقول: أعطني امرأتي ميكال التي خطبتها بمائة غلفة من الفلسطينيين. فارسل ايشبوشث وأخذها من عند رجلها، من فلطئيل بن

لايش. وكان رجلها يسير معها ويبكي وراءها إلى بحوريم. فقال له أبينير: ارجع، فرجع" (٣، ٧ - ١٦).

وهكذا استرد داود زوجته الأولى التي يبدو أنه أحبها كثيراً. بيد أنه لم يتخل عن أيّ من زوجاته الست الآخر.

أما فيما يخص أبينير، فان خيانته لسيده لم تحقق له السعادة. ولما جاء إلى ابن يسّى في حبرون، وبرفقته عشرون خادماً، أقام له داود وليمة ثم أطلقه بسلام ليحرّض القبائل اليهودية الأخرى على الاعتراف بداود ملكاً شرعياً وحيداً. ولما علم يوآب بذلك استدعى نسوره فطاردوا أبينير وأعادوه إلى حبرون بحجة أن داود يريد أن يقول له شيئاً آخر. وهناك "مال به يوآب إلى وسط الباب، متظاهراً بأنه يريد أن يقول سراً، فضربه في بطنه فمات"(٢٧). وهكذا ثأر بينير لدم أخيه عسائيل.

ولمّا علم داود بالأمر قال: اني بريء، فليحلّ دمه على رأس يوآب. ثم أقام لأبينير مأتماً يليق به كجنرال قاد جيوش بني يعقوب في زمن ما، وقاد أيضاً، جيوش خصمه العنيد، شاول.

وبهذا ألفى ايشبوشث نفسه في وضع لا يحسد عليه؛ فقد انفضّ عنه أكثر أنصاره. وفي يوم قائظ، بعد ان تناول ايشبوشث وجبة الغداء، دخل ليأخذ قيلولة، فتسلل غلى غرفته اثنان من قادة جيشه وخنقوه هناك ثم احتزّا رأسه وجاءا به إلى داود وهما فخوران بعملهما هذا، وانتظرا منه مكافأة ملكية مجزية. لكن داود أمر بقطع أيديهما وأرجلهما أولاً، ثم علّقا على مشنقة واحدة عند بركة حبرون. أما رأس ايشبوشث فقد دفن مع أبينير في حبرون(٤).

ملك داود سبعة أعوام ونصف العام في حبرون، تلتها ثلاثة وثلاثون عاماً أخرى في أورشليم التي كانت مدينة يبوسية، فانتزعها داود من أصحابها بعد أن أصبح ملكاً عن القبائل اليهودية الاثنتي عشر. وفي أورشليم عاش داود في قلعة أطلق عليها اسم، مدينة داود، "وبنى مستديراً من القلعة فداخلاً". وقد أرسل اليه حيرام ملك صور، النجارين والحجارين "فبنوا لداود بيتاً" (٥ ، ٩ - ١١).

وما يجدر ذكره في هذا السياق، أن وثائق صور لا تذكر هذه البعثة قط، كما لا تأتي على أيّ ذكر لداود. ولكن مهما كانت الحال، فإن تاريخ اليهود الحضر لم يبدأ إلا بعد استيلائهم على أورشليم، أمّا قبل ذلك التاريخ فلم يكن اليهود سوى أقوام من الرحّل كانت تعيش على السلب والنهب متنقلة من جبل لآخر، ومن كهف لآخر، غير قادرة أن تبني لنفسها حياة بشرية عادية وتستقرّ في مكان واحد. وكانت مدينة أورشليم تقع على طريق القوافل التجارية التي تتعامل مع الفينيقيين، أي ان المدينة كانت تتمتع بموقع هام جداً. والحقيقة أن التربة هناك كانت حجرية عاقر، ولكن الهضاب الثلاث التي استقرت فوقها أورشليم، كانت تضمن لها وضعاً عسكرياً ممتازاً. ويجب أن نعتقد بأنه لم يكن لدى داود أيّ مواد بناء أو كوادر من البنائين، وإلاّ لما أرسل اليه حيرام الخشب والحجارين والنجارين. بيد أنه من غير الواضح ماذا كان باستطاعة داود أن يدفع لحيرام لقاء ذلك، وما هي طبيعة العلاقات بين الملكين؛ هذا اذا افترضنا جدلاً بأنه كانت ثمة علاقات أصلاً.

وقد علّق فولتير على هذا بقوله: "كان داود على رأس قوم فقير جداً عاش زمناً طويلاً في عبودية مذلّة. فلم تكن الغنائم التي يغنمها في غزواته

لتجعل منه شعباً غنياً، لأنه هو نفسه لم يذكر أنه غزا أيّ مدينة غنية. وأخيراً لم يعط تاريخ اليهود أيّ ايضاحات بصدد الحال التي كانت تعيشها اليهودية في تلك الحقبة، ونحن لا نعرف قط، كيف تسلّم داود دفة القيادة".

ما أن رأى داود نفسه سيّداً في أورشليم وضواحيها، حتى اتخذ نفسه مزيداً من "السراري والنساء من أورشليم...فوُلد لداود أيضاً بنين وبنات" (٥ ، ١٣ ـ ١٤).

بعد أن رتب داود شؤونه الخاصة، أخذ يفكر في بناء بيت يليق بيهوه، أو الأصح، "بتابوت العهد". "وجمع داود جميع المنتخبين في اسرائيل، ثلاثين الفاً، وقام وذهب هو وجميع الشعب الذي معه، من بعلة يهوذا لينقلوا من هناك تابوت الله الذي يدعى عليه بالاسم، اسم ربّ الجنود الجالس على الكيروبيم.

فأركبوا تابوت الله عجلة جديدة وحملوه من بيت ابينا داب الذي في الأكمة. وكان عزة وأخيو ابنا أبينا داب يسوقان العجلة الجديدة" (٦ ، ١ ـ ٣).

وعندما وصلت العربة إلى بيدر ناخون، كادت الثيران أن تقلب "التابوت".

فمدّ عزة يده وأمسك بالتابوت. فاشتعل غضب الرب على عزة لوقاحته، وقتله الرب هناك "لدى تابوت الله" (٦ ـ ٧). "فخاف داود من الرب في ذلك اليوم، وقال: كيف يأتي إلي تابوت الرب؟ ولم يشأ داود أن ينقل تابوت الرب إليه، إلى مدينة داود، فمال به الى بيت عوبيد آدوم الجتي" (٦ ، ٩ ـ ١٠).

والآن، اذا لم يكن صموئيل هو مؤلّف هذا الجزء من التورات، فلا ريب في أن مؤلّفه، كاهن لأن الرواية تولي عناية خاصة لتحريم لمس "التابوت" من قبل أيّ شخص لم يكرّس لتلك المهمة تكريساً خاصاً. وكنا قبل حادثة عزة العاثر الحظ، قدر أينا كيف أباد يهوه ٥٠،٠٧٠ فضولي من بيت شمس لأنهم نظروا إلى داخل الصندوق "المقدس" المؤذي. ولكي يبعث مزيداً من الرعب، لم يلاق المؤلف أيّ حرج في زيادة كمّ الكذب الموجود في طرفته السخيفة هذه. ويبدو أن خدم الدين لا يهتمون كثيراً لظهور إلههم بمظهر السفاح القاتل المتسلّط القاسي، فالمهم أن يكون مخيفاً وحسب!

"فالتابوت" على سبيل المثال، لم يكن كبير الحجم، طالما انهم استطاعوا نقله على عربة عادية. ويجب أن تكون هذه العربة قليلة العرض كي تستطيع اجتياز الممرات الجبلية الضيقة الواقعة بين غزة وأورشليم. وما يلفت الانتباه، أن الكهنة لم يكونوا برفقة الصندوق "المقدس"، وهذا غير مفهوم قط. واذا أخذنا بالحسبان أن أيّ اجراءات أمن لم تتخذ لحماية الشحنة من المفاجآت، فإن عزة فعل خيراً عندما أمسك بالصندوق في لحظة سقوطه، ولكنه كوفئ على غيرته الدينية بموت صاعق. أليس هذا ظلماً؟

لقد أكّد النقاد، من اتباع مذهب الشك، ان هذه الرواية تعتبر اهانة صريحة ليهوه الاله "الرحيم". وإذا كان ثمة مذنب فهم اللايون الذين تركوا "تابوت الرب" لعبث القدر، وليس عزّة الذي لم يتركه يدق عنقه! لكن الفكرة هنا هي، أنه بمساعدة مثل هذه القصص يجري ترسيخ الايمان عند الشعب الجاهل، بالامتيازات "المقدسة" التي منحها يهوه لكهنته.

وثمة ملاحظة أخرى مؤداها، أن البداية التعسفية الوحشية لحكم داود

تبيّن أن اليهود كانوا في تلك الحقبة اجلافاً، بقدر ما كانوا فقراء، وانه لم يكن عندهم أي مسكن لائق يضعون فيه مقدسات عبادتهم وموادها.

لقد كان السيّد عوبيد، وهو الرجل الذي كُلف العناية "بالتابوت"، حذراً جداً من تلك القنبلة الموقوتة الجاهزة للانفجار في كل لحظة؛ ولذلك لم يحاول الاقتراب من الصندوق. "وبارك الرب عوبيد آدوم وكل بيته" (١١). وبعد ثلاثة أشهر طلب داود "التابوت" من عوبيد، فنقلوه إلى أورشليم. وكانت مراسم النقل احتفالية جداً، وقد عبّر الملك عن فرحه العظيم بتلك المناسبة. "وكان داود يرقص بكل قوته أمام الرب؛ وكان متنطقاًبافود من كتان"(١٤). ويبدو أنه في غمرة فرحه ومرحه رفع ساقه أكثر مما يجب فبان..مالا يجب أن يظهر منه.ولم تخف زوجته الأولى ميكال، أفكارها في ذلك الصدد. فبعد أو وصل الصندوق إلى المكان الذي أُعدّ له، "رجع داود ليبارك بيته، فخرجت ميكال بنت شاول لاستقباله، وقالت: ما كان أكرم ملك اسرائيل اليوم، حيث تكشف في أعين إمائه وعبيده كما يتكشف أحد السفهاء" (٦ ، ٢٠). أمّا فيما يخص يهوه، فقد كان راضياً عن رشاقة داود الرضى كله. ولذلك عاقب ميكال، التي لم تكن مهتمة لزوجها في ذلك اليوم؛ "فلم يكن لميكال بنت شاول ولد إلى يوم موتها"(٢٣).

ثم أراد داود أن يبني بيتاً ليهوه، ولكنّ إله اليهود رفض، وترك ذلك الشرف ليمنحه إلى سليمان (أصحاح ٧).

الأصحاح الثامن من كتاب الملوك الثاني مكرّس كله للحديث عن انتصارات داود ونجاحاته. "وبعد ذلك ضرب داود الفلسطينيين وذلهم وأخذ زمام القصبة من يدهم. وضرب الموآبيين وقاسهم بالحبل، فألقاهم على

الأرض وقاس جعلين للقتل، وحبلاً للعفو؛ وصار الموآبيون عبيداً لداود يقدمون الهدايا. وضرب داود هدد عزر بن رحوب، ملك صوبة، حين ذلك ليردّ سلطته عند نهر الفرات. فأخذ داود منه ألفاً وسبع مائة فارس، وعشرين ألف راجل، وقطع عروق خيل المركبات وأوتارها كلها، ولم يبق إلاّ على مائة مركبة. فجاء آرام دمشق لنجدة هدد عزر، فضرب داود من آرام اثنين وعشرين ألف رجل، وجعل داود حامية في آرام دمشق، وصار الآراميون لداود عبيداً يقدمون هدايا. وكان الرب يخلّص داود حيثما توجه. وأخذ داود اتراس الذهب التي كانت على عبيد هدد عزر وأتى بها إلى أورشليم" (ملوك ثاني ٨ ، ١ - ٧).

وفيما بعد عقد داود تحالفاً مع المدعو توعي، ملك حماة، وهو شخصية يجهلها التاريخ كما يجهل الملك الذي بدّد داود جيشه. وأخضع داود "الآراميين والموآبيين والعمونيين والفلسطينيين والعمالقة و..".

ولكن انتصارات داود هذه، في سوريا وحتى الفرات، لم تُذكر لدى أيّ مؤرخ أو في أيّ وثيقة. ولم يسمع أحد بالملك هدد عزر أيضاً. ولو أن سلطة داود امتدت حتى الفرات، لكان هذا الرجل أقوى ملوك عصره. ولذلك فان النجاحات المزعومة، التي نسبت إلى زعيم جماعة اليهود الذي لم يملك سوى مدينة واحدة لم يكتمل بناؤها، هي في واقع الحال مجرّد كذب وحسب.

لقد حارب داود العمونيين أيضاً (اصحاح ١٠). وكانت الحرب قد اندلعت بين الطرفين بنتيجة طرفة قبيحة افتعلها الملك حنون. فبينما كان عدد من اليهود، عبيد داود، يتجوّل في أراضيه، قبض عليهم وحلق أنصاف لحاهم "وقصّ ثيابهم من الوسط إلى استاهم ثم أطلقهم" (٤). وليس ثمة حاجة للقول: ماذا حلّ بالعمونيين بعد ذلك.

الفصل الثالث والثلاثون

مغامرات داود الرومانسية

لقد ذكر لنا "الكتاب المقدس" لتوه، الأبناء الذين ولدوا لداود في أورشليم (٥ ، ١٥ ـ ١٦)، وكان بينهم سليمان. وكرّس الاصحاح الحادي عشر من كتاب الملوك الثاني للحديث عن ظروف ولادة هذا الولد. ففي أحد الأيام، بينما كان داود على شرفة قصره، رأى امرأة فاتنة وهي تستحم. وبصرف النظر عن قداسة هذا الديك، إلاّ أنه أحسّ بأن عليه ايلاج قضيبه المنتصب في فرجها دون أي تسويف.

"فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال احدهم: أليست هذه بثشبع بنت اليعام، امرأة أوريّا الحثي؟ وأرسل داود رسلاً وأخذها، فدخلت اليه وضاجعها وهي مطهرة من طمثها، ثم رجعت إلى بيتها. وحبلت المرأة، فأرسلت وأخبرت داود وقالت: اني حبلى. فأرسل داود إلى يوآب يقول: أرسل إليّ أوريّا الحثي، فأرسل يوآب أوريّا الى داود. فأتى أوريّا اليه وسألها داود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب، ونجاح الحرب. وقال داود لأوريّا: انزل إلى بيتك واغسل رجليك، فخرج أوريّا من بيت الملك، وخرج وراءه

طعام من عند الملك. فنام أوريّا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيّده، ولم ينزل إلى بيته. فأخبروا داود قائلين: لم ينزل أوريّا إلى بيته. فقال داود: أما جئت من السفر؟ فلماذا لم تنزل إلى بيتك؟ فقال أوريّا لداود: ان التابوت واسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام، وسيدي يوآب وعبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء، وأنا آتي إلى بيتي لآكل وأشرب وأضاجع امرأتي؟ وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر . فقال داود لأوريّا: أقم هنا اليوم أيضاً وغداً أطلقك. فأقام أوريّا في أورشليم ذلك اليوم وغده. ثم دعاه داود فأكل أمامه وشرب وأسكره. وخرج عند المساء ليضجع في مضجعه مع عبيد سيّده، وإلى بيته لم ينزل.

وفي الصباح كتب داود رسالة إلى يوآب وأرسلها بيد أوريّا. وقال داود في رسالته: اجعلوا أوريّا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت. وكان في محاصرة يوآب المدينة، انه جعل أوريّا في الموضع الذي علم أن رجال البأس فيه؛ فخرج رجال المدينة وحاربوا يوآب، وسقط بعض الشعب من عبيد داود ومات أوريّا الحثي. فأرسل يوآب وأخبر الملك عن جميع أمور الحرب. وأوصى الرسول قائلاً: عندما تفرغ من الكلام مع الملك عن جميع أمور الحرب، فان استعل غضبه وقال لك: لماذا دنوتم من المدينة للقتال؟ أما علمتهم أنهم يرمون من السور؟ من قتل أبيمالك؟ ألم ترمه امرأة بقطعة رحى من على السور فمات في ناباص؟ لماذا دنوتم من السور؟ فقل له: قد مات عبدك أوريّا الحثي أيضاً" (١١ ، ٣ ـ ٢١).

أدى الرسول مهمته بنجاح. "فقال داود للرسول: هكذا تقول ليوآب: لا يسوء في عينيك هذا الأمر، لأن السيف يأكل هذا وذاك، شدد قتالك على المدينة وأخربها. ولما سمعت امرأة أوريّا أنه قد مات أوريّا رجلها، ندبت

بعلها. ولما مضت المناحة أرسل داود وضمّها الى بيته وصارت له امرأة وولدت ابناً. وأمّا الأمر الذي فعله داود، فقد قبح في عينيّ الرب″ (١١ ، ٢٥ - ٢٧).

فأرسل العجوز يهوه النبي ناثان إلى داود ليقصّ عليه القصة التالية: كان لرجل غني كثرة لا عدّ لها من القطعان، ولما جاءه ضيف في أحد الأيام، استولى على شاه رجل فقير لا يملك غيرها وذبحها وقدم الطعام لضيفه. فثارت ثائرة داود على سلوك الرجل الغني. ولكن ناثان قاطعه قائلاً: ″أنت هو الرجل، هكذا قال الرب إله اسرائيل: أنا مسحتك ملكاً على اسرائيل وانقذتك من يد شاول وأعطيتك بيت سيّدك، ونساء سيّدك في حضنك، وأعطيتك بيت اسرائيل ويهوذا، وإن كان ذلك قليلاً أزيدك كذا وكذا، فلماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشرّ في عينيه؟ قد قتلت أوريّا الحثي بالسيف وأخذت امرأته لك امرأة واياه قتلت بسبب بني عمون...فقال داود لناثان: قد اخطأت إلى الرب؛ فقال له ناثان: والرب أيضاً قد نقل عنك خطيئتك ولن تموت. غير أنه من أجل أنك قد جعلت بهذا الأمر أعداء الرب يشتمون، فالأبن المولود لك يموت″ (١٢ ، ٧ - ٩ ، ١٣ - ١٤).

ثم مضى ناثان ينوء بعبء عظمته. ″وسأل داود الله من أجل الصبي، وصام داود صوماً، ودخل وبات مضجعاً على الأرض. فقام شيوخ بيته عليه ليقيموه عن الأرض، فلم يشأ، ولم يأكل معهم خبزاً. وفي اليوم السابع مات الولد...وعزّى داود بتشبع امرأته، ودخل اليها وضاجعها فولدت ابناً أسمه سليمان، والرب أحبه وأرسل ناثان النبي ودعا اسمه يديديّا (حبيب الله)، لمجد الرب″ (١٢ ، ١٦ - ١٨ ، ٢٤ - ٢٥).

انه والحق يقال، مشهد تعليمي نموذجي، ومثال يحتذى في السلوك

المستقيم. وقد لاحظ فولتير، أن الزوجة الخائنة لا تستطيع في مثل هذه الأحوال، أن تتزوّج عشيقها قاتل زوجها الشرعي، إلاّ اذا أفتى لها بذلك بابا روما، "صاحب العصمة". فللبابا وحده مثل هذه السلطة. لكن الذي لا ريب فيه، أن القاتل لا يستطيع أن يتزوّج أرملة ضحيته، عند أيّ شعب من الشعوب المتحضرة.

وهناك صعوبة أخرى تتخفى هنا وهي: اذا اعتبرنا زواج داود من بثشبع زواجاً غير شرعي، فهذا يعني بالضرورة أن يسوع المسيح حفيد شرعي لداود. واذا اعتبرناه حفيداً شرعياً، فان هذا يعني أننا ندوس القوانين البشرية والدينية بنعالنا. واذا كان زواج داود من بثشبع جريمة، فإن يسوع المسيح يكون قد خرج من أكثر الينابيع قذارة، لأن كتاب العهد الجديد يخرجه من ذرية سليمان.

ولكي يستطيع اللاهوتيون حل هذه المعضلة الشائكة، يلجؤون إلى توبة داود وندمه اللذين افتدى بهما "إثمه". ولكن توبته لم تستمر طويلاً اذ ضم زوجة ضحيته الى باقي نسائه، أي أنه زاد إلى جريمته وزراً ثقيلاً آخر. وأمام هذه الصعوبة الجديدة التي لم يستطع اللاهوتيون تجاوزها، لجؤوا كالعادة، إلى ضرورة الايمان الأعمى بارادة يهوه العصية على العقل البشري؛ فليهوه سرّ أو شأن،في مضاجعات داود، والحرام منها على وجه الخصوص.

والحقيقة أنه يصعب علينا كثيراً أن ندرك كنه الارادة الالهية في الحال المعطاة؛ فيهوه الذي أمات العجوز نابال كي يسهّل أوّل عملية عهر لداود، يحتدم غيظه فجأة عندما يقتل "مسيحه"، الحبيبُ أوريّا الحثي ليركب امرأته بثشبع. فهل كان على داود أن يطلب من يهوه قتل الحثي واعطاءه بثشبع دون عناء، كما كان قد أعطي ايبجايل قبل ذلك؟

ثم أظهر يهوه غضباً شديداًدلّ عليه أرساله النبي ناثان ليصب بعض التهديد على رأس داود. ولكن هذا لم يمنعه من مباركة زواج داود بأرملة ضحيته لأنه اكتشف في اللحظة نفسها ميله لسليمان الذي ستلده بثشبع لداود فيما بعد. أمّا إثم القاتل فقد انتقل إلى المولود له سفاحاً من بثشبع، أي أن يهوه أخرج داود من الماء غير مبلل بفضل هذه التركيبة الالهية. والحقيقة أن داود لم يعف تماماً. فقد أُعطي لان الطفل مات، ولكنه لم يعف لأن خطراً أحدق به وظلّ مقيماً حتى تحقق جزئياً، رقد تمثّل ذا الخطر في أن رجالاً آخرين سيركبون زوجاته وخليلاته أمام اسرائيل كلها.

في تلك الأثناء كان يوآب يحارب ربّه بني عمّون، فاستولى عليها. وجاء داود إلى هناك ليتسلّم المدينة. وأخذ داود تاج ملك ربّة من على رأسه، وكان في التاج ثالانت من الذهب مع حجر كريم، ثم وضعه على رأسه وأخذ من المدينة غنيمة كبيرة (١٢ ، ٣٠). وإذا علمنا أن التالانت يساوي ستة وثلاثين كيلو غراماً، لأدركنا عظمة قوة رأس ذلك الملك. ليس جليات وحده عملاقاً يا صديقي!

بعد أن انتصر ملك اسرائيل ويهوذا على العمونيين، أذاق أسراه ضروباً من التعذيب لا تخطر إلا لقاطع طريق مثل داود. كان أسراه هم، سكان ربّة الذين قتلوا له أوريّا الحثي وهيأوا له المناخ الضروري يتقلّب فوق عري بثشبع الحسناء. لقد منح يهوه داود نصف مغفرة، لكنه اختاره لينفّذ الانتقام الالهي من الذين عاونوه بغير قصد منهم، لأنهم كانوا في حال دفاع مشروع عن النفس. ولكن، اذا كان لابدّ من أن يدفع أحدهم ثمن ذلك السلوك الديني، فان ذلك الشخص هو، يوآب. "وآخرج الشعب الذي فيها وضعه تحت مناشير ونوارج حديد، وفؤوس حديد، ورماه في أتون الآجر. وهكذا صنع

بجميع مدن بني عمون. ثم رجع داود وجميع الشعب إلى أورشليم" (١٢ ، ٣١).

لا ينتابني أيّ شك في أن كلاً منا يتمنى أن تكون هذه البربرية مجرد خزعبلات لا تختلف عن كذبة التاج يزن ستة وثلاثين كيلو غراماً. فالتاريخ لا يعرف حتى الآن مثل هذه الوحشية المبتكرة، التي تتحدث التورات عنها بفخر واعتزاز.

يقول كالميت، العالم الكاثوليكي "الخارق": "يجب أن نفترض بأن داود التزم قوانين الحرب المعتادة في زمنه، لأن الكتاب المقدس لا يلوم داود في هذا كله، بل يعتبر سلوكه كله مستقيماً، ما عدا قصته مع أوريّا الحثي". ولكن هيوي[1] يجيبه قائلاً: "يمكن أن يكون هذا العذر مقبولاً في قصة النمور والفهود. لكن انساناً واحداً لن يستطيع ايجاد أيّ شكل من أشكال التبرير لمثل هذه الوحشية. ومن الجدير ذكره هنا، أن هذا الوحش هو، حبيب الله نفسه. وان كانت هذه القصة صحيحة أو مجرد اختلاق، فان مثل هذه المواعظ الدينية يجب تُذمّ وتُرمى. فما قولك في الذين أخذوا على عاتقهم مهمة اقناع الشعب بأن مثل هذه الوحشية تعتبر سلوكاً مجيداً ومحترماً؟".

وعلى وجه العموم، فانك، سيدي القارئ، تنتقل في سيرة داود من رعب إلى رعب. "وجرى بعد ذلك أنه كان لا بشالوم بن داود أخت جميلة اسمها ثامار، فأحبها أمنون بن داود. وحزن أمنون حتى المرض بسبب ثامار اخته، لأنها كانت عذراء، وعسر في عيني أمنون أن يفعل لها شيئاً. وكان لأمنون صاحب اسمه يوناداب بن شمعي أخي داود، وكان يوناداب رجلاً حكيماً جداً، فقال له: لماذا يا ابن الملك أنت ضعيف هكذا؟

ألا تخبرني؟ فقال له أمنون: اني أحب ثامار أخت أبشالوم أخي، فقال يوناداب: أضجع على سريرك وتمارض، واذا جاء أبوك ليراك فقل له: دع ثامار أختي تأتي وتطعمني خبزاً وتعمل أمامي طعاماً لأرى فآكل من يدها" (١٣، ١ ـ ٥).

لقد عرف التاريخ كثرة من حوادث سفاح القربى التي تماثل سفاح امنون. ونحن لا نعتقد على أيّ حال، بأن أحداها كانت نسخة طبق الأصل عن الأخرى، فقد كانت هذه الظاهرة منتشرة عند الشعوب القديمة كلها. ولكن ما يثير الدهشة في عملية اغتصاب أمنون لأخته هو، ان هذا الأخير صرّح عن شهوته الدنيئة لابن عمه يوناداب. وهذا يعني أنه عائلة داود مسيح الرب المقدس، كانت على درجة كبيرة من الانحلال الخلقي، اذ سعى واحد من أبنائه، الذي يستطيع أن يملك من القحبات ما شاء، إلى مضاجعة أخته سعياً لا مردّ له، وقد ساعده في ذلك ابن عمه.

وأخذ أمنون بنصيحة يوناداب، وسار كل شيء على ما يرام. فعندما جاء الملك ليعود ابنه المتمارض، سمع إلى طلبه وعدّه نزوة مريض بريئة لا يجوز رفضها، ولذلك أرسل ثامار ابنته لتعدّ لأخيها الوجبة التي أحبّ. "فذهبت ثامار إلى بيت أمنون أخيها، وهو مضجع. وأخذت العجين وعجنت وعملت كعكاً أمامه، وخبزت الكعك وأخذت المقلاة وسكبت أمامه، فأبى أن يأكل وقال: فليخرج الجميع من هنا؛ ثم قال لثامار ايتي بالطعام إلى المخدع فآكل من يدك، فأخذت ثامار الكعك الذي عملته وأتت به أمنون أخاها إلى المخدع وقدمت له ليأكل، فأمسكها وقال: اضجعي معي يا أختي، فقالت له: لا يا أخي، لا تذلني لأنه لا يفعل هكذا في اسرائيل؛ لا تعمل هذه القباحه، فأين أذهب أنا بعاري؟ وأمّا أنت فتكون كواحد من السفهاء

في اسرائيل، والآن كلّم الملك وهو لن يمنعني عنك. فلم يشأ أن يسمع لصوتها، بل تمكن منها وقهرها وضاجعها.

ثم أبغضها أمنون بغضة شديدة جداً، أشد من المحبة التي أحبها اياها.

فقال لها: قومي انطلقي، فقالت له: لا، ان طردك لي هو شرّ أعظم من الآخر الذي عملته بي. ولكنه لم يشأ أن يسمع لها، بل دعا غلامه الذي كان يخدمه وقال: اطرد هذه عني خارجاً واقفل الباب وراءها" (١٣ ، ٨ ـ ١٧).

والآن قارئي الكريم، ما رأيك؟ أليست طرفة موفقة بالنسبة للكتاب "المقدس" الذي نزل الله نفسه به؟

"فجعلت ثامار رماداً على رأسها، ومزّقت الثوب الملوّن الذي عليها، وضعت يدها على رأسها وكانت تذهب صارخة"[١٩].

وكانت ثامار أخت ابشالوم، وقد ولدتهما لداود زوجته الرابعة معكة. وأبشالوم هو، شخصية توراتية اشتهرت بفروة رأسه لقد كان شعره أطول من شعر شمشون وصموئيل. ولمّا علم بالذي وقع لأخته حاول أن يهدئها: "فقال لها أبشالوم أخوها: هل كان أمنون أخوك معك؟ ولكن عليك أن تسكتي الآن، انه أخوك، لا تعذبي قلبك بهذا الأمر"[٢٠].

ولكن ثامار لم تهدأ، على الرغم من هذه الكلمات "الطيبة". أمّا داود فقد غضب غضباً شديداً عندما أدرك قصد أمنون بوجبة ثامار الشهية، بيد أن ثورته سرعان ما هدأت، لأنه نفسه كان قد عرف مثل تلك الآثام.

"ولم يكلّم ابشالوم أمنون بشرّ ولا بخير، لأن أبشالوم أبغض أمنون لأنه أذلّ ثامار أخته"[٢٢]. وقد أخفى أبشالوم حقده الرهيب هذا على أمنون طيلة عامين. وبعد عامين كان يجزّ غنمه في بعل حاصور، فأقام وليمة كبيرة احتفالاً

بتلك المناسبة، دعى اليها اخوته كلهم، بمن فيهم أمنون الذي عبّ من الخمر أكثر من حاجته، وقتله رجال ابشالوم وهو ثمل. (٢٤ - ٢٩).

يقول فولتير: "لا ريب في ان فعلة أمنون كانت شنيعة وخسيسة، وقد زادها دناءة طرده لها بعد الذلّ الذي لحق بها. ولكن قتل الأخ لأخيه غدراً بعد دعوته إلى وليمة، هو أمر ليس أقل اجراماً".

أما أخوة أبشالوم الآخرون الذين شهدوا مقتل أخيهم أمنون، فقد امتطوا بغالهم وفرّوا عائدين إلى المدينة وكأن كلاً منهم خاف أن يحلّ به ما حلّ بأمنون. وما يجدر قوله، انها كانت المرة الأولى التي نصادف البغال فيها في التاريخ اليهودي. وقد أشار أحد اللاهوتيين الذين يعانون من هوس اضفاء الطابع الخارق على الأحداث العادية جداً: صديقنا القديم كالميت، أشار إلى أن "البغال في فلسطين ليست ثمرة سفاد الحمير واناث الخيل، بل تلدها اناث البغال من ذكورها"(!). وقد أثار هذا الخبر المفاجئ سخرية فولتير فأجاب: "يكرر كالميت هنا وجهة نظر أرسطو (٢)، بيد أنه كان من الأفضل له فيما لو استشار أحد العاملين في ميدان صناعة الحيوانات. ونحن نعرف أنه ارسطو أخطأ، وأخطأ معه أيضاً الأب المبجل كالميت. فليس ثمة عالم طبيعي واحد في أيامنا هذه، يعتقد بأن البغال تؤلّف نوعاً مستقلاً. ويستطيع الحمار أن ينجب من الفرس بغلاً، جيداً. وهنا تقف الطبيعة، فالبغل ليس مؤهلاً لانجاب نسل. والسؤال المطروح هو، لماذا منحته "العناية الالهية" جهازاً تناسلياً اذاً؟ فاللاهوتيون يؤكدون بأن هذه الاخيرة لا تفعل لا غاية له. ومع ذلك فإن من أكثر الأشياء عبثية في العالم هو، وجود خصيتين وقضيب عند البغل، وفرج عند أنثاه. فالجهاز التناسلي لدى هذا الحيوان لا يختلف من حيث أهميته، عن وجود حلمتين على صدر الرجل".

بكى داود ابنه امنون طويلاً، ولم يخف غضبه على أبشألوم القاتل. ولذلك هجر هذا الأخير مملكة أبيه وجاء إلى مملكة جشور، حيث الملك فيها جدّه والد أمه؛ وأقام فيها ثلاث سنوات. ثم لجأ يوآب إلى الحيلة كي يعيده إلى أورشليم، وقد تسنى له ذلك. ولكن داود لم يرغب في أن يرى وجه ابنه.

"ولم يكن في كل اسرائيل رجل جميل وممدوح جداً كابشالوم، من باطن قدمه حتى هامته، لم يكن فيه عيب. وعندما كان يحلق رأسه، وكان يفعل هذا مرّة كل عام، كان شعر رأسه يزن مائتي شاقل بوزن الملك. وولد لابشالوم ثلاثة بنين وبنت واحدة أسمها ثامار، وكانت امرأة جميلة المنظر (تزوجها ربعام بن سليمان وولدت له ابيّا).

وأقام ابشالوم في أورشليم سنتين، ولم ير وجه الملك. فأرسل ابشالوم إلى يوآب ليرسله إلى الملك، فلم يشأ أن يأتي اليه، ثم أرسل ثانية، فلم يشأ أن يأتي. فقال لعبيده: انظروا حقل يوآب بجانب حقلي وله فيه شعير، اذهبوا واحرقوه بالنار. فأحرق عبيد ابشالوم الحقل بالنار.

فقام يوآب وجاء إلى ابشالوم إلى البيت وقال له: لماذا أحرق عبيدك حقلي بالنار؟ فقال ابشالوم ليوآب: لقد أرسلت اليك قائلاً: تعال إلى هنا فأرسلك إلى الملك لتقول له: لماذا جئت من جشور؟ خير لي لو بقيت هناك. والآن أريد أن أرى وجه الملك، وان وجد فيّ اثماً فليقتلني. فجاء يوآب إلى الملك وأخبره. ودعا الملك ابشالوم فأتى اليه وسجد على وجهه إلى الأرض قدام الملك، فقبّل الملك ابشالوم" (١٤ ، ٢٥ ـ ٣٣).

على الرغم من أن سلوك ابشالوم مع يوآب أقل بشاعة من تصرفاته الأخرى، إلاّ أنه سلوك شاذ مشوّه، ونحن لن نقع إلاّ في التورات، على من

يحرق حقل قائد الجيش ورئيس الوزراء ليدعوه إلى حديث وحسب، انها لطريقة غريبة حقاً!

"وبعد ذلك اتخذ ابشالوم مركبة وخيلاً وخمسين رجلاً يجرّون قدامه" (١٥ ، ١). ثم سعى، بحث عن قاعدة شعبية يستند اليها، فوعد الناس باقامة قضاء عادل، وفي نهاية المطاف "استرق ابشالوم قلوب رجال اسرائيل" (٦). وبعد أربعين عاماً قال أبشالوم لداود: "دعني أذهب وأفي نذري الذي نزرته للرب في حبرون، لأن عبدك نذر، نذراً عند سكناي في جشور...فقال له الملك: اذهب بسلام، فقام وذهب إلى جبرون. وارسل أبشالوم جواسيس في جميع اسباط اسرائيل قائلاً: اذا سمعتم صوت البوق فقولوا: قد ملك ابشالوم في حبرون. وانطلق مع ابشالوم مائتا رجل من أورشليم دعوا وذهبوا ببساطة، ولم يكونوا يعلمون شيئاً" (٧ - ١١).

عندئذٍ قال داو لعبيده، الذين كانوا معه في اورشليم: "قوموا بنا نهرب، لأنه ليس لنا نجاة من وجه أبشالوم؛ اسرعوا للذهاب لئلاّ يدركنا بنا الشرّ، ويضرب المدينة بحد السيف. فقالٌ عبيد الملك: حسب كل ما يختاره سيدنا الملك ، نحن عبيده. فخرج الملك وجميع بيته وراءه، وترك الملك عشر نساء سراري لحفظ البيت وخرج الملك وكل الشعب في إثره، ووقفوا عند البيت الأبعد. وجميع عبيده كانوا يعبرون بين يديه مع جميع الجلادين والسعاة وجميع الجتيين، ست مائة رجل أتوا وراءه من جتّ، وكانوا يعبرون بين يدي الملك" (١٥ ، ١٤ - ١٨).

يروي اللورد بولينغبروك، انه بينما كان أحد الكهنة يقرأ هذا المقطع التوراتي لاحد الجنرالات الانكليز، انتزع الجنرال الكتاب من يد الكاهن وقذف به بعيداً وقال:

ـ ألف صاعقة تنزل على رأس داودك الجبان هذا! أيهرب ومعه لواء كامل من المقاتلين؟ لو كنت مكانه لسرت بالاتجاه المعاكس وطاردت ذلك الابشاوم حتى أدركه فاعلّقه كأيّ كلب أجرب!

"ولما جاء داود إلى بحوري، اذا برجل خارج من هناك، من عشيرة بيت شاول، واسمه شمعي بن جيرا، وكان يسبّ ويرشق داود وجميع عبيده، وجميع الشعب، وجميع الجبابرة عن يمينه وعن يساره. وكان شمعي يقول في سبّه: اخرج، اخرج يارجل الدماء،ورجل بليعال... وبينما كان داود يسير مع رجاله في الطريق، كان شمعي يسير في جانب الجبل مقابله ويسبّه ويرشق بالحجارة ويذري التراب" (١٦ ، ٥ ـ ٧ ـ ١٣).

يشير النقاد بصدد هذه القصة الى أنه، لو كان المؤلف شخصاً عادياً لساق لنا بعض تفاصيل عصيان أبشالوم مثل: ما هي القوات التي سارت خلفه؟ لماذا فرّ داود هارباً من أورشليم قبل أن يصلها أبشالوم؟ وهل يعقل أن يفرّ الملك داود من مدينته كطفل باك دون أن يبدي أيّ مقاومة، وهو الرجل الصارم الذي نشر أجساد خصومه، وطحنها تحت المرج، والقى بها في أتون الآجر؟ وهل كانت أورشليم محصنة أم لا؟ أمّا قصة ذلك الشمعي الذي كان يقذف الملك بالحجارة ويذرّ التراب في وجهه، بينما الملك محاطاً بجيش مسلّح، ومعه سكان أورشليم كلهم، فهي أيضاً واحدة من كذبات "الروح القدس" الكثيرة. وتسأل نفسك مرّة أخرى: أليس هذا حلم؟ انك تقرأ هذا الكم من الكذب كله في كتاب ديني أنت مرغم على أن تؤمن بصدق كل كلمة فيه تحت طائلة السقوط في حلّة من الزيت الذي يغلي فوق نار سيّد جهنم.

"وأمّا ابشالوم وجميع شعب اسرائيل، فقد اتوا إلى أورشليم ومعهم

أخيتوفل...وقل أخيتوفل لابشالوم: ادخل إلى سراري أبيك اللواتي تركهن لحفظ البيت، فيسمع كل اسرائيل انك قد صرت مكروهاً من أبيك فتشدد أيدي جميع الذين معك. فنصبوا لأبشالوم الخيمة على السطح، ودخل إلى سراري أبيه أمام جميع اسرائيل" (١٦ ، ١٥ ، ٢١ ـ ٢٢). ولكن النقّاد لا يرون في مضاجعة سراري الملك علانية، الخطوة الصحيحة لكسب تأييد الناس. وهم لا يصدقون أيضاً أنه كانت لابشالوم القدرة ـ مهما كان فتياً ـ على مضاجعة قحبات أبيه العشر أمام سكان أورشليم كلهم، واحدة اثر الأخرى دون توقف. ومن الواضح تماماً هنا، أن المؤلف "المقدس" كان يحب كثيراً الغوص في القصص الجنسية القذرة وهو يضع أسس الدين المسيحي. فبعد أن ركب أمنون اخته وفضّ بكارتها، اتحفنا "الروح القدس" بصورة أخرى للسفاح، ضحيته هذه المرة عشرة فروج تبتلّ أمام جمع غفير من المشاهدين. وهكذا نلغي أنفسنا ونحن نقرأ التورات، اننا لا نكاد نخرج من قذارة حتى نقاد إلى أخرى أشد انحطاطاً.

ثم أسد اخيتوفل نصيحة أخرى إلى ابشالوم، فأشار عليه أن ينتخب اثني عشر ألف مقاتل ويطارد داود. ولكن المدعو حوشاي أشار عليه بأن يدعو اسرائيل كلها، من دان إلى بئر سبع. فأخذ أبشالوم برأي حوشاي ورفض رأي اخيتوفل. الأمر الذي دفع هذا الأخير إلى الانتحار.

وأخيراً هُزم المتمردون في غابة افرايم، حيث قتل العشرون ألف جندي الذين وقفوا مع أبشالوم، بسيوف رجال داود الذين قادهم يوآب. وأثناء فراره علق ابشالوم في بطمة، ومرّ البغل الذي كان يمتطيه. فرماه يوآب بثلاثة سهام نفذت كلها عبر صدره. وعندما سمع داود بمقتل ابشالوم، فتاه الجميل، بكاه بكاء مرّاً وهو يردد: "يا ابن أبشالوم! يا ابني أبشالوم!".

وهكذا عاد داود إلى عاصمته. وعفا عن شمعي الذي كان قذفه بالحجارة، وتلا عصيان أبشالوم عصيان آخر قاده المدعو شبع، ولكنه سحق في مهده، واحتزّ الناس رأس شبع وجاؤوا به إلى يوآب. وأخيراً كان هناك "قائد" منحه أبشالوم رتبة "جنرال"، ويدعى عمّاسا. فاقترب يوآب منه متظاهراً بأنه يريد مصافحته، ثم استلّ سيفه وطعنه في بطنه فقتله. "فقال يوآب لعماسا: أسالم أنت يا أخي؟ وأمسكت يد يوآب اليمني بلحية عماسا ليقبله، ولم يحترز عماسا من السيف الذي بيد يوآب، فضربه به في بطنه، ودلق أمعاءه إلى الأرض، ولم يثّن عليه فمات" (٢٠ ، ٩ ـ ١٠).

الفصل الرابع والثلاثون

آخر أيام داود المقدس

وكان جوع في أيام داود، ثلاث سنين، سنة بعد سنة، فطلب داود وجه الرب. فقال الرب: ان هذا بسبب شاول والبيت المتعطش إلى الدماء، لأنه قتل الجبعونيين. فدعا الملك الجبعونيين وتحدث اليهم. والجبعونيون ليسوا من بني اسرائيل، بل من بقايا الأموريين، وقد حلف لهم اسرائيل وطلب شاول قتلهم لغيرته على بني اسرائيل ويهوذا.

قال داود للجبعونيين: ماذا أفعل لكم، وبماذا أكفّر فتباركوا نصيب الرب؟ فقال له الجبعونيون: لا نريد فضة ولا ذهباً من شاول وبيته، ولا نريد أن نميت أحداً في اسرائيل. فقال: مهما قلتم أفعله لكم. فقالوا للملك: الرجل الذي أفنانا، والذي تآمر علينا ليبيدنا كي لا نقيم في كل تخوم اسرائيل، فلنعط سبعة من بنيه لنصلبهم للرب في جبعة شاول مختار الرب. فقال الملك: أنا أعطي.

وأشفق الملك على مفيبوشث بن يوناثان بن شاول، من أجل يمين الرب الذي بينهما. فأخذ الملك ابني رصفة ابنة أيّة اللذين ولدتهما لشاول، ارموني

ومغيبوشث، وبني ميكال ابنه شاول الخمسة الذين ولدتهم لعدرئيل بن برزلاي المحولي، وسلمهم إلى يد الجبعونيين فصلبوهم على الجبل أمام الرب، فسقط السبعة معاً وقتلوا في أيام الحصار، في أولها، في ابتداء حصاد الشعير (٢١ ، ١ - ٩).

يمثّل هذا المقطع صعوبة خاصة بالنسبة لعلماء اللاهوت ورجال الكنيسة. فليس في قصة شاول كلها اشارة واحدة إلى أنه أساء معاملة الجبعونيين. فقد كان صموئيل يقرّعه دائماً لطيبة تعامله مع الشعوب المجاورة. ونحن لم ننس بعد، أن النبي عزل شاول لأنه لم يقض على بعض القبائل التي كانت تعي في تلك الأرض: العمالقة، الأموريون، الآدوميون وغيرهم. أضف إلى هذا أن شاول نفسه من جبعة، وكان طبيعياً أن يرأف بأهل مدينته، ولو أنه أباد سكان جبعة غير اليهود، لما ترددت التورات في تسجيل مثل تلك البطولة في سفر أمجاد اسرائيل.

اذاً، المجزرة التي أقامها داود في أبناء شاول، ليست أكثر من اجراء احترازي اتخذه الملك ليتخلص من آخر أحفاد خصمه على العرش. ولكن المشهد ابتعد عن الحقيقة بعد أن وقع المؤلف في البلبلة. فميكال لم تكن زوجة عدرائيل قط، بل زوجة هذا الأخير هي، ميرب ابنة شاول الكبرى (ملوك أول ١ ، ١٨ ، ١٩)، أمّا ميكال فقد زوّجها شاول لفلطي بن لايش بعد أن خانها داود وتزوّج ابيجايل واخينوعم ٩٢٥ ، ٤٤). وفيما بعد انتزعها داود من فلطي (ملوك ثاني ٣ ، ١٣ - ١٦). وربما قصد المؤلف "المقدس" هنا إلى أبناء ميكال التي قد تكون انجبتهم من غير داود. ومع ذلك فالخلط بين الأسماء مرفوض مهما كان بسيطاً، لأن "الروح القدس" نفسه ملهم المؤلّف.

أما بخصوص الجوع الذي أنهك البلاد على امتداد سنوات ثلاث، فمن المفيد أن نذكر، أن شح للمواسم كان ظاهرة معتادة في أرض كنعانيين. وقد تحدثت الكتب "المقدسة" نفسها عن الجوع في فلسطين غير مرة. وسنرى لاحقاً أن الجوع حط رحاله مراراً في تلك البلاد الحزينة التي تكثر فيها الأراضي الحجرية، وتقل فيها النباتات المفيدة.

وتزداد دهشتنا عندما نعلم أن يهوه نفسه قال لداود: انه أرسل المجاعة لأن شاول كان قد اتخذ في زمن ما، موقفاً عدائياً تجاه شعب ليس "شعب يهوه". وعلينا أن نقرّ هنا مع النقاد جميعهم بأن هذه الجريمة هي، من أكثر الجرائم التي ارتكبها داود بشاعة وخسّة ودناءة. ولا يجوز لأحد أن يبادر إلى محاولة تبريرها. انها نذالة محاطة بكمّ كبير من القذارة، ولن يسلم من لطخاتها كل من يقترب منها. فليس ثمة ما هو أكثر لا أخلاقية من أن يأمر داود بقتل اثنين من أبناء شاول غير الشرعيين، أي لا يحق لهما في أيّ زمان ومكان أن يطالبا بعرش أبيهما، أو حتى بتركته. وبما أنه نفسه عاد إلى ميكال، فليس ثمة سلوك أكثر وحشية من تسليم أبنائها الخمسة إلى الجلادين. ويضاف إلى خسّة هذا السلوك وشناعته، كمّ لا بأس به من الغباء: لقد سلّم داود سبعة من أبناء جلدته إلى شعب غريب ضعيف لا يمثّل أيّ درجة من درجات الخطر على داود الرهيب الذي سحق أعداءه كلهم. ويرى النقاد، أن سلوك داود هذا لا يتسم بالبربرية التي تثير اشمئزاز المتوحش وحسب، بل ويتسم بنذالة قد يأنف تلطيخ اسمه بها كبير الانذال والسفلة. ويضيف داود إلى خسته هذه جريمة أخرى، هي الحنث باليمين الذي كان كان قد أقسمه لشاول بألاّ يقتل أحداً من ذريته (ملوك أول ٢٤ ، ٢٢ ـ ٢٣). ويقول اللاهوتيون في معرض تبريرهم لحنث داود بالقسم، أنه لم يقتل ولدي رصفة وأبناء ميكال بيديه، بل سلّمهم للجبعونيين. بيد أن

هذا التبرير لا يقل خسّة عن فعلة داود نفسها، وهو إن دلّ على شيء فانما يدل على وحشية رجال الدين وتعفنهم ولا أخلاقيتهم. وحيثما التفتّ فلن تجد في هذه القصة "المقدسة" سوى ركام من جرائم "مسيح الرب المقدس" وغدره في الاصحاح الثاني والعشرين نشيد من أناشيد داود، وفي الذي يليه، نشيد آخر. ونقع هنا على عدد من مناقب أصدقاء الملك. "وبناياهو بن يهوداع رجل ذو بأس، عظيم الأفعال، وهو من قبصئيل؛ قتل ولديّ اريئيل الموآب، وهو الذي نزل وقتل الأسد في وسط الجب، يوم الثلج؛ وهو الذي قتل رجلاً مصرياً ذا منظر، وكان بيد المصري رمح، فنزل إليه بعصا وخطف الرمح من يده وقتله به: هذا ما فعله بناياهو بن يهوداع، فكان له مجد" (ملوك ثاني ٢٣ ، ٢٠ ـ ٢٢).

انه لمن دواعي الأسف أن ينسى مؤلف التورات تحديد المكان الذي وقعت فيه مغامرة بناياهو الفريدة مع الأسد الذي قتل في الثلج، فالثلج نادر جداً في البلدان التي تعيش الأسود فيها، وحسناً فعل بناياهو لما أسرع وقتل الأسد، قبل أن يذوب الثلج تحت أشعة الشمس.

في تلك الأثناء خطر لداود ـ بالهام يهوه بالطبع ـ أن يجري احصاء لمعرفة عدد السكان في اسرائيل ويهوذا، وقد انتهى هذا العمل المملّ في غضون تسعة أشهر و عشرين يوماً (٢٤ ، ١ ـ ٨).

"فدفع يوآب لائحة عدد الشعب إلى الملك، وكان اسرائيل ثمان مائة ألف رجل ذي بأس مثل السيف، ورجال يهوذا خمس مائة ألف رجل (٩). ولكن ما أن انتهى التعداد حت أدرك داود، أن العملية كلها كانت تمثّل إثماً كبيراًاقترفه هو نفسه، إلاّ أن التورات لا تقول لنا، لماذا جرّ الاحصاء غضب يهوه على الملك؟ فقد أكّدت بأن غضب العجوز كان عظيماًجداً.

"وكان كلام الرب إلى جاد النبي، رائي داود، قائلاً: اذهب وقل لداود: هكذا يقول الرب لك: اعرض عليك ثلاث عقوبات فاختر لنفسك واحدة منها، فانزلها بك. فأتى جاد إلى داود وأخبره وقال له: أتأتي عليك سبع سني جوع في أرضك، أم تهرب ثلاثة أشهر أمام أعدائك وهم يتبعونك، أم تكون ثلاثة أيام وباء في أرضك؟ والآن اعرف وانظر ماذا أردّ جواباً لمرسلي". (٢٤ ، ١١ - ١٣).

ثمة عدد من الملاحظات يدفع بنفسه هنا. أولاً، يقول النص التوراتي نفسه: ان "غضب الرب حمى على اسرائيل فاهاج عليهم داود قائلاً: امض واحص اسرائيل يهوذا" و لكن ثورة هذا العجوز الخرف مالبثت ان اندلعت عاتية لينزل بشعبه المختار عقوبة صارمة، لأنه نفذّ المهمة التي أرغم هو نفسه داود عليها. وبهذا يقدم لنا "الكتاب المقدس" يهوه عدوّاً لدوداً للجنس البشري.

ثانياً، في الأسفار الخمسة[1] أمر يهوه نفسه باجراء الاحصاء ثلاث مرات.

ثالثاً، ليس ثمة اجراء أكثر فائدة وعقلانية من الاحصاء الدقيق لعدد السكان: لقد كان سلوك داود هذا سلوك رجل متبصر حكيم، إضافة إلى كونه سلوكاً مقدساً موحى به من فوق من لدن يهوه.

رابعاً، يسخر النقاد كلهم من تأكيد التورات على وجود مليون وثلاث مائة ألف مقاتل عند داود في بلاده الصغيرة. وإذا اعتبرنا أن الجنود يؤلفون خمس عدد السكان فقط، فهذا يعني أن عدد اليهود وحدهم كان في فلسطين ستة ملايين ونصف المليون نسمة، وكان يعيش في تلك البلاد إضافة إلى اليهود، الكنعانيون والفلسطينيون.

خامساً، في سفر أخبار الايام الاول، الذي يؤلف جزءاً لا يتجزأ من أسفار التورات القانونية، وغالباً ما يناقض مؤلفات "الوحي الهي" الاخرى؛ يبلغ عدد الجنود اليهود، وبموجب هذا الاحصاء نفسه، مليوناً واحداً وخمس مائة ألف وسبعين رجلاً (اخبار الايام الاول ٢١ ، ٥)؛ وهذا يرفع عدد السكان اليهود إلى رقم آخر غير معقول.

سادساً، يرى النقاد في ارسال "النبي" جاد إلى "النبي" داود ليختار احدى العقوبات الثلاث، عملاً صبيانياً لايليق بالعظمة الالهية. ويرون في هذه الوحشية الالهية شكلاً من أشكال التهكم والسخرية يجب ألاّ يكون له مكان في كتاب يظهر الله[٢] على صفحة من صفحاته.

لنر الآن إلى العقوبة التي وقع الاختيار الملك عليها. "فقال داود لجاد: قد ضاق بي الامر جداً. فلنسقط في يد الرب لأن مراحمه كثيرة،ولا أسقط في يد إنسان. فجعل الرب وباء في اسرائيل من الصباح إلى الميعاد، فمات من الشعب، من دان إلى بئر السبع، سبعون ألفاً.

وبسط الملاك يده على اورشليم ليهلكها، فندم الرب عن الشرّ وقال للملاك المهلك للشعب: كفى، الآن ردّ يدك. وكان ملاك الرب عند بيدر أرونة اليبوسي. فكلّم داود الرب عندما رأى الملاك الضارب الشعب وقال: ها أنا اخطأت ، وأنا أذنبت، وأما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا؟ فلتكن يدك عليّ وعلى بيت أبي. وجاء جاد في ذلك اليوم إلى داود وقال له: اصعد واقم للرب مذبحاً في بيدر أرونة اليبوسي" (٢٤ ، ١٤ - ١٨).

فاذعن داود للأمر الصادر إليه. وأعدّ أرونة كل ما هو ضروري للذبيحة، "وبنى داود هناك مذبحاً للرب واصعد محرقات وذبائح، واستجاب الرب من أجل الأرض، فكفت الضربة عن اسرائيل" (٢٥).

لنعد الآن إلى ملاحظات الشارحين من ابتاع مذهب الشك. فمن وجهة نظرهم، أن الوباء الذي حصد سبعين ألف حبيب من أحباء يهوه خلال ثلاثة أيام، هو عقوبة غير مفهومة. ويبدو مبرر تلك العقوبة أقل قبولاً إذا تذكرنا أنها حلّت بسبب سلوك رجل واحد هو الملك دواد، أمّا فعلة داود الشنعاء فتتلخص في أنه اتخذ اجراء ملكياً حكيماً أمره به يهوه نفسه.

بهذا الوباء ينتهي سفر الملوك الثاني، ويبدأ سفر الملوك الثالث بوصف لآخر أيام داود، وينتهي عندما سيق اليهود أسرى إلى بابل. وقد نسب التلمود كتابة هذا السفر إلى النبي أرميا، وأقرّ أكثر زعماء الدين اليهودي ورجال الكنيسة المسيحية الأوائل هذا الرأي، وهناك من يدافع الآن عنه أيضاً. ولكن من اللاهوتيين من يظن بان مؤلّف هذا السفر هو، باروخ تلميذ أرميا، بيد أن اليهود والمسيحيين على السواء يعتقدون بان المؤلف الحقيقي له هو، الله، ونحن سنقف عند هذه الوجهة النظر بالذات، لنحاول أن نكشف عن الثمار الالهية التي قدمها الله في كتاب التورات ، ونجمع البذار المثمر الذي يسقط من تلك الثمار تحت ضربات الفكر العقلاني المتحرر.

"وشاخ الملك داود، تقدّم في الأيام، وكانوا يدثرونه بالثياب فلم يدفأ. فقال له عبيده: ليبحثوا لسيدنا الملك عن فتاة عذراء ولتقف أمام الملك ولتكن حاضنة له وتضجع في حضنك فيدفأ سيدنا الملك، فبحثوا عن فتاة جميلة في جميع تخوم اسرائيل، فوجدوا أبيشج الشونمية فجاؤوا بها إلى الملك. وكانت الفتاة جميلة جداً، فكانت حاضنة الملك وكانت تخدمه، ولكنه لم يعرفها" (ملوك ثالث ١ ، ١ ـ ٤).

ألست معي قارئي الكريم، في أن هذا الغطاء الانثوي الناعم الدافىء الغض يزيد مخيلة "الروح القدس" شرفاً؟ لقد أكّد كالميت، الذي آمن إيماناً

أعمى بما في التورات على أنه كانت للحسناء قدرة كبيرة على بعث الحياة في جسد انسان بالغ السبعين من عمره. ويقول هذا العالم الكاهن في معرض تأكيده على صحة الرواية المقدسة، ان طبيباً يهودياً نصح الامبراطور فريدريك برباروسيا بالنوم مع فتيان يافعين ملقياً اياهم عراة فوق صدره. بيد أن أحداً لن يستطيع حمل فتى فوق صدره طول الليل. ولذلك يضيف كالميت، أنهم استخدموا للأغراض نفسها كلاباً صغيرة الحجم.

ولكن سليمان بن داود لم يكن له رأي التورات القائل: ان داود استدفأ بالفتاة و حسب، وسنرى أن سليمان هذا قتل أخاه أدونيا لأنه طلب أن يتزوّج الحسناء أبيشج، الامر الذي عدّه سليمان رغبة بالزواج من أرملة الملك أو خليلته.

وأدونيا هو، ابن حجيث التي تزوّجها داود قبل بتشبع أم سليمان. وبعد مقتل أبشالوم غدا أدونيا هو الابن الاكبر عند داود، ولذلك اعتبر نفسه الوريث الشرعي لتاج داود لكن متآمرين من أفراح الحاشية وضعوا التاج فوق رأس ابن بتشبع، بعد أن نشب نزاع علني بين الاميرين الاخوين قبل وفاة داود.

"ثم ان ادونيا ابن حجيث ترفّع قائلاً: أنا ملك. وعدّ لنفسه عجلات وفرساناً وخمسين رجلاً يجرون أمامه، ولم يغضبه أبوه قط،ولم يقل له: لماذا فعلت هذا؟ وهو أيضاً جميل الصورة جداً، وقد ولدته أمه بعد ابيشالوم، وكان كلامه مع يوآب ابن صرويه، ومع أبياثار الكاهن، فاعانا ادونيا. وأمّا صادوق الكاهن ، وبناياهو بن يهوداع، وناثان النبي، وشمعي، وريعي والجبابرة الذين لداود، فلم يكونوا مع ادونيا. فذبح ادونيا غنماً وبقراً ومعلوفات عند حجر الزاحفة الذي بجانب عين روجل، ودعا جميع أخوته

بني الملك، وجميع رجال يهوذا عبيد الملك. وأما ناثان النبي، وبناياهو، والجبابرة وسليمان أخوه، فلم يدعهم.

فقال ناثان لبشبع أم سليمان: أما سمعت أن ادونيا ابن حجيث قد ملك وسيدنا داود لا يعلم؟ فالآن تعالي أشير عليك مشورة فتنجّي نفسك ونفس ابنك سليمان اذهبي وادخلي إلى الملك داود وقولي له: أما حلفت أنت يا سيدي الملك لأمتك قائلاً: ان سليمان ابنك يملك بعدي، وهو يجلس على كرسي؟ فلماذا ملك أدونيا؟ وفيما أنت تتكلمين هناك مع الملك، ادخل أنا وراءك وأكمل كلامك" (١ ، ٥ - ١٤).

إذا تذكرنا أن ادونيا لم يعلن نفسه ملكاً، بل كان يزاحم على المستقبل وحسب، وقد كان له مناصروه، كما كان يفعل سليمان نفسه، عندئذٍ نستطيع القول: ان النبي ناثان كان كذاباً كبيراً ودساساً محترفاً؛ فقد نظمّ مع بشبع، الارملة القحبة زوجة المقتول اوريا الحثي، مؤامرة محبوكة جيداً هدفها انتزاع التاج من وريثه الشرعي. وقد لجأ الاثنان إلى الكذب لبلوغ غايتهما، ولكن، إذا كانت بشبع مجرد قحبة عفنه،فان ناثان نبي، رجل مقدس!.

وربما لم يكن نظام وراثة العرش قد استقر عند اليهود نهائياً، بيد أنه كان من الطبيعي أن يرث ادونيا والده كونه الابن الاكبر، خاصة وأنه ليس ابن خليله الملك، وليس ابن امرأة غريبة كما هي حال سليمان وقد اعترفت بحق ادونيا هذا أهم شخصيتان في المملكة قائد الجيش ورئيس الكهنة. ولذلك فان داود الهرم لم يجعل سليمان ملكاً إلاّ ارضاء لبشبع، لأنه صدّق كذبها وكذب ناثان.

"وقال دواد الملك: ادع لي صادوق الكاهن وناثان النبي وبناياهو بن

يهوداع. فدخلوا إلى امام الملك: فقال لهم الملك: خذوا عبيد سيدّكم واركبوا سليمان النبي على البغلة التي لي وانزلوا به إلى جيحون وليمسحه هناك صادوق الكاهن وناثان النبي ملكاً على اسرائيل،واضربوا بالبوق وقولوا: ليحيى الملك سليمان" (١ ، ٢٣ - ٣٤).

وأخيراً جاءت ساعة داود الأخيرة، فدعا إليه سليمان ابن بثشبع وقال له وهو على فراش الموت: "وأنت ايضاً تعلم ما فعل بي يوآب ابن صروية... وكيف... سفك دم الحرب في الصلح، وجعل دم الحرب في منطقته على حقويه وفي نعليه اللتين برجليه: فافعل حسب حكمتك وتدع شيبته تنحدر بسلام إلى الهاوية" (٢ ، ٥ - ٦). " وهوذا عندك شمعي بن جيرا البنيامين من بحوريم هو لعنني لعنة شديدة يوم انطلقت إلى محنايم، وقد نزل للقائي إلى الاردن فحلفت له بالرب وقلت: لا اميتك بالسيف والآن لا تتركه دون عقاب، لأنك أنت رجل حكيم، فاعلم ما تفعل واحدر شيبته إلى الهاوية.

واضجع داود مع آبائه ودفن في مدينة داود. وكان الزمان الذي ملك فيه على اسرائيل أربعين سنة: في حبرون ملك سبع سنين، وفي اورشليم ملك ثلاثاً وثلاثين سنة" (٢ ، ٨ - ١١).

لقد مات داود كما عاش، ندلاً خسيساً قاتلاً وحسب. فقد أظهر غدراً يثير الاشمئزاز لما أوصى بقتل قائد جيوشه يوآب. أكثر خدمه اخلاصاً على امتداد أربعين عاماً؛ إنه القائد الذي يدين له مسيح الرب هذا بالتاج الذي اقام فوق رأسه تلك السنين كلها. كما حنث بقسمه وهو على فراش الموت،بوقاحة لا مثيل لها عندما أوصى بقتل شمعي الذي تظاهر بانه عفا عنه ليظهر بمظهر الملك الكبير القلب، ووعده بالاّ يتعرض لحياته. قصارى القول، ان داود بقي وغداً فغادراً حتى آخر نسمة في حياته.

بيد أن الكنيسة تبرر سلوك داود، وقد جاء تبريرها هذا على لسان أكثر رجالاتها غيرة وتزمتاً، إنه كالميت نفسه. فقد قال هذا الكاهن: "الحقيقة أن دواد أفاد من خدمات يوآب افاده عظيمة، والصفح الذي منحه إياه طيلة تلك الفترة هو مكافأته على اخلاصه الثابت؛ لكن ذلك كله لم يعف داود من ضرورة معاقبة الجريمة ومحاكمة يوآب".

غير أن هذا الاب ينسى على الراجح، أن جريمة يوآب الكبرى وقعت عندما أذعن لأمر داود وقتل اوريا الحثي بسيوف الخصم. ومع ذلك تبرىء الكنيسة ساحة داود وتدين يوآب.

ثم يضيف كالميت: "ومن جهة أخرى لم تكن لدى سليمان دواعي العرفان ليوآب كما كانت لديه دوافعه الخاصة لقتله، فقد كان هذا الاخير من انصار ادونيا".

وهكذا تنتهي هذه المحاكمة السفيهة بمنح داود لقب "المقدس" وسليمان لقب "الحكيم" إنها ارادة الرب المقدسة! وما يدعو للاعتزاز أن الكنيسة المسيحية تصرّ على مسألة خروج مسيحها ابن مريم، من نسل داود وسليمان[٣] وكنا قد صادفنا عدداً آخر من الشخصيات المشبوهة في سلسلة نسب يسوع الناصري. ولكن، ألا يُعدّ هذا الملكان الأكثر قذارة بين أجداد يسوع؟

لو حاولت كنيسة ابن مريم مجرّد محاولة لايجاد بعض الظروف المخففة! ولكن شيئاً من هذا لم يحصل، بل دافعت عن جرائم داود كلها وجعلت منها جداً محترماً مبجلاً" انه ملك نموذجي يحتذى به، وهذا ما يجمع عليه اللاهوتيون جميعهم. فقد أعلنوه قديساً بين القديسين؛ وهم يترنمون "بمزاميره" السطحية السخيفة في كنائسهم. علاوة على هذا كله، أعلنته الكنيسة تجسيداً بشرياً ليسوع، أي أنه الاله الابن، العضو الثاني في "الثالوت المقدس".

الفصل الخامس والثلاثون

عهد صاحب الجلالة سليمان الحكيم

"وجلس سليمان على كرسي داود أبيه، وكان ملكه راسخاً جداً" (٢ ، ١٢) وبما أننا أصبحنا نعرف مستوى الاخلاق التوراتية معرفة جيدة، فلا حاجة بنا للقول، ان أول عمل قام به سليمان هو، أنه تخلّص من ادونيا ومن كل من أراد أن يرى التاج فوق رأسه، والحقيقة أن ادونيا كان قد ودع حلم الجلوس على عرش داود، وأدرك منذ وقت أن حلمه هذا انتهى، ولذلك فان كل ما أراده من تركة داود، فتاة صغيرة جميلة جاؤوا بها في وقت ما لتدفأ عظام داود الهرم. ولم يكن حب ادونيا لتلك الفتاة يعني شيئاً بحد ذاته، بيد أنه تحوّل إلى ذريعة لواحد من أوّل قرارات سليمان "الحكيمة": لقد أمر سليمان بقتل ادونيا على الرغم من ان هذا الاخير أدّى آيات الولاء لأخيه واذعن لارادة أبيه الذي سلبه حقه في العرش. وكم كان ادونيا بسيطاً وساذجاً عندما طلب مساعده بثشبع وليس غيرها، لتحقق حلمه في الحب.

"ثم جاء ادونيا بن جحيف إلى بثشبع أم سليمان، فقالت: أللسلام جئت؟ فقال: للسلام، ثم قال: لي معك كلمة، وقال: أنت تعلمين أن الملك

كان لي، وقد جعل جميع اسرائيل وجهوهم نحوي لأملك، فدار الملك وصار لأخي، لأنه من قبل الرب صار له، والآن أسألك أمراً واحداً فلا ترديني فيه... فقالت: تكلّم؛ فقال: قولي لسليمان الملك أن يعطيني ابيشج الشونمية امرأة. فقالت بثشبع: حسناً، أنا أتكلّم عنك إلى الملك.

فدخلت بثشبع إلى الملك سليمان لتكلمه عن ادونيا. فقام الملك للقائها وسجد لها وجلس على كرسيه ووضع كرسياً لام الملك، فجلست عن يمينه وقالت: إنما اسألك صغيراً واحداً فلا تردني. فقال: اسألي يا أمي لأني لا أردك. فقالت: لتعط ابيشج الشونمية لادونيا أخيك امرأة. فأجابها سليمان قائلاً: ولماذا تسألين له ابيشج؟ اسألي له الملك أيضاً! فهو أخي الاكبر مني وله أبيثار الكاهن ويوآب ابن صرويه.

وحلف سليمان بالرب قائلاً: هكذا يفعل لي الله، وهكذا يزيد، لقد تكلّم ادونيا هذا الكلام ضد نفسه، والآن حيّ هو الرب الذي ثبتني واجلسني على كرسي داود أبي، وصنع لي بيتاً كما قال هو اليوم بقتل ادونيا. فأرسل الملك سليمان بناياهو بن يهوداع الذي بطش به فمات" (٢ ، ١٣ - ٢٥).

ثم جاء دور أبياثار الكاهن، ولكن الملك لم يقتله لأنه كان يعرف المعتقدات الخرافية الشعبية ولم يشأ أن يسفك دم كاهن. أنه من الصعب القول بان يهوه هو من أوحى بجريمة القتل هذه. "وقال الملك لأبياثار الكاهن، اذهب إلى عناثوت، إلى حقولك لأنك مستوجب الموت. ولكنني لن أقتلك في هذا اليوم لأنك حملت تابوت سيدي الرب أمام داود أبي، ولأنك عانيت ماعاناه أبي وطرد سليمان أبياثار من كهنوت الرب" (٢٦ ،٢٧).

ولم تكن رحمة ليوآب أو شفقة! "فاتى الخبر إلى يوآب لأن يوآب وقف مع

ادونيا، ولم يقف مع سليمان، فهرب إلى خيمة الاجتماع، وها هو بجانب المذبح. فأرسل الملك سليمان بناياهو بن يهوداع قائلاً: اذهب وابطش به. فدخل بناياهو إلى خيمة الرب وقال له: هكذا يقول الملك: اخرج؛ فقال: كلاّ، أني أموت هنا؛ فردّ بناياهو الخبر إلى الملك.... فقال له الملك: افعل كما تكلّم وابطش به وادفنه وازل علي وعن بيت أبي الدم الزكي الذي سفكه يوآب، فيرّد الرب دمه على رأسه لأنه بطش برجلين برئيين وخير منه، وقتلهما بالسيف وأبي داود لا يعلم، وهما أبينير بن نير رئيس جيش اسرائيل وعما سابن يثير رئيس جيش يهوذا، فيرتد دمهما على رأس يوآب نسله إلى الابد، ويكون لداود ونسله وبيته وكرسيه سلام إلى الأبد عند الرب. فقام بناياهو وبطش به فقتله، ودفنه في بيته في البرية" (٢ ، ٢٨ ـ ٣٤).

وقد قال فولتير في هذا الصدد، أنه لا حاجة لإضافة أي جريمة إلى هذه الجريمة: لقد بدأ سليمان عهده بالتجديف، فدنس بيت الرب، ولكن الأمر الذي يجب أن يكون غريباً هو، أن يهوه الذي قتلل ٥٠،٠٧٠ نفساً لأنهم القوا نظرة إلى داخل التابوت، لم يحرّك ساكناً عندما جعل جلادو سليمان من صندوقه متكأً ذبحوا عليه القائد العسكري الذي أعطى داود التاج.

لنمض مع التورات. "وجعل الملك بناياهو بن يهوداع مكانه على الجيش، وجعل الملك صادوف الكاهن مكان ابياثار. ثم أرسل الملك ودعا شمعي وقال له: ابن لنفسك بيتاً في اورشليم، واقم هناك ولا تخرج إلى هنا، أو هناك، ويوم تخرج وتعبر وادي قدرون، موتاً تموت،، ويكون دمك على رأسك. فقال شمعي للملك: حسن الامر كما تكلّم سيدي الملك كذلك يصنع عبدك، فاقام شمعي في اورشليم اياماً كثيرة. ولكن بعد ثلاث سنين هرب عبدان لشمعي إلى أخيش بن معكة ملك جتّ، فأخبروا شمعي وقالوا:

عبداك في جتّ. فقام شمعي وشدّ على حماره وذهب إلى جتّ.... واتى بعبديه. فأخبروا سليمان بان شمعي انطلق من اورشليم إلى جت ورجع. فارسل الملك ودعا شمعي وقال له: أما استحلفتك بالرب وشهدت عليك قائلاً: انك يوم تخرج وتذهب إلى هناك وهناك موتاً تموت؟..." (٢ ، ٣٥ - ٤٣) ثم دعا سليمان بناياهو وأمره أن يقتل شمعي فقتله(٤٦).

ثم تخبرنا التورات بان سليمان عقد تحالفاًمع ملك مصر، بل وتزوّج ابنته لكنها لم تذكر لنا اسم ذلك الملك المصري، واكتفت بان دعته: الفرعون. وهذا يؤكد على أن ذلك الزواج كان مجرّد حكاية خرافية وحسب. وفي تلك الاثناء كان سليمان قد بنى قصراًوشرع ببناء معبد، وبدأ يحصّن المدينة. وبينما أعمال البناء جارية، كان الملك يذهب إلى جبعون ليصلي، ففي تلك المدينة كان يقوم أفضل معبد في المملكة كلها. وهنا في جبعون منح يهوه سليمان نعمة الحكم. وانه لمشهد طريف وممتع، فهيا نزجي الوقت!

في جبعون تراءى الرب لسليمان في حلم ليلاً وقال له: اسأل ماذا أعطيك. فقال سليمان: انك قد فعلت مع عبدك داود أبي، رحمة عظيمة، ولذلك سار امامك بامانة وبرّ واستقامة قلب، فحفظت له هذه الرحمة العظيمة وأعطيته ابناً يجلس على كرسيه هذا اليوم.... والآن أيها الرب الهي! أنت ملّكت عبدك مكان داود أبي، وأنا فتى صغير لا أعلم الخروج والدخول؛ وعبدك في وسط شعبك الذي اخترته ، شعب كثير لا يحصى ولا يعد من الكثرة. فاعط عبدك قلباً فهماً لأحكم على شعبك وأميّز بين الخير والشرّ، لأنه من يقدر أن يحكم على شعبك العظيم هذا؟.

فحسن الكلام في عيني الرب لأن سليمان سأل هذا الامر. فقال له الله:

لأنك سألت هذا الأمر ولم تسأل لنفسك عمراً طويلاً ولا سألت غنى ولا سألت موت أعدائك، بل سألت لنفسك تمييزاً لتفهم الحكم...ها أنذا أعطيك قلباً حكيماً ومميزاً حتى أنه لم يكن مثلك قبلك، ولا يقوم بعدك نظيرك. وقد أعطيتك أيضاً مالم تسأله: غنى وكرامة، حتى أنه لا يكون رجل مثلك في الملوك كل أيامك. فان سلكت طريقي وحفظت فرائضي وصاياي، كما سلك داود أبوك، فاني أطيل أيامك. فاستيقظ سليمان واذا هو حلم" (٣ ، ٥ ـ ١٥).

اذاً يجري الحديث هنا عن حلم. فيهوه، الذي لم يكن ينتظر حتى ينام ابراهيم ويعقوب وغيرهم، كي يظهر ويتحدث اليهم، نرى أنه غيّر عادته الآن وصار ينتظر إلى أن يغط سليمان في نومه. فليكن الأمر هكذا اذن. ولكن كيف غدا هذا كلّه معروفاً؟ هل روى سليمان أحلامه لأحدهم؟ يبدو أنه ليست ثمة طريقة أخرى لوصول قصة هذا الحلم إلى مؤلف كتاب الملوك الثالث الذي عاش في أيام السبي البابلي، إلاّ إذا كانت قد انتقلت من جيل لآخر؛ وهذا أمر فيه كثير من الغرابة.

ويقول اللاهوتيون، ان ظهور الله في الحلم لا يقلل من ألوهية الرؤيا: تعترف الكنيسة بأحلام الهية وأخرى شيطانية. ويؤكد خدم الدين أن الحلم الانساني قد يكون نتيجة تأثير "خارق"، ولكنه لا يقع مصادفة، ونحن سنقبل هذا القرار لدقيقة واحدة فقط، وسنفرض بأن الله قد ظهر لسليمان حقاً. ولكن هذا الأخير كان مستغرقاً في نوم عميق، أي أنه لم يكن بكامل وعيه حتى يستطيع أن يتحدث إلى الله ويجيبه. والآن، لنفرض بأن بابا روما رأى في حلمه أنه جدّف على الله وخرج عن الدين وتفل على المذبح، فهل سيعتبره أيّ من كرادلته آثماً؟ اذن، كان من الأفضل لو أن الله طرح أسئلته

على سليمان، ثم أعطاه الوقت الكافي ليستيقظ ويفكر فيها ثم يجيبه. عندئذٍ تكون اجابة سليمان، الذي اختار الحكمة واحتقر ما سواها، فأثرة كبيرة له. ولكن بما أنه كان نائماً، فان اجابته لا تساوي شيئاً. ومع ذلك فقد أسر سليمان الله باجابته الرزينة.

وما أن تلقى سليمان الحكمة من يهوه حتى أسرع ليدهش الاسرائيليين بمحاكمة دلّ من خلالها على رجاحة عقله. ولم تسق التورات لنا سوى طرفة وحيدة سمجة كبرهان على حكمة سليمان الخارقة. ونحن نقصد هنا إلى القصة المعروفة عن المرأتين اللتين ولدتا طفلين في بيت واحد بفارق ثلاثة أيام. ولما مات أحدهما اتهمت أمه الأم الثانية بأنها سرقت طفلها ليلاً ووضعت مكانه جثة ابنها الميت. وجاءت المرأتان إلى الملك ليحكم بينهما. وفي قاعة المحكمة أقسمت كل منهما على أنها هي الأم الحقيقية؛ عندئذٍ أمر سليمان أن يشطروا الطفل إلى نصفين تأخذ كل من المرأتين نصفاً. هنا انفجر صراخ مرعب صادر عن الأم الحقيقية التي طلبت اعطاء الطفل للمرأة الثانية كي يبقى حياً. أمّا المرأة الثانية فقد بان نفاقها حينما قالت: "لا يكون لي ولا لك، اشطروه". بيد أن قرار سليمان لم يكن سوى تجربة أمر بعدها باعادة الطفل إلى أمه الحقيقية (٣ ، ١٦ ـ ٢٨).

وعندما يروي الواعظ هذه الطرفة تسيطر الدهشة والاعجاب على المؤمنين. بيد أنه كان بمقدور سليمان أن يعرف الحقيقة دون اللجوء إلى تلك التجربة الرهيبة، فلو سأل الداية لأخبرته دون عناء، أيّ من المرأتين ولدت قبل الأخرى بثلاثة أيام ولانتهى الأمر هنا. ولكننا لن نكون ملحاحين، وها نحن ننحني أمام "حكمة سليمان الخارقة". غير أن هذا لا يمنعنا من تسجيل الحكم التالي: ان الطرف التي من هذا النوع لا عدّ لها. ففي كل زمان كان

لشعوب العالَم كلها قضاتها؛ وكان هؤلاء يجمعون بين الحكمة والنبوأة والبساطة. وها نحن نسوق مثالين فقط عن قاضيين لم يتلقيا الحكمة في الحلم من أي يهوه.

صعد أحدهم إلى قبة الجرس ليصلح خللاً ما، ولكن حظه كان عاثراً اذ سقط من أعلى القبة، غير أن الحظ حالفه ثانية ولم يصب بأذى. إلاّ أن سقوطه كان مأساوياً بالنسبة للرجل الذي سقط فوقه: لقد قضى من فوره. فادعى أهل الميت على الرجل الذي سقط وطالبوا بقتله أو دفع الفدية. فكيف يفصل في هذا الخلاف؟ غني عن القول إنه لابدّ من ارضاء أهل القتيل بطريقة ما. ولكن القاضي لم ير أنه يحق له أن يتهم الرجل الذي كان هو نفسه ضحية حادث مؤسف. فأمر القاضي أحد أقرباء القتيل، وكان الأكثر اصراراً على الثأر ومعاقبة الرجل، أن يصعد هو نفسه إلى قبة الجرس ويقفز فوق المدعى عليه؛ فرفض أن يفعل، وسقط الادعاء.

أما الواقعة الثانية التي تثير الفضول، فبطلها قاض اغريقي، فقد كان أحد الشبان الأغريق يجمع النقود ليدفعها إلى القحبة ثيونيد كي يضاجعها. وفي أثناء ذلك حلم الرجل بأنه قضى وطره واستمتع بمفاتن المرأة. ولما استيقظ قرر انه ليس من الحكمة أن ينفق المرء النقود في سبيل لحظة واحدة، وكان الشاب قد أفضى لأترابه بمساعيه الغرامية، ثم جاء اليوم وقصّ عليهم وقائع حلمه، وقراره بالكف عن السعي ليصبح عشيق ثيونيدا. ولما وصلت هذه الأخبار إلى المرأة التي كانت تنتظر النقود بفارغ الصبر، قادت الشاب إلى المحكمة وطالبته بالتعويض مؤكدة على حقها في المبلغ الذي نوى الشاب أن يقدمه اليها، لأنها هي نفسها منحته المتعة التي سعى اليها، وان ذلك قد تحقق في الحلم.

فأصدر القاضي الذي لم يكن هو سليمان في أي حال من الأحوال، حكمه الذي يجب على كهنتنا أن ينحنوا أمامه: لقد طلب ذلك الوثني، الذي لم يستند عقله بنعمة الله، من الشاب أن يأتي بالمبلغ الذي جمعه ويلقي به في الحوض كي تتمكن القحبة من الاستمتاع برنين النقود وتتخيل انها قد امتلكتها كما امتلكها الشاب في حلمه.

يبدو واضحاً أن خيال "الروح القدس" لم يكن على مستوى مرموق من الخصب، وإلاّ لعجّت التورات بمثل هذه الحكايات المسلية. وبعد طرفة المحاكمة، ينتقل كتاب الملوك الثالث إلى تعداد أهم عبيد سليمان. ونحن لا نعتقد بأن القارئ سيلومنا اذا نحن أعفيناه من قراءة ذلك المقطع الكريه. ولكننا نقع بالمقابل على مقطع ممتع جاء بعد ذلك بقليل، وهو يتحدث عن مجد ابن داود وثرائه.

"وكان يهوذا واسرائيل كثيرين كالرمل الذي على البحر، يأكلون ويشربون ويفرحون وكان سليمان يحكم جميع الممالك من نهر الفرات، إلى أرض فلسطين وإلى تخوم مصر. وكانوا يقدمون الهدايا إلى سليمان ويخدمونه كل أيام حياته" ٤ ، ٢٠ - ٢١). ولكن مزاح، أو قل كذب "الروح القدس" تجاوز كل حدّ هنا، اذا أخذنا عين الحسبان أن الأمر لا يخص أزمنة بعيدة لا تتوفر للعلماء معيطات عنها؛ فمن سمع أو قرأ أن سلطة اليهود امتدت في أيّ زمان لتشمل الأراضي الممتدة من الفرات إلى البحر المتوسط؟ والحقيقة هي، أن اليهود، كأي عصابة من عصابات قطاع الطرق الأخرى، استطاعوا أن يسيطروا على زاوية من أرض فلسطين، وعرة وكثيرة الكهوف، امتدت من بئر سبع حتى دان؛ ولكن أحداً لا يعرف بأن سليمان ملك على كيلو متر مربّع واحد خارج أرض كنعان. بل ان "ملك

مصر" امتلك جزءاً من أرض فلسطين، وهناك مناطق معينة فيها، لم تخضع لسلطة سليمان، ولم يتمكن من اخضاعها بالقوة؛ فأين اذن جبروته المزعومة؟

"وكان طعام سليمان لليوم الواحد: ثلاثين كرّسميذ، وستين كرّ دقيق، وعشرة ثيران مسمنة، وعشرين ثوراً من المراعي، ومائة خروف ما عدا الأيائل والظباء واليحامير والاوز المسمن"(٢٢ - ٢٣). حقاً انها لغطرسة فريدة! ولكن على أيّ حال، لم يكن خطر الجوع يهدد المقربين الذين كانوا يأكلون على موائد سليمان كل يوم.

"وفاقت حكمة سليمان حكمة جميع بني المشرق وكل حكمة مصر. وكان أحكم من جميع الناس، من ايثان الارزاحي، وهيمان، وكلكول، ودرع بني ما حول، وكان صيته في جميع الأمم حواليه. وتكلّم بثلاثة آلاف مثل؛ وكانت أناشيده ألفاً وخمساً" (٣٠ - ٣٢).

بالطبع لا أحد يعرف هؤلاء الأشخاص: ايثان، هيمان، كلكول ودرع، الذي وضعتهم التورات بكل ثقة، للمقارنة مع سليمان وكأنهم حكماء يعرفهم العالم كله. وهذه الطريقة في الاسناد إلى اعلام لا يعرفها أحد قط، تتكرر في التورات من وقت لآخر، وهي تشكل احدى السمات الرئيسة لروح الغش والخداع القذر التي يعترها الباحث الحيادي "الروح" الوحيدة التي الهمت مؤلفيّ أسفار التورات كلها.

أما فيما يخص الثلاثة آلاف مثل، والألف وخمسة الأناشيد، فلم يصلنا سوى بعضها الذي ينسب إلى سليمان. ويلاحظ فولتير انه كان من الأفضل لو قضى هذا الملك حياته كلها يكتب القصائد اليهودية القديمة، ولم يسفح دم أخيه.

وها نحن أصبحنا الآن قاب قوسين أو أدنى من معبد أورشليم الشهير الذي صرف سليمان سبع سنوات لبنائه، وثلاثة عشر عاماً أخرى لبناء القصر. وقد كرّس سفر الملوك الثالث أربع فصول لهذا الموضوع. وها نحن نمرّ مروراً سريعاً بأهمها.

"وأرسل حيرام ملك صور، عبيده إلى سليمان لأنه سمع أنهم مسحوه ملكاً مكان أبيه؛ لأن حيرام كان محباً لداود كل الأيام. فأرسل سليمان إلى حيرام يقول: أنت تعلم أن داود أبي لم يستطع أن يبني بيتاً لاسم الرب الهه بسبب الحروب التي أحاطت به، حتى جعلهم الرب تحت باطن قدميه، والآن، فقد أراحني الرب من كل الجهات، فلا يوجد خصم ولا حادثة شر. وها أنذا قائل على بناء بيت لاسم الرب الالهي، كما كلّم الرب داود أبي قائلا: ان ابنك الذي اجعله مكانك على كرسيك هو يبني البيت لاسمي، والآن فامر أن يقطعوا لي ارزاً من لبنان، ويكون عبيدي مع عبيدك وأجرة عبيدك اعطيك اياها كما تقول، لأنك تعرف أنه ليس أحد بيننا يعرف قطع الخشب مثل الصيدونيين.

واعطى حيرام سليمان خشب ارز، وخشب سرو حسب كل مسرّته. وأعطى سليمان حيرام، عشرين ألف كرّ حنطه طعاماً لبيته، وعشرين كرّ زيت...

وسخّر الملك سليمان من جميع اسرائيل، وكانت السخرة، ثلاثين ألف رجل، فأرسلهم سليمان إلى لبنان، عشرة آلاف بالنوبة يكونون شهراً في لبنان وشهرين في بيوتهم. وكان أدوفيرام رئيساً عليهم. وكان لسليمان سبعون ألفاً يحملون أحمالاً، وثمانون ألفاً يقطعون في الجبل، ما عدا رؤساء الوكلاء الذين لسليمان، الذين على العمل وعددهم ثلاثة آلاف وثلاثة مائة رئيس..." (ملوك ثالث ٥ ، ١ ـ ٦ ، ١٠ ـ ١١ ، ١٣ ـ ١٦).

"والبيت الذي بناه سليمان للرب طوله ستون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً، وسمكه ثلاثون ذراعاً" (٦ ، ٢) وإذا علمنا أن الذراع اليهودي القديم يساوي ٥٢ سم، فان طول المعبد يصبح ٣١ م وعرضه ١٠،٥ م ، وارتفاعه ١٥،٥م.

"وعمل للبيت كوى مسقوفة مشبكة، وبنى مع حائط البيت طباقاً حوله، مع حيطان البيت حول الهيكل والمحراب، وعمل غروفات في مستديرها. فالطبقة السفلى عرضها خمس أذرع، والوسطى عرضها ست أذرع والثالثة عرضها سبع أذرع، لأنه جعل للبيت حواليه من خارج، أخصاماً لئلاّ تتمكن الجوائز في حيطان البيت" (٦ ، ٤ - ٦).

"وأما بيته فبناه سليمان في ثلاث عشرة سنة" (٧ ، ١) حينئذٍجمع سليمان شيوخ اسرائيل وكل رؤوس الاسباط رؤساء الآباء... في اورشليم لاصعاد تابوت العهد الرب من مدينة داود... وجاء جميع شيوخ اسرائيل؛ وحمل الكهنة التابوت.... وادخل الكهنة التابوت عهد الرب إلى مكانه في محراب البيت، في قدس الاقداس، إلى تحت جناح الكروبيم... ثم ان الملك وجميع اسرائيل معه ذبحوا ذبائح أمام الرب.... وذبح سيلمان ذبائح السلامة التي ذبحها للرب، من البقر اثنين وعشرين ألفاً، ومن الغنم مائة ألف وعشرين ألفاً، فدشن الملك جميع بني اسرائيل، بيت الرب" (٨ ، ١ ، ٣ ، ٦ ، ٦٢ - ٦٣).

غني عن القول، أن التفاصيل الواردة في هذه الفصول الاربعة، تتسم بالمبالغة. ولن يلبث هذا الوصف الالهي أن يتلاشى كالثلج تحت أشعة الشمس، إذا ما خضع لنقد يتمتع بهذا القدر من الجدية أو ذاك. لقد عمل في بناء المعبد ١٨٣،٣٠٠ عامل، ما عدا الحجارين والعمال الأخرين الذين

يظهرون فيما بعد. وطول المعبد ليس أكثر من ٣١،٠٥م، وعرضه ١٠،٠٥م. وقد صرف هؤلاء البناؤون سبع سنوات على بناء مبنى مؤلف من ثلاثة غرف ويشغل مساحة لا تزيد على ٣٢٥م٢ إنها أرقام تجعلنا نصاب بالذهول، إذا ما كانت لدينا فكرة بدائية جداً عن أعمال البناء. فهل كان عمّال سليمان كسالى إلى هذا الحد؟!.

ومع ذلك فان ابعاد البناء التي يذكرها سفر الملوك الثالث، لا تتوافق مع تلك التي يذكرها سفر الأيام الثاني (٣ ، ٤). ويكفي وجود مثل هذا الاختلاف في كتاب يُزعم أنه "مقدس" ليخلق لدينا الشك، هذا إذا لم يكن النص كله مجرد هراء لا طائلة منه. أضف إلى هذا أن وصف البناء الداخلي يثير مزيداً من السخرية، عداك عن أن الطابق السفلي أضيق من العلوي. بمتر كامل، وهذا بحد ذاته أمر مذهل! وتلك النوافذ الجانبية الواسعة من الداخل والضيقة من الخارج، وهي أيضاً ليست بدعة غبية.

وينتهي وصف بناء المعبد بوصف الاحتفال لائق به، ولكن تلك المجزرة الحيوانية يجب ألاّ تتكرر قط، لأن تكرارها قد يؤدي إلى انتشار مجاعة حقيقية. احسب معي يا رعاك الله! إذا كان وزن كل ثور مائة كغ، مضروبة بعدد الثيران المنحورة، وهو ٢٢٠ ألف ثور، يكون الناتج ٢،٢٠٠،٠٠٠ كغ من لحم العجل، أضف إليها حوالي ٢،٠٠٠،٠٠٠ كغ من لحم الخروف، لقد أحرقت هذه الأرزاق كلها فقط لتعطير أنف يهوه على ان الاسرائيليين قدموا عدداً لا يحصى من الاغنام والثيران ذبائح لبيت الرب (٨ ، ٥).

بعد هذا كله، إذا بقي إله بني يعقوب غير راضي، فانه في الحقيقة كائن صعب المراس لا يطاق. ولذلك "تراءى الرب لسليمان ثانية، كما تراءى في جبعون" (٩ ، ٢) ويجيز هذا النص لنا الاعتقاد بان الظهور الالهي الثاني في

مغامرة أخرى وقعت أثناء نوم بن داود. ولكن سليمان كان راضياً ولم يطلب من الله أن يظهر له بطريقة أخرى أكثر من حسيّة. ونحن بدورنا لن نلوم إله ابن بثشبع. فلتكن مشيئته، أراد أن يظهر في الحلم فقط؟! حسن، لا اعتراض لنا على حكمه!

أمّا مكافأة يهوه لسليمان فقد تمثلت في موعظة مقتصبة القاها الاله على مسامع الملك النائم وتتلخص في الكلمات البسيطة التالية: إذا لم تتراجع أنت وشعبك عن عبادتي، فسيكون كل شيء على ما يرام؛ ولكن إذا عبد بنو آلهة سواي، فاحذروا غضبي! الاغنية القديمة نفسها.

"وكان حيرام ملك صور قد ساعد سليمان بخشب ارز وخشب سرو وذهب، حسب رغبته فأعطى الملك سليمان حيرام حينئذ عشرين مدينة في أرض الجليل. فخرج حيرام من صور ليرى المدن التي أعطاه اياها سليمان، فلم تحسن في عينيه؛ فقال: ماهذه المدن التي أعطيتني يا أخي" (٩ ، ١١ - ١٣).

يقيناً إننا لعاجزون تماماً أن نعرف من أين أتى سليمان بهذه المدن العشرين التي أهداها إلى صديقه حيرام؛ فالسامرة لم تكن قد أنشئت بعد، وأريحا كانت قرية صغيرة، وشكيم وبيت لحم كانت ركاماً ولم يعاد بناؤهما إلاّ في عهد يربعام. وهذه هي مدن الجليل كلها في ذلك الحين.

"وعمل سليمان سفناً في عصيون جابر، التي بجانب ايله على شاطىء بحرسوف في أرض آدوم. فأرسل حيرام في السفن عبيده النوائي العارفين بالبحر، مع عبيد سليمان، فأتوا إلى اوفيرا وأخذوا من هناك ذهباً، أربع مائة وزنه وعشرين وزنه، وأتوا بها إلى الملك سليمان" (٩ ، ٢٦ - ٢٨).

ولارغام المؤمنين على ابتلاع كذبة بحجم اسطول صاحب جلالة سليمان، كان لا بد من ذكر مرسى ما على الشاطىء التابع له. ولم يجرؤ المؤلف على بناء هذا المرسى على شاطىء المتوسط، لأن موانىء هذا الشاطىء كانت للفينيقيين كلها، وكان ذلك أمراً معروفاً وباختلاقه الصرف لمرسى عصيون جابر في عمق خليج ايلات على البحر الاحمر، أي في شرقي ساحل سيناء، لم يضع المؤلف "المقدس" نفسه تحت خطر الكشف عن وهمية المرفأ المذكور، فميناء عصيون جابر يحتل في الجغرافيا المكانة نفسها التي يحتلها في التاريخ الحكماء التوراتيون مثل: ايتان، هيمان، كلكول ودردع.

أما فيما يخص نتائج بعثة اسطول سليمان إلى اوفير، وهي البلاد التي يُقدّر لأحد أن يعثر عليها حتى الآن على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها المؤرخون والجغرافيون، فقد كانت هزيلة جداً إذا ما قورنت بالروعة والفخامة اللتين رأيناهما في الفصول السابقة، فتجهيز سفينة كاملة لكي تعود بأربع مائة وعشرين تالانتاً من الذهب لا غير، يعتبر نجاحاً هزيلاً لصاحب الجلالة! إنه شيء لا يذكر بالنسبة لشخص يملك أربعين ألف مذود للخيل، واحرق للرب مائتين وخمسين ألف بود من اللحم. وإذا ما حسبنا نفقات تجهيز السفينة للرحلة، فان أرباح سليمان ستهبط إلى رقم هزيل جداً. ولو كنت مكان "الروح القدس" لما اشرت إلى هذا الفعل الغبي، الذي أتى به "حكيم" عصره.

ولكي نهدىء من روع القارىء المؤمن، نسرع لنقول، أن "حمامة" يهوه استدركت خطأها في الاصحاح التاسع من كتاب الايام الثاني، الذي يؤلف جزءاً هاماً من أسفار العهد القديم، وهو سفر يتسم "بالاصالة" و

"القداسة" نفسها التي يتصف بها التورات كلها، يقول الاصحاح المذكور: "وكان وزن الذهب الذي جاء سليمان في سنة واحدة، ست مائة وستين وزنه ذهب" (١٣)؛ ثم تتابع "حمامتنا" رؤيتها فتقول: "وعمل سليمان عرشاً عظيماً من العاج، وغشاه بالذهب الخالص. وللعرش ست درجات وموطىء من الذهب متصلة كلها، ويدان من هنا ومن هناك على مكان الجلوس، واسدان واقفان بجانب اليدين، واثنا عشر اسداً واقفة هناك على الدرجات الست من هنا وهناك لم يعمل مثله في جميع الممالك. وجميع آنية شرب الملك سليمان من ذهب، وجميع آنية بيت وعر لبنان من ذهب خالص، ولم تحسب الفضة شيئاً في ايام سليمان" (١٧ ، ٢٠) "وكانت سفن الملك تسير إلى ترشين مع عبيد حوارم، وكانت سفن ترشين تأتي مرة كل ثلاث سنين حاملة ذهباً وفضة وعاجاً وقروداً وطواويس. فتعظَّم الملك سليمان على ملوك الارض في الغنى والحكمة. وكان جميع الارض يلتمسون وجه سليمان ليسمعوا حكمته التي جعلها الله في قلبه. وكان يأتي كل واحد بهديته" (٢١ ، ٢٤). "وجعل الملك الفضة في اورشليم مثل الحجارة" (٢٧).

يقول سفر اخبار الايام الاول، أن سليمان ورث عن ابيه آلاف كالانتات الذهب والفضة والنحاس وما شابه (اصحاح ٢٩). وللتسلية فقط جمع فولتير الارقام كلها وسجل الحاصل. ثم حوّله إلى نقود عصره. "ان ما تركه داود لسليمان بلغ حسب التورات، ثمانية عشر مليار ليرة فرنسية. وما جمعه سليمان نفسه ليس أقل من هذا المبلغ. ولا ريب في أن أمراً كهذا يثير السخرية فقط. فملك هزيل كسليمان يملك ستة وثلاثين مليار ليرة، أو حوالي المليار ونصف المليار استرليني".

ومنذ قليل أفادتنا التورات بان ملوك الارض كلهم كانوا يأتون سليمان ليسمعوا منه الحكمة ويقدموا الهدايا. بيد أن المؤلّف "المقدس" وجد صعوبة كبيرة في أن يذكر لنا اسم ملك واحد فقط. من أولئك الملوك، فالاشارات الدقيقة المحددة كانت تخجله لأنه مهما بلغ شأواً في الكذب. كان على يقين من سهولة الكشف عن كذبه.

ولكن كان لا بد من تسمية واحد من ملوك الحجاج، فحدثتنا التورات عن زيارة "ملكة سبأ" وكرست لها الاصحاح العاشر من سفر الملوك الثالث، والتاسع من سفر الايام الثاني. وقد أثارت البلاد التي كانت تلك السيدة ملكة عليها، جدالاً طويلاً وجاداً بين علماء اللاهوت. ولسوء حظ هؤلاء أن أحداً منهم لم يستطع تحديد مكان وجود تلك البلاد على سطح الكرة الأرضية.

وهكذا "سمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب فأتت لتمتحنه بمسائل. وأتت إلى اورشليم بموكب عظيم جداً، بجمال حاملة أطياباً وذهباً كثيراً جداً وحجارة كريمة، وأتت إلى سليمان وكلمته ما كان بقلبها. فأخبرها سليمان بكل كلامها. فلم يكن يخفى على الملك أمر. ولما رأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان، والبيت الذي بناه، وطعام مائدته ومجلس عبيده وموقف خدمه وملابسهم وسقاته ومحرماته التي كان يصعدها في بيت الرب، لم يبق فيها روح فقالت للملك: صحيحاً كان الخبر الذي سمعته" (ملوك ثالث ١٠ ، ١ - ٧).

وقبل أن تغادر الملكة قصر سليمان أهدته حجارة كريمة، وطيوباً لا مثيل لها جاءت بها من بلادها، إضافة مائة وعشرين وزنة من الذهب، ومن جهته أغرقها سليمان بالهدايا الثمينة والنفائس. فقد أعطاها "كل مشتهاها الذي

طلبت، عدا ما أعطاه حسب كرم الملك سليمان، فانصرفت وذهبت إلى أرضها" (١٣).

ولكن لم يكن لهذا المجد إلاّ أن يؤثر على روح سليمان الطيبة فيؤذيها. لقد أعطاه يهوه الحكمة، ولم يسلبه إياها، بيد أن التورات تشير إلى أن بداية سقوط سليمان بدأت باقامته علاقات مع المصريين والعمونيين وأهل صيدون وغيرهم، الامر الذي اعتبرته التورات انهياراً في أخلاق سليمان وايمانه.

"وأحبّ سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون، موآبيات وعمونيات و آدوميات وصيدونيات وحثيات، من الامم الذين قال عنهم الرب لبني اسرائيل: لا تدخلون إليهم، وهم لا يدخلون اليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء لآلهتهم. فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة. وكانت له سبع مائة من النساء السيدات،وثلاث مائة من السراري، فأمالت النساء قلبه" (£ ١١ ، ١ ـ ٣).

من المعروف أن الاله التوراتي لم يكن يعترض على كثرة الزوجات عند كثير من بطاركته وأنبيائه. وكي لا نذهب بعيدا نذكّر بأن داود استخدم هذا التسامح الالهي استخداماً واسعا. ولكن سليمان أساء استخدامه. ألف امرأة يا مفتري! وقد أحبهن جميعاً، أي أنه كان ينزع سروايلهن واحدة أثر الأخرى، ألم تتعب يداه؟.

وهكذا وقع ما كان يجب أن يقع حتماً، وهو ما كان ينبغي على العجوز يهوه أن يراه، كونه إلهاً يرى المستقبل بكل وضوح وجلاء. فلكي يكسب سليمان رضى نسائه الغريبات شرع يقدم ذبائح لالهتهن. وأقام فوق احدى التلال القريبة من اورشليم مذبحاً "لكموش رجس الموآبين، ولمولك رجس بني عمّون".

وحظيت عشتروت وملكوم بالتبجيل الذي يليق بهما أيضاً (٤ ـ ٨).

في بداية العالم أدان الله آدم وحواء لأنهما أراد معرفة الخير من الشر، أما الآن فقد فتنه سليمان الساعي إلى بلوغ الغاية ذاتها، لقد وهبه الحكمة وقرنها بالآف التبريكات. بيد أن ما ينبغي عليه أن نراه في هذا كله هو،الاشارة التاريخية إلى أنه لم تكن قد قامت عند اليهود حتى تلك الفترة، عبادة دينية واضحة ومستقرة، ولو كانت قد قامت عندهم مثل هذه العبادة، لما روى مؤلفو التورات عن زواج كلّ من يعقوب وعيسو بوثنيات، ولما أصرّ شمشون على الزواج من فلسطينية و ....

ويستند النقاد إلى مثل هذه السذاجات ليؤكدوا على، أن أيّاً من الكتب اليهودية التي وصلتنا لم يكتب بقلم مؤلّف معاصر للأحداث الموصوفة فيه، فهم يقولون، أن اليهود في عصر سليمان بالكاد بدؤوا يتجمعون في دولة. ولم يكونوا ليهتموا بعبادة ملكهم لمولك أو ملكوم، أو ادوناي أو يهوه...

لكن، وعلى أي حال، قدمت التورات لنا الاله اليهودي في ذروة غضبه. وكانت نتيجة ذلك الغضب هي، ظهوره لسليمان مرّة ثالثة. وجاء ظهوره في هذه المرّة حسّياً وليس في الحلم: وجّه يهوه لسليمان الحكيم اتهامات قاسية، فوصفه بأنه تحول إلى مجرّد أحمق، غير أنه لم يسلبه الحكمة، قصارى القول، أن سليمان تلقى دشّاً من الكلمات المقذعة "لأن ذلك يحدث عندك،ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي اوصيتك بها، فاني أمزّق المملكة عنك تمزيقاً وأعطيها لعبدك" (١١ ، ١١) ويبدو أن العجوز يهوه كان مسعوراً إلى درجة جعلت لسانه ينطق بتخريف حقيقي، فقد أضافه في اللحظة ذاتها(١٢): "إلاّ أني لا أفعل ذلك في أيامك، اكراماً لداود أبيك، بل من ابنك أمزّقها".

لاحظوا بالله عليكم، أن ابن سليمان المقصود هنا هو، رحبعام، ولم يكن

هذا الشاب قد اقترف أي إثم يستحق عليه العقاب، فلما يؤخذ بعهر أبيه وزناه؟ فلو استوى رحبعام على العرش وسار على خطى أبيه في الإثم، لاستحق العقاب. ولكن العجوز الخرف أراد لسبب لا يعرفه سواه، أن يسدد الابن حساب أبيه . فهل كان الرب تخلى عن الحكمة كلها لسليمان، ولم يبق لنفسه سوى بضع علامات لا تغني ولا تثمر؟.

إذن، لقد أعلن يهوه لسليمان صراحة، أنه لن يسلبه الملك في حياته، ولا تلبث التورات أن تعلن بأن يهوه "أقام خصماً لسليمان، هو هدد الآدومي؛ وكان من نسل الملك في آدوم" (١٤) وقصة هذا الملك الموجزة تناقض تماماً ما عرض قبلها. ونحن لن نغوص إلى عمق تشوّش ذهن المؤلف "المقدس" لنسجل ما لقّنه أياه "ذكر الحمام" الكذّاب الدولي. فقد كانت التورات أخبرتنا بأن هدد هذا، كان طفلاً عندما أباد "الجنرال" يوآب، كبير ضباط داود وقائد جيوشه، رجال آدوم عن آخرهم، ولكن هذا الصغير نجا وهرب إلى مصر مع بعض عبيد والده، فقدّم له فرعون الملجأ ومنحه صداقته، وأهداه بيتاً وزوجّه أخت زوجته. ومن الجدير ذكره، أن التورات لم تسمّ أي فرعون مصري باسمه حتى الآن. لكنها تنقل لنا اسم هذه الأميرة المصرية، انها تحفينس أخت الملكة وهل علينا أن نؤكد مرّة أخرى، أن أحداً من المؤرخين لم ينطق بكلمة واحدة عن هذه الأميرة؟.

على أيّ حال لقد غدا هدد عديلاً لفرعون، ولا تنسوا من فضلكم أن ذلك كله وقع في عهد داود. وتتابع التورات روايتها فتقول: إنه ما أن وصل خبر موت يوآب إلى هدد، حتى ودّع فرعون وقفل عائداً إلى آدوم ليصبح واحداً من اولئك الاعداء الذين استخدمهم الله لمعاقبة سليمان على انحرافه نحو الوثنية. لقد سبّب هدد كثيراً من الاذى لسليمان.

ولكن الاصحاح الحادي عشر من كتاب الملوك الثالث يقول في سطره

الرابع: إن سليمان مال إلى الآلهة الوثنية "في زمان شيخوخته"؛ ونعلم بعد ذلك أن حكمه دام أربعين عاماً (٤٢)، ولنفرض الآن ان التزام سليمان المطلق بعبادة يهوه استمر طيلة الثلاثين عاماً الاولى من حكمه، وان الاعوام العشرة الأخيرة هي سنوات الاثم، عندئذٍ: إمّا أن هدد، سوط الرب، وعديل فرعون بقي طيلة ثلاثين عاماً لا يسمع شيئاً عن وفاة داود واعتلاء سليمان العرش، وهذا غير ممكن قط، لأن سليمان كان قد تزوج ابنه فرعون مصر بعد تسلمه السلطة بقليل، وهذه الأخيرة كانت قريبة هدد بالمصاهرة، أو أن هدد حمل سيفه واعمله في رقاب الاسرائيليين بعد فترة وجيزة من استواء سليمان على العرش، غير أن هذا يعني أن لسليمان بدأ يؤدي ضرائب آثامه قبل ثلاثين عاماً من ارتكابه لها.

وهاكم شيئاً ما أكثر دقة: "وأقام الله خصماً آخر هو، رزون بن أليداع الذي هرب من عند سيدّه هدد عزر ملك صوبه... وكان خصماً لاسرائيل كل أيام سليمان مع شرّ هدد، فكره اسرائيل وملك على آرام" (١١ ، ٢٣ ، ٢٥).

وهذا الرزون الملك الآرامي الذي ألحق ذلك الأذى كله بسليمان طول ايام حكمه، يبينّ بوضوح تام أن اثنين زائد اثنين يساوي أربعة، أي أن الملك الحكيم المؤمن بيهوه ايماناً مطلقاً لم يحد عنه في ايام شبابه، قد عوقب في ذلك الزمن النقي على إثم سيقترفه في شيخوخته؛ وأن "الروح القدس" ناقض نفسه مناقضة صارخة عندما قال (٤ ، ٢٠ ـ ٢١): أن سليمان ملك على المنطقة الممتدة من الفرات إلى المتوسط.

وقد عانى سليمان من أبناء جلدته معاناة مرّة. "ويربعام بن نباط.... عبد لسليمان.... رفع يده على الملك: بنى سليمان القلعة وسدّ شقوق مدينة داود أبيه. وكان يربعام جبار بأس، فلما رأى سليمان أن هذا الشاب يعرف

أن يعمل عملاً، أقامه على كل أعمال البيت يوسف. وكان في ذلك الزمان لما خرج يربعام من اورشليم وقابله أخيّا الشيلوني النبي في الطريق وهو لابس رداء جديداً، وهما وحدهما في الحقل، قبض أخيّا على الرداء الجديد الذي عليه ومزّقه اثنتي عشرة قطعة. وقال ليربعام: خذ لنفسك عشر قطع، لأنه هكذا قال الرب إله اسرائيل! ها أنا أمزّق المملكة من يد سليمان وأعطيك عشرة أسباط، ويكون له سبط واحد من أجل عبدي داود ومن أجل المدينة التي اخترتها من كل أسباط اسرائيل" (١١ ، ٢٦ - ٣٢).

لقد راينا كيف مزّق احد اللاوين عشيقته إلى اثنتي عشر قطعة عندما ماتت في جبعة تحت ضغط سبع مائة قضيب فلحوا فرجها طول الليل. وها نحن نصادف الآن نبياً يمزّق رداءه إلى اثنتي عشر قطعة كي يقنع يربعام بأن يهوه اذن له باعلان العصيان وأن عشر قبائل من القبائل اليهودية الاثنتي عشر ستقف إلى جانبه. وقد لاحظ فولتير بهذا الصدد، أنه كان بمقدور أخيّا أن ينظّم مؤامرة ضد سليمان بكلفة أقل. دون أن يكون مرغماً على التضحية بردائه الجديد وخاصة، وأن العجوز يهوه لم يكن كريماً مع أنبيائه كرماً خاصاً في مسألة الجبب. ولكن هل كان أخيّا وحده الذي ينتظر تعويض نفقاته بعد أن يستوي يربعام على العرش؟.

وثمة ملاحظة أخرى لا بدّ من تسجيلها: من بين الاعداء الثلاثة الذين أقامهم العجوز يهوه ضد سليمان، لم يتهمه بالرجوع عن عباده يهوه والانتقال إلى الوثنية سوى يربعام وحده، وقد فشل هذا الأخير في مساعيه. أمّا الاثنان الآخران فقد لاحقا سليمان وانتقما منه انتقاماً رهيباً. أمّا عصيان يربعام فقد مني بهزيمة تامة. وأراد سليمان قتل يربعام، لكنه فرّ إلى مصر وعاش فيها حتى وفاة سليمان(٤٠).

لقد أكدّ السطر الثالث والأربعون من الاصحاح الحادي عشر في سفر الملوك الثالث، أن سيدّ الزوجات السبع مائة والخليلات الثلاث مائة، قد مات. بيد أن النص التوراتي لا يقول لنا ما إذا كان ابن داود وقد عاد إلى سلوك طريق الرب. أم بقي سادراً في غيه ومات وثنياً آثماً؟ ودار على هذه الأرضية نقاش طويل بين اللاهوتيين: هل يُعدّ سليمان "الحكيم" ملعوناً أم لا. وقد أجاب بعضهم على هذا السؤال بالايجاب، وأجاب بالنفي بعضهم الآخر.

والمسألة الأخرى التي تثير الاسف هي، صمت التورات حيال كثير زيجات الملك المجيد. فمن السهل جداً القول: أنه كان لسليمان سبع مائة زوجة شرعية غريبة ينتسبن إلى مختلف العائلات المالكة في الكرة الأرضية كلها، وانهنّ كنّ يعتنقن ديانات وثنية متباينة. ولكننا كنّا سنستمتع أكثر فيما لو وصفت التورات لنا الاحتفالات والمراسم التي كانت ترافق تلك الزيجات أو بعضها في اقل تقدير.

بل يكفي لو أنها وصفت لنا حفل زفاف واحد. ولنفرض الآن أن ضلال سليمان وميله إلى الوثنية استمر عشر سنوات، وهذا كثير جداً بالطبع. ولكن لنفرض بأن الأمر كان هكذا فعلاً. إذن كان ابن داود يقيم سبعين عرساً في كل عام، أي كان يفضّ بكارة أميرة واحدة كل خمسة أيام، فما رأي قارئي الكريم في بلاد تعيش عشرة أعوام وهي تقيم عرساً لملكها كل خمسة أيام؟.

الفصل السادس والثلاثون

أرفع تعبير للحكمة التوراتية

لا يجوز لنا أن نختتم الحديث عن قصة سليمان قبل أن نتوقف عند الكتب التوراتية الأربعة التي ينسب إليه وهي: الامثال، الجامعة، نشيد الانشاد، الحكمة، وكتاب أمثال سليمان عبارة عن مجموعة من الأفكار والأقوال التي نرى أنها مبتذلة سخيفة وتتصف بالغباء، قصارى القول، أنها لا تساوي شيئاً أضف إلى هذا أنه يصعب أن نصدّق بأن ملكاً متنوراً وضع مجموعة من المواعظ لم يتطرّق فيها إلى أساليب الحكم والادارة وطرقهما، أو إلى السياسة وأصول الحياة الملكية واعرافها . والذي أثار دهشة الناقدين والمعاصرين، أن فصولاً كاملة كرّست فيه لقحبات كنّ يتصيدّن الرجال من الشارع. ولا تثير اعجاب الناقدين حكم ومواعظ مثل: "للعلوقة بنتان هات هات. ثلاثة لا تشبع وأربعة لا تقول كفى! الهاوية، والرحم العقيم، وأرض لا تشبع ماء، والنار لا تقول كفى!" (أمثال ٣٠ ، ١٥ ـ ١٦) "ثلاثة عجيبة فوقي، وأربعة لا أعرفها: طريق نسرٍ في السموات، وطريق حية على صخر، وطريق سفينة في قلب البحر، وطريق رجل بفتاة" (١٨ ـ ١٩). "أربعة هي

الأصغر في الأرض ولكنها حكيمة جداً: النمل قوم ليس قوياً ولكنه يُعدّ طعامه في الصيف، والفئران الجبلية طائفة ضعيفة ولكنها تضع بيوتها في الصخر، والجراد ليس له ملك ولكنه يخرج كله فرقاً؛ العنكبوت تمسك بيديها وهي قصور الملوك" (٢٤ ، ٢٨).

لله درّ فولتير حين قال: "أيعقل أن تكون هذه أقوال أحكم الحكماء؟" أمّا كتاب حكمة سليمان فقد صيغ باسلوب أكثر جدية. ويرى الناقدون أن هذا الكتاب كله، يترك انطباعاً بأنه مجرّد انتقاء لأقوال عامة معروفة لا تغني ولا تثمر.

ولكن كتاب الجامعة من صنف آخر مختلف فالذي يجري الحديث على لسانه فيه، شخص خيّبت آماله مغريات العظمة، تعبُ من الملذات وقرفٌ من المعرفة. وقد عدّوه ابيقورياً. لأنه يردد على كل صفحة من صفحات كتابه: أن الصديق والآثم يخضعان للمصادفات نفسها، وان الانسان لا يختلف عن الحيوان في شيء، ولذلك كان أفضل له ألاّ يولد قط من أن يعيش، وأنه ليس ثمة حياة أخرى في أيّ مكان، وأنه ليس أروع وأعقل من أن يتمتع المرء بزوجته وثمار عمله.

وقد قال فولتير بصدد كتاب سليمان هذا أنه: "ربما احتفظ سليمان بمثل هذه الاقوال عند واحدة من زوجاته. ويؤكدون بأن أقواله هنا هي، ملاحظات مرّة يُزعم أنه قالها بحق نفسه. ولكن هذه الاقوال التي تسيطر عليها روح الانفلات، لا تشبه لوم النفس، وأن تحاول أن ترى في أعمال المؤلف نقيض ما يقوله، ألا يعني هذا أنك تسخر منه؟".

أمّا فيما يخص نشيد الانشاد، فلا بدّ لنا من سوق بعض من اصحاحاته الثمانية كاملاً دون نقص.

"ليقبلني بقبلات فمه، لأن حبك أطيب من الخمر. لرائحة أدهانك الطيبة، اسمك كطيب مهراق، لذلك أحبتك العذارى. اجذبني وراءك فنجري؛ أدخلني الملك إلى مخدعه، سنبتهج ونفرح بك، نذكر حبك أكثر من الخمر، بالحق يحبونك!... لقد شبّهتك يا حبيبتي بفرس في مركبات فرعون. ما أجمل خديك بسموط، وعنقك بقلائد؛ نصنع لك سلاسل من ذهب، مع جمان من فضة... صرّه المرّ حبيبي لي، بين ثديي يبيت. ها أنت جميلة يا حبيبتي، عيناك حمامتان. ها أنت جميل يا حبيبي وحلو، وسريرنا أخضر؛ جوائز بيتنا أرز، وروافدنا سرو..." (نشيد الانشاد ١ - ٤ ، ٩ - ١١ ، ١٣ - ١٦).

"أنا نرجس شارون، سوسنة الاودية! كالسوسنة بين الشوك، كذلك حبيبتي بين البنات. كالتفاح بين شجر الوعر، كذلك حبيبي بين البنين تحت ظله اشتهيت أن اجلس. وثمرته حلوة لحلقي. أدخلني إلى بيت الخمر، وعلمه فوقي محبة، اسندوني بالخمر، انعشوني بالتفاح فانني مريضة حباً. شماله تحت رأسي، ويمينه تعانقني احلفكن يا بنات اورشليم بالظباء وبأيائل الحقول ألاّ تيقظن ولا تنبهن الحبيب حتى يشاء... أجاب حبيبي وقال لي: قومي يا حبيبتي، يا جميلة وتعالي!... يا حمامتي في محاجىء الصخر... في ستر المعاقل اريني وجهك، اسمعيني صوتك لأن صوتك لطيف ووجهك جميل..." (٢ ، ١ - ٧ ، ١٠ - ١٤).

"في الليل على فراشي طلبت من تحبه نفسي، فما وجدته. أني أقوم واطوف في المدينة في الاسواق وفي الشوارع اطلب من تحبه نفسي طلبته فما وجدته. وجدني الحرس الطائف في المدينة. فقلت: أرأيتم من تحبه نفسي؟ فما جاوزتهم إلاّ قليلاً حتى وجدت من تحبه نفسي فأمسكته ولم

ارخه حتى أدخلته بيت امي وحجرة من حلبت بي احلّفكن يا بنات اورشليم بالظباء وبايائل الحقل ألاّ تيقظن ولا تنبهن الحبيب حتى يشاء...″ (٣ ، ١ ـ ٥).

″ها أنت جميلة يا حبيبتي، ها أنت جميلة، عيناك حمامتان تحت نقابك شعرك كقطيع معز رابض على جبل جلعاد، أسنانك كقطيع معز مقصوصة، صادر من الغسل ولكن منها جديان وليس فيها عقيم، . شفتاك كسلكة من القرمز وفمك حلو. خدك كفلقة رمانة تحت نقابك. عنقك كبرج داود المبني للأسلحة، ألف مجنّ علّق عليه، كلها أتراس الجبابرة؛ ثدياك كخشفي ظبية، توأمين يرعيان بين السوسن.... ما أحسن حبك يا أختي العروس، كم أحبك أطيب من الخمر، وكم رائحة عطرك أطيب من كل الاطياب. شفتاك يا عروس تقطران شهداً، تحت لسانك عسل ولبن، ورائحة ثيابك كرائحة لبنان!″ (٤ ، ١ ـ ٥ ، ١٠ ـ ١١).

″أنا رائحة وقلبي مستيقظ، صوت حبيبي قارعاً: افتحي لي يا أختي، يا حمامتي يا كاملتي، رأسي امتلأ من الطلّ، وقصصي من ندى الليل... حبيبي مدّ يده من الكوّة فأنّت عليه أحشائي. قمت لأفتح لحبيبي ويداي تقطران مرّاً وأصابعي مرّ قاطر على مقبض القفل. فتحت لحبيبي لكن حبيبي تحوّل وعبر، نفسي خرجت عندما أدبر، طلبته فما وجدته...″ (٥ ، ٢ ، ٤ ـ ٦).

″ أين ذهب حبيبك، أيتها الجميلة بين النساء،؟ أين توجّه حبيبك فنطلبه معك؟ حبيبي نزل إلى جنتّه، إلى خمائل الطيب ليرعى في الجنّات ويجمع السوسن، أنا لحبيبي و حبيبي لي؛ الراعي بين السوسن″ (٦ ، ١ ـ ٣).

″ما أجمل رجليك بالنعلين يابنت الكريم، دوائر فخذيك مثل الحلي

صنتعه يدي صنّاع سرّتك كأس مدورّة لا يعوزها شراب ممزوج، بطنك صبرة حنطة مسيّجة بالسوسن، ثدياك كخشفتين توأمي ظبية، عنقك كبرج عاج، عيناك كالبرك في حشبون... انفك كبرج لبنان الناظر إلى دمشق... قامتك شبيهة بالنخلة وثدياك بالعناقيد. قلت: أني صعدت إلى النخلة وأمسك بعذوقها، وتكون ثدياك كعناقيد الكرم، ورائحة أنفك كالتفاح، وحنكك كاجود الخمر، لحبيبتي السائغة المرقرقة السائحة على شفاه النائمين، أنا لحبيبي وإلّي اشتياقه يا حبيبي لنخرج إلى الحقل ولنبت في القرى، لنبكرنّ إلى الكروم ولننظر: هل أزهر الكرم؟ هل تفتح الى القعال؟ هل نوّر الرمان، هالك أعطيك حبي. اللفّاح يفوح رائحة ، وعند أبوابنا كل النفائس، من جديد وقديمة ذخرتها لك يا حبيبي" (٧ ، ١ ـ ٥ ، ٧ ـ ١٣).

"ليتك كأخ لي الراضع ثدي أمي، فأجدك في الخارج وأقبلّك ولا يلومني أحد. وأقودك وأدخل بك بيت أمي وهي تعلمني فاسقيك الخمر الممزوجة من سلاف رماني. شماله تحت رأسي ويمينه تعانقني. أحلفكّن يا بنات اورشليم ألاّ تيقظن ولا تنبهن الحبيب حتى يشاء... لنا أخت صغيرة ليس لها ثديان، فماذا نصنع لأختنا يوم تخطب؟..."

هذا هو نشيد الانشاد الشهير بروعته، والذي أثار كثيراً من الجدال. ولكن ذوي الأفكار المتحررة من المعتقدات الخرافية لا يرون في هذا المؤّلف الشهواني سوى أغنية عادية صيغت وفق ذوق العصر. إلاّ أن اللاهوتيين اليهود والمسيحيين يؤكدون على شيء مغاير. فيؤكد الاولون والزبد يعلو شفاهم، بأن الحبيب هنا هو الله، والحبيبة هي ، سوسنة الوديان هي شعب اسرائيل. ويفسر هؤلاء نشيد الانشاد بأنه التاريخ المجازي للشعب اليهودي منذ "الخروج من مصر" حتى مجيء "المسيح" حينما يبني معبد أورشليم

الثالث. كما يزعمون، واستخدموا لتعليل هذا التفسير كل التعقيدات وأساليب التضليل وسفسطة التلمود واختزال الكلمات المنطوقة نطقاً موحدّاً واستبدالها.

أمّا اللاهوتيون المسيحيون، وخاصة الكاثوليك، فلم يفعلوا شيئاً سوى إعادة ترتيب الشرح اليهودي من جديد، ويؤكدون بكل رزانة على أنه هذه الملحمة الشهوانية هي، ثمرة إلهام سام، هي كتاب نبوأة حب المسيح للكنيسة وحب الكنيسة لمؤسسها الإلهي، الذي يظهر فيه زوجاً لها؛ وعلى الرغم من أن هذا الحب يأخذ هنا أشكالاً جريئة، إلاّ أن خطرها يتطهر بمغزاهاالصوفي ولا يثير حفيظة العقول الدنسة المتحررة.

وكان أوريجين (اوريغين) هو صاحب أول تفسير صوفي لنشيد الانشاد، فكتب فيه شرحاً مستفيضاً. ونشير من باب الفكاهة وحسب إلى أن شرف هذا الاكتشاف يعود إلى أب الكنيسة هذا الذي لم يشتهر بعمق فكره واخلاصه للدين وحسب، بل واشتهر أيضاً بأنه خصى نفسه ثم سار على خطى اوريجين المخصّي، بلهاء المسيحية الآخرين كلهم، وكل رجال الدين الذين أسعدهم هذا الحدث ووفرّ لهم وسيلة فعالة لارغام المؤمنين السذّج على ابتلاع واحدة من أكثر حبوب التورات روعة.

وبفضل هذه الخدعة الماكرة يقدمون نشيد الانشاد إلى راهبات الاديرة كمادة للتفكير وتهدئة الدم الفائر بيد أنه ليس صعباً علينا أن ندرك حقيقية التأثير الذي تتركه هذه الملحمة على السجينات التاعسات اللواتي يجعلهن تصوفهن الهسيتري يتصوّرن أنفسهنّ عرائس المسيح. ففي وحدة صوامعهن الهادئة، تدغم كل تاعسة نفسها بالكنيسة : عروس الحبيب ويستغرق جميعهن في حلم واحد ليس من الصعب تخمين محتواه.

ولترسيخ هذا التفسير الوهمي في أذهان المؤمنين والمؤمنات، وضع رجال الكنيسة عنواناً خاصاً لكلّ فصل من فصول نشيد الانشاد الثمانية. وكل عنوان من هذه العناوين ينضح بخبث رجال الدين ونفاقهم:

الفصل الأول: الزوجة تسكب حبها لزوجها، والزوج يسكب حبه لزوجته.

الفصل الثاني: كلام الكنيسة عن يسوع المسيح.

الفصل الثالث: كيف تبحث الكنيسة عن المسيح، وكيف تفرح عندما تجده.

الفصل الرابع: جمال الزوجة الذي يوصف وصفاً صوفياً في تعابير صوفية صرف.

الفصل الخامس: اسى الزوجة لأنها لم تبحث عن زوجها كما يجب، وهي تصف جمال زوجها.

الفصل السادس: جوار يسوع المسيح مع الكنيسة.

الفصل السابع: وصف صوفي آخر لجمال الزوجة، حب الكنيسة الصادق ليسوع.

الفصل الثامن:الحب المتبادل بين الكنيسة ويسوع المسيح.

والآن، لننه هذا الجزء من بحثنا هذا بكلمات قالها فولتير: "بما نشيد الانشاد هو، وصف مجازي لزواج الكنيسة الابدي من ابن مريم، كما يؤكّد رجال الكنيسة ، فإننا نرغب في أن نعرف معنى الكلمات التالية: لنا أخت ليس لها ثديان،، " (٨ ، ٨).

الفصل السابع والثلاثون

التاريخ "المقدس"

لملوك اسرائيل ويهوذا

بعد وفاة سليمان آل التاج إلى ابنه رحبعام. وكان يجب أن تسير الأمور على أفضل حال، لأن المؤلِّف "المقدس" أخبرنا منذ قليل بأن الاسرائيليين كانوا يعيشون حياة ملؤها الفرح والهناء في عهد سليمان. فالذهب كثير جداً والفضة في أورشليم كالحجارة العادية، لم تكن لها أهمية خاصة. بيد أن ذاكرة "الحمامة" الالهية تعاني كعادتها؛ والسخرية من ايمان المسيحيين ديدنها، فهي تحقق لها سعادة كبيرة. إذ تفيدنا التورات بأن اليهود اجتمعوا في شكيم وقالوا لابن سليمان: "إن أباك قسّى نيرنا، وأمّا أنت فخفف الآن من عبودية أبيك القاسية ومن نيره الثقيل الذي جعله علينا، فنخدمك" (ملوك ثالث ١٢ ، ٤). فطلب رحبعام المشورة من الشيوخ الذين كانوا مستشاريّ أبيه. وقد اعترف هؤلاء بأن المرحوم فرض ضرائب وأتاوات ثقيلة فعلاً، ثم اقترحوا تخفيض الضرائب كي لا يثور الشعب على حكم

السلالة. ولكن الملك طلب مشورة الشباب أيضاً، فاقترح هؤلاء رأياً مغايراً (٦ - ١٠). ولمّا جاء الوفد الشعبي إلى رحبعهام ليعرف رأيه الأخير، قال الملك لممثلي الشعب الذين رئيسهم يربعام بعد عودته من مصر: "أبي ثقّل نيركم وأنا أزيد على نيركم، أبي أدبكم بالسياط وأنا أؤدبكم بالعقارب" (١٤). وغني عن القول، أن هذا الردّ لم يمنع رحبعام حب الناس. بيد أن التورات تسرع لتقول: ان يهوه اهتمّ بأن "يقيم كلامه الذي تكلّم به بوساطة أخيّا الشيلوني إلى يربعام بن نباط" (١٥).

إذاً، لقد تدخل يهوه نفسه ليهلم مستشاري الملك الشباب مشورتهم الحمقاء، ويعمي رحبعام إلى درجة سمع فيها لنفسه بأن يتفوّه أمام ممثلي الشعب بتلك الحماقات. ولا ريب في أن الشعب عاد إلى خيامه غاضباً. ولذلك عندما أرسل الملك جابي الضرائب ليجمعها، سرعان ما وصله الخبر المقلق الثاني: تجتاح البلاد موجة من الغضب الشعبي؛ وراح جابي الضرائب ضحية عمل ارهابي. فحطّ الرعب رحاله فوق رأس رحبعام، فقام من توّه "وصعد إلى المركبة ليهرب إلى أورشليم"(١٨).

"ولما سمع جميع اسرائيل بأن يربعام قد رجع، أرسلوا فدعوه إلى الجماعة وملكوه على جميع اسرائيل. ولم يتبع بيت داود إلاّ سبط يهوذا وحده (وبنيامين). ولما جاء رحبعام إلى أورشليم جمع كل بيت يهوذا وسبط بنيامين، مائة وثمانين ألف مختار محارب ليحاربوا بيت اسرائيل ويردوا المملكة إلى رحبعام بن سليمان" (ملوك ثالث ١٢ ، ٢٠ - ٢١). ومرّة أخرى نجد أنفسنا أمام مبالغة تثير السخرية! فقد استطاع رحبعام المليك التاعس الصغير أن يجمع حوله جيشاً مؤلفاً من ١٨٠،٠٠٠ مقاتل، ومن يصدق هذا الهراء؟

”وكان كلام الله إلى شمعيا، رجل الله قائلاً: لا تصعدوا ولا تحاربوا اخوتكم بني اسرائيل، ارجعوا كل واحد إلى بيته، لأن هذا الأمر من عندي فسمعوا لكلام الرب ورجعوا لينطلقوا حسب قول الرب“ (٢٢ - ٢٤).

وهكذا انقسمت مملكة اليهود إلى مملكتين هما: اسرائيل وعلى رأسها يربعام، ويهوذ وعلى رحبعام. ومن الجدير أن نذكر في هذا السياق، أن مدينة شكيم التي اجتمع القوم فيها ليقولوا قولهم لابن داود، لم تكن قائمة كمدينة، لأن التورات تقول: ”وبنى يربعام شكيم في افرايم وسكن بها. ثم خرج من هناك وبنى فنوئيل“ (٢٥).

ولكن هل تظنون بأن يربعام الخادم اعترف ليهوه بالجميل بعد أن جعله ملكاً؟ كلاّ، لا شيء من هذا القبيل قط! فقد تعجل الملك الجديد وأمر بسكب عجلين من ذهب وضع أحدهما في بيت إيل والثاني في دان وقال لاسرائيل: إن أورشليم بعيده جداً ومن الصعب عليكم أن تذهبوا إليها لتقيموا الصلاة وتقدموا الذبائح. ولذلك يمكنكم أن تسجدوا لهذين العجلين لأنهما أخرجاكم من مصر فسرّ الاسرائيليون لذلك سروراً كبيراً، أمّا يربعام فقد بنى مرتفعات أخرى للأصنام، ونصّب كهنة جدداً لم تكن لهم أي صلة بقبيلة لاوي، بل وشرع يمارس مهنة الكهنة بنفسه (٢٦ - ٣٣).

وإذا كان هذا صحيحاً فإنه يشكّل برهاناً آخر على أن اليهودية لم تكن قد أكملت تأسيسها حتى العصر الذي نحن بصدده. لأن ذلك الشعب الضئيل لم يكن يجد أيّ صعوبة في تبديل معتقداته الدينية، وقد فعل ذلك غير مرة منذ خروجه الخرافي من مصر وحتى زمن عزرا. ويجدر أن نشير في هذا السياق إلى ميله الغريب لتجسيد إلهه عجلاً! فلا ريب أنكم مازلتم

تذكرون الـ ٢٣٬٠٠٠ نسمة الذين أبادهم يهوه بسبب عجل هارون؛ ألا ينبغي عليه الآن أن يبيد ٢٦٬٠٠٠ نسمة أخرى بسبب عجلين؟ ولكن، لا تقلقوا، فما سنراه هنا مختلف تماماً.

"وإذا برجل الله قد أتى من يهوذا بكلام الرب إلى بيت ايل ويربعام واقف لدى المذبح لكي يوقد. فنادى نحو المذبح بكلام الرب وقال: يا مذبح ، يا مذبح! هكذا قال الرب: هو ذا سيولد لبيت داود ابن اسمه يوشيا ويذبح عليك كهنة المرتفعات الذين يوقدون عليك، وتحرق عليك عظام الناس. وأعطى في ذلك اليوم علامة قائلاً: هذه هي العلامة التي تكلّم بها الرب: هو ذا المذبح ينشقّ ويذري الرماد الذي عليه. فلما سمع الملك كلام رجل الله الذي نادى نحو المذبح في بيت ايل، مَدّ يربعام يده عن المذبح قائلاً: امسكوه، فيبست يده التي مدّها نحوه ولم يستطع أن يردها إليه. وانشقّ المذبح وذري الرماد من على المذبح حسب العلامة التي أعطاها رجل الله بكلام الرب. فأجاب الملك وقال لرجل الله: تضرّع إلى وجه الرب إلهك وصلّ من أجلي فترجع يدي إليّ. فتضرّع رجل الله إلى وجه الرب فرجعت يد الملك اليه وكانت كما في الأول. ثم قال الملك لرجل الله: ادخل معي إلى البيت وتقوّت فاعطيك أجرة" (١٣ ، ١ ـ ٧).

لكن النبي كان يحمل تعليمات دقيقة صارمة من يهوه الذي أمره: "لا تأكل خبزاً ولا تشرب ماء ولا ترجع في الطريق الذي ذهبت فيه" [٩]. ولذلك رفض دعوة يربعام وعاد إلى يهوذا "في طريق آخر ولم يرجع في الطريق الذي جاء فيه إلى بيت إيل" [١٠]. وغني عن القول، بأن قارئي أصبح يعرف بأن عجيبة اليد التي يبست لا تحسب بين العجائب الأخرى التي روتها التورات لنا حتى الآن، فهي أقل شأناً منها بكثير. ومن حسن حظنا

أننا سنلتقي قريباً بالنبي ايليا، وعندئذٍ ستغدو العجائب وفيرة جداً! أمّا وصية النبي بألاّ يأكل أو يشرب في أرض يربعام فهي، دليل آخر على أن أراضي مملكة هذاالمليك كانت صغيرة جداً، ولذلك لم يكن يصعب على السائر تناول فطوره في السامرة وعشاءه في أورشليم. وإذا أخذنا بعين الحسبان أن النبي كان قد اعتاد حياة التقشف، فإن لا يصعب عليه قط أن يرفض تناول فطوره في بيت ايل التي كانت أقرب إلى أورشليم من السامرة.

"وكان نبي شيخ ساكناً في بيت ايل، فأتى بنوه وقصّوا عليه كل العمل الذي عمله رجل الله ذلك اليوم في بيت ايل، وقصّوا على أبيهم الكلام الذي تكلّم به إلى الملك. فقال لهم أبوهم: من أي طريق ذهب؟ وكان بنوه قد رأوا الطريق الذي سار فيه رجل الله الذي جاء من يهوذا. فقال لبنيه: شدّوا لي على الحمار، فشدّوا له على الحمار فركب عليه وسار وراء رجل الله فوجده جالساً تحت البلوطة فقال له: أنت رجل الله الذي جاء من يهوذا؟ فقال: أنا هو؛ فقال له: سر معي إلى البيت وكل خبزاً، فقال: لا أقدر أن أرجع معك ولا أدخل معك ولا آكل خبزاً ولا أشرب ماء معك في هذا الموضع لأنه قيل لي بكلام الرب: لا تأكل خبزاً ولا تشرب هناك ماء ولا ترجع سائراً في الطريق الذي ذهبت منه. فقال له: أنا أيضاً نبي مثلك وقد كلمني ملاك الرب بكلام الرب قائلاً: ارجع به إلى بيتك فيأكل خبزاً ويشرب ماء. كذب عليه. فرجع معه وأكل خبزاً في بيته وشرب الماء" (١٣ - ١١ - ١٩).

إن ما يلفت الانتباه أن أيّ رجل يطلق على نفسه لقب نبي، يصدقونه للتوّ. ونحن نعلم أن الأنبياء في زمن شاول كانوا يسيرون قطعاناً. اذن، ما ان أعلن عجوز بيت ايل للعجوز الغريب أنه نبي مثله حتى صدّق ادعاءه وسار معه إلى بيته وأكل.

”وبينما هما جالسان على المائدة كان كلام الرب إلى النبي الذي أرجعه فصاح إلى رجل الله الذي جاء من يهوذا قائلاً: هكذا قال الرب: لأنك خالفت قول الرب ولم تحفظ الوصية التي أوصاك بها الرب الهك، فرجعت وأكلت خبزاً وشربت ماء في الموضع الذي قال لك فيه لا تأكل خبزاً ولا تشرب ماء، لا تدخل جثتك قبر آبائك، ثم بعد ما أكل خبزاً وشرب ماء، شدّله على الحمار، أي للنبي الذي أرجعه، وانطلق فصادفه أسد في الطريق وقتله. وكانت جثته مطروحة في الطريق والحمار واقف بجانبها والأسد واقف بجانب الجثة. وإذا بقوم يعبرون فرأوا الجثة مطروحة في الطريق والأسد واقف بجانب الجثة؛ فأتوا وأخبروا في المدينة التي كان النبي الشيخ ساكناً بها.

ولما سمع النبي الذي أرجعه عن الطريق قال: هو رجل الله الذي خالف قول الرب الذي كلمه به. وكلّم بنيه قائلاً: شدّوا لي على الحمار، فشدّوا؛ فذهب ووجد جثته مطروحة في الطريق والحمار والأسد واقفين بجانب الجثة ولم يأكل الأسد الجثة ولا افترس الحمار. فرفع النبي جثة رجل الله ووضعها على الحمار ورجع بها ودخل النبي الشيخ المدينة ليندبه ويدفنه. فوضع جثته في قبره وناحوا عليه قائلين: آه يا أخي! وبعد دفنه اياه كلّم بنيه قائلاً: عند وفاتي ادفنوني في القبر الذي دفن فيه رجل الله، بجانب عظامه ضعوا عظامي“ (١٣ ، ٢٠ - ٣١).

هذه هي قصة العجوز التاعس المحزنة. انه لم يرتكب إثماً يستحق عليه الموت بين فكي أسد، فجريمته كلها تنحصر في أنه صدّق كلام ”نبي“ مثله. ويبدو أن ”رجل الله“ المسكين هذا لم يلعب دوراً خاصاً في التاريخ الالهي، فلولا مغامرته مع الأسد، وذلك الحمار النبيل الذي وقف ساعات طويلة قرب جثته، لما سمع به أحد من الأحفاد.

لكن يربعام؟ لقد بدا أنه كان من شأن حادثة يده التي يبست فجأة وعادت إلى حالها فجأة أيضاً، ان ترده إلى طريق يهوه فيرتدع عن السجود أمام العجلين وتقديم القرابين لهما؛ اضافة إلى أنه ليس ما هو أكثر فظاعة من موت "رجل الله"، وهو ما أخذ المليك علماً به دون ريب. ولكن كيف نصدّق ان "يربعام لم يرجع عن طريق الردية، بل عاد فعمل من أطراف الشعب كهنة مرتفعات، من شاء ملأ يده، فصار من كهنة المرتفعات" (١٣ ، ٣٣)؟

غني عن القول، أن هذا الاجرام المستعصي لا يمكن أن ينجو من العقاب. ولكن على من وقع العقاب السماوي؟ على يربعام؟ كلاّ على ابنه الصغير أبيّا الذي سقط فريسة مرض مباغت. فلمعت في رأس يربعام فكرة طلب مشورة النبي اخيّا الذي كان قد أعطاه مزق جبته العشر ووعده بمستقبل مشرق. ولكن فقر الملك الاسرائيل إلى المنطق السليم بلغ هنا حداً غير معقول. لأنه على الرغم من معرفته جبروت يهوه الذي لا يخفى عليه شيء، إلاّ أنه حاول خداع الرجل "المقدس" عندما احتاج مساعدته لشفاء صغيره. فأرسل زوجته إلى شكيم بعد أن أمرها باجراء بعض التعديلات على مظهرها الخارجي كي لا يعرفها أخيّا.

وها هي صاحبة الجلالة تصل شكيم. لكن التورات تبستبق الحدث لتخبرنا عرضاً بأن أخيا "كان لا يقدر أن يبصر لأن عينيه كانتا قد اصبحتا لا تتحركان بسبب شيخوخته" (١٤ ، ٤). اذن، لقد كان كلّ تبديل في المظهر الخارجي لصاحبة الجلالة، عملاً لا جدوى منه، فالرجل أعمى على أي حال. "وقال الرب لاخيا: ها هي امرأة يربعام آتية لتسأل منك شيئاً من جهة ابنها المريض، فقل لها كذا وكذا لأنها عند دخولها تتنكر. فلما سمع

اخيّا رجليها وهي داخلة في الباب قال: ادخلي يا امرأة يربعام، لماذا تتنكرين؟ انني مرسل اليك بقول قاس" (٥ - ٦). ثم يلي ذلك حديث طويل مليئ بالاتهام واللوم الموجهين إلى يربعام بسبب العجلين؛ ويتنبأ اخيّا بالنوازل التي ستحلّ بالعائلة الملكية، ولم ينس الطفل موضوع الاستشارة. "وأنت قومي وانطلقي إلى بيتك، وعند دخول رجليك المدينة يموت الولد"[١٢]. وهكذا عادت الملكة التاعسة إلى ترصة حزينة مكسورة الخاطر. "ولما وصلت إلى عتبة الباب مات الغلام"[١٧]. مسكينة زوجة يربعام، فلو دخلت المدينة فوق طوّالتين لما وطئت قدماها أرضها ولنجا الطفل!

ثم يعيدنا كتاب الملوك إلى أخبار الأيام الثاني. فنعرف أن ابيّا، ملك يهوذا ابن رحبعام، شنّ على يربعام حرباً[١٣]. وكان جيش أبيّا يتألف من ٤٠٠,٠٠٠ مقاتل منتخب، بينما بلغ تعداد جيش يربعام ٨٠٠,٠٠٠ مقاتل منتخب. "وقتل من اسرائيل خمس مائة ألف مقاتل منتخب" (أخبار الأيام الثاني ١٣ ، ١٧). انها حقاً لمجزرة مقدسة!

وأخيراً "اضجع يربعام مع آبائه" (ملوك ثالث ١٤ ، ٢٠)، بعد أن ملك اثنين وعشرين عاماً. ولكن يهوه الاله الأب الذي أمات أحد ولدي يربعام، نسي الآخر وهو، ناداب الذي استوى على عرش أبيه.

ومن الجدير ذكره، ان موقف رحبعام من يهوه لم يكن بأفضل من موقف يربعام منه. "وعمل يهوذا الشرفي عيني الرب وأغاظوه بخطاياهم التي اخطأوا بها أكثر من جميع ما عمل آباؤهم. وبنواهم أيضاً لانفسهم مرتفعات وانصاباً وسواري على كل تلّ مرتفع وتحت كل شجرة خضراء؛ وكان أيضاً ضالّون في الأرض فعلوا كل أرجاس الأمم التي طردها الرب من أمام بني اسرائيل" (١٤ ، ٢٢ - ٢٤).

"وفي السنة الخامسة للملك رحبعام صعد شيشق ملك مصر إلى أورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك، وأخذ كل شيء، وأخذ جميع أتراس الذهب التي عملها سليمان" (٢٥ - ٢٦).

وقد قال فولتير بهذا الصدد: "يرى بعض العلماء أن شيشق هذا لم يكن سوى فرعون مصر العظيم سيزوستريس؛ ويبرهن آخرون أن هذا الأخير ولد قبل ألف عام من زمن شيشق التوراتي؛ ويؤكد أبرز العلماء على أن سيزوستريس هذا لم يوجد في أيّ زمان ومكان. ولكن ثمة اشارة واحدة توحي بأن سيزوستريس لم ينهب أورشليم، حسب التورات أنه لم ينهب شكيم أو أريحا أو السامرة، ولم يمس العجلين الذهبيين، بينما يؤكد هيرودوت بأنه نهب الأرض كلها".

وخلف رحبعام على العرش ابنه ابيّا الذي ملك ثلاث سنوات فقط، ولكنه لم يدع هذا الوقت القصير يمرّ عبثاً. فحسب أخبار الأيام الثاني، ان أبيّا أباد خمس مائة ألف جندي من قوات ملك اسرائيل في معركة واحدة "ولم يقو يربعام بعد في أيام أبيا. فضربه الرب ومات. وتشدد أبيّا واتخذ لنفسه أربع عشرة امرأة، وولد اثنين وعشرين ابناً وست عشرة بنتاً" (١٣ ، ٢٠ - ٢١).

تعالوا بنا نجري عملية حسابية بسيطة. فحسب سفر الملوك الثالث ان أبيّا ملك ثلاث سنوات، وان حربه مع يربعام وقعت خلال العام الأول من حكمه. فما قول قارئي الكريم عن الاثنين والعشرين ولداً، والست عشرة بنتاً الذين ولدتهم له زوجاته الأربع عشرة في غضون عامين؟! انها لأيام سعيدة، أليس كذلك؟ يا للخصوبة المقدسة! أين ذهبت؟

كما يفيدنا كتاب الملوك الثالث بمعلومتين تثيران الفضول: "ملك (أبيّا)

ثلاث سنين في أورشليم، واسم أمّه معكة ابنة ابيشالوم" (١٥ ، ٢). ومن أبنائه الاثنين والعشرين ورث تاج أبيّا واحد هو، آسا. وقد حكم هذا الرجل في أورشليم واحد وأربعين عاماً. "واسم أمه حانا ابنة أبيشالوم"(١٠)، اذن، لقد تزوّج الولد خالته!

وعلى أي حال، انتقل التاج إلى آسا، ولكنه كان لا يزال صغير السن؛ فأدارت أمه دفة الحكم لبعض الوقت. "وصنع آسا ما هو قويم في عيني الرب، كداود أبيه، ونفى المختّثين من الأرض، وازال جميع أقذار الأصنام التي صنعها آباؤه. وأيضاً حانا أمه، نزع عنها لقب الملك لأنها صنعت تمثال فحل لعشتاروت، فكسر آسا تمثالها وأحرقه في وادي قدرون. وأمّا المشارف فلم تُزل، إلاّ إن قلب آسا كان مخلصاً للرب كل أيام حياته" (١٥ ، ١١ ـ ١٤). فهل كل جزاء آسا خيراً على أعماله هذه؟ سنرى الآن لقد تأتى له أن يحارب في المقام الأول، غزوات خارجية، وأيّ غزوات! (أيام ثاني ١٤). "وكان لآسا قوات مسلحة تحمل أتراساً ورماحاً: من يهود ثلاث مائة ألف، ومن بنيامين من الذين يحملون الأتراس ويشدّون القسي، مائتان وثمانون ألفاً، كل هؤلاء جبابرة بأس، فخرج أليهم زارح الكوشي. (الأثيوبي) بجيش تعداده ألف ألف، وبمركبات عددها ثلاث مائة وأتى إلىمريشة... فضرب الرب الكوشيين أمام آسا وأمام يهوذا، فهرب الكوشيون، وطردهم آسا والشعب الذين معه إلى جرار، وسقط الكوشيين حتى لم يبق حيّ لأنهم انكسروا أمام الرب وأمام جيشه.... فحملوا غنيمة كثيرة جداً" (٨ ـ ١٠ ، ١٢ ـ ١٣).

وما يزيد من دلالة هذا المشهد، أن المسافة بين اورشليم وأثيوبيا طويلة جداً أمّا الجيش اليهودي المؤلّف من ٥٨٠,٠٠٠ مقاتل، فليس أقل عجيبيّة من جيش الاثيوبيين المؤلّف من مليون مقاتل ولكن كيف سمح شيشق

المصري لتلك القطعان البربرية أن تعبر أراضي بلاده؟ أم أن الاثيوبيين استخدموا الطائرات لنقل قواتهم إلى آسيا؟!

وثمة مكافأة أخرى أجزاها يهوه إلى حبيبه آسا: "في زمن شيخوخته مرض في رجليه" (١٥ ، ٢٣) وقد أشار المؤلّف "المقدس" اشارة مقتضبة إلى هذا المرض ، الذي حلّ بآسا ليزيد من مآثر الأرضية، وبعد أن ملك آسا الجليل واحداً وأربعين عاماً أضجع مع آبائه تاركاً العرش لابنه يهو شافاط، ولكن ماذا حدث في اسرائيل أثناء ذلك؟

لقد رأينا أن يربعام مات، وترك الكرسي الملكي لابنه ناداب، "فعمل الشرّ في عيني الرب وسار في طريق ابيه، وفي خطيته التي جعل اسرائيل يخطىء بها" (٢٦) لكن هذا الملك لم يحكم سوى عام واحد (٢٥ ، ٢٦) فقد أطاح به المدعو بعشا بن أخيا من قبيلة يسّاكر، وقتله، ثم أعلن نفسه ملكاً، وحكم اسرائيل اثنين وعشرين عاماً كان سلوكه فيها تجاه ربّ الجنود سيئاً كسلوك يربعام وناداب (٣٣ - ٣٤) وأخيراً اثار هذا الموقف غضب العجوز الكلي القدرة، فشرع في محادثات مع المدعو ياهو بن حناني، وأخبره في اثنائها أنه قرر ابادة سلالة بعشا. ولمّا مات هذا الأخير على فراشه،استوى على العرش ابنه ايلة الذي لم يدم حكمه سوى عامين قُتل بعدهما على يد المدعو زمري. وبعد أن حقق زمري هذه البطولة قام بانقلاب عسكري قضى فيه على سلالة بعشا كلها، "وعند تملّكه وجلوسه على كرسيه، ضرب كل بيت بعشا، لم يبق له بائلاً بحائط، أو أولياء وأصحاب... حسب كلام الرب"(ملوك ثالث ١٦ ، ١١ - ١٢).

بيد أن حكم هذا البطل لم يستمر سوى سبعة أيام؛ فقد أعلن عمري قائد الجيش عصياناً مسلحاً ضد زمري. ولما اقتنع هذا الأخير بان دوره

كعصا ليهوه قد انتهى، قتل نفسه، وجلس عمري على العرش اثني عشر عاماً. "واشترى عمري جبل السامرة من شامر بتالانتين من الفضة، وبنى على الجبل ودعا اسم المدينة التي بناها باسم شامر صاحب الجبل، السامرة"(٢٤) وفي ذلك الوقت تقريباً بنى حيئيل البيتئيلي مدينة أريحا (٣٤) ألا يثير دهشة قارئي الكريم ألاّ يكون لملوك اسرائيل "العظام" الذين كانت لهم تلك الجيوش الجرارة، مدن محصنة بعض الشيء قبل السامرة وأريحا وشكيم؟ لقد توفرت لنا من ناحية أخرى فرصة أضافية لنتأكد من أن اللعنات ألتي صُبّت على أريحا في زمن ما، لم تساو فلساً واحداً، لأن سفر ابن نون كان قد تنبأ لها بأنها لن تقوم من أنقاضها.

الفصل الثامن والثلاثون

بطولات النبي المقاتل إيليا

ها نحن الآن وصلنا إلى آخاب الرديء، ابن عمري، الذي يفرض معلمو "التاريخ المقدس" على التلاميذ الصغار أن يلعنوا اسمه! أمّا نحن فنرى بأن التورات تغدو ممتعة مرّة أخرى مع ظهوره هذا الملك وسنلتقي قريباً نبياً آخر لا مثيل له. إنه النبي ايليا الانسان الوحيد الذي صعد إلى السماء ممتطياً عربة نارية تجرها خيول من نار، "وآخاب بن عمري ملك على اسرائيل في السنة الثامنة والثلاثين لآسا ملك يهوذا، وملك آخاب على اسرائيل في السامرة اثنين وعشرين عاماً. وعمل آخاب بن عمري الشرّفي عيني الرب أكثر من جميع الذين قبله، وكان كأنه أمراً زهيداً سلوكه في خطايا يربعام بن نباط حتى اتخذ ايزابيل ابنة أثبعل ملك الصيدونيين، امرأة، وسار وعبد البعل وسجد له، (ملوك ثالث ١٦ ، ٢٩ - ٣١).

لقد رأينا أن يهوه غفر لداود من بتشبع امرأة أوريا الحتيّ الذي قتله، ووقف موقفاً متسامحاً من زواج سليمان بابنة فرعون؛ ولكن عندما تجرأ آخاب وتزوّج ايزابيل ابنة ملك الصيدونيين، عدّها واحدة من أكثر جرائمه

بشاعة. ولم يكتف الملك الكافر بالعجلين الذهبيين كموضوع لعبادته: "وأقام مذبحاً للبعل في بيت البعل الذي بناه في السامرة" (٣٢) وهذا ليس كل شيء! "وعمل آخاب سواري وزاد في العمل لاغاظة الرب اله اسرائيل أكثر من جميع ملوك اسرائيل الذين كانوا قبله" (٣٣).

قصارى القول، إن زوج ايزابيل كان يستمتع باغاظة العجوز يهوه، ولم يدعه هادئاً في سكينته. فأرسل هذا الأخير واحداً من أنبيائه الكبار ليعالج الأمر. وقد وقع اختياره على ايليا التشبي، وهو من مستوطني جلعاد. وقال ايليا لاخاب: حي هو الرب إله اسرائيل الذي وقفت أمامه! إنه لا يكون طلّ ولا مطر في هذه السنين إلاّ عند قولي" (١٧ ، ١) ثم قفل عائداً ولم تقل التورات شيئاً عن ردّ فعل آخاب عن هذا النبأ الرهيب.

"وكان كلام الرب له قائلاً: انطلق من هنا واتجه نحو المشرق واختبىء عند نهر كريث الذي هو مقابل الاردن. فتشرب من النهر، وقد أمرت الغربان أن تعولك هناك. فانطلق وعمل حسب كلام الرب وذهب فأقام عند نهر كريث الذ هو مقابل الاردن. وكانت الغربان تأتي إليه بخبز ولحم صباحاً، وبخبز ولحم مساءً، وكان يشرب من النهر" (٢ - ٦).

وفيما بعد ألهمت فكرة اطعام الغربان القديسيين، كثيراً من مختلقيّ سير النسّاك. فبولس الناسك الذي اقام في كهف فيواد، كان يتلقى جعالة يومية من الغراب مقدارها نصف رغيف على امتداد ستين عاماً. وعندما بلغ المائة والثلاثين عاماً. جاء لزيارته الناسك اناتولي، وكان هذا قد بلغ التسعين من عمره، وعندئذٍ جاء الغراب برغيف كامل. ويؤكد القديس هيرونيم على أن هذا كله حقيقة لا ريب في صحتها!.

لنعد الآن إلى ايليا.

”وكان بعد مدّة من الزمان أن النهر ييس، لأنه لم يكن مطر في الأرض وكان له كلام الرب قائلاً: قم واذهب إلى صرفة التي لصيدون واقم هناك. هوذا قد أمرت هناك امرأة أرملة أن تعولك. فقام وذهب إلى صرفة وجاء إلى باب المدينة وإذا بامرأة ارملة هناك تقش عيداناً فناداها وقال هاتي لي قليل ماء في اناء فأشرب. وفيما هي ذاهبة لتأتي به ناداها وقال: هاتي لي كسرة خبز في يدك فقالت: حيّ هو الرب الهك، إنه ليس عندي كعكة، ولكن ملء كفّ من الدقيق في الكوار وقليل من الزيت في الكوز، وهاأنذا أقشّ عودين لآتي واعمله لي ولابني لنأكله ثم نموت، فقال لها ايليا: لا تخافي ادخلي واعملي كقولك، ولكن اعملي لي فيها كعكة صغيرة أولاً واخرجي بها إلّي، ثم اعملي لك ولابنك أخيراً، لأنه هكذا قال الرب اله اسرائيل: إن كوار الدقيق لا يفرغ وكوز الزيت لا ينقص إلى اليوم الذي يعطي فيه الرب مطراً على وجه الأرض. فذهبت وفعلت حسب قول ايليا، وأكلت هي وهو وبيتها اياماً. كوار الدقيق لم يفرغ، وكوز الزيت لم ينقص، حسب قول الرب الذي تكلّم عن يد ايليا. وبعد هذه الأمور مرض ابن المرأة صاحبة البيت واشتد مرضه جداً، حتى لم تبق فيه نسمة، فقالت لايليا: مالي ولك يا رجل الله؟ هل جئت الّي لتذكير اثمي وأماتة ابني؟ فقال لها أعطيني ابنك، واخذه من حضنها وصعد به إلى العلية التي كان مقيماً فيها واضجعه على سريره وصرخ إلى الرب فقال: أيها الرب الهي! أأيضاً إلى الأرملة التي أنا نازل عندها قد أسأت باماتتك ابنها؟ فتمدد على الولد ثلاث مرات وصرخ إلى الرب وقال: يارب الهي! لترجع نفس هذا الولد إلى جوفه، فسمع الرب لصوت ايليا ورجعت نفس الولد إلى جوفه فعاش، فأخذ ايليا الولد ونزل به من العيله إلى البيت ودفعه إلى أمه وقال: انظري ابنك حيّ، فقالت المرأة لايليا: هذا الوقت علمت أنك رجل الله وأن كلام الرب في فمك حق“ (ملوك ثالث ١٧ ، ٧ ـ ٢٤).

حقاً إن ايليا كان نبياً نموذجياً، فقد عرف من النظرة الأولى أن المرأة التي تجمع عيدان الحطب كانت أرملة. وقد يعجب البعض لطلبه كل ما عندها من الخبز له وحده. ونحن نستطيع أن نعتقد بأن الأرملة الوثنية صدقت الغريب الذي كان يتحدث باسم إله اسرائيل، أكثر مما آمن النبي نفسه بوعود يهوه. بيد أن اللاهوتيين يقولون، إن الامر يبدو هكذا للوهلة الاولى فقط؛ لأن ايليا كان يجرّب المرأة وقد تحققت العجيبة لصالحها لأنها لمّ تتردد، وصدّقت ما فيها فوراً. أمّا لو رفضت أن تقدم له أخر كسرة خبز بقيت عندها، لما وقعت العجيبة بالطبع، ولكن يهوه نفسه كان قد تحدث عن تلك العجيبة ! فكيف كان لها ألاّ تقع؟ بيدأننا لن نحاول فهم هذه البدعة التوراتية، لأننا في حقيقة الامر أمام دائرة مفرغة، أمام أمر ينتسب إلى الخارق السماوي الغامض الذي ينفرد الكهنة في ادراك كنهه.

على أيّ حال، تعتبر العجائب التي صنعها يهوه للدعاية في أوساط الوثنيين، أكثر جدارة بالدراسة والتحقيق. ومع ذلك، فإن "الكفرة" لم يعتنقوا الدين "الصحيح" حتى بعد أن رأوا تلك العجائب بامّ العين. فأرملت صرفه لم تعتنق الديانة اليهودية.

والجدير ذكره في هذا السياق، أن الديانات القديمة كلها اعترفت بوجود آلهة مختلفة، وأقّرت بأنها تعلن عن جزء من قوتها إلى بشر مختارين: كهنة مصر وفارس وبابل؛ وكانت تمنح هذا الشرف أحياناً لأفراد عاديين من عبدة الأوثان، كما وقع لبلعام مثلاً، وكان أولئك السحرة يتقيدون بطقوس عباداتهم، الأمر الذي يفسّر الحكايات التوراتية التي زعمت بأن فرعون اعترف بقدرة إله موسى عندما رأى عجائبه، لكنه لم يبدّل دينه، وأرملة صرفة بدورها اعترفت بقدرة الإله اليهودي ولكنها لم تر ضرورة لتغيير دينها.

"وبعد ايام كثيرة كان كلام الرب إلى ايليا في السنة الثالثة قائلاً: اذهب وتراءى لآخاب، فأعطي مطراً على وجه الأرض" (١٨ ، ١) إذن توقف هطول المطر ثلاث سنوات كاملة، "فذهب ايليا ليتراءى لآخاب، وكان الجوع شديداً في السامرة" (٢). أي أن الجفاف أثمر جوعاًفي البلاد. ولكن لماذا كان الجوع شديداً في السامرة أكثر من غيرها؟

"فدعا آخاب عوبديا الذي على البيت. وكان عوبديا يخشى الرب جداً، وكان عندما قطعت ايزابيل أنبياء الرب، ان عوبديا أخذ مائة نبي وخبأهم خمسين رجلاً في مغارة وعالهم بخبز وماء وقال آخاب لعويديا : اذهب في الأرض إلى جميع عيون الماء، وإلى جميع الأودية لعلنا نجد عشباً فنحيي الخيل والبغال ولا نعدم البهائم. فقسما بينهما الأرض ليعبرا بها فذهب آخاب في طريق وحده. وذهب عوبديا في طريق آخر وحده" (١٨ ، ٣ - ٦).

هل يستطيع قارئي الكريم أن يتخيّل ملكاً يترك قصره ويمضي بحثاً عن علف لخيله؟ ألا يستطيع أن يرسل أياً من خدمه لهذه المهمة؟ أيعقل أن يكون آخاب قد أطلق خدمه كلهم بسبب الجوع ولم يبق عنده سوى عوبدياً؟ ولكن المدهش في هذه الحكاية المسلية هو، بقاء ينابيع وأنهار ملآى بالمياه. فالسهول اقفرت بسبب انقطاع المطر، وهذا واضح، ولكن ألم يكن لهذا الجفاف أن يؤثر على مصادر المياه التي تحدث آخاب عنها مع عوبديا، إن ما يثير السخرية أن أحداً من قارئي التورات لم يطرح أيّ سؤال من هذه الأسئلة.

لنعد الآن إلى عوبديا. فقد سار الرجل كما أمره سيده الملك، وفي طريقه صادف صديقنا العجوز ايليا فخرّ ساجداً له. فأمره النبي أن يخبر

آخاب بقرب زيارته له. ولكن هذا الطلب أقلق عوبديا بطريقة غريبة، فقال لايليا: "... ويكون إذا انطلقت من عندك أن روح الرب يحملك إلى حيث لا أدري، فإذا أتيت وأخبرت آخاب ولم يجدك فانه يقتلني وأنا عبدك، منذ صباي أخشى الرب"(١٢). لقد كان عوبديا يخاف يهوه إلى درجة جعلته يرى في كلام النبي خدعة قذرة الهدف منها قتله، بيد أن ايليا خفف عنه وهدأ من روعه ووعده بأن يظهر أمام آخاب في اليوم نفسه.

"فذهب عوبديا للقاء آخاب وأخبره، فسار آخاب للقاء ايليا ولمّا رأى آخاب ايليا قال له: أأنت هو مكدّر اسرائيل؟ فقال: لم أكدر اسرائيل بل أنت وبيت أبيك بترككم وصايا الرب وبسيرك وراء البعليم. والآن ارسل واجمع إلّي كل اسرائيل إلى جبل الكرمل، وأنبياء البعل أربع مائة والخمسين ، وأنبياء السواري اربع المائة الذين يأكلون على مائدة ايزابيل.

فأرسل آخاب إلى جميع بني اسرائيل وجميع الأنبياء إلى جبل الكرمل. فتقدم ايليا إلى جميع الشعب وقال: حتى متى تعرجون بين الفرقتين؟ ان كان الرب هو الله فاتبعوه، وان كان البعل فاتبعوه. فلم يجبه الشعب بكلمة. ثم قال ايليا للشعب: أنا بقيت نبياً للرب وحدي، وأنبياء البعل أربع مائة وخمسون رجلاً، فليعطونا ثورين، فيختاروا لأنفسهم ثوراً واحداً ويقطعوه ويضعوه على الحطب ولكن لا يضعوا ناراً، وأنا أقرب الثور الآخر واجعله على الحطب ولكن لا اضع ناراً؛ ثم تدعون باسم آلهتكم وأنا أدعو باسم الرب، والاله الذي يجيب بنار فهو الله. فقال الشعب: الكلام حسن: فقال ايليا لأنبياء البعل: اختاروا لأنفسكم ثوراً واحداً وقرّبوا أولاً، لأنكم الأكثر، وادعوا باسم آلهتكم. فأخذوا الثور الذي أعطي لهم وقربوه ودعوا باسم البعل من الصباح إلى الظهر قائلين: يا بعل اجبنا فلم يكن صوت ولا

مجيب. وكانوا يرقصون حول المذبح الذي عُمل. وعند الظهر سخر بهم ايليا وقال: ادعو بصوت عال لأنه! إله، لعله مستغرق أو في خلوة أو في سفر، أو لعله نائم فيتنبه فصرخوا بصوت عال وتقطعوا حسب عاداتهم بالسيوف والرماح حتى سال منهم الدم" (ملوك ثالث ١٨ ، ١٦ ـ ٢٨).

ولكن النقاد اشاروا بحق إلى أن جبل الكرمل كان يقع في مملكة الصيدونيين، والخلط بينها وبين مملكة اسرائيل مرفوض. والسؤال الآن، هو هل كان بمقدور رعايا المليك الاسرائيلي آخاب أن يجتمعوا في أرض غريبة ليجيبوا على تحدي ايليا؟ ونحن نعتقد بأن جبل الكرمل ظهر في هذه الرواية نتيجة لوهن ذاكرة "الحمامة المقدسة" وضعف معلوماتها في مادة الجغرافيا. ويؤكد الناقدون أيضاً أننا إذا اعتبرنا هذا المقطع صحيحاً وأخذناه كما هو، فان ذلك يعني أن الشعب كان ذا ضمير حي لأنه قبل عرض ايليا بالاجماع، ومن الواضح أن أنبياءه الذين تشتمهم التورات بمرارة كانوا مؤمنين بقدرة بعل كإيمان ايليا بقدرة إلهه، وإلاّ لما اسالوا دماءهم ليحصلوا على النار السماوية.

إنه من الضروري على اي حال، أن نستخلص نتائج عن تاريخ اليهود، من مثل هذه الحكايات الخرافية، المضحكة. والحقيقة أن المادة التي تتبقى بعد تحرير الطُرف اليهودية من "العجائب" وباقي الزخرفات الخرافية هي، مادة ضحلة ، إلاّ أنها تعطي نتيجة ما، مثلاً: يفهم من الحكاية التي سيقت هنا، أن اليهود والاسرائيليين كانوا يعبدون الهاً واحداً، ولكن كلاًّ منهما أطلق عليه اسماً مختلفاً. فقد سكب الاسرائيليون عجلين من ذهب، بينما سكب يهود يهوذا ثورين من المعدن نفسه وضعهما سليمان في المعبد وبقيا فيه إلى أن "هدم الفرعون المصري شيشق" اورشليم والمعبد. ويفهم من النص أن

الاسرائيليين لم يسجدوا للعجلين بل لبعل. ولكن كلمة بعل كانت تعني السيّد، تماماً كما كلمات : دوناي، ألوها، رب الجنود، يهوه. وكان طقس التقدمة عند الطرفين واحد، ولم يكن ثمة فرق قط إلاّ في مستوى سفالة الكهنة عند كل فريق. فهرطقة الاسرائيليين في أنهم لم يريدوا تقديم قرابينهم في اورشليم التي كانت عندئذٍ في قبضة يهوذا، فأقاموا طقوس عبادتهم حيث أقاموا.

"ولما جاز الظهر وتنبؤوا إلى حين اصعاد التقدمة ولم يكن صوت ولا مجيب ولا مصغ، قال ايليا لجميع الشعب: تقدموا اليّ، فتقدم الشعب اليه، فرمم مذبح الرب المتهدم ثم أخذ اثني عشر حجراً بعدد أسباط اسرائيل الذي كان كلام الرب اليه قائلاً: اسرائيل يكون اسمك. وبنى الحجارة مذبحاً باسم الرب وعمل قناة حول المذبح تسع كيلين من الحبوب. ثم رتب الحطب وقطع الثور ووضعه على الحطب وقال: املأوا أربع جرات ماء وصبّوا على المحرقة وعلى الحطب، ثم قال: ثنّوا، فثنّوا، وقال: ثلثوا، فثلثوا. فجرى الماء حول المذبح وامتلأت القناة أيضاً ماء. وكان عند اصعاد التقدمة أن ايليا النبي تقدم وقال: أيها الرب إله ابراهيم واسحق واسرائيل! ليعلم اليوم أنك أنت الله في اسرائيل، واني أنا عبدك وبأمرك قد فعلت كل هذه الأمور؛ استجبني يا رب ليعلم هذا الشعب انك أنت الرب الاله، وانك أنت حولت قلوبهم رجوعاً. فسقطت نار الرب وأكلت المحرقة والحطب والحجارة والتراب، ولحست المياه التي في القناة. فلما رأى جميع الشعب ذلك، سقطوا على وجوههم وقالوا: الرب هو الله، الرب هو الله. فقال لهم ايليا: امسكوا أنبياء البعل ولا يفلت منهم رجل. فأمسكوهم، فنزل بهم ايليا الى نهر قيشون وذبحهم هناك" (٢٩ ـ ٤٠).

يؤكد بعض العلماء على أن ايليا شخصية خيالية مختلقة، وان التاريخ لم يعرف هذا النبي في أي زمان ومكان. ويؤكد الناقدون أيضاً، أنه اذا كان ايليا قد عاش فعلاً،فان زمانه لم يعرف جزاراً متوحشاً مثله. فقد كان كهنة البعل شديدي الايمان بالههم، كما كان هو مخلصاً ليهواه، وكانوا مخلصين لالههم وملكهم. ومن هنا كان قتلهم جريمة بشعة. وليس مفهوماً كيف سمح ملك اسرائيل لايليا أن يقيم تلك المجزرة؟ ومن جهة أخرى كان على ايليا أن يفهم أن ظهور الصاعقة التي التهمت المحرقة بما عليها، من شأنه ارغام أنبياء البعل على اعادة النظر في ايمانهم بالههم وتحوّلهم الى الطريق القويم. ألم يكن يجدر به أن يهتم بتوبة الخاطئين بدلاً من أن يذبحهم؟.

وبعد أن فرغ ايليا من مجزرته "قال لآخاب: اصعد كل واشرب لأنه حسّ دويّ مطر"(٤١). ونحن لم ننس بالطبع أن شعوب الأرض كلها كانت تنتظر ذلك المطر طيلة ثلاث سنوات. وهذا يعني أن ايليا نقل إلى آخاب نبأ ساراً. ولكن كذب عندما قال له، انه يسمع صوت التيار، لأن شيئاً لم يكن قد سمع بعد، وهو الأمر الذي يتضح من الكلمات التالية: "فصعد آخاب ليأكل ويشرب، وأما ايليا فصعد إلى رأس الكرمل وخرّ إلى الأرض وجعل وجهه بين ركبتيه"(٤٢). يبدو أن نبينا كان يتمتع بقدرات بهلوانية!

"وقال لغلامه: اصعد نحو البحر. فصعد وتطلّع وقال: ليس شيء، فقال: ارجع سبع مرات، وفي المرة السابعة قال: هوذا غيمة صغيرة قدر كفّ انسان صاعدة من البحر؛ فقال اصعد قل لآخاب: اشدد وانزل لئلاّ يمنعك المطر. وكان من هنا إلى هناك ان السماء اسودت من الغيم والريح، وكان مطر عظيم فركب آخاب ومضى إلى يزرعيل وكانت يد الرب على ايليا

فشدّ حقويه وركض أمام آخاب حتى يزرعيل" (٤٣ ـ ٤٦). انه لمشهد ممتع حقاً: نبي عجوز يعدو راكضاً أمام عربة الملك والمطر ينهمر مدراراً!

"وأخبر آخاب ايزابيل بكل ما عمل ايليا، وكيف قتل جميع الأنبياء بالسيف فأرسلت ايزابيل رسولاً إلى ايليا تقول: هكذا تفعل الآلهه بي، وهكذا تزيد، إن لم أجعل نفسك كنفس واحد منهم في نحو هذا الوقت غداً. فلما رأى ذلك قام ومضى لأجل نفسه، وأتى إلى بئر سبع التي ليهوذا، وترك غلامه هناك. ثم سار في البرية مسيرة يوم حتى أتى وجلس تحت رتمة وطلب الموت لنفسه وقال: قد كفى الآن يارب، خذ نفسي لأنني لست خيراً من آبائي" (١٩ ، ١ ـ ٤).

ثمة أمران يثيران الدهشة في هذه الزاوية. أولاً، غباء الملكة ايزابيل، الذي بلغ درجة تحذيرها لايليا أنها أمرت بقتله في اليوم التالي. وهذا ما أعطاه أربعاً وعشرين ساعة ليهرب بعيداً عن موقع الخطر. ثانياً، جبن هذا السيد الذي كانت له القدرة على احياء الموتى واستنزال الصواعق الحارقة، وتلبيد السماء بالغيوم الماطرة، ولكنه لم يستطع الصمود في وجه امرأة وثنية عندما وجهت له أوّل تهديد.

"واضجع ونام تحت الرتمة، واذا بملاك قد مسّه وقال: قم وكل. فتطلّع واذا كعكة ونصف كوز ماء عند رأسه، فأكل وشرب ثم رجع فاضجع. ثم عاد ملاك الرب ثانية، فمسّه وقال: قم وكل لأن المسافة كثيرة عليك فقام وأكل وشرب وسار بقوة تلك الأكلة أربعين نهاراً وأربعين ليلة إلى جبل الله حوريب"(٥ ـ ٨).

لا ريب أن "الحمامة الالهية" نسيت وهي تروي هذه الحكاية "المقدسة"، أنها هي نفسها التي قصت في زمان مضى قصة اليهود الذين ساروا طوال

ثمانية وثلاثين عاماً من جبل حوريب إلى ضواحي بئر سبع. اننا نتخيّل مؤمنة ورعة تقية لفت انتباهها هذا التناقض الصارخ فجاءت إلى أبيها الروحي وتسأله عن ماهية الأمر. واذا كنتم تعتقدون بأن الكاهن سيجد نفسه في وضع صعب، فأنتم مخطئون، لأن الآباء المقدسين يعرفون دائماً ما يجب أن يقال للمؤمن. فهوْ سيتخذ الوضع الجدي معطياً لنفسه الأهمية اياها، ويقول لها:

ـ المسافة من جبل حوريب إلى بئر السبع أطول من المسافة بين بئر سبع وجبل حوريب بثلاث مائة وسبع واربعين مرة، لذلك سار موسى ثمانية وثلاثين عاماً، ولم يسر ايليا سوى أربعين يوماً، حسب قول الرب الذي لا يخطئ. عندئذٍ سيزيد خضوع المؤمنة للتورات أكثر وأكثر كلما تضاءل مستوى فهمها لها. وما يؤسف له أن التورات لم تقل لنا شيئاً عن طريقة صنع الرغيف الذي استمر مفعوله في معدة إيليا طوال أربعين يوماً.

لقد كانت تلك الرحلة المفاجئة تحمل للنبي مفاجآت أخرى. فلما وصل إلى جبل حوريب "دخل المغارة وبات فيها، وكان كلام الرب اليه يقول: لماذا أنت هنا يا ايليا؟"(٩). ولم يتسلّم ايليا من الملاك أي تعليمات: كل ما كان يعرفه هو، أن عليه أن يتوجه إلى جبل حوريب، ولم يكن يعرف شيئاً آخر. ولم تكن لديه أي فكرة عن هدف الرحلة. ولذلك كان سؤال يهوه غريباً، ولكن على الرغم من ذلك اعتذر ايليا من العجوز وقال: "قد غرت غيرة للرب اله الجنود لأن بني اسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذابحك، وقتلوا أنبياءك بالسيف، فبقيت أنا وحدي، وهم يطلبون نفسي ليأخذوها"(١٠).

ونشير هنا اشارة عجلى إلى أن ايليا كذب على الهه، فهو ليس هارباً من

وجه بني اسرائيل، بل من وجه السيدة ايزابيل التي لم يأت على ذكرها. أما بنو اسرائيل فقد رموا أنبياء البعل كلهم في النهر ارضاء له، ولذلك فلا مبرر للخوف منهم. وقد رأينا انهم عندما رأوا العجيبة التي وقعت فوق جبل الكرمل، صاحوا بصوت واحد: "ليحيى رب الجنود!". ويهوه نفسه يعرف، وكذلك ايليا، الانقلاب الذي وقع في الرأي العام الاسرائيلي. ولذلك يصبح اللغو الذي هذى به ايليا غير مفهوم.

"فقال أخرج وقف على الجبل أمام الرب. واذا بالرب عابر وريح عظيمة وشديدة قد شقت الجبال وكسرت الصخور أمام الرب، ولم يكن الرب في الريح. وبعد الريح زلزلة، ولم يكن الرب في الزلزلة"(١١).

تخيلوا اذن ايليا فوق ذلك الجبل الراقص. إنني أدفع نقودي كلها لأرى ذلك المشهد! ولكن هذا ليس كل شيء. "وبعد الزلزلة نار، ولم يكن الرب في النار، وبعد النار صوت منخفض خفيف (انه الرب)"(١٢). وأنا لا أسخر هنا لأن الرب كان في الريح الخفيف فعلاً! "فلما سمع ايليا لفّ وجهه بردائه وخرج ووقف في باب المغارة، واذا بصوت اليه يقول: مالك هنا يا ايليا؟"(١٣). فأعاد النبي على مسامع يهوه اجابته السابقة نفسها. "فقال له الرب: اذهب راجعاً في طريقك إلى برية دمشق وادخل وامسح حزائيل ملكاً على آرام، وامسح ياهو بن نمشي ملكاً على اسرائيل، وامسح اليشع بن شافاط من آبل محولة، نبياً عوضاً عنك. فالذي ينجو من سيف حزائيل يقتله ياهو، والذي ينجو من سيف ياهو يقتله اليشع" (١٥ ـ ١٧). حتى الآن لم يوفق أحد إلى شرح مغزي هذا النص التوراتي، فليس ثمة اشارة في أي مكان إلى أن أليشع مسح وقتل التاعسين الذين نجو من سيف ياهو.

"فذهب من هناك ووجد أليشع بن شافاط يحرث، واثنا عشر فدان بقرقدامه وهو مع الثاني عشر، فمرّ ايليا وطرح رداءه عليه. فترك البقر وركض وراء ايليا وقال: دعني أقبل أبي وأمي وأسير وراءك. فقال له: اذهب واقفل راجعاً لأني ماذا فعلت لك؟". وهكذا تحوّل أليشع الى خادم لايليا، ولكنه لم يتلق أي قطرة زيت برأسه.

ويروي الاصحاح العشرون من سفر الملوك الثالث، قصة الحرب التي أعلنها بنهدد، ملك آرام (وهو غير معروف إلاّ للتورات)، على الملك الاسرائيلي لسبب عادي. في صباح صاف أرسل هذا البنهدد يقول لآخاب: "فضتك وذهبك ونساؤك الحسان لي"(٥). فجمع آخاب الشيوخ وقال لهم: أرى أنه يهزأ بي؟ فقالوا: لا تذعن لبنهدد ولا ترسل ما طلب.

ولما رأى بنهدد أن طلبه رفض، تملكه غضب شديد وأقسم أن يمحو السامرة عن وجه الأرض. وأُعلنت الحرب. ووقعت معركة قاسية انتصر فيها آخاب الذي لم يترك يهوه قواته لحظة واحدة؛ والأمر هنا غير مفهوم. أمّا الملك المهزوم فقد لجأ إلى مدينة أفيق وأخذ يفرّ من مخدع لآخر حتى وقع أخيراً بين يدي آخاب فمنحه الحياة.

ولكن يهوه ندم لأنه أهدى النصر لآخاب!

ثم تسوق التورات لنا قصة نابوت اليزرعيلي الذي كان يملك كرماً في يزرعيل قرب قصر الملك. فعرض الملك عليه أن يشتري الكرم منه بالثمن الذي يطلب، لأنه أراد أن يجعل منه حديقة لقصره. ولكن نابوت الابله رفض بيع الكرم أو مقايضته بكرم آخر، فالكرم تركه له والده الذي كان قد ورثه عن جده. وهو لن يتخلّ عنه بأي ثمر [illegible]). ولما رأى آخاب عناد الرجل حزن حزناً شديداً ولم يعد يأكل أو يشرب. عندئذٍ أرسلت ايزابيل

قتلة مأجورين قتلوا نابوت، ثم أشارت على آخاب أن يستولي على الكرم المشتهى. ولكن يهوه الذي يرى كل شيء، لم يترك الأمر يمرّ بسلام، فتدخل عبر النبي ايليا. وما ان سمع آخاب ما وجّه اليه من تهديد ووعيد حتى مزّق ثيابه وأخذ يجوب شوارع المدينة صامتاً (اصحاح ٢١).

ولأن الظروف التي أحاطت بموت آ خاب تستحق أن تروى كاملة، فاننا سنسوقها هنا كما رواها النص "المقدس". ومن دواعي سرورنا أن الاصحاح الثاني والعشرين من سفر الملوك الثالث، يقرأ بغير ملل. ففيه يعرض ما حدث على الأرض وفي السماء. ونصادف هنا رجلاً يدعى ميخا، حرفته النبوة؛ وقد حضر هذا النبي اجتماع مجلس يهوه العظيم نفسه، ذلك الاجتماع الذي التأم في المملكة السماوية، ثم روى ميخا على مسامع المجتمعين ما رآه بعينه وسمعه بإذنه. وسترون الآن أنه لا يمكن للمرء أن يكون أكثر دقة من هذا الميخا.

"وأقاموا ثلاث سنوات بدون حرب بين آرام واسرائيل، وفي السنة الثالثة نزل يهو شافاط ملك يهوذا، إلى ملك اسرائيل" (١ - ٢). والجدير ذكره أن يهو شافاط هذا هو، ابن آسا، وهو الملك الوحيد اضافة إلى حزقيا الذي ترضى عنه الكنيسة وتعدّه ملكاً نموذجياً. بيد أن يهو شافاط الملك المثال، أقام علاقات طيبة جداً مع الرديء آخاب؛ ولم يلق يهو شافاط بالاً إلى سجود آخاب وايزابيل للأوثان. بل طلب يد ابنتهما لابنه يورام ولم يَلبّ طلبه. ونذكر في هذا السياق، أن ايزابيل كانت امرأة ولودا، وهذه حسب التورات، واحدة من سمات الصلاح والتقوى. وعلى الرغم من أن ايزابيل وآخاب كانا يسجدان للأوثان، إلاّ أنهما كانا زوجين مباركين من يهوه لأنهما انجبا كما سنرى، اثنين وسبعين ولداً، عداك عن البنات.

وها هو يهو شافاط ينزل ضيفاً على نسيبه آخاب. "فقال ملك اسرائيل لعبيده: أتعلمون أن راموت جلعاد لنا ونحن ساكتون عن أخذها من يد ملك آرام؟"(٣). والحقيقة أنه عندما قضى آخاب على أعدائه الآراميين منذ سنوات ثلاث، لم يفطن الى استرجاع راموت منهم. أيُ لا مبالاة هذه! "وقال ليهو شافاط: أتذهب معي للحرب إلى راموت جلعاد؟ فقال يهو شافاط لملك اسرائيل: شعبي كشعبك وخيلي كخيلك"(٤. ولكن يهو شافاط كان ملكاً باراً، ولذلك طب معرفة موقف يهوه من الحرب المزمع اعلانها. "ثم قال يهو شافاط لملك اسرائيل: اسأل اليوم عن كلام الرب: فجمع ملك اسرائيل الأنبياء، نحو أربع مائة رجل وقال لهم: أأذهب إلى راموت جلعاد للقتال أم أمتنع؟ فقالوا: اصعد فيدفعها السيد ليد الملك"(٥ ـ ٦). اذاً لم يكن اليهود يعانون نقصاً في عدد الأنبياء: ثمان مائة وخمسين نبياً لبعل والمرتفعات، وقد نحروا جميعاً عند نهر قيشون؛ وبعد ثلاث سنوات فقط، أخذ مكانهم أربع مائة نبي ليهوه.

ولكن يهو شافاط رأى أن ذلك لا يكفي، وطلب ألاّ تستثنى مشورة أي نبي كان. ولذلك قال: "أما يوجد هنا بعد نبي للرب فنسأل منه؟ فقال ملك اسرائيل: انه يوجد بعد رجل واحد لسؤال الرب ولكني أبغضه لأنه لا يتنبأ عليّ خيراً، بل شراً، وهو ميخا بن يملة. فقال يهو شافاط: لا يقل الملك هكذا. فدعا ملك اسرائيل خصياً وقال: أسرع إليّ بميخا بن ملّة"(٧ ـ ٩).

ولمّا جاء ميخا ضم رأيه إلى رأي زملائه وتنبأ بالنصر على راموت (١٣ ـ ١٥). فأثارت نبوأة ميخا الطيبة دهشة آخاب. "وقال له الملك: كم مرّة استحلفتك أن لا تقول لي إلاّ الحق باسم الرب؟ فقال: رأيت كل اسرائيل مشتتين على الجبال كخراف لا راعي لها. فقال الرب: ليس لهؤلاء

أصحاب، فليرجع كل واحد إلى بيته بسلام فقال ملك اسرائيل ليهو شافاط: أما قلت لك إنه لا يتبأ عليّ خيراً بل شراً؟" (١٦ - ١٨).

اذاً ثمة مسألة يجب التحقق منها هي: لماذا أعطى الأنبياء الآخرون أخباراً جيدة، ومن هو المحق في نهاية المطاف؟ وما العمل؟ فتكلّم ميخا ثانية وجاءت نبوأته ذات دلالة خاصة "قال: فاسمع إذاً كلام الرب: قد رأيت الرب جالساً على كرسيه، وكل جند السماء وقوف لديه عن يمينه وعن يساره. فقال الرب: من يغوي آخاب فيصعد ويسقط في راموت جلعاد؟ فقال هذا هكذا، وقال ذاك هكذا. ثم خرج الروح ووقف أمام الرب وقال: أنا أغويه، وقال له الرب: بماذا؟ فقال اخرج وأكون روح كذب في أفواه جميع أنبيائه، فقال: انك تغويه وتقتدر. فاخرج وافعل هكذا. والآن هو ذا قد جعل الرب روح كذب في أفواه جميع أنبيائك هؤلاء، والرب تكلّم عليك بشرّ"(١٩ - ٢٣).

فما رأيك قارئي الكريم بهذه الطرفة المقدسة؟ وما رأيك بالكلي الجبروت والمعرفة الذي يبحث مع ملائكته عن أنجح الطرق لخداع الناس وابادتهم؟ لقد قال اللورد بولينغبروك في هذا النص التوراتي مايلي: إن هذه الطرفة التوراتية ليست أكثر من تكرار غبي لأحد مشاهد الالياذة، حيث يحاول جوبتر أن يرفع مجد أخيل على حساب آغا ممنون، فخدع هذا الأخير بالحلم. ثم يقول الفيلسوف الانكليزي: "قد يكون الكاهن اليهودي القديم الذي وضع هذه الخرافة استوحى خرافات هوميروس، لأن الكتب اليهودية وضعت في وقت أحدث عهداً بكثير.لكن الاله اليهودي يظهر على امتداد صفحات التورات كلها، أقلّ شأناً من إله الاغريق. فالأول مهزوم في الأحيان كلها تقريباً، ولا يحلم إلاّ بالذبائح، بينما شعبه يعاني الجوع. ومهما

ظهر يهوه بشخصه وتكلّم بفمه فإنه لم يحظ باحترام خاص عند شعبه في أي وقت من الأوقات. ولم يلتزمَ شعبه بأيّ من فرائضه. فقد بنو له معبداً، ولكن شيشق المصري لم يترك منه حجراً فوق حجر، وأعطى الحكمة إلى سليمان لكنه سخر به ورماه وسجد لآلهة أخرى. وأعطى شعبه المختار أرض الميعاد، لكن هذا الشعب عاش فيها مستعبداً منذ وفاة يشوع بن نون، حتى قيام مملكة شاول. والحقيقة أنك لن ترى إلهاً أكثر تعاسة من يهوه، أو شعباً أكثر مذلة من يهوده.

فليقل واضعوا خرافات التورات ما شاؤوا عن كفر اليهود بيهوه وترك عبادته، الأمر الذي جعل منهم قوماً تاعساً. ويمكن للكهنة الانكليز أن يقولوا الشيء نفسه عن آلام الايرلنديين والسكوتلنديين، على الرغم من انهما شعبان مؤمنان وتقيان جداً. انه ليس أسهل من القول: انك هُزمت لأنك لم تكن مؤمناً بما فيه الكفاية؛ ولو أنك قدمت إلى الكنيسة مزيداً من المال، لنجحت وحققت أهدافك كلها. وهذا الايمان الخرافي العفن يمدّجذوره في أعماق التاريخ؛ لقد جاب العالم كله وغدا الشعار الرئيس للبابوات جميعهم وللديانات كلها عند شعوب الأرض جميعها، وكان وسيلة ناجعة لتحقيق الثراء على حساب الغباء الإنساني".

ولكن الأنبياء الذين دحض ميخا نبوأتهم لم يلقوا السلاح، فقام أحدهم ووجه اليه لكمة في فكه(٢٤)؛ أضف إلى ذلك أمر الملك بارساله إلى السجن(٢٧). ثم قام آخاب وبدأ الحرب التي كان هدفه منها انتزاع راموت من السوريين، وانضم اليه ملك يهوذا(٢٩). وهكذا صدّق يهو شافاط البار، الأنبياء الأربع مائة ورمى برأي ميخا الأبله جانباً.

غير أن آخاب لم يكن مطمئناً الاطمئنان كله، فقال ليهو شافاط: "اني

أدخل الحرب متنكراً وأما أنت فالبس ثيابك. فتنكر ملك اسرائيل ودخل الحرب"(٣٠). ونحن اذا لم يكن عصياً علينا فهم دوافع آخاب، فاننا نعجب لسذاجة يهو شافاط.

"وأمر ملك آرام رؤساء المركبات الاثنين والثلاثين التي له وقال: لا تحاربوا صغيراً ولا كبيراً إلاّ ملك اسرائيل وحده. فلما رأى رؤساء المركبات يهو شافاط ظنوه ملك اسرائيل، فمالوا عليه ليقتلوه فصرخ يهو شافاط. ولما رأى رؤساء المركبات أنه ليس ملك اسرائيل، رجعوا عنه.

وشدّ أحد المقاتلين قوسه ورمى فأصاب ملك اسرائيل ببن أوصال الدرع غير متعمد. فقال لمدير مركبته: ردّ يدك واخرجني من الجيش لأني جرحت. واشتد القتال في ذلك اليوم وأُوقف الملك في مركبته مقابل آرام، ومات عند المساء، وجرى دم الجرح إلى حضن المركبة"(٣١ ـ ٣٥).

وهكذا قتل زوج ايزابيل! ويعلن لنا المؤلف "المقدس" بغطرسة وتعال أن آخاب "بنى بيتاً من العاج"(٣٩)؛ ونحن سنقتصر على هذه الملاحظة الخيالية.

وورث أخزيا عرش أبيه. وجاءت قصته القصيره في الاصحاح الأول من سفر الملوك الرابع. فقد بدأ أخزيا عهده بحادث مؤسف. "وسقط أخزيا من الكوّة التي في عليته في السامرة. فمرض"(٢). ولأننا نفتقر الى أي تفسير لذلك الحادث، فاننا مرغمون عى أن نستنتج بأن أخزيا كان يقيم في الطابق العلوي من قصره. ويبدو أنه عبّ في ذلك اليوم كثيراً من الخمرة، فسقط من النافذة عندما اقترب ليفتحها ظناً منه أنه يفتح باب خزانة الخمر. ولكن يهوه لم يسمع بموت اخزيا عندئذٍ. امّا أخزيا فقد شغلته مسألة واحدة هي: هل سيشفى م لا؟ ولمعرفة ذلك أرسل يسأل بعلزبول إله عقرون. فأثار

سلوكه هذا حنق النبي ايليا. "فقال ملاك الرب لايليا التشبي: قم اصعد للقاء رسل ملك السامرة وقل لهم: أليس في اسرائيل إله كي تذهبوا لتسألوا بعلزبول إله عقرون؟ فلذلك هكذا قال الرب: ان السرير الذي صعدت لا تنزل عنه بل موتاً تموت. فانطلق ايليا"(٣ ـ ٤).

نقل الخدم أقوال ايليا الى أخذيا على الرغم من أنهم لم يستطيعوا معرفة هوية نذير السوء هذا. فقال لهم اخزيا: "ما هي هيئة الرجل الذي صعد للقائكم وكلمكم بهذا الكلام؟ فقالوا له:انه رجل أشعر متمنطق بمنطقة من جلد على حقويه. فقال: هو إيليا التشبي. فأرسل اليه رئيس خمسين مع الخمسين الذين له، فصعد اليه واذا هو جالس على رأس الجبل؛ فقال له: يا رجل الله! الملك يقول: إنزل. فأجاب ايليا وقال: إن كنت أنا رجل الله فلتنزل نار من السماء وتأكلك أنت والخمسين الذين لك. فنزلت نار من السماء وأكلته هو والخمسين الذين له" (٧ ـ ١٠). فأرسل الملك ضابطاً آخر مع خمسينه ليلاً ليلاقي المصير نفسه (١١ ـ ١٢). وأرسل الوفد الثالث.

"فصعد رئيس الخمسين الثالث وجاء وجثا على ركبتيه أمام ايليا وتضرّع إليه وقال له: يا رجل الله! لتكرم نفسي وانفس عبيدك هؤلاء الخمسين عينيك. هوذا قد نزلت نار من السماء واكلت رئيسي الخمسينين من وخمسينيهما، والآن فتلكرم نفسي في عينيك. فقال ملاك الرب لايليا: انزل معه، لا تخف منه. فقام ونزل معه إلى الملك وقال له: هكذا قال الرب: من أجل أنك ارسلت رسلاً لتسأل بعل زبوب إله عقرون، وكأنه لا يوجد إله في اسرائيل لتسأل عن كلامه، لذلك، السرير الذي صعدت عليه لا تنزل عنه، بل موتاً تموت.

فمات حسب كلام الرب الذي تكلّم به ايليا. وملك يهورام عوضاً عنه في السنة الثانية ليهورام بن يهوشافاط ملك يهوذا، لأنه لم يكن له ابن" (١٣ - ١٧).

لقد كتب اللورد بولينغبروك في معرض تعليقه على هذا النص يقول: "إن ايليا الذي تمكن من إبادة الخمسينين بنار سماوية ليس إلاّ شخصية خرافية، وإلاّ لكان بمقدوره أن يستولي على مقاليد الأمور في الكرة الأرضية كلها بمساعدة ناره تلك، وهو يتنزه مع خادمه. وهذا ما قاله العقلاء دائماً للسحرة والمشعوذين: إذا كنتم على ثقة بأن الشيطان الذي انتم معه متحالفون، سينفذ اوامركم كلها، فلماذا لا تأمرونه بأن يعطيكم ممالك الأرض وثرواتها ونساءها كلها؟ وما يمكن قوله لايليا أيضاً:

ـ لقد قتلت ضابطين ومائة جندي بصواعق استنزلتها من السماء، ولكنك كنت قد وليت الإدبار إلى أعمق الجحور كأي فأر جبان، يوم توعدتك الملكة، إيزابيل. فلما لم تشطرها بواحدة من صواعقك كما فعلت بالجنود؟ إنه لتناقض يثير الاشمئزاز، فأنت إله حيناً، وجبان رعديد أحياناً!"

ونحن نضيف: إن ابادة الجنود المغلوب على امرهم ولا ذنب لهم في كل ما كان يجري، تبقى أمراً غير مقبول. والتورات نفسها لا تشير إلى أن أخزيا كان قد بيّت أمراً ما ضد ايليا، بل حتى لمّا جاء هذا الأخير الأبله واستعرض حماقاته امام الملك، خرج من حضرته سليماً لم يمسه اذى. أضف إلى ذلك أنه، لو كان أخزيا قد نوى أن يرمي بايليا إلى حيث يقبع ميخا، لما كانت هناك حاجة لابادة الجنود الأبرياء، أما كان يكفي شلّ قوتهم؟ وهذا في نهاية الأمر اجراء بعيد عن الظلم والشناعة.

وفيما يخص اخزيا ويهوشافاط واليهورامين، فان التورات تقع في تناقض

صارخ من المفيد الاشارة إليه. ففي كتاب الملوك الثالث (اصحاح ٢٢) نقرأ: "ملك يهوشافاط بن آسا على يهوذا في السنة الرابعة لآخاب ملك اسرائيل. وكان يهوشافاط ابن خمس وثلاثين سنة حين ملك، وملك خمساً وعشرين سنة في اورشليم، واسم امه عزوبة بنت شلحي" (٤١ ـ ٤١). ثم نقرأ في الاصحاح نفسه: "وأضجع يهو شافاط مع آبائه.. وملك يهورام ابنه عوضاً عنه"(٥٠). وهذا اليهورام اليهودي هو نفسه صهر الملك الاسرائيلي آخاب زوج ابنته عثليا. "اخزيا بن آخاب، ملك على اسرائيل في السامرة، في السنة السابعة عشرة ليهو شافاط ملك يهوذا. وملك على اسرائيل سنتين"(٥١).

تؤكد التورات بعد هذا، بأن أخزيا لم ينجب أولاداً، وأن اخاه يهورام هو الذي ورثه على العرش، وأن هذا الملك الاسرائيلي اعتلى العرش في السنة التاسعة عشرة لحكم يهوشافاط، عندما لم يبق لهذا الأخير من العمر سوى ست سنوات، أي قبل ست سنوات من اعتلاء يهورام بن يهوشافاط صهر آخاب، عرش يهوذا. ولكن، إذا كان يهورام اليهودي قد ورث عرش ابيه يهوشافاط بعد ثمان سنوات من موت آخاب، (٢٢ ، ٤٢ ، ٥١ ، ٥٢)، فكيف استطاع هو نفسه أن يحكم عامين حتى اللحظة التي ورث فيها صهره يهورام الاسرائيلي عرش اخزيا صهره أيضاً، والذي لم يحكم سوى عامين بعد آخاب؟

بعدئذٍ يبدأ نص الاصحاح الثالث من كتاب الملوك الرابع بالسطر التالي: "وملك يهورام بن آخاب على اسرائيل في السامرة، السنة الثامنة عشرة ليهو شافاط ملك يهوذا، وملك اثنتي عشرة سنة"(١): وبهذا يصبح التناقض ثلاثة اضعاف. فهذا النص يجعل اخزيا يحكم عاماً واحداًفقط، مع أن السطر الثاني والخمسين من الاصحاح الثاني والعشرين في سفر الملوك

الثالث يتحدث عن عامين قضاهما اخزيا، والتناقض الأول جعل هذه المدة ثمان سنوات.

إننا نأمل بألاّ يتهمنا القارىء الكريم بأننا نبدد الوقت والجهد عبثاً لاظهار هذه التناقضات الغبية التي سقط المؤلف "المقدس" فيها. فهي تبينّ لامبالاة خدم الدين الذين "فبركوا" هذا الكتاب الغبي غباء رهيباً، ولم يبذلوا أيّ جهد لاعادة تدقيقه.

وفي تلك الأيام كانت تدور في الأفق عجيبة عظمى.

"وكان عند اصعاد الرب ايليا في العاصفة إلى السماء، أن ايليا واليشع ذهبا إلى الجلجال.... فخرج بنو الأنبياء الذين في بيت ايل إلى اليشع وقالوا له: أتعلم أنه اليوم يأخذ الرب سيّدك من على رأسك؟ فقال: نعم إني أعلم فاصمتوا. ثم قال له ايليا: يا اليشع! امكث هنا لأن الرب قد أرسلني إلى اريحا، فقال: حيّ هو الرب وحية هي نفسك، إنني لا اتركك. واتيا إلى اريحا. فتقدم بنو الأنبياء الذين في اريحا الى اليشع وقالوا له: أتعلم أنه اليوم يأخذ الرب سيّدك من على رأسك؟ فقال: نعم اني أعلم فاصمتوا. ثم قال ايليا له: امكث هنا لأن الرب قد أرسلني إلى الأردن، فقال: حيّ هو الرب وحية هي نفسك، اني لا أتركك. وانطلقا كلاهما. فذهب خمسون رجلاً من بني الأنبياء ووقفوا قبالتهما من بعيد، ووقف كلاهما بجانب الأردن وأخذ ايليا رداءه ولفه وضرب الماء فانفلق إلى هنا وهناك فعبرا في اليبس. ولما عبرا قال ايليا الأليشع: اطلب ماذا افعل لك قبل أن أؤخذ منك، فقال أليشع: ليكن نصيب اثنين من روحك علي، فقال: صعبت السؤال، فإن رأيتني أؤخذ منك يكون لك كذلك، وإلاّ فلا يكون. وفيما هما يسيران ويتكلمان إذا مركبة من نار وخيل من نار، ففصلت بينهما، فصعد ايليا في

العاصفة إلى السماء. وكان أليشع يرى ويصرخ: يا ابي، يا ابي، مركبة اسرائيل وفرسانها، ولم يره بعد، فأمسك ثيابه ومزّقها قطعتين، ورفع رداء ايليا الذي سقط عنه وضرب الماء وقال: أين هو الرب إله ايليا؟ ثم ضرب الماء ايضاً فانفلق إلى هنا وهناك وعبر أليشع" (ملوك رابع ٢ ، ١ ، ٣ - ١٤).

تبرز هنا ملاحظات لا بدّ منها، إذا كان يهوه قد ازمع اصعاد ايليا إلى السماء بعظمه ولحمه، كما كان قد فعل مع اخنوخ، فلماذا ارغمه على قطع تلك الرحلة العبثية من الجلجال إلى بيت ايل، ثم إلى اريحا ومنها الى الأردن؟ ولماذا أرغمه على اجتياز الأردن نفسه؟ ألم يكن بمقدور حوذي المركبة النارية الهبوط بها على الضفة اليسرى للأردن؟ وماذا يعني نصيب اثنين من روح ايليا؟ فالتورات لا تقول إلاّ أنّ أليشع نظر إلى رحيل ايليا وتعالى صوته بصراخ غريب.

ومن الجدير ذكره في هذا السياق، أن اللاهوتيين يؤكدون على أن "مملكة السماء" تتألف من الأرواح فقط. ألا يتناقض هذا مع حدثيّ صعود اخنوخ وايليا إلى السماء؟ وما الفائدة من جسد ذلك البطريرك وهذا النبي في مملكة السماء الروحية؟ وإلى أيّ حدّ يكبر مجد أخنوخ وايليا، مجد مختاري يهوه الآخرين الذين يقيمون في مخادع السماء بأرواحهم دون أجسادهم؟ مثلاً، أيّ حديث ذلك الذي جرى في السماء بين موسى وايليا عندما كانت الروح تتحدث بأفكار فقط، بينما يتحدث الجسد بفم وصوت؟.

وأخيراً، هذه المركبة النارية وهذه الخيول النارية والعاصفة واسم "ايليا" نفسه (إيلي، إيليوس - الشمس)، أعطوا بولينغبروك وبولانجه امكانية لأن يريا

في مغامرة ايليا هذه، محاكاة لمغامرة البطل الاغريقي القديم ثاتون، الذي ركب مركبة نارية أيضاً. ولكن أسطورة ثاتون ذات منشأ مصري، وهي أسطورة تعليمية أخلاقية تبيّن خطر الغطرسة وأذاها. فما هو مغزى تحليق ايليا إلى السماء؟

الفصل التاسع والثلاثون

حياة أليشع الخارقة

ونهاية مملكة اسرائيل

إذن، ورث أليشع رداء ايليا ونصيبين من روحه،" ولما رأوه بنو الأنبياء سجدوا له إلى الأرض" (٢ ، ١٥) وأول عمل قام به أليشع في أريحا، انه طهرّ المياه بعد أن رمى فيها حفنة من الملح. ومضى من هناك إلى بيت ايل. "وفيما هو صاعد في الطريق، إذا بصبيان خرجوا من المدينة وسخروا منه قائلين: اصعد يا اقرع! فالتفت إلى ورائه ونظر إليهم ولعنهم باسم الرب، فخرجت دبتان من الوعر وافترستا منهم اثنين وأربعين ولداً"(٢٣ - ٢٤).

لقد لاحظ بولينغبروك أن "أليشع يشبه خادماً اغتنى فشرع يقتص من كل من يسخر منه. تباً لك يا امعّة النبي الكريه! لقد أرغمت الدببة على تمزيق الأطفال أشلاء لمجرّد أنهم عيرّوك بالصلع. ولكن لحسن حظ الأطفال فلسطين أن ضواحي بيت ايل خالية من الغابات، وفلسطين لم تعرف الدببة في أي زمان كان. وعليه فان غباء هذه الحكاية يخفف من فظاعتها!".

يا للمؤلف التاعس! يبدوا أنه عبَّ من الجعة أكثر من حاجته وتناول الريشة ليسّطر لنا هذا النص

وبعد أن قدم لنا الاصحاح الثالث من سفر الملوك الرابع الملك يهو شافاط يرفل بالنعيم، وهي الصورة النقيضة لتلك التي رسمها له الاصحاح الأول، تروي التورات لنا أن ميشع ملك مؤآب، كان يؤدي لاسرائيل أتاوة سنوية مقدراها مائة ألف معزاة ومائة ألف خروف غير مجزوز. ولما مات آخاب وصعد اخزيا العرش ثم سرعان ما سقط من النافذة، قرر ميشع عدم دفع الاتاوة. ولكن يهورام الذي اعتلى عرش أخيه طلب أن تؤدى الاتاوة له. فرفض ميشع الطلب، الامر الذي دفع يهورام إلى بدء العمليات القتالية معتمداً على حليفيه: ملك يهوذا وملك آدوم.

"فذهب ملك اسرائيل وملك يهوذا وملك آدوم، وداروا مسيرة سبعة أيام ولم يكن ماء للجيش والبهائم التي تبعتهم. فقال ملك اسرائيل: آه! إن الرب قد دعا هؤلاء الملوك الثلاثة ليدفعهم إلى يد موآب. فقال يهوشافاط : أليس هنا نبي للرب فنسأل الرب به؟ فأجاب واحد من عبيد ملك اسرائيل وقال: هناك أليشع بن شافاط الذي كان يصب الماء على يدي ايليا، فقال يهو شافاط: عنده كلام الرب. فنزل إليه ملك اسرائيل ويهو شافاط وملك آدوم" (٣ ، ٩ - ١٢).

نشير في هذا السياق إلى أن ابن آخاب وملك آدوم لم يقيما عبادة الاله اليهودي، الامر الذي دعا بولينغبروك إلى ملاحظة التالي: "إذا روى لك أحدهم أن ثلاثة ملوك بينهم، كاثوليكي واحد وبرتستنتيان، جاؤوا إلى كاردينال كاثوليكي بطلب واحد هو، استنزال المطر، على سبيل المثال؛ فما الذي تقوله بصدد مثل هذه الحماقة؟ ولو أن كاهناً كاثوليكياً كتب مثل هذا

الهراء، ألم يكن قد أكّد به على صحة المثل القائل: ،، انه يكذب ككاهن؟،،".

"فقال اليشع لملك اسرائيل: مالي ولك؟ اذهب إلى أنبياء أبيك وأنبياء أمك، فقال ملك اسرائيل: كلاّ، لأن الرب قد دفع هؤلاء الملوك الثلاثة إلى يد موآب فقال أليشع: حيّ هو رب الجنود الذي أنا واقف أمامه، لولا أني رافع وجه يهوشافاط ملك يهوذا، لما كنت نظرت إليك ولا اراك، والآن آتوني بعوّاد. ولما ضرب العواد كانت يد الرب على أليشع فقال: هكذا قال الرب: اجعلوا هذا الوادي جباباً جباباً، لأنه هكذا قال الرب: لا ترون ريحاً ولا ترون مطراً، أما الوادي فيمتلىء ماء وتشربون أنتم وماشيتكم وبهائمكم، وذلك يسير في عيني الرب فيندفع موآب إلى ايديكم، فتضربون كل مدينة محصنة وكل مدينة مختارة، وتقطعون كل شجرة طيبة، وتطمّون جميع عيون الماء وتفسدون كل حقلة جيدة بالحجارة" (١٣ ـ ١٩).

ولكن، إذا كان يهوه قد حقق هذه الشروط كلها، فلماذا النصر إذن؟ فالاسرائيليون أعلنوا الحرب على موآب لارغامها على تادية الاتاوة السنوية، وإذا كان النصر سيترافق بخراب البلاد، فلن يكون ثمة حديث عن أيّ أتاوة. "وفي الصباح، عند اصعاد التقدمة، اذا مياه آتية عن طريق آدوم، فامتلأت الأرض ماء" (٢٠).

أما الجزء الثاني من النبوأة الشنيعة، فلم يكن تحققه بأسوأ من تحقق الجزء الأول: عندما هاجم الموآبيون تجمعات الاسرائيليين، الحقت بهم هزيمة منكرة وأبيدوا إبادة تامة.

وأتوا إلى محلة اسرائيل، فقام اسرائيل وضرب الموآبيين فهربوا من أمامهم، فدخلوها وهم يضربون الموآبيين. وهدموا المدن، وكان كل واحد

يلقي حجرة في كل حقل جيدة حتى ملأوها، وطمّوا جميع عيون الماء وقطعوا كل شجرة طيبة؛ ولكنهم ابقوا في قير حارسة حجارتها، واستدار أصحاب المقالع وضربوها. فلما رأى ملك موآب أن الحرب قد اشتدت عليه، أخذ معه سبع مائة رجل مستلي السيوف لكي يشقوّا إلى ملك آدوم فلم يقدروا. فأخذ ابنه البكر الذي كان ملك عوضاً عنه واصعده محرقة السور. فكان غيظ عظيم في اسرائيل، فانصرفوا عنه ورجعوا إلى أرضهم" (٢٤ - ٢٧).

يقيناً أنه لو اقيم معرض لهراء البلهاء لفازت هذه القصة بالجائزة الأولى، ولذلك فهي لا تحتاج إلى أيّ تعليق.

ثم نصادف بعد ذلك، الطبعة الثانية من عجائب ايليا وقد اصدرها أليشع منقحة مزيدة حسب الظروف والأحوال. فقد صادف نبينا الجديد في طريقه (لاتحدد التورات المكان) أرملة تقضّ مضجعها الديون التي تركها زوجها الراحل، وكان الدائنون يزمعون بيع أطفالها عبيداً (اصحاح ٤ ، ١) فطلب منها أليشع أن تكشف له عن أملاكها كلها. فأجابت الأرملة: "ليس لجاريتك شيء في البيت إلاّ دهنة زيت" (٢) ولم يكن أليشع يريد أكثر، فأمر المرأة أن تستعير قدور الجيران كلها، ثم تغلق الباب عليها وعلى ولديها وتسكب الزيت الذي عندها في الأوعية كلها. هل ثمة داع لذكر العجيبة التي وقعت؟! لقد ظهر يا سيدي، أن قدر العجوز الذي لم يكن فيه أكثر من دهنة زيت، قد تحوّل إلى نبع حقيقي من الزيت. ولما رأت المرأة ما حدث، قامت ومضت تقدم الشكر لرجل الله، فقال لها أليشع: "اذهبي بيعي الزيت وأوفي دينك وعيشي أنت وبنوك بما بقي" (٧) لكن ما يستحق الاهتمام في هذه العجيبة ليس شبهها بعجيبة إيليا مع أرملة صرفة، بل استغناء أليشع فيها عن الموسيقى!.

"وفي ذات يوم عبر أليشع إلى شونم. وكانت هناك امرأة عظيمة، فأمسكته ليأكل خبزاً وكان كلما عبر يميل إلى هناك ليأكل خبزاً. فقالت لرجلها: قد علمت أنه رجل الله مقدّس الذي يمرّ علينا، فلنعمل علية على الحائط صغيرة ونضع له هناك سريراً وخواناً وكرسياً ومنارة، حتى إذا جاء إلينا يميل إليها. وفي ذات يوم جاء إلى هناك ومال إلى العلية واضجع فيها فقال لحجيزي غلامه: ادع هذه الشونمية، فدعاها فوقفت أمامه، فقال لها: قل لها: هوذا قد انزعجت بسببنا كل هذا الانزعاج، فماذا يُصنع لك؟ هل لك ما يتُكلّم به إلى الملك أو رئيس الجيش؟ فقالت: إنما أنا ساكنة في وسط شعبي. ثم قال: فماذا يصنع لها؟ فقال حجيزي: إنه ليس لها ابن وزوجها قد شاخ. فقال: ادعها، فدعاها فوقفت في الباب، فقال: في هذا الميعاد نحو زمان الحياة تحضنين ابناً. فقالت: لا يا سيدي رجل الله، لا تكذب على جاريتك. فحبلت المرأة وولدت ابناً في ذلك الميعاد على نحو زمان الحياة كما قال أليشع" (٨ - ١٧).

في هذه الرواية معلومة صغيرة تثير التساؤل. فمنذ أن أقام أليشع عند هذه المرأة الطيبة، بدا وكأنه في علاقة طيبة مع الملك (كانت شونم وقت ئذٍ تابعة لاسرائيل) وفي سعيه ليكون لبقاً ولطيفاً، عرض أليشع على المرأة أن يقدم لها أي مساعدة تريدها من الملك يهورام، وكأني به يعدّ نفسه من المقربين الذين لهم دالّة على يهورام! ولكن هذا الملك هو نفسه يهورام الذي أعلن أليشع له منذ قليل، إنه لا يرغب أن يراه أو يتحدث اليه.

ولا يقول لنا النص التوراتي قولاً مباشراً بأن أليشع هو الذي زرع نطفته في رحم المرأة، بيد أنه سمح لنا بمثل هذا الظن. فالرواية التوراتية تسمّي رجل يهوه أباً، ونحن لا نعرف بالضبط إن كانت أُبوة حقيقية.

"وكبر الولد، وفي ذات يوم خرج إلى أبيه إلى الحصادين، وقال لأبيه: رأسي! إن رأسي تؤلمني! فقال هذا لغلامه: احمله إلى أمه... فجلس على ركبتها إلى الظهر ومات. فصعدت واضجعته على سرير رجل الله وأغلقت عليه وخرجت... وانطلقت حتى جاءت إلى رجل الله إلى جبل الكرمل... فلما جاءت إلى رجل الله إلى الجبل وأمسكت رجليه... فقالت هل طلبت ابناً من سيدي؟ ألم أقل : لا تخدعني؟... فقام وتبعها... ودخل أليشع البيت وإذا بالصبي ميت ومضجع على سريره. فدخل وأغلق الباب على نفسيهما كليهما وصلى إلى الرب ثم صعد واضجع فوق الصبي، وضع فمه على فمه وعينيه على عينيه. فدعا حجيزي وقال: ادع هذه الشونمية فدعاها، ولما دخلت إليه قال: احملي ابنك وسقطت على رجليه وسجدت إلى الأرض ثم حملت ابنها وخرجت" (١٨ - ٣٧)[١]

إننا لا نلوم كل من يسخر من عجيبة أليشع هذه التي لا تختلف عن عجيبة إيليا إلاّ بعدد حركات الجسد. لكن اللاهوتيين يرون فيها مغزى صوفياً.

ثم عاد أليشع من شونم إلى الجلجال فوجد الجوع سيدّ الساحة هناك، إذن، هاهو الجوع مرّة أخرى! وهو برهان آخر على أن أرض كنعان، بجبالها العارية وكهوفها ومنحدراتها وبحيرتها السدومية وصحرائها الرملية، لم تكن الأرض الخصبة التي وصفها العجوز يهوه لشعبه المختار على لسان موسى.

"ورجع أليشع إلى الجلجال ، وكان جوع في الأرض، وكان بنو الأنبياء جلوساً أمامه فقال لغلامه: ضع القدر الكبيرة وأسلق سليقة لبني الأنبياء. وخرج واحد إلى الحقل ليلتقط بقولاً فوجد يقطيناً بريّاً فالتقط منه قثاء برياً ملء ثوبه، وأتى وقطعه في قدر السليقة لأنهم لم يعرفوه، وصبّوا للقوم

ليأكلوا وفيماهم يأكلون السليقة صرخوا وقالوا: في القدر موت يا رجل الله! ولم يستطيعوا أن يأكلوا. فقال: هاتوا دقيقاً، فألقاه في القدر وقال: صبّ للقوم فيأكلوا فكأنه لم يكن شيء رديء في القدر.

وجاء رجل من بعل شليشة، واحضر لرجل الله خبز باكورة ، عشرين رغيفاً من شعير وسويقاً في جرابه فقال: اعط الشعب ليأكل، لأنه هكذا قال الرب: يأكلون ويفضّل عنهم فجعل أمامهم فأكلوا وفضّل عنهم حسب قول الرب" (٣٨ ـ ٤٤).

إذن، إنها العجيبة نفسها التي سيصنعها يسوع المسيح فيما بعد في ظروف أخرى، بيد أن أليشع كان حتىٰ ذلك الوقت قد مات منذ زمن بعيد، ولذلك، لم يستطيع اتهام ابن مريم بالانتحال. ونأتي الآن إلى الفصل الخامس من سفر الملوك الرابع، وهو الفصل الذي كرّس لحكاية نعمان. فحسب التورات ان هذا الرجل كان شخصية مرموقة ومعروفة، إلاّ أن أحداً من المؤرخين لا يعرفه.

"كان نعمان رئيس جيش ملك آرام. وكان الرجل جبار بأس أبرص. وكان الآراميون قد خرجوا غزاة فسبوا من أرض اسرائيل فتاة صغيرة فكانت بين يدي امرأة نعمان فقالت لسيّدتها: يا ليت سيدي امام النبي الذي في السامرة، فانه يشفيه من برصه" (١ ـ ٣).

ولمّا وصلت هذه الكلمات سمع الجنرال نعمان، طلب من الملك إجازة. ولم يرفض الملك طلبه بالطبع، بل حمله رسالة إلى ملك اسرائيل ليستقبله هناك أحسن استقبال. فقام نعمان ومضى حاملاً معه عشرة تالانتات فضة وستة آلاف شاقل ذهباً وعشر حلل من الثياب. ولكن ملك اسرائيل لم يفهم حقيقة الأمر عندما قرأ فيها: "فالآن عند وصول هذا الكتاب إليك،

هوذا ارسلت إليك نعمان عبدي فاشفه من برصه"(٦). وليس صعباً أن نتخيّل أيّ ذهول نزل على يهورام لمّا قرأ هذه الكلمات، إلا أن ما يصعب علينا هو، معرفة الكيفية التي تصرف بها. فحسب التورات ان "ملك اسرائيل مزّق ثيابه وقال: هل أنا الله كي أميت وأحيي حتى يرسل إليّ أن أشفي رجلاً من برصه؟ فاعلموا وانظروا أنه إنما يتعرّض لي"(٧).

ولكن من حسن الطالع، أن أليشع كان على علم بما يجري، فأرسل إلى يهورام يقول له أن يرسل نعمان إليه. ولما جاء هذا الأخير إليه، وصف له وصفة في غاية البساطة: أن يغتسل سبع مرات في مياه الأردن وبهذا فقط تطهّر جسم الجنرال من البرص: "فرجع لحمه كلحم صبي صغير وطهر" (١٤). والحقيقة أن وصفة النبي خيّبت أمل نعمان في بداية الأمر، فقد شقّ على معاليه أن يقطع تلك المسافة كلها ليغتسل في مياه نقية عذبة وحسب. ولذلك قال: أليس عندنا مثل هذه المياه أيضاً. فشرحوا له أن انهار بلاده لا تتمتع مياهها بخصائص مياه نهر الأردن التي منحها أليشع لها. ولما شفي وصار جسده نقياً، مضى ليشكر النبي. "قد عرفت أنه ليس إله في كل الأرض إلاّ في اسرائيل، والآن فخذ بركة من عبدك"(١٥). وعلى الرغم من الحاح نعمان الشديد، إلاّ أن النبي رفض ما عُرض عليه رفضاً قاطعاً.

لقد صنع أليشع عدداً من العجائب الأخرى أيضاً. ففي أحد الأيام كان أحد الذين يدعوهم المؤلف "المقدس" بأبناء الأنبياء، قائماً على ضفّة الأردن يقطع حطباً، فسقطت فأسه في الماء. "فصرخ وقال: آه يا سيدي!"... فقال اليشع: "أين سقط؟ فأراه الموضع. فقطع عوداً ،ألقاه هناك فطفا الحديد". ولم يبق لابن النبي إلاّ أن يمدّ يده ويلتقط الفأس من الماء (اصحاح ٦ ، ٥ - ٦).

وتبين عجيبة أخرى المدى الذي وصلته حماية يهوه لهذا الأليشع "وأما ملك آرام فكان يحارب اسرائيل... وجاؤوا ليلاً وأحاطوا بالمدينة فبكر خادم رجل الله وقام وخرج؛ وإذا جيش محيط بالمدينة وخيل مركبات فقال غلامه له: يا سيدي كيف نعمل؟ فقال: لا تخف لأن الذين معنا أكثر من الذين معهم وصلى أليشع وقال: يارب! افتح عينيه فيبصر، ففتح الرب عيني الغلام! فأبصر، وإذا الجبل مملوء خيلاً ومركبات نار حول أليشع ولما نزلوا إليه، صلى أليشع إلى الرب وقال: اضرب هؤلاء الأمم بالعمى، فضربهم بالعمى كقول أليشع" (٨ ، ١٨).

وبهذا يرتدي الحدث هنا طابع الكوميديا الهزلية. تصوّر يا رعاك الله! جنوداً وضباطاً وقد ألّمت بهم تلك النازلة المرّة ففقدوا بصرهم على حين غرّة، وفي لحظة واحدة! وتغدوا اللوحة أكثر حيوية عندما يجري الحديث عن جيش برمته. فقد حاصرت العربات والفرسان والمشاة، المدينة التي كان النبي فيها. وإذا كانت قد وقعت عجيبة حقاً، فمن الطبيعي أن نتوقع فكّ الحصار وسؤال المحاصرين الرحمة وسوقهم احياء إلى بلادهم، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث! فذلك الجيش الأعمى لم يتراجع، حسب التورات، عن سعيه لأخذ النبي الخطر حياً أو ميتاً، ثم يرغم المؤلّف "المقدّس" المؤمنين على ابتلاع واحدة من أكثر الحماقات عظمة واجلالاً بين كل الغباءات التي كتبها الكهنة ليسخروا بها من ايمان البسطاء وثقتهم. فقد عرض أليشع خدماته على الضباط والجنود الآراميين ليقودهم بحثاً عن أليشع. تصّورر! و مع ذلك فقد قبل أؤلئك البلهاء العرض. فقادهم النبي إلى عاصمة الدولة حيث وقعوا أسرى، فهل لهذا الهراء مثيل؟! وهاكم النص الالهي نفسه: "فقال لهم أليشع ليست هذه هي الطريق ولا هذه هي المدينة؛ اتبعوني فأسير بكم إلى الرجل الذي تفتشون عليه. فسار بهم إلى السامرة" (٦ ، ١٩)

تخيّل يا سيدي، إن استطعت، ذلك الجيش الجرار بضباطه وجنوده وعرباته، يسير واحداً أثر الآخر خلف أليشع؛ وتخيّل أيضاً أؤلئك العميان سائرين على اقدامهم من دوثان إلى السامرة وقد أمسك أحدهم بذيل رداء الآخر بينما أمسك أوّلهم بذيل رداء النبي الدليل الذي هو المطلوب بعينه. وبعد أن ترسم الصورة المرحة في ذهنك، فاني أسأل: هل يمكن لأيّ دين آخر أن يسخر من ايمان مريديه بمثل هذه الصفاقة؟ "فلما دخلوا السامرة قال أليشع: يا رب افتح أعين هؤلاء فيبصروا ففتح الرب أعينهم فأبصروا وإذا هم في السامرة (٢٠).

ولكن الأمر انتهى على خير، فلم يستغل أليشع نصره الساحق على هؤلاء الحمقى استغلالاً سيئاً. فالنص التوراتي يفيد بأن "ملك اسرائيل قال لأليشع لما رآهم! هل اضرب يا أبي؟ فقال: لا تضرب! تضرب الذين سبيتهم بسيفك وبقوتك. ضع خبزاً وماء أمامهم فيأكلوا ويشربوا ثم ينطلقوا إلى سيدّهم. فاولم لهم وليمة عظيمة فاكلوا وشربوا ثم أطلقهم، فانطلقوا إلى سيدهم ولم تعد جيوش آرام تدخل إلى أرض اسرائيل ثانية" (٢١ - ٢٣).

ولكن ما قرأناه هنا يتناثر هباء لدى قراءتنا باقي هذه الحكاية. إلاّ أنه "الكتاب المقدس" فما العمل؟ يؤكد السطر الثالث والعشرون، كما قرأنا أعلاه، على أن أليشع انقذ اسرائيل من تدخل القوات الآرامية في أراضيها. بيد أن السطر الرابع والعشرين يفيد بما يلي: "وكان بعد ذلك أن بنهدد ملك آرام جمع كل جيشه وصعد فحاصر السامرة" وهروباً من ضرورة تفسير هذا التناقض الغبي، لا يتحدث واضعو كتب تعليم "التاريخ المقدس" إلاّ عن عجيبة ضرب الجيش الآرامي بالعمى.

وهكذا يصعد بنهدد مسرح الأحداث ثانية. وهذه البنهدد هو نفسه

الذي منحه آخاب إمكانية التخفي. "وكان جوع شديد في السامرة عندما حاصروها، حتى صار رأس الحمار يباع بثمانين من الفضة، وربع القاب من زبل الحمام بخمس من الفضة. وبينما كان ملك اسرائيل جائزاً على السور، صرخت امرأة إليه تقول: خلّص يا سيدي الملك. فقال: إذا كان الرب لا يساعدك فمن أين أخلّصك أنا؟ أمن البيدر أو من المعصرة؟ ثم قال لها: ما لك ؟ فقالت: إن هذه المرأة قالت لي هاتي ابنك فنأكله اليوم، ثم نأكل ابني غداً، فسلقنا ابني وأكلناه. ثم قلت لها في اليوم الآخر: هاتي ابنك لنأكله، فخبأت ابنها ولمّا سمع الملك كلام المرأة مزّق ثيابه وهو مجتاز على السور، فنظر الشعب وإذا مسح من داخل على جسده فقال: هكذا يصنع لي الله وهكذا يزيد إن قام رأس أليشع بن شافاوط عليه اليوم.

وكان أليشع جالساً في بيته والشيوخ جلوساً عنده فأرسل رجلاً أمامه، وقبلما أتي الرسول إليه قال للشيوخ: هل رأيتم أن ابن القاتل هذا قد أرسل لكي يقطع رأسي؟ انظروا إذا جاء الرسول فاغلقوا الباب واحصروه عند الباب. أليس صوت قدمّي سيده وراءه؟ وبينما هو يتكلّم إذا بالرسول نازل إليه فقال: هوذا الشرّ من قبل الرب، فماذا انتظر من الرب بعد؟" (٢٥ - ٣٣).

لحسن الطالع، إذا كان أليشع هو حقاً سبب المجاعة؟، فان الحال تتبدّل في اليوم التالي مباشرة استمتعوا معنا: "وقال أليشع: اسمعوا كلام الرب هكذا قال الرب: في مثل الوقت غداً تكون كيلة الدقيق بشاقل وكيلتا الشعير بشاقل في باب السامرة" (٧ ، ١). "فان الرب اسمع جيش الآراميين صوت مركبات وصوت خيل وصوت جيش عظيم فظنوا أن ملك اسرائيل قد استأجر ضدهم ملوك الحثيين وملوك المصريين فقاموا وهربوا في العشاء وتركوا خيلهم وخيامهم وحميرهم في المعسكر وهربوا لأجل نجاة أنفسهم" (٦ - ٧).

″فخرج الشعب ونهب معسكر الآراميين. فكانت كيلة الدقيق بشاقل وكيلتا الشعير بشاقل حسب كلام الرب″ (١٦).

يقول الاصحاح الثامن، أن المرأة الشونمية التي أحيا أليشع ابنها من الموت، هاجرت إلى بلاد الفلسطينيين وأقامت هناك سبع سنوات كان الجوع فيها سيدّ الموقف في مملكة اسرائيل. ونقرأ في الاصحاح نفسه، قصة: ″الكابتن″ حزائيل. ولكي نفهمها علينا أن نتذكر أنه عندما كان إيليا على جبل حوريب قال له يهوه بعد الهزة الأرضية والنار: ″اذهب راجعاً في طريقك إلى برية دمشق (مسيرة أربعين يوماً بلياليها وادخل وامسح حزائيل ملكاً على آرام، وامسح ياهوبن نمشي ملكاً على اسرائيل،وامسح أليشع بن شافاط من آبل محولة، نبياً عوضاً عنك″ (ملوك ثالث ١٩ ، ١٥ ـ ١٦).

ولكن التورات لم تشرح لنا الاسباب التي حالت دون مسح حزائيل وياهو؛ فيهوه الاب نطق بتلك الكلمات وانتهى الأمر. وها نحن مع أليشع وعلى غير ما توقّع يتذكر المؤلّف ″المقدس″ حزائيل وياهو، وها نحن نتعرّف أخيراً إلى حزائيل. ″وجاء أليشع إلى دمشق. وكان بنهدد مريضاً. فأخبر وقيل له: قد جاء رجل الله إلى هنا. فقال الملك لحزائيل. خذ بيدك هدية واذهب لاستقبال رجل الله، واسأل الرب به قائلاً: هل اشفى من مرضي هذا؟ فذهب حزائيل لاستقباله وأخذ هدية بيده، من كل خيرات دمشق حمل اربعين جملاً وجاء ووقف أمامه وقال: ان ابنك بنهدد ملك آرام قد أرسلني اليك قائلاً: هل اشفى من مرضي هذا؟ فقال أليشع: اذهب وقل له: شفاء تشفى،ـ وقد اراني الرب أنه موتاً يموت″ (٧ ـ ١٠).

عندما يقرأ المرء مثل هذه الحماقات، يشعر وكأنه يحلم. فقد كان أليشع يعرف من يهوه بان بنهدد سيموت، فلماذا طلب من حزائيل أن يعده

بالشفاء؟ ولماذا يكذب "نبي الله" على حزائيل؟ إن هذه الوفرة من الغباءات تجعل المرء يضنى.

"فجعل نظره عليه (أي على حزائيل) وثبته حتى خجل، فبكى رجل الله. فقال حزائيل: لماذا يبكي سيدي؟ فقال لأني علمت ما ستفعله بيني اسرائيل من الشرّ، فانك تطلق النار في حصونهم وتقتل شبابهم بالسيف وتحطم أطفالهم وتشقّ حواملهم. فقال حزائيل ومن عبدك الكلب حتى يفعل هذا الأمر العظيم؟ فقال أليشع: قد أراني الرب إيّاك ملكاً على آرام فانطلق من عند أليشع ودخل إلى سيّده فقال له: ماذا قال لك أليشع؟ فقال: قال لي أنك تحيا. وفي الغد أخذ اللبدة وغمسها بالماء ونشرها على وجهه فمات، وملك حزائيل عوضاً عنه" (١١ ـ ١٥).

إنها لطريقة سهلة وبسيطة جداً للاستيلاء على السلطة، أضف إلى هذا أن أيّ من ورثة بنهدد لم يحرّك ساكناً! فهي "ارادة الله".

في نهاية الاصحاح الثامن (ملوك رابع)، يفيدنا المؤلّف "المقدس" بأن يهوشافاط اقتسم العرش مع ابنه يهورام صهر آخاب، وهذا يتناقض مع ما جاء في ملوك ثالث ٢٢ ، ٥٠ بان يهورام اعتلى العرش بعد وفاة يهوشافاط لكننا لن نتوقف عند هذا التفصيل.

وسار يهورام اليهودي في الطريق الشرير، وهو طريق عديله يهورام الاسرائيلي نفسه، لكنه نال عقابه الصارم على الشرور التي ارتكبها: لقد تمردت عليه "آدوم" وامتنعت عن تأدية الاتاوة السنوية. لقد كان يهورام اليهودي في الثانية والثلاثين من عمره عندما استوى على العرش، وملك، كما تقول التورات ، ثمانية أعوام. ر ' توفى كان يهورام الاسرائيلي يقضي عامه الثاني عشر في السلطة.

وآل عرش يهورام اليهودي إلى أخزيا ولده من ابنة آخاب. وكان عمر أخزيا اثنين وعشرين عاماً لمّا ورث تاج ابيه. ولم يسجد أخزيا لإله اليهود؛ ولكنه لم يبق على العرش سوى عام واحد. وقد عقد تحالفاً مع خاله يورام الاسرائيلي لمحاربة حزائيل الآرامي. ولكن حزائيل هزم الحليفين. "فرجع يورام الملك ليبرأ في يزرعيل من الجروح التي جرحه بها الآراميون عند مقاتلته حزائيل ملك آرام. ونزل أخزيا بن يهورام ملك يهوذا ليرى يورام بن آخاب (خاله) في يزرعيل لأنه كان مريضاً" (ملوك رابع ٨ ، ٢٨).

فليحذر قارئي الكريم، لأن يهوه يعدّ مجزرة مروّعة!

"ودعا أليشع النبي واحداً من بني الأنبياء وقال له: شدّ حقويك وخذ قنينةالدهن هذه بيدك واذهب إلى راموت جلعاد. وإذا وصلت إلى هناك فانظر ياهو بن يهوشافاط بن نمشي وادخل أقمه من وسط اخوته وادخل به إلى مخدع داخل مخدع ثم خذ قنينة وصبّ على راسه وقل: هكذا قال الرب: قد مسحتك ملكاً على اسرائيل. ثم افتح الباب واهرب ولا تنتظر" (٩ ، ١ - ٣).

"بالطبع قام "الابن الرسولي" الشاب بمهمته خير قيام، وترك ياهو المسكين لذهوله. وبعد أن ثاب هذا الأخير إلى رشده، قصّ على ضباط الحامية قصة الزيت الذي سكب فوق رأسه.

احد وأخذ ثوبه ووضعه تحته على الدرج نفسه، وضربوا
ملك ياهو! وعصى ياهو بن يهوشافاط بن نمشي على
حافظ على راموت جلعاد وكل اسرائيل، من حزائيل

.(

وها نحن وصلنا الآن إلى سلسلة من التقتيل لا نهاية لها. فقد ألقى يهوه على كاهل حزائيل مهمة قاسية بدأ تنفيذها بموت بنهدد. وكانت تلك المهمة مليئة بالرعب والفظاعة، لأنه كان على الملك الآرامي الجديد أن يحطمّ رؤوس الأطفال ويبقر بطون الحوامل كما كان على ياهو أن يعوم في الدماء أيضاً. ويجدر بنا أن نذكر، إن جرائم اليهورامين واخزيا وغيرهما من الملوك" تلخصت كلها في عبادتهم لبعل بدلاً من يهوه ربّ الجنود. وهاكم روح التسامح الديني التي تدعو التورات إليها!.

بعد اعلانه ملكاً، ركب ياهو صهوة جواده وتوجّه إلى يزرعيل حيث يقيم يهورام، وكان قد جاء إليه اخزيا اليهودي ليعوده. "وكان الرقيب واقفاً على البرج في يزرعيل فرأى جماعة ياهو عند اقبالها، فقال: أني أرى جماعة، فقال يهورام خذ فارساً وأرسله للقائهم فيقول: أسلام؟" (١٧).

ولمّا لم يعد ذلك الفارس، أرسل يورام فارساً ثانياً لم يره بعد ذلك أيضاً. "وقال يورام : اشدد. فشدّت مركبته، وخرج يهورام ملك اسرائيل واخزيا ملك يهوذا، كل في مركبته خرجا للقاء ياهو فصادفاه عند حقلة نابوت اليزرعيلي فلما رأى يهورام ياهو قال: اسلام ياياهو؟ فقال: أيّ سلام مادام زنى ايزابيل امك وسحرها الكثير؟" (٢١ - ٢٢).

ولكي نبلغ ذروة متعة ياهو سنجري بعض الحسابات البسيطة مستندين في ذلك إلى النصوص المقدسة. كم كان عمر أرملة آخاب عندما اتهمها ياهو بالزنى؟ فايزابيل هي ام عثليا ام اخزيا ابن يهورام، وكان لعثليا عندئذٍ حوالي مائة عام من العمر.

إننا لا نعرف كم كان عمر الواحدة منهما عندما تزوّجت. ولكن لنفرض أن ابنة آخاب تزوجت في الخامسة عشرة من عمرها بيهورام بن

يهوشافاط، ونحن نعرف أن هذا الرجل لم يكن يقيم وزناً خاصاً ليهوه؛ ولذلك استحق غضب هذا الاله الرهيب.

"وأهاج الرب على يهورام روح الفلسطينيين والعرب الذين بجانب الكوشيين فصعدوا إلى يهوذا وافتتحوها وسبوا كل الاموال الموجوة في بيت الملك مع بنيه ونسائه أيضاً، ولم يبق له ابن إلاّ يهو آحاز أصغر بنيه. وبعد هذا كله ضربه الرب في أمعائه بمرض ليس له شفاء. وكان من يوم إلى يوم،وحسب ذهاب المدة عند نهاية سنتين، أن أمعاءه خرجت بسبب مرضه فمات بأمراض رديئة ولم يعمل له شعبه حريقة كحريقة آبائه" (أخبار الايام الثاني ٢١ ، ١٦ ـ ١٩).

لنعد الآن إلى الوراء، فعثليا التي تزوجت في الخامسة عشرة من عمرها في أكثر تقدير، لم تنجب ابنها الأول إلاّ في العام الثاني. ولنفرض جدلاً بأنها كانت تنجب ولداً ذكراً كل عام، ونحن نعرف أن اخزيا هو ابنها الثالث والاربعون ، أي كانت عثليا في عامها الثامن والخمسين لمّاولدته. وعندما اعتلى اخزيا العرش كانت قد بلغت الثمانين من العمر؛ أمّا والدتها ايزابيل فكانت قد قرعت ابواب عامها المائة عندما ملك ابنها يهورام في اسرائيل وحفيدها اخزيا في يهوذا، وهو الوقت الذي اتهمت فيه بالزنى. يتضح من هذا أن السحر الذي نسبه ياهو إليها، هو أعمال الشعوذة التي كانت تلجأ العجوز إليها لاغواء الرجال كي يفلحوا بين ساقيها!.

ومهما كان الأمر، فقد نزلت إجابة ياهو كالصاعقة على رأس ابن ايزابيل "فردّ يهورام يديه وهرب وقال لاخزيا: خيانة يا اخزيا! فقبض ياهو بيده على القوس وضرب يهورام بين ذراعيه فخرج السهم من قلبه وسقط في مركبته" (ملوك رابع ٩ ، ٢٣ ـ ٢٤).

وولى الادبار اخزيا ملك يهوذا أيضاً. "..... فطارده ياهو وقال: اضربوه في المركبة فهرب إلى مجدو ومات هناك" (٢٧).

والآن ازفت ساعة ايزابيل. "وجاء ياهو إلى يزرعيل. ولما سمعت ايزابيل كحلت بالاثمد عينيها وزينت رأسها وتطلعت من كوة (٣٠). أما زالت تلك الحيزبون المتصابنة تأمل أن تساعدها "فتنتها" على اغواء مغتصب العرش؟ "وعند دخول ياهو الباب قالت: أسلام لزمري قاتل سيده؟" (٣١) ونحن لا نزال نذكر بالطبع إن زمري قاتل الملك بعشى وافراد العائلة الملكية الاخرين، لم يحكم سوى سبعة ايام ثم انتحر.

"فرفع وجهه نحو الكوة وقال: من معي، من؟ فأشرف عليه اثنان أو ثلاثة من الخصيان فقال اطرحوها، فطرحوها، فسال دمها على الحائط وعلى الخيل فداستها. ودخل ياهو فأكل وشرب ثم قال، افتقدوا هذه الملعونة وادفنوها لأنها بنت ملك. ولما مضوا ليدفنوها لم يجدوا منها إلاّ الجمجمة والرجلين وكفيّ اليدين" (٣٢ - ٣٥).

لكننا نعرف أن ايزابيل كانت امرأة ولوداً، أي أن يهورام ترك أخوة قادرين على المطالبة بالعرش. "وكان لآخاب سبعون ابناً في السامرة. فكتب ياهو رسائل وأرسلها إلى السامرة، إلى رؤساء يزرعيل الشيوخ وإلى مربي آخاب" (١٠ ، ١) وطلب ياهو في تلك الرسائل قتل ابناء آخاب السبعين. "فلما وصلت الرسالة إليهم أخذوا بني الملك وقتلوا سبعين رجلاً ووضعوا رؤوسهم في سلال وأرسلوها إليه إلى يزرعيل" (٧) وقتل ياهو اصدقاء آخاب وخدمه كلهم أيضاً.

"ثم قام وجاء سائراً إلى السامرة وإذا كان عند عقد الرعاة في الطريق، صادف ياهو أخوة اخزيا ملك يهوذا فقال: من أنتم؟ فقالوا: نحن أخوة

أخزيا، ونحن نازلون لنسلّم على بني الملك وبني الملكة. فقال: امسكوهم أحياء، فامسكوهم أحياء وقتلوهم عند بئر بيت عقد، اثنين وأربعين رجلاً لم يبق منهم أحد" (١٢ - ١٤). ونحن لا نرى أذية في الاشارة الى أن أبناء عثليا الاثنين والأربعين هؤلاء، كانت التورات قد قتلتهم بيد العرب قبل ذلك (أخبار الأيام الثاني ٢٢ ، ١). ولذلك بالذات استوى أخزيا على عرش أبيه يهورام بعد وفاة هذا الأخير، علماً بأنه أصغر أبنائه، فهو ولده الثالث والأربعون.

واذا اعتقد قارئي الكريم بأن صفاقة التورات قد انتهت عند هذا الحد، فهو مخطئ. فقد أعلن ياهو عن اقامة احتفالات كبيرة على شرف الاله بعل. "والآن فادعوا لي جميع أنبياء البعل وكل عابديه وكهنته، ولا ينسى أحد لأن لي ذبيحة عظيمة للبعل. وقال ياهو: حددوا موعداً للاجتماع الاحتفالي من أجل بعل، فنادوا به. وقد فعل ياهو هذا بنية خبيثة لكي يبيد عبدة البعل. وأرسل ياهو في كل اسرائيل فاتى جميع عبدة البعل ولم يبق أحد إلاّ أتى. ودخلوا بيت البعل فامتلأ بيت البعل من جانب إلى جانب" (ملوك رابع ١٠ ، ١٩ - ٢١).

وبينما كانت تقام طقوس عبادة خصم ربٌ الجنود، حاصرت جيوش ياهو المعبد. "ولمّا انتهوا من تقريب المحرقة قال يهو للسعاة والثوالث: ادخلوا اضربوهم، لا يخرج أحد. فضربوهم بحدّ السيف، وطرحهم السعاة والثوالث وساروا إلى مدينة بيت البعل وأخرجوا تماثيل بيت البعل وأحرقوها وكسروا تمثال البعل وهدموا بيت البعل وجعلوه مزبلة الى هذا اليوم. واستأصل ياهو البعل من اسرائيل" (٢٥ - ٢٨).

والآن قارئي الكريم، اليك السطر التاسع والعشرين من هذا الفصل نفسه.

”ولكن خطايا يربعام بن نباط الذي جعل اسرائيل يخطئ، لم يحد عنها ياهو: عجول الذهب التي في بيت ايل، والتي في دان“. يقيناً اننا لا نستطيع فهم السيّد ياهو! وها نحن نسوق نصاً آخر يجعل اللوحة أكثر كمالاً. ”وقال الرب لياهو: من أجل أنك قد أحسنت بعمل ماهو مستقيم في عيني، وحسب كل ما بقلبي فعلت ببيت آخاب، فأبناؤك الى الجيل الرابع يجلسون على كرسي اسرائيل. ولكن ياهو لم يحاول أن يبقى على شريعة الرب، إله اسرائيل من كل قلبه. فلم يحد عن خطايا يربعام الذي جعل اسرائيل يخطئ“ (٣٠ ـ ٣١). وبصرف النظر عن هذا كله جلس ياهو على عرش اسرائيل ثمانية وعشرين عاماً، ثم ترك العرش لابنه يهو آحاز.

لقد سرقت بطولات ياهو المؤلّف ”المقدس“ من نفسه، فنسى عثليا ثم استدرك الأمر وعاد اليها في الاصحاح الحادي عشر. فقد أغرقها استواء المغتصب على العرش في أحزان عميقة ومعقدة؛ لقد قُتلت أمها ايزابيل والتهمت الكلاب جسدها، وقُتل أخوها يهو رام الاسرائيلي، وسبعون آخاً آخر ابيدوا معه، ثم قُتل ابنها أخزيا واخوته الاثنان والأربعون. ولم يبق لملكة أورشليم سوى أحفادها من أخزيا فما الذي فعلته لانقاذهم من بطش ياهو؟ لقد... قتلتهم بيدها! ”فلما رأت عثليا، أم أخزيا، ان ابنها قد مات، قامت فابادت جميع النسل الملكي“ (١).

لا ريب أنه يصعب كثيراً مصادفة مثل هذا الانتقام إلاّ في التورات. وقد قال فولتير في هذا الصدد: ”عثليا جدة يوآش الصغير تقتل أحفادها كلهم في أورشليم، كما يقول التاريخ المقدس، ولم ينج منهم سوى يوآش. وكان لها من العمر مائة عام عندئذٍ. أيّ لم تكن لتلك المجزرة أيّ أسباب دافعة، وانما ارتكبتها عثلياً تحقيقاً لمتعة ذاتية“.

ان الابتعاد عن الواقع هو ديدن الروايات التوراتية. ولكن كيف استطاع أصغر أبناء أخزيا أن ينجو من تلك المذبحة؟ لقد أخفته عمته يهوشبع. ومن هي يهوشبع هذه؟

انها أخت أخزيا وابنة عثليا (ملوك رابع ١ ، ٢). وهي اضافة إلى ذلك، زوجة الكاهن يهوداع (أخبار الأيام الثاني ٢٢ ، ١١). وهذا يعني أن الملكة عثليا التي لم تعترف إلاّ ببعل إلهاً، أعطت ابنتها زوجة لكاهن الاله اليهودي يهوه. ونشأ يوآش الصغير في المعبد بعيداً عن بطش جدته. ولم تعرف عثليا شيئاً عن المؤامرة التي أعدها ضدها صهرها الكاهن بهدوء وصمت تام طيلة ستة أعوام. وفي العام السابع جمع يهوداع قادة الجيش المخلصين لإله اليهود، وقدّم لهم يوآش بن أخزيا، ثم أعلنه ملكاً. أما عثليا التي خفّت لترى ما الذي كان يجري في المعبد، فقد قتلت عند "باب الخيل"، وقتلوا معها كاهن بعل، متّان.

ونفهم من كتاب الملوك الرابع أن يوآش كان ملكاً صالحاً؛ ولكن كتاب أخبار الأيام الثاني يفيدنا بأنه انتهى إلى طريق الشر (اصحاح ٢٤): لقد أقام عبادة الأوثان، وجدد المرتفعات وغيرها من الآلهة الكاذبة؛ الأمر الذي أثار حنق زكريا الذي أصبح كاهن يهوه بعد وفاة والده يهوداع. ولما كثرت اتهامات هذا الأخير ضد يوآش أمر برجمه في المعبد (٢١). ومات يوآش نفسه مخنوقاً بأيدي اثنين من عبيده دعاهما سفر اخبار الأيام الثاني: "زاباد ابن شمعة العمونية ويهوزاباد بن شومير" (١٢ ، ٢١). وعلى أيّ حال فقد ملك هذا الرجل على يهوذا أربعين عاماً، ثم ورثه على العرش ابنه امصيا.

أمّا في اسرائيل فقد توفي ياهو الجزار وملك ابنه يهو آحاز. وكان هذا ملكاً ضالاً سخر بإله اليهود على امتداد سبعة عشر عاماً. فتعرضت مملكته

لغزوات متتابعة شنّتها جيوش حزائيل ملك آرام، ثم تابع الحملات ابنه بنهدد. وأدت تلك الحملات الرهيبة إلى افقار الاسرائيليين إلى درجة لم يعرفوها من قبل. "فلم يبق ليهو آحاز شعباً إلاّ خمسين فارساً وعشر مركبات وعشرة آلاف راجل، لأن ملك آرام افناهم ووضعهم كالتراب للدوس" (ملوك رابع ١٣ ، ٧).

وورث يهوآش عرش ابيه يهو آحاز. وقد حارب يهوآش الاسرائيلي امصيا بن يوآش اليهودي فهزمه وطارده إلى أورشليم، ففتح ثغرة في سورها بطول أربع مائة ذراع ودخل المدينة حيث هدم المعبد وقصر الملك.

وفي عهد يوآش الاسرائيلي توفي النبي أليشع. "ومرض أليشع مرضه الذي مات به؛ فنزل يوآش ملك اسرائيل وبكى على وجهه وقال: يا أبي! يا أبي يا مركبة اسرائيل وفرسانها" (١٣ ، ٢١).

ووقعت في العام الثاني عجيبة غير متوقعة. فبينما كانوا يدفنون أحدهم، شاهدوا جحافل الجيش الموآبي. "فطرحوا الرجل في قبر اليشع، فلما نزل الرجل ومسّ عظام أليشع، عاش وقام على رجليه" (١٣ ، ٢١). ونحن من جهتنا نفترض بأن الرعب استولى على الجحافل الموآبية فولّت الأدبار.

ولكن هذا لم يرض النقاد الذين يبدو أن شيئاً لا يرضيهم! فقد وضعوا ملاحظاتهم هنا وتساءلوا: لماذا لم يبعث أليشع نفسه بدلاً من ذلك الذي لا يعرفه ولا ينتظره أحد، بل وألقي به في قبر النبي مصادفة؟ وتساءلوا أيضاً: كيف حصل وبقي قبر أليشع مفتوحاً طول ذلك الزمن كله؟ وما الذي آلت اليه حال ذلك الرجل؟ فهو لم يبلغ أيّ مجد في حياته الثانية التي منحت اليه على حين غرة. فقد تجاهلته التورات تماماً بعد عجيبة قيامته من الموت. واذا كانت لعظام اليشع تلك القدرة الخارقة، فلماذا لم يستفد أحد من ذلك

لاحقاً؟ ألم يكن باستطاعة آباء الكنيسة المقدسين أن يستفيدوا من عظام أليشع لاطالة أعمارهم هم في أقل تقدير؟

ومع موت أليشع يغدو التشوّش التاريخي السياسي في التورات، غير معقول قط، ويصبح مستحيلاً تحديد نقطة توجّهٍ في ذلك الركام المذهل من الأسماء والأحداث الخرافية. أما نهاية مملكة اسرائيل فقد جاءت على عهد الملك هوشع الذي سيق الى السبي الآشوري مع كثير من أفراد شعبه.

الفصل الأربعون

نهاية مملكة يهوذا

في الوقت الذي كان فيه يهود اسرائيل في الأسر الآشوري، كانت مملكة يهوذا لا تزال قائمة وعلى رأسها الملك الصالح حزقيا. "هو أزال المرتفعات وكّسر التماثيل وقطع السواري وسحق حية النحاس التي عملها موسى، لأن بني اسرائيل كانوا الى تلك الأيام يوقدون لها. ودعوها نحشتان" (ملوك رابع ١٨ ، ٤). وقد كافأه يهوه على موقفه بالنصر على الفلسطينيين؛ ومع ذلك، فقد كانت حماية يهوه له تتدنى احياناً إلى النصف. ففي العام الرابع لحكمه هاجمه سنحريب الملك الآشوري، ولم يستطع تفادي نتائج ذلك الهجوم. إلاّ بعد أن أدى أتاوة حجمها ثلاث مائة تالانت فضة وثلاثون تالانتاً ذهباً. "فدفع حزقيا جميع الفضة الموجودة في بيت الرب وفي خزائن الملك.. وقشّر حزقيا الذهب عن أبواب هيكل الرب والدعائم التي كان قد غشّاها... ودفعها لملك آشور" (١٥ ـ ١٦).

بعد ذلك كان على سنحريب أن يترك حزقيا وشأنه؛ بيد أن شيئاً من ذلك لم يحدث! إذ سرعان ما عاد ثانية وحاصر أورشليم ثم أرسل إلى

حزقيا المدعو ربشاقي بالسؤال التالي: "ما الاتكال الذي، اتكلت؟"(١٩). فأرسل حزقيا الى ربشاقي ثلاثة من مجلس الشيوخ وقالوا: "كلّم عبيدك بالآرامي لأننا نفهمه، ولا تكلمنا باليهودي في مسامع الشعب الذي على السور" (٢٦).

ولكن ربشاقي زاد وقاحة وصلفاً. وشرع يتحدث بلغة يهودية واضحة وجميلة فقال: "هل إلى سيّدك وإليك أرسلني سيدي لكي أتكلم بهذا الكلام؟ ألم يرسلني إلى الرجال الجالسين على السور ليأكلوا غذرتهم ويشربوا بولهم معكم؟"(٢٧). ولا ريب هنا في أن حزقيا لم يعتمد على يهوه اعتماداً خاصاً، طالما أنه سمح لسنحريب أن ينهبه بتلك السهولة. ولكن النبي اشعيا، معاصر تلك الأحداث، رفع من معنويات الملك، بل وقدم يهوه الأب نفسه مساعدة. "وكان في تلك الليلة أن ملاك الرب خرج وضرب من جيش آشور، مائة وخمسة وثمانين ألفاً. ولما بكروا صباحاً، اذا هم جميعاً جثث ميتة. فانصرف سنحريب ملك آشور، وذهب راجعاً وأقام في نينوى" (٣٥ ـ ٣٦) وانه واحد من "الانتصارات" التوراتية الباهرة!

ثم تخبرنا التورات بأن ولديّ سنحريب، أدر ملك وآصر قتلا والدهما وفرّا إلى أرمينيا، فاعتلى العرش ابنه الثالث اسرحدون. ونعرف من الاصحاح العشرين، أن حزقيا عقد في آخر ايام حكمه تحالفا مع برودوخ بلادان ملك بابل.

ولكن هذه التأكيدات التوراتية لا تتوافق مع المكتشفات الآثارية لتاريخ الممالك الآشورية. فالنقوش التي اكتشفت في قصر خورساباد الشهير، عام ١٨٤٢م، بيّنت أن سلمنصر الخامس والد سنحريب طرد برودوخ بلادان من البلاد، بعد أن انتصر عليه في موقعة بيت لاكيم عام ٧٠٩ ق.م،

واستولى على بابل وضمّها إلى مملكة نينوى. فكيف استطاع حزقيا أن يقيم تحالفاً مع برودوخ بلادان في عهد اسرحدون بن سنحريب، بعد أن كان برودوخ قد فقد مملكته في معركة مع ملك نينوى الذي كان جدّ اسرحدون، وهذا الأخير لم يعتلِ العرش في نينوى وبابل إلاّ في السنوات الأخيرة من حكم حزقيا؟

غير أننا لو تجاهلنا المكتشفات الآثارية واعتمدنا وجهة النظر التوراتية، فلا بدّ لنا مع ذلك، من أن نسجّل التالي: يهوه الذي قطع وعداً: "وأحامي عن هذه المدينة لأخلّصها من أجل نفسي ومن أجل داود عبدي" (ملوك رابع ١٩ ـ ٣٤)، كان يستطيع ألاّ ينتظر حملة سنحريب الثانية. ولأن يهوه الكلّي القدرة قرر أن يحمي أورشليم بنفسه، فقد كان أفضل بكثير لو أنه حماها من حملة سنحريب أصلاً، ومنع نهب خيرات البلاد وكنوز المعبد. ومن غير المفهوم أيضاً، لماذا تخلّى ربّ الجنود عن أحبائه بعد عدة سنوات من اعلان نفسه حامي حماهم، اذ أرسل ملاكه الفتّاك الذي أباد مائة وخمسة وثمانين ألف آشوري في ليلة واحدة؛ وهاهو يتركهم الآن يواجهون مصيرهم مع الآشوريين الذين نهبوا خيراتهم وهدموا مقدساتهم وقيّدوهم بالسلاسل وساقوهم عبيداً.

وثمة واقعة أخرى بخصوص حزقيا. فعندما اعتلى هذا الرجل عرش يهوذا، كان: له من العمر اثنان وعشرون عاماً، وقد حكم يهوه عليه بأن يموت في التاسعة والثلاثين؛ بيد أن الرحمة عادت وغلبت على الشرّ في قلب الاله اليهودي فمحا تلك الصفحة من "سفر المصائر"، ثم أدخل عليها تعديلاً مدّ به عمر حزقيا إلى الخمسين عاماً.

في العام الرابع عشر لحكمه وقع حزقيا صريع المرض. وكان هذا مكتوباً

في لوحة قدره أيضاً. ولكن الملك لم يستدع أي طبيب. فقد كان أشعيا النبي عنده، وهو رجل عليم بأمور يهوه كلها. وما إن علم أشعيا بالأمر الذي أرد الملك بحثه معه حتى أسرع إلى مخدعه. وقال أشعيا لحزقيا: "هكذا قال الرب: أوص بيتك لأنك تموت. ولا تعيش. فوجه وجهه الحائط وصلى إلى الرب وبكى حزقيا بكاء عظيماً. ولم يخرج أشعيا إلى المدينة الوسطى حتى سمع كلام الرب اليه قائلاً: ارجع وقل لحزقيا رئيس شعبي: هكذا قال الرب إله داود أبيك: قد سمعت صلاتك، قد رأيت دموعك وها أنذا أشفيك، وفي اليوم الثالث تصعد إلى بيت الرب. وأزيد على أيامك، خمس عشرة سنة، وانقذك من يد ملك آشور مع هذه المدينة، وأحامي عن هذه المدينة من أجل نفسي ومن أجل داود عبدي" (ملوك رابع ٢٠ ، ١ ـ ٦).

وبما أن أشعيا كان نبياً، فإن هذه التبدلات لم تدهشه، وقام بما عُهد إليه خير قيام. ولكن حزقيا نفسه فَقَدَ البوصلة في خضمّ تلك النبوءات المتناقضة، فسأل اشعيا: ما العلامة ان الرب يشفيني فاصعد في اليوم الثالث إلى بيت الرب؟ فقال اشعيا: هذه لك علامة من قبل الرب، على أن الرب يفعل الأمر الذي تكلّم به: هل يسير الظل عشر درجات أو يرجع عشر درجات؟ فقال حزقيا: انه يسيرٌ على الظل ان يمتد عشر درجات، كلاّ فليرجع الظل عشر درجات إلى الوراء. فدعا اشعيا النبي الرب فارجع الظل عشر درجات إلى الوراء بالدرجات التي نزل بها، بدرجات آحاز" (٨ ـ ١١). ثم أخذ اشعيا "قرص تين" ووضعه على دمّل حزقيا "فبرك".

ولكن الذين لا يؤمنون، يسخرون من مربّى التين هذا، ومن الدرجات العشر. التي عادت الشمس فيها القهقرى ويقولون: إما أن مرض حزقيا كان مسألة بسيطة لأنه شفى بقرص تين وحسب، أو ان القوة الالهية تدخلت

وشفت الملك الذي كان قاب قوسين أو أدنى من الموت، وعندئذٍ كان قرص التين لا يغني ولا يثمر. أمّا بخصوص الدرجات الشمسية فقد ترك حزقيا لدى النقّاد انطباعاً بأنه أحمق من الطراز الأول عندما قال: ان سير الظل إلى الأمام أيسر من سيره إلى الوراء؛ ففي الحالين يقع تجاوز لقوانين الطبيعة واختلال في نظام حركة الكون. عداك عن هذا ان رجوع الظل لعشر من درجات آحاز يمثل تكراراً لعجيبة يشوع بن نون.

هذا هو رأي اتباع مذهب الشك. أمّا اللاهوتيون فهم على الضد من ذلك، اذ يؤمنون ايماناً مطلقاً بأن شمسنا توقفت عن الحركة فعلاً. إكراماً لعيني يشوع بن نون، وعادت القهقرى تلبية لأوامر حزقيا. ويُعاد ذكر هذا الحدث مرة أخرى. في الاصحاح الثامن والثلاثين من كتاب اشعيا: "ورجعت الشمس عشر درجات" (٨).

بيد أن الظاهرة الأكثر غرابةً بين الظاهرات التي اتسم بها العصر التوراتي الذي نحن بصدده هي، موت اشعيا: لقد كان هذا الرجل عجيبة تسعى على قدمين، ولكنه لم يستطع صنع أيّ عجيبة عندما غدت حياته نفسه في خطر قاتل. فبعد وفاة حزقيا استوى ابنه مناسي على العرش، ولم يكن الملك الجديد من المؤمنين بعجيبة تراجع الظل؛ وبقدر ما كان حزقيا صالحاً، كان مناسي شريراً. وفي أحد الأيام أراد مناسي أن يعرف ما اذا كان لدى اشعيا قرص آخر من التين لحاجته الشخصية أم لا، فأمر بشطره نصفين. فأخذوا النبي التاعس ونشروه كأي لوح خشب عادي؛ ولم يسرع لمساعدته لا رافائيل ولا أيّ ملاك آخر. فهل كان يهوه مستغرقاً في عمل آخر أكثر أهمية.

أما آخر ملوك يهوذا فهو صدقياً. وفي العام الحادي عشر من عهده

(ملوك رابع ٢٥ ، ٢)، جاء نبوخذ نصّر واستولى على أورشليم ثم قتل أفراد العائلة المالكة كلهم، أما صدقيا فقد سملت عيناه ووضعت الأصفاد في يديه وسيق عبداً إلى بابل (٧). بعدئذٍ أضرم نبوخذ نصّر النار في معبد أورشليم وقصر سليمان، وترك أورشليم ركاماً من الخراب (٩ ـ ١٠).

يقول فولتير: "ها قد وصلنا إلى فكّ عقدة التاريخ اليهودي القديم. ففي البداية تشتتت قبائل اسرائيل العشر، ثم سيقت القبيلتان الأخيرتان إلى أسر بابل. هذه اذن هي النهاية التي آلت اليها تلك العجائب المذهلة كلها، والتي زعموا أن يهوه صنعها ليهوده. وينظر الحكماء المسيحيون بألم وأسى شديدين إلى النوائب التي ألّمت "بآبائهم" الذين أعدّوا لهم طريق "الخلاص". أما اتباع مذهب الشك فينظرون بفرح خفيّ إلى ابادة شعب كامل تقريباً هو، الشعب الذي يرون أنه حامل لأبشع المعتقدات الخرافية، وأدنى أشكال العهر والبغاء، وأكثر ضروب السلوك البشري وحشية ودموية، وأدنى درجات البغاء والبله".

الفصل الحادي والأربعون

حكايات رومانسية مقدسة:

"طوبيت و"يهوديت" (١)

في عهد الملك الآشوري شلمنآسر، سيق طوبيت النفتالي مسبياً إلى نينوى. ولكن هذا الشلمنآسر التوراتي لم يترك خارطة جغرافية للأراضي التي كانت تحت سلطته. ونحن لن يتسنّى لنا بغير هذه الخارطة أن نفهم، كيف استطاع ملك نينوى (على دجله)أن يتجاوز مملكة بابل ليصل إلى فلسطين ويسوق اليهود أسرى. انه عمل يماثل في أيامنا خروج الأتراك عبر اليونان لغزوا ايطاليا. جاء طوبيت إلى مادي وترك فيها عشرة قناطير من الفضة أمانة لدى المدعو غابيليوس اخ غافري. والمبلغ ليس بالقليل، بالنسبة لرجل تعمل زوجه نسّاجه. بيد أن طوبيا رجل يثير الدهشة حقاً؛ لقد سافر مئات الكيلو مترات عن نينوي ليودع فضته عند غابيليوس.

وفي أحد الأيام عاد طوبيت من احدى عمليات الدفن الكثيرة متسخاً، فاستلقى عند الجدار وغفى دون أن يلحظ وجود طيور الدوري فوق رأسه.

”فوقع زرق من عشّ خطاف في عينيه وهو سخن فعمي“ (طوبيت ٢ ، ١١). ولكن العارفين بالأمر يؤكدون بأن زرق عصفور الدوري لا يمثّل أيّ خطر على النظر، وكان يكفي أن يغسل طوبيا وجهه لينتهي الأمر على خير.

”واتفق في ذلك اليوم عينه، ان سارة ابنة رعوئيل في راجيس مدينة المادين، سمعت هي الأخرى تقريعاً من احدى جواري ابيها، لأنه عقد لها على سبعة رجال، وكان شيطان اسمه ازموداس يقتلهم على اثر دخولهم عليها في الحال. واذ كانت تنتهر الجارية لذنب اجابتها قائلة: لا رأينا لك ابناً ولا بنتاً على الأرض يا قاتلة ازواجها. أتريدين أن تقتليني كما قتلت سبعة رجال؟ فلما سمعت هذا الكلام، صعدت إلى علية بيتها فأقامت ثلاثة أيام وثلاث ليال لا تأكل ولا تشرب بل استمرت تصلي وتتضرع إلى الله بدموع أن يكشف عنها هذا العار“ (طوبيت ٣ ، ٧ - ١١).

يؤكد النقّاد على أن هذا النصّ هو النص التوراتي الوحيد الذي يُسجل فيه ذكر لكلمتي شيطان أو ابليس. فالأرواح الشريرة عندهم فارسية المنشأ. ومن المعروف أن الفرس آمنوا بوجود إلهين لهما القدرة نفسها: ارموزدا إله الخير، وإريمان إله الشر. وتحت إمرة كل منهما جيش من الأرواح الطيبة والشريرة. وبذلك يتحوّل اليهود إلى مجرد منتحلين في هذا الشأن. فقد اقتبسوا ديانتهم عن جيرانهم أو مستعبديهم، واقتبسوا معها الطقوس والشعائر والخرافات الدينية.

ويرغمنا كتاب طوبيت على الاعتقاد بأن الروح الشرير ازموداس، كان مغرماً بسارة ويغار عليها. وهذا يتوافق تماماً مع التعاليم التوراتية القديمة عن الأرواح الملائكة والآلهة. وكنا قد رأينا في سفر التكوين أن الملائكة ضاجعوا بنات البشر وأنجبوا منهن العمالقة. ثم أنشأ رجال الدين بعد ذلك، خرافات

كثيرة عن شياطين ضاجعوا نساء من البشر فولدن أولاداً غير عاديين، وشياطين أخرى سكنت أجساد شباب وفتيات. بمختلف الطرق والوسائل؛ وخرافات عن استدعاء الشياطين وطردها. لقد كانت وما زالت، هناك كثرة من المعتقدات الخرافية الوحشية التي استخدمها ويستخدمها رجال الدين الآن لاستغلال الغباء البشري.

"في ذلك الحين استجيبت صلوات الاثنين أمام مجد اله العلي. فأرسل الرب ملاكه القديس رافائيل ليشفي كلا اللذين رفعت صلواتهما في وقت واحد إلى حضرة الرب: يرفع العمى عن عيني طوبيت، ويعطي سارة ابنة رعوئيل زوجة إلى طوبيا بن طوبيت بعد تقييد أزمووداس الروح الشرير؛ لأن طوبيا كان سيرثه" (٣ ، ١٦ - ١٧).

وما تجدر الاشارة اليه، أنها المرة الأولى التي يدعو فيها "الكتاب المقدس" ملاكاً باسمه. ويؤكد الشارحون دون استثناء، أن أسماء الملائكة اليهودية المسيحية أكادية المنشأ: رافائيل: مداوي الله، أوريئيل: نار الله، اسرائيل: عشيرة الله، ميخائيل: صورة الله، جبرائيل: رَجلُ الله. أمّا ملائكة فارس فكانت أسماؤهم مختلفة تماماً: ما، كور، دوبادور، بآمان وما شابه. ولمّا كان اليهود عبيداً عند الأكاديين وليس عند الفرس، فقد أخذوا عنهم ملائكتهم وشياطينهم. فقد كان يتبدل كل شيء عند "شعب الله المختار" تبعاً لتبدل أسياده. فعندما كان اليهود عبيداً عند الكنعانيين،عبدوا آلهة كنعان وسجدوا لها؛ ولمّا استعبدهم ملوك آشور، أخذوا عن الآشوريين ايمانهم بأرواحهم الطيبة والشريرة.

"في ذلك اليوم تذكر طوبيت الفضة التي أودعها عند غابيليوس فقال في نفسه: أنا طلبت الموت، فلماذا لا أدعو ابني وإكشف له عن هذا قبل ان

أموت؟ ولمّا دعاهُ قال له: يا بني! عندما أموت أدفن جسدي ولا تترك أمك" (٤ ، ١ ـ ٣). ثم يلي هذا موعظة طويلة مملّة، تنتهي بما يلي: "اعلم يا بني أنني أعطيت وأنت صغير، عشرة قناطير من الفضة إلى غابيليوس في راجيس مدينة الماديين، ومعي بها صك" (١٢). ثم سلّم الصك إلى ابنه (٥) وأشار عليه أن يجد رفيقاً لطريقه إلى مادي. "ومضى طوبيا يبحث عن رجل، وصادف رافائيل. و كان هذا ملاكاً لكنه لم يعرفه، وقال له: هل تذهب معي إلى بلاد الماديين، وهل تعرف تلك الأماكن؟ أجاب الملاك: استطيع الذهاب معك وأعرف الطريق؛ وقد كنت هناك ضيفاً على اخينا غابيليوس"(٥).

انها لمصادفة عجيبة لا تحدث إلاّ في التورات! وهكذا قاد طوبيا الشاب وقدمه إلى والده فقال هذا الأخير، انه من سبط حننيا العظيم وان اسمه عزريا. وهنا ظهرت مفاجأة عظيمة أخرى، فقد كان طوبيت يعرف حننيا وتربطه به قرابة بعيدة. وبعد أن اطمأن العجوز إلى سلامة ولده، شرع يناقش الشاب في الأجر الذي يطلبه لقاء مرافقة طوبيا. وقال له: "أعطيك دراخما عن كل يوم، وكل ما تحتاجه أنت وابني، وأجزيك على هذا الأجر أن عدت مع ابني بسلام"(٥). وما يثير الدهشة في هذه الحكاية ان طوبيا الذي كان يقيم في نينوى لا يدفع اجر الملاك بالعملة اليهودية أو المادية، بل بالدراخما اليونانية.

وأخذ طوبيا طريقه إلىمادي ومعه عزريا المزعوم، "كلب الشاب معهما" وغني عن القول أن الطريق لم تمض بغير مغامرات؛ وإلا لماذا خلق المؤلف هاتين الشخصيتين. "وباتا أوّل منزلة بجانب دجلة فخرج ليغسل رجليه، فاذا بحوت عظيم قد خرج ليفترسه، فارتاع طوبيا وصرخ بصوت عظيم قائلاً: يا

مولاي! قد اقتحمني، فقال الملاك: امسك بخيشومه واجتذبه اليك، ففعل كذلك واجتذبه إلى اليبس فأخذ يتخبطّ عند رجليه"(٦)

والسؤال الآن، كيف جُرّ الحوت إلى اليابسة كأرنب التقط من أذنيه؟ ولا تظن قارئي الكريم بان رجال اللاهوت يجدون صعوبة في الاجابة على سؤالنا هذا! وهم لا يجدون صعوبة أيضاًفي تفسير وجود الحوت في مياه عذبة، أيكون أحدهم قذف بالحوت إلى مياه دجلة استثناء وبناء على أمر خاص من يهوه الذي أراد أن يجعل منه موضوع العجيبة المنتظرة؟ لذلك لاحاجة لهدر الوقت في شرح كنه الامر.

ثم أمر الملاك طوبيا أن يشق بطن الحوت ويأخذ قلبه وكبده ومرارته. وبعد انتهاء العملية الجراحية، شوي لحم الحوت فأكلا وأخذ مؤونة الطريق. "ثم أن طوبيا سأل الملاك وقال له: نشدتك يا أخي عزريا أن تخبرني ما العلاج الذي يؤخذ من هذه الأشياء التي أمرتني أن أذخرها من الحوت؟ فأجابه الملاك قائلاً: إذا ألقيت شيئاً من قلبه على الجمر، فدخانه يطرد كل جنس من الشياطين في رجل كان أو امرأة بحيث لا يعود يقربهما ابداً. والمرارة تنفع لمسح العيون التي عليها غشاء فتبرأ".

ونصحه رافائيل أن ينزل عند قريبه رعوئيل ويتزوّج ابنته الوحيدة سارة. ولكن العرض جعل الفتى يتردد كثيراً، لأنه لم يكن مستعداً لمثل هذا الحدث. فقال للملاك: إني قد سمعت أنه عقد لها على سبعة أزواج فماتوا، وقد سمعت أيضاً أن الشيطان قتلهم، فلأجل هذا أخاف.... فقال الملاك... يجب أن تصبح زوجتك ولا تخاف من الشيطان؟.

وفي هذه الليلة يعطونك إياها زوجة، فأنت اذا تزوجتها ودخلت عليها المخدع، فأمسك عنها ثلاثة أيام، وتتفرغ معها للصلوات . وفي تلك الليلة

إذا أحرقت كبد الحوت ينهزم الشيطان، وفي الليلة الثانية تكون مقبولاً في شركة الآباء القديسيين ، وفي الليلة الثالثة تنال البركة حتى يولد لكما بنون سالمون. بعد أن سمع طوبيا قول الملاك احبها كثيراً والصق قلبه اليها" (٦)، لاتنسى قارئي الكريم ان طوبيا لم ير الفتاة حتى اللحظة قط.

"واقتربا من بيت رعوئيل. فاستقبلتهما سارة ورحبت بهما ورحبا بها وقادتهما إلى داخل البيت. فقال رعوئيل لحنة زوجته: ما أشبه هذا الرجل بذي قرابتي! (٧).

وعرف الشاب بنفسه ففرحوا به كثيراً وقدموا إليه طعاماً فاخراً، ولكن طوبيا رفض رفضاً قاطعاً أن يتناول لقمة واحدة قبل أن يوافق العجوز على تزويجه سارة، ولم يتردد رعوئيل في الموافقة على إضافة حسنائه إلى الوجبه الشهية؛ ولكنه قصّ على الفتى مصير أزواجها السبعة السابقين. فأصرّ طوبيا على طلبه وقال إنه لا يخاف شيئاً. "فدعا سارة ابنته واخذها من يدها وأعطاها زوجة لطوبيا وقال: خذها حسب شريعة موسى وامض بها إلى ابيك، ثم باركهما... وأخذ صحيفة وكتب فيها عقد زواج" (٧).

أمّا حنة فاعدت المخدع وقادت ابنتها إليه. "وقالت لها: تشجعي يا بنية. ولما فرغوا من العشاء ادخلوا عليها الفتى، فذكر طوبيا كلام الملاك وأخرج من كيسه فلذةمن الكبد وألقاها على الجمر المشتعل، حينئذٍ قبض الملاك رافائيل على الشيطان وأوثقه في برية مصر العليا" (٨).

وتساءل رجال اللاهوت عما إذا كان ازموداس ما زال مقيداً حتى اليوم، وأين هو الآن؟ في الحقيقة أنه سؤال هام! وقد أريق كثير من الحبر للاجابة عليه. وبرز كهنة واحد من أديرة مصر نصابين عالميين؛ فقد كانوا يقودون الحجاج إلى أحد الآبار العميقة جداً مدّعين أن رافائيل يحبس خصمه فيه

إلى الآن. ويمكنك ياسيدي أن تدفع للاخوة في الرب مبلغاً قليلاً من المال فيأذنوا لك برمي عدة حجارة في البئر، أو عدة قطرات من "الماء المقدس" لتزيد من آلام الشيطان العاشق الذي غدا لا حول له ولا قوة، دون حجارتك أو مائك.

كان رعوئيل على ثقة من أن طوبيا لن يخرج حياً من هذه القصة، فأخذ يعدّ له القبر بعناية، ولمّا علم في صباح اليوم التالي بأن صهره لا يزال على قيد الحياة، كانت فرصته عظيمة جداً. فعاد من فوره وردم القبر، واقام وليمة عرس دامت أربعة عشر يوماً. وفي نهاية الاحتفالات قال رعوئيل لطوبيا: "خذ نصف ما أملك الآن وامض إلى والدك بسلام؛ و النصف الثاني تأخذه بعد أن أموت أنا وزوجتي"(٨) وفي اثناء الاحتفالات كان الملاك رافائيل قد عاد من مصر. ويبدو أن غابيليوس كان قد نجح في أعماله أيضاً، ولذلك لم يتردد في تسليم الفضة إلى طوبيا.

وبهذا تكون رحلة طوبيا قد اشرفت على نهايتها؛ فعاد وزوجته والملاك السماوي والكلب إلى نينوى حيث كان اليأس قد بدأ يتسرب إلى نفس العجوز طوبيت. "ووضع طوبيا المرارة على عيني والده وقال: تشجع يا ابي! وبدأ يخرج من عينيه غشاوة كفرقىء البيض، فأمسكها طوبيا وسحبها من عينيه، وللوقت عاد إليه بصره. ولما رأى ابنه، سقط على عنقه وبكى(١١) ولم يبق سوى تسديد حساب عزريا: لقد رفض هذا الأخير أن يأخذ الدراخمات التي عرضت عليه ثم أعلن اسمه الحقيقي. وأنه واحد من رؤساء الملائكة السبعة واختفى.

أمّا حكاية يهوديت فليست أقلّ روعة من هذه التي انتهينا منها لتوّنا. ففي العام الثامن عشر لحكم نبوخذ نصّر الذي تسميّه التورات ملكاً

آشورياً،حاصرت جيوش هذا الملك مدينة بيت فلوى التي لا يعرفها أحد من الجغرافيين أو المؤرخين؛ وكانت القوات الغازية بقيادة الجنرال أليفانا. وبلغ قوام الجيش الآشوري مائة وعشرين ألف راجل، واثني عشر ألف فارس (يهوديت). وقد حاصر أليفانا مصادر المياه أيضاً فكان الناس يموتون في الشوارع عطشاً، إلى أن أصبحت الحال لا تطاق. عندئذٍ قررت واحدة من ارامل بيت فلوى التي كان زوجها قد توفى في موسم الحصاد بضربة شمس، أن تنقذ شعبها من تلك المحنة. وكانت المرأة حسناء فاتنة فارتدت أجمل ملابسها وتعطرت بأجمل عطر ومضت مع خادمتها العجوز إلى معسكر الاعداء، وهناك سحر جمالها جميعهم، وطلبت أن يقودوها إلى الجنرال نفسه، وكان هذا يرتاح في خيمته. وطلب الجنرال من يهوديت أن تبقى لتتناول طعام الغداء إلى مائدته. وأمر باعداد مائدة فخمة. "وفرح أليفانا بازائها، وشرب من الخمر شيئاً كثيراً جداً، أكثر مما شرب في جميع حياته" (١٢ ، ٢٠) وبعد انتهاء الوليمة استلقى على سريره ليرتاح وغفا من شدة سكره، فأسرعت يهوديت إلى سيفه "وضربت مرتين على عنقه فقطعت رأسه" (١٣) فهل من يقول بعد الآن أن الحب لا يرغم المرء على فقدان رأسه؟.

وضعت الخادمة رأس أليفانا في كيس الحاجيات وعادت المرأتان إلى المدينة دون أن يراهما أحد، وفي صباح اليوم التالي ظهر رأس قائد جيش بنوخذ نصر معلقاً فوق أسوار بيت فلوى، وعلى ذمة التورات، أن الجيش العظيم الذي كان يقوده أليفانا، ولّى الادبار من أرض المعركة في انسحاب وحشي ، منذ أن رأى رأس قائد محزوزاً(١٥) ولم يفكر أيّ من الجنود في البقاء تحت قيادة أيّ ضابط آخر.

إني ابدأ دراستي لهذه الحكاية بتعليق فولتير عليها: "إنه من الصعب على أيّ جغرافي أن يحدد موقع هذه البيت فلوى . فبعضهم قال إنها على بُعد أربعين ميلاً إلى الشمال من اورشليم، وقال آخرون، أنها على بُعد عدة أميال إلى الجنوب منها، ومن ناحية أخرى،يصعب على ايّ امرأة شريفة أن تبرر سلوك يهوديت، التي مضت لتنام مع قائد الجيش كي تحتز رأسه. وليس هذا بالسلوك المتواضع. أما أن تضع الرأس الغارق بالدماء في كيس عادي وتمضي ملطخة بدماء اليفانا عبر معسكر تعداد أفراده أكثر من مائة ألف مقاتل، دون أن يلحظها أحد، فهذا أمر لا يتصف بالبساطة".

لكن ما هو أكثر صعوبة من هذا هو، أن تعيش الحسناء اليهودية مائة وخمسة أعوام أخرى، بعد مأثرتها، في بيت زوجها الراحل (١٦). وفي سياق المناقشات التي دارت بخصوص سن يهوديت عندما حققت مأثرتها، قال صديقنا القديم كالميت: إنها كانت في الخامسة والستين، لمّا سلبت لبّ أليفانا، ثم رأسه. إنها حقاً السن المناسبة لدوار الرؤوس وقطعها! لكن التورات تدخلنا للتوّ في دوامة أخرى فهي تقول: إن أحداً لم يعكّر صفو اسرائيل "في ايام يهوديت" بينما واقع الحال أن تلك المرحلة كانت مرحلة الكوارث الكبرى التي حلت باليهود.

"ولم يكن مدة حياتها كلها من يقلق اسرائيل، ولا بعد موتها سنين كثيرة" (١٦). وهذا ان دل على شيء فانما يدل مرة أخرى، على ازدراء القائمين على شؤون التورات بايمان المؤمنين. فاذا أخذنا بأن يهوديت كانت في الخامسة والستين عنندما احتزّت رأس اليفانا، فان هذا يعني أن الزمن الفاصل بين مأثرتها وموتها هو، أربعون عام. أما اذا عدنا الى سفر الملوك الرابع وقرأنا فيه الفصول التي كرست لآخر ملوك يهوذا، واطلعنا على تاريخ

ممالك آشور وبابل فيها، فان خرافة يهوديت تطفو على السطح عارية حتى من ورقة التين.

فمن المعروف أن نبوبلاصر (حكم من ٦٢٦الى ٦٠٤ ق.م) هو مؤسس السلالة الاكادية التي حكمت بابل. ثم اعتلى العرش بعده ابنه نبوخذ نصر (حكم من عام ٦٠٤ الى ٥٦٢ ق.م)، الذي هزم فرعون مصر نخو في معركة قرقميش الشهيرة، وفي هذا الوقت بالذات قاد نبوخذ نصرا أول حملة ضد اليهود ليعاقب الملك يواكيم بن يوشع على موقفه مع فرعون مصر ضد بابل. وفي عام ٥٩٧ ق.م، استولت جيوش بابل على أورشليم، وبذلك بدأ تاريخ ماسمي بعدئذ "بالسبي البابلي" الذي استمر سبعين عاما.أما مملكة يهوذا فقد استمرت قائمة لفترة زمنية قصيرة بعد التاريخ المذكور.

واذا عدنا الى الواقعات التي اعترف بها كتاب الملوك الرابع عن حملة نبوخذ نصر، لوجدناها لاتتوافق قط مع ما جاءت به التورات في كتاب يهوديت. واذا كانت حادثة اليفانا تعود الى ذلك التاريخ، فلا ريب في أن نبوخذ نصر كان سيثأر لقائد جيشه في أثناء حملته الأولى (لقد أكدت الوثائق التاريخية بأن هذا الاليفانا كان قائدا عسكريا فارسيا، ولاعلاقة له بجيش آشور أو بابل ـ المترجم).

ونحن لانستطيع أن ننسب هذا المشهد الى حقبة لاحقة، لان النير البابلي كان عندئذ أكثر قساوة من أي وقت آخر. وفي عام ٥٨٨ ق.م، بعد أن حقق فرعون مصر واخ ـ اب ـ رع (ابري) نجاحات في حربه مع السوريين، حرض الملك اليهودي حزقيا على رمي النير البابلي. ولكن نبوخذ نصر سحق ابري في سوريا ثم حاصر اورشليم في طريق عودته، والذي

لاريب فيه، ان مآثرة يهوديت لم تقع في ذلك الوقت، لان أعداء اليهود احرزوا وقتئذ نصرا ساحقا. فقد استولى نبوحذ نصر على اورشليم وقضى على مملكة يهوذا قضاء تاماً. وكانت الجيوش البابلية قد دخلت المدينة في ليل التاسع إلى العاشر من تموز عام ٥٨٦ ق.م، فهدمت المدينة والقصر والأبنية العامة ومنازل السكان والحصون؛ وأبيدت العائلة المالكة كلها باستثناء صدقيا حزقيا الذي سملت عيناه وسيق أسيراً إلى بابل مع حشد كبير من اليهود.

ولم يرفع نبوخذ نصّر سوطه عن اليهود، فكانت جيوشه تأتي إلى فلسطين دائماً وتحقق النصر تلو الآخر. وهذا مالا تنفيه التورات، الأمر الذي يقودنا إلى نتيجة واحدة هي: ان كتاب يهوديت الذي نسب تلك المأثرة إلى الحسناء العجوز مؤكداً أنها حققتها في المعركة ضد واحد من جنرالات نبوخذ نصّر، وبما أن بابل لم تعرف ملكين باسم نبوخذ نصّر، فان الكتاب التوراتي المعني مجرد اختلاق غبي جاءنا به الكهنة.

الفصل الثاني والأربعون

النبي دانيال ومذكراته المقدسة

قبل أن نبدأ حديثنا مع دانيال نحيط القارىء علماً بأن كتب أشعيا وأرميا وحزقيال و غيرهم، لا تمثل أيّ أهمية بالنسبة لبحثنا هذا. فرواياتهم للأحداث، حتى التي وقعت منها فعلاً، والتي يُزعم أنها دوّنت قبل هذه الأحداث، إنما هي في واقع الامر حديث عن الماضي أو عمّا شاهده المؤلفون وعاصروه، أمّا النبوءات التي تضمنتها كتب هؤلاء الأنبياء، فهي مبهمة وطيّعة إلى حدّ غير معقول، الأمر الذي يسمح بتفسيرها حسب الطلب، وتبديل الشرح ليخدم أيّ هدف مطلوب، وبما يتفق مع مختلف الأحداث. ولذلك لن نتوقف عند هذه الحماقات.

والآن ها نحن نترك إلى غير رجعة، النظام الذي اتبعناه في بحثنا هذا لدراسة النصوص التوراتية خطوة خطوة وفق تتابعها. وفي القسم الباقي لنا من هذا الكتاب، سنجعل المشاهد التي يتألف التاريخ العقيدي اليهودي منها، على شكل مجموعات، بدءاً من اللحظة التي هدم بنوخذ نصرّ فيها معبد اورشليم وحتى يسوع المسيح، أي أننا سنقدم للقارىء المقاطع

التوراتية الأكثر إثارة للفضول، بدءاً من دانيال الذي ينسبون مغامراته إلى عهد بنوخذ نصر.

يبدأ كتاب دانيال بخبر[1] يقول: ان الملك نبوخذ نصر ربّى بين خصيانه وخدمه أربعة من الفتيان اليهود النبلاء الجميلي الصورة، وقد عهد اشفينير رئيس الخصيان إلى مساعده أملسار بأولئك الفتيان وهم: دانيال، حنانيا، مشّائيل وعزريا. ولكن أملسار جعل أسماءهم : بلطشاصر، شدرخ، ميشخ، وعبدنغو. ولا تخبرنا التورات ما إذا كان البابليون قد خصوا هؤلاء الأربعة أم لا، بيد أن سياق النص لا يترك مجالاً للشك في أن ذلك قد حصل فعلاً. وعلى أي حال فقد أعطت تربية الفتيان ثماراً رائعة، حتى ان نبوخذ نصّر نفسه اعترف علانية بأنهم أكثر ذكاء وعلماً من حكماء مملكته.

وفي أحد الأيام، أو بمعنى أدق، في احدى الليالي رأى نبوخذ نصّر حلماً أقضّ مضجعه وجعله يرتجف فرقاً، ولذلك ما إن صحا منه حتى اختلط الامر عليه ونسيه. فدعا إليه حكماء أكاد كلهم وأمرهم أن يعرفوا حلمه ويفسروه. فقال هؤلاء: إن الشطر الأول من الأمر غير قابل للتحقيق، أمّا إذا استطاع صاحب الجلالة أن يتذكر حلمه، فان تفسيره يغدو أمراً يسيراً. فثارت ثائرة الملك وأمر بتعذيب الحكماء. وفي أثناء سير عمليات التعذيب التي كانت ستؤدي إلى قتل الفتيان اليهود الأربعة أيضاً، على الرغم من أن أحداً لم يدعهم إلى حلقة الاستشارة الملكية، أعلن دانيال بأنه يستطيع معرفة حلم الملك وتفسيره بدقة. ولما مثل بين يدي بنوخذنصّر قصّ عليه وقائع حلمه التالية: أنت أيها الملك رأيت تمثالاً كبيراً رأسه من ذهب وصدره من فضة وبطنه ووركه من نحاس، ويقف على ساقين نصفهما من حديد والنصف الأخر من طين، فانبثق حجر صغير من الجبل المجاور وضرب ساقيّ

التمثال فسقط وتحطم، وتحوّل الحجر الصغير إلى جبل عظيم راسخ ملأ الأرض كلها. ثم قال دانيال مفسّراً الحلم: الرأس الذهبي هو أنت نفسك أيها الملك، وبعد نبوخذ نصر تقوم مملكة الفضة، وهي أصغر وأقّل شأناً؛ تليها مملكة النحاس؛ ثم تقوم مملكة عظيمة نصفها حديد ونصفها طين، أي نصف جبارة و نصف ضعيفة. وبعدئذٍ يقيم الرب المملكة الخامسة التي تقضي على كل ما سبقها وتستمر قائمة إلى الأبد. فدهش بنوخذ نصر لعمق حكمة الفتى،وقام وسجد له إلى الأرض ثم أغرقه بالهدايا وجعله حاكماً على احدى مقاطعات بابل. هذا ما تؤكده التورات على أيّ حال، غيرأن علماء الآثار لم يقعوا على أثر لهذا في الوثائق التي عثروا عليها.

وبعد زمن قصير، أقام نبوخذ نصّر نصباً من الذهب في مقاطعة دورا البابلية، ارتفاعه ستون ذراعاً وعرضه ستة أذرع، وفي يوم التدشين جمع المرازبة والشيوخ وقادة الجيش وحكام المقاطعات والمستشارين وسواهم، وبنى الملك اتونا في مكان غير بعيدعن التمثال، واضرمت فيه نار جبارة. ثم أعلن منادي الملك بأن من لا يسجد للتمثال يلقى به في الاتون. ومع ذلك فان حنانيا وعزريا ومشائيل لم يسجدوا لتمثال الملك، الامر الذي أثار غضب بنوخذ نصّر، فأمر بزيادة توقّد النار في الاتون سبع مرات ورمي المتمردين الثلاثة فيها مقيدّين.

وكانت النار في الاتون مستعرة إلى درجة أنها أحرقت الحراس الذين قادوا الفتيان الثلاثة إلىالأتون قبل وصولهم إليه، وذهل بنوخذ نصّر اشدّ الذهول لمّا رأى أن أربعة فتيان يتنزهون في الاتون وليس ثلاثة، فدعاهم إلى الخروج من النار المستعرة فخرجوا، وخيّم على الجميع ذهول مريع لمّا رأوا الفتيان يخرجون من ذلك اللهيب الجهنمي دون أن تحترق شعرة منهم. وفي

اللحظة نفسها اصدر نبوخذ نصّر ارادة ملكية تقضي بتقطيع أوصال كل من تسوّل له نفسه النطق بسوء ضد يهوه (دانيال٣).

أما الفصل الرابع من كتاب دانيال فهو بحق، درّة في الغباء. ففيه يروي الكهنة أن بنوخذ نصر تحوّل إلى حيوان، وبقي سبع سنوات على تلك الحال. وهنا يترك دانيال القلم لنبوخذ نصر نفسه ليروي ما وقع له: "من بنوخذ نصر الملك، إلى كل الشعوب والامم والالسنة الساكنين في الأرض كلها... أنا بنوخذ نصر، قد كنت مطمئناً في بيتي وناضراً في قصري؛ رأيت حلماً فروّعني، والأفكار على فراشي ورؤى رأسي أفزعتني... (٤). وبعد أن يروي الملك الحلم الشديد الغباء، يتابع حكايته فيقول، إنه في أحد الايام طُرد من قصره واحتقره الناس كلهم فتوارى في البرية حيث أكل الاعشاب غذاء وحيداً طيلة سبع سنوات، فظهرت على جسده فروة أسد وريش صقر، وغدت أظافره كمخالب الجوارح، وفي نهاية العام السابع "أنا بنوخذ نصر رفعت عيني إلى السماء فرجع لي عقلي وباركت العلي سبحانه وحمدت الحي إلى الأبد، الذي سلطانه أبدي وملكوته إلى دور فدور.... في ذلك الوقت رجع إلّي عقلي وعاد إلّي جلال مملكتي ومجدي وبهائي، وطلبني مشيرّي وعظمائي وتثبّت على مملكتي وزادت لي عظمة كثيرة" (٤ ، ٣٤ ، ٣٦).

ولكن من أدار دفة المملكة في تلك السنوات السبع اللعينة؟ نحن لا نعرف ونبوخذ نصّر لم يخبرنا. والعلم لايعرف أيّ شيء عن "سقوط" بنوخذنصّر وعودته إلى العرش بعد سبع سنوات.

في الاصحاح الخامس يصف دانيال الحادثة الخارقة التي وقعت في اثناء وليمة أولمها بلتصّر. ويعلن المؤلف غيرمرّة، بأن بلتصّر هو، ابن بنوخذ نصّر.

اذن، اقام الملك حفلاً ساهراً دعا إليه "عظماء الالف"(١) وقرب نهاية الوليمة خطر لبلتصّرأن يتذوق الخمر من آنية الذهب المقدسة التي جاء بها والده من معبد اورشليم. وفي اللحظة التي بدأ فيها احتساء الخمر من الآنية، ظهرت في فضاء القاعة يد خفية وشرعت تخطّ على الجدار حروف لغة غيرمفهومة. فدب الرعب في قلب بلتصّر ودعا الحكماء الاكاديين وعلماءهم وفلكييهم،ووعد بمكافآة كبيرة: ثلث مملكته لمن يقرأ ما كتب فوق الجدار. بيد أن أحداً منهم لم يستطع بالطبع، إن يلبي طلب الملك. ومن حسن حظ المملكة أن المملكة تذكرت دانيال. وما أن حضر النبي إلى القاعة حتى قرأ الكلمات التالية بسهولة ويسر: "مَنَا مَنَا تقيل وفَرْسِين". ثم ترجمها دون أن يعلن انتسابها إلى أيّ لغة، فزادت دهشة الحضور: "وهذا تفسير الكلام: مَنَا، أي أحصى الله ملكوتك وانهاه؛ تقيل، أي وزنتَ بالموازين فوجدِتَ ناقصاً، فرسٍ، أي قسمت مملكتك وأعطيت لمادي وفارس" (٢٦ - ٢٨).

وبما أن بلتصّر كان ملكاً شريفاً ومتزناً يلتزم بوعده، فقد أمر بأن يلبسوا دانيال الارجوان وقلادة الذهب، وينادوا به حاكماً على الشطر الثالث من المملكة. ثم ينتهي الاصحاح بالسطرين التاليين: "في تلك الليلة قُتل بلتصّر ملك الكلدانيين،ـ فأخذ المملكة داريوس المادي، وهو ابن اثنين وستين سنة" (٣٠ - ٣١).

بيد أننا لا نعرف: أيّ نجاح حققته طرفة حفلة بلتصّر؟ فموضوعها مليىء بما يغري الكتّاب والرسامين الذين استفادوا منه كثيراً. ولكن كم من الناس البسطاء يؤمن حتىالآن بأن الوليمة اقيمت فعلاً! إلاّ أن ما يخفف من وطأة كتاب التورات، أن العلم دحضه بصورة جلية وقاطعة. فلم يقع العلماء على

اسم بلنصّر بين أسماء ملوك بابل. فقد توفى نبوخذ نصر في عام ٥٦٢ ق.م تاركاً العرش لابنه ايليميروداخ الذي ملك من عام ٥٦٢ إلى عام ٥٥٦ ق.م حيث قتله زوج أخته واغتصب العرش، ثم قُتل هذا الاخير بعد عام واحد في معركة ضد الملك قورش. ولكن التاج بقي في عائلة نبوخذ نصر، فقد ورثه حفيده ابن بيلميروداخ الذي لم يحكم سوى عدة أشهر انتقل التاج بعدها إلى نبونيد ابن أخ نبوخذ نصر الاصغر. وكان نبونيد هذا آخر ملوك السلالة البابلية، وهو ليس من دعته التورات باسم بلتصّر. فكتاب دانيال يفيددون تأويل، بأن بلتصّر هو ابن بنوخذ نصّر، ثم يرغمه على الموت في ليلة سقوط بابل المزعوم بيد داريوس. ولكن بابل لم تخضع لهذا الأخير، بل خضعت لقورش في عام ٥٣٨ ق.م.

والحقيقة أن بابل عادت وسقطت ثانية بيد داريوس الأول، بعد اثنين وعشرين عاماً. ويحاول بعض اللاهوتيين أن ينفذ عبرهذا الباب ليؤكد على أن الملك البابلي كان في هذا العصرالثاني هو بلتصّر التوراتي. بيد أن الخدعة لاتصمد أمام أيّ نقد. إذ من المعروف جيداً أن قورش أسس امبراطورية فارسية كبيرة ضمّت: فارس وليديا وميديا وآشور، وامتدت سلطته على آسيا الغربية كلها. ثم جاء ابنه قمبيز وضم مصر إلى امبراطورية أبيه في عام ٥٢٥ ق.م. وتوفي قمبيز في عام ٥٢٣ ق.م. ومن المعروف أنه لم ينجب أولاداً، فانتقل التاج إلىأخيه سميرديز الذي قتله كهنة ميديا سراً، ووضعوا أحدهم بدلاً منه. ولكن أمرهم كشف بعد عدة أشهر. فنظم القادة الفرس مؤامرة قتلوا فيها الكهنة وسميرديزهم المزعوم، وقدموا التاج لداريوس الذي كان قد غدا صهراً لقورش مرتين؛ وقد عرف في التاريخ باسم داريوس الاول بن هيستاب. إنه حقاً لتاريخ! وقسّم داريوس امبراطوريته إلى احدى وعشرين مقاطعة؛ وحكم من عام ٥٢١ إلى عام ٤٨١ ق.م.

وبعد ردح من الزمن، أعلن حاكم مقاطعة بابل، نابو ـ اينتوك وابنه بلساروسو استقلال بابل، الأمر الذي أرغم داريوس على الاستيلاء عليها ثانية في عام ٥١٦ ق.م. ولكن كيف يمكن التأكيد بأن بلساروسوهو بلتصّر علماً بأن هذا الملك كان مجرد حاكم ولاية متمّرد ولم يكن ابناً لنبوخذ نصّر . وبين نبوخذ نصّروبلساروسوحكم بابل تسعة ملوك.

ثم تفيدنا فصول كتاب دانيال التالية بأن النبي شغل مناصب رفيعة في عهدي قورش وداريوس. وتزعم التورات أن هذين الاخيرين قد ملكا في وقت واحد في كلّ من فارس وميديا، ولكنهما في حقيقة الأمر حكما فارس وميديا الموحدتين. وقد حكم بين عهديهما كل من قمبيز وسميرديز المزيفّ.

وأخيراً لاريب في أن المملكة البابلية الكلدانية (سلالة نبو بلاصّر) سقطت في عام ٥٣٨ ق.م واستولى قورش على بابل. وهاهم اللاهوتيون يزعمون الآن بان داريوس قائد جيوش قورش، استولى عليها باسم ملكه. ويؤكدون بأنه هو المقصود في السطر الحادي والثلاثين من الاصحاح الخامس في كتاب دانيال. ثم يضيفون مختلقين الامر اختلاقاً، إنه يبدو على أغلب الظن، أن قورش بقي الحاكم الأعلى لامبراطورية فارس الجديدة، وأنه منح صهره زوج ابنتيه داريوس، صلاحيات واسعة كحاكم على بلاد الكلدانيين، وهي البلاد التي تزعم التورات بأنها كانت مملكة بلتصّر. لقد كانت بابل عاصمة الكلدانيين، ويجد اللاهوتيون برهاناً على صحة هذه المقولة في السطر الثامن و العشرين من الاصحاح السادس، والسطر الأول من الاصحاح التاسع في كتاب دانيال. "فنجح دانيال هذا في ملك داريوس وفي ملك كورش الفارسي" (٦ ، ٢٨)؛ "داريوس بن احشويروس، من

نسل المادين، الذي مُلِّك على مملكة الكلدانيين" (٩ ، ١) ويرى اللاهوتيون في هذا توافقاً مع المعطيات التاريخية.

ونحن نفهم محاولة اللاهوتيين تبجيل دانيال بصفته واحداً من الأنبياء العظام، وحمايته من تهمة مديح نفسه مديحاً كاذباً. ولكن إذا كان هذا المؤِّلف اليهودي قد كذب في رواية الأحداث التي يزعم أنه كان واحداً من شخصياتها الرئيسة، فكيف يمكن تصديق نبوءاته عن المستقبل الآتي. وبما أن "نبوءاته" تخصّ المسيح وكنيسته، وذاتِ أهمية كبيرة بالنسبة للمسيحية، فانه من الأهمية بمكان ألاّ يُتهم دانيال بالكذب أو التزوير. ولهذا يخرج اللاهوتيون المسيحيون من جلودهم في سبيل التأكيد على أنه في اليوم الأخير من حكم بلتّصر ما، ابن نبوخذ نصر ما، سقطت بابل في يد داريوس الميدي الذي كان يعمل لحساب قورش، وقد منحه هذا سلطة تامة على مملكة الكلدانيين.

ولكن أمراً قاتلاً يكمن هنا، فالكهنة اليهود، عبيد الغطرسة والثرثرة، لم يكتبوا ذلك اللغو كله إلاّ للفئات الشعبية اليهودية الدنيا، أي لأبناء جلدتهم الجهلاء غير المؤهلين لمناقشة اللاويين في المعطيات التاريخية. فأنشؤوا خرافة أليفانا وبلتصّر وغير ذلك من المشاهد التي تداعب غرور اليهودي المقهور الذي قاسى مختلف ضروب العبودية. وكانت خرافات يهوديت، وصعود دانيال و أستير سلّم المناصب تداعب النزعة اليهودية، وتخلق لدى اليهود شيئاً من الرضى خاصة بعد عودتهم من السبي البابلي. ففي تلك الحقبة بالذات كتبت مثل هذه الكتب الخرافية التي لا تغني ولا تثمر لأنّ أحداً لم يتوقع آنئذٍ أنه سيأتي يوم ينهار فيه هذا الركام من الكذب، وتظهر حقيقة العصور والديانات.

والحقيقية أن آخر تعليل لجأ إليه اللاهوتيون دفاعاً عن تلفيق دانيال بصدد رواية قورش وداريوس، ليس أكثر ثباتاً من النظريات والفرضيات المشابهة الأخرى. فداريوس لم يكن ابن ملك، بل ابن ملاّكٍ فارسي اسمه هيستاب، أي لم يكن الرجل ابن احشويروش الذي تدعي التورات وحدها بأنه كان ملكاً. والحقيقة أن التورات هي التي اختلقت هذه الشخصية وجعلت منها ملكاً على فارس وميديا، ثم زوّجته من اليهودية استير. كما لم يكن داريوس من عائلة ميدية، فبعد وفاة قورش، استغل الكهنة الميديون غياب قمبيز في حملة مصر ، وحاولوا الاستيلاء على السلطة؛ وقد تحقق لهم ذلك بفضل سميرديز المزيّف. لكن القادة الفرس أعلنوا العصيان بهدف ازاحة الميديين عن السلطة، فقتلوا الكهنة وأنصارهم وأعطوا السلطة والتاج لداريوس بن هيستاب الفارسي الاصل، وأخيراً لم يكن داريوس ملكاً بابلياً مستقلاً في أيّ يوم من الايام: لقد تسلّم العرش بصفته وريثاً شرعياً لقورش وقمبيز، واصبح ملكاً على الامبراطورية الفارسية العظمى التي ضمّت فارس وميديا وليديا ومملكة الكلدان ومصر.

وبعد قصة بلتصّر يتابع دانيال حكايته (اصحاح ٦) فيقول: ان داريوس قسّم مملكته الكلدانية إلى مائة وعشرين مقاطعة وضع عليها مائة وعشرين ممثلاً وثلاثة حكام. وزعم دانيال بأنه كان الشخصية الأهم بين الحكّام الثلاثة. أمّا الحاكمان الآخران، ومعهما حكام المقاطعات المائة والعشرون، فقد أكل الحسد قلوبهم بسبب المكانة التي رقى إليها دانيال، وشرعوا يحيكون المؤامرات ضد هذا اليهودي. فقد أصدر داريوس بناء على اقتراحهم، ارادة ملكية قضت بتألهيه ثلاثين يوماً(٦). وغني عن القول أن دانيال لم يلق بالاً لذلك المرسوم، وتابع رفع صلواته وابتهالاته الى يهوه. ولمّا نما الى داريوس أن وزيره الأول لم يتقيد بأمره، أدرك أن حاشيته نصبت له

فخاً؛ ولكن الملك لا يرجع عن قرار. فأمر برمي دانيال في جبّ الاسود. وكان داريوس يكنّ احتراماً خاصاً لاله اليهود على الرغم من ايمانه المطلق بآلهة بلاده.

"حينئذٍ أمر الملك فاحضروا دانيال وطرحوه في جبّ الاسود.... وأتي بحجر ووضع على فم الجب وختمه الملك بخاتمه وخاتم عظمائه كي لا يتغيّر شيء من القرار الذي صدر ضد دانيال.... ثم قام الملك باكراً عند الفجر وذهب مسرعاً إلى جبّ الاسود. فلما اقترب إلى الجبّ نادى دانيال بصوت اسيف:.... يا دانيال عبد الله الحي! هل الهك الذي تعبده دائماً قدر على أن ينجيك من الاسود.؟ فتكلّم دانيال مع الملك: يا أيها الملك! عش إلى الابد! إلهي أرسل ملاكه وسدّ الأفواه الاسود فلم تضّرني، لأني وجدت بريئاً قدامه وقدامك أيضاً أيها الملك! لم أفعل ذنبا حينئذٍ فرح الملك به وأمر بأن يصعد دانيال من الجبّ، فاصعد من الجب ولم يكن فيه ضرر لأنه آمن بالهه. فأمر الملك فأحضروا اولئك الذين اشتكوا على دانيال وطرحوهم في جب الاسود هم، وأولادهم ونساءهم ولم يصلوا إلى أسفل الجب حتى بطش بهم الاسود وسحقت كل عظامهم. ثم كتب الملك داريوس إلى كل الشعوب والامم والالسنة الساكنين في الأرض كلها: ليكثر سلامكم! من قبلي صدر أن يُرتعد ويُخاف قدام إله دانيال، لأنه هو الاله الحيّ القيوم إلى الابد، وملكوته لن يزول وسلطانه إلى المنتهى" (٦ ، ١٦ ، ٢٦).

يقيناً انه ينبغي على قادة اليهود ابقاء يهودهم غارقين في ظلمات الجهل، بعيدين عمّا يجري لدى الشعوب الأخرى، ويجب أيضاً أن يكون الذين كتبوا الكتب "المقدسة" قد بلغوا مستوى قياسياً من الوقاحة! داريوس يعتنق

اليهودية؟! ويصدر إرادة ملكية باعلان اليهودية ديناً رسمياً في امبراطورية فارس؟ ووصل ذلك الحدث السياسي الديني العظيم إلى شعوب الأرض كلها عبر أوامر ملكية! فهل تستطيع أيّ مخيّلة اختلاق كذب أكثر صفاقة؟ ولو لم تصلنا التورات هل كان خطر لأحد في العالم كله أن يقول: إن داريوس سجد ليهوه؟ نعم انه داريوس نفسه، الذي ساهم بأمواله الخاصة في بناء معبد ديانا الافسسية، وهو المعبد الوثني الشهير! إن المثل يقول : اكذب ولكن، لا تنس المعيار!.

إلاّ أن دانيال رئيس الوزراء المزعوم لم يقل كلمة واحدة عن حرب ملكه داريوس مع الاغريق، علماً بأن تلك الحرب كانت حدثاً تاريخياً عملاقاً. ودانيال لم يسمع بمعركة المارثوان الشهيرة.

لقد كرست فصول كتاب دانيال ٧ ـ ١٢ الأحلام المؤلف ونبوءاته. ولكن حتى لو كانت تلك الأحلام قد صيغت بقلم مؤلف حقيقي، فليس لها أيّ قيمة. بيد أنها بقلم كاتب كذّاب يؤكد دائماً أنه كان حاكماً لولاية بابل في عهد نبوخذ نصر، ورئيساً لوزراء داريوس، ولذلك فهي لا تساوي الوقت الذي نضيعه أحياناً لسماع لغو مجنون أو ابله. فما شأننا نحن إذا رأى دانيال في حلمه أسداً له جناحا نسر أو دبّاً له ثلاثة أجنحة أو نمراً ذا أربعة رؤوس وأربعة أجنحة، أو حيوانات غريبة أخرى لها عشرة قرون واسنان من حديد.؟ وما هي أهمية نبوأة هذا الدّجال عن قيامة البشر التي يزعم انها ستحدث في "زمان وزمانين ونصف" (١٢ ، ٧). إن هذا كله لا يساوي أكثر مما تساويه ثرثرة قارئة فنجان القهوة. وعند قراءة صفحات كتاب دانيال لا ينتاب المرء سوى الشعور بالاشمئزاز تجاه رجال الدين الذين يستخدمون التورات لخنق عقول المؤمنين؛ وبمزيد من الاسف تجاه الذين

يأخذون تلك الحماقات على محمل الجدّ ويعتبرونها إلهاماً إلهياً.

في الاصحاح الثالث عشر[٢] قصة انقاذ دانيال امرأة صالحة حاول عجوزان نصابان استصدار أمر باعدامها، ولكن النبي بيّن كذب ادعائهما واستصدر أمراً باعدامهما بدلاً منها. تقع أحداث القصة في بابل زمن سبي اليهود، وتدعى بطلتها سوسنة، وهي زوجة يواكيم. كانت سوسنة فاتنة الحسن مخلصة لزوجها. ولكن عجوزين اشتهياها. "وكان كلاهما مشغوفين بها ولم يكاشف أحدهما الآخر بوجده حياء من كشف هواهما، ورغبة في مضاجعتها. وكانا كل يوم يجدان في الترقّب لكي ينظراها" (١٣ ، ١٠ ـ ١٢). ثم فكت عقدة لسانيهما وباح كل للآخر برغبته وقررا العمل معاً على استمالتها. وفي أحد الايام اختبآ في الحديقة حيث جاءت تستحمّ، وانتظرا إلى أن خلعت ملابسها وصرفت خادمتها فخرجا من وراء الشجرات وطلبا منها أن تلبي رغبتهما الدنيئة. ولكنها قاومت بالوسائل كلها فصرخ العجوزان ـ قاضيا المدينة ـ ونادیا الحرس والجيران وجمعا حشداً من الناس طلب عقد اجتماع شعبي أمام بيت يواكيم.

ولكن أيّ حرية غريبة تلك التي كانت لقوم مستعبدين؟ فمن المعروف أن اليهود كانوا عبيداً في بابل ، أي أنهم كانوا يعيشون وفق قوانين العبودية الشرقية القديمة وأعرافها، وفجأة تأذن لهم السلطات بعقد اجتماع شعبّي للنظر في دعاوى قضائية ، تماماً كما لو كانوا في اورشليم! وكان يمكن أن نصدّق هذه القصة، إلى حدّ ما ، فيما لو أحيلت سوسنة إلى القضاء البابلي وحوكمت وفق قوانين نبوخذ نصّر.

إذن، في الوقت المحدد اجتمع يهود الاسر البابلي ليحاكموا الزانية المزعومة، ووقفت سوسنة أمام الاجتماع الشعبي لأبناء جلدتها العبيد. فقدم

العجوزان ادعاءهما، ووضع كل منهما يده فوق رأس زوجة يواكيم وأقسم بأنها ضبطاها عارية في الحديقة بين أحضان شاب تمكن من الفرار. لكن سوسنة رفضت الاتهام ولم تقل شيئاً عن السبب الحقيقي لاتهام العجوزين العاهرين لها. إلاّ أنها رفعت صلاة حارة إلى يهوه أقسمت فيها أمامه بأنها برئية وستقتل عبثاً. وقد صدّق الشعب تهمة العجوزين لها وقرر اعدامها.

ولمّا همّوا لتنفيذ القرار، انبرى دانيال ليظهر براءة سوسنة فطلب التحقيق مع العجوزين كل على حدة. ولمّا استدعى أحد الرجلين للتحقيق معه ثانية، سأله دانيال: "يا أيها المتعتق في الايام الشريرة! لقد أتت عليك خطاياك التي ارتكبت من قبل بقضائك اقضية ظلم وحكمك على الأبرياء واطلاقك للمجرمين،وقد قال الله: البريء والزكي لا تقتلهما. والآن إن كنت قد رايتها فقل تحت أي شجرة رايتهما يتحدثان؟ فقال تحت الضروة. فقال دانيال: لقد صوّبت كذبك على رأسك، فملاك الله أمر من لدن الله بان يشقك شطرين (١٣ ، ٥٢ ـ ٥٥).

وقد يقول قائل، إنه كان ينبغي على دانيال أن ينتظر إجابة العجوز الثاني المتناقضة مع شهادة الأول حتى يوجّه اتهامه، لأن تناقض الشهادتين وحده يبيّن الحقيقة. غير أن "الشاب الحدث" (٤٥) الذي سيقرأ كلمات لا تنتسب إلى أيّ لغة بشرية، خُطت فوق جدار قاعة لهوٍ، ذلك الشاب كان من طينة أخرى تختلف عن طينة باقي البشر. "ثم نحّاه وأمر باقبال الآخر فقال له: يانسل كنعان لايهوذا! قد فتنك الجمال واسلم الهوى قلبك إلى الفساد . هكذا كنتما تصنعان مع بنات اسرائيل وكنّ يحدثنكما مخافة منكما، أما بنت يهوذا فلم تحتمل فجوركما. فالآن قل لي تحت أي شجرة صادفتهما يتحدثان؟ فقال تحت السنديانة" (٥٦ ـ ٥٨).

وهكذا ظهرت الشهادة الكاذبة واستحق العجوزان البابليان العقاب ولكن من له صلاحية محاكمتهما؟ تؤكد التورات على ان اجتماع اليهود العبيد هو الذي اصدر قرار إدانتهما ونفذّه. "فصرخ المجمع كله بصوت عظيم وباركوا الله مخلّص الذين يرجونه. وقاموا على الشيخين، وقد أثبت دانيال من نطقهما إنهما شهدا بالزور، وصنعوا بهما كما نويا أن يصنعا بالقريب، عملاً في شريعة موسى، فقتلوهما وخلص الدم الزكي في ذلك اليوم" (٦٠ - ٦٢).

والآن، إذا أخذنا جدلاً بصحة هذه القصة بما في ذلك تنفيذ حكم الاعدام بالقاضيين العجوزين، فانه ينبغي علينا الاقرار طبعاً، بان الرجلين استحقا الموت. ولكن على الرغم من أنهما لا يستحقان الرأفة، إلاّ أن النظر في جرمهما هو حصراً من صلاحيات القضاء البابلي وحده. وهذه الحقيقة وحدها تكفي للحكم قطعاً بعدم صحة القصة التوراتية. زد إلى هذا أن محاكم نبوخذ نصر لا يمكن أن تسمح لليهود العبيد بمحاكمة اثنين من مواطني بابل الاحرار، فما بالك باصدار حكم ضدهما وتنفيذه؛ بل إن أحداً لن يصدّق بأن السلطات البابلية أجازت لعبيدها اليهود تطبيق شريعة موسى على اثنين من الشخصيات الحكومية الرسمية . ومع هذا كله، حظيت حكاية سوسنة والعجوزين بانتشار واسع في التعاليم الدينية، أضف إلى هذا أن الفن جعلها أكثر شهرة، إذا تحوّلت إلى موضوع لآلاف اللوحات، وآمنت بها جماهير غفيرة من البشر. والحقيقة أنه من الأفضل للتورات ألاّ يقرأها الناس، لأن ذلك سيقودهم إلى احتقارها وعدم الايمان بها.

الاصحاح الرابع عشر والأخير من كتاب دانيال يبدأ بمغالطة تاريخية صارخة هي: "وانضمّ الملك اسطواج إلى آبائه وأخذ كورش الفارسي ملكه.

وكان دانيال نديماً للملك ومكرّماً فوق جميع أصدقائه" (١ - ٢) غني عن القول إن اللاوي الذي وضع هذا الكتاب كان يجهل حقيقة بسيطة جداً هي، أن اسطواج كان ملكاً ميدياً وليس فارسياً، وقد توفي في عام ٥٥٩ ق.م. تاركاً العرش لابنه كياكسار الثاني. كما ويجهل هذا اللاوي أيضاً أن قورش ورث عرش هذا الأخير لأنه لم يترك وريثاً ذكراً، ثم ضمّ فارس إلى تاج ميديا. وهكذا يبدو لنا أن هذا الاصحاح واعد بالكثير.

فمنه نعرف أن قورش كان يسجد في بابل لصنم يدعى بال. ويعتقد كثير من دارسي التورات بأنه بعل، وهاهم كهنة بال يؤكدون للملك بأن الصنم يلتهم ليلاً كل ما يأتي المؤمنون به نهاراً من مأكولات، أي أن التورات تريدنا أن نصدّق ادعاءها بأن قورش كان مجرد رجل ساذج بما يكفي لقبوله مثل هذا الهراء،وليس هذا وحسب، بل ويحاول اقناع دانيال به. "أتحسب أن بالاً ليس باله حقيقي؟ أو لا ترى كم يأكل ويشرب كل يوم؟" (٦).

كان دانيال يرثي لحال الضلال التي وصلها قورش، فاقترح عليه أن يجري التجربة التالية: يوضع اللحم والخمر على مذبح بال، ويُخرج الكهنة إلى خارج المعبد؛ ثم ينثر دانيال رماداً على أرض المعبد بحضور الملك وحده، ويغادر الرجلان المكان بعد أن يختم الملك أبواب المعبد كلها بختمه. ولكن الكهنة كانوا يدخلون المعبد عبر باب سري يقع تحت المذبح ويأخذون المأكولات والمواد الأخرى التي كانت تقدّم للصنم كل يوم، وفي صباح اليوم التالي ظهرت خدعتهم في آثار اقدامهم على الرماد الذي كان ينثر على أرض المعبد. فثارت ثائرة قورش وأحسّ بمهانة كبيرة لأنه خدع طويلاً، فأمر بقتل كهنة بال ونساءهم وأولادهم ثم دفع بالصنم إلى دانيال فحطمه وهدم المعبد.

”وكان في بابل تنين عظيم، وكان أهلها يعبدونه“ (٢٣). فقال قورش لدانيال: ليس هذا الوحش صنماً مصنوعاً، انه كائن حيّ، وهو بالتالي إله. عندئذٍ طلب دانيال إذن الملك لنزال الوحش، ليس بلا سيف وحسب، بل وبلا عصا أيضاً. فوافق قورش على طب النبي، و”أخذ دانيال زفتاً وشحماً وشعراً وطبخها معاً وصنع أقراصاً وجعلها في فم التنين فأكلها التنين فانشق“ (٢٧).

ولكن الناس استاؤوا لقتل التنين. وليخفف قورش من حدة الغليان الشعبي، أمر برمي دانيال في جب الأسود مرة أخرى. غير أنه كان يجب على قورش والبابليين أن يعلموا بأن الأسود لن تفترس دانيال، لأن مثل هذه الطريقة لقتل دانيال لم تعطَ أيّ نتيجة فيما مضى. ولكي تكون العجيبة أكثر اثارة، أبقى المؤلف ”المقدس“ بطل خرافته في الجبّ سبعة أيام. ”وكان في الجب سبعة أسود يلقى لها كل يوم جثتان ونعجتان، ولم يلق لها حينئذٍ شيء لكي تفترس دانيال“ (٣٢).

”وكان حبقوق النبي في أرض يهوذا، وكان قد طبخ طبيخاً وثرد خبزاً في جفنة وانطلق إلى الصحراء يحمله إلى الحصادين. فقال ملاك الرب لحبقوق: أحمل الغداء الذي معك إلى بابل، إلى دانيال في جبّ الأسود. فقال حبقوق: أيها السّيد! إني لم ار بابل قط، ولا أعرف الجب. فأخذ ملاك الرب بجمجمته وحمله بشعر رأسه ووضعه في بابل عند الجب باندفاع روحه. فنادى حبقوق قائلاً: يا دانيال، يا دانيال! خذ الغداء الذي أرسله الله لك؛ فقال دانيال: اللهمَّ قد ذكرتني ولم تخذل الذين يحبونك. وقام دانيال وأكل، وردّ ملاك الرب حبقوق من ساعته.

وفي اليوم السابع أتى الملك ليبكي على دانيال فدنا من الجب ونظر فاذا بدانيال جالس“ (٣٣ ـ ٤٠).

غني عن القول، إن قورش كرر داريوس وأصدر أمراً باخراج دانيال من الجب و رمي أعدائه مكانه، فمزّقتهم الأسود الجائعة فوراً. وكان للنقاد بعض التعليقات على الاصدار الثاني للعجيبة نفسها: داريوس استوى على العرش بعد تسع سنوات من وفاة قورش. ولكن "الروح القدس" عكس الحقيقة التاريخية وجعل قورش وريث داريوس.

الفصل الثالث والأربعون

"أنبياء" و"أنبياء"

و"عجائب" أخرى

حزقيال، أشعيا، أرميا ودانيال هم أرفع "الأنبياء" مكانة عند اليهود والمسيحيين. وفي الأسر البابلي وضع حزقيال نبوءاته على ضفة نهر كوبار، وهو نهر توراتي يقع في بلاد الرافدين، ولكن أحداً لم يعرفه أو يسمع به في أي زمان ومكان إلاّ من التورات. واذا كنا قد رأينا أن دانيال كان منافقاً كبيراً، فان الانطباع الذي يتركه حزقيال هو، أنه كان مجرد أبله أو مجنون. فكتابه المؤلَّف من ثمانية وأربعين اصحاحاً ليس سوى ركام من اللغو الكلامي الذي لا يربطه رابط. إنه يروي لنا على سبيل المثال لا الحصر، أنه رأى (ليس في الحلم) حيوانات لها جسم أنسان، وأربعة أجنحة، وأطراف كأطراف العجل؛ ولكل منها أربعة وجوه: وجه انسان، وجه أسد، وجه نسر ووجه ثور؛ منظرها ناري، وكانت دائمة الحركة وسارت الى جانبها بكرات كبيرة جداً ملآى بالعيون.

إن هذا المقطع وحده يكفي كما نرى، لاعطاء فكرة واضحة عن الحال النفسية التي كان يعيشها المؤلف. ثم يروي لنا حزقيال ما أمره يهوه بأن يفعله. ففي أحد الأيام التهم كتاباً احتوى على لعنات وشكاوى. وبعد وقت، أقام مستلقياً على جنبه الأيسر ثلاث مائة وتسعين يوماً ليكفّر عن آثام اسرائيل، ثم تحوّل إلى الأيمن أربعين يوماً ليكفّر عن آثام يهوذا. اضافة إلى هذا كان في أثناء تكفيره عن آثام الآخرين يتناول كل صباح فطوراً مؤلفاً من مادة "غذائية" واحدة هي، الخراء الانساني؛ وهي حمية فريدة وصفها له يهوه نفسه: "وتأكل كعكاً من الشعير على الخراء الذي يخرج من الانسان" (حزقيال ٤ ، ١٢). ولكن سرعان ما اضجرت هذه الحميه النبي المبجّل؛ عندئذٍ وافق له يهوه على تنويع الأصناف؛ "فقال لي: انظر، قد جعلت لك خثي البقر بدل خراء الانسان، فتصنع خبزك عليه" (١٥).

وفي مرّة أخرى كان حزقيال في أحد البيوت، وبدلاً من أن يخرج من باب البيت كما يفعل الناس كلهم، صنع فتحة في الجدار وأخرج ثيابه وأشياءه منها (١٢ ، ٧). ويروي لنا حزقيال في الاصحاح السابع والثلاثين من كتابه، أنه كان يتجوّل يوماً في حقل مليئ بالعظام الجافة، ولمّا توجه اليها بالحديث دبت الحياة فيها وعاشت.

ولكن مقطعاً بعينه في كتاب حزقيال يثير اشمئزازاً خاصاً عند النقاد ويضع اللاهوتيين في موقف صعب جداً. والمقطع هو، خرافة الاختين اهولة وأهوليبة. ففي معرض لومه اليهود لضعف أيمانهم، ارغم حزقيال يهوه على النطق بتعابير بذيئة قذرة مثل: "وكشفت زناها، وكشفت عورتها، فجفتها نفسي كما جفت نفسي اختها. وأكثرت زناها بذكر أيام صباها التي فيها زنت بأرض مصر. وعشقت الذين لحمهم كلحم الحمير ومنيهم كمني الخيل" (٢٣ ، ١٨ ـ ٢٠).

وهاكم مقارنات بذيئة أخرى نجدها في التورات؛ ولكن اللاهوتيين يؤكدون أن لها مغزى مجازياً! فهل كان اللجوء إلى مثل تلك المقارنات الخنزيرية ضرورياً للتعبير عن أن مملكتيّ اسرائيل ويهوذا كانتا مملكتيّ شر وفسق والحاد؟

فثمة نبي آخر يستمتع بالمقارنات الجنسية هو، النبي هوشع الذي يزيد على وصفه لحديث له مع يهوه تفصيلات بعيدة عن سياق الحديث الذي ينقله. وهوشع هذا رجل سامري الأصل اعتنق اليهودية. وتقدمه التورات لنا مثالاً نموذجياً لطاعة الله وتحقيق إرادته. إلاّ أهذا الأخير أعطاه تعليمات غريبة! "أوّل ما كلّم الرب هوشع قال الرب لهوشع: اذهب خذ لنفسك امرأة زنى وأولاد زنى، لأن الأرض قد زنت زنى تاركة الرب" (هوشع ١ ، ٢).

وقد علل هذا التاعس زواجه من قحبة محترفة بأنه انما ينفّذ ارادة يهوه. واذا صدقناه، فان يهوه أمره بعذئذٍ بأن يضاجع زوجة أحد أصدقائه ولكن شريطة أن تكون قد خانت زوجها قبل ذلك: "وقال الرب لي: اذهب أحبب امرأة حبيبة صاحب وزانية، كمحبة الرب لبني اسرائيل وهم ملتفتون الى آلهة أخرى ومحبون لأقراص الزبيب. فاشتريتها لنفسي بخمسة عشر شاقل فضة وبحومر ولتك شعير. وقلت لها: تقعدين أياماً كثيرة لا تزني ولا تكوني لرجل، وأنا كذلك لك" (٣ ، ١ - ٣).

ولكن أيّ خلاصة نأخذها من هذه الثرثرة سوى، أن "شعب الله" كان يتالف من أفراد العهر ودونهم ولا يتورعون عن الانغماس في أيّ قذارة، إذا ما صدقنا النبي اليهودي الآخر، يؤئيل الذي يقول: "اصحوا أيها السكارى وابكوا وولوا يا جميع شاربي الخمر، على العصير لأنه أنقطع عن أفواهكم" (١ ، ٥).

نصل الآن الى كتاب أستير الذي يبدو أيضاً أنه وضع لمداواة جراح الكرامة اليهودية. يفيد الكتاب بأن الملك احشوروش (أرتأكسيريكس) أقام وليمة عظيمة استمرت مائة وثمانين يوماً (استير ١ ، ٤). وفي نهاية الوليمة أقام الملك وليمة أخرى لسكان المدينة كلهم استمرت سبعة أيام (٥). وفي اليوم السابع كان الملك في مزاج رائع خلقته الخمرة؛ فامر خصيانه "أن يأتوا بالملكة وشتي إلى أمام الملك، بتاج الملك ليرى الشعب والزعماء جمالها؛ لأنها كانت حسنة المنظر" (١١).

بيد أن الملكة رفضت أن تأتي، لأن الظهور أمام الشعب كان حسب الاخلاق التوراتية طبعاً، أمراً معيباً مثله مثل التعرّي، وهذا لم يكن يغري الحسناء المتواضعة . وغضب الملك أشدّ الغضب، ووصل الامر حدّ طلاق الملكة، وتقديم التاج لأجمل عذراء تنال اعجاب صاحب الجلالة ورضاه، فجيء باعداد هائلة من الفتيات إلى القصر ووضعن تحت اشراف هيجاي رئيس الخصيان. وكان على كل واحدة منهن قضاء ليلة تجريبية في فراش جلالته.

وبدأت معركة حراثة الاراضي البكر! "وكان في شوشن (سوزا) العاصمة، رجل يهودي اسمه مردكاي بن يائير بن شمعي بن قيش... وكان حاضناً لهدسة التي هي استير ابنة عمه، إذ لم يكن لها أم ولا اب. والجارية جميلة الشكل حسنة المنظر، فلما مات ابوها وأمها اتخذها مردكاي ابنة له. فكان لما سمع بأمر الملك وحكمه، وجمعت جوار كثيرة إلى شوشن العاصمة تحت يدي هيجاي، ان ادخلت استير بيت الملك تحت يد هيجاي حارس النساء. فحسنت الجارية في عينيه ونالت حظوة بين يديه فعجل لوازم تطهيرها وانصبتها ليعطيها اياها على السبع جواري المختارات، ليعطين

لها من بيت الملك، ونقلها هي وجواريها إلى أحسن محل في دار النساء. ولم تخبر استير بشعبها وأقاربها لأن مردكاي أوصاها بأن لا تخبر. وكان مردكاي يتمشى كل يوم أمام فناء دار النساء ليستعلم عن سلامة استير وما يحدث لها. وكانت إذا بلغت نوبة كل جارية أن تدخل على الملك احشوروش، وذلك بعد مضي اثني عشر شهراً عليها بحسب سنّة النساء. لأنه هكذا كانت تتم أيام تطهيرها، ستة أشهر بزيت المر، وستة أشهر بأطياب وادهان تطهير النساء... فلما جاءت نوبة استير بنت ابيجائيل عمّ مردكاي... أخذت استير إلى الملك احشوروش في دار ملكه، في الشهر العاشر، ونالت حظوة ورحمة في عينيه أكثر من جميع العذارى، فوضع تاج الملك على رأسها وجعلها ملكة مكان وشتي" (٢ ، ٥ - ١٧).

وبعد بعض الوقت تسلّم المدعو هامان منصب رئيس وزراء الملك. وكان هذا رجلاً متغطرساً أراد أن يسجد الكل له. ولم يجرؤ على تجاهل هذا الأمر سوى مردكاي، الامر الذي أكسبه غضب هامان فاستصدر هذا الأخير من الملك أمراً بقتل يهود المملكة كلهم. لأنه على الرغم من رجاحة عقل هامان، وإمكانياته السياسية الفذة التي أوصلته إلى ذلك المنصب الرفيع، غير أنه عجز عن إيجاد طريقة أخرى يمرغ بها أنف مردكاي بالوحل، ولما أرسل الامر إلى مختلف اصقاع الأمبراطورية، استطاع مردكاي أن يخبر استير به، فقامت هذه الأخيرة ومضت إلى الملك. ولما كان احشوروش مفتوناً بالملكة، سألها عما تريد وعرض عليها أن يتنازل لها عن نصف المملكة إن هي ارادت (٥ ، ٣). فدعت استير الملك وهامان إلى مائدتها. وبعد الطعام جيىء بالحلوى، ومرة أخرى اقترح الملك أن يتنازل لاستير عن نصف مملكته فرفضت، وطلبت إلى الملك أن يتناول طعام غدائه عندها في اليوم التالي أيضاً ومعه هامان. وكان هذا الأخير فخوراً باهتمام

الملكة به، وعبّر عن شعوره هذا أمام زوجته واصدقائه . ولكن بما أن استقلالية مردكاي كانت تشغله أكثر من أي شأن من شؤون الوزارة الأخرى، فقد أمر بأن تقام مشنقة ارتفاعها خمسون ذراعاً (٢٦م). ووضع في ذهنه أن يعلّق ذلك اليهودي اللعين عليها، فهو لم يكن على علم بصلة القرابة التي تربط مردكاي بالملكة.

وفي ذلك الليل كان احشوروش أرقاً، فأمر بان يقرؤوا له يوميات عهده. وبذلك استطاع أن يتذكر مؤامرة حاكها ضده اثنان من خصيانه، وكانت ستودي بحياته لو لم يكشفها المدعو مردكاي. إذن لقد أنقذ مردكاي حياة الملك في يوم ما، ولما سأل عن المكافأة التي تلقاها اليهودي قيل له أنه لم يتلق أيّ مكافأة. ولمّا جاء هامان في اليوم التالي إلى سيده، سأله هذا الاخير عن أفضل طريقة لتكريم رجل يريد الملك تكريمه تكريماً استثنائياً. ولمّا كان هامان واثقاً أنه المقصود، أجاب الملك قائلاً: يجب أن يُلبس الرجل ملابساً ملكية، ويُركب على صهوة جواد ثم يؤتى به إلى ساحة المدينة وينادى: ها هو الرجل الذي اراد الملك أن يكرّمه في مملكته، عندئذٍ أمر الملك هامان بأن يجد مردكاي ويؤدي له هذه المراسم. وكان هامان مرغماً على تنفيذ أمر الملك(٦).

وفي المساء اقامت الملكة مأدبتها الثانية على شرف الملك ورئيس وزرائه، غير أن الأخير لم يكن سعيداً كما كان في المأدبة الأولى. وللمرة الثالثة عرض الملك على استير أن تطلب ما تريد حتى لو كان نصف المملكة، ولكنها لم تطلب سوى الرأفة بأبناء جلدتها، فدهش الملك لهذا الطلب، فهو لم يسأل عن اصل زوجته قبل أن يتزوجها. وعندما شرحت له بأن عدواً لشعبها هو الذي سعى إلى استصدار قرارا إبادته فصاح الملك قائلاً: "من هو

وأين ذاك الذي يتجاسر بقلبه أن يفعل هذا؟" فأجابت استير قائلة: "هذا الرجل العدو هو، هامان" فارتبك هامان ارتباكاً كبيراً، وثارت ثائرة الملك، وهنا جاء الخصي وقال: إن المشنقة العالية التي أقيمت بأمر هامان، إنما أقيمت لمردكاي، فأمر الملك بأن يعلّق هامان على تلك المشنقة ، فعلقوه فوراً، وعيّن الملك مردكاي رئيساً للوزراء بدلاً منه، طبعاً.

وأعلنت استير ومردكاي بعد موافقة الملك، بأنه يمكن لليهود الذين أمر هامان بقتلهم في الثالث عشر من آذار، أن يقتلوا أعداءهم في هذا اليوم، وفي اليوم الذي يليه، "فقتل اليهود جميع أعدائهم ومبغضيهم كما شاؤوا" (٩ ، ٥) فقتل ٨٠٠ إنسان في شوشن و ٧٥,٠٠٠ في مدن المملكة الأخرى.

وفي اليوم الخامس عشر من آذار احتفل اليهود احتفالاً كبيراً. وأصدرت استير أمراً يقضي بأن يحتفل اليهود سنوياً بذلك اليوم. إنه عيد "فوريم" الذي يحتفل اليهود المؤمنون به: يصومون يوماً كاملاً احياء لذكرى قلق استير وصلاتها، ويفرحون يومين احياء لذكرى انقاذ اليهود من المذبحة.

هذه هي الخرافة التي جعل الكهنة منها قصة مقدسة دعوا إلى الايمان بها، مع أن تصديقها أمراً مستحيلاً. ومن الجدير أن نشير هنا إلى أن القصة المقدسة تبدأ عادة بقباحة ما: لقد طردت وشتي لأنها رفضت أن تقف عارية أمام الشعب، ولكن يبدو أن استير وافقت على ذلك. ثم يؤكد النقّاد من جهة أخرى أن السلطان العثماني، الباي المغربي، الشاه الفارسي، المغول العظيم والبوغديخان الصيني لم يقبلوا أيّ امرأة في حريمهم قبل أن يتبينوا أصلها، بل انك لن تجد جواداً واحداً في اسطبلات هؤلاء السادة مجهول الهوية، فما بالك بأن يتزوّج ارتاكسيريكس فتاة لا يعرف قبيلتها ودينها وعائلتها؟.

أما فيما يخص هامان الذي أراد إبادة شعب بكامله لأن مردكاي أبى أن يسجد له علماً بأن اليهود الآخرين كانوا يفعلون، ذلك الهامان كان رجلاً مضحكاً ورهيباً في آن واحد.

وإذا وافقنا على ان استير صارت ملكة وحملت التاج فوق رأسها الجميل خافية اصلها اليهودي، فان مجد ذلك السمو يهبط كثيراً لأنه لا يقدم للكرامة اليهودية أيّ شيء. ومن غير الواضح أيضاً كيف استطاع الملك أن يعتبر هامان مذنباً في السعي لقتل استير الغالية لأنها يهودية إذا كان لا يعرف ذلك أصلاً؟ وأخيراً، لقد جعلت وحشية استير من هذه الخرافة قصة مضحكة، لكنها تثير الاشمئزاز.

وقال فولتير في خرافة استير: "نحن نعرف أن لقصة استير جانباً مغرياً واحداً يتلخص في أن استير غدت ملكة وأنقذت أبناء قومها من الموت؛ إنه موضوع جيد لراوية اوتراجيديا. بيد أنهم خنقوا الموضوع بكثرة من التناقضات والحماقات! وطبعته استير ببربريتها الدموية التي تتناقض تناقضاً صارخاً مع طبيعة جنسها، وما يمكن أن يقع في الحياة اليومية!".

مع عزرا ونحميا نقترب من لحظة تحرير الشعب الذي اختاره يهوه. وحسب التأريخ الخرافي التوراتي، إن حال البؤس التي عاشها اليهود قد تحسنت بعض الشيء في عهد احشوروش الذي تزعم التورات بأنه والد داريوس (ونحن لن ننسى ان داريوس هو ابن القائد الفارسي هيستاب الذي لم يكن ملكاً في أي زمان ومكان). ويجب أن تكون حال اليهود الاسرى قد غدت أفضل في عهد داريوس أيضاً. ألم يجعل هذا الملك دانيال اليهودي رئيساً لوزرائه، كما جعل احشوروش مردكاي رئيساً لوزرائه أيضاً؟ إلاّ أن التورات تعجلت ووضعت داريوس على العرش قبل قورش، كما رأينا

في كتاب دانيال. وفي كتاب عزريا يأتي احشورروش إلى العرش قبل قورش، يليه أرتاكسيريكس ثم داريوس ثانية. وهذا الترتيب التوراتي كله لا يشبه التاريخ إلاّ كما تشبهه التنويهات التوراتية الاخرى.

عدّاك عن هذا كله، أن نحميا وعزرا هما النبيان اللذان تستند الكنيسة اليهما في تحديد الظروف الدقيقة لعودة اليهود إلى اورشليم؛ ولكن معطيات هذين الرجلين يناقض أحدها الآخر. فعزرا يقول، إن قورش أصدر مرسوماً في أول عام له في الحكم سمح بموجبه لبني اسرائيل بالعودة إلى اليهودية متى شاؤوا، وان يهوه أمره بان يعيد بناء معبد اورشليم. وقد عاد اليهود إلى فلسطين تحت قيادة المدعو زر بابل. إلاّ ان بناء المعبد توقف في عهدي احشورروش وارتاكسيرتكس بسبب الضغط الذي مارسه السكان الذين استوطنوا المنطقة بعد سوق اليهود منها، ولكن الاعمال العدائية توقفت بعد استواء داريوس على العرش، وتم بناء المعبد في السنة السادسة لحكمه.

أمّا نحميا فيقول، إن ارتاكسيريكس هو الذي سمح لليهود بالعودة إلى اورشليم ورفع المدينة من الانقاض، وكان زر بابل على راس العائدين. أمّا الصعوبات التي واجهت العائدين فقد تمثلت في النشاطات المعادية التي قامت بها القبائل التي حلت مكانهم أثناء غيابهم، ولكنهم تجاوزوها بقواهم الذاتية، إذ كانوا يعملون المعول بيد والسيف باليد الأخرى. ثم يروي لنا هذا المؤلّف "المقدس" قصة الرحلة التي قام بها إلى بابل في الحقبة التي انتهى بناء المعبد ابانها، اي في العام الثاني من حكم ارتاكسيريكس.

ولكن عزرا يؤكد على أن نحميا رافق زر بابل في طريق العودة إلى اليهودية، وأن ذلك كان في عهد قورش. ويقول أيضاً، ان عودة ثانية حصلت في عهد ارتاكسيريكس، ولكن في السنة السابعة من حكمه وليس

في العاشرة. ويضيف أيضاً بأنه هو نفسه عزرا الذي قاد هذه الدفعة الثانية من ابناء قومه العائدين الى أرض كنعان. حاول ياسيدي أن تتبيّن الحقيقة في هذا الخليط الغريب، ان استطعت إلى ذلك سبيلاً!.

الفصل الرابع والأربعون

أيوب الصابر ويونان

بعد كتب عزرا، نحميا واستير يأتي كتاب أيوب[1] الذي يروي قصة لا يُشار إلى تاريخ وقوع أحداثها. وتتلخص القصة في التالي: في أرض عوص(؟) عاش رجل غني جداً وتقي جداً. "وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب، وجاء الشيطان أيضاًفي وسطهم. فقال الرب للشيطان: من أين جئت؟ فأجاب الشيطان الرب وقال: من الجولان في الأرض ومن التمشي فيها. فقال الرب للشيطان: هل جعلت قلبك على عبدي أيوب؟ لأنه ليس مثله في الأرض رجل كامل ومستقيم يتقي الله ويحيد عن الشر. فأجاب الشيطان الرب وقال: هل مجاناً يتقي ايوب الله؟.... أبسط يدك الآن ومسّ كل ما له، فانه في وجهك يجدف عليك" (ايوب ١ ، ٦ ـ ٩ ـ ١١).

ولم يكن يهوه يريد اتخاذ اجراء شديد بحق أيوب خادمه المطيع، لكنه أجاز للشيطان ملاحقته قدر ما يشاء. "هو وكل ما له في يدك، وإنما إليه لا تمدّ يدك" هذا ما قاله يهوه لصديقه الشيطان بلغتهما السماوية. بعدئذٍ تسلّم السيّد الشيطان شؤون أيوب، فخرب البدو محلته وساقوا مواشيه واتنه. ثم

نزلت صاعقةٌ وابادت غنمه ورعيانه. وساق الكلدانيوين جماله وقتلوا غلمانه. وأخيراً هدمت منزله ريح صحراوية عاتية، ومات أبناؤه السبعة وبناته الثلاث تحت الانقاض.

ووردت أخبار تلك النوازل إلى أيوب واحد اثر الآخر. ولكن أيوب كان ذا مزاج هادىء، فركع وقال: "عرياناً خرجت من بطن أمي وعرياناً أعود إلى هناك، الرب أعطى والرب أخذ، فليكن اسم الرب مباركاً" (٢١).

هذا ما اقتصر عليه ردّ فعل ذلك العجوز الصلب. ولكن الشيطان لم يعترف بالهزيمة وسرعان ما اكتشف ايوب بثوراً متقيحة تغطي جسده من راسه إلى قدميه. وبينما هو جالس يحكّ بثوره بكسرة قدر، أخذت زوجه تقرعه . فعارضها بحكمة وقال: "الخير نقبل من عند الله والشر لا نقبل؟" (٢ ، ١٠).

وفجأة انفجر الرجل بلوم مرّ على مصيره القاسي. فلعن يوم مولده: "ليته هلك اليوم الذي ولدت فيه والليل الذي قال: قد حبل برجل" (٣ ، ٣) وأخذ يدعو الموت بصوت عال. وقد جاءت شكواه في ستة وعشرين سطراً من الاصحاح الثالث. ولكن بما أن تلك الشكاوى تتناقض مع الموضوع الرئيس للكتاب، فان واضعي كتب تعليم "التاريخ المقدس" يسقطونها من كتبهم. والحقيقة أنه كان يكفي لو انتهى كتاب أيوب عندها. فالشيطان الذي اقام مع يهوه ما يشبه المبارزة، كان يكفيه مجرّد تذّمر ايوب وفقدانه الصبر كي يكسب الجولة ويهزم يهوه.

عندئذٍ جاء أليفاز وبلدد وصوفر لزيارة ايوب. فذكروه بأن النوازل لا تحلّ إلاّ بالاشرار. فدعى ايوب الله شاهداً على أنه بريء وأنه يعاني وهو لا يستحق تلك الآلام كلها. وشغل حديث أيوب واصدقائه تسعة وعشرين

فصلاً. وعلى حين غرة يظهر في الفصل الثاني والثلاثين محادث ثالث يدعى أليهو، وهو اصغر سناً من الآخرين ولم يشترك هذا الرجل في الحديث إلاّ ليذكرّ أيوب بأنه كان متغطرساً جداً لمّا أكّد براءته، لأن الانسان لا يستطيع أن يدرك حكمة الله ولا يستطيع أن يبقى نقياً في عينيه نقاء مطلقاً.

ثم ظهر يهوه في اعصار، فادان كلمات الشاب وذكر ببعض العجائب التي أكّدت على جبروته. عندئذٍ أقرّ ايوب بأنه تجاوز الحد الذي كان يجب أن يقيده فيه ضعفه وجهله. ولمّا أعجب يهوه باجابته، شفاه من قروحه وأعاد له ضعف ما كان له، ولم يَرد أي ذكر للشيطان بعد ذلك. ثم يفيدنا الاصحاح الثاني والاربعون بأن ايوب عاد وأنجب سبعة بنين وثلاث بنات، وعاش مائة وأربعين عاماً بعد تلك الآلام.

غني عن القول، ان كتاب ايوب لا يمثل أيّ أهمية حيوية، ولم يشر النقاد إلاّ إلى نقطة غريبة مميزة فيه. الشيطان يتجوّل في السماء بين الملائكة والابرار كما لو أنه في بيته وبين أهله، وسرعان ما يراهن يهوه على إمكانية تحويل أيوب التاعس إلى مجدّف كافر. ويقبل الله الرهان آملاً أن يتحمّل عبده الطيب الامتحان حتى النهاية. وهذا يعني أن الله لا يعرف المستقبل معرفة أكيدة، بل ويخطىء في توقعاته، لأن الشيطان ربح الرهان في نهاية الأمر،فقد بدّل ايوب الصابر إيمانه.

لنلتفت الآن إلى كتاب النبي يونان الجليلي. لقد عاش هذا النبي في عهد يربعام الثاني الاسرائيلي، أي ولد في محيط من الهراطقة. وفي أحد الايام أمره يهوه بالذهاب إلى نينوى ليعظ أهلها. وكان يونان هو النبي الوحيد الذي عهد إليه بمهمة من هذا النوع. ويتساءل فولتير عن اللغة التي كان يونان يعظ بها، فالمسافة من موطنه إلى نينوى تزيد عن الست مائة

كيلومتر. ولم ير يونان أنه سينجح في تأدية مهمته، ولذلك لم يتوجه إلى نينوى بل إلى يافا حيث ركب سفينة مبحرة إلى ترشيش.

وفي الطريق هبت عاصفة بحرية عاتية. ومن الغريب أن العاصفة أرسلت على يونان سباتاً عميقا. وفي غمرة الفوضى والخوف شرع البحارة يرمون الحمولة في البحر، ولكن السفينة لم تهدأ واستمرت الامواج تتقاذفها باتجاهات مختلفة، عندئذٍ أيقظ القبطان يونان وطلب منه أن يتوسل إلهه لينقذ السفينة ويوقف العاصفة. بيد أن النبي لم يفعل، فزاد هياج البحر. عندئذٍ رمى البحارة القرعة لمعرفة المذنب فيما كان يحدث. ووقعت القرعة على يونان طبعاً، فرموا به في البحر وفي اللحظة نفسها هدأت العاصفة.

وها هو "حوت" يأتي من الاصقاع الاطلنطية الجنوبية ليستطلع ما يجري عند شواطىء البحر المتوسط، ففتح فمه وابتلع يونان، وهو ما لم ينتظره الرجل أو يحسب له حساباً. ولكن بما أن ما وقع قد وقع، ولم يبق للنبي ما يفعله، فقد قرر أن يصبر ويتجلّد بانتظار تطور "الاحداث في مسكنه الجديد الغريب. وتفيد التورات بأن يونان قضى في تلك "الشقة" ثلاثة أيام بلياليها، وقد أنشد خلالها أناشيد طويلة في مديح يهوه، ولم يكن هذا الأخير يريد إلاّ تلقين النبي درساً لا ينساه؛ لذلك أمر السمكة الخرافية أن تجلوه خارجاً حينما رأى ندمه. وقد أذعن الحوت للأمر الصادر إليه، وها هو يونان على اليابسة ولا يزال كثير من الناس يريك المكان الذي بصق الحوت يونان فيه. ولكن اللاهوتيين لا يعرفون على وجه الدقة، ما إذا كان الحوت قد قذف يونان عبر فمه أو عبر شرجه.

ويرى الناقدون من غير المؤمنين، أن هذه الحكاية مجرد انتحال للخرافات الاغريقية. ففي كتابه العشرين يروي هوميروس قصة وحش

بحري هاجم هرقل. وقد أمضى الاخير ثلاثة أيام بلياليها في جوف الكائن المعتدي يتغذى بكبده المشويه - ثم شق طريقه وخرج من ذلك السجن الغريب. ونحن لا يحق لنا اعتبار خرافة هرقل هذه أسوأ من خرافة يونان.

وهناك في المثيولوجيا الوثنية قصة عن أريون[٢] الذي رمى به البحارة إلى اللجة ثم أنقذه دلفين حمله فوق ظهره إلى ليسبوس. بيد أنها قصة باهتة بالمقارنة مع مغامرتي هرقل ويونان.

بعد عودته من أحشاء الحوت مضى يونان إلى نينوى وتنبأ لسكانها بقرب خراب مدينتهم. وتفيد التورات بأن النبي كان يتجوّل في الشوارع ويصيح قائلاً: "بعد أربعين يوماً تنهدم نينوى". وقد كان لهذه الكلمات تأثير ساحر، فقد آمن الناس باله اليهود من فورهم، وصاموا ولبسوا مسوحاً. "وبلغ الامر ملك نينوى فقام عن كرسيه وخلع رداءه وتغطى بمسوح وجلس على الرماد" (يونان ٣ ، ٦). ثم اصدر إرادة ملكية فرض فيها صياماً عظيماً ليس على الناس وحدهم، بل على البهائم أيضاً: "ونودي وقيل في نينوى عن أمر الملك وعظمائه قائلاً: لا تذق الناس ولا البهائم ولا البقر ولا الغنم شيئاً، لا ترع ولا تشرب ماء؛ وليتغط بمسوح، الناس والبهائم ويصرخوا إلى الله بشدة ويرجع كل واحد عن طريقه الرديئة، وعن الظلم الذي في ايديهم" (٧ ، ٨).

ولكن، بما أن الناس عادت إلى طريق الرب، فقد صفح يهوه عن سكان المدينة، أي أن نبوأة يونان لم تتحقق. "فلما رأى الله أعمالهم أنهم رجعوا عن طريقهم الرديئة، ندم الله على الشرّ الذي تكلّم أن يصنعه بهم فلم يصنعه" (١٠) ولم تتهدم نينوى وتتحول إلى اطلال، إلاّ بعد زمن طويل. ولكن يونان اعتبر ان الناس ستظنه مجرد ثرثار بعد أن اتضح بان نبوأته لم

تتحقق، فأحس بالاهانة، ومضى ليقيم في الصحراء معتزلاً وكان القيظ هناك رهيباً، ولم تكن ثمة شجرة يستفيىء ظلها "فاعد الرب له يقيطنة فارتفعت فوق يونان لتكون ظلاً على راسه يخلصه من غمه. ففرح يونان باليقطينة فرحاً عظيماً؛ ثم خلق الله دودة عند طلوع الفجر في الغد، فضربت اليقطينة فيبست. وحدث عند طلوع الشمس أن الله أرسل ريحاً شرقية حارة، فضربت الشمس على رأس يونان فذبل، وطلب الموت لنفسه وقال: موتي خير من حياتي. فقال الله ليونان: هل اغتظت بالصواب من أجل اليقطينة؟ فقال اغتظت بالصواب حتى الموت، فقال الرب: أنت اشفقت على اليقطينة التي لم تتعب فيها ولا ربيتها، التي بنت ليلة كانت وبنت ليله هلكت، أفلا أشفق أنا على نينوى، المدينة العظيمة التي فيها أكثر من اثنتي عشرة ربوة من الناس الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم، وبهائم كثيرة؟" (٤ ، ٦ - ١١).

بهذا الموقف الالهي الصارم القاطع ينتهي كتاب يونان والنهاية كما ترون، هزيلة ، لأن عجيبة اليقطينة ليست شيئاً يذكر بالمقارنة مع عجيبة الحوت. والمفاجأة المثيرة تكمن في أن القصة لا تتوافق مع الخط الدموي الذي التزمت التورات به على طول الخط.

الفصل الخامس والاربعون

المكابيون

هنا الآن على اعتاب آخر عصر في تاريخ اليهود قبل ما اتفقوا على تسميته بميلاد المسيح. فكتاب العهد القديم ينتهي بكتب المكابيين الثلاثة و كتاب عزرا الثالث.[1]

وتفيدنا السطور السبعة الاولى في كتاب المكابيين الاول، بان الاسكندر الاكبر حقق انتصارات حاسمة على داريوس الثالث، وتخبرنا بان الملك الاغريقي المقدوني توفي بمرض، وانه قسم مملكته بين قادة جيشه. وحسب الخرافة اليهودية، انه لما اقترب الاسكندر من اورشليم خرج رئيس كهنة اليهود لاستقباله وتنبأ له بقرب سيطرته على العالم كله. ويزعمون ان الاسكندر تأثر بتلك اللفتة الطيبة ورأف بالمدينة.

وفي تلك الحقبة كان يقوم في اليهودية حكم ثيوقراطي، فقد كان الشعب يتمتع بقدر من الاستقلال لأنه لم يكن عليه ملك، ولم تكن الدول المجاورة تضايقه. وكان الكهنة هم الذين يديرون شؤون البلاد. وكان المذبح هو نفسه المنبر. ولكن هذه الطريقة في ادارة دفة الحكم لم تكن تختلف

كثيراً عن النظام الملكي، لأن اليهود كانوا يؤدون العشر الى رئيس الكهنة وحاشيته، وكانوا يدفعون الضرائب المدنية المعتادة.

ونحن لا نستطيع تأشير حدود الحقبة الزمنية التي عاشها ذلك الاستقلال النسبي، إلاّ ان كتب المكابيين تجيز ان نستنتج بان اليهود لم يكونوا سعداء في ظل حكم خلفاء الاسكندر. وتحدثت التورات عن التبدل الذي طرأ على الوضع فقالت: "ولبس كل منهم التاج بعد وفاته، وكذلك بنوهم من بعدهم سنين كثيرة، فكثرت الشرور في الارض. وخرجت منهم جرثومة اثيمة هي، انطيوكس الشهير ابن انطيوكوس الملك" (مكابيين ١ ، ١٠-١١).

ورأى اليهود أياماً سوداً اخرى في عهد السلالة السلوقية التي حكمت سوريا، على الرغم من ان المؤلف "المقدس" بذل جهوداً كبيرة ليرفع من هيبة شعب يهوه المختار عبر وصف بعض العجائب، فقد وضع السلوقيون بني يعقوب في وضع مأساوي يرثي له. وكتب المكابيين، كباقي كتب العهد القديم الاخرى، تعج بالتناقضات والاخطاء التاريخية الصارخة، اضافة الى ان الاحداث عرضت هنا وفق تتابع تاريخي مفكك ومعطيات متناقضة عن الحدث ذاته، الامر الذي جعل تمييز الحقيقة عن الكذب أمراً عسيراً.

في عهد انطيوخس ابيفان اطلق الكاهن متياس (متتيا) شرارة الانتفاضة [٢] بقتله يهودياً قدم ذبيحة للآلهة السورية. وقام مع متياس هذا ابناؤه الخمسة: يوحنا، سمعان، يهوذا، العازر ويوناثان.وقد لقبوهم بالمكابيين نسبة الى لقب اخيهم يهوذا المكابي (أي الذي اختاره يهوه). وأعلنت اليهودية العصيان وتسلّح الناس بما وقع لهم. ووقف يهوذا المكابي ابن متياس على رأس الانتفاضة، وشرع يقطع جنود الملك بسيفه. ثم اخذ لنفسه مهمة

رئيس الكهنة. واورد لنا الفصل الثالث من كتاب المكابيين الاول تعداداً لانتصارات يهوذا المكابي على ابلونيوس في ضواحي السامرة، وعلى سيرون عند بيت حورون، وعلى ثلاثة آخرين من كبار ضباط انطيوخس هم: بطليموس، نيكانور وجرجياس.

ولكن حظ العازر المكابي كان عاثراً في عهد الملك انطيوخس ايفباتور بن انطيوخس ابيفان، ففي حمى المعركة رأى العازر فيلاً في صفوف الاعداء يحمل الشارات الملكية، فاندفع اليه كالاعصار ظناً منه ان الفيل يحمل الملك نفسه. ولكن الحيوان تلقى اليهودي التاعس بخرطومه وشطره نصفين، كلعبة خزفية.(٣)

وفي عهد ديميتري سوتير، عاد يهوذا المكابي ليتغلّب على جيوش الملك، مرة تحت قيادة بكديس واثنتين بقيادة نيكانور الذي "قطعوا رأسه ويمينه... وعلقوها قبالة اورشليم" (٧ ، ٤٧). ولكن عند بداية الهجوم الثاني الذي شنه بكديس، دبّ الرعب في قلوب اليهود وولّوا الادبار تاركين قائدهم ليواجه مصيره المحتوم في ارض المعركة. وهكذا قتل يهوذا المكابي. فتولى قيادة الانتفاضة بعده كل من يوناثان وسمعان على التوالي.

لقد خرج المكابيون من سبط لاوي، وكانوا كهنة عاديين، إلاّ انهم سعوا الى تسلّم السلطة الملكية، وقد حققوا مسعاهم وينبغي علينا ان نعترف هنا بأن ذلك الحدث جعل من النبوءات التي قالت بأن الملوك اليهود لا يخرجون إلاّ من سبط يهوذا، مجرّد لغو لا طائلة منه. فلم يبق من بيت داود احد، وفي اقل تقدير فان كتاب توراتي لم يشر الى اي خلف لداود منذ السبي البابلي.

اذن، لقد دنّس ابناء متياس اللاوي الهيكل والعرش بفعلتهم. واتبعوا

سياسة بربرية ادت الى هلاك قومهم، ولم تنقذهم السلطة الكهنوتية التي كانوا يتمتعون بها من تأدية الجزية الى ملوك سوريا. علاوة على ذلك، اباد هؤلاء الابطال المقدسون بعضهم بعضاً. ففي احدى الولائم العامرة ذهبت الخمرة برأس سمعان آخر المكابيين، فقتله صهره بطليموس حاكم اريحا بهدف الاستيلاء على السلطة، وقتل ولديه معه.

ثم حاول هركان ابن سمعان رئيس الكهنة، ان يقيم عصياناً ضد الملك انطيوخس سيديت. ولكن الملك السوري حاصره في اورشليم، ولم يتسن ليهوه ان يظهر ويقدم له المساعدة في الوقت المناسب، الامر الذي ارغمه على استرضاء الملك السوري وتأدية غرامة له. وهذا الهركان هو نفسه الذي استغل البلبلة التي سادت الاوضاع السورية ليحتل السامرة، وهي العدوّالتقليدي لاورشليم. ثم اعاد هيرودوس بناء هذه المدينة وبدّل اسمها الى سيباستا. امّا سكان السامرة فقد تركوها ومضوا إلى شكيم التي صار اسمها نابلوزا، فاصبحوا اكثر قرباً من اورشليم. وهذا ما جعل الكره يتزايد بين نصفي شعب يهوه المختار. ان اورشليم وشكيم واريحا والسامرة هي، مدن معروفة لنا معرفة جيدة بفضل الحكايات الدينية، ولكن الشرق كان يعرف عنها القليل، فهي مدن صغيرة جداً وقريبة احداها الى الاخرى، وقد مارس سكانها حرفاً موسمية.

ومن الجدير ذكره في هذا السياق، ان يوسف فلاقي الذي افقده التعصب اتزانه، اكد على ان هركان كان فاتحاًونبياً، وان الله كان يتحدث اليه في اغلب الاحيان. ويرى فلاقي ان البرهان القاطع على نبوأة هذا الهركان هو، أنه تنبأ لو لديه بنهاية وخيمة اذا لم يرجعا عن طريق الغدر والوحشية الذي سارا فيه. وكان احدهما قد اتخذ لنفسه اسماً يونانياً هو،

أريستوفول، ودعا الثاني نفسه باسم انتيغون. فجاء الله الى هركان ليلاً واراه صورة ابنه الثالث يوحنا، الذي اتخذ لنفسه فيما بعد اسم الاسكندر.

ـ هذا ـ قال يهوه لهركان ـ سيشغل مكانك ككاهن عظيم الى الابد.

إلاّ ان هركان اشتمّ في هذه الكلمات رائحة اغتصاب السلطة منه، فاسرع وقتل ابنه يوحنا "خوفاً من أن تتحقق النبوأة" كما كتب يوسف فلافي. ولكن، إما ان هذا اليوحنا لم يمت تماماً، او ان الله بعثه الى الحياة بعد الموت، لأنه تقلّد منصب رئيس الكهنة وحاكم اورشليم، بعد فترة وجيزة.

اما ولدا هركان الآخران فقد قتل احدهما (اريستوفول) الآخر (انتيغون) في الهيكل، وامر بان تخنق امه في السجن. انه اريستوفول المكابي الاول نفسه الذي اتخذ لنفسه لقب ملك اليهودية، والذي يسميه فلافي بالملك اللين العريكة.

في تلك الاثناء اقلق اليهود تنافس شيعتين دينيتين تحولتا بعدئذٍ الى حزبين سياسيين هما: حزب الفريسيين، اي الذين تفرّدوا، المتميزين، لانهم ادعوا تميّزهم عن باقي القوم، وحزب الصدوقيين، نسبة الى زعيمهم الديني صادوق. وكان هؤلاء الاخيرون يمثلون ما يشبه الابيقورية اليهودية. لقد تمسك الصدوقيون بشرائع "الكتب الخمسة" تمسكاً اعمى، ولم يعترفوا بخلود الروح، اي انهم لم يؤمنوا بجهنم والجنة ويوم القيامة.

اما الفريسيون فقد اضافوا إلى شرائع موسى المكتوبة، تقاليد واعرافاً شفهية آمنوا على اساسها بانتقال الروح، ثم أضافوا عدد من العقائد الاخرى الى هذه النظرية. فقد اكّدوا مثلاً، على ان الروح الشريرة تستطيع دخول

جسد الانسان، ورأوا في الامراض المستعصية كلها، مكيدة الابالسة. وكان الفريسيون علماء يفسرون "شريعة الله". وقد تعلموا منهم الكشف عن "الاسرار". وبشّر الفريسيون بقيامة الموتى وقيام مملكة الله.

وكانت هناك طائفة اخرى هي، اليسيون الذين كانوا يعيشون جماعةً، ويدعون الى التسامح. وقد استوعب هؤلاء مختلف العقائد والتعاليم الفارسية.

في بادء الامر وقف المكابيون مع الصدوقيين ضد الفريسيين، لأن هؤلاء كانوا يؤلفون حزباً ذا تأثير قوي جداً في الدولة. وكان حزبهم يسعى للتدخل في مختلف الشؤون، اي كان يمثل خطراً بالنسبة للمكابيين. وبعد ان توفي اريستوفول الاول، "بُعث" اخوه المقتول يوحنا الاسكندر واستوى على العرش، ويبدو على اغلب الظن انه كان سجيناً عند اخيه ولم يقتله. فتزوّج يوحنا سالومة ارملة اخيه المتوفى، ودعاها باسم الاسكندرا.

وفي تلك الحقبة اشتد الصراع على فلسطين بين بطالسة مصر وسلوقيي سوريا. وكان ذلك الصراع قد نشأ منذ وفاة الاسكندر المقدوني. وقد منح الخلاف بين السلالتين اليهود فرصة تاريخية استعادوا فيها قواهم وحصنوا مواقعهم. وكان كهنتهم هم الذين يديرون شؤونهم في تلك الفترة، وكان هؤلاء يبدلون توجههم السياسي كل عام، فيتحوّلون الى الاقوى.وبدأ يوحنا الاسكندر كهانته بقتل اخيه الوحيد، والذي يبعث بعدئذٍ قط. ولم يذكر لنا يوسف فلافي اسم هذا الاخ الذي لا يمثل اي اهمية في ارشيف الجرائم التوراتية. وما تجدرالأشارة إليه، ان يوحنا الاسكندر لم يصمد في السلطة إلاّ بفضل القلاقل التي اجتاحت آسيا آنئذٍ. لقد كان حكمه كهنوتيا ديمقراطياً ارستقراطياً في آن واحد. فوضى كاملة! ويروي يوسف فلافي ان الشعب

رمى يوحنا الاسكندر بالتفاح والبرتقال عندما اعلن نفسه حاكماً، فامر بقتل خمسة آلاف نسمة واضعاً بذلك بداية حقبة من التقتيل الجماعي استمرت عشر سنوات.

لمن أدّى اليهود الجزية في تلك الحقبة؟ لم يقرب فلافي هذه المسألة قط. إنه يفترض بأن اليهودية كانت حرّة ذات سيادة وقت ئذٍ. ومع ذلك فقد تنافس عليها ملوك مصر وسوريا الى ان جاء الرومان واحتلوا فلسطين.

بعد يوحنا تسلمت السلطة ارملته سالومة بصفتها وصية على العرش الى ان يبلغ ابنها سن الرشد. ولكن المرأة تركت شؤون الحكم للفريسيين واغمضت عينيها عن اضطهادهم الصدوقيين. ولما خلت الساحة بعد وفاتها، لتنافس الطائفتين، اندلعت في المملكة، التي لا يتجاوز امتدادها العشرين كيلوا متراً، حرب اهلية طاحنة. فتزعّم الفريسيين هركان الثاني، الابن الاكبر ليوحنا، ووقف على رأس الصدوقيين ابنه الاصغر اريستوفول الثاني. وهكذا قام في تلك المملكة ـ "المخترة" ملكان بدلاً من ملك واحد، والتقى الاخوان العدوان في معركة قرب اريحا. ولم يتجاوز عدد "الجيشين" المتقاتلين الثلاثة الى اربعة آلاف مقاتل. فهزم هركان وغدا اريستوفول الثاني سيّد الموقف.

في تلك الحقبة نقل الرومان سلاحهم المظفر الى آسيا الصغرى وسوريا والقفقاس، دون ان يأخذوا بحسابهم التحالف العسكري الذي يُزعم بانهم عقدوه مع المكابيين. وأُرغم السلوقيون على مغادرة المسرح. واستولى الملك الارمني تيغران حموميتر يدات، على قسم من الممتلكات السورية. ثم جاء بومبيوس واخضع تيغران ودفع ميتريدات الى الانتحار في عام ٦٤ ق.م، وجعل من سوريا مقاطعة رومانية. لكن كتب المكابيين لم تأت على ذكر

هذا الروماني العظيم، ولم تنطق بكلمة واحدة عن لوكولاّ أو سولاّ. وليس هذا غريباً على التورات!

وبعد هزيمته امام اخيه، لجأ هركان الى زعيم عربي يدعى أريتاس. وكانت اورشليم وقت ئذٍ قرية صغيرة جداً استطاع محاصرتها زعيم عصابة من البدو. في تلك الاثناء كان بومبيوس في سوريا السفلى، فطلب اريستوفول حماية احد قادة جيشه، وامر هذا الاخير البدو فكّ الحصار والامتناع مهاجمة الاملاك الرومانية، لأن فلسطين غدت من الاملاك المذكورة بعد ضم سوريا. اذن، هذا هو التحالف الوحيد الذي كان يمكن للرومان عقده مع اليهود. ويفيد يوسف فلافي بان اريستوفول ارسل هدايا ثمينة الى بومبيوس ليحظى بعطفه ورضاه. ويقول سترابون: ان الهدايا كانت عنباً ذهبياً، غير انه ينسبها الى يوحنا الاسكندر وليس الى اريستوفول. ومهما كانت حقيقة الامر، فقد جاء الخصمان، هركان واريستوفول، الى بومبيوس ليفصل بينهما في مسألة منصب رئيس الكهنة الذي كانا يتنازعان عليه. ولمّا همّ بومبيوس ليقول رأيه، اختفى اريستوفول. فهل رأى ابن يوحنا الاصغر ان عناقيد الذهب لن تؤثر على موقف القاضي فآثر للجوء الى اسوار اورشليم؟ فجاء بومبيوس وحاصر المدينة التي كانت تتمتع بموقع دفاعي ممتاز. وكان يمكن لها ان تتحوّل إلى افضل قلعة في الشرق لو وقعت بيد بنّاء ماهر. فالمعبد في اقلّ تقدير كان قلعة حقيقية تقوم فوق هضبة شاقولية مَحيطة بالمنحدرات الحادة. وقد ارغم هذا الوضع بومبيوس على صرف ثلاثة اشهر في بناء الآلات القتالية. وما ان انتهى من بنائها وشرع يستخدمها حتى سقطت القلعة بين يديه. ويبقى يوم سقوط اورشليم راسخاً في الذاكرة، لأنه كان في عهد قنصلية سيتسرون (عام ٦٣ ق.م.).

ويؤكد يوسف فلافي ان اثني عشر ألف يهودي قتلوا في المعبد. وكان بامكاننا ان نصدقه لولا علمنا المسبق الاكيد بان الرجل دائم الكذب في معطياته جميعها. كما لا نستطيع تصديق قوله بان الرومان وجدوا في المعبد ألفيّ تالانت من الذهب، وجمعوا عشرة آلاف اخرى من المدينة. فنحن نعرف ان معبد اورشليم سقط مرّات في ايدي الذين انتصروا على اليهود، وكانت تُنهب كنوزه في كل مرّة، الامر الذي يجعلنا نعتقد بانهم لم يحتفظوا بكميات كبيرة من الاشياء الثمينة فيه. وكان من العبث ايضاً فرض غرامة بعشرة آلاف تالانت من الذهب على تلك "المخترة" الفقيرة المنهكة.

ويبدو من غير المشكوك ان بومبيوس لم يأخذ لنفسه شيئاً من تلك الاموال، الامر الذي استحق عليه مديح سيتسرون. فحملة اورشليم لم تكن بالنسبة اليه سوى عملية مساعدة في حملته العامة على آسيا الصغرى. إلاّ ان رولين ("تاريخ روما" ك. ١٦) يقول: ان بومبيوس لم يستطع احراز اي نجاح منذ ان وطئت قدمه "قدس اقداس" المعبد اليهودي بدافع من الفضول قاده الى ارتكاب اثم كبير.

ولكن فولتير يعترض قائلاً: في غالب الظن ان بومبيوس لم يكن يعرف ان الدخول الى هناك محرّم. والتحريم لم يكن مفروضاً اصلاً إلاّ على اليهود، اي ان بومبيوس خارج الدائرة. ونحن نضيف، إن وجود "تابوت العهد" هو الذي جعل المكان مقدساً، ولكنه اختفى منذ حملة نبوخذ نصّر ولم يعثر له على أثر بعدها.

ويتابع فولتير قائلاً: كان قيصر سيدخل المعبد ايضاً بدافع من الفضول لرؤية مذبح الاله ربّ الجنود. لقد مني بومبيوس بهزيمة تاريخية امام قيصر

في معركة فارسال التي وقعت في السادس عشر من حزيران عام ٤٨ ق.م.، فهل خسر تلك المعركة بسبب فضوله الاورشليمي؟ ولكن من المعروف انه كانت لتلك الهزيمة اخرى لعبت الدور الرئيس بينها عبقرية قيصراً الحربية. ولكن، اثم قتل عشر الف انسان، كان اعظم من اثم الدخول الى ردهة طولها حوالي التسعة امتار.

لنعد الى اليهودية. فقد القى بومبيوس القبض على اريستوفول وارسله الى روما. وفي عام ٤٨ ق.م. امر القائد الروماني ممثله في سوريا بان يقتل الابن الاكبر لاريستوفول الذي اتخذ لنفسه اسم الاسكندر واعلنه نفسه ملكاً. وكان ذلك الحادث آخر دليل على التحالف "المتساوي" الطرفين الذي يزعم مؤلف كتاب المكابين الاول ان اليهود عقدوه مع روما.

اخيراً، ولكي نضع آخر لمسة في اللوحة ونبّين احترام الرومان لبني يعقوب، يكفي ان نقول ان مارك انتوني حكم في عام ٣٨ ق.م. على الملك اليهودي انتيغون بالاعدام، وقد اعدموه كايّ عبد عادي، فجلدوه بالسياط ثم علقوه على الصليب.

غير ان سينات روما منح الآدومي هيرودوس بن انتيباتور لقب ملك. وقد تزوّج هذا الملك مريانا ابنة هركان الثاني. وملك هيرودوس تحت حماية روما حوالي الاربعين عاماً وضع ابانها نير سلطة حديدية على رقاب ابناء جلدته.

وها نحن نسوق هنا عرضاً موجزاً لبعض كتب المكابيين، وهو العض الذي قدمه فولتير. فقد هذا الرجل يملك من الصبر ما يكفيه لدراسة النصوص التوراتية وتقديم خلاصات ونتائج بصدد اصالتها وصحتها:

" I. يجب رمي الرواية التي تفيد بان السلوقيين عذبوا المكابيين السبعة وامهم، وبان هؤلاء قضوا تحت التعذيب لانهم رفضوا ان يأكلوا لحم الخنزير. فكتاب المكابيين الاول لا يشير الى مثل وقوع هذه الواقعة مع ان عرض الاحداث فيه يتجاوز عهد انطيوخس ايبفان. اضف الى هذا، انه لم يكن لوالد المكابيين سوى خمسة اولاد تميزوا في الدفاع عن موطنهم. وعندما روى كتاب المكابيين الثاني حكاية تعذيب المكابيين (الفصل ٧)، لم يشر الى اسم المدينة التي وقعت فيها تلك الحادثة البربرية. وعلاوة على هذا يصعب علينا ان نصدق ان انطيوخس كان قادراً على ارتكاب ذلك العمل الوحشي الدنيىء العبثي. فقد نشأ هذا الرجل في روما وكان اهلاً للتربية التي تلقاها، لان سلوكه اتصف بالشجاعة وسعة الصدر. وعيبه الوحيد هو، افراطه في البساطة اثناء التعامل مع الناس، وهي السمة المعتادة للقادة الرومان الباحثين عن الشهرة في أوساط الشعب. ويُعدّ لقب "ايبفان" (اللامع، الماجد، الشهير) الذي استحقه هذا الحاكم، خير ردّ على التهم المهينة التي وجهها اليهود إليه.

لقد أُلحقت اورشليم بالاملاك السورية الواسعة، وقام اليهود ضد انطيوخس فتوجه لتأديبهم. وبما ان الدين كان الذريعة الازلية لجرائم اليهود ووحشيتهم، فقد ملّ انطيوخس تسامحه وامر بالاّ يكون ثمة دين آخر في مملكته كلها سوى الايمان بالآلهة السورية. ولذلك انتزع من العصاة دينهم واموالهم، اي انه انتهك حرمة اهم مقدسات الكهنة اليهود. ولم يتصرف انطيوخس هنا كما فعل في مصر التي اعاد لها ملكها نفسه، بعد ان استولى عليها وهو سلوك نبيل لم يتسم به إلا الاسكندر المقدوني. امّا الشدة الصارمة التي استخدمها ضد اليهود، فقد أرغم على إتيانها. لقد خضع له السامريون وقاومه الاورشليميون، فوقعت معركة دامية صنع فيها يهوذا المكابي واخوته عجائب خارقة، كما تؤكد التورات.

II. بدأ مؤلف كتاب المكابيين الاول كذبه بالتأكيد على ان الاسكندر المقدوني قسّم امبراطوريته بين قادة جيشه وهو على قيد الحياة. وهذا خطأ تاريخي صارخ لا يحتاج برهان، وهو يسمح لنا على اي حال ان نحكم على "علمية" المؤلف.

III. ان التفاصيل الواردة في كتاب المكابيين الاول باطلة كلها تقريباً. فمؤلفه، أو مؤلفوه، يؤكدون على ان يهوذا المكابي الهارب من وكر لآخر، فكّر في عقد تحالف مع الرومان لانهم قصّوا على مسامعه "وقائعهم وما ابدوا من الحماسة في قتال الغاليين، وانهم اخضعوهم وضربوا عليهم الجزية" (١ ، ٨ ، ٢). بيد ان الغاليين لم يكونوا قد خضعوا لروما بعد. ولم تخضعهم إلاّ في عهد لوسيوس كورنيلوس سيبيون.

IV. ثم يتابع المؤلف روايته فيقول: ان انطيوخس الثالث (حكم بين عامي ٢٢٣ ـ ١٨٣ ق.م.) الذي كان انطيوخس الرابع ابيغان (حكم بين عامي ١٧٥ ـ ١٦٣ ق.م.) ابنه، كان اسيراً عند الرومان. وهذا خطأ صارخ آخر، فقد انتصر لوسيوس كورنيلوس الآسيوي، على انطيوخس الثالث في عام ١٩٠ ق.م.، إلاّ ان هذا الاخير لم يقع اسيراً بل عقد اتفاق سلام مع روما ودفع غرامات حربية. ويدل هذا مرة اخرى، على ان المؤلف اليهودي كان جاهلاً تماماً بما يجري في العالم الخارجي، ولذلك اتحفنا بهذا اللغو السخيف عن احداث لا يعرف شيئاً عنها.

V. ثم يضيف المؤلف قائلاً: ان انطيوخس الثالث تنازل للرومان عن الهند وميديا وليديا (٨ ، ٨). انها في الواقع جرأة غير معهودة في التعامل مع الحقائق التاريخية. فلم يبق لهذا المؤلف الجاهل إلاّ الآن يتخلى للرومان عن الصين واليابان!

VI. ثم تدفعه رغبته الى الكشف عن علم بأمور روما الى القول: انهم ينتخبون الحاكم هناك كل عام، ولا يخضعون إلاّ له (٨ ، ١٦). اذن، لا يعرف صديقنا بان قنصلين كانا يحكمان في روما!

VII. وإذا صدقنا هذا الكتاب، فان يهوذا المكابي واخوته ارسلوا وفداً الى سينات روما، وان الوفد قال: "لقد ارسلنا يهوذا المكابي واخوته والشعب اليهودي كله اليكم لنعقد معكم تحالفاً وسلاماً". وهذا يعني كما لو ان احد قادة الاحزاب السياسية في سان ـ مارينو ارسل وفداً لتوقيع اتفاق صداقة مع تركيا. ولكن ردّ الرومان الذي ساقته التورات، ليس أقل غرابة. واذا كانت روما قد استقبلت وفداً ما من دولة قوية بعض القوة، ووقعت معاهدة ما مع اورشليم، فلا ريب في ان تيطوس ليفيوس وغيره من المؤرخين كانوا سيعلمون بها. بيد ان احداً لم يات على ذكر مثل ذلك "التحالف" سوى التورات.

VIII. وسرعان ما نقع في الفصل الثاني عشر من كتاب المكابيين الاول، على صفاقة اخرى تتمثل في ادعاء مؤلف هذا الكتاب عن وجود صلة نسب بين اليهود والاسبرطيين. يقول المؤلف: ان ملكاً لاكيد يمونياً ما يدعى آريوس كتب الى الكاهن اليهودي المدعو اونيا يقول: "وبعد، فقد وُجد في بعض الكتب ان الاسبرطيين واليهود اخوة من نسل ابراهيم. والآن، فان جوانبنااليكم: إن مواشيكم واملاككم هي لنا، وان مالنا هو لكم. هذا اوصينا ان تبلّغوه" (١٢ ، ٢٣).

غني عن القول، انه ينبغي عدم اتخاذ اي موقف جدي حيال مثل هذه الحماقات غير المسؤولة. ان هذا شبيه تمام الشبه بقصة ارليكون الذي قدّم نفسه كاهناً، ولمّا اتهمه القاضي بالكذب اجاب: "الحقيقة انني ظننت باني

كاهن!". ونحن لا نحتاج هنا الى برهان على أنه لم يكن للاسبرطيين اي ملك باس آريوس، بل ولم يكن عندهم اي صنف من اصناف الملوك قط، في زمن الكاهن الاكبر اونيا، ناهيك عن ان قلّه قليلة في اليونان وروما كانت قد سمعت بابراهيم.

IX. نصل الآن الى الحدث العجيبي الذي وقع لهليودوروس، وقد حدثنا عنه الفصل الثالث من كتاب المكابيين الثاني. يروى بان "سلوقس ، ملك آسيا" (سلوقس الرابع فيلوباتر) والاخ الاكبر لانطيوخس الرابع ايبفان وسلفه، قد علم من يهودي ما كان قيماً على المعبد، بان كنز اورشليم يحتوي اموالاً لا عدّ لها. وبما ان الملك كان بحاجة ماسة الى المال لينفق على حروبه، فقد ارسل احد ضباط جيشه، المدعو هليودوروس، ليأتيه بتلك الاموال. ولمّا جاء الضابط لتنفيذ المهمة اتفق مع الكاهن الاكبر على بعض الاجراءات ثم دخلا المعبد معاً ووقفا يستكملان الحديث، هبط من السماء جواد ضخم فوق صهوته فارس يبرق بالذهب. وطفق الجواد يرفس هليودوروس بطرفيه الامامين، ثم ظهر في الاثناء نفسها ملاكان وشرعا بجلده فاخذ اونيا يصلي الى يهوه من اجله، فتوقف الملاكان البديعان عن ضرب الرجل وقالا له: اشكر اونيا! فلولا صلواته لجلدناك حتى الموت. ثم اختفيا.

لقد اثارت هذه العجيبة دهشة النقّاد، اذ من المعروف ان شيشق ملك مصر، ونبوخذ نصّر، ونطيوخس ايبفان، وبطليموس سوتير، وبومبيوس العظيم، والامبراطور تيطوس استولى كل منهم بدوره عل كنوز معبد اليهود، ولم يُجلد ايّ منهم. والحقيقة ان احد الرهبان المقدسين شاهد الابالسة تحمل روح كارل مارتل الى جهنم في زورق وتجلدها بالسياط، لانه استولى على شيء من اموال القديس دينيس. بيد أنها احداث نادرة الوقوع!

X. اننا نتجاوز هنا كثرة من التباينات التأريخية، والاخطاء والاضافات والحماقات واللغو والخلط، التي تعج بها كتب المكابيين، وننتقل الى وصف وفاة انطيوخس كما نقله الفصل التاسع من كتاب المكابيين الثاني. فذلك الركام من الكذب والبله واللغو لا يثير في النفس إلاّ الاشمئزاز وحسب. فالمؤلف يؤكد ان انطيوخس جاء الى مدينة برسابوليس عازماً على نهب المدينة ومعبدها. ولكن من المعروف جيداً ان الاسكندر المقدوني كان قد هدم هذه المدينة. غير ان اليهود، الذين كانوا يعيشون بين الشعوب الاخرى متقوقعين على انفسهم لا يهتمون إلاّ بشؤونهم الخاصة ويكرهون كل ما هو غير يهودي، لم يعرفوا شيئاً عما كان يجري في الصين او الهند، وهذا امر طبيعي بالنسبة لشيعة مثلهم، ولكن هل كان بمقدورهم الاّ يعرفو ابان المدينة التي دعاها الاغريق برسابوليس ("مدينة الفرس") قد فارقت الحياة قبل مائة وستين عاماً من مجيىء انطيوخس الى الدنيا؟ لقد كان الاسم الحقيقي لهذه المدينة هو ايستاخار. ولو كان كاتب كتاب المكابيين الثاني من سكان اورشليم، اي لو كان آسيوياً، لما دعى عاصمة ملوك فارس بالاسم الذي اطلقته عليها المصادر الاغريقية وحدها. ومن هنا يستنتجون بان آخر كتب العهد القديم كتبها يهود هلنستيون من الاسكندرية.

وها هي قرينة اخرى تؤكد مثل هذا الشك. فقد جاء كتاب المكابيين الاول ان انطيوخس ايفان اراد ان يستولي على التروس الذهبية التي تركها الاسكندر الاكبر في مدينة ألمايس، وانه توفى "بكمد شديد في ارض غريبة" (٦ ، ١٣) عندما نما اليه ان المكابيين قاوموا جيوشه في اليهودية. امّا كتاب المكابيين الثاني فيروي لنا رواية مغايرة عن وفاة هذا الملك نفسه فيقول: انه سقط من المركبة وجرح جروحاً بليغة ادت الى وفاته، وان جسده كان يغلي بالدود، وتحت تأثير تلك الآلام شرع يرفع صلوات الى إله

اليهود طالباً مغفرته. ثم يتشفّى مؤلف هذه الكذبة البلهاء قائلاً: "وكان ذلك الفاجر يتضرّع الى الرب لكن الرب لم يكن ليرحمه" (٩ ، ١٣). ويضيف هذا الكاهن المنافق قائلاً: ان انطيوخس وعد يهوه بانه سيعتنق الدين اليهودي من فوره. ولكن هذا يماثل اعتناق كارل الاكبر قائد الحروب الصليبية لدين الاسلام.

وهاكم مشهداً آخر من كتاب المكابيين الثالث. تقع احداث الحكاية في مصر حيث حلّ غضب الملك بطليموس فيلو باتر على اليهود، وكانت لهؤلاء تجارة واسعة في مملكته، فامر باحصائهم، فكان عددهم حسب فيلون، مليون نسمة. وامر الملك ان يساق ذلك المليون الى ميدان الاسكندرية، ثم امر ان تسحقهم الفيلة. وفي الساعة التي حددت لمشاهدة العرض، ارسل يهوه الساهر على راحة شعبه، سباتاً عميقاً على الملك. ولمّا استيقظ بطليموس أرجأ العرض الى اليوم التالي، وفي اليوم التالي سلبه يهوه الذاكرة ولم يتذكر أيّ شيء. لكنه عاد في اليوم الثالث ليتذكّر كل شيء، فامر باعداد اليهود والفيلة. وسقوا الحيوانات خمراً ومراً، وكادت المسرحية ان تبدأ حينما انفتحت ابواب السماء على حين غرة وهبط منها ملاكان مجيدان مخيفان" (٦ ، ١٧)، فوجها الفيلة الى الجنود الذين كانوا يحرسون اليهود. وبالطبع رفس الفيلة الجنود وأُنقذ اليهود، اما الملك فقد اعتنق دين اليهود قبل ان يخطو من مكانه خطوة واحدة. لقد جاء كل شيء كما يفترض في الحكايات الصالحة المؤلّفة للمتدينين خاصة".

لقد كانت تلك خلاصة فولتير الموجزة. ونحن لا نرى ضرورة للدراسة الحماقات الخيالية الاخرى التي حملتها الينا كتب المكابيين "المقدسة".

* * *

مهمتنا انتهت. ولم يبقى لنا إلاّ ان نقول بعض الكلمات التي قد تثير دهشة انصار التفكير الحرّ من القرآء، إلاّ انها كلمات تحتوي على حقيقة صافية توصل اليها المؤلف خلال رصده الطويل لطباع المؤمنين ومعايير سلوكهم: مهما بلغ فقر التورات الى أيّ مغزى او معنى، فثمة كهنة، بل وكهنة اذكياء، يؤمنون ايماناً مطلقاً بصحة ما جاء فيها واصالته، ولم يرتبك ذهنهم في اي يوم حيال اي رواية من تلك الروايات الخرافية التي يتألف منها "الكتاب المقدس". فهؤلاء الناس الذين بلغت سذاجتهم حداً يثير الدهشة، يؤمنون ايماناً اعمى بان الحوت ازدرد يونان، وهم على اتم استعداد ليؤمنوا بان يوثان هو الذي ابتلع الحوت فيما لو لقّن "الروح القدس" هذه الكلمات الغبية لايّ نبي.

هذه هي ثمرة عمل استمر قروناً لُقّن الناس خلالها ضرورة الخضوع المطلق "لكلمة الله"! وتلك هي قوة الايمان الساذج التي يقبلها كثيرون، ويقبلون معها اكثر تعاليم الشخصيات الدينية خرافية واثارة للسخرية!

التعليقات

الفصل الأول

١ ـ تسمّى كتب التورات الخمسة الاولى أو الكتب الخمسة، وهي: التكوين، الخروج، اللاويون والتثنية، وينسب التقليد اليهودي والمسيحي هذه الكتب الى موسى؛ وهذا الأخير ليس سوى شخصية خرافية خلقها أحبار الدين اليهودي. ويضم كتاب التكوين مجموعة اساطير خلق العالم والمواثيق المعقودة بين يهوه واليهود، ثم مخالفة هؤلاء للمواثيق والقصاص الذي انزله بهم ربّهم (الطوفان، ابادة سدوم وعمورة وما شابه). اما سفر الخروج فيعرض لنا قصة وقوع اليهود عبيداً عند فرعون مصر، وظهور الاله اليهودي لموسى ومساعدته له على انقاذ شعبه" من العبودية، وتسليم التورات، أي الشرائع، لموسى؛ بما فيها الوصايا العشر الشهيرة. وسفر اللاويين هو تعليمات بالتفصيل الممل، عن اصول العبادة وقوانين تقديم القرابين. ويمثّل سفر العدد وصفاً لترحال اليهود القدماء في الصحراء، اما سفر التثنية فهو موجز لمواد الكتب الاربعة الاولى؛ وتحظى تعليمات موسى وخطبه بمكانة هامة في هذا السفر الاخير.

ويؤكد اللاهوتيون اليهود والمسيحيون، على ان الكتب الخمسة هي مؤلَّف واحد متكامل وضعه موسى بتلقين مباشر من فم يهوه اليهودي. امّا حقيقة الامر فهي. ان مادة هذه الكتب واسعة جداً، وقد نشأت وصيغت على امتداد قرون كثيرة. وكان الفرنسي استريوك (١٦٨٤ ـ ١٧٦٠)، أوّل من لفت الانتباه الى ان القصة التوراتية تأتي على

لسان إله يدعى ألوآه (جمعها ألوهيم) احياناً، ويهوه في احيان اخرى. وترجمة كلمة "ألوهيم" عادة هي، كلمة "الله"، بينما تترجم كلمة "يهوه" الى كلمة "الرب". ونتيجة لهذا التباين، توصل النقد العلمي للتورات الى خلاصة مؤداها، ان الكتب الخمسة وُضعت استناداً الى مصادر اكثر قدماً اطلق عليها اصطلاحاً، اسما اليهوي الالوهي. واضافة الى اليهوي والالوهي تستمد الكتب الخمسة مادتها ايضاً من مصدرين رئيسين آخرين هما: التثنية والقانون الكهنوتي. ويعتبر العنصر اليهوي العنصر الاقدم في هذه التركيبة، اذ يبد انه يعود الى القرنين ١٠ ـ ٩ ق.م. وهو يعكس واقع القبائل اليهودية القديمة واعرافها وتقاليدها في صيغة دينية. وكانت هذه القبائل قد استوطنت جنوبي فلسطين. أمام العنصر الألوهي فقد قام في القرنين ٩ ـ ٨ ق.م كثمرة للايديولوجيا الدينية عند القبائل اليهودية القديمة التي انتشرت في شمالي فلسطين. اما سفر التثنية فقد كتبه كهنة معبد اوشليم في القرن السابع قبل الميلاد (حوالي عام ٦٢١)، وقد عكس سعي السلطة الملكية لاقامة عبادة ذات مركز واحد. ومنذ القرن السادس قبل الميلاد، اخذ يتشكل القانون الكهنوتي، واعيد تجديده في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد. ويحتوي هذا القانون على اصول تقديم القرابين والنظافة الطقوسية، واقامة الخدمة، وتنظيم المؤسسة الكهنوتية. كما انعكست فيه مصالح الكهنة الطامحين للعب دور الريادة في الدولة اليهودية العبودية التي كانت قد نشأت في تلك الاثناء. وفي عام ٤٤٤ ق.م، اعيد النظر في الكتب الخمسة لأول مرة.

٢ ـ يتجاور في التورات كثير من الآلهة، ولكن يهوه يلعب الدور الرئيسي فيما بينها. وقد حرّم اللاهوتيون اليهود النطق باسم يهوه، تحت طائلة فقدان الاقطاعة المستقلة "في الحياة الثانية". ولذلك استبدلوه بلقب ادوناي (الرب، ربي، ربّ الجنود).

٣ ـ "توغو بوغو"، تعبير يهودي قديم معناه الحرفي: خالٍ وخرب. والحديث هنا عن الحال الاولى للارض.

٤ ـ "وروح الله يرفّ على وجه المياه": لقد استخدم بعض اللاهوتيون المسيحيين هذه الكلمات اساساً لعقيدة غبية عن الثالوث المقدس. حسب هذه العقيدة، ان الله واحد في ثلاثة اقانيم هي: الله الاب، الله الابن، الله الروح القدس.

٥ ـ اضافة الى المصدرين اليهوي والألوهي، استندت قصة الخلق التوراتية الى ميثولوجيا سومر وبابل وغيرها من مثيولوجيات شعوب الشرق الادنى القديم الاخرى. إلاّ مؤلفيّ التورات اساؤوا تحرير تلك المصادر وتنسيقها ومعالجتها؛ وهو الامر الذي ساقهم الى تناقضات وتكرار نقع عليها في التورات.

٦ ـ في القرون الميلادية ٢ ـ ٥ كان اللاهوتيون اليهود والمسيحيون يؤكدون على، ان السماء عبارة عن يبس صلد عظيم الاتساع. وقد وعظنا مؤلفو التلمود (وهو مؤلّف من عدد كبير من المجلدات التي تحتوي على التعاليم اليهودية العقيدية، والتشريعية، والدينية، والفلسفية، والاخلاقية، والمعيشية التي قامت إبّان القرون ٣ق.م و٥ق.م) برؤية بلهاء تتحدث عن وجود سبع سموات؛ احداها مكمن الثلج والضباب والمطر والبرد؛ والثانية منزل الملائكة، والثالثة حوض الشمس، والرابعة حجاب يُسدل ويُرفع فوق الشمس و.... أما أباء الكنيسة المسيحية فقد علّموا، ان السماء عبارة عن يبس "يفصل المياه العليا عن المياه الدنيا"، وأن السماء قلعة مدهشة يقيم الله فيها.

٧ ـ ليس ليوتاكسيل محقاً في زعمه بان ديكارت أقرّ الضلال الذي مؤداه ان "الشمس لا تعطي النور". ففي بحثه الذي يحمل عنوان "محاكمات بصدد المنهج"، كتب ديكارت يقول: "لقد عزمت ان ادرج فيه (اي في البحث)، كل ما عرفته قبل كتابته، عن طبيعة الاشياء المادية... وقررت ان اعرض ما يخصّ الضوء فقط، ثم اضيف في هذا السياق شيئاً ما عن الشمس والكواكب الثابتة التي ينبعث الضوء منها بصورة رئيسة...".

٨ ـ لقد جاءتنا التورات باسطورتين عن خلق الانسان، تقول الاولى منهما (تكوين ١ ، ٢٧)، ان ألوهيم خلق الرجل والمرأة معاً من لا شيء، وعلى صورته؛ أمّا الاسطورة الثانية فتقول: إن الاله يهوه خلق الرجل (آدم) "من تراب الارض" (تكوين ٢ ، ٧).

٩ ـ حسب "قاموس كتب العهد القديم" الذي وضعه او. شتينبرغ، ان المقل هو لبان شجري طيّب الرائحة.

١٠ ـ يوضّح مؤلّف سفر التكوين (٢ ، ٧) قائلاً: لقد دعي الانسان آدم لأنه "جبل من تراب الارض" (الارض معناها بالعبرية "آداما"). ويكتب تاكسيل "الارض الحمراء" لأن كلمة أدوم بالعبرية تعني "احمر".

١١ ـ المقصود هنا ما جاء في سفر التكوين (٢ ، ١٩): "وجبل الرب الاله من الارض جميع الحيوانات البرية، وجميع طير السماء وأتى بها آدم ليرى ماذا يسميها".

١٢ ـ سوليتير، كلمة فرنسية تعني "الفريد"، "المتفرّد".

الفصل الثاني

١ ـ يوليان الفيلسوف. هو يوليان فلاڤيوس كلاوديوس (٣٣١ ـ ٣٦٣)، امبراطور روما (منذ عام ٣٦١)، من انصار الادب والفلسفة القديمين، اشتهر بمحاولته تجديد العبادات الوثنية التي كانت قد هلكت في ذلك الوقت، ولذلك وصف بالمسيحي "المرتد". كتب بحثاً في ثلاثة مجلدات عنوانه "ضد المسيحيين"، وقد انتقد فيه التورات والكتب "المقدسة" الاخرى انتقاداً منطقياً. ولكن الكنيسة المسيحية اتلفت البحث المذكور ولم يبق منه سوى مقاطع.

٢ ـ أزموداس. هو الاسم الذي اطلقته على رئيس الشياطين، الكتب والمؤلفات الدينية اليهودية والمسيحية المبكرة التي لم تدرج في التورات والتلمود. وجاء ذكر اسم ازمود لأول مّرة في كتاب طوبيت التوراتي، فقد وقع هذا الكائن الخرافي في غرام سارة ابنة رعوئيل ومنعها من الزواج.

٣ ـ لوسيفير (معناها الحرفي "حامل النور"). هو لقب شائع لكثير من الآلهة التي تتولى شؤون نجوم سماوية. وغدا في القرون الوسطى اسماً من اسماء الشيطان.

٤ ـ أي، حواء.

٥ ـ لقد كانت القبائل الافريقية تسجد للافعى. فزنوج إبستابو اعتبروا الكوبرا ـ كابيلا إلههم الحامي. ونسبوا لهذا الإله القدرة على فعل الخير والشر، ومنح الثروة او الافقار، وانزال الامراض والموت. وقد كتب الاثنوغرافي الانكليزي د. فريزر يقول:

"إن سكان سينيغامبيا يعتقدون بان هذه الزاحفة تأتي خلال الايام الثمانية الأولى لولادة الطفل في عشيرة بيتون، لتراه وتستمتع بالنظر إليه.

٦ ـ لقد اتفق الفرنسيون على تسمية اعضاء اكاديمية باريس بالخالدين.

٧ ـ البطاركة التوراتيون هم: ابراهيم، اسحق ويعقوب. أما نوح فقد كان حسب التورات، "انساناً صالحاً كاملاً في أجياله" (تكوين ٦ ٩).

٨ ـ يبدو ان ليوتاكسيل يقصد هنا، الشاعر والفيلسوف الاغريقي القديم كسينوفان (القرنان ٦ ـ ٥ ق.م)، الذي انتقد علناً التصور الانثروبومورفي للإله.

٩ ـ ترسم الميثولوجيا اليهودية القديمة الكيروبيم في صورة كائن له اربعة وجوه، واربعة اجنحة تحتها اربع ايدي بشرية، واربع عجلات. ويمثل الكيروبيم التعقل والطاعة، والقوة والسرعة. وقد جاء في التورات، ان يهوه يمتطي الكيروبيم (ملوك أو ٤ ، ٤ ، مزمور ٧٩ ، ٢)، وان الكيروبيمات تحرس الجنة (تكوين ٣ ، ٢٤)، وتحمل مركبات يهوه في الغيوم (حزقيال ١ ، ١٠)، ولا يزال اشتقاق كلمة "كيروب" غير معروف وفي وقت ما اشتقوها من الكلمة الآرامية "كاراب" التي معناها "يحرث، لكنهم يرون الآن انها اشتقت من الكلمة الاشورية kARRIBU ومعناها "المبارك".

الفصل الثالث:

١ ـ ليليت، شيطان أنثى، يفسّ التلمود نشوء الشياطين باسطورة خلق الانسان الأول. ويعلّم اللاهوتيون، ان آدم لم يكن راغب في ان تلد له حواء اطفالاً، لأنه رأى مسبقاً فناء اولادها. فاحاطت بحواء الوحيدة المنبوذة، ارواح ذكرية شريرة زرعت بذورها في رحمها، فحملت وانجبت عدداً كبيراً من الشياطين الاناث، ولما رأى آدم ان حواء تخونه مع الشياطين، التفت هو يخونها مع الشيطانة ليليت التي انجبت منه جيشاً كاملاً من الشياطين الذكور. لقد عكست هذه الخرافات والاساطير أقدم التصورات الدينية عن الارواح الشريرة والارواح الطيبة التي حظيت بانتشار واسع عند شعوب الشرق الادنى القديم. ثم استخدمتها الديانات الاخرى كلها لتجهيل الناس.

٢ ـ يعطي اللاهوتيون اليهود والمسيحيون، معنى مجازياً للقصة التوراتية عن قرباني الاخوين. فيقول امبروسيوس (حوالي ٣٤٠ ـ ٣٩٧م): إن هابيل رمز للصالحين من البشر، وقايين مثال للاشرار منهم. وقسم القديس اوغسطين البشر الى فئتين: سماوية يمثلها هابيل، وارضية يمثلها قايين؛ ويرى يوحنا فم الذهب (بين ٣٤٤ و٣٥٤ ـ ٤٠٧) في هابيل، الصورة الاصلية ليسوع المسيح، لانه راعي خراف قدم ضأناً ذبيحة ومات مقتولاً بيد أخيه و...

الفصل الرابع

١ ـ "القديس" هيرونيم (٣٣١ ـ ٤٢٠). ترجم التورات الى اللغة اللاتينية، ودعا الى التعصب الديني وعدم التسامح مع "الهراطقة".

٢ ـ كتاب اخنوخ. احد الكتب الدينية غير المعترف بها والتي ظهرت في القرن الثاني قبل الميلاد وصلتنا منه مقاطع باللغة اليونانية. في ١٧٧٣م، اكتشف الرحالة الانكليزي ج.بريوس (١٧٧٠ ـ ١٧٩٤) النص الكامل لهذا الكتاب في اثيوبيا مدوّناً باللغة الاثيوبية. وامتلك بريوس منه ثلاث نسخ، قدم واحدة الى المكتبة الفرنسية الملكية، والثانية الى مكتبة اوكسفورد، ولدينا الآن مقاطع من كتاب اخنوخ باللغة اليهودية القديمة، وكانت قد اكتشفت بين مخطوطات قمران.

٣ ـ هينميدس. هو ابن ملك طراودة الذي كان كان خارق الحسن، فاختطفته الآلهة الى السماء، حيث غدا فيها ساقي جوبتر.

٤ ـ يتألف كتاب اخنوخ من ١٠٨ فصول.

الفصل الخامس.

١ ـ ليست قصة الطوفان التوراتية قصة اصيلة، فقد اخذت عن ملحمة جلجامش البابلية التي كانت قد قامت بدورها على اساس اسطورة زيوسودرا السومرية، وزيوسودرا هذا هو، اصل شخصية نوح التوراتي.

٢ ـ لقد حدد ليوتاكسيل المدة التي استغرقها بناء الفلك بمائة عام، وقد استند في قراره هذا إلى مقارنة معطيات الاصحاح الخامس من سفر التكوين حيث يقول النص: إن نوحاً كان في الخمس مائة من عمره عندما قرر يهوه ابادة الكائنات الحية كلها؛ مع معطيات الاصحاح السابع من السفر نفسه، حيث يقول النص: إن نوحاً كان في الست مائة من عمره عندما انفجرت ينابيع السماء وانفتحت طاقاتها كلها، ولكن التورات لا تسجل ايّ اشارة صريحة الى الزمن الذي استغرقه بناء الفلك.

٣ ـ حسب قاموس او. شنينبرغ، ان شجرة الجفر هي نفسها شجرة السرو ووفق فرضية اخرى ان الجفر هو شجر التين.

٤ ـ في الاصحاح السادس من سفر التكوين، ان يهوه أمر نوحاً بان يحمل معه في الفلك زوجاً من كل جسد حيّ؛ ولكن الاصحاح السابع من السفر نفسه يقول: إن نوحاً تلقى امراً بان يحمل معه سبعة ازواج من كل حيوان "طاهر"، وزوجاً من "البهائم التي ليست طاهرة".

والحقيقة ان لبّ المسألة لا يكمن في اختلاف عدد الحيوانات أو نوعها، بل في جهل مؤلف التورات التام بالعدد الحقيقي لانواع الحيوانات الموجودة فوق سطح الارض، اذ يبلغ هذا العدد حوالي المليون ونصف المليون نوع، فكيف اتسع لها قارب ابعاده ١٥٠ ، ٢٥ و١٥م؟ اذاً، لم يبق للاهوتيين المعاصرين إلاّ ان يعترفوا بان قصة نوح مجرد خرافة.

٥ ـ يؤكد قوس قزح، الذي كان وجوده ضرورياً ليذكّر يهوه بعهده، على صحة الاستنتاج القائل بإن تصوّر اليهود القدماء وغيرهم من الشعوب القديمة، عن الآلهة، كان تصوّراً انثروبومورفياً.

الفصل السادس

١ ـ باخوس، إله الخصب، حامي الكرمة وصناعة الخمر، وهو عند الاغريق ابن زيوس وسيميلي.

٢ ـ ديقكالون، ابن بروميثيوس وكليمينتي، ملك مدينة ثيتي. عندما قرر زيوس ابادة الجنس البشري بالطوفان، صنع ديقكالون فلكاً، وقد اشار عليه بذلك بروميثيوس، فانقذ به نفسه وزوجته بيرّا فقط.

٣ ـ هسيود، شاعر اغريقي قديم (القرنان ٨ ـ ٧ ق.م). صاحب ملحمتي "الاعمال والايام" و"ثيوغونيا". هوميروس، شاعر اغريقي خرافي قديم نسبوا إليه تأليف "الالياذة" و "الاديسا". حِددت المصادر الاغريقية حياته بشكل متباين: من القرن ١٢ إلى القرن ٧ ق.م.

الفصل السابع

١ ـ ان سلسلة النسب التي يسوقها سفر التكوين (نوح، ابراهيم...): هي تعداد شبه دقيق للقبائل البدوية التي كانت موجودة وقتئذٍ.

وقد تحددت درجة قرابتها على اساس تقارب لهجاتها، اذاً، ابراهيم ليس سوى تجسيد مثيولوجي لواحدة من القبائل التي حلّت في ارض كنعان آتية من بلاد الرافدين.

٢ ـ ألفونس. بطل كوميديا الكسندر دوماس الابن، التي تحمل عنواناً هو "مسيو ألغونس"، وهو الرجل الذي يعيش على نفقة عشيقاته.

٣ ـ اسماعيل. ابن ابراهيم وهاجر. الجدّ الخرافي لاثنتي عشرة قبيلة بدوية. وقد عدّه القرآن جدّ العرب والاتراك.

٤ ـ الختان. طقس ديني سحري انتشر انتشاراً واسعاً عند الشعوب السامية. وكان هذا الطقس قد نشأ منذ القدم، وترافق عند القبائل البدائية بفعل انتقال الفتيان الى فئة الرجال وقد فسّره الكهنة في المجتمع العبودي على انه تعبير عن "آية العهد" اي الانتساب الى دين يهوه.

٥ ـ الاسكندر المقدوني (٣٥٦ ـ ٣٢٣ ق.م). قائد عسكري اغريقي عظيم، اسس امبراطورية مترامية الأطراف امتدت حدودها، من نهر الهند في الشرق، الى ايستر (نهر الدون) في الغرب.

٦ ـ في القرن الميلادي السادس قرر المجمع المسكوني اللاوديكي الغاء الاحتفال بيوم السبت كيوم راحة، وأرغم المؤمنون على العمل في هذا اليوم، تحت طائلة مصادرة املاكهم وطردهم من الكنيسة.

٧ ـ "القديس" كيريليوس (٣٧٦ ـ ٤٤٤). هو اسقف الاسكندرية (من عام ٤١٢) وواحد من أباء الكنيسة.

٨ ـ المقصود، تعليمات موسى بصدد طقس الختان.

٩ ـ بيلون. إلهة الحرب عند الايطاليين، وزوجة مارس، وهي إلهة القمر في آسيا الصغرى وبونت وفراقيا، وقد سمّي كهنتها. بيلوناري، وكانوا يرتدون ملابس سوداء وجبباً سوداء ويحملون فأساً مزدوجة، رمزاً لهم.

١٠ ـ كبيلا. إلهة فراقية، ام الآلهة. انتشرت عبادتها في آسيا الصغرى، وكان كهنتها يخصون انفسهم.

١١ ـ اوزيريس. إله مصري قديم. تقول الاسطورة إنه ابن إله الارض جب وإلهة السماء نوت. خوه الإله الشرير ست، الذي قتله، ولكن اخته إيزيس زوجة اوزيريس، عثرت على جثته وبعثت الحياة فيها من جديد. واسطورته هي، اسطورة الاله الذي يموت ثم يبعث، وهي تمثل موت الطبيعة وانبعاثها من جديد.

الفصل الثامن.

١ ـ فيليمون وبافكيدا. زوج وزوجة من فريجيا، استقبلا زيوس وهرمس في كهفهما، وكان هذان قد جاءا إليهما عابريّ سبيل. ولما امر زيوس بابادة سكان فريجيا غرقاً، لم يرحم سوى هذا الزوج وزوجته.

٢ ـ يوسف فلاقي (عام ٣٧ م ـ بعد عام ١٠٠). مؤرخ يهودي، مؤلّف كتابيّ "الحرب اليهودية" و"العاديات اليهودية".

٣ ـ "القديس" هيرينيه (القرنان ٢ ـ ٣م). اسقف لوغودونا (ليون)، كاتب مسيحي، ألّف كتباً ضد "الهراطقة".

٤ ـ ترتوليان كوينت (حوالي عام ١٦٠م، بعد عام ٢٢٠). لاهوتي مسيحي مبكر، من انصار التقشف الصارم، رفض ان يكون للمعرفة العلمية اي اهمية بالنسبة للعالم.

٥ ـ بومبي (١٠٦ ـ ٤٨ ق.م). قائد عسكري روماني. تيطوس فلاقيوس فسبسيان (٣٩ ـ ١٨ ق.م). امبراطور روماني. ادريان بوبليوس إيلوس (٧٦ ـ ١٣٨م). امبراطور روماني.

٦ـ سترابون (حوالي ٦٠ ق.م ـ حوالي ٢٠م). جغرافي اغريقي.

٧ ـ قدمت لنا الاساطير الاغريقية ادونيس ابناً للحسناء ميّرا، التي حولتها الآلهة الى شجرة كونية تعطي لباناً فواحاً هو، المرّ.

الفصل التاسع

١ ـ تدل قصتنا التورات عن تقديم اسحق وابنة يفتاح قرباناً، على ان العرف القديم، التضحية بالابكار للآلهة، كان قائماً عند اليهود كما عند غيرهم من شعوب بلاد الرافدين وسوريا وكنعان.

الفصل الحادي عشر

١ ـ فيلون الاسكندري (عام ٢١ أو ٢٨ ق.م ـ ٤١ أو ٤٩ ق.م). فيلسوف في العصر الاغريقي ـ الروماني ـ ممثل الفلسفة اليهودية الاغريقية.

الفصل الثاني عشر

١ ـ لقد وضعت قصة يوسف استناداً إلى مصدرين: ألوهي ويهوي. يقول المصدر اليهوي، إن يهوذا هو الذي دافع عن يوسف ومنع اخوته من قتله، فاكتفوا ببيعه الى الاسماعيليين. أما المصدر الألوهي فيقول ان رأوبيم هو الذي دافع عن يوسف، فالقوه في البئر ثم اخذه منه وباعوه الى المديانيين.

٢ ـ تظهر في قصة يوسف اسماء مصرية نموذجية مثل: صفنات فعنيخ، ومعناه "الله يقول: فليحي"؛ فوطيفار ومعناه "ذلك الذي اعطاه رع"؛ اسنات ومعناه "التابعة لنيت".

٣ ـ " القديس " انطونيوس. هو حسب تعاليم الكنيسة الكاثولوكية، يدير شؤون العلاقات بين الجنسين ويساعد على التخلّص من "العقم".

الفصل الثالث عشر

١ ـ حسب المصدر اليهودي أن "بني اسرائيل" كانوا رعاة، وقد جاؤوا إلى مصر بناء على نصيحة يوسف، وسكنوا أرض جاسان بإذن من فرعون (تكوين ٤٦ ، ٣١ - ٣٤). أما المصدر الألوهي فيقول، إن "بني اسرائيل كانوا فلاحين، ولما جاؤوا إلى مصر سكنوا رمسيس (تكوين ٤٧ ، ١١).

الفصل الخامس عشر

١ ـ حسب التقويم اليهودي، أن "خلق العالم" حدث عام ٣٧٦٠ ق.م، ووقع الطوفان في عام ٢١٠٤ ق.م.

٢ ـ ليس من العسير الوقوع على أصول هذه الأسطورة، إذا ما قورنت بأسطورة ولادة الملك البابلي سرغون (حوالي عام ٢٣٧٠ ق.م).

٣ ـ يعود أصل الأسطورة التوراتية عن تحويل الماء إلى دم (خروج ٧ ، ١٧)، إلى الأسطورة السومرية "إينانا وشوكالليتودا"، حيث يجري الحديث عن الإلهة التي أرادت أن تنتقم من الانسان الذي أذلها، فحوّلت مياه البلاد كلها إلى دماء.

الفصل السابع عشر

١ ـ هرون (هارون). شخصية خرافية أدخلها مؤلفو "القانون الكهنوتي" موضوع الكتب الخمسة. وسعياً منهم لوضعه في مكانه مرموقة، جعلوه أخاً لموسى ووسيطاً بينه

وبين الشعب. أما عبادة العجل فقد اقتبسها اليهود عن المصريين الذين عبدوا الثور أبيس.

الفصل التاسع عشر

١ ـ ثمة رؤية في الدراسات التوراتية تفيد بأن عبادة الأفعى ترتبط عند اليهود القدماء بطوطم قبيلة الملك داود.

الفصل العشرون

١ ـ لقد أثبت النقد العلمي للتورات، بأن سفر التثنية يقوم على أساس كتاب القانون الذي وضعه كهنة معبد أورشليم واكتشفه حسب الملوك الرابع (٢٢،٨)، رئيس الكهنة حلقيا، عام ٦٢١ ق.م.

٢ ـ "القديس" يوستين (القرن الثاني). لاهوتي مسيحي، فيلسوف.

الفصل الحادي والعشرون

١ ـ يشوع بن نون ـ شخصية ميثولوجية يرى بعض دارسي التورات أنها تجسد إله النبات عند الكنعانيين الشماليين.

٢ ـ آشور. احدى بلاد الشرق القديم. شغلت مساحة صغيرة في وادي دجلة؛ مساحة أراضيها المزروعة لم تتجاوز ١٢،٠٠٠ كم^2

٣ ـ رحاب. بغي كانت تعيش ـ حسب التورات ـ في أريحا.

٤ ـ أوغسطين كالميت (١٦٧٢ ـ ١٧٥٧). لاهوتي. شرح التورات. عاش في باريس.

٥ ـ فريره نيقولا (١٦٨٨ ـ ١٧٤٩). فيلسوف فرنسي مادي.

٦ ـ بولينغبروك هنري سانت جورج (١٦٧٨ ـ ١٧٥١) سياسي وفيلسوف

انكليزي. وقف ضد أُلوهية التورات وتاريخية يسوع المسيح. سخر من الأساطير التوراتية.

الفصل الثاني والعشرون

١ ـ وولستون توماس (١٦٦٩ ـ ١٧٣٣). كاتب ولاهوتي انكليزي. سخر من الحكايات التوراتية عن العجائب. رمي به في السجن ومات تحت التعذيب.

٢ ـ يقول سفر العدد (٣١): ان موسى هو الذي أباد المديانيين.

الفصل الثلاثون

١ ـ بولانجه نيقولا انطوان (١٧٢٢ ـ ١٧٥٩). عالم وفيلسوف فرنسي. كان قريباً من المنوّرين الفرنسيين في القرن الثامن عشر.

الفصل الحادي والثلاثون

١ ـ الأوريم والتوميم: شارتا النبوأة اللتين كان يحملهما رئيس كهنة معبد أورشليم على صدره، وهما من الحجارة الكريمة. وقد استخدمتا في رمي القرعة لمعرفة ارادة يهوه، لأنهم عدّوهما كاهن يهوه. كان الكاهن يسأل يهوه، "فتجيبه" الأوريم والتوريم.

٢ ـ أوريعين (حوالي ١٨٥ ـ ٢٥٣ أو ٢٥٤). فيلسون ولاهوتي اغريقي ـ روماني. حاول أن يستخدم الفلسفة القديمة لتعليل المسيحية.

الفصل الثالث والثلاثون:

١ ـ هيوي بيير دانيل (١٦٣٠ ـ ١٧٢١). أسقف كاثوليكي فرنسي، كاتب ومؤرخ فلسفي.

٢ ـ أرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م). فيلسوف وعالم اغريقي قديم.

٣ ـ الشيكل. جزء من ثلاثة آلاف من التالانت. أي ١٢ غ.

الفصل الرابع والثلاثون

١ ـ حسب كتاب العدد (١ ، ٢٦) أن موسى أحصى اليهود مرتين.

٢ ـ كان اليهود القدماء يعتقدون بأن احصاء الناس يستنزل عقاب الاله في وباء. وتقول التورات: إن داود ابتلى الشعب بهذه البلية عندما أمر باحصاء عدد السكان.

٣ ـ يبدأ نسب يسوع المسيح عند متّى الانجيلي من داود، سليمان رحبعام، أبيا، آسا...، وعند لوقا من داود، ناثان متثيا،ماينان، ميلايا...

الفصل التاسع والثلاثون.

١ ـ كانت حكاية إحياء أليسع الطفل الميت هي، الأساس الذي نشأت عنه حكايات الانجيل عن عجائب احياء الموتى التي صنعها يسوع المسيح.

الفصل الأربعون.

١ ـ لم يدخل سفرا يهوديت وطوبيت في التورات القانونية اليهودية.

الفصل الثاني والأربعون

١ ـ يعكس كتاب دانيال الأحداث المرتبطة بتعسف سلطات ايفان الرابع السلوقي في اليهودية (١٧٥ ـ ١٦٤ ق.م)، ولكن في صيغة صوفية مبهمة. وقد نقل المؤلف الأحداث المذكورة الى القرن السادس قبل الميلاد، بالتحديد إلى سنوات ماسميّ بالسبي البابلي.

٢ ـ يحتوي كتاب دانيال على اثني عشر فصلاً فقط. أما الفصلين الثالث عشر والرابع عشر فلا وجود لهما في القانون اليهودي.

الفصل الرابع والأربعون

١ ـ يرى دارسو كتاب أيوب أن هذا الكتاب وُضع في القرنين ٤ ـ ٣ ق.م، عند

وقعت فلسطين تحت تأثير الثقافة والفلسفة الهلنسنيتين. فمحاكمات أيوب عن الحياة والمعاناة، والمسؤولية والبراءة، موجهة ضد العقيدة الدينية التي تقول بأن الطيبة الالهية مطلقة. فالله في رأي أيوب يحامي عن الشر ويجعل المحكمة تعسفاً. وليس البرهان على أن الله ليس عادلاً، وليس هذا وحسب بل ويحمي الأعمال اللا شرعية، نقول، ليس هذا سوى دليل ساطع على شك مؤلف كتاب ايوب في صحة الايديولوجيا الدينية الداعية إلى الطاعة والاذعان.

٢ ـ أريون. شاعر وموسيقي اغريقي قديم (القرنان ٧ ـ ٦ ق.م). تقول الاسطورة: بينما كان أريون مبحراً على متن السفينة، قرر البحارة قتله ونهبه. فغنى أغنية ورمى بنفسه إلى البحر. فحمله دلفين الى اليابسة لأن الأغنية أعجبته كثيراً.

الفصل الخامس والأربعون

١ ـ لم تدخل كتب المكابيين الثلاثة، وكتاب عزرا الثالث، العهد القديم اليهودي القانوني.

٢ ـ بدأت الانتفاضة عام ١٦٥ ق.م.

٣ ـ يقول كتاب المكابيين الأول (٦ ، ٤٦): أن اليعازر قتل الفيل، فسقط هذا الأخير عليه وقتله.

محتويات الكتاب